فقه السيرة

أ. د. زيد بن عبد الكريم الزَّيد

المجلد الأول

٥٢
آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA

فقه السيرة

فِقهُ السِّيرَة

أ.د. زيد بن عبد الكريم الزَّيد

أستاذ الفقه المقارن

عميد المعهد العالي للقضاء بالرياض سابقًا

المجلد الأول

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزيد، زيد بن عبد الكريم

فقه السيرة./ زيد بن عبد الكريم الزيد - الرياض، ١٤٤٤هـ.

٧٠٠ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٢-٧-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

١ - السيرة النبوية

أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٤٤/٨٧٦

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٨٧٦

ردمك: ٢-٧-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة عشرة للكتاب

الطبعة الأولى لـ (آفاق المعرفة)

(مزيدة ومنقحة)

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب ليس للمتعة، إنما اجتهدت فيه لأمرين:

الأول: لعل القلب يتقوّىٰ في محبة المصطفىٰ ﷺ، وهذا محور الكتاب كله.

الثاني: لعل السلوك يترقىٰ بالتأسي بالرسول ﷺ.

فإن لم يتحقق شيء من هذين الأمرين فالوقت ضائع، وثمن الكتاب خسارة.

فأرجوك أعنِّي علىٰ تحقيق المزيد من المحبة وترقّي السلوك.

المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.. أما بعد:

فيقول ابن سبط رسول الله ﷺ علي بن الحسين رضي الله عنهما: (كنا نُعلَّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن)[١].

ويقول الإمام الزهري - رحمه الله تعالىٰ- [٢]: (في علم المغازي علم الآخرة والدنيا)[٣].

ويقول ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب؛ إلا أن يُمزَج بالرقائق والنظر في سِيَر السلف الصالح)[٤].

ويقول سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالىٰ-: (عند ذِكْر الصالحين تنزل الرحمة)[٥].

(١) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (٢/ ٢٥٢).

(٢) وقد قال رزق الله التميمي الحنبلي -رحمه الله- (ت ٤٨٨هـ) في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٦١٣): «يقبح بكم أن تستفيدوا منا ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا»، وقد حرصت على الترضي والترحم على مَن نقلت منه من سلفنا وعلمائنا، ولو تكرر ذِكْره مرارًا.

(٣) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥٢).

(٤) ابن الجوزي، صيد الخاطر، عناية حسن المساحي سويدان، الطبعة الأولى (دمشق: دار القلم ١٤٢٥)، (ص ٢٩٢).

(٥) أبو نعيم، الحلية (٧/ ٢٨٥).

وفي مقدمة سِيَر السلف الصالحين، وتاجها، وعلىٰ رأسها سيرة رسولنا ﷺ.

ويصف عُبيد الله بن عتبة -رحمه الله تعالىٰ- مجلس ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- للحديث عن السيرة، فيقول: (ولقد كنا نحضر عنده فيُحدِّثنا العشية كلها في المغازي)، وكان ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قد خصَّص جزءًا من يومه لتدريس المغازي[١].

ويقول ابن حزم -رحمه الله تعالىٰ-: (إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبَّرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقًّا، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفىٰ)[٢].

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن هنا تعلم اضطرار العبد فوق كلّ ضرورة إلىٰ معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ إلا علىٰ أيدي الرسل... وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ؛ فيجب علىٰ كل مَن نصح نفسه وأحبّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مُقِلّ ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[٣].

ويقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «السيرة والشمائل»: (وهذا الفن مما ينبغي الاعتناء به والاعتبار بأمره والتهيؤ له)[٤].

---

(١) محمد مصطفى الأعظمي، مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (ص ٢٣).

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢ / ٩٠).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (١ / ٦٩ - ٧٠).

(٤) ابن كثير، السيرة النبوية (من البداية والنهاية)، تحقيق مصطفى عبد الواحد (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٥)، (٢/ ٣٥٥).

وإن مما اختصت بهذه السيرة المباركة من بين سِيَر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أنها أصحّ سيرة لحياة نبيّ مُرسَل، ولم يُعرَف علىٰ مدىٰ التّاريخ البشريّ كلّه أمّة من أمم الرّسل، -عليهم الصلاة والسلام-، ولا غيرهم، سعدتْ بمثل ما جاء في القرآن الكريم عن الرّسالة والرّسول، ولا حظيتْ بمثل تلك المجموعة الثّمينة من الأحاديث النّبويّة، ذلك السّجل الخالد لسيرته-ﷺ. و(سيرة الرسول ﷺ مملوءة بالعِبَر، والعظات، والدروس، والمبادئ العظيمة، وإنا نحسب أن سيرة الرسول ﷺ وكمال عقله وخُلقه واستقامة نفسه، وسلامة ما يدعو إليه؛ كلّ ذلك في نفسه دعوة إلىٰ الإسلام في وسط غياهب الجهالة في الماضي، وهو لا يزال القوة الداعية إلىٰ الإسلام في عصرنا الحاضر، وإننا نجد بعض الناس يُسْلِمون إذا علموا السيرة النبوية، وأدركوا عقله، وبُعده عن الأوهام والخرافات التي تسود العامة، وتستهوي تفكير السذج)[1].

هذه السيرة المباركة نعمة من أجلّ وأعظم النِّعم التي أنعم الله بها علىٰ عباده؛ فقد (فتح الله بمحمد ﷺ الأعين العمي، فأبصرت بالله، والآذان الصُّم، فسمعت عن الله، والقلوب الغُلف، فعقلت عن الله، فانقادت لطاعته عقلًا وقولًا وعملًا، وسلكت سبل مرضاته ذللًا)[2].

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم علىٰ أهل الأرض نعمةً أعظم من إنعامه بإرساله ﷺ)[3].

---

(١) محمد الشثري، الدعوة في عهد الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (٢/ ٥٨٢)، وبعض النص نقله عن محمد أبو زهرة في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، (ص ٦٥).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (المدينة النبوية: طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦)، (٤/ ٣٤٤ و٣٥٧)، و(١٠/ ٥٠٢)، و(٢٧/ ٣٨)

(٣) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق علي بن حسن وزملاؤه، الطبعة الثانية (الرياض: دار العاصمة ١٤١٩) (٥/ ٨٨).

يكفي لبيان شرف هذه السيرة وصف الله -جل شأنه- لصاحبها بقوله -سبحانه تعالىٰ-: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

قال عبد الله بن سلام -رضي الله تعالىٰ عنه-: (ما خلق الله خلقًا أكرم عليه من محمد ﷺ)[١].

وجعل الله -جل شأنه- جائزة اتباعه ﷺ أن يحب اللهُ -جل شأنه-من اتبعه، قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

وثمرة طاعته الهداية والفوز العظيم؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور:٥٤]. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧١].

فـ(إنه لا أدب كأدب رسول الله ﷺ، ولا خُلق كأخلاقه؛ فمن وفَّقه الله، أعانه علىٰ أخلاقه والاقتداء به؛ ليتخلق منه بما يقدر عليه ويصل إليه، وما من أحد إلا وقد همَّ ولمَّ، فيا سعادة من اقتدىٰ به!، واستنَّ بسيرته وأخذ بطريقته، وامتلأ قلبه من محبته، في دقّ ذلك كلّه وجلّه وكثره وقله)[٢].

في سيرته وهديه ﷺ الخير كله، فـ(من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة، والاحتواء علىٰ محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها؛ فليقتدِ بمحمد رسول الله ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه)[٣].

---

(١) ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق محمد أحمد الحاج، الطبعة الأولى (جدة، دار الشامية ١٤١٦) (٢/ ٣٦٤).

(٢) العز بن عبد السلام، قواعد الحكام في مصالح الأنام، راجعه وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ١٤١٤)، (١/ ١٤٩).

(٣) ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس (بيروت: دار الآفاق ١٣٩٩)، الطبعة الثانية (ص ٢٤).

بَعْثُه رحمة؛ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وطريقته أمان من الزيغ، ودعوته نجاة؛ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى:٥٢]. وقال -جل شأنه- ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩].

«سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول مَن ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»(١).

أَحَبَّه جَبَلٌ(٢).

وحنَّ إليه جِذْعٌ(٣).

وسجد بين يديه بعيرٌ(٤).

(١) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٨). قال النووي: (وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم) شرح النووي على مسلم: (١٥/ ٣٧).

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ ، طلع له أُحد فقال: «هذا جبل يحبّنا ونحبه» متفق عليه: صحيح البخاري (٣٣٦٧)، وصحيح مسلم (١٣٩٣).

(٣) عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، يقول: «كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر، وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت»؛ صحيح البخاري (٣٥٨٥). كان الحسن البصري -رحمه الله تعالى- إذا حدّث بهذا بكى، وقال: (يا عباد الله! الخشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٠٥).

(٤) عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يَسْنُون عليه، وإن الجمل استصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا، ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا، فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، إنه قد صار مثل الكَلْب الكَلِب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس علي منه بأس». فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه، حتى خرَّ ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذلَّ ما كانت قط، حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا نبي الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك،=

وذرفت عينا جمل شكوى[1].

وسلَّم عليه حجر[2].

وأنذره ذراع شاة بمؤامرة عليه[3].

وانقاد بين يديه شجر[4].

=فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عظم حقه عليها» رواه أحمد في مسنده (١٢٦١٤)، بإشراف التركي وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَغْلَتَهُ، وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ... إلى أن قال: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ نَاضِحٌ لَهُ. فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ ، حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ وَسَرَاتَهُ، فَسَكَنَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟»؛ فجاء شاب من الأنصار، فقال: أنا، فقال: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها، فإنه شكاك إليَّ، وزعم أنك تُجيعه وتدئبه» أخرجه أحمد في مسنده رقم: (١٧٥٤) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير الحسن بن سعد فمن رجال مسلم.

(٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ -رضي الله تعالى عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ؛ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآنَ» صحيح مسلم (٢٢٧٧).

(٣) متفق عليه. البخاري رقم: (٢٤٧٤)، وَمسلم رقم: (٢١٩٠) عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- في غزوة خيبر في قصة المرأة اليهودية التي سمَّت رسول الله ﷺ في شاة مسمومة قدمتها طعامًا له؛ فأخبره ذراع الشاة بذلك.

(٤) عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- أنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»؛ فانقادت معه كالبعير المخشوش، الذي يُصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»؛ فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما، لأم بينهما -يعني جمعهما - فقال: «التئما عليَّ بإذن الله»؛ فالتأمتا. قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد. وقال محمد بن عباد فيتبعد- فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلًا، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق. صحيح مسلم (٣٠١٢).

أيكون أولئك أولىٰ به منّا، وأكثر محبةً وشوقًا، وتعظيمًا وتوقيرًا؟! والقرآن يخاطبنا، وسُنة المصطفىٰ بين أيدينا نقرأها ليل نهار، تشهد بما نتلو من عظيم سيرته.

هو ﷺ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؛ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٦]؛ فإذا دعاهم إلىٰ أمر، ودعتهم أنفسهم إلىٰ خلاف ذلك الأمر؛ كانت طاعته أولىٰ بهم من طاعتهم لأنفسهم(١).

فطاعته ومحبته ﷺ أعظم القُربات، ومآلها أسمىٰ المنازل وأعلاها، ببشرىٰ المصطفىٰ ﷺ؛ حيث قال: «المرء مع من أحب»، وما فرح الصحابة-كما يقول أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- وعنهم- بشيء كفرحهم بهذه البشرىٰ. وإن من أعظم دلائل المحبة: الاتباع والتأسي، والتمسك بالهدي الذي كان عليه المصطفىٰ ﷺ. وما صدق في محبته مَن تجَافىٰ عن سُنته، وابتدع طريقة غير طريقته، ولو استحسنها مستحسِن بعقل، فليس هناك أهدىٰ من هذا السبيل، وأقوم من هذا الطريق، وأكثر بركة من هذا المسير.

إنها السيرة العطرة، التي من قرأها -صادقًا- آمن، ومَن تأسىٰ بها فاز، ومن تنكَّب عنها فقد ضلَّ سواء السبيل.

أصل هذه السيرة مما نوَّه به القرآن الكريم، ومن تلا هذا الكتاب الكريم عرف كيف كانت حياة المصطفىٰ ﷺ، وكلما تدبَّر في الآيات ازداد محبةً وتعظيمًا وتوقيرًا لهذا الرسول ﷺ، لقد كانت حياته كلها لله، جهادًا في تبليغ دين الله وشرعه، ومجادلة في كشف الخطأ وتبيين الصواب، ومجالدة لأعداء الرب ومعاندي الحق، وما مات ﷺ إلا وقد بلَّغ الأمانة، وأدَّىٰ الرسالة، واستشهد علىٰ ذلك أكثر من مائة ألف صحابي حاجّ في صعيد عرفات، فأقروا له، وشهدوا بالبلاغ المبين.

(١) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن (٣٥٢).

وقد تسابق الصحب الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- علىٰ رواية هذه السيرة، ونقلها لمن بعدهم بتفاصيل دقيقة في مختلف صور حياته، في مسجده وفي بيته، وفي سفره وإقامته، في دعوته، وفي جهاده، ثم تتابع السلف علىٰ توثيق هذه السيرة، ونقلها لمن بعدهم، وتوارثت الأمة هذا الحب وتلك العناية، جيلًا بعد جيل، وتتابعت المُؤلَّفات في هذه السيرة؛ سعيًا إلىٰ الإحاطة بكل الدقائق الممكنة من سيرته ﷺ حبًّا وشوقًا لتلك اللحظات التي مرت وعبرت، وودوا لو بقيت، لكن إن لم تبقَ فقد بقي عبيرُها وعَرفُها وطيبُها وذكرىٰ صاحبها -عليه أفضل الصلاة والتسليم-.

وإن عظمة المبدأ لا تغني عن القدوة الحسنة؛ (وإن أيّ نظرية مهما بلغت من الصحة والدقة، وإن أي تعليم مهما يكن رائعًا، ويقع من الناس موقع الإعجاب، لا يغني ولا يثمر ثمره، ولا يبقىٰ علىٰ الدهر إلا إذا كان له مَن يُمثّله بعمله، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله، ويُعَرِّفه إلىٰ الناس بالقدوة والأسوة؛ فيقتدي الناس بدعاته عن طريق العمل بعد العلم، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة، مُعظّمين لأخلاقهم، مكرمين طهارة قلوبهم، وزكاة نفوسهم... والدين لا ينجح ويعلو وينتشر إلا بسيرة النبي ﷺ الذي بُعث به، وبما عرفه الناس عنه في شؤون حياته وفي أخلاقه وأعماله)[1].

إن السيرة النبوية هي التطبيق الحي الوافي للقرآن الكريم؛ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة:١٥- ١٦].

---

(١) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية (ص ٣٨ - ٤٠).

السيرة النبوية العطرة هي الميزان الصادق الذي تُوزَن بها أعمال البشر، وحركات بني آدم؛ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

اجتمع في هذا الدين عظمة المبدأ، وجودة الممتثل[١]، ولم يبقَ لأحد حُجة، أصبح الناس أمامهم القرآن الكريم يُتْلَىٰ، والسيرة المثلىٰ تُرْوَىٰ، تُبيِّن للناس كيف يتحوّل القرآن الكريم إلىٰ السلوك العملي الأمثل في الحياة، المصلح للناس في الحياة وفي الممات.

لعلك -أخي القارئ الكريم- أدركت أن السيرة النبوية جزءٌ من هذا الدين، بل هي من أعظم أجزائه، وركنٌ من أهم أركانه، يقول ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأصل الأصول العلم، وأنفع العلوم النظر في سير الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠])[٢].

يقف الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ خطيبًا في أول خطبة له بعد وفاة أبي بكر الصديق ﷺ وتوليه الخلافة؛ يقول بعد حمد الله والثناء عليه: (إن الله -تعالىٰ- نهج سبيله، وكفانا برسوله ﷺ، فلم يبقَ إلا الدعاء والاقتداء)[٣]. والاقتداء شرطه الأساس: وضوح القدوة وصلاحيتها للاقتداء، ولقد كانت سيرة محمد ﷺ هي السيرة الوحيدة التي جمعت الخصائص الأربع المطلوبة في القدوة المثلىٰ لحياة الناس؛ وهي: كونها تاريخية وجامعة وكاملة وعملية[٤]، فهي سيرة تاريخية، يشهد التاريخ بصحتها، وجامعة لجميع أطوار الحياة، وأصناف المجتمع، وجميع شؤون

(١) الرسول ﷺ وسلفنا الصالح -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-.

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر، عناية حسن المساحي سويدان، الطبعة الأولى (دمشق: دار القلم ١٤٢٥)، (١/ ٨٠).

(٣) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب ﷺ (ص ١٩٤).

(٤) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية (ص ٦٨).

الحياة في العاجل والآجل، وكاملة لا نقص فيها، وعملية فلم تكن قولية فقط، بل قول من الداعي ﷺ يصحبه عمل وتطبيق علىٰ نفسه، ولن نجد سيرة لفرد تصلح أن تكون للإنسانية أسوة سوىٰ سيرة هذا النبي العظيم؛ محمد بن عبد الله ﷺ(١).

وقد توالت الكتابة في السيرة النبوية العطرة في القديم والحديث(٢)، وأحصت دقائق لم تُحْصَ عن مخلوق قبله، ولن تحصىٰ -والعلم عند الله جل شأنه- لمخلوق بعده ﷺ؛ تعبيرًا عن مكانته ﷺ في النفوس، وحبًّا في معايشة حياته الكريمة العطرة ﷺ، ورغبة في الإسهام بتقديم هذه السيرة الخيِّرة والنموذج الأمثل للأُمّة.

والقراءة في السيرة مجردةً نورٌ وبرهانٌ، وحياة قلوب، وعِلْم جمّ غزير، لكنَّ الوقوف مع الدروس والعِبَر، وفقه الموقف والحدث، والتأمل في الدلالات والغوص في الأهداف والغايات، عِلْمٌ أعمق غزارةً، وأنفع في السلوك والتطبيق، وأكثر تحقيقًا لمعاني المحبة والاقتداء.

ومن فضل الله عليَّ -وفضائله عليَّ وعلىٰ غيري جل شأنه لا تُحْصَىٰ- أنْ شرَّفني بصحبة هذه السيرة العطرة قراءةً وتدريسًا، منذ مدة طويلة.

ومن خلال ذلك أحببت فقه السيرة، وعُنيت به، لما رأيت أثره عليَّ أولًا، وعلىٰ مَن يتلقّىٰ الدرس ثانيًا؛ فصار لي تعلق به وتدوين لما يمر عليَّ منه، أثناء التدريس في الجامعة وفي المسجد، فجمعتُ ما حصلت في أوراق تحولت إلىٰ

---

(١) انظر: سليمان الندوي، الرسالة المحمدية (ص ٦٧).

(٢) من أحسن ما اطلعت عليه من كتب السيرة: سيرة ابن هشام -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية للذهبي، وله من اسمه نصيب -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية في كتاب الطبقات لابن سعد -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية لابن كثير -رحمه الله تعالى-، ومن كتب المعاصرين الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية على ضوء المصادر الصحيحة لمهدي رزق الله، واللؤلؤ المكنون لموسى العازمي، وجزى الله الجميع خير الجزاء، وبارك فيما كتبوا وبذلوا.

كتاب بدأ في عام ١٤١٣، ورأىٰ النور عام ١٤٢٤، فطُبِعَ في دار العاصمة بالرياض الطبعة الأولىٰ، ثم طبعته دار التدمرية بعد ذلك عدة طبعات، آخر ما اطلعت عليه الطبعة الثانية عشرة.

وقد كنت في كل قراءاتي -بعد ذلك- في التفسير والحديث والتوحيد والفقه وغيرها، مستحضرًا السيرة النبوية، وفقهها؛ رجاءَ مزيد إثراء لكتابي (فقه السيرة)، دَائمَ التعليق والإضافة علىٰ نسخة خاصة بذلك، حتىٰ اجتمع لي ما يُشجّع علىٰ إعادة إخراج كتابي مرة أخرىٰ، بطبعة جديدة فيها إضافات تجمّعت خلال سبعة عشر عامًا مضت ما بين ١٤٢٤-١٤٤٢.

وها هو ذا كتاب «فقه السيرة» بجزئيه، في حُلّة جديدة، بعد أن كان بجزء واحد فقط. وكان منهجي فيه وفق ما يلي:

أولًا: استحضرت في عملي هذا أن يكون (فقه سيرة) قبل أن يكون (سيرة)؛ قناعةً منّي بأن هذه السيرة العظيمة قد كُتِبَتْ بكلّ تفاصيلها الممكنة، وليس هناك مجال لمزيد؛ إلا لتصحيح أو تضعيف أو تنقيح أو إعادة صياغة لما هو مُدوّن، وقد كُفيت ذلك بمن هو خير مني، والحمد لله.

ثانيًا: لمَّا كان هدفي استقراء نصوص السيرة، فلا بد من التثبُّت من كون ما أذكره هو من السيرة بقدر الإمكان، وعليه فقد جعلت المصدر الأول للسيرة كتاب الله -جل شأنه-، فما ورد في القرآن الكريم من السيرة النبوية فهو المعتمَد، ثُمّ بعد ذلك ما صح من السنة النبوية الشريفة، مُقَدِّمًا ما قدمته الأمة من تزكية لصحيح البخاري وصحيح مسلم علىٰ غيرهما، ثم بعد ذلك كُتب السُّنة، وعوّلت علىٰ ما صححه أئمة الحديث، أو حسَّنوه، مما ورد في كتب السيرة، ثم كتب السيرة، ذاتها وخاصةً التي قَبِلتها الأُمّة من حيث الجملة؛ كسيرة ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- والسيرة النبوية للذهبي -رحمه الله تعالىٰ-، والسيرة النبوية لابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-، ودلائل

النبوة للبيهقي، واستفدت كثيرًا مما أعاد المعاصرون تدوينه، واعتنوا بالصحيح والحسن، وابتعدتُ عن الروايات الضعيفة، قَدْر الإمكان.

مع أن العلماء -رحمهم الله تعالىٰ- يفرّقون بين ما يُروَىٰ عن الرسول ﷺ في الحلال والحرام والأحكام، وبين ما يُروَىٰ في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب؛ يقول عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالىٰ-: (إذا رُوِّينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام؛ شدَّدْنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا رُوِّينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب، والمباحات، والدعوات تساهلنا في الأسانيد)[1]. وقال السيوطي -رحمه الله تعالىٰ-: (ويجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد الضعيفة ورواية ما سوىٰ الموضوع من الضعيف والعمل به من غير بيان ضعفه في غير صفات الله -تعالىٰ-، وما يجوز ويستحيل عليه، وتفسير كلامه، والأحكام كالحلال والحرام، وغيرهما، وذلك كالقصص وفضائل الأعمال والمواعظ، وغيرها مما لا تعلق له بالعقائد والأحكام. ومن نُقل عنه ذلك: ابن حنبل، وابن مهدي، وابن المبارك -رحمهم الله تعالىٰ- قالوا: إذا روينا في الحلال والحرام شدّدنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا)[2].

ثالثًا: وقفت عند فهم سلفنا الصالح للنصوص، والتزمت، وألزمت نفسي به، لا أَعْدُوه؛ فهم ناقلو هذا العلم لنا، عاشوه وعايشوه، وكانوا مع الرسول ﷺ والوحي يتنزل عليه، ويمتثل ما فيه، ففهموا أتم الفهم لِماَ تلوه ورأوه، وصُحح لهم ما اختلفوا فيه. وهم الحجة الذين أثنىٰ الله عليهم في كتابه؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل:٥٩]، وقال -تعالىٰ-:

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١)، (١/ ٦٦٦)، رقم (١٨٠١).

(٢) السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، حققه نظر محمد الفريابي (الرياض: دار طيبة)، (١/ ٣٥٠-٣٥١).

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، ونحن لهم تَبع في الفهم والعمل، نرجو الإحسان، وندعو كل مسلم إلىٰ ذلك.

فال الفقيه الأصولي علامة المغرب الشاطبي -رحمه الله تعالىٰ- في الموافقات: (فلهذا كله يجب علىٰ كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرىٰ بالصواب، وأقوم في العلم والعمل)[١].

رابعًا: سلكتُ منهج الاستقراء لأبرز أحداث السيرة وفق التسلسل التاريخي، مع التوقف عند كل حدث من تلك الأحداث بعد عرض موجز، محاولًا استنباط الدروس والفوائد ذات الصلة بالتربية والدعوة والسلوك وفقه النفس، مرتبًا تلك الفوائد ترتيبًا يتناسب مع التسلسل التاريخي للحدث ذاته، دون نظر أو اعتبار في الترتيب لأهمية الفائدة، وإنما لتسلسلها التاريخي داخل الحدث قدر الإمكان؛ وإن كنتُ خالفتُ هذا في بعض الأحداث لأهمية الفائدة، وذلك كي يتمكن القارئ من استمرار تصوُّر الحدث وربطه بالفائدة المستنبطة.

خامسًا: عزوتُ كثيرًا من الفوائد لأصحابها؛ أخذًا بقول علمائنا -رحمهم الله تعالىٰ-: (من بركة العلم أن يُضاف القول إلىٰ قائله)[٢].

سادسًا: وقفت عند قول الله -جل شأنه- مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وما كتبه ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره

(١) الشاطبي، الموافقات (٣/ ٢٨٩).
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣) (المقدمة)، ونقل أيضًا قول الإمام ابن عبد البر -رحمه الله تعالى-: (من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهم) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٨٦).

يقول: (فيه إيماء لطيف إلىٰ أن الرسول اتَّحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة، وسائر أكوانه رحمة، ووقوع الوصف مصدرًا يُفيد المبالغة في هذا الاتحاد؛ بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله)[1].

وقبل ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- نقل القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- قول أبي بكر محمد بن طاهر -رحمه الله تعالىٰ-: (زيَّن الله -تعالىٰ- محمدًا ﷺ بزينة الرحمة؛ فكان كونه رحمة وجميع شمائله وصفاته رحمة علىٰ الخلق)[2].

لقد كان محمد ﷺ الرحمة المهداة، سيرته وحياته نور وهداية للإنسانية، أخلاقه ربانية، وعباداته إلهية، فيها كمال الحب والخضوع لله رب العالمين، جمعت معالم التوحيد كله، وهو أسمىٰ ما يُقدّم للبشرية.

قضىٰ ﷺ نصف عمره الدعوي في مكة، لم يحمل سلاحًا، ربَّىٰ فيه خلفاءه الأربعة، وبقية العشرة المبشرين بالجنة، وعامة من حاز السبق في هذه الأمة. ثم جاء بعدهم الذين نصروه في المدينة -رضي الله تعالىٰ عن الجميع-؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠٠].

تأملت سيرته ﷺ؛ فوجدت أعظم ما فيها -وكلها عظيمة- قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وهذا جعلني أختار تقسيمًا في هذا الكتاب يتلاءم مع هذا التصور الواسع في سيرته ﷺ، يستند إلىٰ النص القرآني، ويكشف المعنىٰ الشمولي لسيرة نبي الرحمة والرفق والتيسير، والخُلق العظيم، فجعلت تقسيمات الفصول ذات صلة بما تنزل من آيات، ثم داخل كل فصل أبرز الأحداث؛

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٧/ ١٦٦).

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ، وبحاشيته (مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء) للشمني (بيروت: دار الفكر ١٤٠٩)، (١/ ١٦).

فكان تقسيم الكتاب على النحو التالي:

مقدمة.

مدخل. وفيه:

أ. أهمية دراسة السيرة النبوية.

ب. أسباب اختيار الجزيرة العربية منطلقًا للرسالة والخاتمة.

ت. ميزة ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، والأمم بأمة محمد ﷺ.

الفصل الأول:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

الفصل الثاني:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

الفصل الثالث:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

الفصل الرابع:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾.

الفصل الخامس:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾.

الفصل السادس:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

الفصل السابع:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

الفصل الثامن:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

الفهارس العامة.

وبعدُ:

فهذا الكتاب -أخي الكريم- أقدمه لك وأنا أستحضرُ فيه قولَ حسان بن ثابت -رضي الله تعالىٰ عنه-:

وما مدحت محمدًا بمقالتي ولكن مدحت مقالتي بمحمد(١).

فهو محاولة من عبد ضعيف يلتمس شرفًا عند ربه الكريم في كتابة شيء عن فقه سيرة نبيه ﷺ، اجتهدَ فيه، وفْق ما فتح الله عليه، فلا فضل له ولا يد ولا شيء، بل مِنَّة من الله وفضل وإحسان، فهو مِنْه -سبحانه-، وهو به، وهو له -سبحانه وتعالىٰ-.

يلتمس عذره فيما وقع من تقصير في ثنايا قول الله -تعالىٰ-: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٧].

وعليه فإن ما فيه من صواب فمن خالص فضل الله وتوفيقه، ويستوجب الشكر له -سبحانه-، وما فيه من خطأ فهو مِن كاتبه ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان(٢)، وأسأل الله العفو والمغفرة.

أرجو إن فاتني أجر الإصابة أَلا أُحرم أجر الاجتهاد، مؤملًا من كل ناصح يرىٰ خللًا أن يلتمس العذر، ويحسن الظن، وإن جاد عليَّ بملاحظاته كنت له شاكرًا، وليعلم أنِّي رجَّاع للحق -إن شاء الله تعالىٰ-؛ (والرجوع للحق من جملة الدين)(٣).

(١) صبح الأعشى (٢/ ٢٣١)، والمثل السائر لابن الأثير (٢/ ٣٥٧).

(٢) ورد هذا المعنى عن أبي بكر الصديق ﷺ لما سُئِلَ عن الكلالة قال: (أقول فيها برأيي؛ فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٠)، وورد أيضًا عن ابن مسعود ﷺ في مسألة طُرحت عليه كما في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (١/ ٤٤٧)، وانظر هذا المعنى تفصيلاً في: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية (٥/ ١٨٢- ١٨٦).

(٣) العيني، عمدة القارئ (١/ ٦٦).

أسأل الله -جل شأنه- متوسلًا بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يتقبَّل هذا العمل عنده، وأن يجدد النفع به ما تجددت الأوقات، وأن يطرح فيه واسع البركات، فهو -سبحانه- الجواد الكريم عظيم العطيات.

كما أسأل المولىٰ الكريم أجزل المثوبة لكل مَن أسهم في هذا الكتاب، بأيِّ صورة من الصور، ولو بالتعريف به بعد طباعته، أو دلَّ عليه، أو أهداه، وفضل الله واسع، والحمد لله.

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين[1].

أ.د. زيد بن عبد الكريم الزيد

dr-zaz@hotmail.com

---

(١) أسجل هنا شكري لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي تعلمت فيها قرابة عشرين عامًا، ثم احتضنتني أحد أعضاء هيئة التدريس أكثر من ثلاثين أخرى، وفرَّغتني لإنجاز أصل هذا البحث، سائلاً المولى -عز وجل- أن يجعلها جامعة مباركة يعمّ نفعها بلاد المسلمين.
كما أشكر إخواني الذين تفضَّلوا عليَّ بمراجعة هذا الكتاب (في طبعته السابقة). وقد شكرتهم في تلك، الطبعة، ولأن فضلهم متجدد فأبقيت شكرهم كما هو متجددًا في الطبعة الجديدة بزياداتها، وإن لم يقرأوها، وهم:
١. فضيلة الأستاذ الدكتور/ فضل إلهي، الأستاذ في قسم الدعوة في جامعة الإمام سابقًا.
٢. فضيلة الأستاذ الدكتور / عبد الرحمن بن سليمان الخليفي، الأستاذ في قسم الدعوة بالجامعة سابقًا.
٣. فضيلة الأستاذ الدكتور / خالد بن عبد الرحمن القريشي، الأستاذ في قسم الدعوة بالجامعة.
سائلاً المولى العلي القدير أن يجزيهم خير الجزاء على ما بذلوه من جُهد، وما أسدوه من نُصْح.

المدخل

١ - تعريف فقه السيرة النبوية.

٢ - أهمية دراسة السيرة النبوية.

٢ - لماذا ندرس فقه السيرة؟

٤ - أسباب اختيار جزيرة العرب منطلقًا للرسالة الخاتمة.

٥ - ميزة ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، والأمم بأمة محمد ﷺ.

أولًا: تعريف فقه السيرة

١- تعريف الفقه:

قال ابن فارس -رحمه الله تعالىٰ-: («فقه» الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح، يدل علىٰ إدراك الشيء والعلم به. تقول: فقهت الحديث أفقهه. وكل علم بشيء فهو فقه. يقولون: لا يفقه ولا ينقه. ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام: فقيه. وأفقهتك الشيء، إذا بينته لك)[١].

وفي لسان العرب: (الفقه: العلم بالشيء والفهم له)[٢].

وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ-: (والفقه في الأصل: الفهم، واشتقاقه من الشق والفتح. يقال: فَقِه الرجل بالكسر- يفقه فِقهًا إذا فهم وعلم، وفقُه بالضم يفقه: إذا صار فقيهًا عالمًا)[٣].

وفي الصحاح: الفقه: الفهم.

تقول منه: فقِه الرجل، بالكسر[٤]. فقِه الأمرَ: فهِمه بعد جهل، وأدركه بعد تفكير، أحسن إدراكه.

فقِه عنه: فهِم. والفقه الفهم، وغلب -إذا أطلق- علىٰ العلم بالأحكام الشرعية؛ لشرفها.

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٢) مادة (فقه)، (بيروت: دار الفكر ١٣٩٩).
(٢) ابن منظور، لسان العرب (١٣/ ٥٢٢)، مادة (فقه).
(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٦٥)، مادة (فقه).
(٤) الجوهري، الصحاح (٦/ ٢٢٤٣)، مادة (فقه).

٢- تعريف السيرة:

قال ابن فارس -رحمه الله تعالىٰ-: (السين والياء والراء، أصل يدل علىٰ مضي وجريان، يقال سار يسير سيرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا. والسيرة: الطريقة في الشيء والسنة؛ لأنها تسير وتجري)[١].

وقال الجوهري -رحمه الله تعالىٰ-: (والسيرة الطريقة. يقال سار بهم سيرة حسنة)[٢].

أما السيرة النبوية في الاصطلاح: فيُقصَد بها ذِكْر ما كان عليه النبي ﷺ من الأقوال والأفعال والتقريرات والصفات الخُلقية والخَلقية حتىٰ الحركات والسكنات؛ إلا أن مصنّفي السيرة النبوية، أضافوا ما كان قُبيل ولادته؛ لارتباطها بميلاده ﷺ، ولإلقاء الضوء علىٰ حالة الأرض بعامة، وحالة العرب بخاصة؛ مما يفيد في دراستها وفهمها.

وإذا أطلقت كلمة «سيرة» مشفوعة بأل ولام التعريف حصرًا، فإنما يُقصد بها ترجمة حياة النبي ﷺ، وأصبحت عِلمًا قائمًا بذاته[٣].

والسيرة النبوية في نطاقها الزماني هي من ولادته ﷺ عام الفيل، وحتىٰ فاجعة وفاته في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية، وجملتها ثلاث وستون سنة قمرية تقريبًا.

وقد حفظ الله -جل شأنه- سيرة المصطفىٰ ﷺ بكثير من دقائقها، ولم تُحفَظ سيرة نبي من الأنبياء -ولا غيرهم- كما حُفظت سيرة نبينا ﷺ.

---

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (٣/ ١٢٠-١٢١)، مادة «سير».

(٢) إسماعيل الجوهري، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثالثة (بيروت: دار العلم للملايين ١٤٠٤)، (٢/ ٦٩١) مادة «سير».

(٣) انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون (دار الكتب العلمية، مصورة من طبعة مكتبة المثنى ببغداد) (٢/ ١٠١٢).

أما العلوم التي لها صلة بالسيرة:

فأولًا: الشمائل: والمراد بها صفات الرسول ﷺ وأخلاقه.

وعلىٰ هذا فالشمائل أخص من السيرة، أو أن الشمائل جزء من السيرة النبوية.

ثانيًا: السُّنة: وهي ما أُضيف إلىٰ النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفة. ولذلك فهناك تداخل بين السُّنة والسيرة، والغالب في السُّنة أنها ترتبط بالأحكام والعقائد، ولا تهتم بالأحداث والوقائع والتاريخ، إلا في جانب معرفة النسخ ونحوه.

ثالثًا: الدلائل النبوية: جمع دليلة، وهي العلامة علىٰ الشيء، وتسمىٰ أيضًا علامات النبوة. والمقصود بها ما كان علامة علىٰ إثبات وصدق نبوة الرسول ﷺ؛ كانشقاق القمر، ونبع الماء بين يديه. وممن كتب في الدلائل: الإمام البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «دلائل النبوة».

رابعًا: الخصائص: جمع خصيصة؛ وهي ما انفرد به النبي ﷺ عن غيره؛ كزواجه بأكثر من أربع نسوة في وقت واحد. وممن كتب في الخصائص: الإمام السيوطي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «الخصائص الكبرىٰ».

خامسًا: المغازي: والمغازي جمع غزوة، والمراد بها غزواته ﷺ. والفرق بين الغزوة والسرية هي أن الغزوة ما كان الرسول ﷺ قائدًا للجيش فيها، أما السرية فتكون بعثًا بعثَه ﷺ من أصحابه -رضي الله عنهم-. ومن أشهر وأول مَن كتب في هذا الواقدي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «المغازي».

وعلىٰ هذا؛ فالسيرة أوسع من المغازي، وليست المغازي إلا جزءًا من السيرة النبوية، بل قال الزبيدي -رحمه الله تعالىٰ- وهو يُعرِّف بالسيرة: (والسِّيرَةُ النَّبوِيَّة، وكُتُبُ السِّير، مأْخوذةٌ من السِّيرَةِ بمعنَىٰ الطَّرِيقَةِ، وأُدْخِلَ فِيهَا الغَزَوَاتُ وَغير ذلك؛ إِلْحَاقًا أَو تَأْوِيلًا)[1].

(١) الزبيدي، تاج العروس، (دار الهداية)، (١٢/ ١٢١)، مادة «سير».

وفي المعجم الوسيط: «(السِّيرَة) السُّنة والطريقة وَالْحَالة الَّتِي يكون عَلَيْهَا الْإِنْسَان وَغَيره. والسيرة النَّبَوِيَّة وَكُتب السّير مَأْخُوذَة من السِّيرَة بِمَعْنى الطَّرِيقَة، وَأدْخل فِيهَا الْغَزَوَات وَغير ذَلِك، وَيُقَال: قَرَأت سيرة فلَان؛ أي تَارِيخ حَيَاته)[1].

٣- تعريف فقه السيرة:

بعد هذا التعريف اللغوي للفقه.

والتعريف اللغوي والاصطلاحي للسيرة باعتباره مفردة، وأنها ترجمة حياة النبي ﷺ، واعتبار ذلك عِلْمًا قائمًا بذاته.

نأتي إلىٰ تعريف **فقه السيرة**:

فقه السيرة: مركب مثل فقه اللغة، وفقه الدعوة، وفقه التاريخ، وفقه الحج، ويعنون بذلك فهم معاني ومقاصد التاريخ والحج لا أحكامه.

وأعجبني قول ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ- في معنىٰ الفقه: (... واشتقاقه من الشق والفتح)[2]. فهو يحتاج إلىٰ شق وفتح للأحداث، وتأمل واستيعاب، وتأثر وتأثير، فهو علم حي له عروق تسري فيها الحياة وتتجدد.

وفقه السيرة: فهم السيرة النبوية فهمًا ناتجًا عن علم وتفكير وتأمُّل وحُسْن إدراك في أحداثها، يؤدي إلىٰ استخراج دروس وعِبَر مفيدة، ظاهر آثارها في السلوك الصالح العاجل والآجل.

وهذا يشمل الدروس المتعلقة بتقويم العقيدة، والأخلاق مع النفس ومع الغير.

---

(١) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، (القاهرة: دار الدعوة)، (١/ ٤٦٧) مادة (سير).

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٦٥)، مادة (فقه).

وإذا لم يصحب هذا الفقه تزكية للنفس، عاد ليكون علمًا مجردًا كسائر العلوم.

ولذلك فالذي يميز فقه السيرة عن غيره أنه عيش مع عبيق السيرة وعطرها وريحانها، وامتلاء الشخص بهذه العطور والرياحين.

ثانيًا: أهمية دراسة السيرة النبوية

أولًا: ندرس سيرة رسول الله ﷺ؛ لأنها سيرة أعظم رجل عرفته البشرية، فهي سيرة سيد ولد آدم -عليه السلام-، كما أخبرنا بنفسه فقال ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة»[1].

سيرة النبي الذي جمع الله -جل شأنه- فيه الكمالات البشرية كلها، عبادته أتم العبادات وأزكاها[2] ومثلها معاملاته، شجاعته، كرمه، حلمه، زهده، تواضعه، وحكمته... إلخ، فهو الأسوة[3] المثلىٰ للبشرية.

ندرس سيرة النبي العظيم الذي خاطبه الله بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]. فأي خُلُقٍ هذا الذي وصفه الله -عز وجل- العظيم العليم، بأنه خُلُق عظيم؟!

ندرس سيرة المصطفىٰ ﷺ الذي أقسم الله به؛ فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢].

---

(١) صحيح الإمام مسلم (٤ / ١٧٨٢).

(٢) حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- أن الرسول ﷺ قال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» صحيح البخاري (٧/ ٢) رقم (٥٠٦٣).

(٣) وردت كلمة الأسوة والقدوة في النصوص الشرعية، قال -تعالى-: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال -تعالى-: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال -تعالى-: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الممتحنة: ٦]، وقال -تعالى-: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي سنن الترمذي (٥/ ٦٧٢ ت شاكر) عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي؛ أبي بكر وعمر»، وصححه الألباني. وقد فرَّق بعض العلماء بين الأسوة والقدوة؛ بأن الأسوة عامة، والقدوة خاصة في مجال أو موضوع معين. والله أعلم.

ندرس سيرة رسول الله ﷺ الماحي الذي محا الله به الكفر[1].

ندرس سيرة الرجل الذي فُتحت له أبواب السماء[2]، وعُرج به إلىٰ سدرة المنتهي، وسمع صريف الأقلام[3].

سيرة النبي العظيم الذي أكرمه الله بدخول الجنة[4].

وكُشف له حتىٰ رأىٰ النار [5].

وكلمه الله بدون واسطة[6].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٨٥) رقم (٣٥٣٢)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٣٨٨٧) في حديث الإسراء والمعراج، وجاء فيه: «فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ؛ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ؛ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ...).

(٣) «قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم، أن ابن عباس، وأبا حبة الأنصاري -رضي الله تعالى عنهما- كانا يقولان: قال النبي ﷺ : «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام» صحيح البخاري (١/ ٧٨) رقم (٣٤٩)، وصحيح مسلم ١/ ١٤٨) رقم (١٦٣). (صريف الأقلام) أي صريرها على اللوح. فتح الباري لابن حجر (١/ ١٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٣٤٩) في حديث الإسراء والمعراج، وفيه قوله ﷺ : «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ؛ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ». وَمسلم في صحيحه رقم: (٤٣٤). وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ : «دخلت الجنة، فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لرجل من قريش، فما منعني أن أدخله يا ابن الخطاب، إلا ما أعلم من غيرتك»، قال: وعليك أغار يا رسول الله؟ صحيح البخاري (٩/ ٣٩) رقم (٧٠٢٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٦٢) رقم (٢٣٩٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (١٢١٢) في حديث صلاة الخسوف، وفيه قوله ﷺ : «وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ». ومسلم رقم: (٧٣٧١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٣٨٨٧) في حديث الإسراء والمعراج، قال الحافظ ابن حجر: (هذا من أقوى ما استدل به على أن الله -سبحانه وتعالى- كلم نبيه محمدًا ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة).فتح الباري (٧/ ٢١٦)، وأخرجه مسلم رقم: (٤٢٩).

أول مَن يُبعث من الخلائق يوم القيامة(١).

صاحب المقام المحمود يوم القيامة، يوم يلجأ الناس إلىٰ الرسل -عليهم السلام-؛ ليشفعوا لهم فيتأخروا عنها، ويتقدم لها نبينا المصطفىٰ ﷺ(٢).

صاحب الحوض المورود(٣).

وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وكل نبي حينئذ تحت هذا اللواء(٤).

ندرس سيرة الرجل الذي أمر الله خازن الجنة أن لا يفتحها لأحد قبله(٥)؛ فهو أول داخل للجنة، وله فيها أعلىٰ منزلة(٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٢٤١١) ومسلم رقم: (٦٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم: (٧٥١٠)، ومسلم رقم: (٥٠٠) في حديث الشفاعة الطويل، وجاء فيه: «وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي....».

(٣) الأحاديث الثابتة في هذا كثيرة؛ منها ما أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٣٧٩٢) عن أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ -رضي الله عنه- أَنَّ رَجُلاً مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا؟ قَالَ: «سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ» وَمسلم رقم (٤٨٨٥).

(٤) عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي» أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٣٠٨) رقم (٣١٤٨)، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه رقم: (٥٠٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله تعالى عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ: فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

(٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٨) رقم (٣٨٤).

(وإذا تأمل المتأمل المنصف جميل أثره، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله، وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله، لم يَمْتَرِ في صحة نبوته، وصدق دعوته، وقد كان هذا كافيًا لعدد من الأشخاص، ليعلنوا إسلامهم؛ عن عبد الله بن سلام -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب)[1]. جاء بأعظم وأبقىٰ معجزة خالدة تتجدد، ثابتة إلىٰ يوم القيامة، بيِّنة الحُجة لكل أمة تأتي، متضمنًا الإخبار بغيوب ستقع، فلا يمرّ عصر ولا زمن إلا ويظهر في صدقه بظهور مُخْبَرِهِ علىٰ ما أخبر، فيتجدد الإيمان ويتظاهر البرهان، وليس الخبر كالعيان، وللمشاهدة زيادة في اليقين، والنفس أشد طمأنينة إلىٰ عين اليقين منها إلىٰ علم اليقين، وإن كان كل عندها حقًّا، وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعدمت بعدم ذواتها، ومعجزة نبينا ﷺ لا تبيد ولا تنقطع، وآياته تتجدد ولا تضمحل[2].

هذه نقطة من بحر عظمته ﷺ، وعلىٰ قدر هذه العظمة ينبغي أن يكون اهتمامنا بسيرته، وفقه سيرته؛ بل وبكل دقيقة مرت في حياته الشريفة ﷺ.

فهل عرفتَ منزلة مَن تدرس سيرته؟!

ثانيًا: إن من الإيمان، معرفة سيرة الرسول ﷺ والأمر الذي أُرسل به، وما جرىٰ له من قومه، وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان إيمانه أقوىٰ، والعكس كذلك.

ثالثًا: إن من أعظم العبادات والقربات عند الله -جل شأنه- محبة رسوله ﷺ، عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[3]. قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (ومحبة

(١) انظر: القاضي عياض، الشفا (١/ ٢٤٧-٢٤٨) والحديث في سنن الترمذي (٥/ ٤٨٥) رقم (٢٤٨٥) وصححه الألباني

(٢) انظر: القاضي عياض، الشفا (١/ ٣٧٢).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١٢) رقم (١٥) واللفظ له. وصحيح مسلم (١/ ٦٧) رقم (٤٤).

الرسول ﷺ علىٰ درجتين: إحداهما: فرض، وهي ما اقتضىٰ طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهىٰ عنه من المحرمات والرضىٰ بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجًا مما جاء به ويسلم له تسليمًا، وأن لا يتلقىٰ الهدىٰ من غير مشكاته، ولا يطلب شيئًا من الخير إلا مما جاء به. الدرجة الثانية: فضل مندوب إليه، وهي: ما ارتقىٰ بعد ذلك إلىٰ اتباع سنته وآدابه وأخلاقه والاقتداء به في هديه وسمته وحُسن معاشرته لأهله وإخوانه وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة...)[(١)].

ومحبة رسوله الله (تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء؛ فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك، وتعليمك، وتوجيهك.

الخامس: لصبره علىٰ الأذىٰ في تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس؛ لإعلاء كلمة الله)[(٢)].

ولا سبيل لمحبته المحبة الصادقة إلا بمعرفة أمور:

الأول: معرفة سيرته، ومعرفة كماله، وأوصافه، وعِظم ما جاء به[(٣)].

الثاني: عظم النعمة التي نالتك بسببه.

الثالث: ما جرىٰ له من الإيذاء من أجل تبليغ هذا الدين.

(١) ابن رجب، فتح الباري (١/ ٥٣).
(٢) ابن عثيمين، القول المفيد شرح كتاب التوحيد (٤٠٢).
(٣) انظر: ابن رجب، فتح الباري (١/ ٥٣).

والرسول ﷺ هو الذي علَّم هذه الأمة وربَّاهم وزكَّاهم، وصبر من أجل ذلك وصابر وجاهد في سبيل ذلك ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وإذا كان من المستنكَر والمستقبَح علىٰ الشخص أن يجهل سيرة أبيه؛ فكيف به إذا جهل سيرة رسوله ومرّبيه ومعلمه الذي هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وحقه مقدَّم علىٰ سائر الحقوق بعد حق الله -سبحانه وتعالىٰ-[١].

رابعًا: إن من المهم معرفة الحق في مقام النبي ﷺ، وما يجب له من التوقير، وما يجب تنزيهه عنه، قبل النبوة وبعدها، ومعرفة عصمته ﷺ، سواء أكان (مِنْ رضًا وغضب وجد ومزح؛ فيجب عليك أن تتلقاه باليمين وتشد عليه يد الضنين، وتقدر هذا الأمور حق قدرها وتعلم عظيم فائدتها وخطرها؛ فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ أو يجوز أو يستحيل عليه ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هي عليه، ولا ينزهه عما لا يجب أن يضاف إليه فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار؛ إذْ ظن الباطل به، واعتقاد ما لا يجوز عليه، يحل بصاحبه دار البوار، ولهذا ما احتاط -عليه السلام- علىٰ الرجلين اللذين رأياه ليلًا وهو معتكف في المسجد مع صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- فقال لهما: «إنه صفية»، ثم قال لهما: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا فتهلكا»[٢])[٣].

---

(١) انظر: السعدي، تفسير السعدي (المقدمة)، (ص٢٢).

(٢) الحديث في صحيح البخاري (٣/ ٤٩) برقم ٢٠٣٥ بلفظ "فقال لهما النبي ﷺ : «على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ : [إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا] وفي صحيح مسلم ٢١٧٥[وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا] أو قال [شيئا].

(٣) القاضي عياض، الشفا (٢/ ١٧٣).

خامسًا: في معرفة سيرته ﷺ شكرٌ للمنعم -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ ما من به من بعثة هذا الرسول الكريم ﷺ؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

سادسًا: في معرفة سيرته الرسول ﷺ معرفة للصورة العملية التطبيقية الصحيحة لهذا الدين، ويستحيل أن نعرف دين الإسلام دون معرفة سيرة الرسول ﷺ، وكيف كان هديه وعمله وأمره ونهيه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤].

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأصل الأصول العلم، وأنفع العلوم النظر في سِيَر الرسول ﷺ وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠])[١].

وقال مؤرخ الديار المصرية تقي الدين المقريزي -رحمه الله تعالىٰ-: (فغير جميل بمن تصدّر للتدريس والإفتاء، وجلس للحكم بين الناس وفصل القضاء، أن يجهل من أحوال رسول الله ﷺ ونَسبه وجميل سيرته ورفيع منصبه، وما كان له من الأمور الذاتية والعرضية ما لا غنىٰ لمن صدقه وآمن به عن معرفته، ولا بد لكل من اتسم بالعلم من درايته)[٢].

ولما كانت حاجة البشرية إليها كذلك، فقد جاءت سيرته ﷺ متميزة بكونها واضحة مكشوفة، فلا أسرارَ ولا خفايا، فما عاش الرسول ﷺ في قصر مغلق، ولا غاب عن الناس يومًا واحدًا، ولا سافر بمفرده[٣]، ولا منع أزواجه أو خدَمه من نقل

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر (ص ٨٠).
(٢) المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد النميسي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٠)، (١/ ٣).
(٣) انظر: يحيى بن إبراهيم اليحيى، لماذا ندرس السيرة (بحث منشور على الشبكة الإلكترونية) (ص ١).

ما يَرَوْنَه منه؛ في داخل بيته؛ بل كان يحث الجميع على التبليغ؛ فقال: «نضَّر اللهُ امرأ سمع منا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فرُبّ مُبلّغ أوعى من سامع»(١).

سابعًا: عن سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- أنه كان يقول: (إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، فعليه تُعرَض الأشياء، على خُلُقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحقّ، وما خالفها فهو الباطل)(٢).

فسيرته ﷺ معيار تُقاس به كلّ السِّير، والمواقف والأحداث، فأيّ قول أو عمل أو سلوك نختلف فيه كالوسطية أو التيسير والتشديد، فالمعيار العملي للبعد والقرب من الصواب، هو سيرة المصطفى ﷺ، فلكل نصيب من الحق، بقدر قربه من هذه السيرة النبوية، ومن لا معيار عنده وقع في أحد الانحرافين.

ثامنًا: سيرة الرسول ﷺ بيان قولي وعملي ممن لا ينطق عن الهوى، فقد قال ربه -جل شأنه-عنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣-٤]، وقال -جل شأنه-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤]، وهذا البيان -الذي لا غنى لمسلم عنه- وقع بقوله وفعله وإقراره المضمّن في سيرته ﷺ.

تاسعًا: ندرس السيرة؛ لأجل فهم كتاب الله -سبحانه وتعالى-؛ إذ إنَّ كثيرًا من الآيات نزلت بسبب أحداث وقعت في السيرة، ثم بعد نزولها أيضًا كان امتثال الرسول ﷺ لمضمون تلك الآيات بمثابة شرح عملي للكيفية المثلى للاستجابة لما ورد في تلك الآيات؛ فالسيرة تبين الآية من حيث معرفة سبب نزولها، ومن حيث معرفة كيفية الاستجابة لمضمونها، يقول عبد الحميد بن باديس -رحمه الله تعالى-:

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٧)، وصححه الألباني.

(٢) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان (الرياض: مكتبة المعارف)، (١/ ٧٩) رقم (٨).

«وفِقْه القرآن الكريم يتوقف علىٰ فِقْه حياة النبي ﷺ وسنته، وفقه حياته ﷺ يتوقف علىٰ القرآن، وفقه الإسلام يتوقف علىٰ فقههما»[1].

وقال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: «ولو أراد إنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن الكريم من دون معرفة منه لذلك -أي لسيرة الرسول ﷺ لحصل من الغلط علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ مراد الله من كلامه شيء كثير»[2].

عاشرًا: ندرس سيرة الرسول ﷺ لأننا نعلم أنها السيرة العملية الوحيدة الهادفة إلىٰ إخراج الناس من ظلمات الشرك والخرافة والبدعة، إلىٰ نور التوحيد والحقيقة والسنة، قال -تعالىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

حادي عشر: وندرس السيرة النبوية لأن فيها تثبيتًا للمؤمن في طريقه إلىٰ الله -جل شأنه-، واستثماره لهذه الحياة فيما ينفعه، والله -جل جلاله- حينما قال: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠]، بيَّن فيها أن قَصَصَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، تثبيتٌ للرسول ﷺ، وإذا كان فؤاد سيد الأنبياء ﷺ يزداد ثباتًا بسماع قصة نبي دونه، فلأن تزداد أفئدتنا إيمانًا ويقينًا بسماع قصة سيد الأنبياء ﷺ أولىٰ، وما أحوجنا إلىٰ التثبيت في وقتنا هذا مع مزيد الشبهات والشهوات والفتن، والله المستعان.

والرسول ﷺ ليس أسوة في الرخاء فحسب؛ بل هو أسوة لنا -أيضًا- في الشدة، والشخص بحاجة إلىٰ الأسوة والتثبيت في الشدة أكثر من حاجته في الرخاء، وفي السيرة النبوية بيان ناصع لما جرىٰ للرسول ﷺ من الإيذاء والمقلقات والمزعجات من أقاربه، ومن قومه، وكيف صبَر علىٰ إيذائهم الحسي والمعنوي، ومضىٰ في طريقه حتىٰ أتم الله له النصر والتمكين.

---

(١) ابن باديس، الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية (ص ٥٧).

(٢) السعدي، تفسير السعدي (المقدمة)، (ص٢٣).

ثاني عشر: وندرس سيرة الرسول ﷺ لأنها تجعلنا نعرفه، وإذا عرفناه كنا أكثر محبة وتبجيلًا واحترامًا وتوقيرًا للحبيب المصطفىٰ ﷺ، ويكون حُبّنا له ﷺ عن علم، وليس عن عاطفة موروثة فحسب، والحب عن علم هو الحب المتقرّب به إلىٰ الله الذي يُثاب عليه الشخص، وهو الحب المطلوب. والمرء مع من أحب. يقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:٤٣]؛ قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: «دل قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية، أن النظر إلىٰ حالة النبي ﷺ، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه، من أعظم الأدلة علىٰ صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة»؛ فسيرته آية من آياته، فقد كانت أنقىٰ سيرة وأطهر سيرة وأعظم سيرة، ولقد عاش ﷺ أكثر عمره بين أعدائه في مكة، ثم في مجتمع فيه اليهود والمنافقون في المدينة، فما استطاع أحد منهم أن يَلمز شخصه بشيء يَعيبه؛ بل كانوا يعرفونه بالصادق الأمين، وقالوا حتىٰ بعد البعثة: ما جرّبنا عليك كذبًا.

ثالث عشر: ندرس سيرة المصطفىٰ ﷺ لأننا نعلم أنَّ الأسوةَ الصالحة أولُ أساسيات الفلاح والتوفيق، في هذه الحياة، وإن في حياة كل منا شخصيةً يُعجَب بها، ويتمنىٰ أن يكون هو هذه الشخصية، ويتقمّصها ويستحضرها في تصرفاته، وقل لي أي شخصية تتمنىٰ أن تكونها! أقل لك من أنت!

والله -عز وجل- يبين أن المؤمنين أسوتهم الحقيقية رسول الله ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]؛ فالتأسي بالرسول ﷺ دين، واعتباره الشخصية المُثلىٰ قربة يتقرب به العبد إلىٰ الله -سبحانه-، وهو مأجور علىٰ نيته تلك -ربَّما- أجرًا يفوق عمله، وكيف يكون النبي ﷺ أُسوة لنا، إن لم نعرف سيرته، وحياته؟، كيف لنا أن نتأسىٰ به في عبادته، ونحن لم نعرف عبادته في منزله؟ بل لا نعرف ماذا يفعل

في بيته؟ وكيف عامل زوجته؟ وكيف عامل أصحابه؟ وكيف كان في السِّلم؟ وكيف كان في الحرب؟، ولن نستطيع ذلك ما لم تُحفظ هذه السيرة، وتُدرس سيرته وهديه ومدخله ومخرجه وأقواله وأفعاله وكل أمر أقرّه ﷺ [١]. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[٢].

ومن الأصول التي يجب علىٰ الإنسان معرفتها: معرفة العبد لنبيه بعد معرفته لربه ودينه؛ ومعرفة النبي ﷺ تتضمن خمسة أمور:

- معرفته ﷺ نسبًا؛ فهو أشرف الناس نسبًا.
- معرفة عام ومكان ولادته، ومهاجره.
- معرفة حياته النبوية، وهي ثلاث وعشرون سنة.
- بماذا كان نبيًّا ورسولًا؟
- بماذا أُرْسِلَ ولماذا؟[٣].

فقد أُرْسِلَ بتوحيد الله -تعالىٰ- وشريعته المتضمنة لفعل المأمور وترك المحظور، وأُرْسِلَ رحمةً للعالمين لإخراجهم من ظلمة الشرك والكفر والجهل إلىٰ نور العلم والإيمان والتوحيد، حتىٰ ينالوا بذلك مغفرة الله ورضوانه وينجوا من عقابه وسخطه[٤].

---

(١) بكر أبو زيد، التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل، الطبعة الأولى (الرياض: دار العاصمة د، ت)، (١/ ٦٦).

(٢) انظر: ابن اللحام، القواعد والفوائد الأصولية (ص ٩٤).

(٣) انظر: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، شرح ثلاثة الأصول للإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- ضمن مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٦/ ١٢١).

(٤) المرجع السابق (ص ١٢١ – ١٢٢).

رابع عشر: يقول الله -تعالىٰ-: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١]، وإذا كان في قصص الأنبياء -عليهم السلام- عبرة لأولي الألباب، فمن باب أولىٰ أن تكون سيرته العطرة ﷺ كذلك.

خامس عشر: أنقل كلامًا طويلًا عن منزلة تعلم السيرة النبوية أورده الكتاني -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه التراتيب الإدارية: (قال الإمام أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي في مختصره في السير، أوله: («هذا ذِكر ما يحق علىٰ المرء المسلم حفظه، ويجب علىٰ ذي الدين معرفته، من نسب رسول الله ﷺ، ومولده ومنشئه وشيعته، وذكر أحواله في مغازيه ومعرفة أسماء ولده، وعمومته وأزواجه؛ فإن للعارف بذلك رتبة تعلو علىٰ رتبة من جهله، كما أن للعلم به حلاوة في الصدر، ولم تعمر مجالس الخير بعد كتاب الله بأحسن من أخبار رسول الله ﷺ »؛ منها قال الإمام أبو العباس العزفي السبتي في الدر المنظم بعد نقل كلام ابن فارس مشيرًا إلىٰ قوله يجب: «فهذا إمام من أئمة المسلمين قضىٰ بوجوب معرفة مولده علىٰ المؤمنين»، وقال أبو عيسىٰ المهدي بن أحمد بن علي الفاسي في شرحه الوسط علىٰ الدلائل إثر كلام ابن فارس: والوجوب في كلامه يحتمل الوجوب الشرعي أو العرفي، بمعنىٰ ينبغي مرجعه إلىٰ اعتبار الأولىٰ والأخلق، وقد حمله العزفي علىٰ الوجوب الشرعي، والله أعلم. وعليه فيحتمل وجوب معرفة جميع ما ذكر أو بعضه وباقيه استطراد وزيادة خير، للعارف به رتبة، كما قال، تعلو علىٰ رتبة من جهله، والله أعلم. والظاهر حمل الوجوب علىٰ الشرعي، وأنه يتعلق بجميع ما عدد. وللقرافي في الذخيرة وأشار إليه في شرح الأربعين: أن جملة الأحوال المتعلقة بالرسول، كلها فضلًا عمّا به يتعين يرجع إلىٰ العقائد لا إلىٰ العمل، فيجب البحث عن ذلك ليحصل كمال المعتقد)[1].

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية، تحقيق عبد الله الخالدي، الطبعة الثانية (بيروت: دار الأرقم)، (١/ ١٧).

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلىٰ معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا علىٰ أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي علىٰ أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدىٰ من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه والعين إلىٰ نورها والروح إلىٰ حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلىٰ الرسل فوقها بكثير. وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام، وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب علىٰ كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[1].

ويقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (ينبغي لنا بل يتأكد أو يجب علينا أن نعرف سيرة النبي ﷺ منذ وُلد إلىٰ أن تُوفي، ولا سيما سيرته بعد أن أكرمه الله -تعالىٰ- بالرسالة، حتىٰ نعرف أحواله وأخلاقه وعباداته ودعوته وأعماله حتىٰ يتم

(١) ابن القيم، زاد المعاد، تحقيق الأرناؤوط، الطبعة السابعة والعشرون (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٥)، (١/ ٦٨-٦٩).

لنا التأسي به، ولا شك أن معرفة سيرة النبي ﷺ مما تزيد الإنسان إيمانًا ومحبة له، وتُقَوِّي التأسي به -عليه الصلاة والسلام-)[١].

وقال الشيخ محمد عطية سالم -رحمه الله تعالىٰ-: (إن دراسة حياة المصطفىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- في شخصه، في بيته، في مجلسه، في طعامه وشرابه ولباسه واجب علىٰ كل مسلم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكيف تتأسىٰ بمن تجهل حياته وأحواله؟)[٢].

سادس عشر: إذا تعلم الشخص وعمل بما علم، وجب عليه القيام بالدعوة إلىٰ الله، والسيرة النبوية المطهرة منهج دعوي، بل هي المنهج الدعوي الأتم.

نعرف كيف كسب النبي ﷺ قلوب الناس واستمالهم إلىٰ هذا الدين؟ كيف عامل أصحابه؟ كيف علمهم؟ كيف التقىٰ بهم؟ كيف نصحهم؟ كيف حافظ علىٰ من دخل منهم إلىٰ الإسلام؟ كيف أثنىٰ عليهم؟ هل استشارهم؟ وهذا لا غنىٰ للداعية عنه اليوم.

سابع عشر: السيرة علم واسع، بل هي -في نظري من أوسع العلوم وأشملها- يدخل فيها، وينضوي تحت لوائها، كل العلوم الشرعية، فمن خلال السيرة يمكن معرفة ما يلي:

---

(١) ابن عثيمين، تفسير سورة النساء، الطبعة الثانية (الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٣٥)، (١/ ٢٩١).

(٢) محمد عطية سالم، شرح بلوغ المرام (الموسوعة الشاملة) (٩ / ٢١٣). وقال -رحمه الله تعالى- في الموضع نفسه: (يذكر ابن فرحون -رحمه الله تعالى في كتاب له مخطوط إلى الآن في المسجد النبوي- في القرن السابع الهجري، قال: كان العلماء في المسجد النبوي إذا دخل شهر رمضان ترك كل إنسان الدروس، صاحب التفسير ترك تفسيره، صاحب الحديث ترك حديثه، صاحب الفقه تركه، صاحب اللغة الأدب، كل معلم في المسجد يترك المادة التي كان عليها ويدرس الجميع الشمائل النبوية. يعني: الصفات الخلقية والخُلقية؛ حتى يتعلموا ويعرفوا من هو رسول الله ﷺ).

أ - العقيدة: وتتجلىٰ أهمية العقيدة والتركيز علىٰ التوحيد لدارس السيرة النبوية الشريفة حينما يرىٰ اهتمام الرسول ﷺ بتوحيد العبادة وإصلاح العقيدة في دعوته، وكيف أن الرسول ﷺ بدأ بالتوحيد وشغل نفسه به أول دعوته، وركز عليه في بقية أكثر حياته النبوية. ويعرف ما هو التوحيد الذي كان يدعو إليه الرسول ﷺ، وأنه توحيد الألوهية أي إفراد الله -جل شأنه- بالعبادة، فلا يتوجه المسلم بشيء من العبادات لغير الله -جل شأنه-، وليس التوحيد هو توحيد الربوبية فقط الذي يعني إفراد الله -جل شأنه- بأفعاله، كالإقرار بأنه هو الخالق والرازق والمدبّر، فإن كفار قريش كانوا مقرّين بهذا، ولم ينفعهم؛ بل كان جوهر ما يدعو إليه الرسول ﷺ إخلاص العبادة لله وحده، فكل عبادة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله -جل شأنه- ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، ومن قرأ سيرة الرسول ﷺ عرف هذا جليًّا.

ب - الأحكام: من خلال السيرة النبوية يجري الاطلاع علىٰ الأسئلة التي تُعرض علىٰ الرسول ﷺ ومعرفة إجابته عليها؛ فضلًا عن سائر أقواله وأفعاله التي هي فيها تشريع وأحكام، وتُرشد إلىٰ أحكام فقهية كثيرة تهم المسلمين في أمور حياتهم الدنيوية والأخروية.

ت - الأخلاق والسلوك: ونعرف هذا الجانب المهم من خلال الاطلاع علىٰ تعامل الرسول ﷺ مع صحابته وزوجاته وخدمه وغيرهم من أفراد المجتمع.

ث - الدعوة إلىٰ الله -تعالىٰ-: في السيرة النبوية المواقف المهمة في موضوع الدعوة وأسلوبها والصبر عليها، مما لا يمكن للدعاة إلىٰ الله القيام بالدعوة بدونها.

فالعالم بالسيرة وفقهها قد جمع أصول العلوم بأدلتها بين جنبيه.

وأختم بقول الإمام في السيرة، أبي القاسم السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (فهذه جملة تشرئب إلىٰ معرفتها أنفس الطالبين، وترتاح بالمذاكرة بها قلوب المتأدبين، وكل ما كان من باب المعرفة بنبينا -عليه السلام-، ومتصِلًا بأخبار سيرته مما يونق الأسماع، ويهز بأرواح المحبة الطباع، والحمد لله علىٰ ما علّم من ذلك)[١].

(١) السهيلي، الروض الأنف تحقيق الوكيل، الطبعة الأولى (بيروت: دار الإحياء التراث العربي ١٤١٢)، (٥/ ٢٤٩)

ثالثاً: لماذا ندرس فقه السيرة؟

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية، الوقوف علىٰ الأحداث والوقائع التاريخية، وإتباعها بالتعجب والثناء فحسب.

ولا سرد ما حسُن وجمُل من القصص والأحداث، وإشغال المجالس في عرضها وتفاصيلها كما يلهو البعض في الحديث عن سِيَر وتراجم بعض مَن يعدونهم مِن الأبطال.

إن الغرض من جمع السيرة النبوية وتوثيقها، هو استخلاص الدروس والعبر، والسعي إلىٰ تحويل هذه السيرة إلىٰ كائن حي كأننا نراه، ثم نتأسىٰ به، ونتتبع خطاه، ونقتفي أثره، ونجعله معيارًا توزن به كل أعمالنا صغيرها وكبيرها، وسائر تصرفاتنا في حقوق الله وفي حقوق الناس، في عقائدنا وعباداتنا، ومعاملاتنا، وأخلاقنا.

ما قيمة أن نحفظ السيرة النبوية؛ إذا لم نأخذ منها الدرس؟!

ما قيمة السيرة النبوية في رجل يحفظ السيرة، ويقرأ جهاد الرسول ﷺ في تقرير التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ومحاربة الشرك، وتكسير الأصنام، وبعث الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لهدم القباب المبنية علىٰ القبور، ومنع الطواف عليها، ثم في أصغر موقف يمر به، يهرع إلىٰ قبر ولي يستغيث به، ويجأر إلىٰ ميت يدعوه، ويطلب المدد منه !! أو يطلب البركة من شجرة أو حجر أو غار، بل أو مِنْ وليٍّ صالح، [والبركة من الله][1] وحده.

---

(١) هذا نص حديث رسول الله ﷺ كما صحيح البخاري (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-.

ما قيمة السيرة فينا إذا لم نفهم معنىٰ لا إله إلا الله، تلك التي تعني لا معبود بحق إلا الله، تلك الحقيقة العظمىٰ التي فهمها أبو جهل وسائر كفار قريش حينما دعاهم للتوحيد قالوا للرسول ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]؛ ذلك المعنىٰ الذي فهمه أبو طالب وأصر علىٰ عدم النطق بـ«لا إله إلا الله»؛ لأنه يعرف معناها، وأكد أنه يموت علىٰ ما مات عليه أبوه عبد المطلب.

لا إله إلا الله التي كانت دعوة الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا، ينادي بها عند الكعبة، وفي منتديات قريش، وفي المشاعر، وفي أسواق العرب يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، فيأبون عليه؛ لأنهم يعرفون معناها.

لأن معناها تنقية القلوب من التعلق بغير الله كائنًا من كان، فما عدا الله مخلوق والله هو الخالق، وما عدا الله عبد، والله -جل شأنه- هو المعبود وحده، وكل العبودية بكل صورها لا تُصرَف إلا لله -سبحانه وتعالىٰ-.

وفي عصرنا يقولها الشخص مائة مرة في اليوم، ولأنه لم يعرف معناها فهو يجرحها أو ينقصها أو ينقضها مثل ذلك؛ بأقواله وأفعاله وما احتواه قلبه من التفات إلىٰ غير الله -سبحانه وتعالىٰ-، وكأن الله -جل شأنه- غيرُ مطلع علىٰ في القلوب من قاذورات التعلق والالتفات إلىٰ غيره -سبحانه وتعالىٰ-.

أعظم القاذورات أن يكون في قلوبنا تعلق بغير الله، من رجاء أو خوف أو محبة أو تذلل أو خضوع أو غيرها من سائر العبادات القلبية، وما يتبعها من عبادات الجوارح.

ما لنا عند أول ضيق نهرع إلىٰ غير الله -جل شأنه- نطلب منه العون ونشكو إليه الحال ونلتمس منه الفرج؟!

إن من أعظم فقه السيرة ألَّا يكون في القلب إلا الله، أن نطّهر هذا القلب من الالتفات إلىٰ مخلوق، أو رجاء مخلوق، أو خوف مخلوق، فالذل كل الذل في ذلك، والعزة والعطاء في أن يتعلق القلب بالخالق محبةً ورجًاء وخوفًا وتعبدًا.

إن من أعظم فقه السيرة أن نستجيب إلىٰ ما دعا إليه محمد النبي الكريم ﷺ، وأن نهتم بما اهتم به، وأن نعطي الأولوية للأمر الذي أعطاه الأولوية، وأن نبادر إلىٰ الابتعاد عما حذَّر منه، وأن نخاف ممَّا خوَّفنا منه، كيف لشخص أن يطمئن والله -جل شأنه- يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]؟، فالشرك غير داخل في المغفرة، والرسول ﷺ يقول: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»(١)؛ هذا القول يقول ﷺ لمن؟! يقوله للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-. فكيف بنا نحن؟ هل نقول إننا فهمنا سيرة نبينا ﷺ، بل هل يسوغ لنا أن نقول: إننا فقهنا سيرة نبينا ﷺ، ونحن لا نزال لم نعطِ التوحيد حقّه، ونخلص العبادة لله وحده، ونخشىٰ صغائر الشرك قبل كبائره؟ وننقي القلب من كل توجُّه إلىٰ غيره -سبحانه وتعالىٰ-.

ما قيمة السيرة النبوية في رجل يحفظها، ثم لا يَقَرُّ في قلبه محبة رسول الله ﷺ اللائقة به؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ

---

(١) عن محمود بن لبيد -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء» رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٩/ ٣٩) رقم (٢٣٦٣٠). قال المحقق الأرناؤوط: «إسناده جيد، رجاله رجال الصحيح. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٠٧)، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». وعن معقل بن يسار -رضي الله تعالى عنه- قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- إلى النبي ﷺ. فقال: «يا أبا بكر! للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟». قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». أخرجه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٢٦٥-٢٦٦)، رقم (٧١٦).

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]؛ يقول القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (فكفىٰ بهذا حضًّا وتنبيهًا ودلالةً وحجةً علىٰ إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعِظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ؛ إذ قرَّع -تعالىٰ- مَن كان ماله وأهله وولده أحبّ إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله -تعالىٰ-: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ ثم فسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم مِمَّن ضلّ ولم يهده الله)[١].

وعن عبد الله بن هشام -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخِذ بيد عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقال له عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا رسول الله، لأنتَ أحبّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[٢].

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (بيروت: دار الفكر ١٤٠٩) (٢/ ١٨)، قال القاري في شرح الشفا (٢/ ٣٦)، «واعلم أن المراد بالحب هنا ليس الحب الطبيعي التابع لهوى النفس؛ فإن محبة الإنسان لنفسه من حيث الطبع أشد من محبة غيره، وكذا محبة ولده ووالده أشد من محبة غيرهما، وهذا الحب ليس بداخل تحت اختيار الشخص بل خارج عن حد الاستطاعة فلا مؤاخذة به لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، بل المراد الحب العقلي الاختياري الذي هو إيثار ما يَقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف الطبع؛ ألا ترى أن المريض يكره الدواء المر بطبعه، ومع ذلك يميل إليه باختياره ويهوى تناوله بمقتضى عقله؛ لما علم أو ظن صلاحه فيه، وكذلك المؤمن إذا علم أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا يأمر ولا ينهى إلّا بما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته وعقباه وتيقن أنه -عليه الصلاة والسلام- أشفق الناس عليه وألطفهم إليه، وحينئذ يرجّح جانب أمره بمقتضى عقله على أمر غيره، وهذا أول درجات الإيمان، وأما كماله فهو أن يصير طبعه تابعًا لعقله في حبه -عليه الصلاة والسلام-. وقيل ومن محبته: نصر سُنته، والذب عن شريعته، والاقتداء بسيرته».

(٢) صحيح البخاري (٨/ ١٢٩) رقم (٦٦٣٢).

وأنت أيها القارئ الكريم، كيف أنت مع هذه المحبة؟، هذا الحديث يعلمك الحكم، ودراسة السيرة النبوية وفقهها تغرس فيك تلك المحبة غرسًا متجذرًا، تسري فروعه في العروق، لتهيمن محبته ﷺ على كل محبوب بعد محبة الله -جل شأنه-.

أما جزاء من أحب الرسولَ ﷺ؛ فعن أنس -رضي الله عنه- أن رجلًا سأل النبي ﷺ، فقال: متىٰ الساعة؟ قال ﷺ : «وماذا أعددت لها». قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «أنت مع مَن أحببتَ». قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي ﷺ : «أنت مع مَن أحببتَ». قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: (فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر، وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وأرجو أن أكون معهم بحبّي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم) (١).

فالسيرة أن تَعْلم، وفقه السيرة أن تُحِب. وشتان بينهما!!

ما قيمة العلم بالسيرة إذا كان الشخص يقرأ وصف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لصلاته ﷺ، وأنه كان يقوم حتىٰ تتورم قدماه، ويقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»، ثم لا يحافظ علىٰ السنن الرواتب؟!، وهي حريم الفرائض، مَن ضيَّعها أوشك أن يُضيّع بعض الفرائض!! وعلىٰ ذلك فِقِسْ سائر عباداته ﷺ.

ما قيمة السيرة النبوية في رجل يحفظ نصوصها حتىٰ لا يخفىٰ عليه شيء من تعامل الرسول ﷺ في بيته، وأنه يكون في مهنة أهله، ثم هو إذا عاد إلىٰ بيته دخله كأنه أسد هصور، ظلوم غشوم، يرىٰ في نفسه أنه معصوم، يُبْصِرُ الْقَذَاةَ في عَيْنِ زوجه أو أخيه، وَيَنْسَىٰ الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ؟!

ما قيمة السيرة في رجل يحيط بجوانبها، ويحفظ لعن صاحب السيرة ﷺ لآكل الربا، وهو يُصبح ويمسي مرابيًا؟!

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٢) رقم (٣٦٨٨)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٣٢) رقم (٢٦٣٩).

إن الغرض من السيرة هو فقهها، وهو أن يستحضر قارئها هذا النموذج الأمثل، الذي تستهدف الشريعة صناعته واقعًا حيًّا في الناس؛ بحيث يقارن واقعه بواقعه، وتوحيده بتوحيده، وعبادته بعبادته، وتعامله بتعامله، وسلوكه بسلوكه، ويسعىٰ -قدر ما يمكنه- للاقتراب من هذه الشخصية التي كانت يومًا من الأيام تسير علىٰ هذه الأرض، ثم ارتحلت، بعد أن أدّت الواجب، وأبقت الوصف نقيًا لمن يريد أن يتأسىٰ، لا لمن يريد أن يتسلىٰ.

إن فقه السيرة يقتضي أن نقتنع بأن نصوص الشرع أفضل دستور، وأعلىٰ تشريع، وأكمل قانون، وأنفع تنظيم؛ لأنها أنتجت لنا هذه السيرة العظيمة، وخرّجت أفضل جيل، وهم جيل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-؛ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

إن فقه السيرة يقتضي أن نعمل، فلا عذر لقاعد قادر، وبين ناظريه النص جليًّا، والسيرة واضحة.

فقه السيرة هو الفيصل بين الأماني والحقائق؛ فقراءة السيرة، والوقوف عند ذلك أماني وأحلام، لكنَّ الفقه يقظة وجِدٌّ، وعمل والتزام وسباق ومنافسة.

ستظل السيرة النبوية تُخلّد حياة أكرم مخلوق، حافظة لكل دقائق حياته التي رواها أهل الحديث والسير، يُشع ضوئها في كل مكان، وسنبقىٰ عُمْيًا إذا لم نفقهها ونعمل بها، وما يستفيد الأعمىٰ من النور إذا كان فاقدًا لبصره؟!

لأجل ذلك كانت هذه الفكرة، ونشأ هذا الكتاب، ثم ترعرع رجاء أن يُسهم في الاستفادة من سيرة الرسول ﷺ، واستثمارها الاستثمار الأتم الأكمل في حياتنا العاجلة والباقية.

فاللهم استجب، وأَعِنْ، وسدّد، وحقِّق الأمل، وأعظم النفع وبارك فيه، وتقبله عندك أحسن القبول.

رابعًا: أسباب اختيار جزيرة العرب منطلقًا للرسالة الخاتمة[1]

١) إن جزيرة العرب أرض حرة، لا سلطان لأحد من البشر عليها، ممن يعادون الدين من تلك الإمبراطوريات المعاصرة كالفرس والروم ونحوهم.

٢) إن جزيرة العرب لم تكن ذات ديانة موحدة غالبة في سائر بقاعها، فقد كانت الوثنية منتشرة، لكنها عبادات شتىٰ، فمنهم مَن يعبد الملائكة، ومنهم مَن يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد الأصنام -وهم الأغلبية-، ومع ذلك فهذه الأصنام متعددة، وربما كان لكل بلد صنم، وكان في معتقداتهم خلخلة، وفيهم من كان يرفض ذلك ويتحدث بنقده، ومنهم من كان علىٰ دين اليهودية أو النصرانية، وقلة متمسكة ببقايا من الحنيفية دين إبراهيم -عليه السلام-.

٣) بالإضافة إلىٰ ما سبق فإن الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية لها قيمتها ومكانتها في ذلك الوقت، فقد كان النظام القَبَلِيّ هو النظام السائد، وكان للعشيرة وزنُها في هذا النظام، فلما قام محمد ﷺ بدعوته وجد من قوة بني هاشم نصرةً له وحماية، يتقدم هؤلاء عمه أبو طالب، ثم مَن نصره ووقف معه يوم الحصار في الشِّعب، بل إن من الداخلين في الإسلام من استفاد من هذه العصبية القبلية.

٤) إن العرب الذين عاشوا في جزيرة العرب وفي مكة خاصة، كانوا بعيدين عن مظاهر المدنية، فهم -كما يقال- خامات طبيعية، لم تؤثر فيهم الحضارات والأفكار الأخرىٰ.

---

(١) حينما نتحدث عن هذه الأسباب فلا يَعُودُ هذا في الغالب أن يكون اجتهادًا في معرفة سبب الاختيار لا نملك عليه دليلاً من النصوص الشرعية، وإنما هو توقُّع وتلمُّس للأسباب، والعلم بالحكمة الحقيقية عند الله -سبحانه وتعالى-.

٥) وردت آثار، وأيدها بعض الباحثين تشير إلىٰ أن مكة المكرمة تقع وسط العالم[١]، وهذا مما يسهّل اتصال هذه الرسالة بمختلف البقاع وانتشارها بين الناس،

(١) انظر في من ذكر أن مكة وسط العالم ما يلي:
أولًا: من الناحية الشرعية:
أ- آثار مروية عن بعض الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، مثل عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- في الطبري ٥/ ٥٩١ وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- (٢/ ٥٥٣).
ب- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢ / ١٥٣).
ت- تفسير ابن عطية (٢/ ٣٢٢).
ج- تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢/ ١٢و٤/ ٥٨٣).
ح- الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٧٧٢).
خ- البسام، نيل المآرب تهذيب شرح عمدة الطالب (٢ / ٥١١).
ثانيًا: من الناحية العلمية:
عقدت الهيئة العامة للإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مدينة الدوحة بتاريخ ١٣/ ٤/ ١٤٢٩هـ الموافق ١٩/ ٤/ ٢٠٠٨م مؤتمرًا بعنوان «مكة مركز الأرض بين النظرية والتطبيق» تتابع فيه المُؤتَمِرون على تأييد هذا الرأي.
بحث نُشِرَ في مجلة البحوث الإسلامية، العدد الثاني (ص ٢٩٢) للدكتور حسين كمال الدين -رحمه الله تعالى- يقول في مقدمة البحث: (ومما يجدر ذِكْره في هذه المقدمة أنّي بعدما وضعت الخطوط الأولى في هذا البحث ورسمت عليها القارات الأرضية، وجدت أن مكة المكرمة هي مركز الدائرة تمر بأطراف جميع القارات أي أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا، وأن مدينة مكة المكرمة في هذه الحالة تعتبر مركزًا للأرض اليابسة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ [الشورى: ٧]. والعلم عند الله -جل شأنه-).
بحث نشرته الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بعنوان «إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة» للمهندس الدكتور/ يحيى وزير، دراسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية، وقد قال في خاتمة بحثه (ص ٤٩): (أثبتت الدراسة العلمية التي قمنا بإجرائها عن طريق القياسات الدقيقة وصور الأقمار الصناعية، باستخدام برامج معروفة يتم الاعتماد على نتائجها في الأبحاث العلمية، أن مكة المكرمة تتوسط اليابسة، ويظهر ذلك من خلال توسطها لأربعة دوائر تمر بحدود اليابسة لقارات العالم السبع وكذلك المراكز الجغرافية لقارات العالم).

والتاريخ الإسلامي بعد ذلك شاهد علىٰ فائدة بزوغ الدعوة الإسلامية من هذه المنطقة الوسطىٰ جغرافيًّا.

٦) تفوق اللغة العربية وسعة انتشارها، ففي الجزيرة العربية كانت لهم لغة واحدة، هي: اللغة العربية في مقابل تعدد اللغات في أماكن أخرىٰ كالهند مثلًا التي فيها (١٥) لغة رسمية[١]. وقابلت مرة في الحرم شخصًا من أهل داغستان؛ فأخبرني أن لديهم في بلده ستين لغة.

٧) إن مكة المكرمة تتميز بكثرة الوافدين عليها مِن زُوّار البيت، وعُمّاره، وحُجّاجه، وأصحاب التجارة، ومنتديات الأدب والشعر، وهذا يسهّل انتشار الرسالة في الجزيرة العربية عبر العائدين من مكة إلىٰ بلادهم كل عام، وهل كان إسلام الأنصار في المدينة إلا عن طريق موسم الحج؟ وهل كانت بيعة العقبة إلا في موسم الحج؟[٢].

٨) يقول ابن خلدون -رحمه الله تعالىٰ- في مقدمته: (وسكانها [٣] من البشر أعدل أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا وأديانًا، حتىٰ إن النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف علىٰ خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل -عليهم السلام- إنما يختص بهم أكمل النوع في خَلقهم وأخلاقهم، قال -تعالىٰ-: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله، وأهل هذه الأقاليم أكمل بوجود الاعتدال لهم)[٤].

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية (ص٢٢).
(٢) انظر: عبد الله الموسى، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية (ص ١٣٦).
(٣) قسم ابن خلدون العالم إلى سبعة مناطق أبعدهما في الشمال والجنوب الأول والسابع، ثم الثاني والسادس، ثم الثالث والخامس، ثم الرابع في الوسط، وهذه الثلاثة الأخيرة هي التي يشير إليها بقوله: (وسكانها...).
(٤) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون (ص ١٤١ – ١٤٢).

ومن تأمل في مكة موقعًا جغرافيًّا، وما توافر فيها وفي أهلها من خصائص دينية، واجتماعية وسياسية؛ أدرك شيئًا من الحكمة الإلهية لاختيار هذه البقعة لتكون مهبط الوحي ومنطلق الرسالة الخاتمة وقِبْلة المسلمين.

خامسًا: تخصيص محمد ﷺ بالرسالة العامة، وتكريم أمته بكونها الأمة الخاتمة

المسألة الأولىٰ: من إكرام الله -جل شأنه- لنبيه محمد ﷺ تخصيصه بأعباء الرسالة وحده، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١]؛ فتخصيص الله -جل شأنه- محمدًا ﷺ بهذا المقام العظيم؛ لينهض بأعباء الرسالة العامة، وليكون رسولًا للثقلين؛ تعظيم وتكريم وتخصيص له بالأجر الكثير والثواب الذي ليس له مثيل.

فلو أراد الله -جل شأنه- لأرسل في كل مصر وعصر رسولًا يحمل عن محمد ﷺ بعض عبء ما تحمل، ويَسقط عنه بذلك عناء وتعب كثير، ولكن الله -جل شأنه- لم يُرِد ذلك، وحمَّله وحده ﷺ أثقال النّذارة لجميع القرىٰ؛ ليظهر فضله بعموم رسالته، وتفضيلًا لها علىٰ سائر الأنبياء، ويعظم أجره بعظم جهاده وصبره، ويكثر ثوابه بكثرة من يؤمن به(١).

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ، وأُحِلَّت لي المغانم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعَث إلىٰ قومه خاصة وبُعِثت إلىٰ الناس عامة»(٢).

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٢٤/ ٤٧٤)، والبيضاوي، تفسير البيضاوي (٤/ ١٢٧)، وعبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس (ص ١٨٥- ١٨٦).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ٧٤) رقم (٣٣٥)، وصحيح مسلم (١/ ٣٧٠) رقم (٥٢١).

المسألة الثانية: تكريم أمة محمد ﷺ بكونها الأمة الخاتمة، وفيها:

١. كانت بعثة الأنبياء -عليهم السلام- لأقوامهم خاصة -كما سبق-، وبالتالي فهم يحملون معهم تشريعًا يتناسب مع القوم الذين بُعِثُوا إليهم، فهو تشريع ارتبطت صلاحيته بزمانه ومكانه، لا يلبث أن يطرأ عليه التعديل بحذف أو إضافة من النبي اللاحق له، حسب ما استجدَّ في البيئة الجديدة. ولما كانت بعثة محمد ﷺ عامة في الزمان والمكان، وكان النبي هو الخاتم؛ اقتضىٰ الأمر أن يكون التشريع الذي جاء به ﷺ متسقًا مع سعة الزمان والمكان، بمعنىٰ أن يكون كاملًا تامًّا، صالحًا للتطبيق، مُصلِحًا لكل أحوال الأزمنة والأمكنة أمامه، مهما نأىٰ المكان أو امتد الزمان، لا يحتاج إلىٰ إضافة، وليس فيه زيادة، ولذلك جاءت هذه الشريعة مختومة بقول المُنزّل لها الحكيم العليم -جل شأنه-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فالدين كَمُل، والنعمة تمَّت، والرضا مُتحقّق- بفضل الله تعالىٰ- بتطبيق هذا الدين في أيّ زمان ومكان.

وهذا شرف لهذه الأمة، تبعًا لشرف نبيها ﷺ بالتشريع الكامل والنعمة التامة.

٢. إن توقُّف الوحي، ووفاة صاحب الرسالة ﷺ، لا يعني انقطاع الدعوة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، قال -تعالىٰ-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بل الدعوة إلىٰ الله ماضية إلىٰ أن يرث الله -جل شأنه- الأرض ومن عليها؛ قال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقد تكفَّل الله -جل شأنه- أن يحفظ هذا الدين، بأمرين:

أ. حَفِظَ اللهُ -سبحانه وتعالىٰ- القرآنَ الكريم باقيًا كما أُنْزِلَ، سالمًا من التبديل أو النقص أو الزيادة أو التحريف؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف:٩].

ب. أن الله -سبحانه وتعالىٰ- جعل -جعلًا كونيًّا قدريًّا لا يتبدَّل- طائفةً من أمة محمد ﷺ لا تزال قائمةً علىٰ الحق كما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ لكي يكون منهج هذه الطائفة في الحياة وعلمها وعملها أسوة دائمة ونبراسًا وضَّاءً لكل من ينشد الحق ويستضيء بنور الإسلام[(١)]؛ فعن معاوية -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «لا يزال من أمتي أُمّة قائمة بأمر الله، لا يضرّهم مَن خذلهم، ولا من خالفهم، حتىٰ يأتيهم أمر الله[(٢)] وهم علىٰ ذلك»[(٣)]. والغالب أن المخالفة من الخارج، والخذلان من الداخل، فلا يضرّهم هذا ولا ذاك.

ولله الحمد والمنة، فقد نفَىٰ الحديث الضرّر كله، صغيره وكبيره، الداخلي والخارجي.

وقد كان ما أخبر به ﷺ، فإن هذه الأمة -ولله الحمد والمنة- لم يزل فيها طائفة ظاهرة، إن غُلبت طائفة في قُطْر من الأرض، كانت في القُطْر الآخر أُمّة ظاهرة منصورة[(٤)].

---

(١) انظر: بكر أبو زيد، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات (ص ٦٨- ٦٩).

(٢) قال النووي -رحمه الله تعالى-: (المراد بقوله ﷺ : «حتى يأتي أمر الله»: من الريح التي تأتي فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة) شرح صحيح مسلم (١٣/ ٦٦).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ٢٠٧) رقم (٣٦٤١)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤) رقم (١٠٣٧).

(٤) انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق على حسن وزملاؤه، الطبعة الثانية، (الرياض: دار العاصمة ١٤١٩)، (٦/ ١٢١-١٢٢).

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة؛ فإن هذا الوصف ما زال -بحمد الله تعالىٰ- من زمن النبي ﷺ إلىٰ الآن، ولا يزال حتىٰ يأتي أمر الله المذكور في الحديث، وفيه دليل لكون الإجماع حُجّة، وهو أصح ما استُدل به له من الحديث، وأما حديث «لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة»؛ فضعيف، والله أعلم)[1].

وكان من الأمم قبلنا (إذا بدّلوا دينهم بعث الله نبيًّا يبيّن الحق، وهذه الأمة لا نبي بعد نبيها فكانت عصمتها تقوم مقام النبوة، فلا يمكن لأحد منهم أن يُبدّل شيئًا من الدِّين إلا أقام الله مَن يُبيّن خطأه فيما بدَّله؛ فلا تجتمع الأُمة علىٰ ضلال)[2].

ومن هنا يظهر تميز هذه الأمة عندما خُتمت بها الرسالة، وظهر شرفها علىٰ سائر الأمم من خلال من النقاط الآتية:

١) إنها الأمة التي فضَّلها الله؛ بأن حَفِظ لها القرآن الكريم والسنة النبوية، فهي تقوم بنفسها مهتدية بالوحي المحفوظ لها؛ ليكون منهجًا تسير عليه، مهما امتدّ الزمان وتباعد المكان، لا يضرها مُخالف ولا خاذل، إلىٰ أن يأتي أمر الله -جل شأنه-، فهي كالرجل الذي بلغ حال التكليف والرشد، في مقابل الأمم التي كانت دون سن البلوغ والتكليف، فتحتاج إلىٰ رعاية وولاية عليها.

٢) فيه تكريم لها تعتز به، وهو تشريفها بالقيام بوظيفة الأنبياء، الدعوة إلىٰ الله.

٣) فيه تكريم لها، أنَّها أُمّة معصومة من أن تقع الأمة كلها في الخطأ، بل لا بد من أن يوجد منها وفيها تلك الطائفة المؤيدة بالحق، قائمة به، لا يبدّل أحد شيئًا من الدين إلا أقام الله من هذه الأمة مَن يبيّن خطأه.

وهذا وإن كان فيه تكريم وتشريف فهو -بلا شك - يتضمن مسؤولية عظمىٰ أمام الله -جل شأنه-، تحملته هذه الأمة، فالأجر عظيم، والحساب شديد، إن هي

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).
(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (٦ / ٤٦٦ - ٤٦٧).

قصَّرت في رسالتها، وقد قيل: (زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل)[١]، والذنب يعظم إذا وقع ممن نال مزيد نعمة عليه[٢]. يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير سورة المسد: (ولم يُنْزل الله في القرآن الكريم ذمّ أحد من الكفار بالنبي ﷺ باسمه إلا هذا الرجل وامرأته، وفي هذا من العبرة والبيان أن الأنساب لا عبرة بها؛ بل النسب الشريف يكون ذمه وعقابه علىٰ تخلفه عما يجب عليه من الإيمان والعمل الصالح أشد)[٣]. قال -تعالىٰ- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩-٣٠]؛ يقول الجصاص -رحمه الله تعالىٰ-: (قيل في تضعيف عذابهن وجهان؛ أحدهما أنه لما كانت نعم الله عليهن أكثر منها علىٰ غيرهن بكونهن أزواجًا للنبي ﷺ ونزول الوحي في بيوتهن وتشريفهن بذلك، كان كفرانها منهن أعظم وأجدر بعظم العقاب؛

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٥٣٦). ومحمد صدقي القنوجي، حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة، تحقيق مصطفى الخن وزميله، الطبعة الثانية، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠١) (ص١٨٥)، وقد يشكل على هذا أنه حري بهذه الأمة المفضلة أن يتجاوز عنها ما لا يتجاوز عن غيرها، وقد بيّن الجواب عن هذا ابن القيم -رحمه الله تعالى- في مدارج السالكين (١/ ٣٤٢)؛ فقال: (من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره في إعطائه منها ما حرمه غيره، فحُبِي بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخُصَّ بمزيد التقريب، وجُعِلَ في منزلة الولي الحبيب؛ اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص بأن يراعي مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم، ونعمه عليه أكمل، والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل وأخلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّهَ بما لم يُنبَّه عليه البعيد البراني، مع كونه يُسامَح بما لم يُسامَح به ذلك أيضًا، فيجتمع في حقه الأمران).

(٢) البيضاوي، تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل، وأسرار التأويل)؛ تحقيق محمد بن عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤١٨)، (٤/ ٢٣٠).

(٣) ابن تيمية، جامع المسائل (المجموعة التاسعة)، تحقيق عبد الرحمن بن حسن قايد، الطبعة الأولى، (مكة: دار عالم الفوائد ١٤٣٧)، (ص١٩١).

لأن النعمة كلما عظمت كان كفرانها أعظم فيما يستحق به من العقاب؛ إذ كان استحقاق العقاب على حسب كفران النعمة)[١]. و(لأنَّ الذنبَ منهنَّ أقبحُ فإنَّ زيادةَ قُبحه تابعةٌ لزيادةِ فضلِ المذنبِ والنعمة عليه)[٢].

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قول الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧]، وقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:١-٢]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة، والله المستعان.

(١) الجصاص: أحكام القرآن، تحقيق محمد صادق القمحاوي (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥)، (٥/ ٢٢٩).

(٢) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، (٧/ ١٠١).

الفصل الأول

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾

مقدمة

الفصل الأول من هذه السيرة المباركة، لنبينا محمد ﷺ يتحدث عن مولد الرسول ﷺ إلىٰ بعثته ﷺ، وقد ارتبطت عناصر هذا الفصل بأحداث جسام، جاء الأول منها متزامنًا مع مولد المصطفىٰ ﷺ، ولعِظَم هذا الحدث فقد نزل فيه سورة كاملة، تبيّن مصير مَن يحاول الاعتداء علىٰ حرم الله، تلك السورة هي سورة الفيل، قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥]، وهذه الحادثة حادثة أبرهة وجنده، وكانت قبل مولد النبي ﷺ بشهرين تقريبًا، وكأنها تمهيد لهذه الولادة العظيمة، وتنبيه لشأن هذا البيت وهذا الحرم، وأهله ومَن يُبعث منه.

وقد امتدت سلسلة هذه السيرة المباركة في هذا الفصل إلىٰ نزول الوحي علىٰ رسول الله ﷺ وهو في الغار في قوله -تعالىٰ- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

وبالتالي فهذا الفصل هو حديث تمهيدي للبعثة النبوية الشريفة؛ تناولت فيه نسبه الشريف ﷺ، ومولده، وما عاصره من تلك الحادثة العظيمة حادثة الفيل، ثم رضاعته ونشأته في ديار بني سعد، ثم عودته إلىٰ أُمّه، ثم وفاتها، وكفالة جده ثم عمه له، ثم نشأته في شبابه، ثم زواجه، وأزواجه وأولاده، ثم مشاركته في بناء الكعبة، وصورًا من حفظ الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ؛ ليكون الفصل التالي يبدأ من بداية نزول الوحي علىٰ الرسول ﷺ، عندما جاءه جبريل عليه السلام بـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

المبحث الأول

النسب الكريم للرسول ﷺ

أولاً: علم الأنساب، وحكم تعلُّم نسب الرسول ﷺ:

علم الأنساب، من أهم العلوم التي لقيت عناية خاصة عند العرب، قال الشهرستاني في الملل والنحل: (اعلم أن العرب في الجاهلية كانت علىٰ ثلاثة أنواع من العلوم: أحدها: علم الأنساب والتواريخ والأديان، ويعدونه نوعًا شريفًا، خصوصًا معرفة أنساب أجداد النبي -عليه الصلاة والسلام-)[1]؛ بل إن علم الأنساب مما تميز به العرب عن غيرهم من الأمم، ولما جاء الإسلام أقرّهم علىٰ ذلك، وحثّ علىٰ النافع منه من صلة الأرحام، وأنكر ما يسوء من التعصب القبلي والمفاخرة[2].

قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ- فيه (دليل واضح علىٰ تعلم الأنساب)[3].

(١) الشهرستاني، الملل والنحل (لبنان: مؤسسة الحلبي)، (٣/ ٨٣).

(٢) ورد النهي عن جعل النسب محل افتخار وتعالٍ على الناس؛ فعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب» رواه الترمذي في جامعه (٨/ ٤٥٥) رقم (٣٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وحسنه الألباني. فالنهي في هذا الحديث يتجه إلى الافتخار المذموم، لا إلى مجرد الانتساب.

(٣) ابن عبد البر، الإنباه على قبائل الرواة، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥)، (ص ١٥).

وفي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»[١].

وقال العيني -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال أبو محمد الرشاطي[٢]: الحض علىٰ معرفة الأنساب ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة)[٣].

(وكان عِلْم المعارف والأنساب لهذه الأمة من أهم العلوم التي وضعها الله -سبحانه وتعالىٰ- فيهم) [٤].

قال السمعاني -رحمه الله تعالىٰ-: (ومعرفة الأنساب من أعظم النعم التي أكرم الله -تعالىٰ- بها عباده؛ لأن تشعُّب الأنساب علىٰ افتراق القبائل والطوائف أحد الأسباب المُمهّدة لحصول الائتلاف) [٥].

وكان أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعليّ، وجبير بن مطعم[٦] -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، من أعلم الناس بالأنساب.

واهتم به من التابعين ومن بعدهم من أجلة العلماء: سعيد بن المسيّب، وابنه محمد بن سعيد، والزّهريّ، في جماعة من أهل الفضل والفقه والإمامة، كمحمد

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٤٧٩)، رقم (١٩٧٩)، وصححه الألباني.

(٢) هو: عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الأندلسي، وُلد عام (٤٦٦)، وتوفي عام (٥٤٢) أبو محمد، المعروف بالرشاطي: عالم بالأنساب والحديث، من أهل أوريولة، سكن المرية، وتعلم بها. من كتبه «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار»، قال ابن كثير: هو من أحسن التصانيف الكبار، وقال حاجي خليفة: هو من الكتب القديمة في الأنساب» الأعلام للزركلي (٤/ ١٠٥).

(٣) العيني، عمدة القاري (١٦/ ٦٩).

(٤) السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الطبعة الأولى: حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية (١٣٨٢، (ص ٢).

(٥) الأنساب، السمعاني (ص ٣).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٩٧)، وقال: وكان جبير أنسب العرب للعرب، وكان يقول: (إنما أخذت النسب من أبي بكر الصديق، وكان أبو بكر أنسب العرب).

بن إدريس الشافعي، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وغيرهم -رحمهم الله تعالىٰ جميعًا-[1]. ثم كثرت فيه التصانيف والمؤلفات.

هذا ما يخص علم الأنساب بعامة، أما النسب الشريف للرسول ﷺ بخاصة، فيقول ابن حزم -رحمه الله تعالىٰ-: (فوجب بذلك أن علم النسب علم جليل رفيع، إذ به يكون التعارف. وقد جعل الله -تعالىٰ- جزءًا منه تعلُّمه لا يسع أحدًا جَهْلُه، وجعل -تعالىٰ- جزءًا يسيرًا منه فضلًا تعلّمه، يكون من جهله ناقص الدرجة في الفضل. وكلّ علم هذه صفته فهو علم فاضل، لا يُنكر حقّه إلا جاهل أو معاند. فأما الفرض من عِلم النسب، فهو أن يعلم المرء أن محمدًا ﷺ الذي بعثَه الله -تعالىٰ- إلىٰ الجنّ والإنس بدين الإسلام، هو محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي، الذي كان بمكة، ورحل منها إلىٰ المدينة. وأما الذي تكون معرفته من النّسب فضلًا في الجميع، وفرضًا علىٰ الكفاية، نعني علىٰ من يقوم به من الناس دون سائرهم، فمعرفة أسماء أمهات المؤمنين، المفترض حقّهن علىٰ جميع المسلمين، ونكاحهنّ علىٰ جميع المؤمنين حرام؛ ومعرفة أسماء أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذين حبّهم فرض. فإن لم نعرف أنساب الأنصار، لم نعرف إلىٰ مَن نُحسن ولا عمَّن نتجاوز؛ وهذا حرام)[2].

وقال القلقشندي -رحمه الله تعالىٰ-: (العلم بنسب النبي ﷺ، وأنه النبي القرشي الهاشمي الذي كان بمكة، وهاجر منها إلىٰ المدينة، فإنه لا بد لصحة الإيمان من معرفة ذلك، ولا يُعْذَر مسلم في الجهل به، وناهيك بذلك)[3].

(١) انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٣)، (٢-٣)، وابن عبد البر، الإنباه على قبائل الرواة (١٢-١٣).

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب (٢-٣).

(٣) القلقشندي، نهاية نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الثانية: (بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٤٠٠)، (١/ ٦).

ثانيًا: نسب الرسول ﷺ:

إذا عرفت مقام علم الأنساب شرعًا، وعُرْفًا عند العرب، بعامة ومقام النسب الشريف بخاصة؛ فإن النسب الشريف لنبينا محمد ﷺ هو:

«محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[(١)]»[(٢)]. قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم -صلىٰ الله عليهما وعلىٰ نبينا وآله سلم- بإجماع الناس)[(٣)]. وهذا ثابت أيضًا بالحديث النبوي، وفيه «إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ من قريش[(٤)] بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[(٥)]، وسيأتي بعد قليل.

---

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (٦/ ٥٢٩): (وروى ابن حبيب في تاريخه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال مات عدنان وأبوه وابنه معد، على الإسلام على ملة إبراهيم).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٦٢)، كتاب رقم ٦٣، باب ٢٨، ويمكن أن يأتي نسب الرسول من جده قصي إلى عدنان على هذا النحو تسهيلاً لحفظه: قصَّت كلابٌ مرةً كعبَ لؤي فغالبها فهرُ بن مالكٍ الذي نضَّر كنانةَ خزيمة فأدركه يأسٌ مُضِرٌّ بنزار مُعْدٍ لعدنان؛ فكل كلمة تعني اسم رجل حسب تسلسل نسب الرسول عدا الذي) أفادني بذلك فضيلة الدكتور أحمد بن محمد أبابطين -رحمه الله تعالى-، وأظن أنها من بنات أفكاره.

(٣) سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية)، (١/ ٢٩).

(٤) قال ابن هشام: النضر هو قريش، فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي، وإنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم من التقرش، وهو التجارة والاكتساب، وقال ابن إسحاق: ويقال إنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم؛ لتجمعها من بعد تفرقها، ويقال للتجمع: تقرش، انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٠٢-١٠٣)، وابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٠٠- ٢٠١).

(٥) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٢) رقم (٢٢٧٦). من حديث واثلة بن الأسقع -رضي الله تعالى عنه-.

ونسب الرسول ﷺ بعد ذلك بين عدنان إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- مختلف فيه بين أهل السير. قال عروة بن الزبير-رحمه الله تعالىٰ ورضي عن أبيه- : (ما وجدنا من يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصًا)[١].

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (فالأمر عندنا علىٰ الانتهاء إلىٰ معد بن عدنان ثم الإمساك عما وراء ذلك إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم)[٢] -عليهما السلام-.

أما بعد ذلك، أي من إبراهيم -عليه السلام- إلىٰ آدم -عليه السلام-؛ فمن ذكر فيه شيئًا فلا دليل معه، يمكن أن يعتمد عليه في هذا النسب، بل إن فيه نسبًا غير صحيح[٣].

وأما أمه ﷺ فهي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فهي تلتقي مع زوجها في جدهما (كِلَاب بن مرة)، وقصي وزهرة أبناء كلاب، أخوان، الأول: جد للنبي ﷺ من جهة أبيه، وزهرة: جد للنبي ﷺ من جهة أُمّه.

وآمنة أقرب نسبًا من زوجها عبد الله إلىٰ جدهما (كِلَاب) برجل[٤].

فهذا هو النسب الشريف الذي نتعبد الله -جل شأنه-، ونتقرب إليه بمعرفته.

أجداد الرسول ﷺ:

١) قُصي[٥]: هو الذي جمع قريشًا، واستعاد سلطتها علىٰ الحرم، وكانت له مكانة عظيمة في قريش حتىٰ كانوا يقولون للرسول ﷺ بعد بعثته: ابعث لنا قصيًّا، فإنه

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية)، (١/ ٢٩).

(٢) ابن سعد، الطبقات، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى (بيروت: دار صادر ١٣٨٨)، (١/ ٥٧).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٥١).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية)، (١/ ٣٢).

(٥) وقُصي "اسمه: زيد، وهو تصغير قَصي أي: بَعيد، لأنه بَعُد عن عشيرته في بلاد قضاعة حين احتملته أمه فاطمة مع زوجها ربيعة بن حرام» الروض الأنف (١/ ٤٧).

كان شيخ صدق، فإن شهد لك اتبعناك[١].

٢) لما هلك قصي خلفه أولاده الأربعة (عبد مناف وعبد الدار وعبد العزىٰ وعبد قصي)، وكان أشرفهم في قريش عبد مناف الذي كانت له السقاية والرفادة[٢].

٣) بعد عبد مناف خلفه ابنه هاشم، وهو أول من سَنَّ رحلتي الشتاء والصيف، وسُمِّي هاشمًا لكونه يهشم الثريد للحجاج، واسمه الحقيقي (عمرو)[٣].

٤) ثم بعد هاشم جاء ابنه عبد المطلب الذي نشأ في المدينة، وكان شبيهًا بجده الأعلىٰ (قُصي)، وهو الذي حفر بئر زمزم، وهو الذي أقسم إن رزقه الله عشرة من الولد أن يذبح أحدهم[٤].

يقول المصطفىٰ ﷺ عن نسبه الشريف: «إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وأقف هنا لأقول:

١. لقد اتفقت الكلمة، وشهد حتىٰ الأعداء بطهارة هذا النسب الشريف ورِفعته وتميزه، فقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان[٥] قبل إسلامه وعندما كان محاربًا للرسول ﷺ، عن نسب الرسول ﷺ فقال: (هو فينا ذو نسب)[٦].

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٥١).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٤٤).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١ / ١٤٧).
(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٦٤).
(٥) هذا السؤال وقع بعد صلح الحديبية، أثناء رحلة لأبي سفيان -رضي الله تعالى عنه- للتجارة، فاستدعاه هرقل، وكان أبو سفيان لا يزال في ذلك الوقت على شركه. والحمد لله الذي هداه للإيمان، قال الذهبي -رحمه الله تعالى-: (وشهد قتال الطائف -يعني مع الرسول ﷺ-، فقُلعت عينه حينئذ، ثم قُلعت الأخرى يوم اليرموك، وكان يومئذ قد حسن -إن شاء الله- إيمانه) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٦).
(٦) الإمام البخاري، صحيح البخاري (١/ ٥)، كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٦.

٢. لمكانة هذا النسب الكريم لم نجد أحدًا من أعداء الرسول ﷺ ذكر طعنًا في نسبه، مع حرصهم الشديد علىٰ اختلاق كل ما يمكن أن يشوِّه سمعته أو ينقص من مقامه الشريف ﷺ.

٣. إن النبي ﷺ أخبرنا بهذه النسب الشريف؛ تحدثًا بنعمة الله عليه وشكرًا له، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ:١١]، ولأنه من جملة ما خصَّه الله -جل شأنه- به من الفضائل والمكارم، (وهذه الخصائص والفضائل التي حَدَّث بها النبي ﷺ عن نفسه، إنما كان ذلك منه؛ لأنها من جملة ما أُمِرَ بتبليغه؛ لما يترتب عليها من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حقّ في نفسه، وليُرغِّب في الدخول في دينه، وليتمسك به من دخل فيه، وليعلم قدر نعمة الله عليه في أن جعله من أُمَّة من هذا حاله، ولتعظم محبَّته في قلوب مُتَّبعيه، فتكثر أعمالهم، وتطيب أحوالهم، فيحشرون في زمرته، وينالون الحظَّ الأكبر من كرامته. وعلىٰ الجملة فيحصل بذلك شرف الدنيا، وشرف الآخرة؛ لأنَّ شرف المتبوع متعدٍّ لشرف التابع علىٰ كل حال)[١].

٤. جاء الإسلام والعرب يتفاخرون بالأنساب، وينزلونه المنزلة الأولىٰ في التفاضل، ثم تأتي بعده عندهم الفضائل الأخرىٰ[٢]، والإسلام في شرائعه يهذِّب الطبائع والأعراف، ويوجِّهها إلىٰ ما فيه الخير، ولا يصادمها، ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، يقول الرسول ﷺ : «ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالما فلينْهه، فإنه له نَصْر، وإن كان مظلومًا فلينصره»[٣]. هذا مثال علىٰ توجيهٍ من الرسول

(١) أبو العباس القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق محيي الدين ديب ميستو وزملائه، الطبعة الأولى، (دمشق: دار ابن كثير، دمشق ١٤١٧، ٦/ ٤٩).

(٢) انظر: موسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الطبعة الأولى (دار الشروق: ١٤٢٣)، (٩/ ٨٤).

(٣) متفق عليه: صحيح مسلم رقم (٢٠٨٤)، واللفظ له من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما-، وصحيح البخاري (٣/ ١٢٨) رقم (٢٤٤٣)، من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- بمعناه.

ﷺ لما يتعارف عليه العرب في التناصر، دون نظر لأخيهم هل هو ظالم أو مظلوم؛ فأقر الرسول ﷺ المبدأ في جُملته، مع تعديلٍ يتّفق مع أصول الإسلام، ومثل ذلك الاهتمام بالانتساب للقبائل أقرّه الإسلام، لكن جعل منزلته بعد منزلة التقوىٰ، واعتبره وسيلة للتعارف وأداء الحقوق، وصلة الرحم، لا غاية بذاته، قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]. وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن رسول الله ﷺ، قال: «تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»[١].

٥. هذا المبدأ المعلن يُطبّق عمليًّا في الإسلام، فأبو لهب هاشمي قرشي عمّ للرسول ﷺ، ولما لم يؤمن قال الله -جل شأنه- فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:١-٣]، وبلال -رضي الله تعالىٰ عنه- كان عبدًا حبشيًّا يُباع ويُشترىٰ في مكة، ولما آمن أخبرنا جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- كان يقول: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا؛ يعني بلالًا)[٢]. فالقَبَلِيّ الهاشميّ القرشيّ يقال له (تبت يدا أبي لهب وتب) لما كفر، وبلال يصبح سيدًا بعد أن كان عبدًا، لما آمن.

٦. ولا يعني هذا إلغاء هذا التفاضل القبلي، بل توجيه وتهذيب، ثم لما استقرت النفوس علىٰ المنزلة الفضلىٰ والدرجة العليا للإيمان والتقىٰ، جاز شيء من الفخر الذي هو حمدٌ وشكرٌ علىٰ النعمة، لا تعالٍ للنفس، أو ازدراء لآخر، وعليه يُحمل ما ورد علىٰ ألسنة بعض الشعراء المسلمين.

٧. وعلىٰ هذا فإن الانتماء القَبَلي لا يعدو أن يكون مِثْل سائر ما يَمنحه الله -جل شأنه- للشخص من سائر نِعَمه، كالغنىٰ والفقر، والعلم والجهل، والذكاء

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٧٨) رقم (٣٤٩٣)، وصحيح مسلم رقم (٢٥٢٦).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٧) رقم (٣٧٥٤).

وضده، ونحوه مما هو مُكتَسب أو غير مكتسب[1]، وليس لشخص أن يتباهىٰ بماله أو بذكائه، أو بعلمه، وكذا (الفخر بمجرد النسب لا يجوز)[2]، (والتفاخر بالأنساب من دعوىٰ الجاهلية، وقد تبرأ النبي ﷺ من هؤلاء)[3]، وعليه فإن العبرة كيف تَعَامَل الشخصُ مع هذا المال، أو الذكاء، أو العلم، أو النسب، فإن سخّره في طاعة الله -تعالىٰ- كان حجة ونورًا لصاحبه، وإن سخَّره في التعالي علىٰ الناس واحتقارهم، فهو وبالٌ عليه، والمتكبرون المتعالون علىٰ الناس -سواء بسبب مالهم أو مناصبهم أو نسبهم- يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤوهم الناس، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، عن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون علىٰ الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية[4] الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب»[5].

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٩): (هؤلاء لا يخصون الكفاءة بالنسب بل يقولون هي من الصفات التي تتفاضل بها النفوس كالصناع واليسار والحرية، وغير ذلك، وهذه مسائل اجتهادية تُرد إلى الله والرسول.... وليس هناك نص صحيح صريح في هذه الأمور، بل قد قال ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء؛ الناس رجلان مؤمن تقي وفاجر شقي»).

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، الفتاوى الشرعية في المسائل العصرية (ص ١٣٤٦).

(٣) ابن عثيمين، الفتاوى الشرعية في المسائل العصرية (ص١٣٤٨)، وقال في مجموع الفتاوى (٣٢/ ٣٦٩): (الطعن في النسب أو الفخر به من أمور الجاهلية، والذي ينبغي أن يكون مصدرًا للحمد والذم هو الدين والخُلق).

(٤) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ١٦٩): (عُبِّيَّة الْجَاهِلِيَّةِ: يَعْنِي الكِبْر، وتُضَمّ عينُها وَتُكْسَرُ. وَهِيَ فُعُّولَةٌ أَوْ فُعِّيلَةٌ، فَإِنْ كَانَتْ فُعُّولة فَهِيَ مِنَ التَّعْبِيَة؛ لِأَنَّ المُتكبر ذُو تكلُّف وتَعْبية، خِلَافَ مَنْ يَسْتَرسِل عَلَى سَجِيَّتِه. وَإِنْ كَانَتْ فُعِّيلة فَهِيَ مِنْ عُبَاب المَاء، وَهُوَ أولُه وارتفَاعُه).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه (٨/ ٤٥٥) رقم (٣٩٥٥)، وأبو داود في سننه (٥١١٦)، وحسنه الألباني.

٨. دل الحديث علىٰ (جواز التحدث بتشريف النسب، وهو من التحدث بنعمة الله واصطفاء الله لهذه القبائل بأن جعل إليها أمر الناس، وجعلها أهل صفات الخير من الكرم والشجاعة والنجدة وعلو الهمة)[1]؛ فالتحدث بالنعمة شكرًا لله -تعالىٰ-، شيء، والتفاخر والتعالي علىٰ الناس شيء آخر.

٩. وتعلو قيمة النعمة بقدر تسخيرها في طاعة الله -جل شأنه-، فكما أنه -«نِعْم المال الصالح للمرء الصالح»[2]؛ فكذلك نِعْم القبيلة للرجل الصالح الذي ستُفِيده هذه المكانة، في دعوة الناس وتعليمهم وقبولهم لهذا الدين، والانقياد لشرائعه.

١٠. ولعل بذلك تظهر لنا حكمة التفاضل بين الناس، وأنها ليست خاصة بأمر واحد؛ فهذا أعطاه الله المال، وهذا أعطاه العلم، وهذا أعطاه الله الجاه، وهذا أعطاه الرفعة في النسب، والله -تعالىٰ- يقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣]؛ فالأمر هبة إلهية من الحكيم العليم، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ فهو ابتلاء فيما آتانا، ثم لننتبه إلىٰ أن الله -جل شأنه-، أتبع هذا الابتلاء بوعيد، ووعد، وختم به السورة.

١١. ولا شك أن الحكمة ظاهرة واضحة للعيان في كون الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة، لما يعود علىٰ الرسول ﷺ والدعوة بالحماية والنصرة، ولقد وقفت

(١) محمد بن إسماعيل الصنعاني المعروف بالأمير، التنوير بشرح الجامع الصغير، تحقيق محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة دار السلام، ١٤٣٢، (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٩/ ٢٩٨)، رقم (١٧٧٦٣)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثالثة (بيروت: دار البشائر الإسلامية (١٤٠٩)، (١/ ١١٢) رقم (٢٩٩)، واللفظ له من حديث عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه-، وصححه الألباني.

قبيلة الرسول ﷺ مواقف طيبة في حمايته، كما أنهم دخلوا معه الشِّعب، ولما حاول كفار قريش قتله كان من العقبات التي أهمّتهم قبيلته ﷺ، ووقف أبو طالب مواقفه المشهورة، وإسلام حمزة ﷺ كان أصله وبدايته - كما تقول كتب السير - حميةً لابن أخيه.

١٢. ومن الحكمة أيضًا في كون الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة بارزة مميزة؛ أن العرب كانت تعرف نسبه وأصالته، فلا تجد غضاضة في الانضواء تحت لوائه، ولنا أن نتصور ظهور شخص من الموالي بين هذه القبائل، ماذا سيكون رد فعل القبائل؟ ولقد قال الكفار مع هذا النسب الرفيع: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١].

١٣. ولعل من الحكمة في ذلك أن تكون دعوته إلىٰ المساواة والعدل قائمة علىٰ أسس ثابتة، وليست رد فعل لحالة نفسية أو مكانة اجتماعية، فلو لم يكن محمد ﷺ في هذا النسب الرفيع لوجدنا من يقول: إن محمدًا إنما يطالب بما افتقده؛ ليرد اعتباره الاجتماعي. ولقد رأينا كثيرًا من الدعوات المنحرفة الباطلة كانت دعوتهم صدىٰ لواقع سيئ لما عاشوه(١)، فمثلاً الماركسية الملحدة دعا إليها رجل عاش منبوذًا في المجتمع، فأراد رد الاعتبار لنفسه بهذه الدعوة التي تواجه الرأسمالية التي افتقدها في حياته.

(١) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ١٧/ ١٨.

المبحث الثاني

حادثة الفيل

في عهد زعامة عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وقعت حادثة الفيل التي تزامنت مع العام الذي وُلِدَ فيه الرسول المصطفىٰ ﷺ. وخلاصة القصة: أن أبرهة الحبشي نائب ملك الحبشة في اليمن لما رأىٰ العرب تتوافد علىٰ البيت في مكة، وتحُجّه كل عام بنىٰ كنيسة كبيرة بصنعاء وأسماها (القُليس)[1]، وأراد أن يصرف العرب للحج إليها بدلًا من البيت الحرام بمكة، فسمع بذلك -كما يُروىٰ- رجل من بني كنانة فسار إليها، ودخلها ليلًا ولطخ جدرانها بالعَذِرَة[2]، فلما علم أبرهة بذلك غضب، وقرَّر أن يهدم الكعبة، وسار بنفسه يقود جيشًا عدده ستون ألف جندي، وكان في جيشه عدد من الفِيَلة، ومضىٰ يشقّ طريقه لا تقف له قرية إلا هزمها، حتىٰ وصل إلىٰ المُغَمَّس[3]، وهناك ساق أموالاً لقريش، منها مائتا بعير لعبد المطلب،

(١) قال أبو القاسم السهيلي في الروض الأنف (١/ ٢٠٣): (وسميت هذه الكنيسة بالقُلَّيس لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس؛ لأنها في أعلى الرؤوس، ويقال تقلنس الرجل وتقلس إذا لبس القلنسوة).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (١/ ٩٧) وتفسير الطبري، تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار هجر ١٤٢٢)، (٢٤/ ٦٣٥)، وتفسير ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠)، (٨/ ٤٨٤). والمباركفوري، الرحيق المختوم، الطبعة الأولى (ص ٤٢).

(٣) المغمس: مكان لا يزال معروفًا شرقي الحرم المكي، يشرف عليه من جهة الشرق جبل كبكب، وعرفة في نهاية المغمس من الجنوب، فهو على مسافة عشرين كيلو من مكة. محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٧٧). وقال عاتق بن غيث البلادي -رحمه الله تعالى- في كتابه معالم مكة التاريخية والأثرية (١/ ٢٨٠): (المُغَمّس: بضم الميم وفتح الغين المعجمة وتشديد الميم مع الفتح وآخره سين مهملة، سهل أفيح يمتد من الشمال=

فجاء عبد المطلب -وكان سيد قريش- وقابل أبرهة، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه وأكرمه، وقال له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرد الملك عليَّ مائتي بعير التي أخذها، فقال أبرهة: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حينما كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه! قال عبد المطلب: (أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه). قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك[1]. ولجأت قريش إلىٰ الجبال وجلست تنظر ما يصنع أبرهة.

وأعدَّ أبرهة جيشه، وتهيَّأ لدخول مكة، فلما وجهوا الفيل -وكان اسمه محمودًا- إلىٰ مكة برك[2]، فضربوه؛ ليقوم فأبىٰ، ولما غيّروا وجهته قام يهرول، ثم أرسل الله

=إلى الجنوب، مبدؤه من الصفاح وأسفل حنين ولبن الأسفل، ومنتهاه عرفة -بالفاء- وجبل سعد، والخطم، تشرف عليه من الشرق سلسلة جبلية عالية، عظمها كبكب الذي تطلع شمس وسط المغمس من فوقه، وطرفها الشمالي يشرف على البجيدي وحنين والجنوبي جبل بَرَقة والوصيق، أما من الغرب فتحف بالسهل جبال الطارقي ويسمونها الطُّرَّق بتشديد الراء -كجمع طارق-، ويتصل بها جبل سلع في فيئها العشى، وجبال الشُّعُر جنوبًا حيث تنتهي بالخطم الذي يرى من عَرَفة- شمالاً غربيًّا.. فهو شرق مكة على ٢٠ كيلو... والمغمس كله في الحل)ا.هـ. وعلى هذا فإن أصحاب الفيل أهلكهم الله -جل شأنه- خارج الحرم، ولم يُعذَّبوا في الحرم. وابن القيم -رحمه الله تعالى- يرى أن وادي محسر بين مزدلفة ومنى هو مكان العذاب الذي نزل بأصحاب الفيل (زاد المعاد: ٢/ ٢٣٦)، والشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- يقول: (إن أصحاب الفيل لم يهلكوا هنا -يعني في وادي محسر-، بل في مكان يقال له المغمس حول الأبطح) محمد العثيمين، الشرح الممتع (٧/ ٣١٦)، ولا أدري ماذا يقصد؛ إذ من المعلوم أن الأبطح في مكة قريب جدًّا من المسجد الحرام من جهة المسعى. وانظر: عبد الرحمن المعلمي، آثار المعلمي (١٧/ ٥١٦)، (مجموع رسائل الفقه ج٢)؛ فقد أشار إلى أن وادي محسر نزل به عذاب، لكن ليس عذاب أصحاب الفيل، وانظر أيضًا: عبد الله الجبرين، تسهيل الفقه (٩/ ٤١).

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٣) وما بعدها.

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف (١/ ٢٢٢): (وقوله «فبرك الفيل» فيه نظر؛ لأن الفيل لا يبرك، فيحتمل أن يكون بروكه سقوطه إلى الأرض، لما جاءه من أمر الله -سبحانه-، ويحتمل أن يكون فَعَل فِعْل البارك الذي يلزم موضعه ولا يبرح؛ فعبر بالبروك عن ذلك).

-جل شأنه- عليهم طيرًا أبابيل تحمل أحجارًا، فلا تصيب أحدًا منهم إلا أهلكته.

وهذه الحادثة لها أهميتها البالغة عند العرب؛ فقد (كانت بنو إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام - يؤرّخون من بنيان الكعبة؛ فلم يزل كذلك حتىٰ مات كعب بن لؤي، فأرّخوا من موته، فلم يزل كذلك حتىٰ كان عام الفيل فأرّخوا من عام الفيل)[1].

وقد ذكر المؤرخون أنها وقعت تقريبًا في النصف من شهر المحرم الموافق لشهر فبراير سنة ٥٧١م؛ أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بحوالي خمسة وخمسين يومًا تقريبًا[2].

وفي هذه الحادثة نزل قول الله -تعالىٰ- لاحقًا علىٰ الرسول ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١-٥].

وقد جرىٰ ذكر الرسول ﷺ لهذه الحادثة مرتين:

الأولىٰ: عن المسور بن مخرمة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق.. وسار النبي ﷺ حتىٰ إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ. فَأَلَحَّتْ، فَقالُوا: خَلَأَتِ القَصْواءُ، خَلَأَتِ القَصْواءُ. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ما خَلَأَتِ القَصْواءُ، وما ذاكَ لَها بِخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَها حابِسُ الفِيلِ»[3].

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية (دمشق: دار القلم ١٣٩٧)، (١/ ٥٠). وانظر: النجم عمر، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١/ ٤٥.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة)، (١/ ٣٦)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨)، والمباركفوري، الرحيق المختوم ص ٥٩).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١).

الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما فتح الله علىٰ رسوله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين»[1].

ولعلي أقف مع هذه الحادثة الوقفات التالية:

أولًا: إن الله -جل شأنه- تولَّىٰ بنفسه، وبدون أن يُسند ذلك لأحد من البشر القضاء علىٰ هذا العدوان، ناسبًا الفعل إليه، فقال -جل شأنه-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، وجاء بكلمة ﴿كَيْفَ﴾ ولم يقل -جل شأنه- (ما فعل ربك)؛ بل أشار إلىٰ الفعل، وكيفية الفعل!! فلم يكتفِ بنسبة الفعل إليه مباشرة؛ بل هناك كيفية!! فالذي نزل بهؤلاء ليس هزيمة فقط أو شيئًا عاديًّا مما تعوّده الناس في مسألة غالب ومغلوب، ومنتصر ومنهزم، بل سَحْق وتشريد غير معهود في حياة البشر، وبطريقة غير متوقعة، نزلت من السماء مباشرة؛ لأنهم همُّوا بدخول حَرمه للاعتداء علىٰ بيته الحرام -جل شأنه-، واجترأوا علىٰ الشروع في هدمه، ولذلك جعله درسا للبشرية، يُتلىٰ خبره، ما بقي في هذه الدنيا زمان، وسعىٰ علىٰ الأرض إنسان.

ثانيًا: لعل في تخليد الله -جل شأنه- لحادثة الفيل بسورةٍ تُتلىٰ لكونها تحمل مكرمة حماية البيت التي هي تمهيد لمكرمة أعلىٰ حضر وقتها، وهي مكرمة بعثة النبي محمد ﷺ، ومكرمة نزول القرآن الكريم، فقد ذكرت كتب السير أن حادثة الفيل سبقت مولد المصطفىٰ ﷺ بأقل من شهرين، ولكأننا نقرأ أن الله -سبحانه- هيَّأ المنزل بحدث جليل؛ إكرامًا للنازل الضيف الجليل؛ محمد ﷺ. فجلالة الحدث كان إيذانًا بجلالة ما سيحدث.

ثالثًا: إن حادثة الفيل جاءت لتبرز وتُعلي مكانة قريش بين سائر القبائل العربية[2]،

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٢٥) رقم (٢٤٣٤)، وصحيح مسلم (٢/ ٩٨٨) رقم (١٣٥٥).

(٢) قال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٩٤): (إنما فعل ذلك بهم لإيلاف قريش ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم).

فهي القبيلة التي حُمِيَتْ، وإن لم تكن هي المقصودة، وإنما جاءتها الحماية تبعًا لا تكرمة لها -كما سيأتي-، وأرضها هي الأرض التي حُرِسَت، وسائر القبائل انتصر عليها أبرهة، واستباح أرضها وهو في طريقه إلىٰ مكة، فإذا ظهرت وبرزت مكانة قريش، وتميزت علىٰ سائر القبائل، ثم بُعِثَ منها وفيها محمد ﷺ، ثم انقادت هذه القبيلة وتابعت، فستنقاد فورًا سائر القبائل العربية.

فهي أشبه برأس صُنع ثم تابع، فانقاد سائر الجسد.

يشهد لهذا المعنىٰ أن قبائل العرب -حينما كانت الحرب سجالًا بين الرسول ﷺ وكفار قريش- كانوا ينتظرون ويقولون: إن هزم محمدٌ قريشًا دخلنا في دين محمد، وإن بقيت الزعامة في قريش لم نكن خسرنا علاقتنا بها، ولمَّا انتهىٰ الأمر، واستبان، ودخل الرسول ﷺ مكة فاتحًا، وانقاد هذا الرأس، انهالت القبائل العربية للدخول في دين الله أفواجًا، فبعد فتح مكة نزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

فقد سقط الرمز الذي صُنع، فتبعه من كان يقلِّده، ولو لم يكن هناك قبيلة قائدة لاستمرت الدعوة تواجه القبائل العربية قبيلةً قبيلةً.

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة: (فلما ردَّ الله الحبشة عن مكة، وأصابهم ما أصابهم من النقمة أعظمت العربُ قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤنة عدوهم)[1]، قال -تعالىٰ-: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٥٩)، وانظر: الذهبي، السيرة النبوية ص ٦، والشامي: سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٥٨). وقال الماوردي في أعلام النبوة، الطبعة الأولى، (بيروت: دار ومكتبة الهلال (١٤٠٩)، (ص ٢٠٨): (ولما انتشر في العرب ما صنع الله -تعالى- بجيش الفيل؛ تهيّبوا الحرم وأعظموه، وزادت حُرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالوفادة=

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧].

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير هذه الآية: (هذا تذكير خاص لأهل مكة، وإنما خُصّوا من بين المشركين من العرب؛ لأن أهل مكة قدوة لجميع القبائل، ألا ترىٰ أن أكثر قبائل العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة؟ فلما أسلم أهل مكة يوم الفتح أقبلت وفود القبائل معلنة إسلامهم)[1].

رابعًا: قال -تعالىٰ-: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١-٤]؛ قال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: (هذه السورة متصلة بالسورة الأولىٰ؛ لأنه ذَكّرَ -سبحانه- أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: لإيلاف قريش أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا علىٰ قريش)[2].

قال الخازن -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله -عز وجل-: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ يعني الكعبة، وذلك أن الإنعام علىٰ قسمين؛ أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل، والثاني جلب نفع، وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله عنهم الضر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية، وأداء الشكر)[3]. وهذا فهم عظيم لهاتين السورتين مجتمعتين.

=والسدانة والسقاية، والوفادة: مال تُخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعامًا للناس أيام منى، فصاروا أئمة ديانين وقادة متبعين، وصار أصحاب الفيل مثلًا في الغابرين).

(١) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢١ / ٣٣).

(٢) الشوكاني، فتح القدير، الطبعة الأولى، (دمشق: دار ابن كثير، دمشق١٤١٤،(٥/ ٦٠٨).

(٣) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية (١٤١٥)، (٤/ ٤٧٧).

قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة)[1].

إذًا المطلوب ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾؛ أي ليوحدوه، ويتركوا الشرك بالله -جل شأنه-. وهذا فيه فائدتان:

الأولىٰ: أن النعمة تستوجب الشكر.

الثانية: أن أعظم ما نشكر الله به هو التوحيد الذي نص الله عليه في هذا الآية، وأقبح صور كفر النعمة: إشراك مع الله غيره.

إن هذه الحادثة تخاطب كل مسلم، فهي وإن كان ظاهرها يا كفار قريش من الذي نصركم؟ مَن الذي دفع عنكم الفيل؟ مَن الذي يسَّر لكم سبل رحلة الشتاء والصيف، من الذي دفع عنكم الشر وجلب الخير؟ فمعناها خطاب لكل مسلم، إن الذي يدفع عنكم الشر هو الله، والذي يجلب لكم الخير هو الله، فاعبدوه وأفردوه بالتوحيد، لا تعبدوا ولا تتقربوا بعبادة لأحد غيره، لا إلىٰ نبي مرسل ولا إلىٰ مَلك مقرب ولا إلىٰ وليّ صالح ولا أضرحة ولا قبور؛ فالمنعم هو الله -سبحانه-، وهو المستحق وحده للعبادة. أليس الطواف عبادة؟ فلماذا الطواف حول القبور؟ أليس الدعاء عبادة؟ فلماذا عند الملمات ندعو ميتًا ونترك المحيي المميت؟!

خامسًا: في حادثة الفيل بيان وإظهار لقدرة الله -سبحانه- عيانًا، والتي باستقرارها في النفس، يُفرد العبد ربه بالخوف والوجل منه، والسورة وإن كانت خطابًا للمصطفىٰ ﷺ، فهي -أيضًا- خطاب لأُمته، وقوله -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب لشخص كأنه شاهَد الحدث بعينه، وهو سؤال تقريري يلفت النظر إلىٰ أن ما حدث قد يحدث في أيّ مكان، وفي أي زمان.

(١) السعدي، تفسير السعدي (٩٢٥).

سادسًا: في السورة الكريمة التي تخاطب المصطفىٰ ﷺ في بدايتها، وجاء في ثناياها قوله -تعالىٰ- ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إشارة إلىٰ أن الذي حمىٰ البيت سيحميك، والذي جعل مَن كادَ البيت في تضليل، سيجعل كيدَ مَن يعاديك في تضليل أشدّ، وقد كان الأمر كما وعد -سبحانه- قال -تعالىٰ- : ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق ١٥- ١٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، والمعنىٰ عام لكل مؤمن، فله من الحماية والحفظ بقدر ما حقّقه من المتابعة لرسوله ﷺ؛ فبقدر متابعتك للرسول ﷺ تُحْفَظ.

سابعًا: حادثة الفيل وما جرىٰ فيها من حماية ربانية للبيت الحرام، وتبعًا لذلك أهلها من قريش، ثم سلط الله عليها الرسول ﷺ في فتح مكة؛ أيقنت معه القبائل العربية صحة دعوة الرسول ﷺ، فقد رُوي أن العرب قالوا: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يُسْلِمون أفواجًا(١). فقد كانت حادثة الفيل دليلاً عند القبائل العربية علىٰ صدق المصطفىٰ ﷺ، بربطها بنصر الله له علىٰ قريش ودخوله مكة فاتحًا.

ثامنًا: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته التي في القرآن، قصة الفيل، قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ -٥]، وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أهل الحبشة النصارىٰ ساروا بجيش عظيم، معهم فيل، ليهدموا الكعبة لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن؛ فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم، فأرسل الله عليهم طيرًا أهلكهم، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ،

---

(١) انظر: ابو بكر الجزائري، أيسر التفاسير ص (١٤٣٢).

وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارىٰ خير من دينهم. فعُلِمَ بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي ﷺ، الذي وُلِدَ به في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته. فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظًا له وذبًّا عنه؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل. فقد علم أنه ليس من أهل الملل مَن يحج إلىٰ هذا البيت ويصلي إليه إلا أمة محمد ﷺ، ومحمد هو الذي فرض حجّه والصلاة إليه)[1].

تاسعًا: هذا الرجل الكناني الذي خرج من بلاده إلىٰ اليمن لماذا خرج وقطع هذه المسافات الطويلة؟

لقد قطع هذا الرجل هذه المسافات الطويلة؛ انتصارًا لمعتقده، وانتقامًا لحُرمة البيت، سار بنفسه وضحَّىٰ وبذل في سبيل مبدأه، وهو موقف يُذكِّرنا حقّ ديننا علينا، أن نسير، ونبذل ونضحِّي من أجل الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

إن العديد منا ليشعر بالتكاسل للقيام لهذا الدين في أقل الأمور، وهذا الرجل يمضي في رحلة شاقة؛ لأجل مقالة سمعها يريد أن ينتصر لبيت الله؛ إنها همّة وتضحية متىٰ كانت في قلب مسلم، نصر الدين وسعىٰ في رفعته. لكن لهذا الأمر ضوابطه، هو ما أشير إليه في الفائدة التالية.

عاشرًا: الحماس للدين والاهتمام به أمر مطلوب، لكن الطريقة التي سلكها الكناني، وإن كان حسن النية والمقصد، وتدل علىٰ همة عالية وعاطفة دينية، لكن ذلك لا يغني شيئًا إذا اختل المنهج.

وعليه فلم يكن هذا التصرف منه مُوفقًا، فقد استفز العدو بما لم يقدر عليه، ولم يكن للعرب طاقة علىٰ مواجهته، وجاء أبرهة الحبشي بهذه الجيش الجرار الجبار

(١) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٥٦).

ليهدم الكعبة، وقتل واستباح في سبيل ذلك، قبائل ومستضعفين، وكم من الضرر جناه هذا الكناني علىٰ الناس باجتهاد فردي عاطفي متعجّل.

وهذا ما تواجهه الأمة في عصورها الحاضرة من تصرفات فردية، ناتجة عن عاطفة دينية، ولكنها بعيدة عن المنهج الصحيح فتسببت في أضرار بالغة علىٰ الأمة.

ولذلك فإن من أهم الدروس الابتعاد عن التصرفات الفردية في القضايا التي تمسّ الأمة، والحذر من تبعات الاستعجال والعاطفة، والالتزام بالتروي والمشورة، والرجوع إلىٰ أولي الأمر من علماء وولاة، قال الله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣].

حادي عشر: إن أحوال العرب وقت حادثة الفيل تدل علىٰ أنهم كانوا أوزاعًا وأشتاتًا؛ فمنهم من هو خاضع للأكاسرة في العراق، ومنهم من هو خاضع للروم في الشام، ومنهم من هو خاضع للأحباش في اليمن، ومنهم القبائل العربية المتحاربة وسط الجزيرة العربية.

ولما جاءهم هذا الغزو الخارجي ماذا صنع بهم؟ كان يمر بالقبيلة تلو القبيلة فتتساقط بين يديه تساقط الفراش، فلم يكن للعرب بصفتهم عربًا مكانٌ في هذا العالم، فما حدث في قصة الفيل كان مقياسًا لحقيقة العرب وقوتهم المجردة من الإسلام حينما تتعرض لغزو خارجي.

هذه هي حقيقة القومية العربية المجردة، قبائل متصارعة فيما بينها، منها ما هو خاضع ذليل لغيره، ومنها ما هو متقاتل مع جاره، لا قيمة لها ولا حساب، وبعد أن انضوت تحت راية الإسلام، ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه، لهم قوة يُحسَب لها ألف حساب، والذي هيَّأ للعرب لهذه المكانة هو إيمانهم بالله -جل شأنه-؛ (وكل من له أدنىٰ معرفة بتاريخ العرب قبل الإسلام

وبعده يعلم أنه لم يكن للعرب قيمة تُذكَر ولا راية تُرهَب إلا بالإسلام، وبه فتحوا البلاد وسادوا العباد)[1].

«والدعوة إلىٰ العروبة كغايةٍ إذا عرضناها علىٰ ضوء الإسلام فبحثنا في القرآن الكريم؛ نجد أنه لم يرد في القرآن المبين لفظة العروبة والعرب بعينها ولا تجد فيه أن الله -تعالىٰ- ناداهم بهذا اللفظ الخاص، فلم يقل: (يا أيها العرب) أو (يا عرب)... وإنما نجد (يا أيها الناس) و(يا بني آدم) و(يا أيها الذين آمنوا)، و(قل يا أيها الكافرون)...)[2].

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالىٰ-: (إن الدعوة إلىٰ القومية العربية كما أنها إساءة إلىٰ الإسلام ومحاربة له في بلاده، فهي أيضًا إساءة إلىٰ العرب أنفسهم وجناية عليهم عظيمة؛ لكونها تفصلهم عن الإسلام الذي هو مَجدهم الأكبر وشرفهم الأعظم، ومصدر عزهم وسيادتهم علىٰ العالم، فكيف يرضىٰ عربي عاقل بدعوة هذا شأنها وهذه غايتها؟)[3].

ولهذا فإن في حادثة الفيل درسًا بليغًا لكل منخدع بالقومية العربية؛ فالعرب متىٰ تخلوا عن دينهم وعادوا إلىٰ قوميتهم العربية فقط فلن يعدو شأنهم شأن العرب يوم اجتاحهم أبرهة الحبشي[4].

---

(١) الشيخ عبد العزيز بن باز، نقد القومية العربية ص ٥٨، وانظر: صالح العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ٢٢٦؛ حيث قال: وما تبوأ العرب مكانهم القيادي في العالم كله ولن يتبوأ ذلك إلا بالقرآن كما شهد بذلك الأعداء فضلاً عن أهل القرآن.

(٢) د. صالح العبود، فكرة القومية على ضوء الإسلام (٢٢٣ / ٢٢٤).

(٣) الشيخ عبد العزيز بن باز، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع ص ١٤.

(٤) قال خادم الحرمين الشريفين الملك فهد -رحمه الله تعالى- في لقاء له برجال الصحافة عند مستهل ربيع الثاني عام ١٣٩٧هـ: وقد أدرك الجميع أن الأمة العربية لم يكن لها قيمة في يوم من الأيام إلا بالإسلام... وبدونه لم ترتفع؛ لتصبح خير أمة أخرجت للناس. د. صالح العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ٢٧٥، وعزاه إلى مجلة الدعوة بالرياض، عدد ٥٩٢)، (ص ٧) في ٢ / ٤ / ١٣٩٧هـ.

ثاني عشر: ليس معنىٰ هذا أن الإسلام حارب القوميات؛ بل -كما سبق أن ذكرت -أن الإسلام هذَّب ما وجد لدىٰ العرب من طبائع وأخلاق، ووجّهها الوجهة الحسنة؛ فالقول بأن الإسلام والقومية لا يلتقيان مبالغة غير صحيحة، ولا يوجد صراع بين الإسلام والقومية، وبخاصة القومية العربية، ولما فُتحت البلدان علىٰ أيدي الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، لم يتعرضوا للقوميات، بل بقيت تلك الأمم حتىٰ بعد إسلامها محتفظةً بقوميتها معتزةً بها، بعد اعتزازها بالإسلام، ومما يدل علىٰ ذلك أن القرآن الكريم كرّر في كثير من آياته دعوة النبي لقومه بقوله: (يا قوم)، وببحث سريع في القرآن الكريم، وجدت كلمة ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ وردت (٣٨) مرة استخدمت من قبل الرسل أو من بعض أتباعهم في نصح أقوامهم. والذي تغيّر هو أن هذا التمايز بين الناس في الشعوب والأعراق، والقوميات والقبائل، أصبح للتعارف والتعاون، لا للمفاخرة والتفاضل، سواء أكان التفاضل قبليًّا أو قوميًّا أو شعوبيًّا أو غيره من الإطارات التي تخرج عن الإطار الجامع ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا ﴾ [الآية:٧٨].

ثالث عشر: موقف عبد المطلب وهو مشرك، يقول لأبرهة: (وللبيت رب يحميه)، هذه العبارة لها دلالتها:

أ- إن هذا القول ليس قول عبد المطلب ولا رأيه منفردًا؛ فالعرب يعرفون الله، ويقرون بالرب -سبحانه-، وهذا توحيد الربوبية، ويلجأون إليه في الشدائد كثيرا، ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ومع ذلك كانوا مشركين؛ لأنهم كانوا يعبدون الملائكة والجن والأصنام ويجعلون لله أندادًا، ويصرفون صورًا من العبادة لغير الله، ويقولون عن الذين يدعونهم ويرجونهم، هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وهذا العمل بعينه موجود عند بعض المسلمين الآن، ولا يعلمون أنه هو عين شرك الجاهلية.

ب- إن هؤلاء القوم، بهذه الصفة التي قالها عبد المطلب، هم الذين بُعث فيهم محمد ﷺ، فاستغربوا دعوته، ولما فهموها رفضوها، وعادوه، وتآمروا عليه، وحاولوا قتله، وحاربوه حتىٰ نصره الله عليهم، فكسّر أصنامهم، وهدم كل بناء يُعبَد من دون الله أو يُطاف به، أو يُنحَر عنده، أو يُلْجَأ إليه في الشدائد. وحينئذ فليست القضية معرفة أن للبيت ربًّا يحميه، أو أن يعرف الشخص أن له ربًّا يرزقه وينصره، وإنما القضية أن يعلم أنه ليس له إلا إله واحد يَعبده، ويعمل بهذا العلم.

ج- إن هذه الكلمة (وللبيت رب يحميه)، تقال كذلك، ولهذا الدين رب يحميه، لا تخشَ علىٰ الدين؛ فالله ناصره، وإنما اخشَ علىٰ نفسك في التقصير في حق الدين؛ قم بواجبك، والله ناصر دينه -سبحانه وتعالىٰ-.

رابع عشر: إن عبد المطلب عندما قال عبارته المشهورة: (وللبيت رب يحميه) لم يقلها من باب التخلي عن تحمُّل المسؤولية، وهم العرب المعروفون بأَنَفتهم وعزّتهم وشجاعتهم، ولكنه قالها من باب الإنذار والتهديد لأبرهة، فهذا الكلام في ظاهره كلام فيه السهولة واللين؛ بل ربما الانهزام، يتصور بعض الناس أنه لا يقوله إلا الضعيف، وليس الأمر كذلك، بل هو كلام يُخفي في ثناياه الإنذار الشديد لهذا الرجل النصراني (أبرهة) يُنبّهه فيه إلىٰ أنه لا يحارب أهل مكة، وإنما يحارب الله -جل شأنه-، ويهدم بيتًا بناه خليل الله بأمر من الله -سبحانه وتعالىٰ-، فهو تهديد ووعيد قاله عبد المطلب وهو مشرك، وينبغي دائمًا أن يقوله المسلم القوي المنتصر بالله؛ إنه تهديد بحرب لم يألفها البشر، وأنَّىٰ لشخص أن يحارب الله؟!

خامس عشر: إن في حادثة الفيل درسًا لكلّ مَن تسوِّل له نفسه الاعتداء علىٰ حرم الله؛ فالله -جل شأنه- هو الذي تولَّىٰ حماية بيته، وهو يعجّ بالشرك والمشركين، فكيف لا يحميه اليوم وهو عامر بالطائفين والعاكفين والركع السجود؟

وقد قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما الكعبة فإن الله شرّفها وعظّمها وجعلها محرّمة، فلم يُمكّن الله أحدًا من إهانتها لا قبل الإسلام ولا بعده، بل لما قصدها أهل الفيل عاقبهم الله العقوبة المشهورة)(١).

ويقول الماوردي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان شأن الفيل رادعًا لكل باغٍ ودافعًا لكل طاغٍ)(٢).

سادس عشر: وإن كانت السورة تشير إلىٰ حماية الله -جل شأنه- لبيته الحرام؛ فإن هذا لا يُعْفِي المؤمن من واجبه في الإسهام في حماية هذا البيت، وهذا الدين، بصفة ذلك عبادة يتقرب بها إلىٰ الله -جل شأنه-، وهو واثق بنصر الله وتأييده وعظيم أجره.

وقد تكفَّل الله بحماية نبيه ﷺ، ومع ذلك كان ﷺ يأخذ بالأسباب، وكان الصحب الكرام يتسابقون في التشرف بالتحلق حوله حماية لها، ودفاعًا عنه وصونًا له من أيّ مكروه، حتىٰ إنهم يجعلون أنفسهم دروعًا وتروسًا دونه ﷺ مع إيمانهم بحماية الله له -جل شأنه-.

وكما أن الله -جل شأنه- قد تكفَّل بحفظ كتابه، إلا أن الأمة -بالأخيار منها- لم يألوا جهدًا في أسباب جمعه وحفظه والعناية به وطباعته ونشره، وتعليمه وتفسيره وترجمة معانيه، وغيره من وسائل التشرف في حفظ كتاب الله -سبحانه-.

وكذلك الحال في الدفاع عن البيت الحرام، لا يعني تركه لمن يريد أن ينال منه سوءًا، ويحتج المسلم بأن الأمر بيد الله -سبحانه-، وإن للبيت ربًّا سيحميه.

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ٤/ ٥٧٦، وانظر: مزيد إيضاح في الصفحات ٥٧٧ و ٥٨٣ من المرجع نفسه.

(٢) الماوردي، أعلام النبوة (٢٠٩).

فالمؤمن يعمل، والله -جل شأنه- ينصر -تفضلًا وكرمًا-، ومنه -سبحانه- العون والسداد والتوفيق والنصر.

سابع عشر: كما أن في حادثة الفيل درسًا في حماية الله -جل شأنه- لبيته، ونبيه ﷺ، فإن فيها تثبيتًا لكل مؤمن بأن الله يدفع عنه كيد أعدائه، فإذا كان الله -سبحانه وتعالىٰ- دفَع مَن يكيد لبيته، فمن باب أولىٰ أن يدفع كيد من يكيد لعباده المؤمنين؛ فإن حرمة المؤمن أعظم من حرمة البيت، وقد ورد عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه نظر يومًا إلىٰ البيت أو إلىٰ الكعبة؛ فقال: «ما أعظمك! وأعظم حرمتك!، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»[1]، وإذا كانت حرمة المؤمن أعظم فهي لا شك أحرىٰ بالدفع من الله -جل شأنه-، وهو القائل في محكم كتابه ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل:٢][2].

ثامن عشر: إن حماية الله -جل شأنه- لهذا البيت تلفت النظر إلىٰ أن له أهمية خاصة، علاوة علىٰ ما كان له في النفوس من احترام ممّا يعمق احترامهم له، فإذا خرج من هذه البقعة المفضّلة من يدعو إلىٰ الله -سبحانه- لم يكن هذا بالشيء الغريب؛ إذ هي أرض تولّىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- حمايتها، خاصةً أن حادثة الفيل تزامنت مع مولد الرسول الكريم ﷺ. يقول شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان أمر الفيل تقدمة قدّمها الله لنبيه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارىٰ أهل كتاب، وكان دينهم خيرًا من دين أهل مكة إذ ذاك؛ لأنهم كانوا عباد أوثان، فنصرهم الله علىٰ أهل الكتاب نصرًا لا صنع للبشر فيه، إرهاصًا وتقدمةً للنبي ﷺ الذي خرج من مكة، وتعظيمًا للبيت الحرام)[3].

---

(١) أخرجه الترمذي وقال عنه الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٠٠ رقم ١٧٥٥.

(٢) انظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٤٤.

(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد ١/ ٧٦.

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ)[1]. وهذا سبب إدراجها ضمن السيرة النبوية.

وقال أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش؛ إذ ذاك على النصارىٰ الذين هم الحبشة؛ فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش، وإنما كان النصر للبيت الحرام إرهاصًا وتوطئةً لبعثة محمد ﷺ)[2].

تاسع عشر: أرادوا بالفيل أن يسير متجهًا إلىٰ البيت الحرام، فوقف ولم يَسِر إليه، وحبسه الله -تعالىٰ- عنه، فوجهوه إلىٰ الجهات الأخرىٰ فاتّجه، ثم أرادوا أن يوجهوه إلىٰ البيت فامتنع! فضربوه بكل ما يستطيعونه من أدوات الضرب والإيلام، فلم يتحرك باتجاه الكعبة. ولو أن (أبرهة) أدرك الدرس واعتبر واتعظ، لكان خيرًا له، ولكنه طغىٰ، وكان الفيل خيرًا منه، فمضىٰ في طريق التجبر وقرر تنفيذ جريمته، فلم يبق إلا أن يأخذه الله -تعالىٰ- أخذ عزيز مقتدر.

وقد يهيئ الله للعبد ما يُوقظه إن كان فيه بقية خير؛ إمَّا مِنْ نُصْح ناصح، أو أمر يدبره الله له يُنبّهه من غفلته، لعله يرجع، فإن أبىٰ جعله نكال الآخرة والأولىٰ.

العشرون: وقفت متأملا في مسألة تأخير إرسال العقوبة الإلهية علىٰ أبرهة وجنده إلىٰ أن وصلوا حدود الحرم، واستسلم عبد المطلب وقريش، وخرجوا إلىٰ الجبال يترقبون تساقط جدران الكعبة، وسلموا أمرهم، وأعدَّ أبرهة فيلته وجنده، وظن أنه غالب، وحانت -كما يقولون- ساعة الصفر، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ [يونس:٢٤]. ولعل من حكمة الله في ذلك -والله أعلم- إبراز صورة من قوة الله عيانًا في أعلىٰ مقاماتها وفي أشد الحاجة إليها.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٣).

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٣٩).

فحينما يتجبر المخلوق، ويشتد الخطب، ويُوقن الناس بالهلاك، يخرق الله -جل شأنه- بقدرته، السننَ الكونية خرقًا يبهر العقول. وذلك كما حصل لغلام الأخدود من قبل، وكما حصل لإبراهيم -عليه السلام- مع من أراد إلقاءه في النار، وكما حصل لموسىٰ -عليه السلام- وقومه، حينما ظن فرعون وجنده أنهم قادرون، وقال أصحاب موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]؛ وفي كلها جاء النصر في أحوج ما يكون، فكانت النعمة أتم، والأثر أعظم، والعقوبة أشد إيلامًا، والله أعلم.

الواحدة والعشرون: يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وإنما حمىٰ الله -عز وجل- الكعبة من هذا الفيل مع أنه في آخر الزمان سوف يُسلَّط عليها رجل من الحبشة يهدمها حجرًا، حجرًا، حتىٰ تتساوىٰ بالأرض(١)؛ لأن قصة أصحاب الفيل مقدِّمة لبعثة الرسول محمد ﷺ التي يكون فيها تعظيم البيت، أما في آخر الزمان فإن أهل البيت إذا أهانوه وأرادوا فيه بإلحاد بظلم، ولم يعرفوا قدره، حينئذ يُسلِّط الله عليهم من يهدمه، حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض، ولهذا يجب علىٰ أهل مكة خاصة، أن يحترزوا من المعاصي والذنوب والكبائر؛ لئلا يهينوا الكعبة فيذلهم الله -عز وجل)(٢).

الثانية والعشرون: قد يقول شخص: كيف حمىٰ الله البيت من أبرهة، ولم يمنع الحجاج بن يوسف الثقفي عندما رمىٰ البيت بالمنجنيق أيام عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما-؟ وكذلك عندما اعتدىٰ القرامطة علىٰ الكعبة وأخذوا الحجر الأسود؟

تحدث عدد من العلماء عن هذه المسألة، ومنهم الإمام الماوردي -رحمه الله تعالىٰ-؛ فقال ما مختصره: (وآية الرسول ﷺ من قصة الفيل: أنه كان في زمانه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب هدم الكعبة ١٥٩٥ – ١٥٩٦.
(٢) ابن عثيمين، تفسير جزء عم ص ٣٢٠.

حملًا في بطن أمه بمكة؛ لأنه وُلِدَ بعد خمسين يومًا من الفيل، فكانت آية في ذلك من وجهين؛ أحدهما: أنهم لو ظفِروا لسَبَوْا واسترَقُّوا، فأهلكهم الله -تعالىٰ- لصيانة رسوله ﷺ أن يجري عليه السبي حملًا ووليدًا.

والثاني: أنه لم يكن لقريشٍ مِن التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب؛ لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لما أراده الله -تعالىٰ- من ظهور الإسلام تأسيسًا للنبوة وتعظيمًا للكعبة، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكًا للحج. فإن قيل: فكيف منع الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكًا ولم يمنع الحَجّاج من هدمها، وقد صارت قبلةً ومنسكًا حتىٰ أحرقها ونصب المنجنيق عليها؟

قيل: فِعلُ الحَجَّاج كان بعد استقرار الدين، فاستغنىٰ عن آيات تأسيسه، وأصحابُ الفيل كانوا قبل ظهور النبوة، فجعل المنع منها آيةً لتأسيس النبوة ومجيء الرسالة، علىٰ أن الرسول ﷺ قد أنذر بهدمِها، فصار الهدم آيةً بعد أن كان المنع آيةً، فلذلك اختلف حكمُهما في الحالين، والله -تعالىٰ- أعلم) ا.ه[1].

ويمكن أن يقال: إن أبرهة كان قاصدًا هدم الكعبة وإزالتها، أما الحَجّاج فلم يقصد هدم الكعبة، وإنما كان قصده القضاء علىٰ ولاية عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- علىٰ مكة، ورميه المنجنيق للكعبة لإرغام ابن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- ومن معه علىٰ الاستسلام.

أما ما فعله القرامطة الأشرار مِن سرقة الحجر الأسود، وأخذه إلىٰ بلادهم، ثم أعادوه بعد ٢٢ عامًا، فقد كان هذا بعد استقرارِ الشرائع، والعلم بشرف الكعبة، ووجوب الذَّوْد عنها مِن قِبل المسلمين، فهو ابتلاءٌ لأهل الإيمان، وإمهال لأهل

(١) الماوردي، أعلام النبوة (٢٠٧)، مختصرًا.

الضلال، بخلاف الحال قبل بعثة النبي ﷺ؛ حيث لم يكن هناك مَن يذود عن بيته الحرام.

إذا تبين هذا عُلِمَ أن حفظ الكعبة والذود عنها ليس مِنْ قَدَر الله الكوني، الذي لا يمكن أن يقع خلافه، وإنما هو بعد استقرار شريعة الإسلام مِنْ قَدَر الله الشرعيّ؛ حيث فرض الله علىٰ المسلمين الذود عن البيت الحرام وجميع الحرمات؛ وبهذا يزول الإشكال.

المبحث الثالث

مولد الرسول ﷺ

١. تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من بني زهرة، ثم خرج إلىٰ الشام (مدينة غزَّة) في عير من قريش في تجارة، ثم انصرفوا في طريق عودتهم إلىٰ المدينة، وتوقف عبد الله عند أخواله بني النجار؛ لشعوره بالمرض، وأقام عندهم أيامًا، ثم مات ودُفِنَ بالمدينة، ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه[١]، وعُمر عبد الله حينئذ خمسًا وعشرين سنة[٢]، وهذا اليتم هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحىٰ:٦].

٢. قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (لا خلاف أنه وُلِدَ ﷺ بجوف مكة)[٣].
أما مكان الولادة في مكة، فقيل: في الدار الكائنة في شِعب بني هاشم، وقيل: بالدار التي عند الصفا[٤]، وكانت القابلة هي الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف -رضي الله

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٣/ ١٣٩١) رقم (١٧٧١)، وفيه قول أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ، بعد ما تُوفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها). وانظر ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٠٦). وقال: (والذي رجّحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه -عليه الصلاة والسلام- توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه. وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه). وصححه الذهبي في السيرة سير أعلام النبلاء السيرة النبوية (١/ ٥٣)، ومادام قد ثبت من قول أنس رضي الله تعالى عنه-، فلا يُلتفت إلى غير ذلك من الأقوال، ممن هو دونه.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٣)، وابن قيم الحوزية، زاد المعاد (١/ ٦). والذهبي في السيرة (سير أعلام النبلاء السيرة النبوية) (١/ ٥٣).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٧٤).

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٩)، والشامي، سبل الهدى (١/ ٤٠٨).

تعالىٰ عنه وعنها-[١]. وعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»[٢].

٣. لا خلاف أن الرسول ﷺ وُلِدَ يوم الاثنين لحديث: أنه سُئِلَ عن صيام يوم الاثنين، فقال: «ذاك يوم وُلِدْتُ فيه، وأُنْزِلَ عليَّ فيه»[٣].

واختلفوا في أيّ شهر وُلِدَ؟

فقيل: وُلِدَ في رمضان، واستدلوا علىٰ هذا بأنه ﷺ بُعِثَ علىٰ رأس الأربعين، وقد بُعِثَ في رمضان فتكون ولادته في شهر رمضان[٤].

ولكن الصحيح أنه ﷺ وُلِدَ في ربيع الأول[٥]، واكتفىٰ به السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-، ولم يحدد يومًا من الشهر[٦].

ثم اختلفوا في أيّ يوم من ربيع الأول؟ علىٰ الأقوال التالية:

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٧)، رقم ١٣، وقال محققه: رواه أيضًا أحمد والطبراني في الكبير وإسناد أحمد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ٣٤٥١.

(٣) صحيح الإمام مسلم (٢/ ٨١٩) رقم ١٩٧ من حديث أبي قتادة الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-.

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨)، ونقل هذا القول ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٦٠)، وقال عنه: وهو قول غريب جدًّا، وعقّب على الدليل الذي أشرت إليه بقوله: وهذا فيه نظر.

(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة)، (١/ ٣٦)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨).

(٦) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨)؛ إلا أنه قال: (وأهل الحساب يقولون: وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان فكانت لعشرين مضت منه) والعشرون من نيسان يوافق التاسع من ربيع الأول.

٢ ربيع الأول[١].

أو ٨ ربيع الأول[٢].

أو ٩ ربيع الأول[٣].

أو ١٠ ربيع الأول[٤].

(١) قال ابن كثير في السيرة (١/ ١٩٩)، (فقيل لليلتين خلتا منه، قاله ابن عبد البر في الاستيعاب).

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٩٩): (وقيل لثمان خلون منه، حكاه الحميدي عن ابن حزم، ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم، ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صححوه، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي). وانظر: العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الآفاق ١٤٢١) (ص ٤٤).

(٣) قال محمد الخضري في نور اليقين (ص ٩): (وقد حقّق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأوّل الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل)، ومحمود باشا الفلكي - عالم فلكي مصري، له باع في الفلك والجغرافيا والرياضيات وكتب وأبحاث، توفي عام ١٨٨٥م، وقول هذا العالم الفلكي يوافق ما قاله السهيلي -رحمه الله تعالى-. وقال صفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله تعالى- في الرحيق المختوم (ص ٤٥): (ولد سيد المرسلين ﷺ في شعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري والمحقق الفلكي محمود باشا). واختلافهم في العشرين أو الثاني والعشرين من أبريل فرع عن الاختلاف في التقاويم الميلادية. وقال الفلكي الأستاذ عبد الله بن إبراهيم بن محمد السليم في كتابه تقويم الزمان (ص١٤٣): (فتكون ولادته ﷺ يوم الاثنين الموافق ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة ويوافق ٢٠ نيسان أبريل سنة ٥٧١؛ نقلًا وحسابًا)؛ نقلًا من كتاب ما شاع ولم يثبت في السيرة محمد العوشن (ص ٨)، وقال ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- في القول المفيد (ص٢٤٣): (إن مولد الرسول ﷺ حققه بعض الفلكيين المتأخرين فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر). وهكذا نجد أن الفلكيين اتفقت حساباتهم على أنه ﷺ وُلِدَ التاسع من ربيع الأول.

(٤) قال ابن كثير في السيرة (١/ ١٩٩): (وقيل: لعشر خلون منه، نقله ابن دحية في كتابه، ورواه ابن عساكر عن أبي جعفر الباقر، ورواه مجالد عن الشعبي. وانظر أيضًا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الخاص بالسيرة (١/ ٣٦)، ونقل تصحيح الدمياطي لهذا القول.

أو ١٢ ربيع الأول[١].

أو ٢٢ ربيع الأول[٢].

ولا يستند أي من هذه الأقوال لحديث صحيح[٣]، وعليه فلا بأس بالأخذ بما ذكره أهل الفلك والحساب من أن ميلاده ﷺ كان في التاسع من ربيع الأول، وذلك كمعلومة تاريخية لها أهميتها وقيمتها الغالية، كسائر تفاصيل سيرة نبينا ﷺ وحياته، أما أن يُبنَىٰ عليها حكم شرعي، فهذا ما سيأتي الحديث عنه.

أما عام مولده: فقد روىٰ الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- (أن النبي ﷺ ولد عام الفيل)[٤]، وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان مولده ﷺ عام الفيل، وهذا هو المشهور عند الجمهور)، قال إبراهيم بن المنذر[٥] -رحمه الله تعالىٰ-: (وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه -عليه

(١) قال ابن كثير في السيرة (١/ ١٩٩): (وقيل: لثنتي عشرة خلت منه، نصَّ عليه ابن إسحاق، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه «عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالا: (ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول. وهذا هو المشهور عند الجمهور، والله أعلم)، وقال في البداية والنهاية (٤/ ٢٧٠) تحقيق التركي عن هذا السند: (فيه انقطاع).

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٠٠).

(٣) قال محمد العوشن في كتابه «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» (ص ٧): (فهذه ستة أقوال ذكرها ابن كثير -رحمه الله تعالى-، ولا يستند أي قول منها لحديث صحيح، وحديث جابر وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- في تحديده بالثاني عشر لو صح لكان فيصلًا في النزاع، ولكنه ضعيف. قال ابن كثير: فيه انقطاع ا.هـ.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية المجلد الأول (ص ٣٣)، وقال: صحيح.

(٥) إبراهيم بن المنذر بن عبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام بن خويلد بن أسد الأسدي الحزامي، أبو إسحاق المدني. روى عن مالك وابن عيينة، وروى عنه البخاري وابن ماجه، وروى له الترمذي والنسائي بواسطة والدارمي مات سنة ٢٣٦. ابن حجر، تهذيب التهذيب (١/ ١١٢).

الصلاة وأتم التسليم- وُلِدَ عام الفيل)[1]، وجزم بهذا خليفة بن خياط -رحمه الله تعالىٰ- فقال: (والمجتمع عليه عام الفيل)[2]، ووافقه ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-[3]، وهو ما أيّدته الدراسات الحديثة التي سبق الإشارة إليها في تحديد يوم مولده ﷺ.

ونقل الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- (أن عبد المطلب ختن النبي ﷺ يوم سابعه)[4].

وهنا عدد من الوقفات:

الوقفة الأولىٰ: وقفة مع تاريخ ميلاد الرسول ﷺ:

إذا نظرنا إلىٰ ما كُتب عن تاريخ ميلاد الرسول ﷺ، نلحظ عناية العلماء من أهل

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (١/ ٢٠١)، والذهبي، سير أعلام النبلاء السيرة النبوية، (١/ ٣٤).

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط (ص ٥٣).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٧٤).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة)، (١/ ٣٦)، وقال: (وهذا أصح مما رواه ابن سعد... عن ابن عباس عن أبيه -رضي الله تعالى عنهما- قال: (وُلد النبي ﷺ مختونًا مسرورًا)؛ فأعجب ذلك عبد المطلب وحظي عنده، وقال: ليكونن لابني هذا شأن)، قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٣٨٧) طبعة دار هجر: (وهذا الحديث في صحته نظر). وممن ضعَّف حديث ولادته مختونًا الألباني في ضعيف الجامع (٥٣١٠)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٢٧٠)، وأحمد بن غانم الأسدي في المدخل إلى علم السيرة، قسم النظائر في السيرة (ص٣١٩) الهامش، وقال: (إنه لا يصح حديث في ولادته مختونًا).

ومسألة ولادة الشخص مختونا ورد أنها وقعت لبعض الأشخاص، طالع ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى (دمشق: مكتبة دار البيان ١٣٩١) (ص ٢٠٦، وقال في زاد المعاد (١/ ٨١)وليس هذا من خواصه فإن كثيرا من الناس يولد مختونا» قال الشيخ بن باز -رحمه الله تعالى- «وقد بلغنا من ذلك عدة وقائع يولد فيها الرجل مختونًا، وبذلك يكون أهله قد كفوا هذه المئونة والحمد لله.»جواب عن سؤال في موقع الشيخ -رحمه الله تعالى- على الإنترنت. ومثل ذلك ذكره الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ٩٥)

الحديث والسيرة والتاريخ، بتاريخ ميلاده ﷺ ثم اختلافهم فيه اختلافًا كثيرًا، دون أن نجد نصًّا قاطعًا في المسألة، ولعلنا نستفيد من ذلك ما يلي:

أولًا: هذا البحث والجمع والتحري عن تاريخ ميلاد الرسول ﷺ، وبذل الجهد في جمع الأقوال يكشف مدىٰ عمق المحبة لهذا النبي الحبيب ﷺ والعناية بتاريخه وسيرته وحياته.

ومن المؤكد أنّ أيّ وقت تقضيه في البحث والتعرف علىٰ سيرة المصطفىٰ ﷺ -ومن ذلك تاريخ ولادته- هو علم شريف من أشرف العلوم وأعظمها أجرًا، ومما يُتقرب به إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ثانيًا: إن الاختلافات الواردة في تاريخ مولده لم أجد فيها شيئًا ثابتًا عن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، سوىٰ ما ذكره ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن جابر وابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وعزاه لابن شيبة -رحمه الله تعالىٰ- في مصنّفه، ولم أجده في المصنف المطبوع؛ حتىٰ إن ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عندما نقله عقّبه بقوله: (فيه انقطاع) -كما سبق أن أشرت إلىٰ ذلك في الهامش-، وهذا يشير إلىٰ علىٰ عدم ثبوت شيء مؤكد عن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ويغلب علىٰ الظن أن بعضًا منهم يعرف تاريخ مولده، خاصةً أقارب الرسول ﷺ كالعباس -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولأنهم لا يرون لهذا التاريخ أثرًا تعبديًّا، فقد اكتفوا بمعرفته دون نقله لمن بعدهم، ولو كان له أثر تعبّدي ما تركوا نقله قطعًا.

ويؤكد هذا أن الرسول ﷺ لم يُخبرهم بتاريخ مولده، ولو أنه مما يترتب عليه عبادة مشروعة، ما سكت عنه المصطفىٰ ﷺ؛ بل إن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لما سألوه عن سبب صيام يوم الاثنين أخبرهم أنه يوم وُلِدَ فيه، وأُنزل عليه فيه، فالأهمية التعبدية ليوم الاثنين الذي يتكرر أسبوعيًّا، لا للتاريخ، سواء أكان الثامن، أو التاسع، أو العاشر، أو الثاني عشر من ربيع الأول أو غيره.

ثالثًا: إنه ينبغي علينا أن نفرّق بين العناية بسيرته ﷺ، وبين التعبُّد بأحداثها؛ فالبحث ومحاولة التعرف علىٰ سيرة المصطفىٰ وتواريخ أحداثها، من محبة المصطفىٰ ﷺ وهو عِلْمٌ من أشرف العلوم -كما مر-، لكن أن تُربط التواريخ المهمة في أحداث سيرته ﷺ بعبادة معينة، هذا يحتاج إلىٰ دليل، ويفتح بابًا واسعًا من الاحتفالات الكثيرة علىٰ مدار العام التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وإذا ساغ لشخص أن يتعبد الله -جل شأنه- بعبادة معينة في مناسبة حدث من أحداث سيرة المصطفىٰ ﷺ؛ فأحداث سيرة المصطفىٰ ﷺ كلها مهمة، فالمولد مهم، والبعثة مهمة، والإسراء مهم، والهجرة مهمة، وبدر، وصلح الحديبية، وفتح مكة، وحجة الوداع كلها أحداث مهمة، وإذا احتفلنا بالأفراح، فللأتراح في السيرة حينئذ نصيبها، بما يلائمها من حزن، فقد أصيب المسلمون في أحد، وفي بئر معونة، وغيرها، وفي فاجعة وفاة النبي الكريم ﷺ المصاب الأعظم الذي لم تعرف ولن تعرف البشرية مصابًا أعظم منه. فهل نخترع نُواحًا في تاريخ وفاته، كما يفعل الرافضة في استشهاد السبط الكريم الحسين -رضي الله تعالىٰ عنه وعن والديه-، هل كل هذه الأحداث نقيم فيها أفراحًا، أو أتراحًا تلائمها؟ أو نفرّق؟، ومَن فرّق بينها فعليه الدليل.

أنا لا أشك أن غالب الذين يحتفلون بمولد النبي الكريم يحبّون النبي ﷺ حبًّا عظيمًا، وأن كثيرًا منهم مأجورون!! نعم مأجورون!![1]، لكنهم مأجورون علىٰ النية

---

(١) يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٠١-٢٠٢): (وأشد من ذلك ما يذكره بعض المصنفين في «الرقائق والفضائل» في الصلوات الأسبوعية والحولية: كصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت المذكورة في كتاب أبي طالب وأبي حامد وعبد القادر وغيرهم. وكصلاة «الألفية» التي في أول رجب ونصف شعبان والصلاة «الاثني عشرية» التي في أول ليلة جمعة من رجب والصلاة التي في ليلة سبع وعشرين من رجب وصلوات أخر تذكر في الأشهر الثلاثة وصلاة ليلتي العيدين وصلاة يوم عاشوراء، وأمثال ذلك من الصلوات المروية عن النبي ﷺ مع اتفاق أهل المعرفة بحديثه أن ذلك كذب عليه، ولكن بلغ ذلك أقوامًا من أهل العلم والدين فظنّوه صحيحًا فعملوا به وهم مأجورون على حسن قصدهم واجتهادهم لا على مخالفة السنة).

فقط، أما العمل فشيء آخر، قد يكونوا مأزورين، فالعمل التعبدي الذي ليس عليه دليل صاحبه مأزور، لا بد أن يكون العمل مشروعًا ليكون صاحبه مأجورًا عليه؛ إذ إن العبادة مبنية علىٰ التوقيف، والأصل فيها الحظر والمنع؛ وفيما شرع الله -جل شأنه- كفاية لمن أراد التقرب إليه وعبادته -سبحانه-، وإذا كان العمل يفتقد الدليل فلا يسوغ التقرب به، وقد حذَّرنا الرسول ﷺ من إحداث عبادات قال ﷺ: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»(١).

فمن يحتفل بالمولد النبوي كل عام!! نقول له: هل ثبت تاريخ مولده ﷺ؟

هل سأل الصحابةُ -رضي الله تعالىٰ عنهم- عن تاريخ ولادته؟

هل أخبر الرسول ﷺ، الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بتاريخ ميلاده؟

ولو كان الاحتفال السنوي بمولده عبادة لله -جل شأنه- ما سكت عنها المصطفىٰ ﷺ، وهو قد دلّنا علىٰ فضل الصلاة عليه والدعاء له، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ؛ فإنه من صلىٰ عليَّ صلاة صلىٰ الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة»(٢)، وأخبرنا بأنه يرد السلام علىٰ مَن سلم عليه، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام»(٣).

ولو كان الاحتفال بتاريخ مولده من هذا السياق ما تركه ﷺ.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/ ٥٩٢) رقم (٨٦٧).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٤) رقم (٣٨٤).

(٣) رواه أبو داود في سننه (٢٠٤١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وأنت لا شك تحب المصطفىٰ ﷺ؛ فأكثِرْ من الصلاة والتسليم عليه في كل حين؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وبخاصة يوم الجمعة؛ فعن أوس بن أبي أوس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة عليَّ»؛ فقالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ يعني وقد بليت، قال: «إن الله -عز وجل- حرَّم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[١] -صلوات الله وسلامه عليهم-. وتمسّك بسُنته، ففيها كل الخير، ولو كان في غير ذلك خير، لسبقنا إليه من هم خير منا وأحب منا للرسول ﷺ.

ولو كان مطلوبًا من المسلم الاحتفالُ بتاريخ مولده سنويًّا، لكان أول وأولىٰ من يحتفل بمولده خير القرون وهم أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ثم التابعون، ثم تابعو التابعين، وتلك هي القرون المفضّلة. فهل احتفل أحد منهم بذلك؟ وهل نحن خير منهم؟ ألا يسعنا ما وسعهم؟

والبركة كل البركة في التمسّك بهديه ﷺ، وهدي الخلفاء الراشدين من بعده وأئمة الهدىٰ من صحابته -رضي الله تعالىٰ عنهم- والأئمة الهداة في القرون المفضلة.

رابعًا: ليوم الاثنين ميزة خاصة، فإنه وُلِدَ في هذا اليوم، وفيه بُعِثَ[٢]، وفيه لحق بالرفيق الأعلىٰ ﷺ كما سيأتي، وكلها أمور كونية قدرية بأمر الله -سبحانه وتعالىٰ-، جاءت لتتفق بأمر الله علىٰ هذا اليوم لحكمة أرادها الله -سبحانه وتعالىٰ-، ولذلك

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده تحقيق الأرناؤوط، وإشراف عبد الله التركي (طبعة دار الرسالة)، (٢٦/ ٨٤)، وقال المحقق: (إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، غير صحابيه فمن رجال أصحاب السنن).

(٢) صحيح الإمام مسلم (٢/ ٨١٩)، رقم ١٩٧ من حديث أبي قتادة الأنصاري -رضي الله عنه-.

فالفضيلة لهذا اليوم (الاثنين) بعينه، الذي هو يوم من أيام الأسبوع، يتكرر علينا أسبوعيًّا، وقد سنَّ الرسول ﷺ صيام هذا اليوم مع يوم الخميس. فأضاف الرسول ﷺ لهذا اليوم ميزة شرعية بصيامه، وبإخبارنا أنه تُرفَع فيه الأعمال، وعليه فالفضيلة هنا، في هذا اليوم لمن يبتغي الفضيلة، وتحصيلها وتحقيقها بالصيام، وعليه فيُسنّ لنا صيام هذا اليوم؛ تأسيًا بالمصطفىٰ ﷺ، ولأن هذا اليوم وُلِدَ فيه الرسول ﷺ، ولأنه فيه بُعِثَ، ولأن الأعمال تُرفَع فيه إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولو قال قائل: إن صيام هذا اليوم احتفال بيوم ولادته، قلنا: إن اليوم الذي صامه الرسول ﷺ وهو في المدينة عندما سأله الصحابة -رضي الله عنهم-، هو يوم الاثنين، وليس (١٢ ربيع الأول)، والذي يحتفلون بالمولد يحتفلون باليوم الذي تاريخه (١٢ ربيع الأول)؛ سواء وافق يوم الاثنين أو أيّ يوم من أيام الأسبوع. وفرق بين الأمرين، فرق بين من يجعل ليوم ١٢ ربيع الأول سنويًّا عبادة خاصة؛ سواء وافقت الاثنين أو الثلاثاء أو غيره من أيام الأسبوع، بمعنىٰ أنه جعل الفضيلة لـ(١٢ ربيع الأول) لا ليوم (الاثنين)، والرسول ﷺ جعل الفضيلة ليوم الاثنين وسكت عن التاريخ، (والعبادة الأصل فيها التوقيف ولا تقبل القياس)[(١)].

فمن يريد سنة المصطفىٰ ﷺ فليكثر من صيام يوم الاثنين تأسيًا بالرسول ﷺ، ولأنه يوم ولد فيه الرسول ﷺ، ولأنه بعث فيه الرسول ﷺ، ولأنه -أيضًا- يوم تُرْفَع فيه الأعمال إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- [(٢)]، والله أعلم.

---

(١) انظر: محمد صدقي البورنو، موسوعة القواعد الفقهية، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٤) (٨/ ٨٠١).

(٢) عن أبي قتادة الأنصاري -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت - أو أنزل علي فيه -» رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٩) رقم (١١٦٢)، و عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم) رواه الترمذي (٢/ ٢٤٧) رقم (٧٤٧ وصححه الألباني.

خامسًا: لعلك تلاحظ أن الرسول ﷺ يخبرنا عن صيام يوم الاثنين، وهو اليوم الذي وُلِدَ فيه واليوم الذي بعث فيه، ولم يذكر التاريخ، في حين أنه يذكر التاريخ في صيام عاشوراء، ولم يذكر اليوم من أيام الأسبوع[1]، ونحن أمة نتَّبع ولا نبتدع؛ نصوم كما صام المصطفىٰ ﷺ يوم الاثنين، وهو أحد أيام الأسبوع، ولا نبحث عن التاريخ؛ لأن الرسول ﷺ لم يشرع لنا هذا، ونصوم يوم عاشوراء المحدد بالعاشر من المحرم، ولا نبحث عن اليوم من الأسبوع، أهو السبت أو الأحد أو غير ذلك لنصومه. ومن كمال التوقير والتعظيم ملازمة التسليم في الحالين، والله أعلم.

الوقفة الثانية: وقفة مع ولادة الرسول ﷺ يتيمًا:

مسألة يُتْم الرسول ﷺ، وأعني بها أن يموت والده -عبد الله- قبل ولادته ﷺ فيخرج إلىٰ هذه الدنيا ﷺ ولا يجد أمامه أبًا يحتفي به، وهذا -بلا شك- تدبير إلهي للمصطفىٰ ﷺ، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور:٤٨-٤٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحىٰ:٦]؛ أقول:

١) كانت العرب أهل اكتساب باليد؛ إما ضربًا في الأرض للتجارة، أو زراعة، أو صيدًا أو إغارة، ولذلك كان الضعيف فيهم لا كَسْب له، وبالتالي لا وزن له، وعليه (فلا جرم أن يصبح اليتيم بينهم فقيرًا مدحورًا، وزد إلىٰ ذلك أن أهل الجاهلية قد تأصل فيهم الكبر علىٰ الضعيف وتوقير القوي، فلما عَدِم اليتيم ناصره ومن يَذُبّ عنه، كان بحيث يُعرّض للمهانة والإضاعة ويُتخذ كالعبد لوليه، من أجل ذلك كله، صار وصف اليتيم عندهم ملازمًا لمعنىٰ الخصاصة والإهمال والذل، وبه يظهر معنىٰ امتنان الله -تعالىٰ- علىٰ نبيه أن حفظه في حال اليتم مما ينال اليتامىٰ في قوله:

(١) في صحيح مسلم (٢/ ٨١٨) رقم (١١٦٢ قال ﷺ «صيام يوم عاشوراء، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله» من حديث أبي قتادة -رضي الله تعالى عنه-.

﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحىٰ: ٦])[١].

٢) إن ما جرىٰ للرسول ﷺ من ولادته يتيمًا، لا يجد أبًا أمامه يستقبله ويحتضنه، هو كما يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أبلغ اليتم وأعلىٰ مراتبه)[٢]. بل إن من اللافت للنظر أن الرسول ﷺ لم يكن له إخوة أو أخوات أشقاء أو غير أشقاء. وبعض الإخوة والأخوات يكون فيهم نوع من العِوَض عن فقد الأب أو الأم.

ولعل يُتْمَه ﷺ بهذه الصورة كي لا يكون للمبطلين سبيل أن يقولوا: إن محمدًا تلقىٰ دعوته هذه بإرشاد وتوجيه من والده، أو أن دعوته هذه ورثها من أبيه؛ فقد مات أبوه قبل مولده، ولم يلتقيا، فانقطع بذلك توارث الزعامة أو التوجيه والإرشاد الأبوي لها.

٣) لقد كان اليتيم وحده مدعاة إلىٰ المضيعة وفساد الخُلق؛ لقلة مَن يحفل باليتيم ويحرص عليه، وأنت -يا محمد- قد (أنشأك علىٰ كمال الإدراك والاستقامة، وكنت علىٰ تربية كاملة، مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا علىٰ نقائص؛ لأنهم لا يجدون مَن يُعْنَىٰ بتهذيبهم، وتعهد أحوالهم الخُلقية)[٣].

بل إن الناس يزهدون أو يزدرون اليتيم، حتىٰ المرضعات اللاتي أتين من البادية زهدن في محمد ﷺ لمّا علمن أنه يتيم.

وهذا الأمر إذا أُضيف إليه ما كان فاشيًا في أهل مكة، من عبادة للأصنام، واستحلال للخمور، ومظالم، وعادات جاهلية سيئة، ما فيه الكفاية في إضلال من ينشأ يتيمًا، لا أب له يرعاه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢/ ٣٥٥).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٣).
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٩).

والمصطفىٰ ﷺ كان له من الحصانة الربانية ما تحفظه من انتقال عدوىٰ هذه الأمراض إليه.

ولو تدبَّر المُنصِف هذه النشأة في هذه البيئة، بهذه الكيفية، لظهر ما فيه من جليل رعاية الله له، وحياطته، وحفظه وحُسْن تنشئته، ولوجد من ذلك العجب، الذي لا يجده لو نشأ محمد ﷺ يتقلب في أحضان أبوين يرعيانه ويهتما بتربيته، ومن هذا يتبين شيء من قول الله –تعالىٰ– له: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣][1].

٤) إن في نشأته ﷺ يتيمًا يجعله أكثر إحساسًا بالمعاني الإنسانية النبيلة؛ (فكما آواك ربك وحفظك من عوارض النقص المعتاد لليتم؛ فكن أنت مكرمًا للأيتام رفيقًا بهم)[2].

وصاحب التجربة أدرىٰ، وأعمق استيعابًا ممَّن لم يمر بهذه التجربة، وابن الأغنياء لا علم له بمعاناة الفقراء، وهذا النوع من الحياة وفَّر للرسول ﷺ رصيدًا من الخبرات في الدعوة عندما بُعِثَ[3].

٥) إن نشأته ﷺ يتيمًا، ثم ظهور لطف ربه به، وعنايته به منذ صغره، ورؤية ذلك عيانًا أمام كفار قريش، في أخلاقه وسائر أموره، يُساق مساق الوعد المؤكد من الله –جل شأنه–، عندما يُبعث ويدعو إلىٰ الله بأن من سبق منه العناية بهذا اليتيم عناية لا تحتمل الصدف، وإنما هي عناية لا مثيل لها، مقصود منها إيقاع اليقين في قلوب المشركين المناوئين له بأن الله –جل شأنه– سينصره قياسًا علىٰ ما جرىٰ منه

(١) انظر: المراغي، تفسير المراغي (٣٠/ ١٨٥). وانظر: القاضي عياض، الشفا في شمائل المصطفى، تحقيق عبده علي كوشك، الطبعة الأولى (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ١٤٣٤)، (ص ٥٣ وما بعدها).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠١).

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٩٩).

-سبحانه- من ملازمة لطفه به فيما مضىٰ، وأولئك الكفار لا يجهلون ذلك، فعسىٰ أن يفهموا الدرس ويقلعوا عن العناد ويسرعوا إلىٰ الإيمان[1].

٦) شاء الله -سبحانه وتعالىٰ- أن يجعل نبيه محمدًا ﷺ يتيمًا حتىٰ لا تتدخل يد أب حانية في توجيهه، بل يتولاه الله -سبحانه وتعالىٰ- كما قال -تعالىٰ- لموسىٰ -عليه السلام-: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه:٤١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، فلا يتلقىٰ محمد ﷺ شيئًا من مفاهيم الجاهلية وأعرافها من أبيه، وإنما يتلقىٰ من لدن الحكيم الخبير -سبحانه وتعالىٰ-. نقل أبو حيان -رحمه الله تعالىٰ- في بحره وغيره عن جعفر الصادق -رحمه الله تعالىٰ- قال: (إنما يُتم رسول الله ﷺ؛ لئلا يكون عليه حق لمخلوق). وقال ابن العماد -رحمه الله تعالىٰ- في كشف الأسرار: (إنما ربّاه يتيمًا؛ لأن أساس كل كبير صغير، وعقبىٰ كل حقير خطير، وأيضًا؛ لينظر ﷺ إذا وصل إلىٰ مدارج عزه إلىٰ أوائل أمره؛ ليعلم أن العزيز مَن أعزّه الله، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات ولا من المال، بل قوته من الله -تعالىٰ- وأيضًا؛ ليرحم الفقير والأيتام)[2].

الوقفة الثالثة: وقفة مع نشأة الرسول ﷺ مع أمه:

نشأة الرسول ﷺ في طفولته المبكرة مع أمه لم تكن من باب الصدفة والاتفاق، فقد وجدنا قبل الرسول ﷺ غالب أولي العزم من الرسل -عليهم وعلىٰ نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم-، عُهد بهم إلىٰ أمهاتهم، أليس في هذا إشارة إلىٰ أهمية الأم وعظيم دورها في تكوين وتربية الأجيال؟!

فإسماعيل -عليه السلام- في صباه عاش في بيت أُمّه في مكة بعيدًا عن أبيه

(١) انظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٩).
(٢) الشامي، سبل الهدى والرشاد ١/ ٣٣١- ٣٣٢).

إبراهيم -عليه السلام-، وإن كان -عليه السلام- يتعاهده في أزمان متباعدة[1]، وموسىٰ -عليه السلام- عاش في بيت أمه تحنُّ عليه وترعاه، وتتابع أحواله، ولم نجد ذِكرًا لأبيه عند الحديث عنه -عليه السلام- في القرآن الكريم[2].

وعيسىٰ بن مريم -عليه السلام- نشأ في بيت أمه، ثم محمد ﷺ نشأ في طفولته مع أمه آمنة بنت وهب، فهؤلاء ثلاثة من أولي العزم الخمسة من الرسل، بالإضافة علىٰ إسماعيل -عليهم الصلاة والسلام- نشأوا في بيوت أمهاتهم، وكانت وظيفة الأم هي الأوضح في حياتهم، مع غياب واضح للآباء.

إن هذا يذكِّرنا بمكانة الأم في التربية وفي المجتمع وعظم رسالتها، فهي التي تولت تربية عدد من الأنبياء في طفولتهم، وهي التي تُحسن تنشئة الأجيال التي تحتلّ المكانة المرموقة في المجتمعات.

وهذا أيضًا يذكرنا حق الأم وقد قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وجاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»؛ قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»؛ قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»؛ قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٤٤) رقم (٣٣٦٥) وفيه ما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من خروج إبراهيم -عليه السلام- بابنه إسماعيل -عليه السلام- وأمه هاجر -رحمها الله تعالى- حتى قدموا مكة، فتركهما ثم رجع إلى أهله إلى أن قال: فبلغ ابنها- إسماعيل عليه السلام- فنكح فيهم امرأة، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم -عليه السلام-، فقال لأهله: إني مطلع تركتي، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد...»؛ فهذا يظهر منه -والله أعلم- تباعد زيارة إبراهيم -عليه السلام- لابنه إسماعيل -عليه السلام-.

(٢) سورة القصص من الآية (٧ -١٣).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٨/ ٢) رقم (٥٩٧١). وصحيح مسلم (٤/ ١٩٧٤) رقم (٢٥٤٨). من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

فحق الوالدين في القرآن الكريم جاء بعد حق الله -تعالىٰ- بإفراده بالعبادة -سبحانه وتعالىٰ-، ثم في السنة فَصَّل؛ فذكر الأم ثلاث مرات ثم الأب، لعظيم رسالتها التي قامت بها منذ الحمل والوضع والتربية أثناء الصغر إلىٰ أن شبَّ عن الطوق، وتلك لا يمكن مقارنتها لا بالأب ولا بغيره، ولعل -بالإضافة إلىٰ ذلك- هناك أمر آخر -أيضًا- قد يغيب عن بعض الناس، وهو أن ما قدمته الوالدة لولدها غير منظور للولد، بخلاف الأب.

فما قدمته الأم لم يره الطفل، أما ما يقدمه الأب فهو مشاهد، أمام هذا الفتىٰ، أو تلك الفتاة، فهم يرون أن الذي يشتري لهم متطلباتهم اليومية هو الأب، وإن احتاجوا إلىٰ سيارات أو مواصلات الذي يشتريها هو الأب، وإن احتاجوا إلىٰ كسوة فالذي يكسوهم هو الأب، وإن احتاجوا رسوم مدارس فالذي يدفعها هو الأب، وإن احتاجوا علاجًا، أو ترفيهًا، أو سفرًا، أو هدايا، فكله من حساب الأب، أما الأم فمثلهم تطلب من الأب كما يطلبون، فخير الأب مشاهد معاصر، وخير الأم غير مرئي، قد مضىٰ وانتهىٰ، في وقت لم يكونوا يعرفونه، لم يروا عناء الحمل، ولا قسوة الوضع، ولا متاعب الرضاعة، ولا العناية الشاقة في الصغر في الإطعام والتنظيف، التي قامت بها الأم بشأنهم، ولذلك جرىٰ التأكيد مرارًا علىٰ حق الأم، والنفس جُبلت علىٰ حبّ من أحسن إليها، وإحسان الأب مشاهَد، فاستدعاء الإيصاء به أقل حاجة من الأم، مع الفارق الكبير بين ما قامت به، وما يقوم به الأب.

وعِظَم وظيفة الأم وأهمية رسالتها التي رأيناها مع الرسل والأنبياء، يقودنا إلىٰ أهمية اختيار الزوجة الصالحة؛ لأنها هي التي ستربي الأولاد وترعاهم، وتأثيرها سابق لتأثير غيرها، وتوجيههم منذ صغرهم وطفولتهم، له الأثر الكبير علىٰ مستقبلهم، وربما مستقبل المجتمع بكامله[1]، بل لو وسَّعنا الدائرة، وقلنا: إن هذا يدلنا علىٰ مكانة المرأة، وأهميتها في المجتمع المسلم. فالنصوص التي تتحدث

(١) انظر: د. عبد الحميد الهاشمي، الرسول العربي المربي (ص ٨٣ – ٨٤).

عن المرأة في الإسلام ووظيفتها، تدل سياقاتها علىٰ أنَّ المرأة قناة أساسية لاستمرار الدين في المجتمع[1]، وهذا ظاهر في الواقع العملي، من جانبين؛ أولهما: ما نرىٰ من تأثير بالغ للمرأة في المنزل في التربية والتوجيه للأولاد، يفوق أثر الأب بكثير، لطول الملازمة، بخلاف الأب، الذي هو في الغالب كثير الغياب عن المنزل. والجانب الثاني: ما نراه من تركيز أعداء الإسلام علىٰ إفساد المرأة المسلمة؛ لأنهم يعلمون أن فسادَها فسادٌ للمجتمع كله، وصلاحها وصلاح للمجتمع كله، وإن المرأة المسلمة متىٰ تهاونت في أمر دينها انقطع استمرار الدين في الجيل اللاحق انقطاعًا واضحًا.

٧) في هذا اليُتْم درس دعوي، وهو أن الغِنَىٰ والرفعة والعزة لا علاقة لها باليتم، ولا بمن بقي أبواه أحياء، فكم من فرد منا يتعلق بالأولاد ومستقبل الأولاد، ويخشىٰ ضياع الأولاد، تراه إن دُعي إلىٰ الصدقة قال: أولادي أولىٰ، واستدل بحديث الرسول ﷺ: «إنك أن تدع أهلك بخير، خير من أن تدعهم يتكففون الناس»[2]، وإن جاء الجهاد جاء الأولاد وتذكّرهم والخوف عليهم والتعلق بهم، وإن جاءت رحلة في الدعوة إلىٰ الله عاقه الأهل والأولاد، والرسول ﷺ يقول: «إن الولد مبخلة مجبنة»[3]، تذكر أنك إن حفظت الله حفظك الله بأولادك، وحفظ الله أولادك من بعدك، فالله -سبحانه وتعالىٰ- يحكي لنا قصة موسىٰ والخضر[4] -عليهما السلام-،

(١) انظر: فريد الأنصاري، سيماء المرأة في الإسلام، الطبعة السادسة (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر ١٤٤٠) (ص ١٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٣) رقم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه-.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٩٥) رقم (٢٩٥٧).

(٤) قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره ٥/ ١٨٧): (﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر -عليه السلام-). ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٧): (والصحيح أن الخضر نبي كما دل عليه ظاهر القرآن الكريم).ا.هـ.

ويذكر فيها تسخير موسىٰ -عليه السلام-، والخضر -عليه السلام- لبناء الجدار لليتيمين، وذكر أن أباهما كان رجلًا صالحًا؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢][1]. قال سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- لابنه: (لأزيدن في صلاتي من أجلك؛ رجاءَ أن أُحفظ فيك)[2]. وقال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالىٰ-: (ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه)[3].

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير الآية: (وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليل علىٰ أن الرجل الصالح يُحفَظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلىٰ أعلىٰ درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به، قال سعيد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يُذكر لهما صلاح)[4].

فيُتْمه ﷺ أسوة في كل زمان ومكان، ليعرفوا أن اليُتْم ليس بلاء يمنع صاحبه من الوصول إلىٰ أعلىٰ المراتب دنيا وآخرة.

---

(١) انظر: ابن رجب، جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٧).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسير ابن كثير (٥/ ١٦٨).

المبحث الرابع

أسماء الرسول الكريم ﷺ

بعد ولادته ﷺ أرسلته أُمّه إلىٰ جده عبد المطلب، وأخبرته بما رأت من تسميته بمحمد[1]، فأخذه ودخل به الكعبة، ولما كان يوم سابعه ذَبَح عنه، ودعا له قريشًا، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب ما سمَّيتَ ابنَك الذي دعوتنا علىٰ وجهه؟ قال: محمدًا، قالوا: كيف سمَّيتَ باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟ فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض، ويحمده أهل السماء[2].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال بعض العلماء: ألهمهم الله -عز وجل- أن سموه محمدًا لما فيه من الصفات الحميدة ليلتقي الاسم والفعل، ويتطابق الاسم والمسمىٰ في الصورة والمعنىٰ)[3].

وهذا الاسم «محمد» غير معهود في الجاهلية إلا من عدة أشخاص سمَّاهم آباؤهم بهذا الاسم لما سمعوا بأن نبيًّا سيُبْعَثُ اسمه محمد رجاءَ أن يكون هو.

---

(١) انظر: ابن إسحاق، السيرة، تحقيق سهيل ركاز، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفكر ١٣٩٨)، (ص٤٥)، والبيهقي، شعب الإيمان تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة الرشد للنشر ١٤٢٣)، (٢/ ٥١٤، فقد ذكرت آمنة أنها رأت رؤيا عند ولادته وقيل لها فيها (فإذا وقع فسميه محمدًا)، وأبو نعيم، دلائل النبوة (١/ ٦١٠) رقم (٥٥٥)، والسهيلي، الروض الأنف ١/ ٣٩٥، وابن حجر، الإصابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وزميله، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٥)، (٥/ ١٠٢).

(٢) انظر، السهيلي، الروض الأنف (٢/ ٩٥)، وذكر أنه سماه محمدًا بناء على رؤيا رآها، وأن هذا بالإضافة إلى ما رأته أمه من أن تسميه محمدًا، فاتفقت رؤيا آمنة مع رؤيا عبد المطلب. والله أعلم.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي (٣/ ٣٩٠)، طبعة دار هجر.

ثم إن الله -سبحانه وتعالىٰ- حمىٰ كل من سُمِّي بهذا الاسم في ذلك الوقت بأن يَدَّعي النبوة أو يدعيها له أحد، أو يظهر عليه أمر يشكل علىٰ أحد[1].

قال -تعالىٰ-: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠][2].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف:٦].

عن محمد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ-، عن أبيه جبير بن مطعم -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس علىٰ قدمي، وأنا العاقب»[3]. (والعاقب الذي ليس بعده نبي)[4].

عن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[5].

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٣٧٢. والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٥)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (القاهرة: المكتبة التوفيقية)، (١/ ٤٤٢).

(٢) ورد ذكر الرسول ﷺ باسمه (مُحَمَّدٌ) ﷺ في أربعة مواضع؛ (سورة آل عمران: ١٤٤) و(سورة الأحزاب:٤٠) و(سورة محمد:٢) و(سورة الفتح:٢٩).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٨٥) رقم (٣٥٣٢). وصحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٤).

(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٤)، من قول الزهري -رحمه الله تعالى-، وانظر سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٣٨).

(٥) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٥)، ومعنى المقفي: أي أنه خاتم الأنبياء، وخاتمهم، وقفاهم، أي: كان بعدهم، واتبع آثارهم. قال ابن الأنباري: المقفي: المتَّبع للنبيين قبله، يقال: قَفَوتُه، أَقفُوه، وقَفَيتُه: إذا تبعته، وقافية كل شيء: آخره. المفهم شرح صحيح مسلم للقرطبي (١/ ١٤٦).

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد سماه الله -تعالىٰ- في كتابه محمدًا وأحمد؛ فمن خصائصه -تعالىٰ- له أن ضَمَّن أسماءه ثناءَه، فطوىٰ أثناء ذِكره عظيم شكره، فأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد، ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد، فهو ﷺ أجل من حُمد، وأفضل من حَمد، وأكثر الناس حمدًا؛ فهو أحمد المحمودين وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة)[1].

وقد ذكر العلماء للرسول ﷺ أسماء كثيرة، منها ما هو ثابت بالنص، ومنها ما هو محل اجتهاد واستنباط من بعض العلماء، ومنها ما هو غير ثابت، ومنها ما هو باطل؛ لما فيه من الغلو في الرسول ﷺ، ورفعه فوق منزلته، والرسول ﷺ حذّرنا من الغلو فيه، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه سمع عمر -رضي الله عنه-، يقول علىٰ المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني، كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله، ورسوله»[2]، وقال ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»[3].

أما كنيته ﷺ فهي (أبو القاسم)[4]. عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: كان النبي ﷺ في السوق، فقال رجل: يا أبا القاسم، فالتفت إليه النبي ﷺ، فقال: إنما دعوت هذا، فقال النبي ﷺ: «سموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي»[5].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح: (وقوله -عز وجل-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾

---

(١) القاضي عياض، الشفا (١/ ٢٢٩).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٦٧) رقم (٣٤٤٥).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٩٨) رقم (٣٢٤٨) من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير زياد بن الحصين- وهو الحنظلي اليربوعي البصري- فمن رجال مسلم».

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٤٠)، وقال: «وقد تواتر أن كنيته أبو القاسم».

(٥) متفق عليه: صحيح البخاري (٣/ ٦٦) رقم (٢١٢٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٦٨٢) رقم (٢١٣١).

[الصف:٦]؛ كأنه يشير -يعني البخاري رحمه الله تعالىٰ-، إلىٰ أن هذين الاسمين أشهر أسمائه، وأشهرهما محمد، وقد تكرر في القرآن)[١].

وهذان الاسمان هما:

الأول: (محمد) الوارد في القرآن الكريم، والذي سماه بذلك جده عبد المطلب، وأمه آمنة بنت وهب؛ لعله بإلهام من الله -جل شأنه- كما سبق.

الثاني: (أحمد) الوارد في القرآن الكريم والذي بشَّر به عيسىٰ -عليه السلام-، وأخبرنا القرآن الكريم أن هذا الاسم مذكور في التوراة.

أما (محمد): هذا الاسم الشريف العظيم الذي لم تعرفه العرب من قبل، والذين تسموا به قبل الرسول ﷺ قِلَّةٌ، قيل: إنهم ثلاثة، وقيل سبعة، وذلك أنه سمع بعض العرب بقرب مبعث نبي اسمه محمد، فسمو أبناءهم بهذا الاسم، رجاء أن يكون هو، ثم حمىٰ الله كل من سُمي به أن يدّعي النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدًا في أمره[٢]. كما سبق أن أشرت إلىٰ ذلك.

وأما (أحمد): فقد قال أبو الفضل زين الدين العراقي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يتسمَّ بأحمد قبله ﷺ أحد ولا في زمنه ولا في زمن أصحابه حماية لهذا الاسم الذي بَشَّر به الأنبياء. وأول من سُمي أحمد في الإسلام: أحمد بن عمرو بن تميم والد الخليل بن أحمد العروضي قاله أبو بكر بن أبي خيثمة، وأبو العباس المبرد)[٣].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٥٥).

(٢) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٥)، والقاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، الطبعة الثانية (عمَّان: دار الفيحاء ١٤٠٧)، (١/ ٤٤٧). و(١/ ٢٣٠) طبعة دار الفكر.

(٣) أبو الفضل زين الدين العراقي، طرح التثريب في شرح التقريب (دار إحياء التراث العربي)، (١/ ٢٤). وقد ذكر الذهبي -رحمه الله تعالى- في سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٣٠) أن الخليل بن أحمد وُلد سنة ١٠٠، وتوفي سنة ١٧٠ ا.ه. وهذا يعني أن والده (أحمد) أدرك عددًا من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-. إن ثبت أنه هو أول من سمي بهذا الاسم بعد الرسول ﷺ.

وأقف بعض الوقفات حول أسماء الرسول ﷺ:

١. إن كثرة الأسماء تدل علىٰ فضل المسمىٰ ورفعته، فكثرة أسماء النبي ﷺ تدل علىٰ سمو منزلته ﷺ(١). قال الجراعي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكثرة الأسماء: تدل علىٰ شرف المسمَّىٰ؛ ولهذا كثرت أسماء الله -تعالىٰ-، ورسوله ﷺ)(٢).

٢. قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكلها نعوت ليست أعلامًا محضة لمجرد التعريف؛ بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال)(٣). فأسماء الرسول ﷺ ليست مثل أسمائنا، أسماء جامدة، فقد يسمىٰ شخص منا بأنه (شجاع) ثم يكون من أجبن الناس، وقد يسمىٰ (صالح)، وليس له من اسمه نصيب. أما الرسول ﷺ فله من أسمائه أوفر الحظ والنصيب. وأسماؤه ﷺ أسماء مشتقة، مطابقة لموصوفها. ويقول ابن القيم أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأمل كيف اشتق للنبي ﷺ من وصفه اسمان مطابقان لمعناه، وهما أحمد، ومحمد، فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة محمد، ولشرفها وفضلها علىٰ صفات غيره أحمد)(٤).

٣. أما دلالة هذين الاسمين الكريمين (أحمد) و(محمد): (أحمد): هُوَ الَّذِي حَمْده لرَبه أفضل حمد الحامدين، فهناك حامد: أي أنه يحمد الله -سبحانه-، وهناك أحمد: أي أكثر حمدًا، فأحمد أعلىٰ من حامد، وأكثر منه حمدًا. والرسول

---

(١) انظر: عبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية، الطبعة الأولى (الرياض: دار الوطن للنشر ١٤٣٨)، (٣٥).

(٢) الجراعي، تحفة الراكع الساجد بأحكام المساجد، عناية صالح النهام وزملائه، الطبعة الأولى (الكويت: وزار الأوقاف الكويتية ١٤٢٥)، (١٣٩).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٦). وانظر الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٤٠). فقد قال بعد أن ساق عددًا كبيرًا من أسماء النبي ﷺ: «قلت: وأكثر ما سقنا من أسمائه صفات له، لا أسماء أعلام، وقد تواتر أن كنيته أبو القاسم»، وانظر القول المفيد شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين (٢/ ٢٥٧) باب احترام أسماء الله.

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ٣٣٨).

ﷺ بلغ من حمده لربه غايته، فهو أحمد الخلق لربه -جل شأنه-، ولذلك يُفتَح عليه من المحامد التي لم يُفتح بها علىٰ غيره يوم القيامة في مقام الشفاعة العظمىٰ. وبه يتبين تميز اسم (أحمد) وتفضيله علىٰ اسم (حامد).

و(محمد): هو المحمود حمدًا بعد حمد، فهو دالّ علىٰ كثرة الحامدين له، وهذا يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه، فهو مبني علىٰ زِنَة مُفعَّل مثل مُعظَّم ومحبَّب ومسوَّد ومبجَّل ونظائرها؛ لِأَن هَذَا الْبناء مَوْضُوع للتكثير، فمحمد هُوَ من كثرة الحامدين لَهُ، وكثرة حمدهم، مرّة بعد أُخْرَىٰ، وهو الَّذِي يسْتَحق أَن يُحمد مرّة بعد أُخْرَىٰ. فهو أبلغ من محمود.

وعليه فإن (أحمد) وقع منه الحمد لربه كثيرًا، فهو مبالغة من (حامد)، و(محمد) وقع عليه الحمد من غيره كثيرًا، فهو مبالغة من (محمود). فهو ﷺ أكثر الخلق حمدًا لله -سبحانه-، وهو أكثر من حُمد من الخلق، وحينما جمع الله -جل شأنه- هذين الاسمين الشريفين لنبينا ﷺ، نجد أن الله -جل شأنه- قد جمع له أمرين مهمين:

الأول: مقام المجاهدة بكون اسمه ﷺ (أحمد).

الثاني: مقام الاصطفاء بكونه اسمه ﷺ (محمد)[1].

(١) يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- في جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية (الكويت: دار العروبة ١٤٠٧)، (١٨٨-١٨٩): (فَلَمَّا كَانَ رَسُول الله ﷺ مُشْتَمِلاً على مَا يَقْتَضِي أَن يحمد عَلَيْهِ مرّة بعد مرّة سمي مُحَمَّدًا، وَهُوَ اسْم مُوَافق لمسماه وَلَفظ مُطَابق لمعناه، وَالْفرق بَين لفظ أَحْمد وَمُحَمّد من وَجْهَيْن؛ أَحدهمَا أَن مُحَمَّدًا هُوَ الْمَحْمُود حمدًا بعد حمد؛ فَهُوَ دَالّ على كَثْرَة حمد الحامدين لَهُ، وَذَلِكَ يسْتَلْزم كَثْرَة مُوجبَات الْحَمد فِيهِ، وَأحمد أفعل تَفْضِيل من الْحَمد يدل على أَن الْحَمد الَّذِي يسْتَحقّهُ أفضل مِمَّا يسْتَحقّهُ غَيره؛ فمحمد زِيَادَة حمد فِي الكمية، وَأحمد زِيَادَة فِي الْكَيْفِيَّة؛ فيحمد أَكثر حمد وَأفضل حمد حَمده الْبشر، وَالْوَجْه الثَّانِي أَن مُحَمَّدًا هُوَ الْمَحْمُود حمدًا متكررًا كَمَا تقدم، وَأحمد هُوَ الَّذِي حَمده لرَبه أفضل من حمد الحامدين غَيره فَدلَّ أحد الاسمين وَهُوَ مُحَمَّد على كَونه مَحْمُودًا، وَدلّ الِاسْم الثاني وهو أحمد على كونه أحمد الحامدين لربه). وقال أيضًا -رحمه الله تعالى- (ص ١٧١) في اسم (محمد): (هَذَا إِلَّا سم هُوَ أشهر=

ولعله بتوفيق الله له وبمقام المجاهدة، نال مقام الاصطفاء[1].

يقول المقريزي -رحمه الله تعالىٰ-: (فمن سمّي بهذين الاسمين فقد سُمّي بأجمع الأسماء لمعاني الفضل)[2].

٤. وهذا يلفت أنظارنا إلىٰ مقام الحمد أو منزلة الحمد، فَإِن اسْمه ﷺ (مُحَمَّد)

=أَسْمَائِهِ ﷺ وَهُوَ اسْم مَنْقُول من الْحَمد وَهُوَ فِي الأَصْل اسْم مفعول من الْحَمد، وَهُوَ يتَضَمَّن الثَّنَاء على الْمَحْمُود ومحبته وإجلاله وتعظيمه، هَذَا هُوَ حَقِيقَة الْحَمد وَبني على زنة مفعل مثل مُعظم ومحبب ومسود ومبجل ونظائرها؛ لِأَن هَذَا الْبناء مَوْضُوع للتكثير فَإِن اشتق مِنْهُ اسْم فَاعل فَمَعْنَاه من كثر صُدُور الْفِعْل مِنْهُ مرّة بعد مرّة كمعلم ومفهم ومبين ومخلص ومفرج وَنَحْوهَا، وَإِن اشتق مِنْهُ اسْم مفعول فَمَعْنَاه من كثر تكَرر وُقُوع الْفِعْل عَلَيْهِ مرّة بعد أُخْرَى إِمَّا استحقاقًا أَو وقوعًا؛ فمحمد هُوَ من كثر حمد الحامدين لَهُ مرّة بعد أُخْرَى أَو الَّذِي يسْتَحق أَن يحمد مرّة بعد أُخْرَى).ا.هـ. قال السيوطي -رحمه الله تعالى- في كتابه قوت المغتذي على جامع الترمذي، تحقيق ناصر بن محمد بن حامد الغريبي (رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٤) (٢/ ٧٨١): (ولمَّا كان نبينا ﷺ أحمد الخلائق في الدنيا والآخرة أعطي لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأولون، والآخرون)، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالى- في فتح الباري تحقيق محب الدين الخطيب، وتعليق عبد العزيز بن باز (بيروت: دار المعرفة ١٣٧٩) (٦/ ٥٥٥): (فأما محمد من باب التفعيل للمبالغة، وأما أحمد فمن باب التفضيل... ومعناه أحمد الحامدين.. وأما محمد فهو منقول من صفة الحمد أيضًا، وهو بمعنى محمود وفيه معنى المبالغة). ويقول الصنعاني -رحمه الله تعالى- في سبل السلام، تحقيق محمد صبحي حسن حلاق، الطبعة السادسة، (الرياض: دار ابن الجوزي ١٤٤٠)، (١/ ٧٩): علم مشتق من حُمِّد، مجهول مشدد العين أي: كثير الخصال التي يحمد عليها، فهو يُحمد أكثر مما يُحمد غيره من البشر، فهو أبلغ من محمود؛ لأن هذا مأخوذ من المزيد، وذاك من الثلاثي». وانظر: جمع الوسائل في شرح الشمائل للقاري، الطبعة الأولى (الرياض: دار ابن القيم ١٤٤٠) (٣/ ٣٥٦-٣٥٧). وقال الرازي في تفسيره الكبير (١/ ٢٤١): (أهل السماء في تحميد الله، ورسول الله أحمدهم، والله تعالى في تحميد أهل الأرض كما قال تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩] ورسول الله محمدهم).

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٥٥)، قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: (كان رسول الله ﷺ أحمد قبل أن يكون محمدًا، كما وقع في الوجود)..

(٢) المقريزي، إمتاع الأسماع تحقيق محمد النميسي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٢٠ ٢/ ١٣٩).

وَ(أحمد) وَأمته الْحَمَّادُونَ يحْمَدُونَ الله علىٰ السَّرَّاء وَالضَّرَّاء، وَصَلَاة أُمته مفتتحة بِالْحَمْد، وخطبته مفتتحة بِالْحَمْد، وَكتابه مفتتح بِالْحَمْد. وَبِيَدِهِ ﷺ لِوَاء الْحَمد يَوْم الْقِيَامَة[1]. وهو لواء حقيقي -أي عَلَم- يسمىٰ لواء الحمد، بيده ﷺ، ولا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أرفع وأعلىٰ من مقام الحمد، ولما كان نبينا سيد المرسلين أحمد الخلائق في الدنيا والآخرة، أعطي لواء الحمد[2]، و»أقرب الخلق إلىٰ لوائه أكثرهم حمدًا لله وذكرًا«[3]، عن عمران بن الحصين -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (خَير عباد الله تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة الحمادون)[4]، و(أَوَّلُ من يُدعىٰ إلىٰ الجنَّة الحمّادون، الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء)[5].

فالله هو الحميد، وهو أحقّ مَن عُبِدَ، وأحق مَن حُمِدَ، واصطفىٰ لأفضل أنبيائه أسماء مشتقة من الحمد لمحبته للحمد، فنَبِيُّه المصطفىٰ أحمد، كان أكثر حمدًا، فصار أعلىٰ محمود، ثم ارتقىٰ بالحمد ليكون (محمد)، وحمل لواء الحمد. و﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾؛ فاجعله أسوة لك في كثرة الحمد، وأكثر من الحمد لربك، وكن من الحمادين، تنل شرف العبودية، ونصيبًا من الاتصاف بـ(محمود)، وتحظىٰ بالانضمام إلىٰ لواء (أحمد، محمد) ﷺ يوم يَرْفُع لواء الحمد في العرصات، وتدعىٰ مع أول المدعوين إلىٰ ضيافة الرحمن (الجنة)؛ جعلني الله

---

(١) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام (١٧٨).

(٢) انظر: القاري، مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٦٨٦). والمباركفوري، تحفة الأحوذي (٨/ ٤٦٥). وقال: «لواء الحمد على معناه الحقيقي هو الظاهر بل هو المتعين؛ لأنه لا يُصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة».

(٣) ابن القيم، عدة الصابرين، الطبعة الثالثة (مكتبة دار التراث: المدينة ١٤٠٩)، (ص١١).

(٤) الإمام أحمد، المسند (٣٣/ ١٢٦) رقم (١٩٨٩٥)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٥) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٩٣) رقم (٦٣٢): «رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٦٥) من الكواكب (٥٧٥) بسند صحيح عن حبيب عن ابن جبير موقوفًا عليه، ولعله الصواب».

وإياكم منهم)[١].

٥. اختص النبي ﷺ بتعدُّد أسمائه ﷺ دون غيره من البشر؛ وذلك لأن القصد بالاسم من حيث الأصل، التعريف، والتمييز، واسم واحد كافٍ في ذلك، وليس كذلك أسماء المصطفىٰ ﷺ؛ لأن أسماءه ﷺ كلها، كانت نعوتًا دالة علىٰ كمال المدح والثناء، فلم تكن من باب التعريف؛ بل من باب تكثير الأسماء؛ لجلالة المسمىٰ ﷺ[٢].

٦. يجوز التسمية باسمه (محمد) في حياته، وبعد مماته ﷺ، فقد أذن بذلك ﷺ، لكنه منع التكني بأبي القاسم في حياته ﷺ، وأجاز الجمهور التكني بكنيته ﷺ بعد وفاته، وقالوا: لأنه لم يكن أحد من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يجترئ أن يناديه باسمه؛ إذ الاسم لا توقير في النداء به، بخلاف الكنية، فإن النداء بها احترام وتوقير، وإنما كان يناديه باسمه بعض أجلاف العرب ممن لم يكن آمن، أو لم يرسخ الإيمان في قلبه، فمنعت الذريعة فيما كانوا ينادونه به، وهو الكنية، وأُبيح ما لم يكونوا ينادونه به وهو الاسم[٣].

---

(١) ممّا ثبت في فضل الحمد وعِظم ثوابه عند الله في صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) رقم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعريِّ -رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله ﷺ : «الطَهور شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض». وورد في فضل الحمد ما رواه الترمذي في سننه (٣٣٨٣)، وحسنه الألباني عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الذِكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»؛ فجعل ﷺ حمدَ الله أفضلَ الدعاءِ، مع أنَّ الحمد إنّما هو ثناءٌ على المحمود مع حبِّه، ويؤيّد هذا المعنى قولُ الله -تعالى-: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠]؛ فجعل الحمدَ دعاء. وفي الجَنّة بيتٌ يُقال له بيتُ الحمد، خُصَّ للذين يحمدون الله في السرّاء والضراء، ويصبرون على مُرِّ القضاء؛ فإذا عَلم ذلك العبدُ وتيقّنه أقبل على حمد الله في أحواله كلِّها في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه.

(٢) انظر: ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود (١٤٤). وبكر أبو زيد، معجم المناهي اللفظية (٣٥١).

(٣) انظر: القرطبي، المفهم (٥/ ٤٥٦).

المبحث الخامس

رضاعته ﷺ

بعد ولادته ﷺ أرضعته أمه آمنة ثلاثة أيام أو سبعة أيام[1]، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أيامًا، يقول الرسول ﷺ: «أرضعتني وأبا سلمة ثويبة»[2].

قال عروة بن الزبير -رحمه الله تعالىٰ ورضي عن أبيه-: (وثويبة مولاة لأبي لهب، وكان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب، أريه بعض أهله بشر حيبة[3]، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم[4]، غير أني سُقيت

(١) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٥٧). قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تحفة المودود بأحكام المولود (٢٣٠): «ينبغي أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة، وهو الأجود لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط بخلاف لبن من قد استقلت على الرضاع، وكل العرب تعتني بذلك حتى تسترضع أولادها عند نساء البوادي كما استرضع النبي ﷺ في بني سعد».

(٢) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٤٠)، حديث (رقم ٥١٠١).

(٣) قال ابن حجر -رحمه الله- في الفتح (٩/ ١٤٥): «(بشر حيبة)، بكسر المهملة، وسكون التحتانية، بعدها موحدة. أي: سوء حال».

(٤) قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٧/ ١٩٥): «وذكر علي بن المديني، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، أن أبا لهب أعتق جارية يقال لها: ثويبة، وكانت أرضعت النبي ﷺ، فرأى أبا لهب بعضُ أهله في النوم فسأله، فقال: ما وجدت بعدكم راحة، غير أني سقيت في هذه، وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه، بعتقي ثويبة، فبان برواية معمر أنه سقط من رواية البخاري في هذا الحديث: راحة، بعد قوله: لم ألق بعدكم؛ لأنه لا يتم الكلام على ما رواه البخاري، وكذلك سقط منه: وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه، ولا يقوم معنى الحديث إلا بذلك، ولا أعلم ممن جاء الوهم فيه».

في هذه[1] بعتاقتي ثويبة)[2].

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (٩/ ١٤٥): «كذا في الأصول بالحذف أيضًا، ووقع في رواية عبد الرزاق المذكورة، وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه، وفي رواية الإسماعيلي المذكورة، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع، وللبيهقي في الدلائل من طريق كذا مثله بلفظ يعني النقرة إلخ، وفي ذلك إشارة إلى حقارة ما سقي من الماء».

(٢) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٤٠)، حديث (رقم٥١٠١).

وقال ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٧/ ١٩٥): «وفي هذا الحديث من الفقه: أن الكافر بالله قد يُعطَى عوضًا من أعماله التي يكون مثلها قربة لأهل الإيمان بالله، وذلك أن أبا لهب أخبر أنه سُقي في النار بعتقه ثويبة في النقرة التي تحت إبهامه، وكان ذلك تخفيفًا له من العذاب».
وقال ابن حجر في فتح الباري (٩ / ١٤٥): «وفي الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة لكنه مخالف لظاهر القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، ثم أجاب عن الحديث ثم قال: «وقال البيهقي: ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات»، ثم ختم البحث بقوله: «وتتمة هذا أن يقع التفضل المذكور إكرامًا لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك»، وانظر أيضًا: السهيلي، الروض الأنف ٣ / ٦٧، وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالى- في شرحه لعمدة الأحكام (طبعة دار النوادر) (٢/ ١٠٣٢): «وقوله (بعتاقتي لثويبة) أي: مكافأة لي على عتقي إياها. ففيه: أن الإنسان لا يُظلم شيئًا، وأن الكافر يجازى بما عمل من الإحسان، إما في الدنيا، وإما في البرزخ، وجزاء أبي لهب هذا كان في البرزخ، ومجازاة الكافر لا تبلغ إخراجه من النار؛ لأن أخف الكفار عذابا أبو طالب بسبب إحسانه إلى رسول الله ﷺ، وهو لا يخرج من النار». وهناك من قال: إن فرح أبي لهب بمولود لأخيه فرح طبيعي لا تعبدي، إذ كل إنسان يفرح بالمولود يولد له أو لأحد إخوته أو أقاربه، والفرح إذا لم يكن لله لا يُثاب عليه فاعله؛ قاله الجزائري في الأنصاب ص٣٠ نقله: حافظ بن موسى الحكمي في بحث الأعياد المشروعة والممنوعة، رسالة ماجستير غير منشورة (١/ ٢٨٩)، كلية أصول الدين بالرياض. ولكن الذي ورد في صحيح البخاري أن الثواب كان على عتق ثويبة، أما الفرح بولادة الرسول ﷺ فقد ذكره السهيلي -رحمه الله تعالى-.
ومع ذلك فإن ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي يبدو لي هو أقرب الأقوال، وهو أن الجزاء الذي حصل لأبي لهب هو في البرزخ وليس يوم القيامة، فهو يقول: «سُقيت»، وهو لا يزال في البرزخ، ولا شك أنه يُعذّب عذاب القبر، لكن لم يأتِ بعد العذاب الأخروي الموعود به الكفار، الذي لا ينتفع فيه الكافر بعمل صالح في الدنيا. والله أعلم.

وقد ذكر السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- أن ثويبة بشَّرت أبا لهب بمولد الرسول ﷺ؛ فقالت له: «أشعرتَ أن آمنة ولدت غلامًا لأخيك عبد الله؟ فقال لها: اذهبي، فأنت حرة، فنفعه ذلك، وهو في النار»(١).

وقد أرضعت ثويبة (٢) حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-، عم الرسول ﷺ فحمزة وأبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنهما- أَخَوان للرسول ﷺ من الرضاعة.

وكان الرسول ﷺ يعرف ذلك لثويبة ويصلها من المدينة(٣).

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية(٤)، -رضي الله تعالىٰ عنها-.

(١) السهيلي، الروض الأنف تحقيق الوكيل (٥/ ١٩٢).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٣). وقال: «واختلف في إسلامها والله أعلم»، وفي شأن ثويبة هذه يقول ابن حجر كما في الإصابة (٨/ ٦٠) «ذكرها ابن منده، وقال: اختلف في إسلامها. وقال أبو نعيم: لا أعلم أحدًا أثبت إسلامها انتهى. وفي باب من أرضع النبي ﷺ من طبقات ابن سعد ما يدل على أنها لم تسلم، ولكن لا يدفع قول ابن منده بهذا..... وكان رسول اللَّه ﷺ يبعث إليها بصلة وبكسوة حتى جاء الخبر أنها ماتت سنة سبع مرجعه من خيبر، ومات ابنها مسروح قبلها». وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٧٠): ولم تدرك الإسلام» رغم أنه قال في الكتاب نفسه (١/ ٢٨) كان ﷺ يبعث إليها من المدينة بكسوة وصلة حتى ماتت بعد فتح خيبر، فبلغت وفاتها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل عن ابنها مسروح وبلبنه أرضعته، فقيل له: قد مات، فسأل عن قرابتها فقيل له: لم يبق منهم أحد».

(٣) انظر: السهيلي، الروض الأنف، تحقيق خالد طرطوسي (١/ ٤٠١). وقال: «فلما افتتح مكة سأل عنها، وعن ابنها مسروح الذي رضع معه، فأُخبر أنهما ماتا»، وهذا يخالف ما ذكره ابن سعد في الطبقات (١/ ١٠٩)، وابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في الاستيعاب، وابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة؛ كما مر في الهامش السابق، من أن الرسول ﷺ جاءه الخبر بوفاتها عام خيبر، والله أعلم أي ذلك كان.

(٤) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٣). وقال عنها ابن كثير -رحمه الله تعالى- في السيرة النبوية (٤/ ٦٤٤)، وهي بركة بنت ثعلبة الحبشية. غلبت عليها كنيتها أم أيمن، وهو ابنها من زوجها الأول عبيد بن زيد الحبشي، ثم تزوجها بعده زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد. وقد هاجرت الهجرتين -رضي الله عنها-، وهي حاضنة رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وقد كانت ممن ورثها رسول الله ﷺ من أبيه. وآمنت قديمًا وهاجرت،=

ولم تطل مدة رضاعة ثويبة، ولا حضانة أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد قدمت مجموعة من النساء من جهة الطائف، يبحثن عن الأطفال -كعادة العرب- منهن حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث السعدية -رضي الله تعالىٰ عنها-(١)، فعُرض عليهن الرسول ﷺ، فكن يمتنعن من أخذه إذا قيل لهن: إنه يتيم، ولمَّا لم تجد حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- طفلًا تأخذه في حين وجدت جميع النساء أطفالًا، عادت حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وأخذته معها، وورد في صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- إشارة إلىٰ هذه الرضاعة(٢).

=زارها أبو بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما- بعد وفاة النبي ﷺ، وأنها بكت فقالا لها: أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى، ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء. فجعلا يبكيان معها. وتوفيت بعد النبي ﷺ بخمسة أشهر. وانظر ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٣).

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ١١٤)، وأبو داود في سننه (٤ / ٣٣٧)، كتاب الأدب، (رقم ٥١٤٤)، وابن عبد البر، الاستيعاب ٨/ ١٨١٢، والمنذري، مختصر سنن أبي داود وقال: وأمه ﷺ من الرضاعة حليمة السعدية، أسلمت وجاءت إليه وروت عنه ﷺ (٨/ ٣٩)، وعدها ابن حجر -رحمه الله تعالى- في القسم الأول من الصحابة (٨/ ٥٢ - ٥٣)، وقال عن القسم الأول كما في المقدمة (١/ ٣): فالقسم الأول فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره سواء كانت الطريقة صحيحة أو حسنة أو ضعيفة أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان، وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٦٥-٤٦٩)، فقد خصص بابًا في إسلام حليمة وزوجها.

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٤٧)، حديث (رقم ٢٦١)، ويقال: إن ديار حليمة السعدية -رضي الله تعالى عنها- في وادٍ جنوب غربي الطائف يبعد عنه مسافة تزيد عن سبعين كيلو في منطقة تسمى حاليًا ديار بني سعد، وهي مجموعة من القرى، ويقال: إن القرية التي نشأ فيها الرسول ﷺ هناك تُسَمَّى (الذويبات، ويقول الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى-: وفي بني سعد عند قرية الشهبة على نحو مائة كيلو من الطائف جنوب غرب، مسجد يُسَمَّى (مسجد حليمة السعدية، وهو مسجد لا أصل له، وبنو سعد هناك لا يرون صحة هذا، ويقولون: إن مراضع النبي ﷺ في بني سعد قرب وادي نخلة بين ميقات قرن المنازل وحنين، والله أعلم، تصحيح الدعاء (ص ١٠٤ - ١٠٥). ولذلك فديار حليمة السعدية غير معروف مكانيًّا، والذين يذهبون إلى بعض الأماكن بحثًا عن ديارها، ليس عندهم دليل على المكان،=

وقد أدركت حليمة وزوجها الحارث بن عبد العزىٰ أنهم أخذوا نسمة مباركة، إذ ظهرت البركة في سير دابتهما، وفي لبن ناقتهما، وفي مواشيهم لما عادوا إلىٰ أماكنهم[1].

وقصة رضاعته ﷺ مشهورة في كتب السيرة روتها حليمة السعدية - رضي الله عنها- تصف فيها قدومها إلىٰ مكة، ثم قبولها في النهاية للرسول ﷺ لمَّا لم تجد غيره، ثم ما حلَّ في ديارهم من البركة [2].

وبعد مضي سنتين قدمت به حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ أمه وهي حريصة علىٰ بقائه معها؛ لما يرون فيه من البركة، فلم تزل بها حتىٰ وافقت علىٰ رده معها [3].

وإرسال النبي ﷺ للرضاعة في البادية، وإن كان من عادة أشراف العرب فعل ذلك[4]، فقد كان لحكمٍ عظيمة؛ نذكر منها:

أولًا: إن في رضاعته ﷺ في البادية تقوية لجسمه، وصفاء لذهنه[5]، وإبعادًا له عن المدينة وصخبها، وصيانة له من الأوبئة، واستفادة من مناخ البادية الصحي، خاصةً

=ولا على مشروعية الذهاب، ولو أنهم مكثوا في الحرم المكي لكان خيرًا لهم، ولم تكن تلك الأماكن محل اهتمام من الرسول ﷺ ولا من الصحابة -رضي الله تعالى-، ولا من سلف الأمة الذين هم خير القرون.

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٥٠-٥٢)، وقال عقب ذكره كامل القصة بما فيها من ذكر للبركات التي شاهدوها، وشق صدره ﷺ: «هذا حديث جيد الإسناد»، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٥٠-٥٢)، وقال: «ولكثير من مقاطع هذا الحديث شواهد تقويها، ولذلك فالحديث حسن بشواهده».

(٢) انظر القصة مفصلة في: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٧٣ - ١٧٤).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٧٥).

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٣).

(٥) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٣).

وأن مكة في ذاك الوقت يفد إليها الكثير من جميع أجناس الناس للحج والزيارة والتجارة وغيرها، مما يجعلها معرَّضة للأوبئة أكثر من غيرها.

ولذلك ينصح المربون بالاهتمام بصحة الطفل، والخروج به إلىٰ الخلاء والهواء الطلق؛ لما في ذلك من أثر تربوي ونفسي علىٰ هذا الطفل في مستقبل حياته.

وكثير من الأمراض وبخاصة النفسية منها، إنما يعاني منها أبناء المدن الذين تضيق بهم المساكن، ويهملهم الآباء، فلا يخرجون بهم حيث تنشرح النفس ويتجدد الهواء وتنتعش الحياة معهم، والتربية المعاصرة اليوم تنادي (بأهمية قيام الأطفال برحلات إلىٰ الريف والجبال والسهول والوديان، فذاك نافذة لتفتح الذهن والذكاء)[1]، وقد ذُكر أن عبد الملك بن مروان -رحمه الله تعالىٰ- كان يقول: (أضر بنا حُبّ الوليد؛ لأن الوليد كان لحانًا، وكان سليمان فصيحًا؛ لأن الوليد أقام مع أُمّه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا، ثم أدبوا فتأدبوا)[2].

ثانيًا: إن في خروج هؤلاء الأطفال إلىٰ البادية مزيد فصاحة للسانه[3]، وتعويدًا لهم علىٰ النطق السليم للغة العربية، وحماية لهم من اللحن فيها، وهذا يدلنا علىٰ مدىٰ اهتمام هؤلاء القوم بلغتهم اللغة العربية، وهو درس لنا نحن في المحافظة علىٰ اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكان سلف الأمة يحضّون علىٰ تعلم العربية كما يحضون علىٰ التفقه في السنة، وتعلم الفرائض، فقد كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري ﷺ قال: (أما بعد، فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي)[4].

(١) د. عبد الحميد الهاشمي، الرسول العربي المربي (ص ٨٧).
(٢) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٥).
(٣) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٣).
(٤) رواه ابن أبي شيبة (١٠ / ٤٥٧)، (رقم ٩٩٦٣) كتاب فضائل القرآن الكريم، باب ما جاء في فضائل القرآن.

وقال ﷺ أيضًا: (تعلموا اللحن والفرائض، فإنها من دينكم)[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض واجب، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[2].

ويقول الإمام الشاطبي -رحمه الله تعالىٰ- عن القرآن الكريم: (فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلىٰ تطلب فهمه من غير هذه الجهة)[3].

وقال أيضًا: (الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيّان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز)[4]، ولهذا حرص الأعداء علىٰ تشجيع نشر اللهجات العامية، وبثِّها في الأمة الإسلامية؛ لإدراكهم أن اللغة العربية هي الجسر الذي يربط فيما بينهم، ويصلهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتراث الإسلامي العظيم؛ (ولا وصول كاملًا إلىٰ الإسلام إلا بمعرفة لغته التي بها نزل القرآن الكريم ودُوِّنَتْ بها السُّنةُ، وسُطّرت بها دواوين الإسلام كافة، ولهذا كان الهجوم علىٰ اللغة العربية هجمة علىٰ الدين، وعُجمة اللسان تُعْقِبُ عُجمة في القلب والفكر، ووأدها، وأدٌ لحملتها وقوامها)[5].

وإذا ما تم هدم هذه اللغة، وجرىٰ التفريط فيها مِن قِبَل أبنائها انقطع هذا الاتصال وأصبحت أمة ممزقة بلهجات متعددة لا رابط لساني بينها، منقطعة عن قرآنها وحديث نبيها وتراثها الإسلامي، ولقد أشار السلف إلىٰ أن من أكبر أسباب الابتداع وظهور الفهومات الزائغة للنصوص: الجهل بلسان العرب، وفي المقابل

(١) المرجع السابق (ص٤٥٩)، رقم (٩٩٧٥).
(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٧٠).
(٣) الشاطبي، الموافقات (٢/ ٤٣).
(٤) المرجع السابق (٤ / ٦٠).
(٥) بكر أبو زيد، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية (ص ٩٠ – ٩١).

فإن من أقوىٰ الناس في حُجّته ورده علىٰ المبتدعة والمنحرفين، هم المتمكنون من اللغة العربية، وكثير من المنحرفين في العقيدة (إنما أهلكتهم العجمة)؛ كما قال ذلك الحسن البصري -رحمه الله تعالىٰ-[1].

ولذلك فمن مسؤولية الأب ومن الأمانة التي تحملها أن يحفظ علىٰ أولاده اللغة العربية، وأن يُعلِّمهم اللغةَ العربيةَ كما يعلِّمهم القرآنَ الكريمَ والسُّنةَ المطهرةَ؛ ليهيئ لهم الجسر الواصل لهم بدينهم وأمتهم.

ثالثًا: شاء الله -سبحانه وتعالىٰ- أن لا يتيسر لحليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- طفل ترضعه، ولما همّت بالخروج من مكة، عادت لأخذ محمد ﷺ، ولعلها كانت كارهة لذلك في البداية، فلما أخذته وعرفته تمسكت به، ورأت أن مصلحتها ومصلحة عائلتها في التمسك بهذا الطفل المبارك الذي أعرضت عنه جميع النسوة لما عُرض عليهن، ولنا أن نتصور حالها وهي تأخذه علىٰ مضض، وتخاطب نفسها قائلة: ما بال حظي العاثر؟ كل النسوة يجدن غايتهن، إلا أنا، لم أجد إلا يتيمًا!! وهي لا تعلم ما في طيات الغيب من الخير لها، وما أكثر ما نواجهه نحن من مثل هذه المواقف في حياتنا اليومية، نُلِحّ علىٰ طلب أمرٍ، ونحن لا ندري أين الخير؟ وهذا يذكِّرنا بقول الله -تعالىٰ-: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء:١٩]، وقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتىٰ يُيسّر له، فينظر الله إليه، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطيّر يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله -عز وجل-)[2]، (ومن لطف الله بعباده أنه يقدّر أرزاقهم بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب

(١) انظر: السيوطي، صون المنطق، تحقيق علي سامي النشار (القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية) (ص٥٦).
(٢) ابن رجب، جامع العلوم والحكم (١/ ٤٧٠).

مرادهم، فقد يريدون شيئًا، وغيره أصلح فيقدر لهم الأصلح، وإن كرهوه؛ لطفًا بهم وبرًا وإحسانًا)[1]، ففي موقف حليمة هذا درس لنا بأننا لا ندري أين الخير، ولا نعلم عواقب الأمور؟ فكم من أمر نسعىٰ إليه جاهدين، والله -جل شأنه- يصرفه عنا، مريدًا بنا الخير، ومع ذلك نحن نتضايق ونتأفف، في غفلة أن الخير كل الخير، في تسليم الأمر لله -جل شأنه-، والرضا بما اختاره لنا.

وقد نُعرض عن شيء وننصرف عنه، ونأخذه علىٰ كُرْه ومضض، ويأبىٰ الله -جل شأنه- بمنّه وكرمه، إلا أن يحقق لنا الخير فيه؛ لذلك فمقام العبد التفويض إلىٰ من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له علام الغيوب، ويرجو في ذلك حُسن العاقبة، فلا تقترح علىٰ ربك، ولا تسأل ما ليس لك به علم، بل اسأله -سبحانه وتعالىٰ- أن يحسن لك الاختيار، وأن يرضيك بما اختار[2].

والمهم في ذلك أن توقن أن قضاء الله كله عطاء، كل قضاء الله -جل شأنه- عطاء لك[3] والله -جل شأنه- عندما يأخذ منك، إنما يأخذ منك ليعطيك أضعاف أضعاف ما أخذ، فهو في الحقيقة عطاء كريم لا يحد حده.

وكم من الخير تحقق لحليمة السعدية -رضي الله عنها-؛ عندما صرف الله الأطفال عنها وهي راغبة فيهم، وجعلها تَقبل بهذا الطفل اليتيم علىٰ غير اختيارها، ولم تكن تعلم بأن هذا هو الذي فيه خيرها وخير قومها أبد الدهر.

رابعًا: من الأمور التي ذكرتها كتب السير، في مقام الرسول ﷺ عند مرضعته

---

(١) السعدي، المواهب الربانية من الآيات القرآنية، الطبعة الثانية الرياض، رمادي للنشر ١٤١٧هـ (ص ١٤٨).

(٢) انظر: التفسير القيم لابن القيم جمعه محمد أويس الندوي (ص ١٤٦).

(٣) عن صهيب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له» صحيح مسلم (٢٩٩٩).

حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ما حل في ديارهم ومواشيهم من البركة، وليس هذا بغريب، مع وجود النبي الكريم بينهم ﷺ، وقد رغَّب ظهور هذه البركات حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- في بقائه عندها حتىٰ بعد انتهاء مدة الرضاعة.

والبركة هي كثرة الخير ولزومه، وهي خير إضافي غير الخير الموجود في الأصل، وهذه البركة أمر مشاهَد ثابت في حياة الرسول ﷺ بعد بعثته(1)، والتبرك به ﷺ نوعان؛ الأول: تبرك بذاته، وهذا سائغ في حياته وفيما وجد من ملابسه وشعره وأدواته ونحو ذلك، لكنها كلها غير موجودة.

والثاني: التبرك بما جاء به من وحي منزل في القرآن والسنة. وهذا هو التبرك الحقيقي النافع الآن، بأن نتمسك بشرعه ونهتدي بهديه ونتمسك بسنته ﷺ(2).

(١) فعلى سبيل المثال وإلا فأمثلة بركاته ﷺ كثيرة: شَرِب الجيش من مزادة (قِرْبة) المشركة التي مسح عليها النبي ﷺ (صحيح البخاري ٣٥٧١)، وتوضأ ثلاثمائة رجل من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- من ماء كان في إناء وضع يده الشريفة فيه فنبع الماء بين أصابعه (صحيح البخاري ٣٥٧٢)، وعطش الناس يوم الحديبية فوضع النبي ﷺ يده في ركوة، وهي إناء صغير من جلد فيه ماء قليل فشرب الجيش كله وهم زهاء ألف وخمسمائة رجل (صحيح البخاري ٣٥٧٦) وطعام أبي طلحة -رضي الله تعالى عنه- الذي صنعه للرسول ﷺ ، فجاء ومعه سبعون رجلاً فأكلوا كلهم حتى شبعوا (صحيح البخاري ٣٥٧٨). والبركة التي حلت في تمر نخل جابر -رضي الله تعالى عنه- لما أراد قضاء دَيْن والده، وكان قليلًا لا يفي بالدَّين الذي عليه، فلما جاء الرسول ﷺ قضى دينه من هذا التمر، وبقي لجابر -رضي الله تعالى عنه- فضل. (صحيح البخاري ٣٥٨٠).

(٢) ويجب أن نعلم أن البركة كلها من الله -جل شأنه-، كما أخبرنا بذلك المصطفى ﷺ عندما قال ﷺ: «والبركة من الله» صحيح البخاري ٤/ ١٩٤) رقم (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، ونحن نلتمس هذه البركة ونطلبها من الله سبحانه. بمعنى أننا ندعو الله -جل شأنه- أن يجعلنا مباركين، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وذرياتنا وعلمنا ومالنا. أما إذا أردنا نيل بركة حاصلة في غيرنا لتنتقل إلينا فهذا هو التبرك، والتبرك الشرعي على ثلاثة أنواع:
الأول: التبرك بالأشخاص وهو قسمان:
التبرك بذاوت الأشخاص، وهذا من خصائص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيجوز=

خامسًا: ما ذكره أبو القاسم السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- من اهتمام الرسول ﷺ

=التبرك بذات النبي ﷺ وريقه وملبسه وشعره... إلخ، لكن هذه الأشياء الآن غير موجودة، أما من عدا الأنبياء فلا يجوز التبرك بذواتهم، ولو كان المتبرك به أبا بكر أو عمر -رضي الله تعالى عنهما-، إذ لو كان التبرك بهم سائغًا ما فرط فيه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- ولا التابعون -رحمهم الله تعالى- الذين أدركوهم، أو أدركوا كبار الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

التبرك بالعمل وهذا في كل مسلم، فكل مسلم مبارك، عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال النبي ﷺ: «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم» (صحيح البخاري) رقم (٥٤٤٤)، وفي مقدمتهم الرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-. وأعلى مقامات التبرك بالرسول ﷺ التمسك بالقرآن الكريم الذي أنزل عليه حفظًا ومدارسة وعملًا، واتباع شرعه ولزوم سنته. والتبرك بالعلماء والصالحين يكون بالحضور في مجالسهم بما فيها من عِلم وذِكْر، والتأسي بهم في عباداتهم وعلمهم وعملهم وزهدهم.

الثاني: التبرك بالأمكنة والأزمنة كالكعبة والمشاعر المقدسة، والمساجد ومجالس العلم، والوقت الذي بين الأذانين وآخر الليل ويوم الجمعة وشهر رمضان مما وردت نصوص فيه أنه مبارك.

الثالث: التبرك بالأطعمة والأشربة والمركوبات: كالعسل والحبة السوداء والتمر واللبن والزيتون وماء زمزم، وكالخيل من المركوبات.

ومن المهم أن نستحضر أن النصوص الشرعية كما أنها حددت لنا الأشياء المباركة، فإنها أيضًا حددت لنا طريقة الحصول على البركة من هذا الشيء المبارك، فبركة القرآن الكريم بالعلم به والعمل بما فيه، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، لا بوضعه في أرفف المجالس، أو في السيارات، أو في تركه مفتوحًا في مكان مرتفع في البيت، وبركة المسجد مثلًا بالصلاة فيه والدعاء والذكر، لا بالتمسح بجدرانه، وبركة العلماء بحضور مجالسهم والتأسي بهم، لا بالتمسح بأيديهم وثيابهم وملابسهم.

وعليه فلا بد من التأكد في التبرك من أمرين:

أن هذا الشيء مبارك بموجب نص دل على ذلك.

أن طريقة التبرك صحيحة، بموجب دليل شرعي أرشدنا إلى كيفية التبرك.

فمن تبرك بثياب عالم أو صالح، أو تمسح بها يطلب البركة، قلنا الرجل الصالح والعالم مبارك، لكن طريقة التبرك هذه خطأ، عليك لتنال بركته أن تحضر مجالسه العلمية ودروسه، وتقتدي به في عبادته، أما الثياب بذاتها فلا يجوز التبرك بها، ومن جاء إلى مسجد يتمسح بجدرانه يرجو البركة قلنا: أنت تتبرك بشيء مبارك لكن الطريقة خطأ، عليك إذا أردت بركة المسجد أن تصلي فيه، وأن تنتظر الصلاة، وأن تعتكف فيه لتنال بركته، والله أعلم. =

بمرضعته ثويبة، وصلته لها وهو بالمدينة، وسؤاله عنها، درس لنا في حفظ المعروف، والمكافأة عليه، وحسن العهد مع من أحسن إلينا من الناس أيًّا كانوا، وهذا من خُلق المسلم في تعامله مع الناس، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]؛ فكيف بمن أحسن إلينا من هؤلاء الناس؟! وسيأتينا حديث عن هذا في غزوة بدر بشأن المطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ في جواره عند رجوعه من الطائف، وقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم هذا الصنيع مع أنه مات كافرًا، ولأجل هذا

=الخلاصة في ثلاث نقاط:
١-أن البركة لا تطلب إلا من الله -جل شأنه- مثلها مثل الرزق والنصر لا يطلب إلا من الله -جل شأنه-. ولا يتعلق القلب إلا بالله -سبحانه-. والله -جل شأنه- هو واضع البركة في من شاء من خلقه فلا تُطلَب إلا منه.
٢- أنه لثبوت البركة في شيء لا بد من نص شرعي يثبت ذلك. فمن قال هذه الشيء مبارك فعليه الدليل.
٣- أنه كما حدّد الشارع الأشياء المباركة، فقد حدد طريقة الحصول على البركة منه، أي على طريقة التبرك.
وموضوع التبرك من الموضوعات المهمة في العقيدة وهو بوابة للشرك -والعياذ بالله- لمن لم يكن فيه على بصيرة. قال ابن هشام -رحمه الله تعالى- في السيرة (١/ ٧٧)، قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالى- : (ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد، إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، وأعجبهم، حتى خلف الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- غيره، فعبدوا الأوثان). وقال الشاطبي -رحمه الله تعالى- في الاعتصام (١/ ٤٨٣) تحقيق الهلالي: (العامة لا تقتصر في ذلك على حد، بل تتجاوز فيه الحدود، وتبالغ بجهلها في التماس البركة، حتى يداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج به عن الحد، فربما اعتقد في المتبرك به ما ليس فيه، وهذا التبرك هو أصل العبادة، ولأجله قطع عمر -رضي الله عنه- الشجرة التي بُويع تحتها رسول الله ﷺ، بل هو كان أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية- حسبما ذكره أهل السير)، ويرجع في معرفة المزيد إلى كتاب التبرك لناصر الجديع، والتبرك لمحمد صفوت نورالدين، وشرح كتاب التوحيد لصالح آل الشيخ، باب التبرك. وشرح كتاب التوحيد لمحمد العثيمين -رحم الله الجميع-.

الصنيع، قال الرسول ﷺ في أسرىٰ بدر وعددهم سبعون أسيرًا: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»[1].

ومثله حفظ الود والوفاء مع أمه حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وأخته من الرضاعة الشيماء -رضي الله تعالىٰ عنها-، في غزوة حنين، كما سيأتي -إن شاء الله تعالىٰ-.

سادسًا: علىٰ قول من قال: إن سقي أبي لهب بسبب عتاقه لثويبة لما بشَّرته بمولد محمد ﷺ، يمكننا أن نستفيد من ذلك، منزلة محبة النبي ﷺ، فأبو لهب سُقي بسبب عتقه لثويبة، وسبب عتقه لفرحه ومحبته لهذا المولود الجديد لأخيه، مع أن أبا لهب كان مشركًا مات علىٰ الشرك وعداوة الرسول ﷺ[2]، فكيف بالعبد المسلم الذي يُدرك قيمة هذه المحبة ويتقرب إلىٰ الله بها، ويحرص علىٰ حبّه والتأسي به ﷺ؟! وقد قال الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[3].

وفي هذا الحديث جمع الرسول ﷺ أقسام المحبة التي تكون بين الناس وهي ثلاثة:

أ. محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد لوالده.

ب. محبة إشفاق كمحبة الوالد لولده.

ت. محبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس.

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٩١) رقم (٣١٣٩)، من حديث جبير بن مطعم -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) انظر: أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب يا محب (ص ٦٩).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٨)، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان.

ومحبته ﷺ يجب أن تكون فوق هذا كله، كما يفيد أفعل التفضيل في قوله: «أحبّ إليه»(١).

وقد قال ﷺ: «آية الإيمان حبّ الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار»(٢). فإذا كانت علامة الإيمان محبة التابع، فكيف تكون محبة المتبوع ﷺ؟

اللهم إني أحب رسولك ﷺ، وأسألك أن توفقني لاقتفاء أثره، واتباع سُنته، وأن تجعلني ممن يُحشر تحت لوائه يوم القيامة ووالديَّ وذريتي والمسلمين أجمعين.

سابعًا: قال الشيخ عبد الرحمن الصقلي(٣) -رحمه الله تعالىٰ-: (لكل إنسان من اسمه نصيب، هذا في الأشخاص وكذلك في غيرها)(٤)، واسم الرسول ﷺ محمد، فهو (ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم)(٥).

ووُلِدَ رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول (وفي ذلك إشارة عظيمة إلىٰ الاستبشار بابتداء نعم المولىٰ -سبحانه وتعالىٰ-)(٦).

وأمّه آمنة بنت وهب، كما سبق، والقابلة: الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف

---

(١) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ٢٢٠، وحسن نور حسن، التأدب مع الرسول ﷺ (ص ١٥٤).

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٢ رقم ١٧ وصحيح مسلم (١/ ٨٥) رقم (٧٤). من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-.

(٣) عبد الرحمن بن عتيق بن خلف الصقلي القرشي، أبو القاسم، المعروف بابن الفحام: قارئ، كان شيخ الإسكندرية في عصره. ووفاته بها. له كتاب (التجريد لبغية المريد - خ) في القراءات ولد عام٤٢٢ وتوفي عام ٥١٦. انظر. الأعلام للزركلي (٣/ ٣١٦).

(٤) نقله عنه الشامي في سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٠٦).

(٥) ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ٨٨.

(٦) الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٠٦).

-رضي الله تعالىٰ عنه-، وعن أمه، وحاضنته: بركة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومرضعتاه: ثويبة، وحليمة السعدية -رضي الله تعالىٰ عنها-.

قال الشامي -رحمه الله تعالىٰ-: (وينعقد في سلك هذا النظام ما هيَّأ الله -تعالىٰ- له ﷺ من أسماء مربيه، ففي الوالدة والقابلة: الأمن والشفاء، وفي اسم الحاضنة: البركة والنماء، وفي مرضعتيه ﷺ: الثواب والحلم والسعد)[١].

وقد قال ﷺ: «ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة»[٢]. وهذا كان فألاً صالحًا له ﷺ.

(١) الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٣٥) رقم (٥٧٥٦). وصحيح مسلم (٤/ ١٧٤٦) رقم (٢٢٢٤) من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-.

المبحث السادس

شق صدره ﷺ في المرة الأولى

قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قيل: المراد بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء.. وقد أورده الترمذي هاهنا[١]. وهذا وإن كان واقعًا ليلة الإسراء كما رواه مالك بن صعصعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره الذي فُعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا، فالله أعلم)[٢]. فكأن الآيات تشير إلىٰ الشرح الحسي للصدر، وقد وقع أول مرة عندما كان الرسول ﷺ عند أمه من الرضاعة حليمة السعدية كما سيأتي في هذا المبحث. يقول ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (وليس في شيء من هذه الأخبار علىٰ اختلاف مراتبها ما يدل علىٰ أنه الشرح المراد في الآية، وإذ قد كان ذاك الشق معجزة خارقة للعادة يجوز أن يكون مرادًا وهو ما نحاه أبو بكر بن العربي في «الأحكام»، وعليه يكون الصدر قد أطلق علىٰ حقيقته وهو الباطن الحاوي للقلب)[٣].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن الرسول ﷺ أتاه جبريل -عليه السلام- وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده إلىٰ مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلىٰ أمه (يعني ظئره)، فقالوا: إن محمدًا قد

---

(١) الترمذي، جامع الترمذي (٥/ ٢٩٩)، (رقم ٣٣٤٦).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٨/ ٤١٥).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٩).

قُتِلَ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرىٰ أثر المِخْيَط في صدره)[١].

وعن عتبة بن عبد السلمي[٢] -رضي الله تعالىٰ عنه-، أنه حدثهم: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْمٍ[٣] لنا، ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت[٤]: يا أخي، اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني إلىٰ القفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: -قال يزيد في حديثه، ائتني بماء ثلج- فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: حصه، فحاصه، وختم عليه بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه اجعله في كِفَّة، واجعل ألفًا من أُمته في كِفَّة، فإذا أنا أنظر إلىٰ الألف فوقي، أشفق أن يخر عليّ بعضهم، فقال: (لو أن أُمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني، وفرَقت فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلىٰ أمي فأخبرتها بالذي لقيته، فأشفقت عليَّ أن يكون ألبس بي، قالت: أعيذك بالله، فرحَّلت بعيرًا لها فجعلتني علىٰ الرحل، وركبت خلفي حتىٰ بلغنا إلىٰ أمي، فقالت: أوَ أدَّيتُ أمانتي، وذمتي؟ وحدثتها بالذي لقيت،

---

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٤٧)، كتاب الإيمان، حديث (رقم ٢٦١).

(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٦). توفي سنة ٨٧ وعمره ٩٤ سنة.

(٣) البهم: صغار الغنم، ومن عادة العرب أن صغار الغنم يقوم برعيها الأطفال تدريبًا لهم، ويكون ذلك قريبًا من أماكن إقامتهم، بخلاف الغنم فإنها تبتعد، وربما تسرح في الصباح ولا تعود إلا ليلًا مع الراعي.

(٤) هذا يؤيد أن قصة شق صدره ﷺ بعد السنة الخامسة؛ لأن ما دون ذلك لا يتمكن ولا يؤمن للذهاب بالبهم، ولا يفهم الخطاب ولا يدرك حاجته إلى الزاد أو يرسل أخاه لأجل هذا الغرض.

فلم يرعها ذلك، فقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام»[1].

والظاهر أن هذه الحادثة وقعت بعد تجاوز النبي ﷺ الخامسة من عمره بقليل، حسب ما نقله السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-[2]، وقد ثبت شق الصدر مرة أخرىٰ عند الإسراء كما سيأتي[3].

ماذا نستفيد من حادثة شق صدره ﷺ؟

١- في هذه الحادثة التي جرت للرسول ﷺ عيانًا وشهدها بعض الأفراد، وبقي بعض آثارها، إشارة إلىٰ الإعداد والتهيئة للرسول ﷺ بأمر يعرفه الناس، فقد أُجْرِيَ للرسول ﷺ عملية تطهير لقلبه بإزالة تلك العلقة السوداء، ثم غُسل القلب بماء زمزم، فهو تطهير معنوي أخذ الشكل الحسي المادي الذي يطلع عليه الناس ويرونه، وبالإمكان أن يولد الرسول ﷺ مطهرًا من هذه العلقة، أو تزال منه دون فتحٍ للصدر بهذا الشكل، وبقاء أثر المخيط في صدره علامة علىٰ ذلك، لكن هذا لا يُحقّق اطلاع الناس ومعرفتهم بتميزه ﷺ عنهم بهذا التطهير[4].

٢- في هذه الحادثة إشارة إلىٰ عصمة الرسول ﷺ منذ صغره، فقد أُزيل منه حظ الشيطان وهو لا يزال طفلًا مما يعني أنه ﷺ سينشأ نشأة لا نصيب للشيطان

(١) الإمام أحمد، المسند (٢٩/ ١٩٦) رقم (١٧٦٤٨) وضعفه المحقق، وانظر: الذهبي، السيرة النبوية (ص ٥٢) وصححه، وابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٢٩٩، وانظر: والشامي، سبل الهدي (٢/ ٨٢)، وعبد الله بن عبد العزيز الجبرين، صحيح السيرة النبوية (١٠٩-١١٠)، وقال: (سنده حسن) وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية وقال (الحديث صحيح) ومحمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ص ٢٨.

(٢) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤١٣). وهو ما يؤيده وصف الحادثة.

(٣) متفق عليه: واللفظ للبخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٠١-٢٠٢)، (رقم ٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١/ ١٤٩)، (رقم ٢٦٤).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدي والرشاد (١/ ٤٢١ و٢/ ٩٠)، وأبو شهبة، السيرة النبوية (١/ ١٩٩).

فيها، محفوظًا حفظًا خاصًّا من الله -جل شأنه-، يُميِّزه عن غيره من الناس(١). وفي الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- أن الرسول ﷺ قال: «ما منكم من أحد، إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك؟ يا رسول الله قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلمَ(٢)، فلا يأمرني إلا بخير»(٣). قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (واعلم أن الأمة مجتمعة علىٰ عصمة النبي ﷺ من الشيطان، لا في جسمه بأنواع الأذىٰ، ولا علىٰ خاطره بضروب الوساوس، ولا علىٰ لسانه بما لم يقل)(٤). يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن هذه القصة: (وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ علىٰ أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان)(٥) أي أنه ﷺ كان محفوظًا منذ صغره، ونشأ علىٰ أكمل الأحوال وأزكاها ﷺ. فلم يبقَ له بعد هذا داع إلىٰ شرّ(٦). وقد قال الله -تعالىٰ- عن نبيه ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٨٧].

٣- وقفت عند قول أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- السابق الوارد في صحيح مسلم: (فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك).

(١) انظر: مساعد الحميد، هامش دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٥٤).

(٢) قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٧-١٥٨)؛ («فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» فأسلم برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان؛ فمن رفع قال معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمنًا لا يأمرني إلا بخير واختلفوا في الأرجح منهما فقال الخطابي الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح وهو المختار لقوله ﷺ «فلا يأمرني إلا بخير»، واختلفوا على رواية الفتح، قيل أسلم بمعنى استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم فاستسلم وقيل معناه صار مسلما مؤمنا وهذا هو الظاهر).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢١٦٧)، (رقم ٢٨١٤).

(٤) القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق يحْيَى إِسْمَاعِيل، الطبعة الأولى (مصر: دار الوفاء ١٤١٩)، (٨/ ٣٥١).

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

(٦) ابن علان، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (٥/ ١٤٣).

فقوله: (هذا حظ الشيطان منك)، يدل على أن كل إنسان مهما كان في علمه وعمله وتقواه ففيه حظ للشيطان قل أو كثر، ضعف أو قوي، قال ابن هبيرة -رحمه الله تعالىٰ-: (في هذا الحديث من الفقه أن رسول الله ﷺ أعلمنا أن كل شخص وإن بلغ من العبادة والعلم ما بلغ لا ينفك عنه شيطان يوكل به يغويه ويسول له، ويشككه في الدين)[1]. وهذا كما يُذَكِّرنا بخصوصية الرسول ﷺ السابقة، فهو يُرشدنا إلىٰ أمر خطير يخصّنا، وهو أن ننتبه لهذا الحظ الفاسد، الكامن في نفوسنا، الحاضر في حياتنا، المبادر للبروز في حالتين:

أ- عند التفكير في عبادة، فما أن تخطر في بالك عبادة، إلا وتجد التخذيل والتسويف من داخلك يعمل، وإذا انتصرت، سعىٰ أثناء العمل لإفساد النية، وإذا انتصرت، سعىٰ لإفساد العمل بعد أدائه؛ إما بحديث عنه ومراءاة، أو مَنٍ، أو عُجْب. والنفس اليقظة الراقية في ميدان التعبد لله -جل شأنه-، تعي هذا، وتُدرك مصدر هذه الوسوسة، وتستحضر المجاهدة المستمرة، في تنقية أعمال قلوبنا، وأعمال جوارحنا من هذا الحظ الشيطاني الخفي، قال النووي -رحمه الله تعالىٰ- في شرحه لحديث ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- السابق (وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ التحذير من فتنة القرين، ووسوسته، وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان)[2].

ب- في التعامل فيما بيننا، سواء أكنا أقارب أو جيرانًا، أو زملاء، علينا أن نستحضر الحظ الشيطاني الكامن في نفوسنا، وآثاره علىٰ القلوب غلًّا وحسدًا؛

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد (الرياض: دار الوطن ١٤١٧)، (٢/ ١٢١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٨).

إن لم ننتبه له ونكبته، فسيركبه الشيطان للوصول إلىٰ مآربه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد[1]، لكن اللئيم يُبديه والكريم يخفيه)[2]. وهذا يشهد له القرآن الكريم قال -تعالىٰ-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، أي وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض[3]. فقد كان موجودًا في قلوبهم، قبل الدخول، ومِنْ خصائص الجنة أن الغل والحسد بين أهلها منزوع. ومَنْ عرف الداء سهل عليه الدواء والانتفاع به.

٤- خاتم النبوة المذكور في الحديث عندما قال: «وختم عليه بخاتم النبوة»، هذا النص يشعر بأنه في حادثة شق الصدر الأولىٰ جرىٰ طبع خاتم النبوة علىٰ المصطفىٰ ﷺ.

أما صفة الخاتم فيقول جابر بن سمرة -رضي الله تعالىٰ عنهما-[4]: (كان وجه رسول الله ﷺ مثل الشمس والقمر، وكان مستديرًا ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده)[5].

(١) أول من وجدته قال هذه العبارة الواقدي في فتوح الشام، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧)، (١/ ٢٧٤). ويعضهم يذكره حديثًا وهو ليس كذلك، وقد صرح البعض بأنه من الموضوعات، قال السخاوي في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق محمد عثمان الخشت، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥)، (ص٥٧٩) رقم (رقم ٩٥٥)، حَدِيث: «مَا خَلا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ»، لم أقف عليه بلفظه، ولكن معناه عند أبي موسى المديني في نزهة الحفاظ له من طريق خلف بن موسى العمي عن أبيه عن قتادة عن أنس رفعه: كل بني آدم حسود،..وسنده ضعيف.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٥).

(٣) انظر: المراغي، تفسير المراغي (١٤/ ٢٦).

(٤) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة (١/ ٥٤٢ و٣/ ١٤٩) «له ولأبيه صحبة».

(٥) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٣) رقم (٢٣٤٤).

وأما متىٰ وضع الخاتم، فقد ذهب القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ أن هذا الخاتم هو أثر شق الملكين لما بين الكتفين، وتعقَّبه أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالىٰ- في المفهم بقوله: (هذه غفلة من هذا الإمام؛ فإنَّ الشق إنما كان في صدر النبي ﷺ وأثره إنما كان خطًّا واضحًا من صدره إلىٰ مراق بطنه)[1]، ووافقه النووي -رحمه الله تعالىٰ- في هذا التعقب[2].

وقال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- بعد سياقه لحديث شق الصدر ووضع الخاتم: (وفي الحديث فائدة أخرىٰ، وهي من نفيس العلم، وذلك أن خاتم النبوة لم يُدْرَ هل خُلِقَ به، أم وُضِع فيه بعد ما وُلِدَ، أو حين نُبِّئ، فبيَّن في هذا الحديث متىٰ وُضِعَ، وكيف وُضِعَ، ومن وضَعه، زادنا الله علمًا، وأوزعنا شكر ما علَّم)[3].

أما ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- فبعد أن استعرض قول القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- وتعقب القرطبي والنووي -رحمهما الله تعالىٰ-، وذكر بعض الأحاديث ومنها حديث عتبة بن عبد السلمي -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي سبق أن سقته في بداية هذا المبحث؛ قال: (ومقتضىٰ هذه الأحاديث أن الخاتم لم يكن موجودًا حين ولادته، ففيه تعقيب علىٰ من زعم أنه ولد به وهو قول نقله أبو الفتح اليعمري بلفظ، قيل: وُلِدَ به. وقيل: حين وضع. نقله مغلطاي عن يحيىٰ بن عائذ، والذي تقدم أثبت، ووقع مثله في حديث أبي ذر عند أحمد والبيهقي-رحمهم الله تعالىٰ- في الدلائل وفيه وجعل خاتم النبوة بين كتفي كما هو الآن، وفي حديث شداد بن أوس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في المغازي لابن عائذ في قصة شق صدره وهو في بلاد بني سعد بن

(١) انظر: القرطبي، المفهم (٦/ ١٣٧).
(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٨). وُلد أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالى- صاحب المفهم عام ٥٧٨ ومات ٦٥٦، أما النووي -رحمه الله تعالى- فقد وُلد عام ٦٣١- ومات عام ٦٧٦، والنووي شافعي من الشام مولدًا ووفاة، وذاك مالكي مشرقي من الأندلس.
(٣) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٨).

بكر، وأقبل وفي يده خاتم له شعاع فوضعه بين كتفيه وثدييه الحديث)[١]. وقد رجّح هذا القول عبد الرزاق البدر في كتابه شرح الشمائل[٢]، وهو الأظهر الذي تسنده الأدلة. والله أعلم.

٥- في حادثة شق الصدر درس في حدود العقل، فنحن الآن أمام حدث ثابت شرعًا بأحاديث صحيحة، لكن لو عُرضت هذه القصة علىٰ شخص لا يؤمن بالله ما صدق؛ إذ كيف يمكن أن تُجرَىٰ هذه العملية الجراحية في الصحراء.

لكن المؤمن هنا يتميز بإيمانه بالمبادرة إلىٰ التسليم للنص، ولو خالف العقل[٣]، بل العقل هنا هو التسليم للنص، لماذا؟

لأن النص عِلْم الخالق الكامل -جل شأنه-، والعقل عِلْم المخلوق القاصر[٤].

فمتىٰ اشتبه عليك أمر، وقد ثبت فيه النص، فلا تتردد في اتباع علم الخالق الكامل -سبحانه وتعالىٰ-، وكن علىٰ يقين أن هذا هو الإيمان، بل هذا هو محك الإيمان بالله -سبحانه وتعالىٰ-، واستكشاف منزلة من آمنت به في قلبك.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٦٢).

(٢) انظر: عبد الرزاق البدر، شرح شمائل النبي ﷺ، الطبعة الأولى (الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٣٥) (ص ٤٠).

(٣) في صحيح البخاري (٤/ ١٧٤) رقم (٣٤٧١)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: صلى رسول الله ﷺ، صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نُخلَق لهذا، إنما خُلِقنا للحرث»؛ فقال الناس: سبحان الله! بقرة تتكلم!، فقال: «فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر، وعمر -وما هما ثَمَّ-، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب هذا: استنقذتها مني، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري»؛ فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم!، قال: «فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر -وما هما ثَمَّ-».

(٤) انظر: عبد العزيز الطريفي، فصول في العقيدة، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة دار المنهاج ١٤٣٤)، (ص٤١).

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وجميع ما ورد في شق الصدر، واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة؛ مما يجب التسليم له دون التعرُّض لصرفه عن حقيقته؛ لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك)[1]. فنقول آمنّا؛ لأن الله علىٰ كل شيء قدير. ومثل ذلك كل شيء لم نعهده بعقولنا، وهو ثابت بنص شرعي.

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٦٢).

المبحث السابع

وفاة أمه آمنة

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم -رحمه الله تعالىٰ-: أن أُمّ رسول الله ﷺ آمنة تُوفيت بالأبواء[1]، ورسول الله ﷺ ابن ست سنين، بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به علىٰ أخواله من بني عدي بن النجار، تُزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلىٰ مكة[2].

وقد كان خروج آمنة من مكة إلىٰ المدينة برفقة ابنها محمد ﷺ وحاضنته (بركة) أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-، وبقيت في المدينة أيامًا كان لها بعض الذكريات في نفس محمد ﷺ.

وذكر النجم عمر بن فهد -رحمه الله تعالىٰ- أن ابنها محمد ﷺ كان عند رأسها لما احتضرت، وأنها كانت تنظر إليه حتىٰ ماتت وهو عند رأسها[3].

---

(١) الأبواء: بالفتح وسكون الموحدة تحت، وفتح الواو بعده ألف ممدودة، قرية لا تزال معروفة تقع شرق بلدة مستورة، الواقعة على الطريق بين مكة والمدينة، وتبعد مستورة عن مكة ٢٣٥ كيلو، وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، انظر: سعد بن عبد الله بن جنيدل، معجم الأمكنة الواردة في صحيح البخاري (ص ١٧و ١٨)، و محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٧، ٢٥٢). والمسافة بين مكة والمدينة أكثر من أربعمائة كيلو على الطريق المسفلت. وهذا يعني أنها ماتت قرب منتصف الطريق بين مكة والمدينة.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (١/ ٤١٦-٤١٧)، وابن القيم، زاد المعاد ١/ ٧٦، وقال: (لا خلاف أن أمه ماتت بين مكة والمدينة بالأبواء منصرفها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين). وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٥٥): (ذكره ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق، ورجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فزالت شبهة تدليسه إلا أنه مرسل، ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٣٥).

(٣) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٩٠).

ومما يؤكد كونها دُفِنَتْ في الأبواء أن الرسول ﷺ زارها في طريقه معتمرًا عام الحديبية[١].

وفي الحديث: أن الرسول ﷺ زار قبر أمه، فجلس عنده وبكىٰ وأبكىٰ من معه، وقال: «استأذنت ربي في أن أزور قبر أمي؛ فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يؤذن لي»[٢].

وأقف مع هذا الحدث الجلل لنبينا محمد ﷺ وأقول:

١. عندما يكون الحديث عن الوفاة، فهذا أمر مؤلم، فالموت مصيبة كما قال -تعالىٰ-: ﴿فَأَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة:١٠٦]، أما والحديث عن وفاة أم رسولنا ﷺ، فالذي يحزن رسولنا ﷺ لهو -والله- علينا أشد مما لو كان المصاب فينا، ثم إن وفاتها وقع وهو في سن من أشد سنوات العمر تعلقًا بالأم، وهذا مما يزيد

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٠٨): (وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر)، وانظر: الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٥٦).

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٢/ ٦٧١)، (رقم ٩٧٦) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-. وقد آثرت هنا ألّا أتحدث عن مسألة إيمان أبوي الرسول الكريم ﷺ ، وذلك يعود إلى أمور منها : الأول: أني لم أجد جوابًا جازمًا في المسألة رغم كثرة من كتب في هذه المسألة؛ بل إن عددًا من العلماء ألّف فيها تأليفًا مستقلًا. الثاني: أنها مسألة في غاية الحساسية، ذات صلة بنبينا محمد ﷺ، ولعل سلامة المنهج فيها هو منهج السلامة. والثالث: أنها ليست من المسائل التي تحتها عمل مما كُلفنا به، ولما سئل الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالى- عن هذه المسألة قال: (هذا السؤال ليس من الأسئلة التي يُستحسن أن نُسأل عنها؛ لأنه لا فائدة منها إطلاقا)، ثم بعد ذلك أجاب على سؤال السائل، باعتبار أن السؤال وقع. انظر موقع الشيخ على الشبكة العنكبوتية، والجواب موجود بصوبته ومكتوبًا. وممن توقف في المسألة: تاج الدين الفاكهي والسخاوي وشمس الحق العظيم آبادي -رحمهم الله تعالى-. وللمزيد طالع السيوطي، مسالك الحنفا (٢/ ٤٠٢)، والمقاصد الحسنة للسخاوي (ص ٤٥)، وعون المعبود للأبادي ١٢/ ٣٢٤، والأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم لأحمد بن عبد العزيز القصير (٣١٦)، وما بعدها، الطبعة الأولى. (الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٣٠).

ألم المصاب أضعافًا، تأمل قول الله -تعالىٰ- عن الخليل إبراهيم -عليه السلام- وابنه إسماعيل -عليه السلام-: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢]؛ (أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه)(١)؛ فهذا السن أشد مراحل الشفقة والحنان وانتعاش الأمل من الوالد، وأتم مراحل تعلق الوالد بالولد، وأشد مراحل تشبث الولد بالوالد، وفيه جاء الابتلاء والطفل في سن السادسة، شديد التعلق بأمه، سريع الحنين إليها لو غابت عنه ساعة، يرىٰ فيها الدنيا كلها، ويلجأ إليها في فرحه وترحه، وفيها -كما يُفهم من الآية- جاء ابتلاء إبراهيم -عليه السلام- بابنه إسماعيل -عليه السلام-، وابتلاء محمد ﷺ بفقد أُمّه.

٢. ثم أمر لا يغيب عن الذهن أنه ﷺ، عاش مع أُمّه سنتين فقط، فقد عاد من مرضعته بعد أن أكمل أربع سنوات وأمضىٰ أشهرًا في الخامسة، ثم عاد إلىٰ أمه، وبقي معها حتىٰ تجاوز السادسة من عمره، وهذه المدة أعني (سنتين) كافية جدًّا لتعلُّق الطفل بأمه، فما أن تم تعلق الطفل بأمه بعد أن كان بعيدًا عنها، وبعيدة عنه، إذا به يُفاجَأ بفقدها. وهذا شبيه بما سيتكرر له مع جده عبد المطلب مرة أخرىٰ، كما سيأتي.

٣. ثم مع ألم زمن الوفاة، جاء مكانها؛ ففي طريق السفر، وفي هذا البعد بين مكة والمدينة، ليس في مكة؛ ليكون بين أعمامه، ولا في المدينة؛ ليكون بين أخواله، هناك تموت آمنة؛ ليصاب الرسول ﷺ بنوع خاص من الألم وهو يرىٰ أُمّه أمامه تُوارىٰ الثرىٰ، وهو ابن ست سنين، ليستقبل صنفًا جديدًا من اليُتْم يُضاف إلىٰ يُتمه السابق بعدم رؤيته لأبيه. وكأن هذا التتابع من التدبير مراد لحكمة، أو لحكم عظيمة لا يعلمها إلَّا مُدبّرها -سبحانه وتعالىٰ-.

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧).

ولك أن تستحضر صورة هذا الفتىٰ ﷺ في صورة شخص تعرفه، من معاصريك، كيف ستكون عواطفك تجاهه، وهو في هذه المنطقة النائية، ثم يعود ليدخل مدينته، وبيته ويرىٰ آثار أمه أمامه تُذكِّره بها، فتشتد عليه الوطأة؛ لكنه لا يستطيع من مثله وفي سِنِّه، التعبير عن حجم المصيبة، فتبقىٰ حبيسة الفؤاد الصغير.

٤. لقد كان المصطفىٰ ﷺ يقول للناس: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطىٰ»[1]، ويكررها ليس من الوحي فقط، وإنما يقولها من الوحي، وقد وعىٰ معناها بالتجربة التي عاشها، ويأتي رجل إلىٰ رسول الله ﷺ يشكو إليه قسوة قلبه، فيقول له الرسول ﷺ: «امسح رأس اليتيم»[2]؛ ما قيمة مسح رأس اليتيم؟ قد لا يشعر الماسح بالقيمة!! لكن اليتيم فاقد الأب يجد لها أثرًا عميقًا في نفسه، عندما يرىٰ زملاءه من الأطفال، لهم آباء يحتضنونهم، وهو لا يجد مَن يرحِّب به، أو يفرح به، أو يُولِيه شيئًا من العناية، ويأتي الحديث النبوي موصيًا باليتيم، مُذَكِّرًا بحاجته إلىٰ اهتمام المجتمع به، من خلال وحي وتجربة عاشها الرسول ﷺ.

٥. هذا الأمر يُذَكِّر كل مسلم بيتامىٰ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الذين فقدوا آباءهم، ولا يجدون مطعمًا ولا مشربًا، ولا مأوىٰ، ولا كساء، فضلًا عن أن يجدوا يدًا حانية تمسح رؤوسهم وتحتضنهم، أقبل أعداء الإسلام عليهم؛ ليتولوا كفالتهم ومِن ثَم صَرْفهم عن دينهم.

ومن وصية الرسول ﷺ تلك نتذكر هؤلاء؛ بحثًا عن تلك الدرجة الرفيعة التي

(١) الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: فضل من يعول يتيمًا (٧/ ٧٦).

(٢) رواه الإمام أحمد، انظر: أحمد البنا، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٩/ ١٧٩)، وقال في بلوغ الأماني (١٩/ ١٧٩): أورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، قلت: في إسناده عند الإمام أحمد رجل لم يُسمّ، أحمد البنا، بلوغ الأماني (١٩/ ١٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (١٤٢٣).

وعدها الرسول ﷺ لكافل اليتيم، وطلبًا لرقة القلب من قسوة نشكو إلىٰ الله منها صباحًا ومساءً، وأداءً لواجب حماية أبناء المسلمين من المنصّرين وأعداء الأمة الإسلامية.

٦. وأخيرا في زيـارة الرسول الكريم ﷺ لقبر أمه دلالـة علىٰ تأكيد زيارة الوالدين والأقارب ومن له حق في الحياة، وبعد الوفاة، وأن ذلك من المصاحبة في الدنيا معروفًا[١]، خاصةً إذا علمنا أن بين وفاة آمنة، وزيارة الرسول ﷺ لها أكثر

(١) انظر: المغربي، البدر التمام شرح بلوغ المرام، الطبعة الأولى (القاهرة: دار هجر ١٤١٤) (٤/ ٢٤٩). ولي كتيب بعنوان (هل يسمع الأموات كلام الأحياء؟) جمعت فيه بعض النصوص، ثم كلام عدد من أهل العلم في القديم والحديث الذين يرون أن الأموات يعلمون بمن يزورنهم ويُسَرُّون بذلك، ولعل من أقوى الأدلة على ذلك حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، قال: وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»، ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول» صحيح البخاري (٣٩٨٠)، وحديث أنس -رضي الله تعالى عنه-، أن النبي ﷺ قال: «العبد إذا وُضِعَ في قبره، وتولّى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه...» صحيح البخاري (١٣٣٨). وحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غدًا، مؤجلون، وإنا، إن شاء الله، بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» صحيح (مسلم ٩٧٤). «وهذا خطاب والخطاب لمن يسمع» كما يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى- مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٦٣)، وحديث زيارة الرسول لقبر أمه، أعلاه، وقول عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- (فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة، ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا عليَّ التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحَر جزور ويُقسم لحمها، حتى أستأنس بكم) صحيح مسلم (١٢١)، وقال ابن عبد البر في الاستذكار (١/ ١٨٥): (عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه، ورد عليه السلام» صححه أبو محمد عبد الحق)، وقال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٢): (قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ) وقال في مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧٣): (صَحَّ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ). وانظر اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٧٨)، وانظر ابن القيم، بدائع الفوائد (٢/ ١٧٣)، وقال عنه الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلي في الأحكام الشرعية الصغرى (٣٤٤-٣٤٥): (إسناده صحيح)،=

من خمسين سنة، فعمره ﷺ عند وفاتها ست سنوات، وعمره ﷺ عند زيارتها ثمان وخمسين سنة، فلا يعني مضي السنين، وبلاء العظام وذهابها، أن الزيارة لا تجدي. والله أعلم.

٧. لم أجد في السيرة أن الرسول ﷺ زار قبر أبيه، مع أنه مات في المدينة ودفن فيها عند أخواله، ولعل ذلك يرجع إلىٰ أنه ﷺ يعرف يقينًا قبر أمه، وعاش معها سنوات، وحضر وفاتها ودفنها، أما قبر أبيه، فليس عنده علم يقيني به، خاصةً أن الرسول ﷺ جاء إلىٰ المدينة وعمره الشريف (٥٣) سنة، مما يغلب علىٰ الظن أن الذين حضروا وفاة أبيه ودفنه ويضبطون مكان قبره قد ماتوا، أو نسوه مع مرور الأيام، والله أعلم.

=وتبعه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٤١٩ - حلبي)، وأقره المناوي»؛ قاله الألباني في السلسلة الضعيفة (٩/ ٤٧٦). وقال ابن رجب -رحمه الله تعالى- في كتابه أهوال القبور (ص ٨٦): (وقال عبد الحق الإشبيلي: إسناده صحيح يشير إلى أن رواته كلهم ثقات وهو كذلك إلا أنه غريب بل منكر): وانظر تخريج أحاديث علوم الدين للعِراقي (٦/ ٢٦١١). وقال الشوكاني في نيل الأوطار (وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا)، وقال المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٨٧): (وأفاد الحافظ العراقي أن ابن عبد البر خرجه في التمهيد والاستذكار بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، وممن صححه عبد الحق بلفظ ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام) وضعفه الألباني -رحمه الله تعالى- وغيره، والله أعلم. المهم أن لا ننسى زيارة موتانا -وبخاصة الأبوين- وندعو لهم إذا زرناهم، ونستغفر لهم، فالظاهر أنهم يأنسون بذلك والعلم عند الله؛ فهو من علم الغيب الذي ليس عندنا منه خبر مستيقن. ولا يعني أُنسهم بالزائر أنهم يملكون شيئًا، فهم رهينو أعمالهم بحاجة إلى داعٍ أو مستغفرٍ لهم، ولا يملكون لأنفسهم شيئًا، فضلًا أن يملكوه لغيره، وللمزيد يرجع إلى كتابي أعلاه.

المبحث الثامن

محمد ﷺ في كفالة جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب

عاد المصطفىٰ ﷺ إلىٰ مكة بعد وفاة أمه في طريق عودته من المدينة، مصحوبًا بمولاته أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-، التي أسلمته إلىٰ جده عبد المطلب.

ولا شك أن هذا الجد، سيعامل هذا الحفيد- يتيم الأبوين - معاملة خاصة، فقد كان يَرِقّ له رقة لم يرقها علىٰ أحد من ولده، وكان يُقرّبه منه ويدنيه.

أخرج الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن كِنْدير بن سعيد، عن أبيه[1] قال: حججت في الجاهلية فإذا أنا برجل، يطوف بالبيت وهو يرتجز ويقول:

رب رد إلي راكبي محمدًا   رده إليَّ واصطنع عندي يدًا

فقلت: من هذا؟ فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بعث بابن ابنه محمد في طلب إبل له -ولم يبعثه في حاجة، إلا أنجح فيها- وقد أبطأ عليه فلم يلبث أن جاء محمد والإبل فاعتنقه، وقال: يا بني لقد جزعت عليك جزعًا لم أجزعه علىٰ شيء قط، والله لا أبعثك في حاجة أبدًا، ولا تفارقني بعد هذا أبدًا»[2].

وتذكر كتب السير أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، ويجلس بنوه حول فراشه ذلك حتىٰ يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان

(١) قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى- في أسد الغابة (٤/ ٤٧٣): «كندير بْن سَعِيد بْن حيدة بْن قشير القشيري وقيل: المزني. كذا نسبه ابن منده، وَأَبُو نعيم، مختلف فِي صحبته، قيل له رؤية، ولأبيه صحبة».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٥٩) رقم (٤١٨٤). وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٦١٤).

رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام فيجلس علىٰ هذا الفراش، فيأخذه أعمامه، ويمنعونه، فيقول عبد المطلب إذا رأىٰ ذلك منهم: دعوا ابني، فإن له لشأنًا، ثم يجلسه معه علىٰ فراشه، ويمسح ظهره بيده ويَسُرُّه ما يراه يصنع، ولم تستمر هذه الرعاية طويلًا فقد مات عبد المطلب بعد سنتين من كفالته لمحمد ﷺ، وكان وقتها عُمر الرسول ﷺ ثماني سنوات، وذُكر أنه كان يمشي ﷺ خلف جنازة جده عبد المطلب يبكي حتىٰ دُفن بالحجون(١).

ولما كان أبو طالب هو شقيق عبد الله بن عبد المطلب، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ، فقد أوصىٰ عبد المطلب عند وفاته لأبي طالب بكفالة محمد ﷺ(٢).

وقد كان أبو طالب فقيرًا لا مال له مع كثرة عياله، وكان يحب الرسول ﷺ حبًّا شديدًا، فكان لا ينام الرسول ﷺ إلا عنده، وإذا خرج، خرج معه.

وسيأتي حديث وتعليق حول هذه الكفالة التي قام بها أبو طالب باذلًا قصارىٰ جهده في تربيته ﷺ صغيرًا، ونُصرته كبيرًا، مداومًا عليها أكثر من أربعين سنة في مواجهة قومه في مكة حتىٰ وفاته في السنة العاشرة من البعثة، وذلك عند الحديث عن وفاة أبي طالب في المبحث الثامن من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

أما فقه سيرة محمد ﷺ بعد وفاة أمه، وكفالة عبد المطلب لحفيده، ففيها من الدروس:

أولًا: عاد محمد ﷺ إلىٰ مكة وبدلًا من أن يذهب إلىٰ بيت أمه، عدلت به مولاته، أم أيمن إلىٰ بيت عبد المطلب، فلم يَعُدْ لمحمد ﷺ بيت خاصّ به مع أُمه،

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٨٠)، والبيهقي، دلائل النبوة تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨)، (٢/ ٢٢). والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ١٨٤)، والذهبي، السيرة النبوية (ص ٥٦). والمقريزي، إمتاع الأسماع (٤/ ٩٦)، والنجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ١٠١).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية(١/ ١٩٣). والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٢).

وإنما انتقل ليكون في كفالة جده عبد المطلب. نعم وجد عند عبد المطلب رعاية فائقة، لكن أين الأم من الجد؟! وأين آمنة من عبد المطلب؟!

مهما بذل عبد المطلب من صور العناية والرعاية التي سيوفرها عبد المطلب لحفيده، فلن يستطيع كل ذلك أن يداوي جرحًا من جروح فقدان الأم!! الأم شيء آخر!! بالله عليك هل هناك من يقوم مقام الأم؟

ثانيًا: لقد كان لمحمد ﷺ مقام خاص عند جده، كيف والعرب تقول في أمثلتها السائرة: (لا أغلىٰ من الابن إلا ابن الابن)، أو نحو ذلك، واسأل من حولك، إن لم تكن جَدًّا!! كيف مقام ابن الابن عند جده؟ هذا إذا كان الأب موجودًا، فكيف إذا كان الجد يرىٰ نفسه أنه هو الأب والجد؟، بل كيف إذا كان يرىٰ نفسه الأب والأم والجد؟!

بل كيف سيكون إذا وجد نفسه الأم والأب والأخ والأخت والجد، فقد كان محمد ﷺ وحيد أبويه؛ بل وحيد أبيه وأمه[1]. فأبوه مات وهو حمل -كما مر-، وأمه لم تتزوج بعد وفاة زوجها.

ثالثًا: لقد كانت مسؤولية عبد المطلب عظيمة تجاه هذا الطفل ﷺ، زادها ما كان يراه عبد المطلب -وهو سيد قريش وزعيمها- من علامات السيادة البارزة في حفيده، فكان عليه أن يرعىٰ هذه النبتة المباركة بما يلائمها من مستقبل واعد عظيم.

رابعًا: وبعد كفالة عبد المطلب لحفيده، فإن مما زاد الجرح بوفاة عبد المطلب، أن المصطفىٰ ﷺ لزم جدَّه، الذي كان يصحبه في الغدو والرواح، ولا يستطيع أن

(١) قال ابن سعد في الطبقات (١/ ٩٨): «قال محمد بن عمر الأسلمي: وهذا -يعني حمل آمنة بغير النبي ﷺ- مما لا يُعرف عندنا ولا عند أهل العلم، لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبد الله بن عبد المطلب غير رسول الله ﷺ».

يفارقه في مجلس، ويقعده دومًا بجواره مقدِّمًا له علىٰ أعمامه، وكبار قومه، حتىٰ إذا ألفه وتعلق القلب به -في سنتيه التي قضاها معه محاطًا منه بالإكرام والرعاية- تَعَلُّق الابن بأبيه، إذا به، فجأة يُفجَع به.

خامسًا: إن المُلاحَظ أنه بقي ﷺ مع أمه سنتين فقط، ثمّ غادرت وتركته، ثم بقي مع جده سنتين فقط ثم غادر وتركه، لو تأملت في السنتين لوجدت أن سنتين كانت كافية لتجذُّر الأُلفة، ولكي تسمق فروعها، وتبلغ ذروتها، ويتعلق الطفل بأمه، ويتربع الجد في قلب الطفل، وإذا به يُفجَع بالمغادرة، وكأن تلك الألفة لما بلغت غايتها، وأمست المصيبة بلغت أشدها، قيل للأم ثم للجد آن الرحيل فغادر، واترك الفتىٰ لربه.

سادسًا: ما أعظم تلك الصورة، وما أشد إيلامها!! أعني مشهد الطفل محمد ﷺ وعمره ثماني سنوات يجري باكيًا خلف جنازة جده عبد المطلب المحمول علىٰ الأكتاف إلىٰ مقبرة الحجون، وقبل سنتين فقط كان مع أمه ينظر إليها، وهي تُوارَىٰ التراب في منطقة نائية ليس معه من البشر مُوَاسٍ أو أنيسٍ، غير حاضنته ومولاته أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-.

سابعًا: إني وأنا أستحضر هذه الصور لحياة المصطفىٰ ﷺ أتذكر قول الله -تعالىٰ- في موسىٰ -عليه السلام- ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، ومحمد خليل الرحمن، وسيد ولد آدم، وأفضل أولي العزم من الرسل، وله من الخصوصية والصناعة من ربه ما ليس لغيره، وقد قال -تعالىٰ- له: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]. يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ- وحد العين في قصة موسىٰ -عليه السلام- وجمعه هنا (لأن الحفظ هاهنا أتم؛ لأن الصبر مطية الرحمة بالنبي ﷺ؛ حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره)[1].

(١) الرازي، تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، (٢٨/ ٢٢٩).

وما دام لموسىٰ -عليه السلام-، تلك الصناعة الربانية، فلمحمد الأعلىٰ منها والأتم. ولذلك فما نراه في هذه السيرة، إنما هو صناعة ربانية في كل لحظة من لحظات حياة هذا النبي الكريم المصطفىٰ ﷺ.

المبحث التاسع

رعيه ﷺ للأغنام

مرَّ معنا أن الرسول ﷺ كان يرعىٰ الغنم مع أخيه من الرضاعة في ديار بني سعد عندما جاءه الملكان وشقا صدره، وكان عمره في ذلك الوقت خمس سنوات تقريبًا.

وفي الأدب المفرد عن عبدة بن حزن -رضي الله تعالىٰ عنه-[1] قال: تَفاخَر أَهلُ الإبلِ وأصحابُ الشَّاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بُعِث مُوسىٰ وهُو راعي غَنمٍ، وبُعِث دَاود وهُو راعي غَنَمٍ، وبُعِثتُ أنَا، وأنَا أرعَىٰ غَنمًا لأهلِي بأجيَاد»[2].

وعن محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- قال: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة -رحمه الله تعالىٰ-، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه -رحمهم الله تعالىٰ- عن جده علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمّون بها إلا مرتين، الدهر، كلتاهما يعصمني الله -عز وجل- منها، قلت ليلةً لفتىٰ من قريش بأعلىٰ مكة في أغنام لأهلنا نرعاها: انظر غنمي حتىٰ أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان. قال: نعم. فخرجت فجئت أدنىٰ دار من دور مكة سمعت غناء وضرب

---

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٤/ ٣٢٣)، وفيه «أخرجه البخاريّ في التاريخ، وقال في روايته: عن عبدة بن حزن، وكانت له صحبة،.... قال شعبة: قلت لأبي إسحاق: أدرك نصر بن حزن النبيّ ﷺ ؟ قال: نعم».

(٢) البخاري، الأدب المفرد تحقيق سمير الزهيري، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة المعارف ١٤١٩)، رقم (٥٧٧)، (ص ٢٩٧) والنسائي، السنن الكبرى، تحقيق حسن شلبي، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢١)، (١٠/ ١٧١) رقم (١١٢٦٢). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٦٧).

دفوف وزمرًا. فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتىٰ غلبتني عيني فما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلىٰ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرىٰ مثل ذلك ففعل فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتىٰ غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلىٰ صاحبي فقال لي: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئا قال رسول الله ﷺ: فو الله ما هممت بعدهما بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتىٰ أكرمني الله -عز وجل- بنبوته»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد رعىٰ الغنم»، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها علىٰ قراريط(٢)

(١) أبو نعيم، دلائل النبوة (المتوفى: ٤٣٠هـ) تحقيق محمد رواس قلعه جي وزميله، الطبعة الثانية (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٦)، (١/ ١٨٦) رقم (١٢٨). والبيهقي، دلائل النبوة (المتوفى: ٤٥٨هـ)، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٥) (٢/ ٣٤)، والحاكم، المستدرك (٤/ ٢٧٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. وقال ابن حجر في المطالب العالية، بتحقيق مجموعة من طلاب الدكتوراه، تنسيق سعد الشثري، الطبعة الأولى (الرياض: دار العاصمة ١٤١٩)، (١٧/ ٢٠٨): «قلت: هكذا رواه محمد بن إسحاق في السيرة، وهذه الطريق حسنة جليلة، ولم أره في شيء من المسانيد إلا في مسند إسحاق هذا، وهو حديث حسن متصل، ورجاله ثقات»، وقال البزار في مجمع الزوائد تحقيق حسام الدين القدسي (القاهرة: مكتبة القدسي (١٤١٤) (٨/ ٢٢٦) رقم (١٣٨٧٣): «رواه البزار، ورجاله ثقات». وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٥٧).

(٢) قراريط: جمع قيراط، والقيراط جزء من أجزاء الدينار، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٤/ ٤٢). وقال ابن الملقن في شرح صحيح البخاري (١٥/ ٣٥): «وهل القراريط في الحديث اسم مكان أو نقد؟ قولان:

أحدهما: اسم مكان بقرب جياد، قاله الحربي، ويدل له أن العرب لم تكن تعرف القيراط، وأخبر أن مصر تُفتح ويُذكر فيها القيراط؛ ولهذا لم يبوّب البخاري على الاستئجار لرعيها؛ لأنه لم يذكر الأجرة، ويجوز أن يكون تركه إعظامًا لجنابه، ولما رواه ابن ماجه قال: «كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط»، ثم قال: قال سويد بن سعيد: يعني كل شاة بقيراط، وهو دليل=

لأهل مكة»[1].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران ونحن نجني الكباث[2] فقال النبي ﷺ: «عليكم بالأسود منه». قال: فقلنا: يا رسول الله! كأنك رعيت الغنم؟ قال: «نعم، وهل من نبي إلا وقد رعاها»، أو نحو هذا القول)[3].

ومع رعي النبي ﷺ للغنم الوقفات التالية:

أولًا: هذه الروايات تُعطي عِلْمًا أن الرسول ﷺ كان مصاحبًا لرعي الغنم منذ صغره، فقد رعاها وهو لا يزال عند مرضعته في ديار بني سعد في حدود السنة الخامسة من عمره، ثم رعاها لأهله كما ورد في نص كلامه ﷺ «أرعَىٰ غَنمًا لأهلِي بأجيَاد». ومن هم أهله؟ هل يقصد أمه آمنة التي لم يبق معها سوىٰ ما يقارب العامين بعد عودته من عند حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد ماتت أمه وعمره ست سنوات، أم يقصد غنم جده عبد المطلب، وأستبعد أن يكون يرعىٰ غنم جده عبد المطلب لما ذُكر في السيرة من فرط تعلق عبد المطلب بحفيده وحرصه علىٰ قربه منه وخشيته

=القول الثاني. قال ابن الجوزي: والذي قاله الحربي أصح، وصححه ابن ناصر الحافظ أيضًا قال: وأخطأ سويد في تفسيره، وكان ذلك منه وسِنُّه نحو العشرين فيما استقرئ من كلام ابن إسحاق والواقدي وغيرهما»، وانظر أيضًا الشفا للقاضي عياض وشرحه للقاري فقد تحدّثا عن هذه المسألة (٢/ ٤٥٧-٤٥٨)، وخلاصته أن القاضي عياض يرى أنه كان يرعى بالأجرة في ابتداء حاله، وقال القاري بأن الصحيح أنه لم يرع بأجرة وإن صح ذلك فلا غضاضة فيه، وقال: وأقول لعله لبعض أهله إن صح الاستيجار في فعله. ا.ه. والله أعلم. وكل هذا حرصًا على تنزيه المقام النبوي؛ فجزاهم الله على ذلك خير الجزاء.

(١) الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإجارة (٣/ ٤٨).

(٢) الكباث: النضيج من ثمر الأراك، والأراك شجر معروف طيب الريح، يستاك به، انظر: ابن الجوزي، غريب الحديث (٢/ ٢٧٨)، وابن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري (ص ٧٨).

(٣) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٦٢١)، حديث (رقم ٢٠٥٠).

عليه، وقد يكون لعمه أبي طالب، وهو أقرب؛ لأنه في سن تناسب أن ينفرد برعي الغنم، لكن أيًّا ما يكون الأمر، فهو ﷺ قد رعىٰ الغنم لأهله، ثم إن قول الرسول ﷺ «بأجياد»، وأجياد -لمن يعرف مكة - قريبة جدًّا من بيته، فهي علىٰ يسار الخارج من باب الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالىٰ- في الحرم.

ثم بعد رعيه لأهله، فقد رعىٰ الغنم لأهل مكة، كما هو نص الحديث السابق الوارد في صحيح البخاري، وكان ذلك علىٰ قراريط أو بقراريط، وهل المقصود مكان يسمىٰ قراريط أو أن المراد بأجرة معلومة، الله أعلم، فإن صح أنه أخذ أجرة في ابتداء أمره، فهذا لا غضاضة فيه، وهو عمل من كسب اليد، بل هو من أشرف أعمال الاكتساب، وموسىٰ الكليم -عليه السلام- رعىٰ الأغنام بأجرة[1].

فإن صح أنه كان يأخذ أجرة من أهل مكة، فالذي يغلب علىٰ الظن أنه كان بعد وفاة جده عبد المطلب، وانتقاله إلىٰ كفالة عمه أبي طالب، فقد كان أبو طالب كثيرَ العيال خفيفَ ذات اليد، فهو بحاجة إلىٰ من يعينه علىٰ النفقة، خاصةً وأن الرسول ﷺ قد شبَّ، وعمره تقريبًا قد تجاوز التاسعة قليلًا، ومثل هذا السن في البيئة العربية الأصيلة يعتبر مؤهلًا للاعتماد علىٰ النفس.

ثانيًا: وقفت متأملا في مسألة رعي الأغنام، التي وقعت لجميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في صغرهم: «ما من نبي إلا ورعىٰ الأغنام» هذا كلام المصطفىٰ ﷺ كما مر.

لماذا جرىٰ هذا الأمر من جميع الأنبياء؟، كلهم رعوا الأغنام!!

---

(١) قال تعالى في قصة موسى عليه السلام مع صاحب مدين: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ [القصص:٢٧] قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٦/ ٢٣٠) «أي: على أن ترعى علي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك».

هل تعتقد أنه من باب الصدف؟ -كما يقولون- أو أنه التدبير الإلهي!!

لا أشك أنه التدبير الإلهي لهذا النبي الكريم علىٰ ربه، محمد ﷺ أن ينشأ في أول شبابه مع رعي الغنم.

كيف لا يكون تدبيرًا إلهيًّا، ونحن نقرأ في كتاب الله -جل شأنه- قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]، وقوله -تعالىٰ- عن موسىٰ -عليه السلام- الذي أيضًا هو كان يرعىٰ الغنم: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩]، بل ما من نبي إلا وقد رعىٰ الأغنام.

إن هذا يلفت نظرنا إلىٰ أن وظيفة رعي الأغنام بخاصة، اختارها الله -جل شأنه- لتكون ميدانًا لصفوة خلقه الذين يبعثهم لهداية البشر وقيادتهم. إذًا هذه الوظيفة مختارة بعناية، لصفوة مراد منها أعظم رسالة.

ثالثًا: لتتضح الرؤية أكثر، وأن هناك رابطًا مقصودًا في الأمر، تأمل معي هذا الحديث الذي يرويه أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن رسول الله ﷺ، قال: «رأس الكفر نحو المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدَّادِين أهل الوبر، والسكينة والوقار في أهل الغنم»(١).

يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما قوله ﷺ: «الفخر والخيلاء»؛ فالفخر هو الافتخار وعد المآثر القديمة تعظيمًا، والخيلاء الكبر واحتقار الناس)(٢).

ويقول أيضا -رحمه الله تعالىٰ-: («الْفَدَّادِينَ»: بِتَشْدِيدِ الدَّالِ جَمْعُ فَدَّادٍ بِدَالَيْنِ أُولَاهُمَا مُشَدَّدَةٌ، وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْأَصْمَعِيِّ وَجُمْهُورِ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَهُوَ مِنْ

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٤٣٨٨)، وعند مسلم بلفظ «والسكينة والوقار في أصحاب الشاء» (١/ ٩١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ٣٤).

الْفَدِيدِ وَهُوَ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ، فَهُمُ الَّذِينَ تَعْلُو أَصْوَاتُهُمْ فِي إِبِلِهِمْ وَخَيْلِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ)[١].

ويقول أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (السكينة التأني في الحركات واجتناب العبث ونحو ذلك. والوقار في الهيئة وغض البصر وخفض الصوت والإقبال علىٰ طريقه بغير التفات)[٢].

وبعد أن عرفنا معاني هذه الكلمات، لاحظ أن الرسول يقول: «والسكينة والوقار في (أهل) الغنم»؛ فالسكينة لصاحب الغنم، من أين؟ من رعيه، أو قل مِن رعايته للغنم؟ أو قل من صحبته للغنم!!

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعًا من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه، ولهذا صار الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمالون والبغالون فيهم أخلاق مذمومة، من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلابون، وصار الحيوان الإنسي، فيه بعض أخلاق الناس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة)[٣].

فكيف إذا كان الفتىٰ قد نشأ علىٰ صحبتها من صغره؟ كيف ستكون سكينته ووقاره.

وهذا جزء من العناية الإلهية للنبي ﷺ التي حظي بها ﷺ.

رابعًا: ثم إني وقفت عند قول المصطفىٰ ﷺ «ما من نبي إلا وقد رعىٰ الغنم»، وكأن رعي الغنم أمر أساسي مشترك وضعه الله -جل شأنه- في تكوين وإعداد جميع الأنبياء -عليهم السلام- لأداء رسالتهم.

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ٣٤).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (٥/ ١٠٠).

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٥٤٨).

وحينئذ فكون كل الأنبياء رعوا الأغنام، يعني أن مسألة الرعي ليست رغبة في المزيد من الكسب المادي فحسب؛ لأن وسائل الكسب متعددة، ومتفاوتة من زمان أو مكان لآخر. ولو كان هو المقصود، لرأينا نبيًّا يكتسب بالرعي، وآخر بالنجارة، وثالث بالزراعة، ولكن لما كان القصد ذات الرعي للأغنام، التي تُكسب صاحبها السكينة والوقار، رأينا اتفاق حصوله منهم، وهذا ما يناسب هيئات الأنبياء والرسل -عليهم السلام-.

ولا أدري هل يسوغ أن أقول: إن في هذا ترغيبًا للاستفادة من هذا التربية، فيكون جزءًا من حياة الفتىٰ رعي الغنم، كما أنه تنفير من صحبة الإبل والخيل لما تُكسِب صاحبها من الخيلاء والفخر. وخاصةً إذا أكثر من ذلك.

خامسًا: يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها علىٰ ما يُكلّفونه من القيام بأمر أمتهم)(١).

فالأنبياء كانوا رعاة أغنام في صغرهم؛ ليكونوا رعاة الإنسانية في كبرهم، فـ(كما قُدِّر لموسىٰ ومحمد وغيرهما من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- في ابتداء أمرهم رعاية الغنم؛ ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيمي وإصلاحه، إلىٰ رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم)(٢).

---

(١) ابن حجر، فتح الباري(٤/ ٤٤١).

(٢) السعدي، المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ١٤٩). ومن الفائدة أضيف كلمة قالها ابن القيم -رحمه الله تعالى- في مفتاح دار السعادة (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ١١٠): (وحكي أن جماعة من النصارى تحدثوا فيما بينهم؛ فقال قائل منهم ما أقل عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعي الغنم، فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة؟ فقال له آخر من بينهم: أما هم فوالله أعقل منا، فإن الله بحكمته يسترعي النبي الحيوان البهيم، فإذا أحسن رعايته والقيام عليه، نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق؛ حكمةً من الله وتدريجًا لعبده، ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكي فقلنا هذا إلهنا الذي خلق السموات والأرض فأمسك القوم عنه).

ألا يلفت هذا الأمر نظرنا إلىٰ أهمية التدريب، في جميع أعمالنا، فالمدير لا بد أن يتدرب علىٰ الإدارة قبل ممارستها، والمعلم لا بد أن يتدرب علىٰ التعليم قبل أن يقف في الفصل معلمًا، والطبيب لا بد أن يتدرب علىٰ الطبّ قبل ممارسة الطب، وكذلك الداعية لله، لا يكفي أن تكون لديه معلومات شرعية ليقوم بالدعوة؛ بل لا بد من التدريب العملي، ومسألة إلقاء المحاضرات والخطب فنّ لا يُتقنُ إلا بالتدريب، وكم من معلومة صحيحة ضاعت في إلقاء فاسد، ومعلومة فاسدة راجت ألقاها خطيب متدرب.

والشركات الرائدة تعطي أهمية كبيرة لتدريب موظفيها، ولو كلَّفها هذا الأمر مبالغ؛ لأنها تعلم أنها بالموظف المتدرّب توفّر لنفسها ساعات من العمل، يضيعها غير المتدرب، في إنجازه عمله، مع ما تناله من كسب رضىٰ العملاء واستمرارهم وزيادتهم بالموظف المتدرب.

سادسًا: قال العلماء: إن في رعي الأغنام -بخاصة- التعود علىٰ الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا علىٰ رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعىٰ؛ ألفوا من ذلك الصبر علىٰ الناس، وعرفوا اختلاف طبائعهم، واختلاف عقولهم، فجبروا كسيرهم، ورفقوا بضعيفهم، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلفوا القيام بذلك من أول وهلة، فكان التدرج في ذلك برعيهم للأغنام التي هي مختلفة الطباع، وفيها الضعيفة والعرجاء والتي ترغب تسلق الجبال، وفيها التي لا تتمكن من تجاوز الأودية، فيتعلم مع الأغنام تحقيق الرغبات المتفرقة، تمهيدًا وتدريجًا لمواجهة البشر في رغباتهم وقضاياهم المختلفة [(١)].

سابعًا: قوله ﷺ: «والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدَّادِين أهل الوبر، والسكينة والوقار في أهل الغنم»؛ يدل علىٰ أن الصحبة مؤثرة، ولو كانت مع

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤/ ٤٤١). وسبقه إلى هذا المعنى ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٦/ ٣٨٦).

غير ناطق، فصحبة الإبل غير صحبة الغنم، هذه سكينة ووقار، وتلك فخر وخيلاء وكِبْر، فكيف إذا كان المصحوب إنسانًا ناطقًا معبرًا عن نفسه، داعيًا إلىٰ سلوكه وأفكاره، مجادلاً عنها؟ كيف سيكون تأثيره؟!

وقد قال -تعالىٰ-: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وهي صورة معبّرة مؤثرة في حال النادم علىٰ الصحبة السيئة يوم القيامة، للتنبيه، بل للتحذير من مغبة، وسوء عاقبة صحبة أهل السوء.

ثامنًا: قوله ﷺ: «والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدَّادِين أهل الوبر، والسكينة والوقار في أهل الغنم»؛ هذا يدل علىٰ أن مهنة الشخص أو وظيفته التي يمارسها مؤثرة علىٰ سلوكه، فهناك وظيفة قد تجعل صاحبها متكبرًا، وهناك أخرىٰ قد تجعل صاحبها متواضعًا.

وهذا أمر معروف وخاصة عند من لديه فراسة في الأشخاص، فتراه يعرف عمل الشخص بأقواله وحركاته وتصرفاته، وما الأشياء التي يوليها اهتمامه، فالقاضي غير المعلم، والمعلم غير المحامي، والمحامي غير العسكري، وكل ذلك انعكاس لطبيعة وظائفهم التي يمارسونها.

وهذا مهم في أمرين:

الأول: في اختيار المهنة أو الوظيفة الملائمة، فإن لها أثرًا علىٰ سلوكه لاحقًا.

والثاني: أن ينتبه في تعامله في بيته ومع أقاربه ومع زملائه، فيقلل من تأثير تلك الوظيفة علىٰ تعامله خارج نطاق الوظيفة، فليس من الملائم في شيء أن يكون الشخص عسكريًّا في بيته، صارمًا في أوامره، تأثرًا بكون وظيفته عسكريًّا، أو قاضيًا في

بيته متحفظًا متحرزًا في لحظه ونظره، تأثرًا بوظيفته القضائية[1].

تاسعًا: ثم أمر مهم -في نظري- نستفيده هنا، وهو أن السكينة والوقار مُكتسبة؛ بل إن الأخلاق في جملتها مكتسبة، وهذه نعمة من الله -سبحانه وتعالىٰ-، أن أتاح لنا اكتسابها، وبعض الناس إذا نُصح في أمر سلوكي كالحدِّة أو سرعة الغضب، قال: هذا طبعي لا أستطيع أغيره!! وهذا غير صحيح، فهذا الحديث يدلنا علىٰ أن حُسن الخلق مُكتَسب؛ بل وسوء الخلق أيضا مكتسب، إما فخرًا وخيلاء، أو سكينة ووقارًا، وقد قال الرسول ﷺ: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله ومن يتصبر يصبره الله»[2]؛ فهذا يدل علىٰ أن خُلق الصبر مكتسب، والعجلة المذمومة ليست حتمًا في الشخص، بل بالمجاهدة تذهب، بعد الاستعانة بالله -سبحانه وتعالىٰ-، ولا يعني هذا نفي الجِبِلّة التي توجد في الشخص، من الرفق والأناة، أو الحدة وسرعة الغضب[3]؛ فإنها حتىٰ مع وجودها وفيها خُلق فيه سوء، فإن من الممكن تقويمه.

عاشرًا: هذا يسترعي انتباهنا إلىٰ أهمية الأخلاق في ديننا ودعوتنا إلىٰ الله -جل شأنه-، وكان لرسول الله ﷺ من ذلك المقام الأسمىٰ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا

(١) مر عليَّ -من باب الطرافة- في هذا الشأن من يقول: إن النَّجَّار يرى كل شيء حوله كرؤوس مسامير تحتاج للدق. وآخر يقول: إن الإسكافي -صانع الأحذية- دائمًا نظره عند اللقاءات إلى أحذية الناس.

(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٢٢) رقم (١٤٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه-.

(٣) في سنن أبي داود «عن أم أبان بنت الوازع بن زارع، عن جدها، زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبّل يد النبي ﷺ ورِجْله، قال: وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: «إن فيك خلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»؛ قال: يا رسول الله! أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما»؛ قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله». قال الألباني: حسن، دون ذِكْر الرجلين (٤/ ٣٥٧) رقم (٥٢٢٥). وأصله في صحيح مسلم (١/ ٤٨) رقم (٢٥).

﴿عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، و﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]؛ فذكر -جل شأنه- خلق الرأفة والرحمة، ثم عمم فقال الله -تعالىٰ- في مقام الثناء علىٰ المصطفىٰ ﷺ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم:٣]. ولا شك أن الرسول ﷺ له المنزلة الفضلىٰ في العبادة صلاةً وصيامًا وصدقة وذكرًا وغيرها، لكن جاء سياق الثناء في مجال الأخلاق لسموه، ولمقامه في نفع الآخرين.

ومن أراد التأسي بالنبي ﷺ فليكن في مقدمة ما يتأسىٰ به خُلُقه ﷺ، وإن لمن المحزن أن يغفل كثير من المسلمين في واقعهم عن التأسي بالنبي ﷺ في جانب الأخلاق، ويعتقدوا أن تمام التأسي وأعلاه في جانب الشعائر، ولا شك أن الرسول الكريم ﷺ أسوة لنا في الشعائر وفي الأخلاق، لكن أن ينصرف الناس إلىٰ جانب في غفلة عن جانب آخر لا يقل أهمية، هو مما ينبغي التنبيه إليه، والتذكير بأهميته. حتىٰ صار البعض من المسلمين فتنة للذين كفروا بسبب هذا التجافي، والله أعلم.

حادي عشر: إن التنشئة علىٰ الأخلاق تكون من الصغر، فهاهم الأنبياء -عليهم السلام-، بدأوا -بتسديد إلهي- سُلَّم الأخلاق من أوله فنشأوا علىٰ السكينة والوقار والرحمة واللطف والتواضع ولين الجانب، منذ الصغر، وترقىٰ كلّ منهم في هذا السلم بأمان، وبمنهج قويم؛ آتىٰ أحسن الثمار.

ثاني عشر: وأيضًا أقول: إن تحصيل أي فن، والإبداع فيه، يكون بالبدء فيه من أول درجات السلم، فطالب العلم الشرعي مثلًا يبدأ بالكتب المختصرة ومع أستاذ يراجع معه بعض رؤوس المسائل ثم يرتقي، إلىٰ كتاب أعلىٰ وهكذا، أما من يستعجل، فغالبًا ما يفشل، ومن القواعد أن (مَن استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقِب بحرمانه).

ثالث عشر: إن التنشئة علىٰ الأخلاق تكون علىٰ التدريب العملي، لا علىٰ التنظير المجرد فحسب، فمهما ألقىٰ الشخص من محاضرات لن يكون لها الأثر، مثل التربية العملية علىٰ الخلق الفاضل.

وليس هذا قاصرًا علىٰ الأخلاق؛ بل نأخذه علىٰ عمومه، -كما مر- فالتدريب مهم جدًّا، والشركات الناجحة في هذا العصر تهتم بتدريب موظفيها؛ بل إنها تُفضّل الموظف المتدرب علىٰ غير المتدرب، ولو كان الأول أقل شهادة أو أقل معدلًا في درجاته، فعلىٰ الشاب الذي يسعىٰ لتطوير نفسه أن يهتم بالتدريب العملي في مجاله، ويطوّر مهارته بالتركيز علىٰ التدريب.

رابع عشر: فيه تواضع الرسول ﷺ والتَّصريح بمنّة الله عليه؛ حيث ذكر بداية حياته ورعيه للأغنام. وهذا هو الواجب علىٰ المسلم أن يستذكر دائمًا نعمة الله عليه -جل شأنه- الذي هداه بعد الضلالة، وعلّمه بعد الجهل، وقوّاه بعد الضعف، وأغناه بعد الفقر، فهذا مما يدعو إلىٰ شكر نعمة ربه عليه، ويذكر ماضيه وضعفه، فلا يتعالىٰ علىٰ الفقير؛ لأنه كان فقيرًا، ولا يتكبر علىٰ صغير؛ لأنه كان صغيرًا.

جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ؛ ليتحدث إليه، فأصابه هيبة وخوف من الرسول ﷺ، فقال ﷺ: «هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[1].

خامس عشر: في رعي النبي ﷺ للغنم علىٰ قراريط لأهل مكة، توجيه للشباب بالعمل والكسب والاعتماد علىٰ النفس وفق المتاح، وإن أطيب الكسب هو ما كان بعمل اليد، وقد ذكر الإمام محمد الحسن الشيباني -رحمه الله تعالىٰ- (أن نوحًا -عليه السلام- كان نجارًا يأكل من كسبه، وأن إدريس -عليه السلام- كان خياطًا،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١١٠١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٣٢)، رقم (٢٦٧٧)، والقديد هو اللحم المملوح المجفف في الشمس كما في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/ ٢٢).

وأن إبراهيم -عليه السلام- كان بزازًا، وأن زكريا -عليه السلام- كان نجارًا[1]، ويقول ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (كان آدم -عليه السلام- حراثًا، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجرًا وكان سُلَيْمَان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان مُوسَىٰ وشعيب ومحمد رعاة -صلوات الله عليهم أجمعين-)[2]، والله أعلم بذلك، ومع ذلك لا ننسىٰ أنهم كلهم رعوا الأغنام.

و(كان أَبُو بَكْر وعثمان وعبد الرَّحْمَن بْن عوف وطلحة -رضوان الله تعالىٰ عليهم- بزَّازين[3]، وكذلك مُحَمَّد بْن سيرين وميمون بْن مهران بزازين -رحمهم الله تعالىٰ-، وكان الزبير بْن العوام وعمرو بْن العاص وعامر بْن كريز -رضي الله تعالىٰ عنهم- خزازين[4]، وكذلك أَبُو حنيفة -رحمه الله تعالىٰ-، وكان سَعْد بْن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- يبري النبل، وكان عثمان بْن طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- خياطًا)[5].

وعن المقدام -رضي الله تعالىٰ عنه-، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود -عليه السلام-، كان يأكل من عمل يده»[6]؛ ويتأكد استقلال الشخص بأمور المالية عندما يكون من الدعاة إلىٰ الله فلا تميل نفسه إلىٰ أيدي الناس.

---

(١) انظر: محمد الحسن الشيباني، الكسب، تحقيق سهيل زكار، الطبعة الأولى (دمشق: الناشر عبد الهادي حرصوني ١٤٠٠)، (٣٤-٣٥).

(٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس (ص ٢٥٠).

(٣) البز: الثياب، أو متاع البيت من الثياب ونحوها، وبائعه: البزاز. القاموس المحيط (١/ ٥٠٣).

(٤) أي يعملون أو يبيعون الخز، وهي ثياب تنسج من صوف وإبريسم. تاج العروس (١٥/ ١٣٧).

(٥) ابن الجوزي، تلبيس إبليس (ص ٢٥١).

(٦) صحيح البخاري (٣/ ٥٧) رقم (٢٠٧٢).

والداعية يربأ بنفسه أن يعيش علىٰ صدقات الناس وأعطياتهم، ولن يتقبل الناس ممن يومًا يأخذ صدقاتهم، ويومًا يقف يعظهم ويذكِّرهم الآخرة، ويحذِّرهم من الركون إلىٰ الدنيا. ولأجل ذلك لم يكن في مصدر رزق الرسول ﷺ مِنَّةٌ للكفار يذكرونه بها، فقد كان بينهم يعتمد علىٰ نفسه.

المبحث العاشر

حلف الفضول(١)

(١) ذكر ابن هشام وغيره من أصحاب السير وأورد الترمذي في سننه حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قصة بحيرى الراهب، والتي ورد فيها سفر أبي طالب ومعه محمد ﷺ في رحلة تجارية إلى الشام ومرورهم بهذا الراهب، وما ذكره الراهب أن الحَجر والشجر كان يسجد لمحمد ﷺ وكان تظله غمامة، وأن الشجرة مالت بأغصانه نحو لما جلسوا تحتها، يستظلون بها، ثم رجوع أبي بكر وبلال -رضي الله تعالى عنهما- بالرسول ﷺ خوفًا عليه بوصية من بحيرى الراهب وبناء على أمْرٍ من أبي طالب بعد ذلك. لكني أعرضت عن هذه الرواية لأمرين:
الأول أنه حديث ضعيف لغرابته. والثاني: أن متن هذا الحديث منكر جدًّا، فيه نكارة في مواضع كثيرة، وهاك مختصرها:
أنه قال لما أقبل محمد ﷺ لم يبقَ شجرة ولا حجر إلا خر ساجدًا، ولا يعني أنني أنكر السجود. لكن لِمَ لمْ تسجد هذه الجمادات إلا في هذا المكان؟
أنه ذكر فيه أن الغمامة تظله، فلِمَ لم تظله إلا في هذا الموضع؟
أن الشجرة مالت عليه لتظله، وأين الغمامة التي ذكر أنه تظله.
أنه ذكر أن جماعة من الروم قدموا لقتله، وأن الراهب ردهم، وهذا حصل كما يقول أمام تجار قريش، فلماذا لم يشتهر؟
أن ذكر أن أبا بكر وبلال كانوا معهم، وأنهم رجعوا به، وأبو بكر أصغر سنًّا من الرسول ﷺ، وعُمر الرسول ﷺ يتراوح حسب اختلاف الروايات ما بين الثامنة والثانية عشرة من عمره، وبلال لم يشتره أبو بكر ويعتقه إلا بعد البعثة عندما أسلم وأصابه العذاب من كفار قريش.
لو كان هذا الأمر حصل أمام الرسول ﷺ، لصار عنده ترقب للنبوة، ولما استغرب مجيء الوحي بغار حراء وأتى خديجة -رضي الله تعالى عنها- خائفًا.
أن هذا الأمر الذي قاله الراهب أمام أبي طالب، لوكان وقع فعلًا لجرى له ذِكْر من الرسول ﷺ لعمه بعد البعثة.
أن ما جرى من تخويف الراهب لأبي طالب -كما في الرواية- لو كان حصل فعلًا لرأينا أبا طالب يمنع ابن أخيه من السفر للشام في التجارة، لما طلبت منه ذلك أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالى عنها-. =

قال في السيرة الحلبية: (وهو أشرف حلف في العرب. والحلف في الأصل: اليمين والعهد؟ وسمي العهد حلفًا؛ لأنهم يحلفون عند عقده.. تحالفوا علىٰ أن يردوا الفضول علىٰ أهلها، ولا يقر ظالم علىٰ مظلوم: وحينئذ فالمراد بالفضول ما يؤخذ ظلما)[1].

عن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه- أن النبي ﷺ قال: «شهدت حلف المطَّيبين[2] مع عمومتي وأنا غلام، فما أحبّ أن لي حُمْر النعم، وأني أنكثه[3]»[4].

=ومن أراد المزيد في نقد هذه الرواية فعليه بإمام أهل السيرة، من حيث التصحيح والتضعيف وهو الذهبي -رحمه الله تعالى- (سير أعلام النبلاء - السيرة النبوية (ج١ ص ٥٨-٥٩)، وتلخيصه على المستدرك (٢/ ٦٧٢)؛ فقد قال: «أظنه موضوعًا؛ فبعضه باطل»، ونقد ابن كثير في السيرة النبوية لهذه الرواية (١/ ٢٤٣) وما بعدها، وكذلك ابن سيد الناس، عيون الأثر، الطبعة الأولى (بيروت: دار القلم ١٤١٤)، (١/ ٥٥)، وكذلك تعليق محقق الروض الأنف خالد طرطوسي(هامش١/ ٤٣٩). وقد أجاد الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين -رحمه الله تعالى- في نقد هذه الرواية، ومنه نقلت ما ذكرته بعاليه مختصرًا، طالع صحيح السيرة النبوية (١٣٠-١٣٢)، والله أعلم. وهذا يعفينا من دعاوى بعض المستشرقين الذين حاولوا ربط ما جاء به محمد ﷺ من الوحي أنه تلقاه من بحيرى الراهب، وتعلم أصوله في هذا اللقاء، وهذا -بلا شك- كلام ساقط، لكنه قد يروج عند بعض الناس، ومن له هوى، فسقوط الرواية أصلًا يعفينا من تبعتها، والحمد لله رب العالمين.

(١) علي الحلبي، السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٧)، (١/ ١٩٠).

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٥٦): (يعني حلف الفضول، سمي به تشبيهًا بحلف كان قديمًا بمكة. أيام جرهم، على التناصف، والأخذ للضعيف من القوي، وللغريب من القاطن).

(٣) النكث: نقض العهد. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥/ ١١٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٩٣) رقم (١٦٥٥)، وقال محققه الأرناؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الرحمن بن إسحاق- وهو المدني- فقد أخرج=

وسبب هذا الحلف أن رجلًا من قبيلة (زَبِيد) باليمن قدم مكة ومعه بضاعة فباعها علىٰ العاص بن وائل السهمي، فأبىٰ أن يعطيه حقه، فاستعدىٰ عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزومًا وجمح وسهمًا وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوه علىٰ العاص بن وائل، وزبروه، أي: انتهروه، فلما رأىٰ الزبيدي الشَّرّ، أوفىٰ علىٰ جبل أبي قُبيس، عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلىٰ صوته:

يا آل فهر لمظلـــوم بضـاعته ... ببطـن مكـة نائي الدار والنفـــر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر

إن الحرام لمـــن تمت كـــرامته ... ولا حرام لثوب الفاجـر الغـدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ)، وقال: ما لهذا مترك؟، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام قيامًا، فتعاقدوا، وتعاهدوا بالله: ليكونن يدًا واحدة، مع المظلوم علىٰ الظالم، حتىٰ يُؤَدَّىٰ إليه حقه ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً، وما رسىٰ حراء وثبير(١) مكانهما.

أما في سبب تسميته بـ(حلف الفضول) فقد قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (روىٰ الحميدي عن سفيان عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهم-، قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله

=حديثه مسلم في الشواهد»، ومهدي رزق الله، السيرة النبوية (ص ١٣٠)، وقال: وإسناد هذا الحديث صحيح، وراجع الكردي، شعاع من السيرة (ص ٤٢، ٤٣)، وله شواهد حسنها الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص ٣٥ و٣٦).

(١) جبلان معروفان في مكة؛ أما الأول فهو الجبل الذي فيه غار حراء، وكان يتحنث فيه الرسول ﷺ قبيل البعثة، ونزلت فيه الآيات الأول من سورة اقرأ، والثاني جبل مطل على مزدلفة، كان الحجاج في الجاهلية يقولون ليلة مزدلفة: أشرق ثبير كيما نغير.

بن جدعان حلفًا لو دُعيت به في الإسلام لأجبت»[١]، تحالفوا أن تُردّ الفضول علىٰ أهلها، وألا يَعُزَّ ظالمٌ مظلومًا.. فسمت قريش ذلك الحلف (حلف الفضول)، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر)[٢].

ثم مشىٰ الذين تحالفوا إلىٰ العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، ودفعوها لصاحبها.

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي رفعوا به منار حقٍّ، وهدموا صرح ظلمٍ، وهو يُعَدّ من مفاخر العرب. قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة[٣]، وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمِع به، وأشْرَفَه في العرب)[٤].

ونقف هنا مع هذا الحلف الوقفات التالية:

أولًا: إن الظلم مما تأباه الفِطَر السليمة، وتنفر من الطباع السوية، وكان من نتائج ذلك هذا الحلف الذي يُعدّ من مفاخر العرب كما قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-.

وقد جاء الإسلام بالوعيد الشديد علىٰ الظلم؛ قال -تعالىٰ- في قصة ذي القرنين ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف:٨٧]. وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه:١١١].

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٥٨)، وابن الملقن، البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تحقيق مصطفى أبو الغيط وزميله، الطبعة الأولى (الرياض: دار الهجرة ١٤٢٥)، (٧/ ٣٢٥)، وقال: «هَذَا الحَدِيث صَحِيح»، وعبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية (١٦٤).

(٢) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٥٢-٣٥٢).

(٣) وهذا يعني أن عمر الرسول ﷺ عند حضوره كان عشرين سنة.

(٤) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٥٢-٣٥٢).

ثانيًا: إن الإسلام عَدَّل مفهوم نصرة المظلوم، فقد كانت العرب تنصر المظلوم، ولكنها أحيانًا تنصر الظالم إذا كان من القبيلة، فكما جاء الإسلام بتأكيد تحريم الظلم، جاء بتعديل المفهوم القَبَلي للنصرة، فعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»؛ فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تحجزه، أو تمنعه، من الظلم؛ فإن ذلك نصره»[1].

فالإسلام يحارب الظلم، ويرسي قواعد العدالة، ويجعل الناس سواسية في هذا الشأن، وقد أعلن الرسول ﷺ مبدأه العظيم: «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2] وحاشاها -رضي الله تعالىٰ وأرضاها- وهي سيدة نساء المؤمنين[3]، وهو يعلم ذلك، لكن ﷺ ضرب بها المثل، ليقطع ويجتث صور الجاهلية التي تأخذ من الضعيف وتترك القوي.

ثالثًا: إن من شأن النفوس المتكبرة، الظلم والعدوان إذا تركت، وتجردت من الدين والأخلاق[4]، وقد عانىٰ هذا الرجل الزبيدي من شخص من هذا الصنف؛

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٩/ ٢٢) رقم (٦٩٥٢)، واللفظ له، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٨ رقم ٢٥٨٤ من حديث جابر -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٧٥) رقم (٣٤٧٥)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥) رقم (١٦٨٨) من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٣) قال لها ﷺ: «يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة» متفق عليه: صحيح البخاري (٨/ ٦٤) رقم (٦٢٨٥)، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٠٤) رقم (٢٤٥٠) من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٤) قال تعالى عن الإنسان: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾؛ أي إنه كان مفْرِطًا في الظلم مبالغًا في الجهل، أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، (٧/ ١١٨).

ظالم متكبر من متكبري قريش، العاص بن وائل[1]، وترددت بعض القبائل في نصرة هذا المظلوم؛ إما تعظيمًا لمكانة هذا الظالم، أو خوفًا منه، ولكنَّ الله قيَّض له هذا الحلف -الذي أثنىٰ عليه الرسول ﷺ- لينُصر به كل مظلوم، ثم لما جاء الإسلام جعل المؤمنين كلَّهم، يدًا واحدة في وجه الظالم، يقول أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ وأرضاه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا علىٰ يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[2]، ومعنىٰ يأخذوا علىٰ يديه أي: لم يمنعوه من ظلمه.

وإذا لم يجد المظلوم من ينصره فإن الله -عز وجل- ناصره قال ﷺ لمعاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- عندما بعثه إلىٰ اليمن «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[3]. حتىٰ ولو كان المظلوم كافرًا[4].

رابعًا: يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (والتحالف عام لبني آدم وهم في جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفًا يحبه الله كما قال النبي ﷺ: «لقد شهدت حلفًا مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان ما يسرني بمثله حمر النعم، أو قال: ما يسرني حمر النعم وأن أنقضه، ولو دعيت إلىٰ مثله في الإسلام لأجبت»[5]، وفي مثل هذا ما رواه مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ

(١) وقد تكرر منه هذا الموقف ونزل فيه قول الله -تعالى-: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (سورة طه: ٧٧ -٨٠). تفسير ابن كثير (٥/ ٢٥٩).

(٢) رواه الترمذي في سننه وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٥/ ١٦٧) رقم (٢١٦٨).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ١٢٨) رقم (١٤٩٦)، وصحيح مسلم (١/ ٥٠) رقم (١٩) من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

(٤) انظر: ابن القيم طريق الهجرتين، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار السلفية ١٣٩٤)، (٣٥٥).

(٥) سبق تخريج الحديث في بداية هذه المسألة.

أنه قال: «لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة»[1]. فأما إذا كان القول على الشريعة التي بعث الله بها رسوله في دينهم ودنياهم، فإن ذلك يغنيهم عن التحالف إلا عليها، فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم كما وصف الله به المحبين المحبوبين في قوله -تعالىٰ-: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]»[2].

خامسًا: إن المسلمَ عادلٌ، حتىٰ مع خصمه، فنبينا محمد ﷺ جاء ليواجه هذه الجاهلية في بلاد العرب، فلم يُعادها جملةً وتفصيلًا، وينكر ما فيها من الخير، بل أقر ما فيها من الخير، واعترف بالفضل لأهله، ولو كانوا خصومًا له، ولو كانوا يعلنون العداوة والحرب عليه، فهو يثني علىٰ هذا الحلف؛ ليعلمنا أن نكون عادلين مع خصومنا، وأن نقبل الحق الذي مع غيرنا، ولا تدفعنا العداوة إلىٰ تجاهل الخير مع الخصم.

والرسول ﷺ يقول: «إنما بُعِثْتُ؛ لأتمِّم مكارمَ الأخلاقِ»[3]، فهو يقول: إن في الجاهلية أخلاقًا حسنة، وأنه جاء ليكمّلها ويُتمها، ولم ينكر ما عليه الجاهلية من أخلاق حسنة لمجرد أنهم عادوه وحاربوه.

ولذلك من النصيحة لكل مسلم بأن يكون عادلًا حتىٰ مع خصمه، قال -تعالىٰ- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]. وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٦٢) رقم (٢٥٣٠).

(٢) ابن تيمية جامع الرسائل ابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى (الرياض: دار العطاء ١٤٢٢) (٢/ ٣١٠-٣١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ٢٨٥)، حديث (رقم ٢٣٤٥).

لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨].

وعن قتيلة [١] -رضي الله تعالىٰ عنها-: أن يهوديًّا أتىٰ النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئتَ، وتقولون: والكعبة، «فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»[٢].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله تعالىٰ- في شرحه لهذا الحديث: (وفيه قبول الحق ممن جاء به وإن كان عدوًّا مخالفًا في الدين)[٣].

سادسًا: الأمر الأخير الذي نستفيده هنا، هو أن المسلم داعية خير، يساند كل من يدعو إلىٰ الخير؛ لأنه أولىٰ به، فكل من دعا إلىٰ خير للمجتمع؛ فالمسلم عون له ومناصر له ومعين؛ (قدم الرسول ﷺ المدينة فرأىٰ اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجىٰ الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسىٰ، قال: فأنا أحق بموسىٰ منكم، فصامه وأمر بصيامه»[٤].

فإذا رأيت من يدعو إلىٰ خير للمجتمع المسلم أو نفع للأمة الإسلامية فكن أول مناصر له ومؤيد.

---

(١) هي قتيلة بنت صيفي، من جهينة، كانت من المهاجرات الأول. انظر: الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه النسائي في سننه المطبوعة مع شرح السيوطي (٧/ ٦)، والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٣٧١ / ٣٧٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٧)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص، وقال ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢٤٨): «أخرجه النسائي وسنده صحيح»، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٤٥)، حديث (رقم ٩٨٦)، وقال محقق الكتاب فاروق حمادة : (حديث صحيح).

(٣) سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد (ص ٦٠٠).

(٤) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٤/ ٢٤٤)، (رقم ٢٠٠٤).

ودعوة الإسلام جاءت؛ لتعلِّم المسلمين أن يكونوا متعاطفين مع كل بادرة خير، ولا يكتفي بما يبدأ به هو، ويهمل ما عند الآخرين من الخير[1].

يقول الرسول ﷺ في صلح الحديبية: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[2]، فما دامت القضية تتوافق مع أهداف الرسول ﷺ فسيقبلها ويناصرها ويؤيدها، ويقسم علىٰ ذلك أيضًا ﷺ، والرسول ﷺ هو القدوة لنا، فمتىٰ رأينا خيرًا أيّدناه ووقفنا معه وناصرناه.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في زاد المعاد: (إن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمرًا يُعظّمون فيه حرمة من حرمات الله -تعالىٰ- أُجيبوا إليه وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون علىٰ ما فيه تعظيم حرمات الله -تعالىٰ- لا علىٰ كفرهم وبَغيهم، ويُمنعون مما سوىٰ ذلك، فكلّ مَن التمس المعاونة علىٰ محبوب لله -تعالىٰ- مُرْضٍ له، أجيب إلىٰ ذلك، كائنًا من كان، ما لم يترتب علىٰ إعانته علىٰ ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا مِن أدق المواضع وأصعبها، وأشقها علىٰ النفوس)[3].

(١) انظر: راجح الكردي، شعاع من السيرة (ص ٤٣).
(٢) الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٥/ ٣٢٩)، حديث (رقم ٢٧٣١).
(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/ ٣٠٣).

المبحث الحادي عشر

زواجه ﷺ بأم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالى عنها-

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلا ب، فهي تلتقي مع الرسول ﷺ في قصي بن كلاب. وهي أقرب إلىٰ قصي منه ﷺ بأب واحد[١].

وكانت خديجة -رضي الله عنها- (أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين في زمانها، أم القاسم القرشية الأسدية، أم أولاد رسول الله ﷺ، وأول من آمن به وصدّقه قبل كل أحد، وثبّتت جأشه، ومضت به إلىٰ ابن عمها ورقة، ومناقبها جمّة، وهي ممن كَمُل من النساء، كانت عاقلة جليلة ديِّنة مصونة كريمة من أهل الجنة، وكان النبي ﷺ يُثني عليها ويُفضّلها علىٰ سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها)[٢].

وكانت خديجة أولًا تحت أبي هالة بن زرارة التميمي، ولما مات خلف عليها بعده عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وبقيت معه حتىٰ مات، وقد أنجبت من كل منهما[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام المطبوعة مع الروض (١/ ٤٤٧).

(٢) هذا نص كلام الذهبي -رحمه الله تعالى- في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩-١١٠).

(٣) هناك خلاف في أيهما تزوج خديجة -رضي الله تعالى عنها- أولاً، وقد أخذت برأي الذهبي هنا، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١١)، وأسد الغابة لابن الأثير، تحقيق علي محمد معوض وزميله، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٥)، (٧/ ٨٠)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٥١)، وموسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٩/ ٣٦٩).

فلما بلغها صدق الرسول ﷺ وعِظَم أمانته، وكرم أخلاقه، رغبت في أن يخرج بمالها إلىٰ الشام يتاجر به فقَبِل ذلك، وخرج ﷺ مع غلام لها يقال له: مَيْسَرة[1].

وقد رأىٰ ميسرة في رحلته هذه مع النبي ﷺ عددًا من الآيات، وشاهَد أخلاق الرسول ﷺ وطيب سجاياه، وصدق لهجته، وعظيم أمانته، فنقل ذلك إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بعد عودته من تلك الرحلة التجارية الرابحة.

ولما سمعت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- من غلامها ميسرة هذا الثناء، وتأكد لها ما سمعته عن محمد ﷺ من قَبْلُ، رغبت في الزواج منه ﷺ، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة.

أما عمرها -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد اشتهر في كتب السير أن الرسول ﷺ تزوج خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- وعمرها أربعون سنة، ولكن ليس هناك قول ثابت عن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، يُعَوَّل عليه، فالخلاف دائر بين أهل السِّير وجملته تنحصر في ثلاثة أقوال:

القول الأول: القول المشهور وهو أنه تزوجها -ﷺ ورضي عنها- وعمرها أربعون سنة وممن قال بذلك، ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات[2]، وابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ- في الاستيعاب[3]، وابن الأثير في أُسْد الغابة[4]، وابن حجر في الإصابة[5]،

(١) قال ابن حجر في الإصابة (٦/ ١٨٩) عن ميسرة: «كان رفيق النبيّ صلى اللّٰه عليه وآله وسلم في تجارة خديجة قبل أن يتزوجها، وحكى بعض أدلة نبوته، وترجم له ابن عساكر، ولم أقف على رواية صريحة بأنه بقي إلى البعثة، فكتبته على الاحتمال».
(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ١٣٢ و٨/ ١٦).
(٣) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ٣٥ و٤/ ١٨١٨).
(٤) انظر: ابن الأثير، أسد الغابة (٧/ ٨٠).
(٥) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ١٠٠و١٠١).

والصالحي في سبل الهدىٰ[1]، ومُلاًّ علي القاري في جمع الوسائل[2].

أما **القول الثاني**: فإنها دون الأربعين: روىٰ الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- في المستدرك من طريق إبراهيم بن سعد الزهري عن محمد بن إسحاق أن الرسول ﷺ تزوجها وعمرها يومئذ ثمانٍ وعشرين سنة[3]. ثم ذكر في الحديث الذي يليه عن هشام بن عروة -رحمه الله تعالىٰ- أنه قال: (توفيت خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- وهي ابنة خمس وستين سنة)، وعقّب علىٰ ذلك الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: (هذا قول شاذ، فإن الذي عندي أنها لم تبلغ ستين سنة)[4].

وهذا يعني أنها عمرها -رضي الله تعالىٰ عنها- عند الزواج دون الخامسة والثلاثين سنة.

قال البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في دلائل النبوة: (قال أبو عبد الله (يعني الحاكم) -رحمه الله تعالىٰ-: قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة -رحمه الله تعالىٰ- قال: حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري -رحمه الله تعالىٰ- قال: ثم بلغت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- خمسًا وستين سنة، ويقال خمسين سنة، وهو أصح)[5]. وهذا يعني أن عمرها عند الزواج خمسًا وعشرين سنة.

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (نقل البيهقي عن الحاكم أنه كان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمسًا وعشرين سنة، وكان عمرها إذ ذاك خمسًا وثلاثين، وقيل خمسًا وعشرين سنة)[6]. وقال: (وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ

(١) انظر: الصالحي، سبل الهدى (١١/ ١٥٦).

(٢) انظر: ملا علي القاري، جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/ ٣٢).

(٣) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٢٠٠) رقم (٤٨٣٧).

(٤) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٢٠١) رقم (٤٨٣٨).

(٥) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٧١).

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي (٢/ ٢٩٥).

عنهما- كان عمرها ثماني وعشرين سنة. رواه ابن عساكر)[1].

وعليه فإن الذين قالوا إنها دون الأربعين لهم ثلاثة آراء:

أ. خمس وثلاثون سنة.

ب. ثمان وعشرون سنة.

ج. خمس وعشرون سنة.

يقول الدكتور أكرم العمري: (ويذهب ابن إسحاق إلىٰ أن خديجة كانت في الثامنة والعشرين من العمر، في حين تذهب رواية الواقدي إلىٰ أنها كانت في الأربعين، وقد أنجبت خديجة من رسول الله ذكرين وأربع إناث؛ مما يرجح رواية ابن إسحاق، فالغالب أن المرأة تبلغ سن اليأس من الإنجاب قبل الخمسين)[2].

ومادام أن المسألة ليس فيها قول مأثور يعتمد عليه، فلا بد من الرجوع إلىٰ القرائن: وعندنا منها ما يلي:

١. إنه يبعد -عُرفًا- أن يتزوج شاب عمره خمسًا وعشرين سنة امرأة عمرها أربعين سنة.

٢. إن خديجة أنجبت ستة أولاد، ويبعد طبيًا أن تنجب المرأة ستة أولاد بعد سن الأربعين، وقد طالعت عددًا من المقالات الطبية في هذا الشأن، وكلها تتفق علىٰ انخفاض نسبة خصوبة المرأة التي قارب عمرها أربعين سنة، ثم تستمر في الانخفاض بعد ذلك كلما تقدم بها السن.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، (٥/ ٢٩٣).

(٢) أكرم العمري، السِّيرةُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ روَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، الطبعة السادسة (المدينة: مكتبة العلوم والحكم ١٤١٥) (ص ١١٣).

٣. إن المعهود في العرب تزويج بناتهن وهن صغيرات، فتتزوج وعمرها خمسة عشر عامًا، بل أصغر من ذلك، كما سنراه في تزويج بنات النبي -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن-، وفي بعض أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن-. ولذلك فقد تكون تزوجت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- زواجها الأول وعمرها خمسة عشر عامًا، ثم تزوجت زواجها الثاني، وتكون تزوجها الرسول ﷺ بعد أن تجاوزت خمسًا وعشرين سنة.

٤. إنه اشتهر أن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، كانت أسن من الرسول ﷺ، وعليه فإن أقرب الأقوال أنها كانت ما بين الثمانية والعشرين إلىٰ الثلاثين، أو نحو ذلك.

أما القول بالأربعين فبعيد، والله أعلم(١).

وقد تعددت الروايات في كيفية الخِطْبة، ومن الذي تولىٰ عقد الزواج، والأكثر علىٰ أن الذي تولىٰ عقد الزواج هو عمها عمرو بن أسد، بل نقل بعضهم الإجماع علىٰ ذلك(٢)؛ لوفاة والدها خويلد بن أسد قبل حرب الفجار(٣).

---

(١) للمزيد انظر: عبد الله بن عبد العزيز الجبرين صحيح السيرة النبوية القسم الأول (ص١٩١)، ومحمد بن عبد الله العوشن ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (ص ١٨). وصلاح الإدلبي مقال منشور في موقع رابطة العلماء السوريين بتاريخ (٢/ ٢/ ١٤٤٠)، بعنوان (مقدار عمر السيدة خديجة يوم الزواج).

(٢) قال ابن كثير في السيرة النبوية (١/ ٢٦٧): (قال المؤملي: المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه. وهذا هو الذي رجحه السهيلي). الروض الأنف (١/ ٤٤٨)، وحكاه عن ابن عباس وعائشة -رضي الله تعالى عنهما-، قالت: وكان خويلد مات قبل الفجار».

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدي والرشاد ٢/ ٢٢٢، وابن سعد، الطبقات (١/ ١٠٦و٨/ ١٣)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ١٩٠، ١٩١)، والحاكم: المستدرك (٣/ ١٨٢)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٥١).

فضائل خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

١. إنها -رضي الله تعالىٰ عنها- أول من آمن بالرسول ﷺ علىٰ الإطلاق[١]. قال ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة)[٢].

٢. قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة»[٣]، وأشار وكيع -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ السماء والأرض، قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (أراد وكيع -رحمه الله تعالىٰ- بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها، وأن المراد به جميع نساء الأرض أي كل من بين السماء والأرض من النساء، والأظهر أن معناه أن كل واحد منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه، قال القاضي: ويحتمل أن المراد أنهما من خير نساء الأرض، والصحيح الأول)[٤]. والسكوت عما سكت عنه النص أولىٰ، ويكفي أن كلا منهما نال شرف هذه الشهادة بالخيرية.

٣. عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: خطَّ رسول الله ﷺ في

---

(١) قال ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف ١٤٠٣)، (ص٣٨) «فكان أول من آمن بالله ورسوله فيما أتت به الآثار وذكره أهل السير والأخبار، منهم ابن شهاب وغيره، وهو قول موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق ومحمد بن عمر الواقدي وسعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، وغيرهم، خديجة بنت خويلد زوجته ﷺ»، وقال السهيلي الروض الأنف تحقيق عمر السلامي (٢/ ٢٨٩): «ولا يختلف أن خديجة هي أول من آمن بالله وصدق رسوله» انظر: الماوردي (٤٥٠)، أعلام النبوة (٢٣٨)، البيهقي (٤٥٨)، دلائل النبوة (٢/ ١٦٣).

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة (٧/ ٨٠).

(٣) متفق عليه، الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٤٧٠)، حديث (رقم ٢٤٣٢)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦)، (حديث ٢٤٣٠). من حديث علي ابن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-.

(٤) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٩٨). وابن حجر فتح الباري (٩/ ١٢٥).

الأرض أربعة خطوط، قال: «تدرون ما هذا؟»؛ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»[١].

٤. عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: ما غرت علىٰ نساء النبي ﷺ إلا علىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وإني لم أدركها، قالت: وكان النبي ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا بها إلىٰ أصدقاء خديجة»؛ فأغضبته يومًا فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رُزقت حبّها»[٢]، قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: قوله ﷺ: «رُزقت حبّها» فيه إشارة إلىٰ أن حبها فضيلة حصلت[٣]. فمحبته ﷺ لخديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، يسميه الرسول الكريم رزقًا رزَقه الله له، وأيّ تشريف لها بعد هذا؟!

٥. عن أبي هريرة ﷺ قال: (أتىٰ جبريلُ -عليه السلام- النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها -عز وجل- ومني، وبَشِّرْها ببيت في الجنة من قصب[٤] لا صخب فيه ولا نصب»[٥].[٦]، قال القسطلاني -رحمه الله تعالىٰ- عند قوله:

(١) أحمد، المسند (٤/ ٤٠٩) رقم (٢٦٦٨). وقال المحقق: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح»، وأحمد، فضائل الصحابة تحقيق وصي الله عباس) بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤٠٣)، (٢/ ٧٦٠) رقم (١٣٣٩).

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٨)، حديث (رقم ٢٤٣٥).

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٠١).

(٤) القصب هنا: اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر المنيف.

(٥) ولا نصب أي: لا مشقة ولا تعب. النووي، شرح صحيح مسلم (١٥ / ٥٧١- ٥٧٢).

(٦) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٧)، حديث (رقم ٢٤٣٢).

قال شاعر مكة إبراهيم خفاجي -رحمه الله تعالى- :

أخديجة الكبرى كفاك تحيةٌ ... ذو العرش بلَّغها أمينٌ مُخْبِرُ

والبيت من قصب تفوح عبقه ... على الجنان مطرز ومشجر

انظر: الطاهرة الرشيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله تعال عنها محمود بخش (ص ٧٤).

«فاقرأ عليها السلام»: (وهذا لعمر الله خاصة لم تكن لسواها)(١).

٦. وزاد الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في المسند علىٰ حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- السابق قول الرسول ﷺ: «ما أبدلني الله -عز وجل- خيرًا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله -عز وجل- ولدها إذ حرمني أولاد النساء»(٢).

٧. إن الله -جل شأنه- أكرمها بأن عاشت زوجة للرسول ﷺ خمسًا وعشرين سنة، أي ربع قرن وهي تقوم بحقوق الزوجية له ﷺ، وهذا لم يقع لأي من زوجات الرسول ﷺ سواها -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-.

وبعد هذا أقف لأقول:

١. سَبْقُ خديجة للإسلام -والذي سيأتي له حديث لاحق إن شاء الله -تعالىٰ- فضيلة؛ بل خصيصة عظيمة لأم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلىٰ الإيمان، فسَنَّت ذلك لكل من آمن بعدها فيكون لها مثل أجرهن لما ثبت «أن من سنَّ سنة حسنة»(٣). وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- بالنسبة للرجال، ولا يُعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله -عز وجل»(٤).

٢. تأمل قول الذهبي السابق -رحمه الله تعالىٰ-: (وثبّتت جأشه)؛ فقد اختصت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بتثبيت جأشه يوم كان وحيدًا لا ناصر له

(١) القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الطبعة السابعة، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ١٣٢٣)، (١/ ١٦٩).

(٢) الإمام أحمد، المسند (٤١/ ٣٥٦)، (رقم٢٤٨٦٤)، وقال محقق المسند: «حديث صحيح، وهذا سند حسن في المتابعات».

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٩) رقم (١٠١٧). من حديث جرير بن عبد الله -رضي الله تعالى عنه-.

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٣٧).

من البشر، فلم تكتفِ بالإيمان، بل ثبتت جأشه وهذه إذا عُدَّت خصائصها -رضي الله تعالىٰ-، عُدَّ منها هذه الخصيصة التي لم تكن لأحد غيرها.

٣. ذكر السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- حكمةً لتبشير خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- «ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»: بأن نفي هاتين الصفتين كان لحكمة لطيفة أنه ﷺ لما دعاها إلىٰ الإيمان أجابت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- طوعًا فلم تُحوجه إلىٰ منازعة ولا صخب ولا تعب، بل أزالت عنه كل تعب، وآنسته من كل وحشة وهوّنت عليه كل عسير؛ فناسب أن يكون منزلها الذي بشَّرها به ربها، بالصفة المقابلة لفعلها وصورة حالها -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومن خواصها -أيضًا رضي الله تعالىٰ عنها- أنها لم تسؤه قط ولم تغاضبه[١]. وهذا الجزاء لها من جنس العمل، وقاعدة الجزاء من جنس العمل كثيرة، مثل: «من بنىٰ مسجدًا لله، بنىٰ الله له في الجنة مثله»[٢]، و«من كان في حاجة أخيه فإن الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[٣].

٤. وفيما يتعلق بطريقة هذا الزواج المبارك فإن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- لما تواتر عندها من الأخبار عن صدق الرسول ﷺ، وعن أمانته، فبعثت إليه؛ ليتاجر لها، وبعثت معه غلامها ميسرة، فعاد هذا الغلام يُحدّثها بما رأىٰ عيانًا من الصدق والأمانة، وحُسْن الخُلُق، وهذا يكشف لنا رجاحة عقل هذه المرأة التي بادرت إلىٰ التعامل مع الرسول ﷺ لما علمت أمانته، ثم ازدادت قناعتها بفضله وشرفه ونزاهته وصدقه لما أخبرها غلامها ميسرة الذي سافر مع الرسول ﷺ مدة من الزمن، ورأىٰ منه في السفر الصدق والأمانة.

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف تحقيق الوكيل (٢/ ٤٢٩).
(٢) صحيح مسلم (٥٣٣) من حديث عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه-.
(٣) رواه أبو داود في سننه (٤٨٩٣) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني.

٥. وكما نقف عند عظمة هذا المرأة -رضي الله تعالىٰ عنها- وحُسن تدبيرها، فإننا نستفيد درسًا في التأني وترك العجلة، يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح للأشج (أشج عبد القيس): «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[١]، يقول الإمام النووي -رحمه الله تعالىٰ- في شرحه لهذا الحديث: (وأما الحلم فهو العقل، وأما الأناة فهي التثبت وترك العجلة)[٢].

٦. أما الدرس الثاني فهو كيفية التعرُّف علىٰ الأشخاص، فليس من السهل التعرف علىٰ الشخص من خلال لقاء عابر، أو جلسات عادية لا تكشف الحقيقة، فكم من شخص تعمل معه سنوات، في وظيفة حكومية، أو نحوها، تظن فيه الخير والأمانة والصدق، ولو اختبرته في مال، أو سافرت معه سفرًا فيه مشقة، لزهدت فيه. فالتعرف علىٰ الأشخاص وإعطاء الرأي فيهم ليس بالسهل، وقد شهد رجل عند عمر ﷺ، فقال: من يزكيك؟ قال رجل: أنا، فقال: هل سافرت معه؟ فقال: لا، قال: عاملته بالدرهم والدينار؟ قال: لا، قال: والله الذي لا إله إلا هو ما تعرفه[٣]، فالسفر هو الذي يكشف حقيقة الرجل، ويظهر خفاياه، ولذلك فالداعية يأخذ من أناة خديجة -رضي الله عنها- درسًا دعويًّا مفيدًا في التأني وعدم العجلة.

٧. ورد في بعض كتب السير أن زواج الرسول ﷺ بخديجة -رضي الله عنها- كان بدايته عرضًا منها بواسطة بعض معارفها علىٰ الرسول ﷺ الزواج منها، وهذا أمرٌ يذكّرنا بأهمية حرص الأولياء علىٰ تزويج بناتهن ولو عن طريق العرض، فقد كسبت خديجة -رضي الله عنها- بهذا الزواج شرفًا عظيمًا؛ بل الشرف الأعظم، وأصبحت زوجة لسيد ولد آدم -عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم-، وأُمًّا

(١) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي (١/ ١٨٩).
(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ١٨٩).
(٣) انظر: ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب (ص ٢٣٠).

للمؤمنين؛ وأمّا لـ «سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة»[1]. ولقد رأينا مثل هذا العرض يرد في القرآن الكريم في قصة موسىٰ -عليه السلام- مع صاحب مدين ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٧-٢٨]؛ فإن هذا الأب لهاتين البنتين لما رأىٰ هذا الرجل الصالح موسىٰ -عليه السلام- سعىٰ إليه، واجتهد في تزويجه إحدىٰ ابنتيه رغبة في كسب الرجل الصالح، ولم ينتظر حتىٰ يأتي الخاطب.

كما نجد في السيرة أن عمر بن الخطاب ﷺ يعرض ابنته حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- بعد وفاة زوجها، علىٰ عثمان بن عفان ﷺ، ويعرضها علىٰ أبي بكر الصديق ﷺ، ثم يتزوجها الرسول ﷺ[2]، ولذلك فإن من حق بناتنا وأخواتنا أن نسعىٰ لهن في الزواج، ومجتمعاتنا الإسلامية يكثر فيها البنات العوانس اللاتي بقين بلا زواج؛ بسبب أن الأب أو الأخ الأكبر لا يسعىٰ لبناته أو لأخواته، ويرىٰ في ذلك عيبًا أو نقصًا. ومع ذلك يجب علىٰ الرجل أن يُحسن طريق عرض ابنته أو أخته علىٰ من يريد، وبطريقة تحمي الفتاة والأسرة من أن يُساء إليها فيما بعد.

٨. إن في هذا الزواج درسًا في أهمية اختيار الرجل للزوجة الصالحة واختيار المرأة للزوج الصالح، فالرسول ﷺ اختار امرأة تزوجت قبله مرتين، ومع ذلك رغب فيها؛ لطهارتها وعفتها. وخديجة -رضي الله عنها- يتقدم لها الكثير من

(١) قال ذلك الرسول ﷺ لابنته فاطمة -رضي الله تعالى عنها-. صحيح البخاري (٣٦٢٤) وصحيح مسلم (٢٤٥٠).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٣٠). وانظر أيضًا قصة تزويج سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى- لابنته من تلميذه أبي وداعة -رحمه الله تعالى- بعد أن خطبها بعض الكبراء، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٣).

أشراف قريش وسادتها، وهي المرأة الغنية ولكنها تأبىٰ، وعندما عرفت الأخلاق العالية والصفات الحميدة في محمد ﷺ حرصت عليه ورغبت فيه وسعت إليه.

إذًا: هناك نقطة التقاء في اختيار الزوج واختيار الزوجة، وهي التي أكَّدها حديث الرسول ﷺ: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[١]. وفي المقابل، قال ﷺ مخاطبًا الأولياء: «إذا أتاكم مَن ترضون خُلقه ودينه فزوّجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[٢]، فالرجل قدوته الرسول ﷺ في اختيار الزوجة، والمرأة قدوتها خديجة -رضي الله عنها- في اختيار الزوج.

٩. لقد كان لهذا الزواج الذي تم وفق الاختيار السليم آثار عظيمة جدًّا، فقد كانت خديجة -رضي الله عنها- البيت الذي يأوي إليه الرسول ﷺ بعد عناء الدعوة، وحسبنا موقفها في أول يوم من أيام البعثة حينما طمأنته، وقالت له: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا)، وكان يُؤذَىٰ وهو يدعو إلىٰ الله، فإذا عاد إلىٰ المنزل وجد المرأة التي تطمئنه، وتثبّت جأشه، وتشد من عضده، ولم تكن المرأة اللوامة العائقة عن الدعوة إلىٰ الله.

١٠. ثم أيضًا كان موقف الرسول ﷺ معها أتم التعامل، وأحسن الوفاء، فلم يتزوج زوجة أخرىٰ في حياتها إكرامًا لها، قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن كرامتها عليه ﷺ أنها لم يتزوج امرأة قبلها، وجاء منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرَّىٰ إلىٰ أن قضت نحبها)[٣]، وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (لم

---

(١) صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا (٥/ ١٩٥٨). من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٦٢٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣٣٣)، رقم (١٦٠١).

(٣) الذهبي، سير أعلام ا لنبلاء (٢/ ١١٠).

يتزوج عليها حتىٰ ماتت إكرامًا لها)[1]، وقال الزرقاني -رحمه الله تعالىٰ-: (وجازاها فلم يتزوج عليها مدة حياتها، وبلغت منه ما لم تبلغه امرأة قط من زوجاته)[2]. وبعد وفاتها كان يكثر ذِكرها والثناء عليها، ويصل أقاربها، حتىٰ كانت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تغار من ذلك كما مر في فضائل خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهنا نصل إلىٰ الدرس الثاني من هذا الزواج وهو:

١١. الوفاء الذي ينبغي أن يكون بين الزوجين، فالمرأة تحفظ زوجها في حضوره وغيابه، وتسانده، وتعينه في عمله، وتثبّته، ولا تكون امرأة لوّامة كثيرة المشكلات مع زوجها؛ لأنه يواجه المعاناة في الخارج، ويأتي إلىٰ المنزل والمسكن يريد السكون والراحة فيُستقبل بالإزعاج مرة أخرىٰ، وتلك أخطاء يقع فيها البعض من النساء اللاتي يغفلن عن التأسي بخديجة رضي الله عنها.

والزوج أيضًا يكون وفيًا لزوجته، قائمًا بحقوقها، ومن الخطأ الذي يقع فيه البعض أنه يطالب زوجته بحقوقه، وهو لم يقم بحقوقها! يُقصّر في حقوق زوجته، ويطالبها بأن تؤدي له الحقوق كاملة، وهذا واقع في بعض مجتمعات المسلمين، وهو من التطفيف في التعامل، يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين ١-٦]: (وهذا المثال الذي ذكره الله -عز وجل- في الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما أشبهه، كل من طلب حقه كاملًا ممن هو عليه، ومنع الحق الذي عليه، فإنه داخل في الآية الكريمة، فمثلًا الزوج الذي يريد

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٣٦).

(٢) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧)، (١/ ٤٤٤).

من زوجته أن تعطيه حقه كاملًا، ولا يتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون ولا يعطيها الذي لها، وما أكثر ما تشتكي النساء من هذا الطراز من الأزواج، والعياذ بالله.. كذلك أيضًا نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه علىٰ التمام، لكنه مفرط في حقهم، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه.. لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد، غير قائم بما يجب عليه نحوهم، نقول: هذا مُطفِّف)[1].

١٢. إن مَن ترك التعدد إكرامًا لزوجته، ووفاء لها؛ لحُسْن عشرتها، فهو مأجور -إن شاء الله تعالىٰ- وكثير من الأزواج، كان في بداية حياته شخصًا عاديًّا، ثم فتح الله له باب رزق وخير، وتوفرت لديه القدرة المالية وغيرها، والرغبة في التعدّد، ومع ذلك يُعرض عنه إكرامًا لزوجته التي عاشت معه حياته الأولىٰ وصبرت، وكانت قائمة بحقوقه، فمتىٰ احتسب ذلك خُلُقًا كريمًا عند الله، فهو من أجمل الوفاء لزوجته، ولعله ينال بذلك أجر التأسي بالرسول ﷺ في إكرام أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-.

(١) محمد العثيمين، تفسير جزء عم (ص ٩٣- ٩٥).

المبحث الثاني عشر

أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين

تحدثت في الفصل السابق عن زواج الرسول ﷺ من أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وذلك حسب التسلسل التاريخي للسيرة، ولما كان من المناسب موضوعيًّا استكمال الحديث عن بقية أمهات المؤمنين زوجات رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن- رأيت أن أجمع الحديث عنهن هنا وإن تفاوت التاريخ الزمني لزواجه ﷺ من كل منهن، لما في ذلك من مصلحة فقه السيرة الذي هو جوهر هذا الكتاب سائلًا المولىٰ العون والتوفيق[1].

«قال الله -تعالىٰ-: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦].

وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢- ٣٤].

(١) وقد سبق لهذه الطريقة عدد ممن كتب في السيرة ومنهم ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير فقد قال في بيان منهجه في كتابه (١/ ١١): «سالكًا في ذلك ما اقتضاه التاريخ من إيراد واقعة بعد أخرى، لا ما اقتضاه الترتيب من ضم الشيء إلى شكله ومثله، حاشا ذكر أزواجه وأولاده عليه السلام، فإني لم أسق ذكرهم على ما اقتضاه التاريخ».

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (لا خلاف أنه -عليه الصلاة والسلام- توفي عن تسع وهن: عائشة بنت أبي بكر الصديق التيمية، وحفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموية، وزينب بنت جحش الأسدية، وأم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وسودة بنت زمعة العامرية، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية، وصفية بنت حيي بن أخطب النضرية الإسرائيلية الهارونية، -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-. وكانت له سُرّيتان: وهما مارية بنت شمعون القبطية المصرية من كورة أنصنا، وهي أم ولده إبراهيم -عليه السلام-، وريحانة بنت شمعون القرظية، أسلمت ثم أعتقها، فلحقت بأهلها، ومن الناس من يزعم أنها حجبت. والله أعلم)[1].

وعن قتادة -رحمه الله تعالىٰ- قال تزوج رسول الله ﷺ بخمس عشرة امرأة، دخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدىٰ عشرة، ومات عن تسع. ثم ذكر هؤلاء التسع اللاتي ذكرناهن، -رضي الله تعالىٰ عنهن-[2].

أما ترتيب زواجه منهن فهو كما يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (تزوج رسول الله ﷺ بعد خديجة سودة بنت زمعة، ثم تزوج بعد سودة عائشة بنت أبي بكر، لم يتزوج بِكرًا غيرها، ولم يصب منها ولدًا حتىٰ مات، ثم تزوج بعد عائشة حفصة بنت عمر، ثم تزوج بعد حفصة زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، ثم تزوج بعدها أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم تزوج بعدها أم سلمة هند بنت أبي أمية، ثم تزوج بعدها زينب بنت جحش، ثم تزوج بعدها جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار. قال: ثم تزوج بعد جويرية صفية بنت حيي بن أخطب، ثم تزوج بعدها ميمونة بنت

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٢٠١).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٢٠٢).

الحارث الهلالية. فهذا الترتيب أحسن وأقرب مما رتبه الزهري. والله أعلم)[1].

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ كان يطوف علىٰ نسائه في ليلة واحدة، وله تسع نسوة[2].

وقبل أن أتحدث عن زوجات الرسول ﷺ أشير إلماحة إلىٰ ما ذكره ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في وصف بيوتهن -رضي الله تعالىٰ عنهن-: (أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا عبد الله بن زيد الهذلي قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالىٰ-، كانت بيوتًا باللَّبِن ولها حُجر من جريد مطرورة بالطين عددت تسعة أبيات بحجرها، وهي ما بين بيت عائشة -رضي الله عنها- إلىٰ الباب الذي يلي باب النبي ﷺ إلىٰ منزل أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس، ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن؛ فسألت ابن ابنها، فقال: لما غزا رسول الله ﷺ غزوة دومة، بَنَت أم سلمة حجرتها بلبن، فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلىٰ اللبن فدخل عليها أول نسائه، فقال: «ما هذا البناء؟» فقالت: أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس فقال: «يا أم سلمة إنّ شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان»؛ قال محمد بن عمر: فحدثت هذا الحديث، معاذ بن محمد الأنصاري فقال: سمعت عطاء الخراساني، في مجلس فيه عمر بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: أدركت حُجَر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ يأمر بإدخال حجر أزواج النبي ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ، فما رأيت أكثر باكيًا من ذلك اليوم. قال عطاء:

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٢٢٠). وأما ابن حجر -رحمه الله تعالى- فقال في فتح الباري (٩/ ١١٣): «فإنه كان عند النبي ﷺ تسع نسوة أي عند موته وهن سودة وعائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش وأم حبيبة وجويرية وصفية وميمونة هذا ترتيب تزويجه إياهن رضي الله عنهن، ومات وهن في عصمته»، والخلاف بينهما ينحصر في تاريخ زواج أم حبيبة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) صحيح البخاري (٧/ ٤) رقم (٥٠٦٨).

فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها ينشأ ناشئ من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله ﷺ في حياته؛ فيكون ذلك ممّا يُزهّد الناس في التكاثر والتفاخر. قال معاذ: فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمر بن أبي أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها علىٰ أبوابها مسوح الشعر ذرعت الستر فوجدته ثلاث أذرع في ذراع والعظم أو أدنىٰ من العظم، فأما ما ذكرت من البكاء يومئذ فلقد رأيتني في مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتىٰ أخضل لحاهم الدمع، وقال يومئذ أبو أمامة: (ليتها تُركت فلم تُهدَم؛ حتىٰ يقصر الناس عن البناء ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده)[1].

أولًا: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد -رضي الله تعالىٰ عنها-: أول زوجات النبي ﷺ، وتوفيت في حياته، وسبق أن تحدثت عنها في المبحث السابق مما يغني عن إعادته هنا.

ثانيًا: أم المؤمنين سودة بنت زمعة -رضي الله تعالىٰ عنها-: هي: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية، وأمها الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار من الأنصار[2].

أسلمت قديمًا وبايعت، وكانت عند ابن عم لها اسمه السكران بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنه- قديم الإسلام بمكة[3]. وهو أخو سهيل بن عمرو -رضي الله

(١) ابن سعد، الطبقات (١/ ٤٩٩).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ٥٢).

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (٤/ ٢٠٤).

تعالىٰ عنه-، وقد هاجرت مع زوجها إلىٰ الحبشة في الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها. وقيل: مات بالحبشة.

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (كانت سودة بنت زمعة -رضي الله تعالىٰ عنها- عند السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، فرأت في المنام كأن النبي ﷺ أقبل يمشي حتىٰ وطئ علىٰ عنقها، فأخبرت زوجها بذلك، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لأموتن، وليتزوجنّك رسول الله ﷺ، فقالت: حِجرًا وسترًا، وقال: هشام: الحجر: تنفي عن نفسها ذاك، ثم رأت في المنام ليلة أخرىٰ أن قمرًا انقض عليها من السماء وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيرًا حتىٰ أموت وتزوجين من بعدي، فاشتكىٰ السكران من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلًا حتىٰ مات، وتزوجها رسول الله ﷺ)[1]. ودخل بها بمكة، في رمضان، سنة عشر من النبوة[2].

وفي قصة خطبتها وزواجه منها، تخبرنا أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تقول: لما ماتت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- جاءت خولة بنت حكيم -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: ألا تزوج؟ قال: «ومن»؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال: «من البكر ومن الثيب»؟ فقالت: أما البكر فعائشة ابنة أحب خلق الله إليك. وأما الثيب فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك. قال: «اذكريهما عليّ». وبقية قصة زواجه من عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- ستأتي -إن شاء الله تعالىٰ- عند الحديث عنها.

قالت: ثم انطلقت إلىٰ سودة بنت زمعة، وأبوها شيخ كبير قد جلس عن الموسم فحيَّته بتحية أهل الجاهلية وقلت: أنعم صباحًا. قال: مَن أنتِ؟ قلت: خولة بنت

(١) ابن سعد، الطبقات (٨/ ٥٦).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٧).

حكيم. فرحَّب بي، وقال ما شاء الله أن يقول، قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يذكر سودة بنت زمعة. قال: كفء كريم، ماذا تقول صاحبتك؟ قلت: تحب ذلك. قال: قولي له فليأتِ. قالت فجاء رسول الله ﷺ فملكها. قالت: وقدم عبد بن زمعة فجعل يحثو على رأسه التراب، فقال بعد أن أسلم: إني لسفيه يوم أحثو على رأسي التراب أن تزوَّج رسول الله ﷺ سودة)[١].

وذكر ابن سعد -رحمه الله تعالى- أن الرسول ﷺ لما خطبها قالت أمري إليك، يا رسول الله فقال: رسول الله ﷺ : «مري رجلًا من قومك يزوّجك». فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود فزوّجها[٢]؛ وذلك لوفاة والدها. والله أعلم بالصواب.

وهي أول من تزوج بها النبي ﷺ بعد خديجة -رضي الله تعالى عنها-. وانفردت به نحوًا من ثلاث سنين أو أكثر، وكانت سيدة جليلة، نبيلة[٣].

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة لحقت مع بقية أهله ﷺ. عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-، قالت: لما قدم النبي ﷺ المدينة بعث زيدًا، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين، وخمس مائة درهم، فخرجنا جميعًا، وخرج زيد، وأبو رافع بفاطمة، وبأم كلثوم، وبسودة بنت زمعة، وبأم أيمن، وأسامة ابنه[٤].

كانت سودة -رضي الله تعالى عنها- عابدة تقية صالحة، عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-، قالت: (ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها من سودة)[٥].

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة، ج ١/ ٢٣٠) وقال: إسناده حسن.

(٢) انظر: ابن سعد الطبقات (٨/ ٥٣).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٥).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٩).

(٥) صحيح مسلم (١٤٦٣) وقولها: «في مسلاخها»؛ قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٠/ ٤٨): «المسلاخ بكسر الميم وبالخاء المعجمة وهو الجلد ومعناه أن أكون أنا هي».

وعن النعمان بن ثابت التيمي قال: قال رسول الله ﷺ لسودة بنت زمعة: «اعتدّي». فقعدت له علىٰ طريقه ليلة فقالت: يا رسول الله ما بي حبّ الرجال، ولكني أحب أن أبعث في أزواجك فأرجعني، قال: فرجعها رسول الله ﷺ[1]. ووهبت يومها وليلتها لعائشة تبتغي بذلك رضا رسول الله[2]، ورعاية لقلبه ﷺ[3].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وكبرت عنده -يعني سودة، رضي الله تعالىٰ عنها-، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها آثرت بيومها حب النبي ﷺ تقربًا إلىٰ رسول الله ﷺ، وحبًّا له، وإيثارًا لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها، وهي راضية بذلك مؤثرة، لترضي رسول الله ﷺ)[4].

ومع تقواها وصلاحها وتعبُّدها؛ فقد كانت زاهدة -رضي الله تعالىٰ عنها-، عن ابن سيرين: (أن أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- في خلافته، بعث إلىٰ سودة بغرارة دراهم.

فقالت: ما هذه؟

قالوا: دراهم.

قالت: في الغرارة مثل التمر، يا جارية بلغيني القنع، ففرقتها)[5].

وحرصت أن تلزم بيتها رعايةً لقول الرسول الله ﷺ حين رجع من حجة الوداع:

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات، (٨/ ٥٣).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات، (٨/ ٥٢).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٦).

(٤) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٤).

(٥) ابن سعد، الطبقات (ص (٨/ ٥٦)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٩)، وقال المحقق: ورجاله ثقات. والقنع: الطبق، انظر: لسان العرب (٨/ ٣٠١).

«هذه ثم ظهور الحُصر»[١]. قال صالح: وكانت سودة تقول: لا أحج بعدها أبدًا[٢]. وتقول «حججت واعتمرت فأنا أقر في بيتي كما أمرني الله -عز وجل-»[٣].

وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين[٤]؛ رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها.

ثالثًا: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- (الصِّدِّيقة بنت الصديق[٥]): قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (بنت الإمام الصِّدِّيق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشية، التيمية، المكية، النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي ﷺ أفقه نساء الأمة علىٰ الإطلاق.

وأمها: هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة الكنانية)[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٧٢٢) من حديث أبي واقد الليثي. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. قال في عون المعبود: «(ظُهُورَ) جَمْعُ ظَهْرٍ (الْحُصُرِ) بِضَمَّتَيْنِ وتسكن الصاد تخفيفًا جمع الحصر الَّذِي يُبْسَطُ فِي الْبُيُوتِ»، وفهم منه بعض أمهات المؤمنين -رضي الله تعالى عنهن- عدم جواز الحج بعد حجة الوداع، واستدل بعض أمهات المؤمنين -رضي الله تعالى عنهن- بجوازه بحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «قلت يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: «لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور»، وهو في صحيح البخاري برقم (١٨٦١).

(٢) ابن سعد، الطبقات (ص ٨/ ٥٥).

(٣) ابن سعد، الطبقات (ص ٨/ ٥٥).

(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٥)، والذهبي سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٧).

(٥) قال الذهبي في السير (٢/ ١٨١): (كان مسروق إذا حدث عن عائشة، قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله، المبرأة من فوق سبع سماوات).

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

وُلِدَت بعد المبعث بأربع سنين أو خمس، فقد ثبت في الصّحيح أنّ النبي ﷺ تزوجها وهي بنت ست، وقيل سبع، ويجمع بأنها كانت أكملت السّادسة ودخلت في السّابعة، ودخل بها وهي بنت تسع، وكان دخوله بها في شوال في السنة الأولىٰ، وقيل في السّنة الثّانية من الهجرة(١).

أما قصة خطبتها فتقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عن ذلك: لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقالت: يا رسول الله! ألا تزوج؟ قال: «ومن؟».

قالت: إن شئتَ بكرًا، وإن شئت ثيبًا.

قال: «من البكر، ومن الثيب؟».

قالت: أمَّا البكر؛ فعائشة ابنة أحب خلق الله إليك، وأما الثيب؛ فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك.

قال: «اذكريهما عليَّ».

قالت: فأتيت أم رومان، فقلت:

يا أم رومان! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قالت: ماذا؟

قالت: رسول الله ﷺ يذكر عائشة.

قالت: انتظري، فإن أبا بكر آتٍ.

فجاء أبو بكر، فذكرت ذلك له، فقال: أو تصلح له وهي ابنة أخيه؟

فقال رسول الله ﷺ: «أنا أخوه وهو أخي، وابنته تصلح لي».

(١) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣١).

فقام أبو بكر، فقالت لي أم رومان:

إن المطعم بن عدي كان قد ذكرها علىٰ ابنه، ووالله ما أخلف وعدًا قط.

قالت: فأتىٰ أبو بكر المطعم، فقال: ما تقول في أمر هذه الجارية؟

قال: فأقبل علىٰ امرأته، فقال: ما تقولين؟

فأقبلت علىٰ أبي بكر، فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتىٰ إليك تُدخله في دينك.

فأقبل عليه أبو بكر، فقال: ما تقول أنت؟

قال: إنها لتقول ما تسمع.

فقام أبو بكر، وليس في نفسه من الموعد شيء، فقال لها:

قولي لرسول الله ﷺ فليأتِ. فجاء، فملكها(١).

وكون عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- مخطوبة لجبير بن المطعم بموافقة والديها -رضي الله تعالىٰ عنهما- قبل الرسول ﷺ، يدل علىٰ قرب تأهيلها للزواج؛ بل إن مما يؤكد ذلك أن خولة بنت حكيم -رضي الله تعالىٰ عنها- عَرضتها علىٰ الرسول ﷺ، وما كانت لتعرض عليه ذلك لو لم تكن مناسبة للزواج(٢).

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٥٠)، وأورده ابن حجر في الفتح مختصرًا وحسَّن إسناده (٧/ ٢٢٥)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩ / ٢٢٥) رقم (١٥٢٨٥)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث.

(٢) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣١)، وزواجها وعمرها تسع سنوات أمر معهود عند العرب في ذلك الوقت، ومن أمثلة ذلك من الرجال والنساء: أما الرجال: ما ذكره الذهبي -رحمه الله تعالى- (سير أعلام النبلاء٣/ ١٩) في ترجمة عامر بن كريز -رضي الله تعالى عنه- أنه وُلد له ولد وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فكم كان عمره عند الزواج؟، وكم كان عمر زوجته؟ وجاء أيضًا في ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- (سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠): «وأمه: هي رائطة بنت الحجاج بن منبه السهمية، وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة، أو نحوها؛ فهذا عمرو بن العاص وُلد له وعمره إحدى عشرة سنة، فكم كان عمره عند الزواج؟ وكم كان عمر زوجته؟ =

وعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ، قال لها: «أريتك في المنام مرتين، أرىٰ أنك في سَرَقَةٍ من حرير[1]، ويقول: هذه امرأتك، فاكشف عنها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضه»[2].

وعنها -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنىٰ بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظىٰ عنده مني؟»[3].

وكانت العرب تستحب لنسائها أن يدخلن علىٰ أزواجهن في شوال[4].

=وأما النساء: فإن رقية رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عثمان -رضي الله تعالى عنه-، وعمرها اثنتا عشرة سنة، وفي سنن الدار قطني (٤/ ٥٠٢) رقم (٣٨٨١)، وسنن البيهقي (٧/ ٦٩٠) رقم (١٥٤١٧): حدثني عباد بن عباد المهلبي ، قال: «أدركت فينا يعني المهالبة امرأة صارت جدة وهي بنت ثمان عشرة سنة، ولدت لتسع سنين ابنة، فولدت ابنتها لتسع سنين، فصارت هي جدة وهي بنت ثمان عشرة سنة»، وفي السنن الكبرى للبيهقي (١/ ٤٧٦) رقم (١٥٣١): «ثنا أحمد بن طاهر بن حرملة ثنا جدي ثنا الشافعي، قال: «رأيت بصنعاء جدة بنت إحدى وعشرين سنة حاضت ابنة تسع وولدت ابنة عشر، وحاضت البنت ابنة تسع وولدت ابنة عشر ويذكر عن الحسن بن صالح، أنه قال: أدركت جارة لنا صارت جدة بنت إحدى وعشرين سنة»، ونقل ابن العربي في أحكام القرآن (١/ ٤٢٠) أن الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- قال :»رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة». وقال الإمام السرخسي في المبسوط (٣/ ١٠٤٩): وكان لأبي مطيع البلخي ابنة صارت جدة، وهي بنت تسعة عشرة سنة»، وأنا تزوج لي أختان كل منهما كان عمرها عند الزواج أربعة عشر عامًا، واليوم أصبحت الفتاة في الغالب لا تتزوج إلا قريبًا من خمس وعشرين سنة. وليس هذا دفاعًا بل بيان لواقع معروف عند العرب، وموجود في بعض القبائل الآن، من تزوج بناتها قريبًا من هذا السن، لكن تغير أحوال الناس جعل مَن لا يعرف أحوال العرب يستغرب مثل هذا.

(١) رواه البخاري في صحيحه ٥/ ٥٦) رقم (٣٨٩٥).

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري (٩/ ١٨١): «قوله في سرقة من حرير السرقة بفتح المهملة والراء والقاف هي القطعة ووقع في رواية ابن حبان: في خرقة حرير. وقال الداودي: السرقة الثوب فإن أراد تفسيره هنا فصحيح».

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٠٣٩) رقم (١٤٢٣).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦٤).

ولم يتزوج النبي ﷺ بكرًا غيرها، ولا أحب امرأة حبّها، وأحبها حبًّا شديدًا كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة - عندما بعثه ﷺ علىٰ جيش ذات السلاسل، يقول: فأتيته فقلت: (أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها»، قلت: ثم من؟ قال: «ثم عمر بن الخطاب»؛ فعدَّ رجالًا)[1].

وقد قال ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا من هذه الأمة، لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام أفضل»[2].

يقول الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (فأَحِبَّ أفضلَ رجل من أُمته، وأفضلَ امرأة من أُمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله ﷺ فهو حريّ أن يكون بغيضًا إلىٰ الله ورسوله)[3].

علمها وفضلها: عن مسروق -رحمه الله تعالىٰ-: (رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر-رضي الله تعالىٰ عنهم- يسألونها عن الفرائض). وقال عطاء بن أبي رباح -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة)[4].

وقال عروة -رحمه الله تعالىٰ-: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-. وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه-: (ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلا وجدنا عندها فيه علمًا). وقال الزهري -رحمه الله تعالىٰ-: (لو جُمع علم عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم

(١) صحيح البخاري (٥/ ٥) رقم (٣٦٦٢).
(٢) صحيح البخاري (١/ ١٠٠) رقم (٤٦٦).
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٢).
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٥).

عائشة أفضل)[١].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولا أعلم في أمة محمد ﷺ بل ولا في النساء مطلقًا امرأة أعلم منها)[٢].

وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة؟!‏[٣].

حمل لها الرسول ﷺ السلام من جبريل -عليه السلام-، عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أن النبي ﷺ، قال لها: «يا عائشة! هذا جبريل يقرأ عليك السلام»، فقالت: «وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترىٰ ما لا أرىٰ»؛ تريد النبي ﷺ[٤].

وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام»[٥].

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك -رحمه الله تعالىٰ ورضي عن أبيه-، عن عائشة، -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: قلت: يا رسول الله مَن مِن أزواجك في الجنة؟ قال: «أما إنك منهن»[٦].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (نشهد أنها زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخر؟)[٧]. لا والله.

---

(١) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣٣).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٧).
(٤) رواه البخاري (٤/ ١١٢) رقم (٣٢١٧)، ومسلم (٤/ ١٨٩٦) رقم (٢٤٤٧).
(٥) رواه البخاري (٤/ ١٥٨) رقم (٣٤١١)، ومسلم (٤/ ١٨٨٦) رقم (٢٤٣١).
(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٤) رقم (٦٧٤) وصححه، ووافقه الذهبي في التلخيص.
(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

جاء ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- يستأذن علىٰ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي في الموت، وعند رأسها عبد الله ابن أخيها عبد الرحمن، فأذنت له، فجاء ابن عباس، فلما قعد، قال: أبشري، فوالله ما بينك وبين أن تفارقي كل نصب، وتلقي محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تفارق روحك جسدك.

قالت: إيهٍ يا ابن عباس.

قال: كنتِ أحب نساء رسول الله ﷺ يعني: إليه، ولم يكن يحب إلا طيبًا، سقطت قلادتك ليلة الأبواء، وأصبح رسول الله ﷺ ليلقطها، فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٢]، فكان ذلك من سببك، وما أنزل الله بهذه الأمة من الرخصة، ثم أنزل الله -تعالىٰ- براءتك من فوق سبع سماوات، فأصبح ليس مسجد من مساجد يذكر فيها الله، إلا براءتك تتلىٰ فيه آناء الليل والنهار. قالت: دعني عنك يا ابن عباس، فوالله لوددت أني كنت نسيًا منسيًا)[1].

توفيت ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين عند الأكثر، وصلىٰ عليها أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وكان خليفة مروان علىٰ المدينة، فاجتمع الأنصار، وحضروا، فلم يُر ليلة أكثر ناسًا منها، نزل أهل العوالي، فدُفِنَتْ بالبقيع، ومدة عمرها: ثلاث وستون سنة، وأشهر[2].

وعن عروة -رحمه الله تعالىٰ- أن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالىٰ عنهما- بعث إلىٰ عائشة، -رضي الله تعالىٰ عنها- بمائة ألف، فقسمتها حتىٰ لم تترك منها شيئًا، فقالت بريرة: أنت صائمة، فهلا ابتعت لنا بدرهم لحمًا؟ فقالت عائشة: «لو أني ذكرت لفعلت»[3].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٩).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٢-١٩٣)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥) رقم (٦٧٤٥)، ولم يتعقبه الذهبي.

وعن القاسم أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- كانت تصوم الدهر. يعني أنها كانت تصوم الأيام التي لم يرد في حقها النهي عن صومها كالعيدين وأيام التشريق، وأيام الحيض[1].

قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: كانت أم المؤمنين من أكرم أهل زمانها؛ ولها في السخاء أخبار، باعت -رضي الله تعالىٰ عنها- دارًا لها بمائة ألف، ثم قسمت الثمن[2].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- ذُكرت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عند عليّ -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: خليلة رسول الله ﷺ[3].

وعن عمرو بن غالب أن رجلًا نال من عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عند عمار بن ياسر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، فقال: اغرب مقبوحًا منبوحًا أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ[4].

رابعًا: أم المؤمنين حفصة بنت عمر -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية أم المؤمنين، الستر الرفيع، بنت أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب[5]، رضي الله تعالىٰ عنه وعنها وأرضاهما.

وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحية -رضي الله تعالىٰ عنها-[6].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٧). وقال رجاله ثقات.
(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٨).
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٧).
(٤) الترمذي، سنن الترمذي (٣٨٨٨)، وقال عنه حديث حسن صحيح.
(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨).
(٦) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٥)، و(٨/ ١٦٣)، أسلمت وهاجرت مع زوجها عمر، وهي أخت عثمان وقدامة بني مظعون -رضي الله تعالى عنهما-.

أخرج ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه قال: (ولدت حفصة وقريش تبني البيت قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين)، فعلىٰ هذا يكون دخول النبي ﷺ بها ولها نحو من عشرين سنة[١].

تزوجها النبي ﷺ في سنة ثلاث من الهجرة[٢] بعد انقضاء عدتها من خُنيس بن حذافة السهمي -رضي الله تعالىٰ عنه-[٣]، أحد المهاجرين، فتكون هي الزوجة الرابعة بعد خديجة وسودة وعائشة -رضي الله تعالىٰ عنهن-.

قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ[٤].

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، يحدث: أن عمر بن الخطاب، حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي ثم لقيني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليَّ شيئًا، وكنت أوجد عليه مني علىٰ عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال:

---

(١) ابن سعد، الطبقات (٨/ ٨١)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٦).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٦).

(٣) هو: خُنيس (بالتّصغير) بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي، أخو عبد اللّه. كان من السابقين، وهاجر إلى الحبشة، ثم رجع فهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا. وأصابته جراحة يوم أحد، فمات منها -رضي الله عنه- وكفاه منزلة شهوده هذه المشاهد الثلاثة الهجرتين ثم بدر وأحد. انظر في ترجمته: ابن حجر، الإصابة (٢/ ٢٩٠-٢٩١).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، والمشهور أن التي تسامي عائشة -رضي الله تعالى عنها- هي زينب بنت جحش -رضي الله تعالى عنها-. وقد يكون كل منهما كذلك.

لعلك وجدت علي حين عرضتَ عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ، إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[1].

عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: أن النبي ﷺ طلق حفصة، فأتاه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فقال: «يا محمد، طلقت حفصة، وهي صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة، فراجعها»[2]. وجاء في حديث عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-»أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها»[3].

وقد ذكر الجمهور أنها توفيت في شعبان من سنة خمسة وأربعين بالمدينة عن ستين سنة، وصلىٰ عليها والي المدينة في ذلك الوقت مروان[4] بن الحكم[5].

وقيل إنها تُوفيت سنة إحدىٰ وأربعين، عام الجماعة[6].

قال الواقدي: حدثني علي بن مسلم، عن أبيه: رأيت مروان فيمن حمل سرير حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ وحملها أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- من دار

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ١٣) رقم (٥١٢٢)، وأورده بزيادات الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٥).
(٢) الحاكم، المستدرك (٤/ ١٧) رقم (٦٧٥٤).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٢٨٣)، وابن ماجه برقم (٢٠١٦) وصححه الألباني.
(٤) قال ابن حجر في الإصابة (٦/ ٢٠٣)، بشأن مروان بن الحكم: «لم أرَ مَن جزم بصحبته فكأنه لم يكن حينئذ مميزًا».
(٥) ابن سعد الطبقات (٨/ ٨٦)، وابن كثير، البداية والنهاية (١١/ ١٧٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨). وإذا كانت توفيت -رضي الله تعالى عنها- سنة خمسة وأربعين فيكون عمرها تجاوز الستين سنة قليلًا.
(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر الإصابة (٨/ ٨٧).

المغيرة إلىٰ قبرها[١].

ونزل في قبرها أخواها عبد الله وعاصم، وبنو أخيها سالم وعبد الله وحمزة بنو عبد الله بن عمر، ورُوي لها عن رسول الله ﷺ ستون حديثًا، والله أعلم[٢].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن نافع، قال: ما ماتت حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- حتىٰ ما تفطر)[٣].

خامسًا: أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين -رضي الله تعالىٰ عنها-: هي أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-[٤].

وكانت تسمىٰ أم المساكين؛ لرحمتها إياهم، ورقّتها عليهم، وإحسانها إليهم؛ فكانت تُكثر من إطعامهم والصدقة عليهم[٥].

كانت زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- عند الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف -رضي الله تعالىٰ عنه-[٦]. ثم طلقها، فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ فقتل عنها يوم بدر شهيدًا[٧].

وقيل كانت قبل عبيدة -رضي الله تعالىٰ عنه- عند جهم بن عمرو بن الحارث[٨]؛ فتزوجها رسول الله ﷺ، زوَّجه إياها قبيصة بن عمرو الهلالي، وأصدقها

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨).
(٢) النووي، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٩).
(٣) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٦). يعني أنها تديم الصيام وفق المشروع منه.
(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١١٥).
(٥) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧٤). الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية: ١/ ٤٦٥) ابن حجر، الإصابة (٨/ ١٥٧).
(٦) انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر (٣/ ٤٢١).
(٧) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١١٥).
(٨) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧٤).

رسول الله ﷺ أربع مائة درهم[١]. قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ فجعلت أمرها إليه فتزوجها رسول الله ﷺ وأشهد وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشّا، وكان تزويجه إياها في شهر رمضان علىٰ رأس أحد وثلاثين شهرًا من الهجرة -أي في السنة الثالثة-؛ فمكثت عنده ثمانية أشهر وتوفيت في آخر شهر ربيع الآخر علىٰ رأس تسعة وثلاثين شهرًا -أي في السنة الرابعة- وصلىٰ عليها رسول الله ﷺ ودفنها بالبقيع، ونزل في حفرتها إخوة لها ثلاثة، وكان سنّها يوم ماتت ثلاثين سنة أو نحوها، ولم يمت من أزواجه في حياته إلا هي وخديجة -رضي الله تعالىٰ عنهن-[٢].

سادسًا: أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان -رضي الله تعالىٰ عنها-: السيدة المحجبة: رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. تُكْنَىٰ أم حبيبة، وهي بها أشهر من اسمها، وقيل: بل اسمها هند، ورملة أصحّ، أمها صفية بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، عمة عثمان بن عفان.

وُلدت قبل البعثة بسبعة عشر عامًا، تزوّجها عبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، من بني أسد بن خزيمة، فأسلما، ثم هاجرا إلىٰ الحبشة، فولدت له حبيبة، فبها كانت تُكنَّىٰ[٣]. ومات زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة[٤].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧٤).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١١٥)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية: ١/ ٤٦٥)، وابن حجر في الإصابة (٨/ ١٥٧)، وابن سيد الناس، عيون الأثر (٢/ ٣٧٠).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٨)، وابن حجر في الإصابة (٨/ ١٤٠).

(٤) ورد في بعض كتب السيرة أن عبيد الله بن جحش ارتد في الحبشة عن الإسلام ومات نصرانيًا هناك، ولم يثبت ذلك، والأصل بقاء ما كان على ما كان، خاصة والمسألة تتعلق بإسلام وكفر وفي شأن صحابي مهاجر، من صحابة رسول الله ﷺ، بل قد أخرج ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٣٨٦) رقم (٦٠٢٧) بسنده عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة=

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: وهي من بنات عم الرسول ﷺ ليس في أزواجه من هي أقرب نسبًا إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها(١).

كان الذي زوّجها، وخطب إليه النجاشي -رحمه الله تعالىٰ-، خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، فكان لها يوم قدم بها المدينة بضع وثلاثون سنة(٢).

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري(٣) إلىٰ النجاشي فخطب عليه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت تحت عبيد الله بن جحش قبل وفاته، فزوّجها إياه وأصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله ﷺ أربع مائة دينار.. وعن الزهري -رحمه الله تعالىٰ- قال: وجهزها إليه ﷺ النجاشي وبعث

=-رضي الله تعالى عنها- قالت: هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة، مرض، فلما حضرته الوفاة، أوصى إلى رسول الله ﷺ، فتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، وبعث معها النجاشي شرحبيل بن حسنة»؛ قال محققه شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله رجال الشيخين غير محمد بن يحيى الذهلي، فمن رجال البخاري. وابن مسافر: هو عبد الرحمن بن خالد بن مسافر»، وانظر: محمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، (ص٣٧-٤٣) فقد ساق -جزاه الله خيرًا- عدة أدلة على عدم ثبوت هذه الردة. وقد شاع في كتب السيرة كثيرًا أن ارتد ومات نصرانيًّا، ولم يذكروا على ذلك دليلًا، وعلى المسلم أن يتقي الله -جل شأنه- فلا ينقل إلا ما ثبت، وبخاصة ما يتعلق بإسلام وكفر، ويزيد الأمر خطورة أنه يتعلق بصحابي من صحابة رسول الله ﷺ.

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٨).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٠).

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٦): «عمرو بن أمية بن خويلد الضمريّ، أبو أمية. صحابيّ مشهور، قال ابن سعد: أسلم حين انصرف المشركون من أحد، وكان شجاعًا، وكان أول مشاهده بئر معونة، فأسره عامر بن الطفيل، وجزّ ناصيته، وأطلقه، وبعثه النبيّ ﷺ إلى النجاشي في زواج أم حبيبة، وإلى مكة، فحمل خبيبًا من خشبته، وله ذكر في عدة مواطن، وكان من رجال العرب جرأة ونجدة، وعاش إلى خلافة معاوية، فمات بالمدينة. وقال أبو نعيم: مات قبل الستين».

بها مع شرحبيل ابن حسنة[1]. والرواية مختلفة في من قدم بها إلىٰ المدينة.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وروىٰ ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- أن ذلك كان سنة سبع، وقيل كان سنة ست، والأول أشهر)[2].

ولما بلغ أبا سفيان نكاح النبي ﷺ ابنته، قال: ذاك الفحل لا يُقرع أنفه[3].

وعن الزهري -رحمه الله تعالىٰ- قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلىٰ رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله، فقام فدخل علىٰ ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس علىٰ فراش النبي ﷺ طوته دونه؛ فقال: يا بنية أرغبتِ بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: «بل هو فراش رسول الله، وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية! لقد أصابك بعدي شر»[4].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت أم حبيبة -رضي الله تعالىٰ عنها- من سيّدات أمهات المؤمنين، ومن العابدات الورعات)[5].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: وقد كان لأم حبيبة حُرمة وجلالة، ولا سيما في دولة أخيها؛ ولمكانه منها[6].

توفيت أم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله تعالىٰ عنه- سنة أربع وأربعين. وقيل

---

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ٩٨).

(٢) انظر: ابن حجر في الإصابة: (٨/ ١٤١).

(٣) أخرجه ابن سعد (٨ / ٩٩)، والحاكم (٤/ ٢٤)، وقوله: ذاك الفحل لا يقرع أنفه، أي أنه كفء كريم لا يُرَدّ.

(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ٩٩)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، وسير أعلام النبلاء (السيرة ٢ / ١٥٥).

(٥) البداية والنهاية (١١/ ١٦٦).

(٦) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢).

سنة اثنتين وأربعين[1].

وعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فتحلليني من ذلك فحللتها، واستغفرت لها، فقالت لي: سررتني سرّك الله، وأرسلت إلىٰ أم سلمة بمثل ذلك، فقالت لها مثل ذلك[2]. رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن.

سابعًا: أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (السيدة، المحجبة، الطاهرة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة المخزومية، بنت عم خالد بن الوليد سيف الله. من المهاجرات الأول. كانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة؛ أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، الرجل الصالح)[3].

وأبوها: أبو أمية، قيل: اسمه حذيفة، وقيل سهيل، ويلقب زاد الراكب؛ لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لا يترك أحدًا يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رُفقته من الزّاد، وهو الذي اقترح علىٰ قريش تحكيم أول داخل عليهم عندما اختلفوا في وضع الحجر الأسود مكانه، وكادوا يقتتلون، فكان أول داخل هو الرسول ﷺ. وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانيّة، من بني فراس[4].

وأخوها زهير كان ممن قام في شأن نقض الصحيفة التي كتبتها قريش لمقاطعة بني هاشم.

---

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١٠٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١٠٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٤٢).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠١).

(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٤).

كانت ممن أسلم قديمًا هي وزوجها، وهاجرَا إلىٰ الحبشة، فولدت له سلمة، ثم قدما مكّة وهاجرَا إلىٰ المدينة، فولدت له عمر، ودرة، وزينب(١).

وفي قصة هجرتها من مكة إلىٰ المدينة، كما يرويها ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، زوج النبي ﷺ، قالت: لما أجمع أبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- الخروج إلىٰ المدينة رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتىٰ خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلىٰ المدينة. قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتىٰ أُمْسِي سنة أو قريبًا منها، حتىٰ مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأىٰ ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألَا تُخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: ورد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتىٰ أقدم علىٰ زوجي، حتىٰ إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة(٢)، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلىٰ أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت:

---

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٤).

(٢) كان عثمان في ذلك الوقت مشركًا، ثم أسلم -رضي الله تعالى عنه- في هدنة الحديبيّة، وهاجر مع خالد بن الوليد، وشهد الفتح مع النبيّ ﷺ، وأعطاه مفتاح الكعبة. ثم سكن المدينة إلى أن مات بها سنة اثنتين وأربعين، انظر: الإصابة لابن حجر (٤/ ٣٧٣).

أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبني هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فو الله ما صحبت رجلًا من العرب قط، أرىٰ أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتىٰ إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحىٰ عني إلىٰ شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلىٰ بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت علىٰ بعيري، أتىٰ فأخذ بخطامه، فقاده، حتىٰ ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتىٰ أقدمني المدينة، فلما نظر إلىٰ قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية -وكان أبو سلمة بها نازلًا- فادخليها علىٰ بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلىٰ مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة»(١).

وقيل: إنها أوّل امرأة خرجت مهاجرة إلىٰ الحبشة، وأول ظعينة دخلت المدينة»(٢).

وأصيب زوجها أبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- بجرح في غزوة أُحد، ثم انتقض جرحه بعد أشهر فمات منه.

وفي صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها»، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلىٰ رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ»(٣).

---

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ٤٧٠).

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٤).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٦٣١) رقم (٩١٨).

وفي سنن أبي داود -رحمه الله تعالىٰ- عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: قالت قال رسول الله ﷺ إذا حضرتم الميت فقولوا خيرا فإن الملائكة يُؤمّنون علىٰ ما تقولون؛ فلما مات أبو سلمة-رضي الله تعالىٰ عنه- قلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: قولي اللهم اغفر له وأعقبنا عقبىٰ صالحة، قالت: فأعقبني الله -تعالىٰ- به محمدًا ﷺ[1].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: أخرج النّسائيّ بسند صحيح عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها لما انقضت عدتها خطبها أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فلم تتزوّجه، فبعث النبيّ صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم يخطبها عليه، فقالت: أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غَيْرَىٰ، وأني امرأة مُصْبِية، وليس أحد من أوليائي شاهدًا. فقال: «قل لها: أما قولك غَيْري فسأدعو الله فتذهب غيرتك. وأمّا قولك: إنّي امرأة مصبية فستكفين صبيانك. وأمّا قولك: ليس أحد من أوليائي شاهدًا؛ فليس أحد من أوليائك شاهد أو غائب يكره ذلك». فقالت لابنها عمر: قم فزوِّج رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم، فزوّجه»[2].

دخل بها النبي ﷺ في شوال سنة أربع من الهجرة.

وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبًا[3]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، والرأي الصّائب، وإشارتها علىٰ النّبيّ ﷺ يوم الحديبيّة تدلّ علىٰ وفور عقلها وصواب رأيها. روت عن النّبيّ ﷺ وعن أبي سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله

(١) رواه أبو داود في سننه (٣١١٥) وصححه الألباني.
(٢) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٥). وهو في سنن النسائي (٧/ ٣٢٦ برقم ٣٢٥٤)، وضعفه الألباني في ضعيف، الإرواء (٦ / ٢١٩ - ٢٢٠).
(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٥).

تعالىٰ عنها- [1]. وكانت تعد من فُقهاء الصحابيات.

ولها أولاد صحابيون: عمر، وسلمة، وزينب -رضي الله تعالىٰ عنهم-، روىٰ عنها: سعيد بن المسيب، وشقيق بن سلمة، والأسود بن يزيد، والشعبي، وأبو صالح السمان، ومجاهد، ونافع بن جبير بن مطعم، ونافع مولاها، ونافع مولىٰ ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وشهر بن حوشب، وابن أبي مليكة، وخلق كثير -رحمهم الله تعالىٰ-.

عاشت نحوًا من تسعين سنة.

عُمرت حتىٰ بلغها مقتل الحسين الشهيد -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-، فوجمت لذلك، وغشي عليها، وحزنت عليه كثيرًا، ولم تلبث بعده إلا يسيرًا، وتوفيت؛ رحمها الله تعالىٰ ورضي عنها وأرضاها.

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: والظاهر وفاتها في سنة إحدىٰ وستين رضي الله عنها[2].

ودُفنت بالبقيع. ونقل ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي نعيم أنه قال: ماتت سنة اثنتين وستين، وهي من آخر أمهات المؤمنين موتا. قلت (ابن حجر): (بل هي آخرهنّ موتًا)[3].

وهذا يعني أن عمرها عند زواج الرسول ﷺ منها قد تجاوز الثلاثين سنة.

ويبلغ مسندها: ثلاث مائة وثمانية وسبعين حديثًا.

واتفق البخاري، ومسلم -رحمهما الله تعالىٰ- لها علىٰ ثلاثة عشر حديثًا.

---

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٦).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٧).

وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بثلاثة عشر.

ثامنًا: أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنها-: زينب بنت جحش بن رياب أم المؤمنين وابنة عمة رسول الله ﷺ. أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم من المهاجرات الأُوَل[1].

كانت عند زيد بن حارثة مولىٰ النبي ﷺ. وهي التي يقول الله -جل شأنه- فيها: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب:٣٧]؛ فزوّجها الله -تعالىٰ- لنبيه بنص كتابه، بلا ولي ولا شاهد.

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قيل: إن النبي ﷺ تزوج بزينب في ذي القعدة، سنة خمس، وهي يومئذ بنت خمس وعشرين سنة)[2].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كانت زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- تفخر علىٰ أزواج النبي ﷺ تقول: (زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله -تعالىٰ- من فوق سبع سموات)[3].

كانت من سادة النساء دينًا، وورعًا، وجودًا، ومعروفًا -رضي الله تعالىٰ عنها-. وحديثها في الكتب الستة. روىٰ عنها: ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، وأم المؤمنين أم حبيبة، وزينب بنت أبي سلمة -رضي الله تعالىٰ عنهم-[4].

تقول عنها أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأة قط خيرًا في الدين من

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).
(٢) الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٧).
(٣) صحيح البخاري (٩/ ١٢٤) رقم (٧٤٢٠).
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٢).

زينب. وأتقىٰ لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدّق به، وتقرب به إلىٰ الله -تعالىٰ-)[1].

وقالت أيضًا في سياقها لحديث الإفك: (وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع)[2].

وعن برزة بنت رافع، قالت: أرسل أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- بعطائها، فقالت: غفر الله لعمر، غيري كان أقوىٰ علىٰ قسم هذا.

قالوا: كله لك.

قالت: سبحان الله!

واستترت منه بثوب، وقالت: صبوه، واطرحوا عليه ثوبًا.

وأخذت تُفرّقه في رحمها، وأيتامها؛ وأعطتني ما بقي؛ فوجدناه خمسة وثمانين درهمًا.

ثم رفعت يدها إلىٰ السماء، فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا[3].

ويروىٰ عن: عمرة، عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: (يرحم الله زينب، لقد نالت في الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله زوّجها، ونطق به القرآن، وإن رسول الله قال لنا: «أسرعكن بي لحوقًا: أطولكن باعًا». فبشّرها بسرعة لحوقها به، وهي زوجته في الجنة)[4].

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٨٩١) رقم (٢٤٤٢).
(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٤١٤١)، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩) رقم (٢٧٧٠).
(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٢).
(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٥).

وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: قال رسول الله ﷺ: (أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا» قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق)[١].

قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت صالحة، صوامة، قوامة، بارّة، ويقال لها: أم المساكين)[٢].

توفيت -رضي الله تعالىٰ عنها- في سنة عشرين، وصلىٰ عليها الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-. ويقول القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: إن عمرها عند وفاتها ثلاث وخمسون سنة -رضي الله تعالىٰ عنها-[٣]. وهذا لا يتفق مع قول الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- السابق الذي ذكر أن الرسول ﷺ تزوجها وعمرها خمس وعشرون سنة.

تاسعًا: أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية -رضي الله تعالىٰ عنها-: في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (كان اسم جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ برّة، فحوّل رسول الله ﷺ اسمها، فسماها جويرية)[٤].

سُبيت يوم غزوة المريسيع، في السنة الخامسة[٥].

وكان زوجها قبل ذلك ابن عمها مسافع بن صفوان بن أبي الشفر[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٠٧) رقم (٢٤٥٢).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٧).

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٦).

(٤) مسند الإمام أحمد (٥/ ٧٧) رقم (٢٩٠٠). وقال محقق المسند: «صحيح، وهذا إسناد حسن، عامة رواته غير المسعودي ثقات من رجال الصحيح»، وانظر الإصابة (٨/ ٧٣).

(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١).

(٦) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١).

عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له فكاتبته علىٰ نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها، وقلت: سيري منها مثل ما رأيت. فلما دخلت علىٰ رسول الله ﷺ قالت: أنا جويرية[1] بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، وقد كاتبت فأعني. فقال: (أو خير من ذلك؟ أُؤدِّي عنك كتابتك، وأتزوجك). فقالت: نعم. ففعل رسول الله ﷺ، فبلغ الناس أنه قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق؛ فلقد أعتق بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة علىٰ قومها منها[2].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن مرسل أبي قلابة قال: سبىٰ النبيّ ﷺ جويرية- يعني وتزوّجها، فجاءها أبوها، فقال: إن بنتي لا يُسبَىٰ مثلها، فخلِّ سبيلها. فقال: «أرأيت إن خيّرتها أليس قد أحسنت؟» قال: بلىٰ، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: اخترت الله ورسوله. وسنده صحيح)[3].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن جويرية -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن رسول الله ﷺ تزوجها وعمرها عشرون سنة[4].

حدث عنها: ابن عباس، وعبيد بن السباق، وكريب، ومجاهد، وأبو أيوب يحيىٰ بن مالك الأزدي، وآخرون -رحمهم الله تعالىٰ-.

(١) قولها: «أنا جويرية»، كأنه يدل على أن اسمها الذي سماها به أبوها هو (جويرية)، وليس كما ورد في الأثر أن (برة) هو اسمها، وأن الرسول ﷺ غيرَّه إلى (جويرية). والله أعلم. أو لعلها قالت: أنا بنت الحارث سيد قومه، ثم الراوي بعد ذلك ذكر اسمها (جويرية) بالاسم الجديد.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية (١/ ٤٧٠).

(٣) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٧٤).

(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٣).

جاء لها سبعة أحاديث، منها عند البخاري حديث، وعند مسلم حديثان.

عن أبي أيوب[1] عن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث -رضي الله تعالىٰ عنها- أن النبي ﷺ، دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، فقال: «أصمتِ أمس؟»، قالت: لا، قال: «تريدين أن تصومي غدا؟» قالت: لا، قال: «فأفطري»[2].

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، عن أم المؤمنين جويرية -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلىٰ الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحىٰ، وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ علىٰ الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته[3]»[4].

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (٤/ ٢٣٤): هو أبو أيوب العتكي وهو بفتح المهملة والمثناة نسبة إلى بطن من الأزد ويقال له أيضًا المراغي بفتح الميم والراء ثم بالغين المعجمة.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ٤٢) رقم (١٩٨٦).

(٣) قال الشيخ عبد المحسن العباد: في شرحه لسنن أبي داود قوله: «(مداد كلماته) قيل: المقصود بذلك أنه المدد، وأنه لو قدر أن ذلك يكال أو يوزن لكان أعظم من ذلك، لكن يمكن أن يقال: المقصود بالمداد هو الحبر الذي يكتب به، وكلمات الله ليس لها حد وليس لها إحصاء؛ لأن كلام الله لا يتناهى؛ لأن الله تعالى متكلم بلا ابتداء، ويتكلم بلا انتهاء، فلا حصر لكلامه ولا نهاية لكلامه. وقد جاء في القرآن آيتان تدلان على أن كلام الله لا ينحصر، الآية الأولى قوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، فهذه الأبحر والمحيطات لو كانت حبرًا يكتب به كلام الله لنفدت الأبحر والمحيطات ولم تنفد كلمات الله -عز وجل-، ولو أضيف إليها أضعافها. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]؛ لأن كلام الله لا ينحصر ولا ينتهي؛ فالله متكلم بلا ابتداء ويتكلم بلا انتهاء، فلا حصر لكلامه» مختصرًا. المكتبة الشاملة.

(٤) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٠) رقم (٢٧٢٦).

اختلف في سنة وفاتها -رضي الله تعالىٰ عنها-: فقيل: ماتت سنة خمسين من الهجرة، وقيل: بقيت إلىٰ ربيع الأول سنة ست وخمسين، قاله الواقدي -رحمه الله تعالىٰ-، قال: وصلىٰ عليها مروان. وقيل: عاشت خمسًا وستين سنة(١).

عاشرا: أم المؤمنين صفية بنت حي بن أخطب -رضي الله تعالىٰ عنها-:
أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية من سبط اللاوي بن نبي الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، وهي من ذرية رسول الله هارون -عليه السلام-.

تزوجها قبل إسلامها: سلام بن أبي الحقيق، ثم خلف عليها: كنانة بن أبي الحقيق، وكانا من شعراء اليهود، فقُتل كنانة يوم خيبر عنها، وسُبيت، وصارت في سهم دحية الكلبي -رضي الله تعالىٰ عنه-(٢).

عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ غزا خيبر،.. وجمع السبي، فجاءه دحية، فقال: يا رسول الله، أعطني جارية من السبي. فقال: «اذهب فخذ جارية»، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلىٰ نبي الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك، قال: «ادعوه بها»؛ قال: فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ، قال: «خذ جارية من السبي غيرها»، قال: وأعتقها وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة، ما أصدقها؟ قال: نفسها أعتقها وتزوجها، حتىٰ إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي ﷺ عروسًا، فقال: «من كان عنده شيء فليجئ به»، قال: وبسط نطعًا، قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيسًا، فكانت وليمة رسول الله ﷺ(٣).

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٣). وابن حجر، الإصابة (٨/ ٧٤).
(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٠٤٣) رقم (١٣٦٥).

أخرج الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- عن آمنة بنت أبي قيس الغفارية -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: أنا إحدىٰ النساء اللاتي زففن صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ رسول الله ﷺ، فسمعتها تقول: (ما بلغت سبع عشرة، وجهدي أن بلغت سبع عشرة سنة ليلة إذ دخلت علىٰ رسول الله ﷺ)(١).

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت شريفة، عاقلة، ذات حسب، وجمال، ودين -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكانت ذات حلم، ووقار)(٢).

وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال بلغ صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- أن حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: بنت يهودي. فبكت فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يُبكيك؟» فقالت: قالت لي حفصة إني بنت يهودي. فقال النبي ﷺ: «إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبيّ، وإنك لتحت نبي؛ فَفِيمَ تفخر عليك؟» ثم قال: «اتقي الله يا حفصة»(٣).

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت من سيدات النساء عبادة، وورعًا، وزهادة، وبرًّا، وصدقة)(٤).

روىٰ الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن الحسن بن موسىٰ الأشيب: حدثنا زهير، حدثنا كنانة، قال: كنت أقود بصفية -رضي الله تعالىٰ عنها- لترد عن عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه-، فلقيها الأشتر، فضرب وجه بغلتها حتىٰ مالت.

فقالت: ذروني، لا يفضحني هذا!

---

(١) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣١) رقم (٦٧٨٩)، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢ و٢/ ٢٢٥).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٨/ ٣٩٤) رقم (٣٨٩٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الألباني في صحيح المشكاة (٦١٨٣).
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية (١١/ ٢٢٥).

ثم وضعت خشبًا من منزلها إلىٰ منزل عثمان، تنقل عليه الماء والطعام[1].

ذكر الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- أنها تُوفيت سنة خمسين. وقال الحاكم -رحمه الله تعالىٰ-: إنها توفيت -رضي الله تعالىٰ عنها- سنة اثنتين وخمسين في زمن معاوية. واتفقوا علىٰ أنها قُبرت بالبقيع[2].

ورد لها من الحديث عشرة أحاديث، منها واحد متفق عليه.

حادي عشر: أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية -رضي الله تعالىٰ عنها-: ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهرم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة. وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حارث من حمير[3].

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: كان اسم خالتي ميمونة برة فسماها رسول الله ﷺ ميمونة[4]. وفي المستدرك: حدثنا محمد بن عمر، قال: ميمونة بنت الحارث -رضي الله تعالىٰ عنها- أخت أم الفضل، فهي خالة عبد الله بن عباس، وهي أيضًا خالة خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه-[5].

كانت تزوجت في الجاهلية مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، ثم فارقها فخلف عليها أبو رهم بن عبد العزىٰ بن أبي قيس من بني مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، فتوفي عنها فتزوجها رسول الله ﷺ، زوجها إياه العباس بن عبد المطلب -رضي الله

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧)، وقال المحقق: رجاله ثقات، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٢٩).
(٢) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣١) رقم (٦٧٨٩)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٩).
(٣) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣١) رقم (٦٧٩١).
(٤) الحاكم، المستدرك (٤/ ٢٢) رقم (٦٧٩٣). وصححه ووافقه الذهبي.
(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٨).

تعالىٰ عنه-، وكان يلي أمرها فبنىٰ بها رسول الله ﷺ بسرف علىٰ عشرة أميال من مكة، وكانت آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وذلك سنة سبع في عمرة القضية[١].

عن يزيد بن الأصم، ابن أخت ميمونة قال: قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تخبر عن ميمونة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (..ذهبت والله ميمونة. أما أنها كانت من أتقانا لله -عز وجل- وأوصلنا للرحم)[٢].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: وكانت من سادات النساء. روت عدة أحاديث[٣].

ونقل ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن ميمون بن مهران -رحمه الله تعالىٰ-: سألت صفية بنت شيبة، فقالت: تزوّج رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ميمونة بسرف وبنىٰ بها في قبّة لها، وماتت بسرف، ودُفنت في موضع قبّتنا، وكانت وفاة ميمونة سنة إحدىٰ وخمسين[٤].

ونقل الذهبي -أيضًا -رحمه الله تعالىٰ- قول خليفة: توفيت سنة إحدىٰ وخمسين رضي الله عنها.

روي لها: سبعة أحاديث في (الصحيحين)، وانفرد لها البخاري بحديث، ومسلم بخمسة، وجميع ما روت: ثلاثة عشر حديثًا[٥].

---

(١) الحاكم، المستدرك (٤/ ٢١) رقم (٦٧٩١). ولم يتعقبه الذهبي، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٣٢٢).

(٢) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣٤ رقم ٦٧٩٩). وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»؛ قال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم، وأخرجه ابن حجر في الإصابة (٨/ ٣٢٤)، وقال: وهذا سند صحيح.

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٩).

(٤) انظر: ابن حجر الإصابة (٨/ ٣٢٤).

(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٥).

هذا عرض مختصر وتعريف موجز بأمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن جميعًا-، ولي بعد ذلك هذه الوقفات:

أولًا: إن الله -تعالىٰ- شرّف هؤلاء النسوة الكريمات ليكنَّ زوجات لنبيه ﷺ، ووصفهن بهذا الوصف العظيم في كتابه العزيز: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ [الأحزاب:٥٠]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وناداهن الله جل جلاله، بنساء النبي؛ فقال -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وهذا شرف عظيم لهن حين نوّه الله -تعالىٰ- بذِكْرهن في كتاب يُتْلَىٰ إلىٰ آخر الزمان، ونسبهن فيه لأفضل الأنبياء والمرسلين. قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: نشهد أنها- يعني عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخر»[1]. وهذا ثابت لكل زوجات النبي ﷺ كما سيأتي.

ثانيًا: إن الله -تعالىٰ- لما اختارهن لنبيه ﷺ، وأدركن قيمة ذلك الشرف العظيم؛ ثم خيرهن النبي ﷺ بين العيش معه علىٰ القلة والحرمان، وبين متاع الدنيا؛ فاخترن الله ورسوله؛ كما في حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوج النبي ﷺ، قالت: لما أُمِر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: «إني ذاكر لك أمرًا؛ فلا عليك أن لا تعجلي حتىٰ تستأمري أبويك». قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله -جل ثناؤه- قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ إلىٰ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨]؛ «قالت: فقلت: ففي أيّ هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت»[2]. فقد اخترن الله ورسوله مع شظف العيش، علىٰ متاع

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٦/ ١١٧) رقم (٤٧٨٦)، وصحيح مسلم (٢/ ١١٠٣) رقم (١٤٧٥)

الدنيا؛ إذ كان يمر الشهر والشهران لا يوقد في بيوتهن نار للطبخ، ويرضين بما رضي به رسول الله ﷺ، وهو التمر والماء، وهذا يدل علىٰ فضلهن وقوة إيمانهن ورغبتهن في الله ورسوله والدار الآخرة، قال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد ثبت أيضًا بالنقل الصحيح: أن هذه الآيات لما نزلت قرأها النبي ﷺ علىٰ أزواجه، وخيَّرهن كما أمره الله، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولذلك أقرهن، ولم يطلقهن، حتىٰ مات عنهن)[1]. وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فاخترن -رضي الله عنهن وأرضاهن- الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة)[2].

ثالثًا: إن الله -تعالىٰ- فضَّلهن علىٰ عموم النساء، وخاطبهن الله -جل شأنه- بخطاب موجه إليهن مباشرة في قرآن يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة فقال -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي، وثوابكن أعظم لدي)[3]. وقال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (ونداؤهن للاهتمام بما سيلقىٰ إليهن. وناداهن بوصف نساء النبي ليعلمن أن ما سيلقىٰ إليهن خبر يناسب علو أقدارهن)[4].

رابعًا: إن الله -جل شأنه- وعدهن بوعد كريم منه وهو مضاعفة الأجر لهن مضاعفة خاصة بهن، قال الطبري في تفسيره: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، يقول: يعطها الله ثواب عملها، مثلي ثواب عمل غيرهن من سائر نساء الناس[5].

---

(١) ابن تيمية، حقوق آل البيت تحقيق عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية) (ص ٢٨).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠١).
(٣) البغوي، تفسير البغوي (٦/ ٣٤٨).
(٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢١/ ٣١٩).
(٥) الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١٩/ ٩٢).

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنه قال في حاصل معنى الآيتين: أنه من عصى منكن؛ فإنه يكون للعذاب عليها الضعف منه على سائر نساء المؤمنين، ومن عمل صالحًا فإن الأجر لها الضعف على سائر نساء المسلمين(١). ويستدعي هذا أنه إذا أُثيب نساء المسلمين على الحسنة بعشر أمثالها أُثبن هنَّ على الحسنة بعشرين مثلًا لها، وإن زيد للنساء على العشر شيء زيد لهن ضعفه(٢).

خامسًا: قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في العقيدة الواسطية مبينا معتقد أهل السنة والجماعة في أمهات المؤمنين: (ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين. ويقرون: بأنهن أزواجه في الآخرة)(٣). وكونهن أزواجه ﷺ في الجنة جاء به حديث عن عبد الله بن أبي أوفى -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي ألا أتزوج إلى أحد، ولا أزوج إليه إلا كان معي في الجنة، فأعطاني ذلك»(٤). وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالى- قول عمار بن ياسر -رضي الله تعالى عنهما-، في شأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-: (إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة)(٥).

وقد أخذ بعض العلماء هذه البشارة بالجنة أيضًا من قوله -تعالى-: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، قال القرطبي -رحمه الله تعالى-: (وأهل

(١) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، الطبعة الثالثة (مكة: مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤١٩)، (٩/ ٣١٢٩) رقم (١٧٦٦١). وقال المحقق: إن هذا الأثر من الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٥٩٧- ٥٩٨). ونقله الألوسي وعلق عليه.

(٢) الألوسي، تفسير الألوسي (١١/ ١٨٤).

(٣) ابن تيمية، العقيدة الواسطية (١١٨).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٥٠) رقم (٥٧٦٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٤٨) رقم (٤٦٦٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص. والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧) رقم (١٦٢٨٨) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عمار بن سيف، وقد ضعفه جماعة، ووثقه ابن معين، وبقية رجاله ثقات».

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٩) رقم (٣٧٧٢).

التفسير علىٰ أن الرزق الكريم الجنة، ذكره النحاس)[1]. يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]؛ أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ، في أعلىٰ عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلىٰ العرش)[2].

وقال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (والعدول عن المضارع إلىٰ فعل الماضي في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ لإفادة تحقيق وقوعه. والرزق الكريم: هو رزق الجنة)[3].

سادسًا: قد اجتهد العلماء في السبب الذي فُضِّلت به أمهات المؤمنين علىٰ بقية النساء فقال الرازي -رحمه الله تعالىٰ- : (أمر لا يوجد في غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين، وكما أن محمدًا -عليه السلام- ليس كأحد من الرجال، كما قال -عليه السلام-: «لست كأحدكم»؛ كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به، وبين الزوجين نوع من الكفاءة)[4]. أما الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- فيرىٰ أن السبب (أنهن اتصلن بالنبي -عليه الصلاة والسلام- اتصالًا أقرب من كل اتصال وصرن أنيساته ملازمات شؤونه فيختصصن باطلاع ما لم يطلع عليه غيرهن من أحواله وخلقه، في المنشط والمكره، ويتخلقن بخلقه أكثر مما يقتبس منه غيرهن، ولأن إقباله عليهن إقبال خاص)[5]. ويمكن أن يضاف إليها ما تميزن به -رضي الله تعالىٰ عنهن- من صفات التقوىٰ والإيمان الرفيعة، وما اختصصن به من تلقي تربية النبي ﷺ المباشرة، في بيوت النبوة.

---

(١) القرطبي، تفسير القرطبي ١٤/ ١٧٦).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٨).

(٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢/ ٦).

(٤) الرازي، تفسير الرازي (٢٥/ ١٦٧).

(٥) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢/ ٧).

سابعًا: الاصطفاء الإلهي: قال -تعالىٰ-: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٤]. لقد وقف المفسرون عند ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، ومن المعلوم أن ختم الآيات باسم من أسماء الله أو اسمين له علاقة وثقىٰ بما ورد في الآية نفسها، وكون الآية تختم بذكر ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ لها دلالتها الواضحة علىٰ أن الله -تعالىٰ- اختار لنبيه أزواجًا هن خير الأزواج؛ حيث اصطفىٰ له -سبحانه- خير نساء العالمين. وكفىٰ بذلك شرفًا ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [القصص:٦٨]، يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (إن الله كان ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تُتلىٰ فيها آياته والحكمة، خبيرًا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجًا)[1]. وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أي: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك)[2]. وقال الزمخشري -رحمه الله تعالىٰ- عند قوله -تعالىٰ- ﴿خَبِيرًا ﴾: علم من يصلح لنبوّته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته)[3].

فالأمر اختيار واصطفاء وتكريم، ولا ريب أن هذه تزكية إلهية ما بعدها تزكية، تدل علىٰ كمال صلاح أمهات المؤمنين، وعلو درجة إيمانهن، وتؤكد حقيقة اصطفاء أمهات المؤمنين علىٰ سائر النساء.

ومن أجمل ما مر عليَّ قول عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- في قضية الإفك وله صلة بهذه المسألة، ما نقله العيني -رحمه الله تعالىٰ- في عمدة القاري بقوله: (ومنها في شأن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- لما قال أهل الإفك ما قالوا،

(١) الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١٩/ ١٠٨).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤١٦).
(٣) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٥٣٨).

فقال عمر: يا رسول الله من زوَّجكها؟[1]. فقال: الله -تعالىٰ-!! قال: أفتنظر أن ربك دلّس عليك فيها (سبحانك هذا بهتان عظيم)؛ فأنزل الله ذلك)؛ ذكره المحب الطبري في أحكامه[2].

فهن -رضي الله تعالىٰ عنهن- فوق كل شبهة، وأحرىٰ بكل مقام شريف، وأولىٰ بكل منزلة كريمة، ذلك أن الله -جل شأنه- هو الذي اختار له تلك الزوجات الكريمات.

ثامنًا: قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ شرف الله -تعالىٰ- أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح علىٰ الرجال.... والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء، تعظيمًا لحقهن علىٰ الرجال والنساء. يدل عليه صدر الآية: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة)[3].

تاسعًا: إن الله -جل شأنه- حرَّم علىٰ الأُمَّة نكاح أزواجه ﷺ من بعده، وجعل لهن حكم الأمهات. وهذا من خصائصه تمييزًا لشرفه وتنبيهًا علىٰ مرتبته ﷺ[4].

عاشرًا: أمهات المؤمنين من أهل بيت النبي ﷺ قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

(١) ما أعظم فقه عمر -رضي الله تعالى-، الذي استحضر هذا المعنى العظيم في هذه المناسبة، وأن زواج الرسول ﷺ من عائشة -رضي الله تعالى- كانت برؤيا رآها الرسول ﷺ في منامه مرات، ويخبره بذلك ملك. ويقول الرسول ﷺ «إن يك هذا من عند الله، يمضه» (صحيح البخاري ٣٨٩٥ وصحيح مسلم ٢٤٣٨).

(٢) عمدة القاري (٤/ ١٤٤).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٢٣). وفي المسألة أقوال أخرى.

(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٢٩).

تَطۡهِيرٗا ﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح[1].

حادي عشر: إن في كونهن أمهات للمؤمنين تشريفًا للمؤمنين، فكل مؤمن يحق له أن يفخر بأن خديجة أم له، وسودة أم له وعائشة أم له.. -رضي الله تعالى عنهن كلهن وأرضاهن-. فمن نِعَم الله على هذه الأمة كثرة أمهات المؤمنين فبودّنا لو كُنَّ مائة أو ألف؛ فهذا خير كثير للمؤمنين أن تكثر أمهاتهم اللاتي لهن تلك المنزلة عند الله -جل شأنه- وعند رسوله ﷺ، يتقرب المسلم إلى الله -تعالى- بمحبتهن وتعظيمهن.

ثاني عشر: في تعدّد أمهات المؤمنين مصلحة شرعية، فكلهن تعلمن في بيت النبوة وتأدبن بهذا الأدب تأدبًا عمليًّا، ثم خرجن إلى الناس يعلمونهن هذا الأدب، فأصبح لدينا هذا العدد من الأمهات المتأدبات بالأدب النبوي تأدبًا مباشرًا من الرسول ﷺ ينقلن هذا الأدب للأمة، قال الذهبي -رحمه الله تعالى-: (وكان الشعبي-رحمه الله تعالى- يذكرها -أي عائشة رضي الله تعالى عنها-، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة)[2].

ومثل هذا الأدب لا يتلقى بالقول فقط حتى نقول: إنه يكفي أن نسمعه من الرسول ﷺ؛ بل مشاهدة أمهات المؤمنين للرسول ﷺ شيء آخر. ثم بثهن ذلك عمليًّا وقوليًّا للناس.

ثالث عشر: إن الرسول ﷺ أسوتنا، كما قال الله -جل شأنه-: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهو ﷺ أسوة لنا في حياته الخارجية

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤١٠)، وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٣/ ٤٦٣).
(٢) الذهبي، سير أعلام (٢/ ١٩٧).

خارج بيته، وحياته الداخلية في بيته، وقد تكفل جمع من الصحابة الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- في نقل سيرته ودقائق أموره في حياته الخارجية، ونحن في ضرورة لمعرفة سيرته ودقائق أموره في حياته الداخلية لنتأسىٰ بها، ولا بد من تبليغها، وكلما أوكل هذا التبليغ لهذه السيرة الداخلية والحياة الزوجية لعدد أكبر من الزوجات، كان أدعىٰ لحفظ هذه السيرة ونقلها للناس للعمل بها في بيوتهم مع زوجاتهم. فكان من نعمة الله -جل شأنه- علىٰ هذه الأمة تعدد زوجاته ﷺ. وقد أشار إلىٰ هذا المعنىٰ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- فقال: (نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال؛ لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله)[1].

رابع عشر: كما أن في الرجال رجالًا أفاضل، سبقوا إلىٰ الإسلام، وأفنوا أعمارهم في العلم والدعوة والجهاد؛ فكذلك في نساء الأمة فُضْلَيات كن علامات بارزة مضيئة في هذه الأمة المباركة، وكنّ عونًا لرجالهن علىٰ مهامهم في خدمة دين الله -تعالىٰ-. وفي مقدمتهن أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-؛ إذ عشن في بيت النبوة، وخدمن النبي ﷺ، ونقلن عنه أقواله وأفعاله وأحواله في خاصة بيته وأهله، وهو عِلْم لم يصل إلينا إلا عن طريقهن.

خامس عشر: مما يحسن الإشارة إليه هنا أن تعدّد الزوجات عند العرب كثير مشهور، وخاصة بين كبارهم، ولم يكن له حدّ محدود لا يجوز تجاوزه، ولذلك لم يتحدث أحد من أعداء الرسول ﷺ في عصره عن هذا الأمر مع حرصهم البالغ علىٰ تتبع؛ بل واختلاق ما لعلهم يجدون فيه مغمزًا في سيرته الشريفة المطهرة ﷺ.

وجاء التحديد بأربع زوجات تشريعًا للأمة الإسلامية، علىٰ خلاف الأصل القائم في العرب.

(١) ابن حجر، فتح الباري (٩/ ١١٥).

سادس عشر: من هو الذي يستطيع أن يعيش مع هذه العدد من الزوجات، ويأذن؛ بل ربما يأمرهن، بالحديث عن سيرته معهن بما فيها من أسرار؟ من منا يأذن لزوجته أن تحدث الناس عن حياته معها وتعامله معها وخصوصياته التي لا يرغب في معرفة الناس بها؟ لا أظن بل أكاد أجزم أنه لا يوجد شخص يأذن بأن تكون أخبار بيته متاحة للناس؛ لما يعلم من بعض أحواله التي لا يرغب في اطلاع الناس عليها؛ لكونها مما لا يليق بمثله عند الناس، والرسول ﷺ اجتمع عنده تسع زوجات -أي تسعة أبيات- يأوي إليهن، وكلهن يروين أخباره وحياته للناس.

سابع عشر: إن طبائع النساء تختلف، وقد تأملت فيمن حولي، ومن أعرف فلاحظت أمرًا عجيبًا، وهو أن جزءًا من توفيق الله للعبد أن يرزقه زوجة تتفق مع طبيعته؛ فبعض الأشخاص عنده عجلة في الأمور، ويحمل هَمَّ كل أمر سيعمله ويستعد له مبكرًا استعدادًا غير مألوف عند غيره؛ فإذا وُفِّق لزوجة مثله في الطبائع سارا في حياتهما سويًّا منسجمين، وإن كانت زوجة باردة الطبع، لا تستعد لأمورها إلا في آخر لحظة ولا تحمل هَمًّا، ولا تفكر في مستقبل، كان بينهما من الخصام اليومي المتكرر ما يشق علىٰ كلّ من الزوجين.

فكيف ستكون حال الزوج إذا كان لديه أكثر من زوجة، وهن مختلفات الطباع، سيجد الزوج مشقة بالغة للتعامل مع هذه وتلك، كل بما يناسبها، ولو خالف طبعه الشخصي.

تأمل هذا، ثم هل يمكن أن تجد زوجًا يستطيع أن يجعل كل زوجاته راضيات مثنيات عليه مستمسكات به؟!

الرسول الكريم ﷺ عاش مع إحدىٰ عشرة زوجة، وجمع في وقت واحد تسع زوجات وكلهن يجدن منه ﷺ الخُلق الأمثل، والتعامل الأكمل، وقد خيّرهن فاخترنه علىٰ متاع الدنيا كلها، فكانت سيرته هنا آية من آيات نبوته ﷺ.

ثامن عشر: وإلحاقًا للفائدة السابقة أقول: إن القارئ لسيرته يضيف -أيضًا- معنىٰ آخر؛ وهو أنه ﷺ قدوة لكل الأزواج سواء انسجمت طبائعهم مع زوجاتهم أو اختلفت، أو تعددت زوجاتهم واختلف طبائعهن أو ظهر ما لا بد منه من غيرة بينهن، فكل تلك الأحوال سيجد لها جواب عمليًّا في هذه السيرة الشريفة.

تاسع عشر: إن الله -جل شأنه- قد يُجري أمرًا لم نعتد عليه في مجتمعنا، ابتلاءً وامتحانًا للقلوب؛ وفي تعدد زوجات الرسول ﷺ بهذا العدد أمر لم نألفه في عصرنا، فكيف نتعامل مع هذه القضية التي تخالف ما عهدناه من قصر الزواج علىٰ أربع نسوة. هل نؤمن؟ هل نسلم؟، بل هل نوقّر نبينا؟ ونعرف خصوصيته ونسلّم بحكمته وحكمة التشريع الذي جاء به ﷺ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت:١١]، وجريان الأمور علىٰ المعتاد لا يكشف ما في النفوس.

العشرون: إن هذا التعدد يكشف عن خصوصية للرسول ﷺ، عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ كان يطوف علىٰ نسائه في ليلة واحدة، وله تسع نسوة(١). وهذا أمر غير معهود أن يستطيع الرجل أن يجامع تسع زوجات في ليلة واحدة. يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في تعليقه علىٰ هذا الحديث: (..لإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة لكونه كان لا يجد ما يشبع به من القوت غالبًا، وإن وجد كان يؤثر بأكثره، ويصوم كثيرًا ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف علىٰ نسائه في الليلة الواحدة ولا يُطاق ذلك إلا مع قوة البدن)(٢). خاصة إذا استحضرنا عمر الرسول ﷺ في ذلك الوقت، فقد تجاوز ﷺ الستين عامًا.

الحادية والعشرون: من طالع سيرة أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن- يلحظ أنه مع وجود الغَيْرة بينهن، وهو أمر فطري، -ومن يلومهن علىٰ الغيرة علىٰ محبته ﷺ؟!- إلا أنه يجد التقىٰ ظاهرًا غالبًا علىٰ تصرفاتهن، فقد كن حريصات

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ٤) رقم (٥٠٦٨).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٩/ ١١٤).

علىٰ حفظ ألسنتهن من الزلل في شأن الغَيْرة عليه ﷺ، كما ورد في أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما قال لها الرسول ﷺ في مسألة الإفك: «يا زينب، ما علمت ما رأيت؟» فقالت: «يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا»، قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع»(١).

وإذا سبق منهن شيء في ذلك فإنهن يحرصن علىٰ الاعتذار وكن يسامح بعضهن بعضًا في ذلك، عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فتحللينني من ذلك فحللتها، واستغفرت لها، فقالت لي: سررتني سرّك الله، وأرسلت إلىٰ أم سلمة بمثل ذلك، فقالت لها مثل ذلك)(٢).

وكثير من عبارات الثناء علىٰ أمهات المؤمنين التي نقلتها فيما سبق كانت مروية عن عائشة -رضي الله عنهن جميعًا-، فكانت تثني عليهن وتذكر ما فيهن من فضائل، وما تميزن به من أعمال صالحات.

وهو درس للنساء بعامة، وللضرائر بخاصة بالتقوىٰ وحفظ اللسان والفيئة إلىٰ الله -تعالىٰ-، والعفو والتسامح وقبول العذر، والله المستعان.

الثانية والعشرون: لا تخلو الحياة الزوجية في أي بيت من وجود خلافات، حتىٰ بين أفضل النساء، أمهات المؤمنين، -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-، يقع منهن ما يقع للبشر من الغيرة والمخاصمة وطلب الزيادة في النفقة، ونحو ذلك.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٣/ ١٧٣) رقم (٢٦٦١)، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩) رقم (٢٧٧٠). من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١٠٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٤٢).

وقد نُقل شيء من هذا؛ لعدة أمور:

- أن البيوت لا تخلو من مثل هذا، فلا تطلب الكمال في بيتك.
- لبيان التشريع للأمة في هذه المواقف، وتوجيهًا لهم للتأسي بأفضل الهدي منه ﷺ.
- وللحث علىٰ التسامح بعد الوقوع كما حصل من أمهات المؤمنين فيما بينهن -رضي الله تعالىٰ عنهن-.

الثالثة والعشرون: سُئل ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- عن أم المؤمنين خديجة، وأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-، أيهما أفضل؟» فأجاب:

(بأن سبق خديجة -رضي الله -تعالىٰ- وتأثيرها في أول الإسلام؛ ونصرها وقيامها في الدين لم تشركها فيه عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- ولا غيرها من أمهات المؤمنين. وتأثير عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلىٰ الأمة؛ وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها)[1]. وهو جواب دقيق أعطىٰ كل واحدة حقها من التعظيم والتوقير والاعتراف بفضلها الذي وفَّقها الله إليه، وشرّفها به.

وأيضًا فضل خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فيما يتعلق بشرف خدمة شخص الرسول ﷺ لا يقارن بعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وخدمة عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- للأمة بنقلها العلم لهم لا يقارن بما نقلته خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكل منهما له الفضل الأسمىٰ والمقام الأعلىٰ. رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن وجميع أمهات المؤمنين.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٣). وانظر: ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزميله، الطبعة الثانية (الكويت: دار العروبة ١٤٠٧هـ)، (ص٢٣٥).

الرابعة والعشرون: في ختام هذا المبحث: يتضح لكل مسلم ومسلمة رفعة درجة أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن- باختيار الله لهن ليكن زوجات الرسول ﷺ، وأن الله -عز وجل- اختارهن لكمالهن زوجات لنبيه فلا يناسبه وهو الأكمل ﷺ من عباد الله، إلا أكمل النساء. كما يتبين فضلهن، وصحة مقصدهن، وعلو همتهن، باختيارهن الله ورسوله ﷺ، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

وهذا يستوجب علىٰ كل مسلم ومسلمة: تولي زوجات النبي ﷺ، ومحبتهن والتقرب إلىٰ الله بذلك، وتعظيمهن، ومعرفة فضلهن وإحسان القول فيهن، والذّبّ عنهن، والرد علىٰ منتقصهن، أو من لا يعرف مكانتهن؛ بل وإظهار فضائلهن، ودراسة سيرتهن، ونشر أخبارهن وآدابهن وعبادتهن؛ وتعليمها للناس وبخاصة النساء، فإنهن أعظم النساء تعلمًا وتأدبًا وتخلقًا في مدرسة النبوة، وهن أولىٰ من يكن قدوة لنساء الأمة الإسلامية في كل أمور دينهن ودنياهن.

المبحث الثالث عشر

أولاد النبي ﷺ

ذكر القرآن الكريم أن للنبي ﷺ ثلاث بنات أو أكثر. قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وأجمع أهل النقل -كما يقول القرطبي رحمه الله تعالىٰ- أن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- ولدت للرسول ﷺ أربع بنات كلهن أدركن الإسلام، وأسلمن، وهاجرن -والحمد لله رب العالمين-: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-، وأجمعوا أنها وَلَدت له ابنًا يُسمَّىٰ: القاسم، وبه ﷺ كان يُكْنىٰ.

واختلفوا هل ولدت له ذكرًا غير القاسم؟ فقيل: لم تلد له ذكرًا غيره. وقيل: ولدت له ثلاثة ذكور: عبد الله، والطيب، والطاهر. وقيل: بل ولدت له أيضًا: عبد الله، أما الطيب والطاهر فأسماء له(١).

وقال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (وولده ﷺ من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أربع بنات -رضي الله تعالىٰ عنهن- لا خلاف في ذلك، أكبرهن زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- بلا خلاف، وبعدها أم كلثوم، -رضي الله تعالىٰ عنها-، وقيل بل رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- وهو الأولىٰ والأصح؛ لأن رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- تزوجها عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- قبلُ، ومعها هاجر إلىٰ أرض الحبشة، ثم تزوج بعدها، وبعد وقعة بدر أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها-.. والأكثر والصحيح أن أصغرهن فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وعن جميعهن)(٢).

(١) انظر: القرطبي، المفهم (٦/ ٣١٣).

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ٥٠).

وقال: (وقد اضطرب مصعب والزبير في بنات النبي ﷺ، أيتهن أكبر وأصغر اضطرابًا يوجب ألا يلتفت إليه في ذلك. والذي تسكن إليه النفس علىٰ ما تواترت به الأخبار في ترتيب بنات رسول الله ﷺ أن زينب الأولىٰ، ثم الثانية رقية، ثم الثالثة أم كلثوم، ثم الرابعة فاطمة الزهراء[١])[٢]. رضي الله تعالىٰ عنهن أجمعين.

وبالإضافة إلىٰ هؤلاء؛ فإن للرسول ﷺ ولدًا سماه إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- من سُرّيته مارية القبطية -رضي الله تعالىٰ عنها-، وسأتناول الحديث عن كل منهم علىٰ النحو التالي:

أولًا: القاسم ابن سيد ولد آدم ﷺ: وبه يُكْنَىٰ الرسول ﷺ، وهو أول مولود له، ومات صغيرًا، وعمره نحو سنتين، وهو أول من مات من أولاده. وقد بلغ المشي، ولمَّا يستكمل رضاعته[٣].

ثانيًا: زينب -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (بنت رسول الله ﷺ وأكبر أخواتها، من المهاجرات السيدات)[٤]، وُلدت وعمره ﷺ

---

(١) من أقدم من لقب فاطمة بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالى عنها- بـ(الزهراء) ابن حبان في السيرة النبوية وأخبار الخلفاء تحقيق الحافظ السيد عزيز بك وزملائه، الطبعة الثالثة (بيروت: الكتب الثقافية ١٤١٧) (٢/ ٥٥٩). ومعنى الزهراء: أي المرأة المشرقة الوجه، والبيضاء المستنيرة المشربة بحمرة، وجاء في وصف النبي ﷺ أنه أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، وابنته ﷺ فاطمة من أقرب الناس شبهًا به ﷺ، وبناء عليه فمعنى الزهراء في لقب فاطمة -رضي الله تعالى عنها-: أي المشرقة الوجه البيضاء المستنيرة المشربة بحمرة. وأحسن من هذا اللقب أن تلقب بـ(السيدة) فهي سيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء أهل الجنة بحديث المصطفى ﷺ. انظر المختصر من أخبار فاطمة بنت سيد البشر ﷺ، إبراهيم المديهش، الطبعة الأولى، (الرياض: دار الآل والصحب الوقفية ١٤٤٢) (ص ٢٤-٢٥).

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٩٣).

(٣) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ١٨١٨)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٤٩).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٦).

ثلاثون سنة، وهي أول من تزوج من أخواتها، زوَّجها من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع -رضي الله تعالىٰ عنه-، في حياة أمها خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-.

أسلمت -رضي الله تعالىٰ عنها-، قبل إسلام زوجها، وبقيت في مكة مع زوجها، بعد هجرة الرسول ﷺ.

أخرج الحاكم بسنده عن محمد بن إسحاق، حدثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة -زوج النبي ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- قالت: لما بَعث أهل مكة في فداء أساراهم بعد غزوة بدر بعثت زينب ابنة رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أدخلتها بها علىٰ أبي العاص حين بنىٰ عليها، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ تلك القلادة رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تُطلقوا أسيرها وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليه الذي لها، ولم يزل أبو العاص مقيمًا علىٰ شركه حتىٰ إذا كان قُبيل فتح مكة خرج بتجارة إلىٰ الشام بأموال من أموال قريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته، وأقبل قافلًا لقيته سَرية لرسول الله ﷺ، وقيل: إن رسول الله ﷺ كان هو الذي وجَّه السرية للعير التي فيها أبو العاص قافلة من الشام، وكانوا سبعين ومائة راكب، أميرهم زيد بن حارثة وذلك في جمادىٰ الأولىٰ في سنة ست من الهجرة، فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال، وأسروا أناسًا من العير فأعجزهم أبو العاص هربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا، أقبل أبو العاص من الليل في طلب ماله حتىٰ دخل علىٰ زينب ابنة رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ إلىٰ صلاة الصبح فكبّر وكبّر الناس معه، قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة -رضي الله عنها- قال: صرخت زينب -رضي الله تعالىٰ عنها-: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، قال: فلما سلَّم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل علىٰ الناس، فقال:

«أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء كان حتىٰ سمعت منه ما سمعتم، إنه يجير علىٰ المسلمين أدناهم». ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل علىٰ ابنته زينب، فقال: «أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له».

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن رسول الله ﷺ بعث إلىٰ السرية الذين أصابوا مال أبي العاص وقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالًا، فإن تحسنوا تردوا عليه الذي له، فإنا نحبّ ذلك، وإن أبيتم ذلك فهو فيء الله الذي أفاءه عليكم، فأنتم أحق به». قالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، قال: «فردّوا عليه ماله» حتىٰ إن الرجل ليأتي بالحبل، ويأتي الرجل بالشنة والإداوة[1] حتىٰ أن أحدهم ليأتي بالشظاظ[2] حتىٰ ردوا عليه ماله بأَسْره لا يفقد منه شيئًا، ثم احتمل إلىٰ مكة، فأدىٰ إلىٰ كل ذي مال من قريش ماله ممن كان أبضع منه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفًا أن تظنوا أني إنما أردت أخذ أموالكم، فلما أداها الله -عز وجل- إليكم وفرغت منها أسلمت، ثم خرج حتىٰ قدم علىٰ رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فحدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «ردَّ رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول لم يُحدث شيئًا بعد ست سنين»[3].

---

(١) الشنة: السقاء البالي، والإداوة: الإناء الصغير من الجلد.

(٢) الشظاظ: خشبة عقفاء تدخل في عروتي الكيس، والجمع: أشظة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٦٢-٢٦٤) رقم (٥٠٣٨). وسيرة ابن هشام (٢/ ٢١٥ و٢١٨).

وكان رجوع أبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ زوجته زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- في المحرم من سنة سبع للهجرة(١).

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (اتفق أهل العلم بالنسب أن زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- لم تلد لأبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- إلا عليًّا وأُمامة فقط)(٢):

١. أمامة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهي التي حملها الرسول ﷺ وهو يصلي بالناس ففي المسند: قال أبو قتادة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (بينا نحن في المسجد جلوس خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي صبية فحملها علىٰ عاتقه، فصلىٰ رسول الله ﷺ وهي علىٰ عاتقه يضعها إذا ركع، ويعيدها علىٰ عاتقه إذا قام فصلىٰ رسول الله ﷺ، وهي علىٰ عاتقه، ثم قام حتىٰ قضىٰ صلاته يفعل ذلك بها)(٣)، وقد تزوجها علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد وفاة فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-. ثم تزوجها بعد استشهاده المغيرة بن الحارث بن نوفل، وماتت عنده، وقد عاشت -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ عهد معاوية -رضي الله تعالىٰ عنه-(٤).

٢. أما الولد الثاني لزينب -رضي الله تعالىٰ عنها- فهو علي بن أبي العاص بن الربيع -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ذكر الزبير بن بكار وغيره من أهل العلم بالأخبار أن عليًّا المذكور عاش حتىٰ ناهز الحلم، وأن

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٩).

(٢) ابن حجر، الفتح (٣/ ١٥٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٧/ ٢٧٦) رقم (٢٢٥٨٤)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو داود في سننه (٩١٨) وصححه الألباني، وهو في الصحيحين عن أبي قتادة الأنصاري، -رضي الله تعالى عنه- بلفظ: (أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها) صحيح البخاري (٥١٦) وصحيح مسلم (٥٤٣). وابن حجر، فتح الباري (١/ ٥٩٢).

(٤) انظر: ابن جماعة، المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ تحقيق سامي العاني، الطبعة الأولى (عمَّان: دار البشير ١٤٢٣)، (ص٨٠).

النبي ﷺ أردفه على راحلته يوم فتح مكة)[1]، وقال أيضًا في الإصابة: (وقال الزبير حدثني عمر بن أبي بكر الموصلي قال توفي علي بن أبي العاص وقد ناهز الحلم.. قال ابن منده: توفي وهو غلام في حياة النبي ﷺ)[2].

عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنًا[3] لي قبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطىٰ، وكل عنده بأجل مسمىٰ، فلتصبر، ولتحتسب»، فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ورجال -رضي الله تعالىٰ عنهم-؛ فرُفع إلىٰ رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع -قال: حسبته أنه قال كأنها شن- ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[4]. قال ابن حجر: (الصواب في حديث الباب أن المرسلة زينب)[5].

(١) ابن حجر، الفتح (٣/ ١٥٦).

(٢) ابن حجر، الإصابة (٤/ ٥٧٠)، وانظر: ابن سعد الطبقات (٨/ ٢٥)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٦). والمنصور فوري، رحمة للعالمين (٣٥٧).

(٣) ورد في مسند الإمام أحمد (٣٦/ ١١٣رقم ٢١٧٧٩) بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما-، قال: أُتي رسول الله ﷺ بأميمة ابنة زينب ونفسها تقعقع كأنها في شن،...»وهذا يدل على أنها بنت وأنها أمامة -رضي الله تعالى عنها-، أما قوله: «ابنًا لي قبض فقد قال ابن حجر في الفتح (٣/ ١٥٦) «ويجاب بأن المراد بقوله في حديث الباب إن ابنًا لي قبض أي قارب أن يقبض ويدل على ذلك أن في رواية حماد أرسلت تدعوه إلى ابنها في الموت، وفي رواية شعبة إن ابنتي قد حُضِرَتْ، وهو عند أبي داود من طريقه أن ابني أو ابنتي وقد قدمنا أن الصواب قول من قال ابنتي لا ابني». وانظر صحيح مسلم حديث رقم (٩٢٣)، «أرسلت تدعوه وتخبره أن صبيًّا لها، أو ابنًا لها في الموت».

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ٧٩) رقم (وصحيح مسلم ١٢٨٤).

(٥) ذكر ابن حجر في الفتح (٣/ ١٥٦) بحثًا مهمًّا في الولد المقصود: هل هو عليّ ولد زينب، مع ما قد ذكر أنه عاش حتى أنه أردفه معه يوم فتح مكة، أو أنها أمامة بنت زينب وأن الله -جل شأنه- مد في عمرها، ولم تمت لما جاء الرسول ﷺ، بعد أن رجّح أن المرسلة هي ابنته زينب -رضي الله تعالى عنها-.

ولم تلبث زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- بعد عودة زوجها إليها طويلًا؛ فقد ماتت -رضي الله تعالىٰ عنها- في أول سنة ثمان من الهجرة[١]. وهذا يعني أنها بقيت مع زوجها بعد إسلامه عامًا واحدًا فقط، وأن عمرها عند وفاتها يقارب الثلاثين عامًا.

عن أم عطية -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: لما ماتت زينب بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها-، قال لنا رسول الله ﷺ: «اغسلنها وترًا ثلاثًا، أو خمسًا، واجعلن في الخامسة كافورًا، أو شيئًا من كافور، فإذا غسلتنها، فأعلمنني»؛ قالت: فأعلمناه، فأعطانا حقوه، وقال: «أشعرنها إياه»[٢].

ثالثًا: رقية -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (لا أعرف خلافًا أنّ زينب أكبر بنات النبي ﷺ، والأكثر أن التي تليها هي رقية -رضي الله تعالىٰ عنها-)[٣].

وقد وُلدت رقية بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها-، ورسول الله ﷺ ابن ثلاث وثلاثين سنة[٤]. وتزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة، وهذا يعني أنها تزوجت وهي صغيرة في حدود ست أو سبع سنوات فقط[٥]، فلما بُعث رسول الله ﷺ، وأسلمت هي وأخواتها، ونزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؛ فقال أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تُطلق ابنته، ففارقها ولم يكن دخل بها، فتزوجها

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥٠).

(٢) متفق عليه: واللفظ لمسلم: صحيح البخاري (٢/ ٧٣ رقم١٢٥٣). وصحيح مسلم (٢/ ٦٤٨) رقم (٩٣٩). ومعنى: (حقوه) إزاره، والحقو في الأصل معقد الإزار، فأطلق على ما يشد عليه. (أشعرنها) من الإشعار وهو إلباس الثوب الذي يلي بشرة الإنسان، ويسمى شعارًا؛ لأنه يلامس شعر الجسد. والدثار فوق الشعار ومنه قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه للأنصار: «أنتم شعار، والناس دثار».

(٣) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٣٩).

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٣٩).

(٥) إن ثبتت صحة هذا الخبر.

عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهاجرت معه الهجرتين إلىٰ الحبشة. ثم هاجرت معه -رضي الله تعالىٰ عنهما- إلىٰ المدينة.

وقد ولدت بالحبشة ولدًا سماه عبد الله، وبه كان يُكْنَىٰ، وبلغ ست سنين فنقره ديك في وجهه فتورم الوجه فمات، وكانت وفاته في جمادىٰ الأولىٰ سنة أربع من الهجرة، وصلىٰ عليه رسول الله ﷺ، ونزل في حفرته أبوه عثمان -رضي الله تعالىٰ عنهما-. ولم تلد له غيره(١).

ولم يمتد بها العمر، فقد مرضت -رضي الله تعالىٰ عنها- بمرض الحصبة، قُبيل بدر فخلَّف عليها النبي ﷺ عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- يُمَرِّضها(٢). فتوفيت والمسلمون في بدر في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، ودفنت يوم جاء زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- بشيرًا بما فتح الله عليهم ببدر(٣).

وهذا يعني أن عمرها -رضي الله عنها- عند وفاتها إحدىٰ وعشرين سنة تقريبًا(٤).

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥١)، وابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٤٠)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٣٨). وفتح الباري (٧/ ٥٤)، وقال في (٣/ ١٥٦): «ووجدت في الأنساب للبلاذري أن عبد الله بن عثمان بن عفان من رقية بنت النبي ﷺ لما مات وضعه النبي ﷺ في حجره، وقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء».

(٢) وحفظًا لحق عثمان -رضي الله تعالى عنه-، فقد ضرب له سهمًا في غنائم بدر، ففاز بالفضيلتين؛ تمريض بنت رسول الله ﷺ وفضل غزوة بدر، روى البخاري في صحيحه رقم (٣٦٩٨) عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: إنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا، وسهمه». قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في السيرة النبوية (٤/ ٥٨٣): (وكان زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه قد احتبس عندها يمرضها بأمر رسول الله ﷺ، وقد ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره في بدر).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥١)، وابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٤١)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٣٩).

(٤) انظر: المنصورفوري، رحمة للعالمين. (٣٥٧).

رابعًا: أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها-: أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها- هي الثالثة من بنات النبي ﷺ، وكانت ولادة رقية وعمر النبي ﷺ ثلاث وثلاثون سنة تقريبًا، وولادة فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وقت بناء الكعبة وعمر الرسول ﷺ تقريبًا خمس وثلاثون سنة، فتكون ولادتها وعمر النبي ﷺ أربع وثلاثون سنة.

وقد زوّجها الرسول ﷺ من عُتيبة بن أبي لهب[1]، فلم يَبْن بها حتىٰ بُعث النبي ﷺ، فلما بُعث ونزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؛ ففارقها بأمر أبيه إياه بذلك.

وهاجرت مع عيال رسول الله ﷺ، بعد هجرة أبيها ﷺ، وتزوجها عثمان -رضي الله عنه- بعد موت أختها رقية -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وكان نكاحه إياها في ربيع الأول، وبنىٰ عليها في جمادىٰ الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة، ولم يُكتب لها ذرية، وتُوفيت عنده في شعبان سنة تسع من الهجرة[2].

وغسلها نساء من الأنصار؛ فيهن أم عطية -رضي الله تعالىٰ عنها-، وصلىٰ عليها أبوها رسول الله ﷺ. ونزل في حفرتها أبو طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه-. عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: شهدنا بنتًا لرسول الله ﷺ، قال: ورسول الله ﷺ جالس علىٰ القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان، قال: فقال: «هل منكم رجل لم يقارف الليلة؟»؛ فقال أبو طلحة: أنا، قال: «فانزل»، قال: فنزل في قبرها»[3]. وعليه فإن عمرها -رضي الله تعالىٰ عنها- عند وفاتها سبع وعشرون سنة فقط.

خامسًا: فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: سيدة نساء المؤمنين في زمانها (أم أبيها)، وقد كانت تكنىٰ بذلك[4]، -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-، ومن ألقابها

(١) هذا يدل على أنه عقد عليها وهي لا تزال صغيرة، إن ثبتت صحة هذا الخبر.
(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٣٨)، وابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٩٥٢).
(٣) صحيح البخاري (٢/ ٧٩) رقم (١٢٨٥) قال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٥٨): هي أم كلثوم -رضي الله تعالى عنها-.
(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٢).

السيدة وهو مأخوذ من حديث المصطفىٰ ﷺ بأنها سيدة نساء هذه الأمة، سيدة نساء الجنة، كما سيأتي، كما أن من ألقابها (الزهراء)[١]. ذكر ابن سعد في الطبقات وغيره، أنها وُلِدَت، وقريش تبني البيت، وذلك قبل النبوة بخمس سنين[٢].

ويظهر أن تسميتها بهذا الاسم إنما هو علىٰ امرأتين مهمتين في طفولة الرسول ﷺ:

الأولىٰ منهن: هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم والدة عبد الله بن عبد المطلب[٣]؛ أي جدّته ﷺ من جهة أبيه، ومعلوم أن الرسول ﷺ لما ماتت أمه كفله جده عبد المطلب فكان في بيته، والظاهر أنه في هذا البيت ترعاه جدته فاطمة؛ إذ هي أقرب النساء إليه، وهو ابن ابنها المتوفىٰ.

والثانية: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة أبي طالب؛ فقد انتقل الرسول ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب إلىٰ كفالة عمه أبي طالب، وكانت هذه المرأة ترعاه، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في ترجمتها: (والصحيح أنها هاجرت وماتت بالمدينة، وبه جزم الشعبي، قال: أسلمت وهاجرت وتوفيت بالمدينة. وأخرج ابن أبي عاصم، من طريق عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه أن النبيّ ﷺ كفّن فاطمة بنت أسد في قميصه، وقال: «لم نلقَ بعد أبي طالب أبرّ بي منها»[٤].

فلعله ﷺ أراد أن يستذكر بابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- هاتين المرأتين اللتين كانت لهما مكانة خاصة عنده ﷺ. والله أعلم.

---

(١) من أول من لقبها بهذا اللقب ابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب علي بن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٨)، (١٥/ ٤٠١). وقد سبق الإشارة إلى ذلك قريبًا.

(٢) ابن سعد الطبقات (٨/ ١٦).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٠٩).

(٤) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٩).

وقد كان النبي ﷺ يحب ابنته فاطمه ويكرمها ويُسِرُّ إليها. ومناقبها غزيرة. وكانت صابرة، ديِّنة، خيرة، صينة، قانعة، شاكرة لله[1].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: (عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلىٰ هذا المرائي أيكم يقوم إلىٰ جزور آل فلان، فيعمد إلىٰ فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتىٰ إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه. وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتىٰ مال بعضهم إلىٰ بعض من الضحك، فانطلق منطلِق إلىٰ فاطمة عليها السلام -وهي جويرية-، فأقبلت تسعىٰ وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتىٰ ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبّهم)[2].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه قوة نفس فاطمة الزهراء من صِغَرها؛ لشرفها في قومها ونفسها؛ لكونها صرخت بشتمهم وهم رؤوس قريش فلم يردوا عليها)[3].

قال عبد الرّازق، عن ابن جريج: قال لي غير واحد: (كانت فاطمة أصغر بنات النبيّ ﷺ وأحبهنّ إليه)[4]. أسلمت مع أخواتها وهاجرن مع عياله ﷺ بعد هجرته.

جاء علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- خاطبًا فقال له النبي ﷺ: ما تصدقها؟ قال: ما عندي ما أصدقها. قال: فأين درعك الحطمية التي كنت منحتك؟ قال: عندي. قال: أصدقها إياها. قال: فأصدقها وتزوجها[5].

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩).
(٢) صحيح البخاري (١/ ١١٠) رقم (٥٢٠).
(٣) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٣٥٢).
(٤) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٣).
(٥) رواه أبو داود في سننه (٢١٢٥)، وصححه الألباني، وانظر: ابن سعد الطبقات (٨/ ١٦)، ومعنى الحطمية: دروع منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم حطمة بن محارب كانوا يعملون الدروع.

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: أخبرنا محمد بن عمر حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه قال: تزوج علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- فاطمة بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- في رجب بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بخمسة أشهر وبنىٰ بها مرجعه من بدر. وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- يوم بنىٰ بها علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بنت ثماني عشرة سنة(١).

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: أخبرنا أبو أسامة عن مجالد عن عامر قال: قال علي -رضي الله تعالىٰ عنه-: (لقد تزوجت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار. وما لي ولها خادم غيرها)(٢).

عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (ما رأيت أحدًا أشبه سمتًا ودلًّا وهديًا برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- قالت وكانت إذا دخلت علىٰ النبي ﷺ قام إليها فقبَّلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبَّلته وأجلسته في مجلسها)(٣).

وقد غضب لها النبي ﷺ لما بلغه أن أبا الحسن -رضي الله تعالىٰ عنهما- هَمَّ بما رآه سائغًا من خطبة بنت أبي جهل -رضي الله تعالىٰ عنها- فقال: «والله لا تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله، وإنما فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»؛ فترك عليٌّ -رضي الله تعالىٰ عنه- الخِطبة؛ سمعًا وطاعةً لرسول الله ﷺ، ورعايةً لها، فما تزوج عليها، ولا تسرَّىٰ حتىٰ ماتت(٤).

---

(١) ابن سعد الطبقات (٨/ ١٨).

(٢) ابن سعد الطبقات (٨/ ١٨).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٥٢١٧)، والترمذي في جامعه (٣٨٧٢) واللفظ له وصححه الألباني.

(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩).

قال ابن عبد البر -رحمه الله-: ولدت له الحسن، والحسين، ومُحَسِّن وأم كلثوم، وزينب[١] -رضي الله تعالىٰ عنهم-. وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا من فاطمة[٢].

أما الحسن والحسين -رضي الله تعالىٰ عنهما- فعن أبي بكرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: رأيت رسول الله ﷺ علىٰ المنبر والحسن بن علي -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ جنبه، وهو يُقْبِل علىٰ الناس مرة، وعليه أخرىٰ ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٣].

وفي مسند أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[٤].

وأما محسِّن -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد مات صغيرًا[٥]؛ يقول عنه ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح: (اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيرًا في حياة النبي ﷺ)[٦].

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٢)، وقال: «قد انقطع نسب النبي ﷺ إلا من قبل فاطمة؛ لأن أمامة بنت زينب تزوجت بعلي بن أبي طالب، ثم من بعده بالمغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، وله رؤية، فجاءها منه أولاد. قال الزبير بن بكار: انقرض عقب زينب» ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٣).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٨٦) رقم (٢٧٠٤).

(٤) مسند أحمد (١٧/ ٣١) رقم (١٠٩٩٩)، وقال: محقق المسند إسناده صحيح.

(٥) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (١/ ٢٦٩): (وفي مسند البزار من حديث أبي هريرة قال: ثقل ابن لفاطمة فبعثت إلى النبي ﷺ تدعوه، فقال: ارجع؛ فإن لله ما أخذ، وله ما أبقى، وكل أجل بمقدار. فلما احتضر بعثت إليه فقال لنا: قوموا فلما جلس جعل يقرأ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة:٨٣] الآيات حتى قُبض فدمعت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله تبكي وتنهى عن البكاء؟ فقال: «إنما هي رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»؛ فتعين أن يكون الابن محسنًا، فإن فاطمة لم تلد من عليّ من الذكور غير ثلاثة، ولم يمت في عهد النبي ﷺ غيره).

(٦) ابن حجر، الفتح (٣/ ١٥٦).

وقال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- وكان لها من البنات: (أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ تزوجها عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، ورُزِقَ منها بزيد بن عمر بن الخطاب)[1]. وزينب -رضي الله تعالىٰ عنها- تزوجها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنهما-[2].

وعن أم سلمة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها- أن النبي ﷺ جلّل علىٰ الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»[3].

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (أقبلت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مرحبًا بابنتي». ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثًا فبكت، فقلت لها: لِمَ تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكت، فقلتُ: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عما قال: فقالت: ما كنت لأُفشي سرّ رسول الله ﷺ. حتىٰ قُبض النبي ﷺ، فسألتها، فقالت: أسرَّ إليَّ: «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي». فبكيتُ، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين»؛ فضحكتُ لذلك)[4].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (روىٰ إسماعيل بن خالد -رحمه الله تعالىٰ- عن الشعبي -رحمه الله تعالىٰ- قال: لما مرضت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أتىٰ أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فاستأذن. فقال علي: يا فاطمة، هذا أبو بكر

---

(١) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ١٢٥).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٣٨٧١)، وأحمد في المسند (٢٦٥٩٧)، وقال محقق المسند: حديث صحيح.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٣٦٢٣) واللفظ له، وصحيح مسلم (٢٤٥٠).

يستأذن عليك. فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم. -قلت: (القائل هو الذهبي) عملتَ السنة رضي الله عنها؛ فلم تأذن في بيت زوجها إلا بأمره-. قال: فأذنت له. فدخل عليها يترضّاها، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله، ومرضاتكم أهل البيت. قال: ثم ترضاها حتىٰ رضيت)[1].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- توفيت بعد النبي ﷺ بخمسة أشهر أو نحوها ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدىٰ عشرة[2].

وقال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (هي أول من غُطِّي نعشها في الإسلام علىٰ تلك الصفة)[3]؛ يعني تلك الصفة التي يغطّىٰ فيه نعش المرأة بأعواد تنصب، بحيث لا يُعرَف حجم جسد المرأة المتوفاة.

وعن حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن الرسول ﷺ قال: «الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[4].

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، إلا ما كان من مريم بنت عمران»[5].

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: خطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، قال: «تدرون ما هذا؟»؛ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١)، والبيهقي، السنن الكبرى (٦/ ٤٩١) رقم (١٢٧٣٥)، وقال: «هذا مرسل حسن بإسناد صحيح». وأورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٢٠٢).

(٢) انظر: الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١).

(٣) نقل قول ابن عبد البر، الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٣٥٣) رقم (٢٣٣٢٩)، وقال محقق المسند: إسناده صحيح.

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٨) رقم (٤٧٣٣)، وصححه، ولم يتعقبه الذهبي.

مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»[١].

وكل أولاد النبي ﷺ ماتوا قبله إلا فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فإنها تأخرت بعده، فكان لها بصبرها واحتسابها بوفاة أبيها ما فُضِّلت به علىٰ غيرها.

ولذلك فإن من خصائصها -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها أطول آل البيت ملازمة للنبي ﷺ، منذ ولادتها إلىٰ وفاتها، لم تفارقه ثمان وعشرين سنة[٢] تقريبًا.

ومن خصائصها أيضًا أن عقب النبي ﷺ انحصر في ولدها، فمنها امتداد ذريته ﷺ، والمهدي المنتظر عند أهل السنة والجماعة هو من ولد الحسن بن علي -رضي الله تعالىٰ عنهما-[٣].

سادسًا: عبد الله: وهو الطاهر وهو الطيب: قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال الزبير -وهو أعلم بهذا الشأن- ولدت له القاسم وعبد الله وهو الطاهر وهو الطيب، سُمِّي بالطاهر والطيب؛ لأنه وُلِدَ بعد النبوة، واسمه الذي سمي به أول هو: عبد الله)[٤].

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (قول مصعب- وهو قول الزبير وأكثر أهل النسب- أن عبد الله بن رسول الله ﷺ هو الطيب وهو الطاهر، له ثلاثة أسماء؛ لأنه وُلِدَ بعد الوحي، وقد مات صغيرًا في طفولته في مكة وهو أصغر أولاده من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-)[٥].

(١) أحمد، المسند ٤/ ٤٠٩) رقم (٢٦٦٨. وقال المحقق: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح»، وأحمد، فضائل الصحابة تحقيق وصي الله عباس) بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (٢/ ٧٦٠ رقم١٣٣٩).

(٢) انظر: إبراهيم المديهش، المختصر من أخبار فاطمة بنت سيد البشر ﷺ، (ص١٣٠).

(٣) انظر: إبراهيم المديهش، المرجع السابق، (ص١٣١).

(٤) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٤٩).

(٥) ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨١٨- ١٨١٩). وابن سعد الطبقات (١/ ١٠٦).

وعن يزيد بن رومان قال: (كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكَر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذِكْره واسترحتم منه، فأنزل الله -تعالىٰ- في ذلك: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ إلىٰ آخر السورة)[1].

لقد ظن كفار قريش نهاية النبي ﷺ بموته، حين مات ولده عبد الله، ولم يبق له ولد ذكر، فخلّد الله ذِكره ورفع منزلته، وأعلىٰ شأنه، وصار يُذكر معه -سبحانه-، ويُصلّىٰ عليه، وأَمَاتَ المشركين الكفرة بذرياتهم التي كانوا يفاخرون بها، وجعل شانئه ومبغضه أبد الدهر هو الأبتر المنقطع من كل خير.

سابعًا: إبراهيم ابن الرسول ﷺ: هو ولد الرسول ﷺ من مارية بنت شمعون القبطية -رضي الله تعالىٰ عنها-[2]. وكان مولده بالعالية من أحياء المدينة في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة؛ وسُرّ النبي ﷺ بولادته كثيرًا.

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، تحقيق عصام الحميدان، الطبعة الثانية (الدمام: در الإصلاح ١٤١٢)، (ص٤٦٦)، بسنده قال: «أخبرنا محمد بن موسى بن الفضل، أخبرنا محمد بن يعقوب، أخبرنا أحمد بن عبد الجبار، أخبرنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان»، وقال المحقق: «مرسل، ويشهد له: ما أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢١٢) عن سعيد بن جبير وقتادة مرسلًا مثله، وإسناده صحيح إليهما»، وقال في الاستيعاب في بيان الأسباب لسليم الهلالي ومحمد موسى آل نصر (٣/ ٥٦٩): «وهذا مرسل حسن الإسناد».

(٢) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة (٨/ ٣١٠-٣١١): «مارية القبطية أمّ ولد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ذكر ابن سعد قال: بعث المقوقس صاحب الإسكندريّة إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم في سنة سبع من الهجرة بمارية وأختها سيرين، وألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا لينًا، وبغلته الدّلدل، وبعث بذلك كلّه مع حاطب بن أبي بلتعة، فعرض حاطب بن أبي بلتعة على مارية الإسلام ورغّبها فيه فأسلمت، وأسلمت أختها، وكانت مارية بيضاء جميلة، فأنزلها رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم في العالية في المال الّذي صار يقال له سريّة أمّ إبراهيم، وكان يختلف إليها هناك، وكان يطؤها بملك اليمين، وضرب عليها مع ذلك الحجاب، فحملت منه، ووضعت هناك في ذي الحجة سنة ثمان. قال الواقديّ: ماتت في المحرم سنة ست عشرة، فكان عمر يحشر الناس لشهودها، وصلّى عليها بالبقيع. وقال ابن منده: ماتت مارية بعد النّبيّ صلى الله عليه وسلم بخمس سنين».

وكانت قابلته سلمىٰ امرأة أبي رافع، وهي مولاة رسول الله ﷺ. وأرضعت إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- أم بردة بنت المنذر النجارية زوجة البراء بن أوس -رضي الله تعالىٰ عنهم-[1].

ثم دفعه إلىٰ أم سيف امرأة قين بالمدينة يقال له أبو سيف، تُرضعه.

وقد عاش إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- ثمانية عشر شهرًا، ومات يوم كسفت الشمس في السنة العاشرة من الهجرة.

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (ثبت في الصحيحين[2] أن الشمس كسفت يوم توفي إبراهيم بن رسول الله ﷺ، ورُوينا في كتاب الزبير بن بكار وسنن البيهقي وغيرهما أنه توفي يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، وإسناده وإن كان ضعيفًا؛ فيجوز التمسك به في مثل هذا؛ لأنه لا يرتب عليه حكم)[3].

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: دخلْنا مع رسول الله ﷺ علىٰ أبي سيف القين، وكان ظئرًا لإبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه-، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم، فقبَّله، وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه-: وأنت

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٣٨) رقم (١٠٥٨)، وصحيح مسلم (٢/ ٦١٨) رقم (٩٠١).

(٣) النووي، المجموع شرح المهذب (٥/ ٥٩). وقال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٥٧): (ومن قال من الفقهاء: إن الشمس تكسف في غير وقت الاستسرار فقد غلط، وقال ما ليس له به علم. وما يروى عن الواقدي من ذكره: أن إبراهيم بن النبي ﷺ مات يوم العاشر من الشهر وهو اليوم الذي صلى فيه النبي ﷺ صلاة الكسوف: غلط. والواقدي لا يُحتج بمسانيده، فكيف بما أرسله من غير أن يسنده إلى أحد، وهذا فيما لم يعلم أنه خطأ، فأما هذا فيعلم أنه خطأ. ومن جوّز هذا، فقد قفا ما ليس له به علم، ومن حاجّ في ذلك فقد حاج في ما ليس له به علم).

يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرىٰ، فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضىٰ ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(١).

ورُوي أيضًا عنه (أي عن أنس) -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ)(٢).

وصلىٰ عليه رسول الله ﷺ، وقال ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون -رضي الله تعالىٰ عنه-، فدفنه بالبقيع.

ونقل الحلبي -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة أن (الفضل بن العباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- غسل إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه-، ونزل في قبره هو وأسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وجلس رسول الله ﷺ علىٰ شفير القبر. قال الزبير، ورُشَّ علىٰ قبره ماء، وعلّم قبره بعلامة)(٣).

عن البراء رضي الله عنه، قال: لما توفي إبراهيم -عليه السلام-، قال رسول الله ﷺ: «إن له مرضعًا في الجنة»(٤).

وبعد فقد غلبتني العاطفة وأنا أتحدث عن أولاد المصطفىٰ ﷺ، فما استطعت أن أختصر في عرض السيرة كما هو منهج هذا الكتاب، وإني علىٰ ثقة أن القارئ الكريم ستكون عاطفته أشد مع قراءته سيرة أولاد المصطفىٰ ﷺ فتكون لي عذرًا عنده في ذلك.

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (١٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٣١٥).
(٢) انظر: الصالحي، سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢).
(٣) الحلبي، السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٧)، (٣/ ٤٣٥)، وابن الأثير، أسد الغابة (ص ١١).
(٤) صحيح البخاري (١٣٨٢).

أما الوقفات في هذه الجزء المبارك من هذه السيرة فأقول فيها:

أولًا: لقد كان هذا الزواج زواجًا مباركًا، أنجبت فيه الزوجة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- ستة أولاد؛ ابنين وأربع بنات، علىٰ مدىٰ ستة عشر عامًا تقريبًا أو تزيد قليلًا؛ إذ كان آخر أولادها عبد الله الذي وُلد بعد المبعث. بالإضافة إلىٰ الابن الثالث وهو إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- من مارية القبطية -رضي الله تعالىٰ عنها- الذي وُلد بعد الهجرة بسنوات كما مر.

ثانيًا: أقف عند كثرة البنات فهن أربع، والأبناء اثنان، والرسول ﷺ عاش في هذه البيئة الجاهلية التي تتسخط البنات؛ بل يصل في بعضه إلىٰ أن يئد ابنته خشية العار، وهذا من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله -تعالىٰ- في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

في حين أن الإسلام جاء بفضل رعاية وتربية البنات والأخوات ففي حديث أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتىٰ تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم إصبعيه[(١)]، ومعناه جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين[(٢)].

وقال صالح بن أحمد -رحمهما الله تعالىٰ-: (كان أبي -رحمه الله تعالىٰ- إذا وُلد له ابنة، يقول: الأنبياء كانوا آباء بنات. ويقول: قد جاء في البنات ما قد علمت). وقال يعقوب بن بختان: (وُلد لي سبع بنات فكنت كلما وُلد لي ابنة، دخلت علىٰ

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٣١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٩/ ١٨٠). وفي سنن الترمذي رقم (١٩١٤)، وصححه الألباني بلفظ: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه».

أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالىٰ- فيقول لي: يا أبا يوسف! الأنبياء آباء بنات، فكان يُذهب قوله همي)[1].

فهذا درس عملي لمن لديه بنات، سواء أكان أبًا، أو أُمًّا، لا أقول لهم: لا تتضايقوا من البنات؛ بل اشكروا الله أن اختار لكم ما اختاره لأنبيائه، واحتسبوا ما وعدكم الله من عظيم الأجر، من مشابهة الرسول ﷺ في الدنيا، وكونكم معه «كهاتين» يوم القيامة.

ثالثًا: إن الله -جل شأنه- عندما اختار لأفضل أنبيائه تربية البنات، فلا شك أنه -جل شأنه- اختار له العمل الأفضل، وعليه فإن تربية البنات أفضل من تربية الأبناء، وإن كان الناس يرغبون في الأبناء، طمعًا في زينة الدنيا، وقد قال -تعالىٰ-: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران:١٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٦].

رابعًا: إنني توقفت مع اختيار الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ أن يُرزَق بأبناء ثم يموتون صغارًا. يقول الدكتور محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد شاء الله- وله الحكمة البالغة- ألا يعيش له ﷺ أحد من الذكور حتىٰ لا يكون ذلك مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادّعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلًا لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية.. ثم أخذهم في الصغر، وأيضًا ليكون في ذلك عزاء وسلوىٰ للذين لا يُرزقون البنين، أو يرزقونهم ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فالأمثل فالأمثل)[2].

(١) صالح ابن الإمام أحمد، سيرة الإمام أحمد تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الثانية، (الإسكندرية: دار الدعوة ١٤٠٤)، (ص٤١)، وابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود (ص ٢٦).

(٢) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، الطبعة الثامنة (دمشق: دار القلم ١٤٢٧)، (١/ ٢٢٤).

وهذا يعني عدة حِكَم:

أ. صيانة للناس من الافتتان بأبناء النبي ﷺ، ونحن نرىٰ ما صنعه البعض من الغلو بأبناء إحدىٰ بنات النبي صلىٰ الله عليه وسلم؛ فكيف لو كان ابنًا للنبي ﷺ؟!

ب. إن في ذلك عزاء لمن يُصاب بأحد أبنائه.

ج. إن في هذا ابتلاء لرفعة الدرجات وأشد الناس بلاء الأنبياء. والله أعلم.

خامسًا: في هذا الموقف من السيرة وعند الحديث عند أولاد الرسول ﷺ يبرز الجانب الأبوي العاطفي فيما نقرأه، فنجد أن الرسول ﷺ يرقّ رقة شديدة عندما رأىٰ ابنته زينب وهي في مكة، وهو في المدينة، تَبْعث في فكاك زوجها الأسير أبي العاص قلادة كانت أمها خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أهدتها لها يوم زواجها، وعندما رأىٰ الرسول ﷺ هذه القلادة، تذكّر خديجة، واستعاد في ذاكرته أيام زواج بُنيته (زينب)، وتلك الهدية التي قدّمتها الأم لابنتها، ثم اليوم لا تجد البنت شيئًا تستطيع أن تفتدي به زوجها سوىٰ هذه القلادة، ولا شك أنها لم تُفرّط ببعث القلادة إلا وإنها لم يكن عندها شيء تقدّمه فداءً لزوجها، فقدمت أثمن ما تملك، هدية أمها لها، في يوم زواجها، والتي احتفظت بها لسنوات لم تفرّط بها، واليوم وجدت نفسها مضطرة لبعثها، فرقَّ الرسول ﷺ للزوجة وللبنت ولحال البنت في فَقْرها، وفقدها لزوجها غريبة وحيدة بين الأعداء في مكة، فما كان منه ﷺ إلا أن يعرض عرضًا علىٰ أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-: «إن رأيتم أن تُطلقوا أسيرها، وتردوا عليها الذي لها؛ فافعلوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوا أبا العاص، وردوا عليها الذي لها.

هذا هو الرسول ﷺ بعاطفته الأبوية، هو قدوتنا، أما جفاف المشاعر فمن شأن الأعراب الجفاة، وليس من شأن من يتربىٰ في هذا الدين، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أبصر الأقرعُ بن حابس النبيَّ ﷺ وهو يُقبِّل الحسن -رضي الله تعالىٰ

عنه- فقال: إن لي من الولد عشرة ما قبلت أحدًا منهم. فقال رسول الله ﷺ «إنه مَن لا يرحم لا يرحم»[1].

سادسًا: الرسول ﷺ يخرج من بيته حاملًا علىٰ كتفه الشريف أُمامة بنت بنته زينب -رضي الله تعالىٰ عنهما-، ثم يُصلي أمام الناس، وهي علىٰ كتفه، يحملها قائمًا، ويضعها إذا جلس حتىٰ انتهت الصلاة، والصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- ينظرون.

أريد أن تتخيل هذا المشهد لو جرىٰ في مسجدكم مِنْ إمام المسجد، أو غيره، كيف سيكون موقف جماعة المسجد؟!

يغلب علىٰ الظن أن هذا المشهد من هيئته -والله أعلم - أنه متعمدٌ؛ فالرسول ﷺ يخرج من بيته وهو يحملها، فلم تأتِ هي إليه، وتلحق به إلىٰ المسجد، ليضطر إلىٰ حملها وإسكاتها.

إذًا، هناك شيء مقصود!! ويبدو لي -والله أعلم- أنه هو المهم، فمن المعلوم أن العرب لا يحبّون البنات، وربما ينالهن شيء من الازدراء؛ بل ما هو أسوأ من الازدراء، وإذا كانت البنت عند العرب مزدراة، فما بالك ببنت البنت؟! وهنا الرسول الكريم ﷺ لا يأتي أمام الناس حاملًا بنتًا له، بل بنت ابنته، وهذا عند العرب أسوأ. فهم يحبّون الأبناء، ويفاخرون بهم، ويتبعهم أبناء الأبناء، أما البنات وأبناؤهن فيقول شاعرهم:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الأباعد[2]

إذا كان أبناء البنات، أبناء الرجال الأباعد، فكيف ببنت البنت؟!

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (١٩١١)، وصححه الألباني.

(٢) البيت من الطويل، وهو للفرزدق، كما في خزانة الأدب (١/ ٤٤٤).

وعندما يخرج الرسول ﷺ يحملها أمام أُناسٍ وجدوا آباءهم علىٰ هذا الميراث، فقد حقق ﷺ عمليًّا، معاني كثيرة عامة وخاصة:

- أما العامة فهو يبين عمليًّا مكانة المرأة بعامة في الإسلام، ومكانة البنت، وبنت البنت بخاصة؛ ليجتث من القلوب كراهية البنات، ويربّي أصحابه علىٰ الرحمة واللطف والعناية بالبنات.

وإن هناك أمورًا أمثل طريقة لاجتثاثها من القلوب، التطبيق العملي، فأفضل طريقة لنزع هذا الاحتقار، أن يروا الرسول ﷺ عمليًّا، يحتفي ببنت ابنته أمامهم في الصلاة، ومثل ذلك نزول الوحي بأن يتزوج الرسول ﷺ زوجة ابنه من التبني زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد منْع التبنّي، وبعد أن طلَّقها، قال -تعالىٰ-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب:٣٧]؛ في قصة معروفة.

- أما الخاصة -فبالله عليك- ما هو موقف زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي ترىٰ أباها رسول رب العالمين، وسيد ولد آدم، وقائد الأمة يخرج إلىٰ الناس حاملًا ابنتها، ويصلّي وهو يحملها، كيف ستكون مشاعرها وفرحتها وغبطتها وسرورها؟!

والغالب أنها كانت موجودة في بيت أبيها؛ لأن الطفلة أُمامة، صغيرة تُحمَل علىٰ الأكتاف لا يمكن أن تأتي بمفردها، خاصةً إذا علمنا أن زوجها أبا العاص لم يسلم ويرجع إلىٰ زوجته في المدينة إلا في شهر المحرم من السنة السابعة، مما يغلب علىٰ الظن أن زينب وقتها كانت عند والدها.

وقد تحدث الفقهاء عند شرح هذا الحديث شرحًا فقهيًّا، ومنهم من رأىٰ أنه خاص بالرسول ﷺ، ومنهم من قال: إنه منسوخ، ولكن النووي -رحمه الله تعالىٰ- أجاب علىٰ ذلك كله فقال: (ادّعىٰ بعض المالكية أن هذا الحديث منسوخ، وبعضهم

أنه من الخصائص، وبعضهم أنه كان لضرورة، وكل ذلك دعاوىٰ باطلة مردودة، لا دليل عليها، وليس في الحديث ما يخالف قواعد الشرع؛ لأن الآدمي طاهر، وما في جوفه معفوّ عنه، وثياب الأطفال وأجسادهم محمولة علىٰ الطهارة حتىٰ تتبين النجاسة، والأعمال في الصلاة لا تبطلها إذا قلَّت أو تفرقت، ودلائل الشرع متظاهرة علىٰ ذلك، وإنما فعل النبي ﷺ ذلك لبيان الجواز)[1]. وكلٌّ ينظر إلىٰ المشهد من زاويته؛ فالفقيه يتقصَّىٰ الأحكام الفقهية، والمربّي ينظر إلىٰ الجوانب التربوية، والداعية إلىٰ الله ينظر إلىٰ الجوانب الدعوية، وهكذا.

ويتكرر هذا المشهد مرة أخرىٰ -كما تذكر بعض كتب السير-، وبصورة أوسع، وعلىٰ مشهد من آلاف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، عندما دخل الرسول ﷺ مكة يوم الفتح، وقد أردف معه علىٰ ناقته ابن بنته زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- (علي بن أبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما-)؛ ليقول للعالم أجمع هذا ابن البنت الذي تتبرأون منه، وتزدرون أمه!!

سابعًا: في سيرة رقية بنت رسول الله ﷺ أمر عجب، فقد وُلدت قبل البعثة بسبع سنوات تقريبًا، وآمنت بالرسول ﷺ، ثم تزوجها عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهو من السابقين إلىٰ الإسلام، فلما اشتد إيذاء قريش لمن أسلم، هاجر عثمان ورقية -رضي الله تعالىٰ عنهما- إلىٰ الحبشة. أتدري كم عمر رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما هاجرت هجرتها الأولىٰ للحبشة؟!

قد تصدق، وقد لا تصدق!!، كانت الهجرة إلىٰ الحبشة في السنة الخامسة من البعثة!! وهذا يعني أن عمرها الشريف -رضي الله تعالىٰ عنها- وأرضاها ١٣ سنة علىٰ الأكثر، وهاجرت مع زوجها إلىٰ الحبشة فرارًا بدينها، قطعت الصحاري، وركبت البحر، ثم نزلت عند قوم لا قرابة بهم، ولا معرفة سابقة، وإنما أخبارٌ ذكرت

(١) النووي، شرح مسلم (٥/ ٣٢).

لهم أن القوم منطقتهم آمنة دينيًّا، فهاجروا إليها. ثم عادت إلىٰ مكة بعد عدة أشهر، ثم خرجت ثانية مهاجرة إلىٰ الحبشة، ثم رجعت إلىٰ مكة، ثم هاجرت أيضًا إلىٰ المدينة.

هذه هي التي يجب أن تكون قدوة لبنات المسلمين، في تمسكها بدينها، وأن يقرأن سيرتها. وإذا أردنا أن نُصلح بناتنا فعلينا أن نبرز لهن القدوات الصالحات من رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- وأمثالها.

ثامنًا: وما زلت مع رقية -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-، التي ما أن استقرت في المدينة وآمنت واطمأنت، إلا وتُصاب بمرض الحَصْبة -وهو مرض معروف ينتقل بالعدوىٰ-، ويخرج الرسول ﷺ إلىٰ بدر لملاقاة عير قريش القادم من الشام، ولفرط تعلق الرسول الكريم ﷺ ببُنَيَّته وحبّه لها يأمر زوجها عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- بأن يبقىٰ معها يُمرّضها، وله أجر الغزوة ونصيبه فيها، وبعد انتهاء الغزوة يعود الرسول ﷺ من بدر منتصرًا علىٰ كفار قريش، ويرسل البشير إلىٰ المؤمنين في المدينة ببشائر النصر، ولكنه ﷺ يحمل في قلبه همًّا آخر؛ رقية المريضة، ما خبرها؟ وقلبه معها، كيف لا؟ وهو الأب الحنون، الذي من محبته لها وحرصه عليها، أمر زوجها عثمان أن يبقىٰ معها، مقدِّمًا رعايتها وتمريضها علىٰ المشاركة في بدر، لعل الله أن يكتب لها السلامة، وكأن تمريضها أحبُّ إلىٰ الرسول ﷺ من مشاركة عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- في بدر.

دخل الرسول ﷺ المدينة، وقلب الأب مع ابنته، وهو يؤمل أن يسمع بشيرًا بما يسرّه عن بُنيّته المريضة التي عمرها ٢١ سنة، فإذا بها تُنعَىٰ إليه؛ أن بنتك تحت الثرىٰ.

تاسعًا: زواج علي -رضي الله تعالىٰ عنه- بفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- لم يكن مَهرها سوىٰ درعًا حطميًّا!! هذا مهر سيدة نساء العالمين، وأحب بنات الرسول ﷺ إليه، وفي ذلك أسوة حسنة للآباء والأمهات والبنات والشباب. فما

كانت المغالاة في المهور يومًا من الأيام كرامة، ولو كانت كرامة لكانت أولىٰ بها بنت رسول ﷺ؛ بل الكرامة في التخفيف والتيسير كما فعل الرسول ﷺ، وفِعْلُه ﷺ هو الأتم الأمثل.

عاشرًا: وقفت مع التعامل بين الرسول ﷺ وابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، كما تروي ذلك عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تقول عنهما: «كانت إذا دخلت علىٰ النبي ﷺ قام إليها فقبَّلها وأجْلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبَّلته وأجْلسته في مجلسها».

تعجز الأحرف أن تصف روعة هذا المشهد، لو رأيتَه لمرة واحدة، فكيف وهو يتكرر مع كل لقاء، كيف تستطيع أن تصف هذا الأب في تعامله مع أصغر بناته، يقوم إليها ويقبّلها ويُجلسها مكانه، وكأن الداخل عليه هي والدته!! أي أب هذا؟! الذي يتعامل مع بنته هذا التعامل؟! وكأن ليس عنده همٌّ إلا هي، كأنه ليس رسول يحمل رسالة إلىٰ الأمة، ولا قائد جيش، ولا حاكم يأمر وينهي، ولا قاضٍ يقضي بين نزاعات الناس.

أين الذين شغلتهم الدنيا عن بناتهم؟!

أين من يتضايقون منهن؟!

أين من يستحي من ذكر المرأة في المجلس؟!

أين من يئدون البنات؟!

أما أنا فلا أعتقد أن قَلَمًا مهما أُوتي صاحبه من بيان، أن ينقل صورة تُقَرِّب وصف حقيقة هذا التعامل والود. وإنما أقول: غفرانك ربنا! والله المستعان والراحم للحال، ونعتذر إلىٰ ربنا ثم إلىٰ بناتنا من سوء تعاملنا معهن، ونحن نَدَّعي أن الرسول ﷺ هو أُسوتنا. والعاقل من سعىٰ في إصلاح الحال.

الحادية عشرة: علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- رغب في أن يتزوج زوجة ثانية، مع فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فغضبت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ولها ذلك، وذهبت إلىٰ والدها تشتكي، فقام ﷺ خطيبًا علىٰ المنبر؛ فعن المسور بن مخرمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو علىٰ المنبر: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن يُنكِحُوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بَضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها»[1].

وقد سمعت وقرأت أكثر من تساؤل، كيف أن الرسول ﷺ يُعدِّد ويشرع التعدُّد، ولما أراد زوج ابنته من التعدد منعه؟

حقًّا، لم يفهموا الحكمة من وراء ذلك!!

والجواب هو كالتالي: يقول الله -سبحانه وتعالىٰ- في كتابه الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٦١]، ويقول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨]. تأمل هاتين الآيتين ففيهما الجواب علىٰ هذا السؤال. فقد فرّق الله -جل شأنه- بين إيذاء الرسول ﷺ، وإيذاء المؤمنين، فإيذاء الرسول ﷺ محرم بحق وبغير حق، أما إيذاء المؤمنين فإن كان بحق فلا بأس، وإن كان بغير حق فلا.

والرجل إذا تزوج علىٰ زوجته، زوجة أخرىٰ فقد آذاها، ولكن هذا الإيذاء بحق؛ لأنه يحق له أن يعدد، فلا بأس بذلك.

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ٣٧) رقم (٥٢٣٠) وصحيح مسلم (٢٤٤٩).

أما إيذاء فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد قال ﷺ: «والذي يؤذيها يؤذيني»، وإيذاء الرسول ﷺ لا يجوز، ولو بحق. وبالتالي فالتزوج علىٰ فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- محرم لما يترتب عليه من إيذاء الرسول ﷺ.

وهذا من خصائص المصطفىٰ ﷺ، وسياق الآيتين واضح في هذه الخصيصة له ﷺ، ويؤكد هذا الأمر، الآية التي قبلها عندما قال -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٣]. فإيذاء الرسول ﷺ كله ممنوع[(١)].

الثانية عشرة: قضية مشتركة واجهها الرسول ﷺ، أردت أن أجمع فيها المواقف مرة واحدة مسرودة تِلْو بعض مُذَكِّرًا بقول أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: «ما رأيت أرحم بالعيال من الرسول ﷺ»، وحبه ﷺ لبناته وأبنائه، وحزنه لفقدهم، وبكائه عليهم بكاء الرحمة والشفقة، وتعهُّده لابنه إبراهيم، وذهابه إليه في العالية من أطراف المدينة، فيحمله ويشمّه ويقبّله. وكذلك كان يقبّل ولدي ابنته فاطمة ويشمهما ويقول: «هما ريحانتاي من الدنيا»[(٢)]، إذا استحضرت هذا المعاني فتأمل ما يلي:

١. القاسم بن محمد ﷺ، هو الولد البِكْر للرسول ﷺ وبه يُكْنَىٰ، ثم لما صار في سنّ الخطو والمشي، وتعلق القلب به، مات وعمره سنتان. وعمر الرسول ﷺ تقريبًا ثلاثون سنة.

---

(١) يقول القاضي عياض -رحمه الله تعالى- في الشفا (٢/ ٢٣٠) في (فصل في عفوه عمن آذاه): (وقد قال بعض علمائنا: إن أذى النبي ﷺ حرام لا يجوز بفعل مباح ولا غيره، وأما غيره فيجوز بفعل مباح مما يجوز للإنسان فعله، وإن تأذى به غيره، واحتج بعموم قوله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة)، وبقوله ﷺ في حديث فاطمة: «إنما بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإني لا أحرم ما أحل الله، ولكن لا تجتمع ابنة رسول الله وابنة عدو الله عند رجل أبدًا». وقال النووي في شرح صحيح مسلم (١٦/ ٣) عند شرح هذا الحديث: «تحريم إيذاء النبي ﷺ بكل حال وعلى كل وجه وإن تولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحًا وهو حي وهذا بخلاف غيره».

(٢) صحيح البخاري رقم (٥٩٩٤) من حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-.

٢. ثم رُزق ﷺ بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة على التوالي، ثم عبد الله بعد البعثة، ولك أن تتصوّر مقدار فرحة الأبوين بهذا المولود الذكر بعد موت الابن الأول، وسلسلة بنات وطول انتظار. لكنه لم يلبث أن لحق بأخيه، وترك لوعة في قلبي أبويه، ولسانًا متهكمًا ساخرًا، من مشركي قريش قالوا: محمد أبتر.

٣. ثم تلحق الزوجة الكريمة خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بالابن، ويبقىٰ الرسول الكريم ﷺ ليس في البيت إلا هو وبُنَيَّات صغار -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-.

٤. ولما عاد من غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وجد ابنته رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- قد ماتت، وعمرها واحد وعشرون عامًا فقط.

٥. وفي السنة الرابعة نقر ديكٌ ولد بنته رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- (عبد الله بن عثمان -رضي الله تعالىٰ عنهما-) فتورم وجهه، ومات وكان هو وحيدها ليس لها ولد غيره، وهي قد سبقته بسنتين باللحوق بربها.

٦. في شهر محرم من السنة الثامنة من الهجرة ماتت ابنته زينب -رضي الله تعالىٰ عنها-، وعمرها ثلاثون عامًا فقط، وهي التي أعطىٰ غاسلتها حقوه ﷺ. ليكون شعارًا لها ضمن كفنها.

٧. ثم إن -كما يظهر- ابنها (علي بن أبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما-) لحق بها بعد مدة قصيرة من وفاتها.

٨. وفي السنة التاسعة ماتت ابنته أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ- دون أن تخلّف ذرية، وهو الذي صلىٰ عليها وجلس علىٰ قبرها وهم يدفنونها، وعيناه تدمعان، ونزل أبو طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- في قبرها بأمره ﷺ، وعمرها -رضي الله تعالىٰ عنها- سبع وعشرون سنة فقط.

٩. وفي السنة العاشرة مات ابنه ووحيده إبراهيم ﷺ ورضي الله عنه، وعمره سنة ونصف تقريبا، بعد أن فرح به فرحًا شديدًا وسُرَّ به، مات بين يديه، وعيناه ﷺ تذرفان ويقول: «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

من بقي من أبنائه وبناته؟ رزق ﷺ بثلاثة أبناء (القاسم وعبد الله وإبراهيم) -رضي الله تعالىٰ عنهم-، كلهم ماتوا في حياته، ورُزق بأربع بنات مات ثلاث منهن في حياته، ومات ابن بنته رقية، وابن بنته زينب أيضًا في حياته، فلم تبق إلا فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، لقد اختار الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ أن يكون أُسوة للمحزونين كما هو أسوة لسائر المؤمنين.

فيا من أُصيب في حبيبٍ، فلتتذكر كيف تتابعت المصائب علىٰ الحبيب المصطفىٰ المختار ﷺ في بيته، فقد أُصيب في ستة من أولاده السبعة واحدًا تلو الآخر.

وإذا أردت الزيادة فتذكر أنه وُلد يتيمًا، وليس له أخ ولا أخت، ثم أُصيب بأُمه آمنة، وجده عبد المطلب، عندما كان صغيرًا، كما أُصيب بعمه أبي طالب ثم عمه حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-.

هذا كله بصفته الشخصية، عدا ما أصابه مما له علاقة بالنبوة والرسالة، وهذا أمر آخر له حديثه.

لو شاء الله -جل شأنه- لعصم نبيه من كل هذا، ولأعفاه مما ذاق من ألم اليُتم في صغره، وحرّ الثكل في بنيه وبناته في كِبَره، وفداحة المصاب في خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- وأبي طالب، ومحنة الإفك في عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ولجعل حياته نصرًا متصلًا لا يعرف الهزيمة، ولأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين ممن دخل في عِداد أتباعه، لكن الله -جل شأنه- اختار له الأفضل الأعلىٰ عنده -سبحانه-.

المبحث الرابع عشر

بناء الكعبة(١)

قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج:٢٦].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ذكر -تعالىٰ- أنه بوّأ إبراهيم -عليه السلام- مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلّمه له، وأذن له في بنائه. واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم -عليه السلام-، هو أول من بنىٰ البيت العتيق، وأنه لم يُبن قبله»، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»(٢))(٣).

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧]؛ (أمر الله -تعالىٰ- إبراهيم وإسماعيل -عليهما

---

(١) الكعبة لغة: البيت المرتفع، قال الطبري -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٩/ ٦): عن مجاهد، قال: «إنما سميت الكعبة لأنها مربعة»..... وعن عكرمة، قال: «إنما سميت الكعبة لتربيعها»، وقال الرازي في تفسيره الكبير (١٢/ ٤٣٥): «سميت الكعبة كعبة لارتفاعها وتربعها، والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة»، وقال: (١٢/ ٤٣٩): سميت الكعبة كعبة لارتفاعها.. فالكعبة لما ارتفع ذكرها في الدنيا واشتهر أمرها في العالم سميت بهذا الاسم، ولذلك فإنهم يقولون لمن عظم أمره: فلان علا كعبه»، ولا يمنع أن تكون سميت بهذا للأمرين جميعًا لتحققهما فيها، والله أعلم.

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).

(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣).

السلام-، أن يبنيا الكعبة علىٰ اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود)[1].

وروىٰ الأزرقي -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-، بعد أن ذكر بناء إبراهيم -عليه السلام-: (.. ثم انهدم، فبنته العمالقة[2]، ثم انهدم، فبنته قبيلة من جرهم، ثم انهدم، فبنته قريش)[3].

وهذا هو الصحيح في سلسلة بناء الكعبة إلىٰ عهد قريش، زاد الله بيته تشريفًا وحفظًا[4].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (أخرج عبد الرزاق والحاكم والطبراني أن الكعبة كانت في الجاهلية مبنية بالرضم ليس فيها مدر[5]، وكانت قدر ما تقتحمها العناق، وكانت ثيابها توضع عليها تُسدل سدلًا، وكانت ذات ركنين[6] -كهيئة هذه الحلقةD-)[7].

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٠).

(٢) العمالقة: نسبة إلى جد لهم اسمه عمليق بن لاوي بن سام بن نوح، وكانوا من سكان اليمن. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٧)، (١/ ٧٢).

(٣) الآزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس (بيروت: دار الأندلس للنشر)، (١/ ٦١)، والحاكم في المستدرك تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ٦٢٩) رقم (١٦٨٤). وقال الذهبي في التلخيص على شرط مسلم، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٦).

(٤) انظر: محمد شبالة، بيت الله الحرام الكعبة، الطبعة الأولى، (الإسكندرية، دار الإيمان للنشر ١٤٢٨)، (ص ٩٥).

(٥) الرضْم: بتسكين الضاد: الحجارة بعضها على بعض، والمدر هو الطين أو الملاط الذي يوضع بين الحجارة؛ ليتماسك البناء، ومعنى هذا أنها كانت مبنية بالحجارة بعضها على بعض، وليس بين الحجارة طين يمسك الحجارة، انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٢/ ٢٣١ و ٤/ ٣٠٩).

(٦) ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤٤١).

(٧) أقرب الأشكال هو حرف D باللغة الإنجليزية. ورسم هكذا في فتح الباري.

وكانت الكعبة محاطة ببيوت أهل مكة، وليس حولها حائط[1]، فكانت معرَّضة للسيول التي تنحدر عليها من جبال مكة بسبب عدم وجود الأسوار التي تحميها.

ولما بلغ الرسول ﷺ خمسًا وثلاثين سنة[2] جاء سيل عارم فصدّع جدران الكعبة، وأوهن أساسها، فأرادت قريش هدمها، ولكن تهيبوا من ذلك؛ لمكانتها في قلوبهم، وخوفهم أن يصيبهم أذىٰ، خاصةً بعد ما حصل لأبرهة عندما غزا الكعبة وأراد هدمها، وهم شاهدوا ما جرىٰ له من العقوبة، فقال الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، فقال: إن الله لا يهلك الصالحين، وأخذ المعول، وشرع يهدم، وتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننتظر، فإن أُصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء هدمناها، فقد رضي الله ما صنعنا.

فأصبح الوليد من ليلته عائدًا إلىٰ عمله، فهدم وهدم الناس حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ أساس إبراهيم -عليه السلام-، أفضوا إلىٰ حجارة خضر آخذ بعضها ببعض، فتركوا الأساس كما هو وشرعوا في البناء، واتفقوا فيما بينهم أن لا يُدخلوا في بنائها من كسبهم إلا طيبًا، لا يدخل فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

وقد تجزأت قريش بناء الكعبة، وأخذت كل مجموعة من القبائل جانبًا، وشارك الرسول ﷺ في بناء الكعبة، فعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس -رضي الله تعالىٰ عنه- ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك علىٰ رقبتك يقك من الحجارة، فخر إلىٰ الأرض،

---

(١) في صحيح البخاري عن عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبي يزيد قال: (لم يكن على عهد النبي ﷺ حول البيت حائط، كانوا يصلون حول البيت حتى كان عمر ﷺ فبنى حوله حائطًا، قال عبيد الله: جدره قصير، فبناه ابن الزبير) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧/ ١٤٦، حديث رقم ٣٨٣٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٠٩، وابن حجر، فتح الباري ٣/ ٤٤١.

وطمحت عيناه إلىٰ السماء، ثم أفاق، فقال: «إزاري، إزاري فشد عليه إزاره»[1].

ولما وصلوا إلىٰ موضع الحجر الأسود اختلفوا في من يضعه؟ فكل قبيلة تريد أن تحظىٰ بهذا الشرف، حتىٰ كادت الحرب تقع بينهم، وقرَّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي علىٰ الموت، واستمروا علىٰ هذه الحالة عدة أيام.

ثم ألهم الله -سبحانه وتعالىٰ- أكبرهم سنًا وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي[2]، فقال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم. وفي المسند: «اجعلوا بينكم حكما، قالوا: أول رجل يطلع من الفج»[3].

فرضوا وأقبلوا يترقبون أول قادم، فإذا به محمد ﷺ؛ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد.

فلما وصل إليهم أخبروه، فبسط رداءً، ثم أخذ الحجر فوضعه فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف، ثم أمرهم برفعه، فرفعوه جميعًا، حتىٰ إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده المباركة. وبهذا كان سببًا في وقاية قريش من حرب كادت تقع بينهم.

وفي رواية أخرىٰ ذكرها الأزرقي والحاكم في المستدرك بسنده عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-: (فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تشاجروا في وضعه، فقال: أول من يخرج من هذا الباب فهو يضعه. فخرج رسول الله ﷺ مِن قِبَل باب بني

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة ٧/ ١٤٥.

(٢) وهو والد أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-.

(٣) الإمام أحمد، المسند (٢٤/ ٢٦٢) رقم (١٥٥٠٤)، وقال محقق المسند: (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير هلال بن خباب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢٨) رقم (١٦٨٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرطه»، ولم يتعقبه الذهبي. وقال أحمد بن غانم الأسدي في المدخل إلى علم السيرة (٣٨١): «إسناده صحيح».

شيبة، فأمر بثوب فبُسِطَ فوضع الحجر في وسطه، ثم أمر رجلًا من كل فخذ من أفخاذ قريش أن يأخذ بناحية الثياب، فأخذه رسول الله ﷺ بيده فوضعه)[1].

وكانت النفقة قد ضاقت بقريش عن إتمام البيت علىٰ قواعد إبراهيم -عليه السلام-، فاضطروا إلىٰ النقص منه، فبنوا علىٰ الجزء الشمالي الذي تركوه جدارًا قصيرًا؛ للإعلام أنه من البيت، وهو ما يُعرَف حاليًا (بالحِجْر)، ورفعوا باب الكعبة عن الأرض[2].

عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ عَنِ الجَدْرِ أَمِنَ البَيْتِ هُوَ؟ قالَ: «نَعَمْ». قُلتُ: فَما لهمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ في البَيْتِ؟ قالَ: «إنَّ قَوْمَكِ قَصرَتْ بهِمُ النَّفَقَةُ». قُلتُ: فَما شَأْنُ بابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قالَ: «فَعَلَ ذلكَ قَوْمُكِ؛ لِيُدْخِلُوا مَن شاؤُوا ويَمْنَعُوا مَن شاؤُوا، ولَوْلا أنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بالجاهِلِيَّةِ، فأخافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ، أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ في البَيْتِ، وأَنْ أُلْصِقَ بابَهُ بالأرْضِ»[3].

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترًا، وطول ضلعه الذي في الحجر الأسود والمقابل له ١٠، ١٠م، والحجر موضوع علىٰ

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس (بيروت: دار الأندلس للنشر) (١/ ٦١)، والحاكم في المستدرك تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ٦٢٩) رقم (١٦٨٤). وقال الذهبي في التلخيص على شرط مسلم. والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٦. والذهبي في تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف، الطبعة الأولى (دار الغرب الإسلامي١٤٢٣)، (١/ ٥١٠). وانظر: بيت الله الحرام الكعبة، لمحمد شبالة (ص ٩٥)؛ فقد صحّح هذه الرواية.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٠٩-٢١٤)، وابن حجر، فتح الباري (٣ / ٤٤١) و(٧/ ١٤٦)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٢٢١-٢٢٩)، ومحمد أبو شهبة، السيرة النبوية (ص ٢٢٧ - ٢٢٩)، ومحمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة من (ص ٤١ - ٤٤).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (١٥٨٤) واللفظ له، وصحيح مسلم (١٣٣٣).

ارتفاع ١،٥٠م من أرضية المطاف. والضلع الذي في الباب والمقابل له ١٢م وبابها علىٰ ارتفاع مترين علىٰ الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٢٥، ٠م ومتوسط عرضها ٠،٣٠م، وتسمىٰ بالشاذروان[١].

وقد اختلف العلماء هل الشاذروان من البيت أو ليس منه؟ فذهب الجمهور[٢] إلىٰ أنه منه، وقال الحنفية[٣] ووافقهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: إنه ليس من البيت، وإنما هو عماد للبيت[٤].

---

(١) انظر: صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (٥٢-٥٣). وقد أعاد بناء الكعبة عبدالله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- وقت إمارته عام ٦٤ على قواعد إبراهيم -عليه السلام-، ثم أعادها مرة أخرى الخليفة عبد الملك بن مروان -رحمه الله تعالى- عام ٧٣ إلى ما كانت عليه في عهد قريش، وذلك بهدم الجدار الشامي وإعادته إلى ما كان عليه بإخراج الحِجْر، وإغلاق الباب الغربي للكعبة، ثم ندم بعد ذلك، وتمنى لو أنه تركها على بناء ابن الزبير -رضي الله تعالى عنهما-، ثم أعاد بناءها السلطان العثماني مراد خان عام ١٠٣٩ نتيجة سيل عظيم سقطت بسببه جدرانها، وفي عهد الملك سعود بن عبد العزيز -رحمهما الله تعالى- عام ١٣٧٧ تم تجديد سقف الكعبة وترميمها، وفي بداية عام ١٤١٧ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد -رحمه الله تعالى- أجري بعض الترميمات، وتجديد الجدر الداخلية للكعبة والخارجية. ملخصًا من كتاب تاريخ الكعبة المعظمة، لحسين عبد الله باسلامة، من منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (حرسها الله تعالى). وقد يسر الله -جل شأنه- للعبد الضعيف وشرّفه بدخول الكعبة في ذلك الوقت، والمشاركة في بناء بعض الجدار الداخلي الغربي، وذلك ببناء حجرين، ووضعهما في مكانهما، ومشاركة الابن خالد بن زيد الزيد بوضع ثلاثة أحجار في مكانها، وذلك بعد صلاة العشاء، ليلة السبت ١٨/ ١٩ ربيع الأول ١٤١٧؛ فلله الحمد والمنة.

(٢) قال بذلك المالكية و الشافعية والحنابلة، انظر: الحطاب، مواهب الجليل (٣/ ٧٠)، المجموع للنووي (٨/ ٢٤)، والإنصاف (٩/ ١١١).

(٣) انظر: ابن عابدين، رد المحتار (٢/ ٤٩٦).

(٤) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٢١). وقال: (وليس الشاذروان من البيت، بل جُعل عمادًا للبيت)، وينبي على الخلاف لو أنه شخصًا طاف وهو يمشي على الشاذروان، أو جعل يده وهو يطوف على الشاذروان، هل يصح طوافه أو لا؟ الذين يقولون هو جزء من الكعبة لا يصححون طوافه، والذي يقولون ليس جزءًا منها صححوا طوافه، والله أعلم.

ماذا نستفيد من حادثة بناء الكعبة وتحكيم الرسول ﷺ في هذا النزاع الذي وقع بين قريش؟

١. هذا البيت، هو بيت الله، إذا أطلقت هذه العبارة فأول ما يتبادر إلىٰ الذهن هذا البيت، بناه خليل الرحمن بأمر من الله -جل شأنه-، فبناؤه ومكانه وزمانه وبانيه وكيفيته بأمر إلهي، ثم أمره أن يؤذن في الناس بالحج إليه، وشرع لهم التوجه إليه في صلاتهم. فأصبحت تهفو إليه القلوب أينما كانت.

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- إن الكعبة منذ بناها إبراهيم -عليه السلام- وهي قبلة الصلاة ولم يُصلِّ الخليل -عليه السلام- ولا غيره من الأنبياء إلا إلىٰ الكعبة -والذي بدّل القبلة إلىٰ بيت المقدس هم أتباعهم من اليهود والنصارىٰ(١).

٢. عمارة البيت عبادة من أشرف العبادات اصطفىٰ الله خليله إبراهيم ونبيه إسماعيل -عليهما الصلاة والسلام- لأداء هذه العبادة. وكان توفيقًا لقريش -وهم أهل شرك وجاهلية- أن ينالوا هذا الشرف، وهو يلفت أنظارنا إلىٰ منزلة عمارة بيوت الله؛ العمارة الحسية؛ ببناء المساجد، والعمارة المعنوية بالطاعات فيها. قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]؛ فقد أثبت الإيمان في الآية لهؤلاء وهؤلاء، لمن عمر المساجد بالصلاة

(١) يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في كتابه الرد على المنطقيين (بيروت: دار المعرفة) (ص٢٨٩): (فلم يُصلِّ قط أحد من أنبيائهم وأتباعهم إلى الشرق، ولم يشرع الله مكانًا يصلى إليه إلا الكعبة. والأنبياء -الخليل ومن قبله- إنما كانوا يصلون إلى الكعبة). ويقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة البقرة (٢/ ١٣٧): «والظاهر -والله أعلم- أن الكعبة قبلة كل الأنبياء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (سورة آل عمران: ٩٦)، وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة كل الأنبياء، لكن أتباعهم من اليهود والنصارى هم الذين بدّلوا القبلة».

فيها، ولمن اعتنىٰ بتنظيفها وإصلاح ما وهىٰ منها[1].

٣. لا بيت أفضل من هذا البيت، ومع ذلك يسأل الخليلُ وابنه -عليهما السلام- ربهما القبول. فمع العمل الصالح لا بد من سؤال القبول. ورد عن وهيب بن الورد[2] -رحمه الله تعالىٰ-: (أنه كان يقرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾؛ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك)[3].

٤. وقفتُ عند مسألة تحكيم محمد ﷺ في وضع الحجر، وفرح القرشيين بذلك، ثم الطريقة التي أنهىٰ بها النزاع بأن وضع الحجر بنفسه بعد أن رفعه إلىٰ مكانه ممثلو قبائل قريش، لماذا لم يتحدث عنها النبي ﷺ، مع أنه أخبر أصحابه بعدد من الأحداث التي وقعت له في مكة قبل البعثة كرعي الغنم، وشق الصدر، وهذا حدث مهم جدًّا في حياته، يكشف عن مكانته بين قريش في شبابه. فهل تركه تواضعًا، وإعراضًا عن مدح النفس والثناء عليها؟ هذا الذي يبدو لي، والله أعلم. ولو حصل شيء قريب من هذا التميز لأحد الأشخاص، لملأ الدنيا ضجيجًا، وأخبر كل مَن يلاقي بذلك، وشغل به كل مجلس يحضره.

ولعل في ذلك درسًا لنا في التواضع، والإعراض عن الثناء علىٰ النفس، وترك التحدث بما قد يُوجِدُ في النفس كبرًا وتعاليًا علىٰ الآخرين بسبب أنْعم ومكاسب يسّرها الله لنا، لا يدَ لنا فيها.

---

(١) انظر: القرطبي، تفسير القرطبي (٨/ ٩٠).

(٢) هو: «وهيب بن الورد المكي، العابد، الرباني، أبو أمية، مولى بني مخزوم، قال ابن إدريس: ما رأيت أعبد منه. وقال ابن المبارك: قيل لوهيب: يجد طعم العبادة من يعصي؟ قال: ولا من يهم بالمعصية. قال ابن معين: ثقة. وقال النسائي: ليس به بأس. قيل: مات سنة ثلاث وخمسين ومائة» سير أعلام النبلاء (٧/ ١٩٨-١٩٩).

(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٤٢٧).

وهنا خيطٌ رفيعٌ، يُمَيِّز بين التحدث بنعم الله؛ شكرًا، والتحدث بها زهوًا وتعاليًا. فالتحدُّث بنعم الله -جل شأنه- بقصد الشكر والاعتراف بفضل الله -تعالىٰ- مطلوب قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ: ١١].

٥. عندما قال زعماء قريش -وهم وثنيون عباد أصنام-: «لا تُدْخِلوا في بناء هذا البيت مكسبًا حرامًا من كسب بغي أو مظلمة أو ربًا»، يدلنا هذا علىٰ أن العرب كانوا يدركون دناءة كسب الربا وقبحه وعاقبته؛ بل وحُرمته؛ ولذلك فهم يَحْذَرُونه في بناء الكعبة، ماذا نقول عندما نرىٰ العرب قبل أن يكرمهم الله بنعمة الإسلام يعرفون دناءة الكسب الربوي، ويحرصون علىٰ تطهير أمورهم المهمة منه، إلىٰ درجة أنهم يتركون جزءًا من الكعبة بدون بناء، ولا ينتفعون بهذا المال الربوي، ويرون أن هذا أهون من أخذ الربا، واليوم بعد أن مَنَّ الله علىٰ الأمة بالإسلام، وفتح الله لهم أبواب الخيرات، ورزقهم الأموال، إذا بالربا ينتشر بين المسلمين، ويصبح أمرًا غير منكر أن يكون لبعض المسلمين مساهمة في بنك أو شركة تعتمد الربا أساسًا لكسبها، أو يأخذ قرضًا ربويًّا!!

كفار مكة يجمعون علىٰ دناءة الربا، ويتحرزون من إدخال كسبه في عمارة الكعبة، وفي الأمة الإسلامية من يتعاطىٰ الربا في مطعمه ومشربه، ومطعم أولاده ومسكنهم، ما الجديد الذي أضافه لنا الدين إذا كنا لم نسمع لتوجيهاته في أمر كان محترزًا حتىٰ في الجاهلية؟

٦. تأملت في الروايات التي نقلت لنا خلاف قبائل قريش بناة الكعبة، علىٰ وضع الحجر في مكانه، كل قبيلة تريد نيل هذا الشرف، ووجدت أنهم اتفقوا علىٰ أول داخل عليهم.

لكن هل يكون حكمًا بينهم؟

أو يكون له هو حق وضع الحجر، وينتهي النزاع؟!

الوارد روايتان، هذه، وهذه، لكني أميل -والله أعلم -إلىٰ أن قريشًا اتفقوا علىٰ أن أول داخل له حق وضع الحجر في مكانه، والذي يجعلني أُغَلِّب هذا الرأي، أن كلتا الروايتين مقبولة حديثيًّا، لكن الذي وقع عمليًّا -كما يظهر- مِن فِعل الرسول ﷺ يرجّح الثانية، فالذي يظهر من الروايات أن الرسول ﷺ هو الذي رفَع الحجر من الأرض ووضعه علىٰ الرداء، ثم هو الذي تناوله من الرداء بعد أن رفعته القبائل، ووضعه في مكانه.

أما لو كان المطلوب منه أن يحكم بينهم فقط، فالظاهر أنه ليس للمحكَّم أن يباشر العمل محل النزاع شخصيًّا، بأن يضع الحجر بنفسه؛ بل المطلوب منه بصفته محكَّمًا، أن يفصل في النزاع، ويحكم بينهم بطريقة عادلة منصفة، مَرْضِيَّة تُمكّنهم هم من تنفيذ العمل.

ثم إن تفويض وضع الحجر لأول داخل، ويكون هو محمد ﷺ، ويتمكن من أن يخص نفسه بشيء عظيم، يبقىٰ له ذِكْره، ومع ذلك، يتصرّف بهذه التصرف الحكيم الذي أَكْرَم به كل القبائل وأرضاهم وأدخلهم في شرف المشاركة في وضع الحجر. أظن أن هذا أعلىٰ مقامًا، وأقرب للحقيقة والواقع من الرأي الآخر القائل بأنهم فوّضوه في التحكيم فقط.

٧. لم يكن دخوله ﷺ في هذا الوقت مصادفة؛ بل ظاهر فيه- والله أعلم- التدبير الإلهي، صنعه الله -جل شأنه- لنبيه محمد ﷺ وهو القائل جل شأنه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]. فالله -جل شأنه- يحوطه ويدبّر أمره لما يهيؤه له من القيام بالرسالة العظمىٰ للبشرية.

٨. إن الرأي الجماعي الذي صدر بديهة من القرشيين وهم حول الكعبة حينما أقبل محمد ﷺ، وقالوا جميعًا: (رضينا جاء الأمين، رضينا جاء محمد)؛ هذا الرأي في محمد ﷺ لا بد أن نقف عنده، ونقول: إن اقتناع الناس بك مهم جدًّا

للسماع منك، فالاختلاط بالناس، والتعرف عليهم والتعامل معهم، أساس للداعية إلىٰ الله، ولو أن محمدًا ﷺ دخل عليهم في هذه السن (٣٥ سنة) وهم لا يعلمون عنه شيئًا لما رحبوا به، ولما فرحوا لمقدمه عليهم، ولكنه ﷺ كان شخصًا معروفًا مشتهرًا بالذكر الحسن، والمخالطة المحمودة والثناء الجميل، ولم يكن بالشخص المنعزل عن مجتمعه، المنطوي علىٰ نفسه الذي لا يَعْرِفُ ولا يُعْرَفُ، ثم يريد بعد ذلك الإصلاح، ويريد القبول، ويريد التأثير، فالخطوة الأولىٰ للداعية أن يكون في الميدان حاضرًا عارفًا معروفًا مدركًا لأهمية الاختلاط بالمجتمع، محتسبًا الأجر في ذلك، ناويًا أن يكون هدفه من هذا الاختلاط الإصلاح، ولو كان هذا المجتمع يخالفه، فالرسول ﷺ كان رافضًا لما عليه الجاهلية قبل البعثة، كان رافضًا للأصنام، والطواف حولها، والذبح لها، مُعْرِضًا عن شرب الخمر، والزنا، وسائر أقذار الجاهلية، ولكنه لم يكن معتزلًا القوم، بل كان يشاركهم فيما يحل، ويعرفهم، ويعرفونه بالصادق الأمين، وهذا يبين لنا حدود الخلطة والعزلة، فلا العزلة الكاملة مطلوبة، والتي تجعل الشخص نكرة لا يعرفونه، ولا يقبلون منه، ولا الخلطة التامة أيضًا مقبولة التي تجعل الشخص فردًا منهم، يذوب فيهم، يفعل كل ما يفعلون؛ بل خلطة تقيم الصلة بهم، وتؤسس العلاقة النافعة البانية للاحترام والتقدير والقبول، وعزلة في سائر القضايا التي تخالف المعتقد والدين[1]. نَفْقه ذلك من خلال مشاركة النبي ﷺ لقومه مشاركة تجعله معروفًا لديهم من كثرة تعامله، وكثرة احتكاكه بهم، حتىٰ وصفوه نتيجة لذلك بالصدق والأمانة، ولو كان في هذه الخلطة المتزنة خطأ أو خلل لنزَّه الله -سبحانه وتعالىٰ- عنها نبيّه محمدًا ﷺ كما نزَّهه عن أدران الجاهلية التي كان معصومًا منها قبل البعثة.

---

(١) ولكن إذا فسد الزمان، وتغير الأحوال، وخشي الإنسان على نفسه، وأدرك أنه غير قادر على المحافظة على دينه بسبب الخلطة، فالعزلة مشروعة حينئذ. طالع القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ [الحديد:٢٧]. وعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف:١٠] (١٠/ ٣٦٠).

٩. ثم كيف يكون الشخص ذا تأثير في المجتمع؟! أذلك من خلال ثنائه على نفسه، أم ماذا؟ إن هذا التساؤل يقودنا إلىٰ الفائدة الثانية من هذا الموقف وهي:

إن من أهم الأسباب الدعوية المؤثرة: الأخلاق، فخُلق محمد ﷺ جعلهم يُرحّبون بمقدمه عليهم، ويفرحون برؤيته، ويُسَرّون؛ لكونه هو الحَكَم بينهم، ويرضون بحكمه قبل أن يحكم، وبعد أن حكم، وهذه شبيهة جدًّا باللّذَيْنِ سُجِنَا مع يوسف -عليه السلام-، فإنهما رأيا رؤيا، فجاءَا إلىٰ يوسف -عليه السلام- يقصّان عليه ما رأياه، ويسوّغان اختياره لعرض الرؤيا عليه دون غيره بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، قال -تعالىٰ-: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]؛ فجاءا إليه رغم أنه مسجون، والسجن محل تهمة، ورغبا في استفتائه، وذكرا السبب وهو أنهما رأيا عليه سيما وعلامات الإحسان في سلوكه وأخلاقه، وهذا هو واجب الداعية: التميز في الأخلاق الحسنة والمعاملة الفاضلة؛ ليعرفه الناس، وليأتوا إليه، وليسمعوا منه ويقبلوا رأيه ويتأثروا بدعوته.

١٠. هذا الحدث يبين مكانة محمد ﷺ في قومه، فقد تلقاه الجميع في موقف وضع الحجر مكانه بالرضا وقالوا: رضينا، جاء الأمين، ولما بُعِثَ قالوا: ساحر، كاهن، كذاب، إلىٰ آخر الألقاب السيئة التي كانوا يصفون بها محمدًا ﷺ، فهو عندما يتحدث عن أمور دنياهم صادق، مرضي، وعندما يتحدث عن أمور دينهم، يصبح الصادق الأمين كذابًا ساحرًا كاهنًا، فقولهم هذا حجة عليهم أولًا، وهو أيضًا يعطينا درسًا أن المؤمن إذا واجه الناس في أمور دينهم فلن يسكتوا، فإذا كان كفار قريش قد قالوا للصادق الأمين لديهم، أنه ساحر كذاب، فماذا سيقول أمثالهم وأحفادهم لمن هو دون ذلك؟ فلا ينزعج الشخص، ولا يتأثر عندما يسمع كلمات وأوصاف الناس عنه؛ وليعلم أن السبب أنه تكلم في أمر من أمور دينهم، وليس لعيب فيه.

١١. قلنا من قبل: إن حادثة الفيل أبرزت قريشًا علىٰ سائر القبائل وميزتها، وأصبحت قريش رمزًا وعلمًا من بين قبائل العرب؛ واليوم في حادثة بناء الكعبة تتم الخطوة الثانية بتتويج محمد ﷺ علىٰ هذا الرمز، فحادثة الفيل ميزت قريشًا ورفعتها، وحادثة بناء الكعبة ميزت محمدًا ﷺ علىٰ قريش، ورفعته عليهم، وذلك كله تمهيدًا للبعثة التي دنت، وأزف موعدها، يقول محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة: (وقد ازداد النبيﷺ منزلة فوق منزلته، وقدرًا فوق قدره، وأصبح أحدوثة العرب في كل نادٍ ومجلس)[1].

١٢. في حادثة الكعبة مقدمة من مقدمات النبوة؛ فالذي حال بين قريش وبين إراقة دماء بعضهم لبعض اليوم، هو الذي سيجمع القوم بعد نزاعهم، وفُرقتهم، وهو الذي سيجمع الأمة العربية، وسيُوحّدها مع سائر الأمم تحت لواء الإسلام.

١٣. وقع اختلاف بين الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في إعادة بناء الكعبة علىٰ قواعد إبراهيم -عليه السلام-، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما ولي ابن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- شاور الناس في ذلك فمنهم من رأىٰ ذلك مصلحة، ومنهم من أشار عليه بأن لا يفعل، وقال: هذه الكعبة هي التي كانت علىٰ عهد النبي ﷺ وعليها أسلم الناس، وهذا كان رأي ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- وطائفة، والفقهاء متنازعون في هذه المسألة؛ فمنهم من يرىٰ إقرارها كقول ابن عباس وهو قول مالك وغيره، ويقال: إن الرشيد شاوره أن يفعل كما فعل ابن الزبير، فأشار عليه أن لا يفعل، ورأىٰ أن هذا يُفْضِي إلىٰ انتقاص حرمة الكعبة باختلاف الملوك في ذلك، هذا يهدمها ليبنيها كما فعل ابن الزبير، وهذا يرىٰ أن يُعيدها كما كانت، ومنهم من يرىٰ تصويب ما فعله ابن الزبير، ويقال: إن الشافعي يميل إلىٰ هذا)[2].

(١) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية ص ٢٢٩.

(٢) ابن تيمية، الرد على المنطقيين (بيروت: دار المعرفة) (ص٥٠٣).

لكن هذا الخلاف لم يستمر، فقد استقر أمر الأمة على المنع من التعرض للكعبة بالهدم وإعادة البناء، يقول أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالى- وهو من فقهاء المالكية-: (واستحسن الناس هذا من مالك، وعملوا عليه، فصار هذا كالإجماع. على أنه لا يجوز التعرض له بهد أو تغيير)[1]. وأيد ذلك ابن حجر الهيتمي -رحمه الله تعالى- وهو من فقهاء الشافعية بقوله: (واستحسن الناس هذا من مالك وأثنوا عليه به؛ فصار كالإجماع على منع تغيير بنائها؛ بل نقل عن الزهري أن عبد الملك أراد هدم بناء الحجاج - لما بلغه وصح عنده أن ما فعله ابن الزبير هو الحق الموافق لما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا حدثان قريش بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إبراهيم»؛ فمنعه الزهري من ذلك؛ نظير منع مالك الرشيد)[2].

١٤. فيما جرى للرسول ﷺ أثناء نقله للحجارة مع عمه العباس -رضي الله تعالى عنه-، من وضعه لإزاره على رقبته، ثم ما جرى له بعد ذلك، يدلنا على ما كان للرسول ﷺ من حفظ وعناية منذ صغره، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: (وذكر ابن إسحاق -رحمه الله تعالى- في المبعث، وكان رسول الله ﷺ فيما ذُكر لي يحدث عما كان الله يحفظه في صغره أنه قال..)[3]، ثم ذكر القصة، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الموضوع في المبحث التالي.

(١) القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٣/ ٤٣٩). وهو من فقهاء المالكية.
(٢) ابن حجر الهيتمي، الفتاوى الفقهية الكبرى، جمعها: تلميذه عبد القادر الفاكهي (المكتبة الإسلامية)، (١/ ١٣٧). وهو من فقهاء الشافعية.
(٣) ابن حجر، فتح الباري ٧/ ١٤٦.

المبحث الخامس عشر

صور من حفظ الله -سبحانه وتعالى- لنبيه محمد ﷺ قبل البعثة

نشأ ﷺ في مجتمع جاهلي وصفه جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهو يتحدّث أمام النجاشي فقال -وقد أوجز وأبلغ-: (كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام. ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف)[1].

ومع هذه البيئة البالغة في السوء يقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- عن الرسول ﷺ (فشبَّ رسول الله ﷺ والله -تعالىٰ- يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتىٰ بلغ أن كان رجلًا أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خُلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حِلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تُدنّس الرجال تنزهًا وتكرمًا، حتىٰ ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة)[2].

(كان يخرج إلىٰ الصبيان وهم يلعبون فيتجنبهم)[3]. وكانت سيرته ﷺ قبل البعثة مثالًا للحياة الفاضلة الشريفة، محفوظًا بحفظ الله -جل شأنه- في عقيدته وفي خُلقه، وفي تعامله. ناشئًا علىٰ أسمىٰ الأمور، قولًا وعملًا:

أولًا: حِفْظ الله نبيه ﷺ من الشرك وعبادة الأصنام: فقد حفظ الله -جل شأنه- فطرته التي وُلد عليها، فكان علىٰ التوحيد نقي القلب، يوقن بأنه لا معبود

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٩٠).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٦٧).

(٣) الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (١/ ٣٣٩).

بحق إلا الله -سبحانه وتعالىٰ-، مزدريًا لتلك الأصنام التي يعبدها قومه، وما شابهها من اعتقادات جاهلية، كالاستقسام بالأزلام، يدرك أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئًا، قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلدوا، ونشأتهم علىٰ التوحيد والإيمان)(١).

عن العرباض بن سارية -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم -عليه السلام- لمُنْجَدِل(٢) في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسىٰ بي، ورؤيا أمي التي رأت»(٣). قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد استدل الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- بحديث العرباض بن سارية -رضي الله تعالىٰ عنه- هذا علىٰ أن النبي ﷺ لم يزل علىٰ التوحيد منذ نشأ، وردَّ بذلك علىٰ من زعم غير ذلك)(٤).

يَذْكرُ مولاه زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه كان مع الرسول ﷺ يومًا قبل البعثة، وكان هناك صنم من نحاس يقال له: إساف ونائلة(٥)، يتمسح به

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (بيروت: دار الفكر الطباعة والنشر ١٤٠٩)، (٢/ ١٠٩).

(٢) (وإن آدم لمُنْجَدلٌ؛ أي: لملقى على وجه الأرض. «في طِيْنَتِهِ»؛ أي: في خلقته). شرح المصابيح للكرماني (٦/ ١٩٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨/ ٣٨٠) رقم (١٧١٥٠)، وقال المحقق: «حديث صحيح لغيره».

(٤) ابن رجب، لطائف المعارف (١/ ٨١).

(٥) قال ابن هشام في السيرة ١/ ١٣٥): (قال ابن إسحاق: وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة من جرهم، هو: إساف بن بَغْي ونائلة بنت ديك، فوقع إساف على نائلة في الكعبة: فمسخهما الله حجرين. وقال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنها قالت: سمعت عائشة -رضي الله عنها- تقول: ما زلنا نسمع أن إسافا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة: فمسخهما الله تعالى حجرين -والله أعلم). ومعنى أحدثا فجرًا.

المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ بالكعبة، يقول زيد: (وطفت معه، فلما مررت مسحت به أي (بالصنم)؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه»؛ فقلت في نفسي: لأمسنه حتىٰ أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ؟» فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا حتىٰ أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[1].

عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: حدثني جارٌ لخديجة بنت خويلد -رضي الله تعالىٰ عنها- أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «أي خديجة، والله لا أعبد اللات، والله لا أعبد العزىٰ أبدًا» قال: فتقول خديجة: خلِّ اللات، خل العزىٰ[2].

ثانيًا: حِفْظ الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ من مساوئ الأخلاق: ١- لم يشرب خمرًا قط، ولا اقترف فاحشة، ولا شارك في ميسر أو لهو عابثٍ باطلٍ[3]. مع أنه كان ﷺ يخالط قومه، ويعيش معهم، ويشاركهم في سائر أمورهم العادية المباحة. فقد كان هناك عصمة من ربه تحميه ﷺ من المساوئ الخُلقية، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: (لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس -رضي الله تعالىٰ عنه- ينقلان الحجارة، فقال عباس -رضي الله تعالىٰ عنه- للنبي

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة ٢/ ٣٤، والحاكم في «المستدرك (٣/ ٢٣٨) رقم (٤٩٥٦)، وقال: (صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ومن تأمل هذا الحديث عرف فضل زيد وتقدمه في الإسلام قبل الدعوة). ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. والذهبي، سير أعلام النبلاء – السيرة النبوية)، (١/ ٧٣)، وقال: (هذا حديث حسن) وابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٨٨). وقال الألباني: إسناده حسن. انظر «صحيح السيرة النبوية» (ص ٣٢). وانظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني ص ٤٦، حيث قال: حديث حسن.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٩ / ٤٧٦) رقم (١٧٩٤٧)، وقال محققه: (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير جار خديجة فلم يرو له غير المصنف هذا الحديث الواحد، وهو صحابي، وجهالته لا تضر)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٥) رقم (١٣٨٦١): (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح). وقولها له: خل اللات: تقريرًا له على ما قال.

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٠-١٣١).

ﷺ: اجعل إزارك علىٰ رقبتك يقك من الحجارة، فخرَّ علىٰ الأرض، وطمحت عيناه إلىٰ السماء، ثم أفاق: «إزاري، إزاري»، فشد عليه إزاره)[1].

٢- عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمّون به من الغناء إلا ليلتين؛ كلتاهما عصمني الله -سبحانه وتعالىٰ- فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبْصِر لي غنمي حتىٰ أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان، فقال: بلىٰ، قال: فدخلت حتىٰ إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة فجلست وضرب الله -تعالىٰ- علىٰ أذني، فو الله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلىٰ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرىٰ: أبصر لي غنمي حتىٰ أسمر بمكة، ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فسألت، فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر وضرب الله علىٰ أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلىٰ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فو الله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتىٰ أكرمني الله -عز وجل- بنبوته»[2].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع فتح الباري ٧/ ١٤٥، كتاب مناقب الأنصار.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة ٢/ ٣٤، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق التركي ٣/ ٤٤٧، وقال ابن كثير بعدها: هذا حديث غريب وقد يكون عن عليّ نفسه، ويكون قولـه في آخره، حتى أكرمني الله -عز وجل- بنبوته مُقحَمًا، والله أعلم، والشامي، سبل الهدي ٢/ ١٤٨، وقال: (رواه ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه والبزار وابن حبان، قال الحافظ: وإسناده حسن متصل، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٤٥ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ٨ / ٢٢٦: رواه البزار ورجاله ثقات. وضعفه الألباني في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي في فقه السيرة (ص١٣و١٤، انظر: محمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ص٣٨و٣٩؛ حيث حسَّن هذا الحديث. وقد سبق إيراد هذا الحديث مع التخريج في رعيه ﷺ للغنم.

ثالثًا: حفظ الله -جل شأنه- لنبيه من الخطأ في عباداته وعدم مجاراة الجاهلية في التحريف في العبادات: يقول جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه-: أضللت بعيرًا لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفًا مع الناس بعرفة فقلت: (هذا من الحمس[1]، فما شأنه هاهنا)[2].

وذلك أن قريشًا كانوا يقفون بمزدلفة يوم عرفة، ولا يخرجون خارج الحرم إلىٰ عرفات يتميزون بذلك عن سائر الناس، فهدىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ للصواب في المناسك، قبل البعثة النبوية.

رابعًا: توفيق الله -جل شأنه- لنبيه للتمسك بمحاسن الأخلاق: كان الرسول ﷺ معروفًا بالصدق، مشتهرًا بذلك بين أهل مكة، يؤكد هذا أن الرسول ﷺ بعد البعثة، صعد الصفا فهتف يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذبًا، قال: فإني نذير لكم بين عذاب شديد»[3]؛ فقريش في موقف عام، يقولون بصوت واحد: (ما جرّبنا عليك كذبًا)، فأنت معروف بالصدق من صِغَرك.

والخلاصة من ذلك كله أن الرسول ﷺ لم يكن فقط بعيدًا عن مساوئ الأخلاق؛ بل كان الرسول ﷺ حائزًا علىٰ المعالي من أحاسن الأخلاق، نشأ منذ صغره موحدًا لربه، متسنمًا ذروة الأخلاق، مشتهرًا بذلك معروفًا به بين قومه.

---

(١) الحمس بضم المهملة وسكون الميم بعدها مهملة: الأحمس الشديد في دينه، وكانت قريش تسمى الحمس، وكانت لا تجاوز الحرم ويقولون: نحن أهل الله لا نخرج من الحرم، وكان سائر الناس يقفون بعرفة، وهم يقفون في مزدلفة، ابن حجر، فتح الباري ٣/ ٥١٦.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣/ ٥١٥، حديث رقم ١٦٦٤، كتاب الحج، باب: الوقوف بعرفة، وصحيح مسلم، كتاب الحج ٢/ ٨٩٤، حديث رقم ١٢٢٠.

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨/ ٣٣٧، حديث رقم ٤٤٧١، كتاب التفسير، باب سورة تبت يدا أبي لهب.

محفوظًا مسددًا من ربه -جل شأنه-، وقد قال -تعالىٰ- عنه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨].

نأخذ مما سبق:

١) أن النبي ﷺ كان متمتعًا بخصائص البشر كلها، فهو شابّ كسائر الشباب، يخالط القوم ويتعامل معهم، ويشعر بما يشعر به الشباب، وتُحدّثه نفسه بما تحدث به نفوس الشباب في الأمور العادية الفطرية. وقد قال الله -تعالىٰ- عنه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ [إبراهيم:١١].

٢) أن الله -سبحانه وتعالىٰ- قد حفظ له توحيده، وعصمه من جميع مظاهر الانحراف، فهو قبل أن تأتيه العصمة مِن قِبَل الوحي أيضًا لديه عاصم آخر من الله -سبحانه وتعالىٰ- يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه النفس، أو قد يميل إليه بسبب ضغوط مجتمعه، فيُعصَم منه، ويُحَال بينه وبينه قبل الوقوع فيه.

٣) أنه عاش ﷺ في شبابه متميزًا بالأخلاق الحسنة الفاضلة وسلامة الفطرة التي تنفر، وتمقت كل صور الوثنيات والشركيات والخرافات، فنشأ نقيًّا نزيهًا نظيفًا معروفًا بالصدق والأمانة، وكلها تُمهّد للرسالة التي سيحملها ﷺ. يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (إنه ﷺ كان مصونًا عما يُستقبح قبل البعثة وبعدها)[1].

٤) وجود هذه الصفات في الرسول ﷺ بعناية إلهيةٍ، وارتباطها ببعثته ﷺ تدلنا علىٰ أهمية هذه الأخلاق للداعية؛ ولذلك فاستقامة الداعية، وحرصه علىٰ الصدق والأخلاق الفاضلة عوامل مهمة جدًّا في إصغاء الناس له، فلا يجد الحاقد ولا الناقد مغمزًا يغمز به الداعية بشيء سابق في حياته.

(١) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٤٧٥).

٥) كان من اليسير أن يولد الرسول ﷺ وقد نُزعت منه محبّة ما يحبه الشباب من الرغبة في اللهو، والتهاون في التعري، وينشأ بعيدًا عن ذلك، ولكن قد يُفهَم هذا علىٰ أنه انطواء وانعزال عن المجتمع، ومركب نقص في الشخص، لكن أن توجد هذه الميول فيه، ثم يُعصَم عن السوء، ويُحال بينه وبين الخطأ، فهنا يتبين التمايز والكمال الخاص به ﷺ.

٦) أنكر العلماء الرواية التي تشير إلىٰ أن الرسول ﷺ كان يشهد مع المشركين مشاهدهم وبينوا عدم ثبوت شيء منها، ومع ذلك استدل القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- بدليل نظري علىٰ عدم مشاركة الرسول ﷺ قومه قبل البعثة في جاهليتهم؛ فقال: (وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبينا بكل ما افترته، وعيَّر كفارُ الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص الله -تعالىٰ- عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحدٍ منهم برفضه آلهته وتقريعه بذمِّه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا، لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم علىٰ الإعراض عنه، دليل علىٰ أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه؛ إذ لو كان لنُقِلَ وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] كما حكاه الله عنهم)[١].

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١١٠).

الفصل الثاني

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾

مقدمة

في هذا الفصل سأتحدث -بإذن الله تعالىٰ- عن جزء مهم من سيرة المصطفىٰ الكريم ﷺ -وكلها مهمة-. يبدأ مع بداية البعثة النبوية منذ ظهور مقدماتها عند الرسول ﷺ حتىٰ تمت هذه المقدمات، واستبان الأمر، بنزول ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ والتي بها أصبح محمد ﷺ نبيًّا رسولًا مبعوثًا للثقلين الجن والإنس.

وقد تضمّنت هذه المباحث الحديث عن مقدمات البعثة النبوية، ثم بدء الوحي، وأمر الرسول ﷺ بالبلاغ وتحمل الرسالة، وحال الأميين الذين خاطبهم الرسول ﷺ أولًا بهذه الرسالة، وعرض لجوهر هذه الرسالة المباركة.

ثم بيان للخطوات الأولىٰ في الدعوة، والتي كان الرسول ﷺ مستخفيًا فيها، حتىٰ لا يهيج القوم عليه، وبدأ باتخاذ دار الأرقم مقرًّا لتعليم الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- أمور الدين الجديد.

ولما تكوَّن مع الرسول ﷺ عدد من الصحابة السابقين للإسلام -رضي الله تعالىٰ عنهم-، اقتضت مصلحة الدعوة توسيع الدائرة، والانتقال بها إلىٰ خطوة أوسع، فنزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾. ولما تمثله هذه الآية من توجيه جديد يقتضي خطابًا آخر، فإنها ستكون بداية الحديث في الفصل الثالث الذي يلي هذا الفصل -إن شاء الله تعالىٰ-، والله الموفق.

المبحث الأول

مقدمات[1] البعثة النبوية

يمكن تقسيم مقدمات البعثة النبوية الشريفة إلىٰ مسألتين:

المسألة الأولىٰ: في المقدمات الخاصة.

المسألة الثانية: في المقدمات العامة.

■ **المسألة الأولى: المقدمات الخاصة والمقصود به المتعلقة بشخص الرسول ﷺ، ويمكن أن نشير إلى ثلاث منها:**

أولًا: محبته ﷺ للخلاء للتعبُّد.

الثانية: تسليم الحجر عليه ﷺ.

الثالثة: الرؤيا الصادقة.

ونتحدث عنها علىٰ ذات الترتيب.

---

(١) رأيت عددًا ممن كتب في السيرة يُعَنون هذا المبحث بعبارة (الإرهاصات) أو (إرهاصات البعثة) والإرهاص شرعًا: الأمرُ الخارِقُ للعادة يظهر للنبي قبل بعثته» انظر في هذا التعريف: الهرري في الكوكب الوهاج (٢٣/ ١٢)، والمعجم الوسيط (١/ ٣٧٧) والتعريفات للجرجاني (ص ١٦). والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (الطبعة الأولى ١٤١٠) (ص ٤٦)، والكليات للكفوي، تحقيق عدنان درويش (بيروت: مؤسسة الرسالة) (ص ٧٨). وكثير مما يذكره بعض أهل السير تحت عنوان الإرهاصات، ليس خارقًا للعادة، أو أنه غير متعلق بذات النبي، كالخلوة، وحديث اليهود والنصارى، والرؤيا الصادقة وغيرها، ولذلك فربما تسميتها بمقدمات أصوب، والله أعلم.

أولًا: محبته ﷺ للخلاء للتعبد:

قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦]؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك)[١]. وقال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (أي ما كنت تطمع أن تنال النبوّة، ولا أن ينزل عليك الكتاب)[٢].

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (أي: لم تكن متحريًا لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعدًّا له، ولا متصديًا)[٣]. فلم يكن الرسول ﷺ يتوقع أن ينزل عليه كتاب، ولا أن يكون نبي هذه الأمة.

وإنما كان الرسول ﷺ علىٰ دين إبراهيم -عليه السلام-، من التوحيد وبُغْض الشرك والإيمان بالله -سبحانه وتعالىٰ-.

قال -تعالىٰ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ:٥٢].

قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (المقصد بهذا شيئان: أحدهما تعداد النعمة عليه ﷺ بأن علَّمه الله ما لم يكن يعلم. والآخر احتجاج علىٰ نبوته لكونه أتىٰ بما لم يكن يعلمه ولا تعلَّمه من أحد، فإن قيل: أما كونه لم يكن يدري الكتاب فلا إشكال فيه، وأما الإيمان ففيه إشكال لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم؟ فالجواب أن الإيمان يحتوي علىٰ معارف كثيرة، وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه، وقد كان مؤمنًا

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦١).
(٢) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق عبد الله الخالدي، الطبعة الأولى، (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم١٤١٦) (٢/ ١٢١).
(٣) السعدي، تفسير السعدي (٦٢٥).

بالله قبل ذلك، فالإيمان هنا يعني به كمال المعرفة وهي التي حصلت له بالنبوة)[١].

فالرسول ﷺ قبل البعثة كان مؤمنًا بالله -جل شأنه-، لكن ليس علىٰ سبيل التفصيل الذي نزل به الوحي لاحقًا، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن الآية السابقة: (أي: علىٰ التفصيل الذي شرع لك في القرآن)[٢]. قال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (ومعنىٰ عدم دراية الكتاب: عدم تعلق علمه بقراءة كتاب أو فهمه. ومعنىٰ انتفاء دراية الإيمان: عدم تعلق علمه بما تحتوي عليه حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله وأصول الدين.. فانتفاء درايته بالإيمان مثل انتفاء درايته بالكتاب، أي انتفاء العلم بحقائقه، ولذلك قال: ما كنت تدري ولم يقل: ما كنت مؤمنًا. الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوءة فهم موحدون لله ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان، وكان نبينا ﷺ في عهد جاهلية قومه، يعلم بطلان عبادة الأصنام، وإذ قد كان قومه يشركون مع الله غيره في الإلهية فبطلان إلهية الأصنام عنده تمحضه لإفراد الله بالإلهية لا محالة.. وعلىٰ شدة منازعة قريش إياه في أمر التوحيد فإنهم لم يحاجّوه بأنه كان يعبد الأصنام معهم. وفي هذه الآية حجة للقائلين بأن رسول الله ﷺ لم يكن متعبدًا قبل نبوءته بشرع)[٣].

هذه حال الرسول ﷺ قبل البعثة، كان مؤمنًا بالله، لكنه لم يتشوف، ولم يستشرف للنبوة، وهذا يؤيد أن قصة بحيرىٰ وغيرها من القصص التي كان يُذكَر فيها أنه يقال للنبي ﷺ مباشرة، إنه نبي هذه الأمة، وأنها تكررت علىٰ الرسول ﷺ عدة مرات، فهذا الظاهر أنه لا يثبت -كما سبق أن أشرت- إذ لم يظهر أثر ذلك علىٰ النبي ﷺ، خاصةً عند فزعه مع نزول ﴿ٱقْرَأْ﴾ أول مرة ومجيئه إلىٰ أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- يرتجف فؤاده.

(١) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٢٥٣).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٧).
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥٢-١٥٣).

وقُبَيْل بلوغ النبي ﷺ أربعين سنة حُبِّب إليه الخلوة؛ وذلك لما في الخلوة من صفاء النفس وهدوء البال، والتفكر في ملكوت الله وعظيم خَلقه، وجليل قدرته، فكان يخلو بغار حراء[1].

تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[2]، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء[3]؛ فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها)[4].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٥٤)، ومحمد أبو شهبة، السيرة النبوية (١/ ٢٥٥).

(٢) قال النووي -رحمه الله- في شرح صحيح مسلم (٢/ ١٩٨): (قال أهل اللغة فلق الصبح وفرق الصبح بفتح الفاء واللام والراء هو ضياؤه، وإنما يقال هذا في الشيء الواضح البين).

(٣) قال الصالحي في سبل الهدى «المقدمة» (ص ١٣): «وحراء يُقصر ويُمدّ ويُصرف ويُمنع، وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المارّ إلى منى، له قلة مشرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية وما أحسن ما قال رؤبة بن العجاج:

فلا وربِّ الآمنات القطن ورَبِّ ركن من حراء منحني»

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (١٢/ ٣٥٥): (قال بن أبي جمرة الحكمة في تخصيصه بالتخلي فيه أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات الخلوة والتعبد والنظر إلى البيت). أما رؤية المسجد الحرام فهذا صحيح، فإن من بصعد إلى غار حراء الآن فإنه يمكنه مشاهدة المسجد الحرام واضحًا، وقد أخبرني بذلك بعض من صعد إلى هذا الغار، وللأسف يعتقد البعض أن في هذا الصعود فضيلة، ولو كان فيها فضل وأجر لفعله الرسول ﷺ ولأرشد أمته -وهو الناصح الأمين- إلى ذلك، ولرأينا الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يصعدونه، ولكن نتيجة الجهل، بعض الناس يسرعون في أعمال لا أصل لها ويتركون الكعبة والطواف بها، والصلاة في المسجد الحرام، مع أن أوقاتهم محدودة في أيام قلائل، لكونهم وفدوا من بلاد بعيدة للحج أو العمرة.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٦/ ١٧٣) رقم (٤٩٥٣) وصحيح مسلم رقم (١٦٠). قال القسطلاني -رحمه الله تعالى-: «ويحتمل أن يكون المراد أنه يتزوّد لمثلها إذا حال الحول، وجاء ذلك الشهر الذي جرت عادته أن يخلو فيه، قال في الفتح: وهذا عندي أظهر» إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الطبعة السابعة (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٣) (٧/ ٤٢٦). وورد في صحيح البخاري (١/ ٧) رقم (٣) بلفظ (الرؤيا الصالحة)، ولذلك فكل منهما تعبير شرعي سائغ.

وقال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة: (قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: وحدثني، وهب بن كيسان، مولىٰ آل الزبير. قال: سمعت عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي[1] -رحمه الله تعالىٰ-: حدثنا يا عبيد، كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين جاءه جبريل -عليه السلام-؟ قال: فقال عبيد -وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير، ومن عنده من الناس: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرًا، وكان ذلك مما تحنّث به قريش في الجاهلية. والتحنث: التبرر)[2].

فقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- يُشْعِر بأن تحبيب الخلاء للرسول ﷺ كان بعد الرؤيا الصادقة، ورواية ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- تدل علىٰ أن الرسول ﷺ استمر عدة سنوات في الذهاب إلىٰ غار حراء للخلاء والتحنث.

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله ثم حُبِّب إليه الخلاء هذا ظاهر في أن الرؤيا الصادقة كانت قبل أن يحبب إليه الخلاء، ويحتمل أن تكون لترتيب الإخبار فيكون تحبيب الخلوة سابقًا علىٰ الرؤيا الصادقة، والأول أظهر)[3].

والذي يظهر أن قول أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «حبب إليه الخلاء» هي عبارة دقيقة، فذهاب الرسول ﷺ للخلاء والتفكر استمر عدة سنوات، كما قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-، أما المحبة والتعلق بالخلاء والحرص عليه والرغبة فيه، فهذا كان بعد الرؤيا الصادقة، وعليه يكون الرسول ﷺ يذهب إلىٰ

(١) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي الجندعي المكي، الواعظ، المفسر. وُلد في حياة رسول الله ﷺ. وحدث عن: أبيه. وعن: عمر بن الخطاب، وعلي، وأبي ذر، وعائشة، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، -رضي الله تعالى عنهم وطائفة، وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة. وكان يُذَكِّر الناس، فيحضر ابن عمر -رضي الله عنهما- مجلسه. توفي: قبل ابن عمر بأيام يسيرة. وقيل: توفي في سنة أربع وسبعين. الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢١٨).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٧١٧).

الخلاء للتفكر شهرًا أو قريبًا منها لعدة سنوات -الله أعلم بعددها- ثم بعد ذلك أصبح يحب ذلك ويشتاق إليه، بعد أن ألفه، فهما مرحلتان، وعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تتحدث عن المرحلة الثانية، وهي المحبة، لا مجرد الخروج للخلاء، ويكون وقت الرؤيا الصادقة بين هاتين المرحلتين، وبذلك يتفق قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- ورواية ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-.

والتحنث لم يكن أمرًا جديدًا، بل كان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية[1]. وهذا كان من عادة المتعبدين في قريش أنهم يجاورون في حراء وغيره للعبادة، وقد كان عبد المطلب جد الرسول ﷺ ممن يتحنث في هذا الغار؛ بل ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- أن قريشًا لم ينازعوا النبي ﷺ في غار حراء مع رغبتهم في التحنث فيه؛ لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظّمونه لجلالته وكبر سنه؛ فتبعه علىٰ ذلك من كان يتأله، فكان ﷺ يخلو بمكان جده، وسلَّم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم[2].

وقد قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وثور ومن أرسىٰ ثبيرا مكانه ... وراق ليرقىٰ في حراء ونازل[3]

ولكن كان تحنُّث الرسول الله ﷺ ومحبته للخلاء والانفراد عن قومه، لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام[4].

وخلوته ﷺ كانت في الغالب في شهر رمضان من كل عام؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (فأصل الخلوة قد عُرفت مدتها وهي شهرٌ، وذلك الشهر كان رمضان؛

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ٤٢٥).
(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٥٥). والسيرة النبوية للحلبي (١/ ٣٣٩).
(٣) انظر: الصالحي، سبل الهدى والرشاد، المقدمة (ص ١٣).
(٤) انظر: الصالحي، سبل الهدى والرشاد المقدمة (ص ١٣).

رواه ابن إسحاق)[1] -رحمه الله تعالىٰ-.

وقد ذكر غير ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن بعض أهل السير، أن خلوته ﷺ قد تكون ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة شهرًا[2]. وإذا عاد من مجاورته بدأ بالطواف بالبيت، ثم انصرف إلىٰ منزله[3].

وقد تعددت الأقوال في كيفية تعبُّده ﷺ هذه المدة؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد اختلف العلماء في تعبُّده -عليه الصلاة والسلام- قبل البعثة؛ هل كان علىٰ شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل: شرع نوح -عليه السلام-، وقيل: شرع إبراهيم -عليه السلام- وهو الأشبه الأقوىٰ، وقيل: موسىٰ -عليه السلام-، وقيل: عيسىٰ -عليه السلام-، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به)[4]. والقول في هذا الشأن بدون دليل لا اعتبار له.

وقال الغزالي -رحمه الله تعالىٰ-: (إنه ﷺ قبل مبعثه هل كان متعبدًا بشرع أحد من الأنبياء؟ فمنهم من قال: لم يكن متعبدًا، ومنهم من قال: كان متعبدًا، ثم منهم من نسبه إلىٰ نوح -عليه السلام-، وقوم نسبوه إلىٰ إبراهيم -عليه السلام-، وقوم نسبوه إلىٰ موسىٰ، وقوم إلىٰ عيسىٰ -عليهما السلام-، والمختار أن جميع هذه الأقسام جائز عقلًا، لكنَّ الواقع منه غير معلوم بطريق قاطع، ورجم الظن فيما لا يتعلق به الآن تعبد عملي، لا معنىٰ له)[5].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يأتِ التصريح بصفة تعبده، لكن في رواية عبيد بن عمير -رحمه الله تعالىٰ- عند ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فيُطعم

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٣).
(٢) انظر، الحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٣٣٨).
(٣) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية (٣/ ٥).
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية (٣/ ٦).
(٥) الغزالي، المستصفى، الطبعة الأولى (مصر: المكتبة التجارية ١٣٥٦هـ)، (١/ ١٣٢).

من يرد عليه من المساكين)، وجاء عن المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكير، ويحتمل أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أطلقت علىٰ الخلوة بمجردها تعبدًا؛ فإن الانعزال عن الناس، ولا سيما من كان علىٰ الباطل من جملة العبادة كما وقع للخليل -عليه السلام- حيث قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩])[١].

وقال الزرقاني -رحمه الله تعالىٰ- في شرح المواهب: (لم يأتِ تصريح بصفة تعبده ﷺ بحراء، فيحتمل أنه أطلق علىٰ الخلوة بمجردها تعبدًا، فإن الانعزال عن الناس، ولا سيما من كان علىٰ باطل، عبادة، وعن ابن المرابط وغيره، كان يتعبد بالفكر، وهذا علىٰ قول الجمهور)[٢].

وقال الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان يصعد إلىٰ الغار -عليه الصلاة والسلام-، ويتحنث ويتعبد لله -عز وجل- بما فتح الله عليه)[٣].

وقال الأستاذ محمد صادق عرجون -رحمه الله تعالىٰ-: (وقيل: كان يتعبد بالفكر، وهذا هو قول الجمهور، والذي نميل إليه أن تعبده ﷺ في خلواته قبل البعثة كان أساسه التفكر في آيات الله، ومنها ما كان من ملة إبراهيم، وإسماعيل -عليهما السلام-، ودليل ذلك التزامه ﷺ بتعظيم الكعبة المشرفة، والطواف بها)[٤].

ومع هذه الإطالة في النقل من نصوص كلام أهل العلم، إلا أنني أرىٰ أنه يكفي أن نعلم أن الرسول ﷺ كان يخلو ليتعبد الله -جل شأنه-، أما الكيفية، فالله أعلم بها، وهو ما أشار إليه الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: إنه كان يتعبد بما فتح الله عليه.

ويكفينا هذا، إذ الكيفية ليس لها أثر شرعي الآن. والله أعلم.

(١) ابن حجر ، فتح الباري (٨/ ٧١٧).
(٢) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية للقسطلاني، الطبعة الأولى (د.ت. د. ن)، (١/ ٢٥٤).
(٣) ابن عثيمين ، تفسير جزء عم (ص ٢٥٦).
(٤) محمد صادق عرجون، السيرة النبوية (١/ ٢١٦ - ٢١٧).

ماذا نستفيد من خلوة الرسول ﷺ؟

١. إن الرسول ﷺ لم يكن يتوقع أو ينتظر، أو يستشرف أن يكون نبي هذه الأمة، وذلك حسب ما يُفهم من دلالة الآيات التي سبق سياقها، وهذا يُضعف قول من يقول: إن الرسول ﷺ أُخبر في أكثر من مناسبة أنه نبي هذه الأمة، ولو أن هذا المعنىٰ تكرر عليه من أشخاص لهم مكانتهم العلمية، لوجدنا الرسول ﷺ يتوقع ذلك وينتظره، ويفسر به ما كان يجده من مقدمات.

٢. إن الرسول ﷺ كما تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- حُبِّب إليه الخلاء، والناظر في أحوال الناس في ذلك الوقت، وخاصة المتحنثين الذين رفضوا الشرك وعبادة الأصنام وتحدثوا عن التوحيد وخالفوا أقوامهم كأمثال ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل -رحمهما الله تعالىٰ-، نجد أنهم اتجهوا إلىٰ بعض أهل العلم يطلبون الحقيقة عندهم فورقة اتجه إلىٰ اليهود والنصارىٰ وقرأ في التوراة والإنجيل بحثًا عن الحقيقة، وزيد بن عمرو بن نفيل سافر إلىٰ الشام يبحث عن الحقيقة أيضًا. أما محمد ﷺ فقد حفظه الله؛ بل عصمه الله -جل شأنه- من أن يسلك مسلك هؤلاء، وحبب الله إليه الخلاء، يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد. وعليه فإن هذا التدبير هو تدبير إلهي، وعصمة من رب العالمين لمحمد ﷺ، من أن يتصل بأحد بحثًا عن الحقيقة، وماذا سيقول أعداء الإسلام لو أن الرسول ﷺ اتجه اتجاه ورقة أو زيدٍ في البحث عن الحقيقة؟ سيقولون إنما تعلم من اليهود والنصارىٰ. وقد قالوا ذلك وهو ﷺ، لم يلتقِ بأحد؛ قال -تعالىٰ- مخبرًا عن مقالتهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]. فهداه الله -سبحانه- إلىٰ الخلوة، التي لا يد لبشر فيها، بل صُنْعٌ وتدبيرٌ وتربيةٌ ربانية له ﷺ، يخلو فيها بنفسه متأملًا، ومتعبدًا وفق ما يفتح الله عليه به.

٣. إن الرسول ﷺ كانت خلوته ﷺ في الغار قبل البعثة، أما بعد البعثة فقد تغيرت وأصبحت خلوة من نوع آخر لها صفتان:

الأولىٰ: الخلوة الليلية المتكررة هي التهجد، وقيام الليل حين ينام الناس، وكان هذا التهجد فرضًا علىٰ محمد ﷺ وأمته، ثم أصبح مستحبًا بعد ذلك علىٰ الأمة[١].

فالخلوة المقصودة هنا ليست خلوة الصوفية وطرقهم المنحرفة، التي فيها قصد الغيران والأودية والدور الخربة.

بل هي قيام الليل عندما ينام الناس وينزل الرب -سبحانه وتعالىٰ- كما في حديث أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا -تبارك وتعالىٰ- كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»[٢].

وقد قال -تعالىٰ- للرسول ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١-٦]؛ فقيام الليل وترتيل القرآن هو خلوة الرسول ﷺ.

أما الخلوة الثانية: فهي التي حافظ عليها الرسول ﷺ لعدة سنوات في المدينة في رمضان فهي سنة الاعتكاف.

والاعتكاف: هو لزوم مسجد لطاعة الله، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومن هذه الآية نعرف أن الاعتكاف مشروع حتىٰ في الأمم السابقة.

وقد اعتكف الرسول ﷺ واعتكف أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-[٣].

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٣٤.
(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٢١، حديث رقم ٧٥٨.
(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٨١٣، وصحيح مسلم ١١٦٧.

واعتكف أزواجه من بعده[1]. والسنة العملية المتكررة من الرسول ﷺ هي اعتكافه في شهر رمضان طلبًا لليلة القدر[2].

وفي الاعتكاف التفرُّغ للطاعات الخاصة، كالصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، وما أشبه ذلك[3].

٤. أهمية الخلوة في حياة المسلم، يخلو فيها إلىٰ نفسه، ويراجع عمله، وينظر في تقصيره، في حق ربه -سبحانه-، وكيف السبيل لتزكية نفسه، وترقية إيمانه، وتقويم سلوكه، ويفكر في مصيره ومآله، وما يجب عليه للاستعداد لما أمامه، ويستفاد من هذه الخلوة ما يلي:

أ. الاطلاع علىٰ آفات النفس، من عُجْب، وكِبْر، وحَسَد، ورياء ونحوه، والمبادرة إلىٰ الاستغفار، والتوبة، والإصلاح، والرجوع إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ب. ذِكْرُ الله -سبحانه وتعالىٰ- والأنس به، وتَذَكُّر الجنة والنار والآخرة ومصير الإنسان، وما في ذلك من آثار علىٰ الطاعة، والبعد عن المعصية.

ووسيلة ذلك -كما أشرت في خلوة الرسول ﷺ قيام الليل، فهذه هي خلوة المسلم الليلية، أما السنوية فهي الاعتكاف في المسجد. والمقصود بها التفرُّغ لعبادة الله -سبحانه- والاستعانة بهذه العبادة لمزيد من الطاعة ومواجهة أمور الدنيا.

وهذا مهم جدًّا للمسلم، بعامة، وللداعية إلىٰ الله بخاصة، وقيام الليل دأب الصالحين، يقول إبراهيم بن أدهم -رحمه الله تعالىٰ- عن قيام الليل: (نحن في لذة

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٢٠٢٦) وصحيح مسلم (١١٧٢)، من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) صحيح البخاري (٨١٣)، وصحيح مسلم (١١٦٧).

(٣) انظر: ابن عثيمين، الشرح الممتع (٦/ ٥٠٢-٥٠٤).

لو عرفها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف)[1]، وهو زاد يتزود به في طريق دعوته إلىٰ الله -جل شأنه-، وما سيواجهه في طريقه من متاعب، ومشاق، وخصوم، وأعداء.

٥. وقبل أن أترك الحديث عن الخلوة التي كانت في غار حراء أشير إلىٰ ما يفعله بعض إخواننا المسلمين -وبخاصة الحجاج أو المعتمرين الذين يأتون من خارج المملكة- من تكليف أنفسهم بصعود بجبل النور بمكة للوصول إلىٰ غار حراء؛ ظنًّا منهم أنَّ ذلك قُرْبة من الله -تعالىٰ-. والذي تدلُّ عليه سُنَّة رسول الله ﷺ وهديه أنَّ ذلك ليس بمشروع، بل إنَّ من صعد هذا الجبل ليصلي في الغار ركعتين، ظانًّا أن ذلك قُربة وعبادة ومكان فاضل للعبادة؛ فقد أخطأ وأتعب نفسه بما لا طائل فيه؛ لأنه بدعة في الدين منكرة، وتقرُّب إلىٰ الله -جل شأنه- بما لم يَشرع، ولو أنه صلىٰ في المسجد الحرام ركعتين لكان خيرًا له، ولكسب أجر مائة ألف صلاة، وهذا أفضل له من أن يُجْهِد نفسه في عمل غير مشروع، بل صاحبه مأزور لتقرُّبه إلىٰ الله بما لم يأذن به، ولو كان هذا العمل مشروعًا، لفعله الرسول ﷺ، وقد دخل الرسول ﷺ مكة، بعد الهجرة أربع مرات، ولم يذهب إلىٰ الغار، ولم يرشد الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ ذلك، ولم يفعله أحد منهم. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

٦. أخيرًا أقف عند مسألة مهمة؛ وهي قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في وصف تلك الأيام: (فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فيتزود لمثلها).

موقف أم المؤمنين خديجة بنت خويلد -رضي الله تعالىٰ عنها- من خلوة الرسول ﷺ؛ فهي كانت تُساعده فيها؛ مع أنها -رضي الله تعالىٰ عنها- كانت في بيتها

(١) انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة (٤/ ١٥٤).

مع أولادها الصغار، لمدة؛ بل ربما لمدد متتابعة حسب طبيعة خلوته، فهو ما أن ينتهي ما معه من الزاد إلا ويأتي إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ويتزود من عندها ثم يعود إلىٰ خلوته، إما فورًا، أو علىٰ الحول إذا جاء الشهر المعتاد، ولا يجد منها إلا العون والمساندة، وهذه صفة من أهم صفات الزوجة الصالحة، التي تقف مع زوجها وتسانده وتكون عضدًا له، وهي بذلك قدوة لنساء المؤمنين في القيام بحقوق الزوج.

أما الزوجة التي تُثَبِّط زوجها، وتعوقه عن المضي في عمل الخير؛ بل قد تكون أسوأ من ذلك، حينما تحمل زوجها علىٰ الكسب الحرام، وتحمله علىٰ التهاون بالمعصية، فتكون ممن قال الله -جل شأنه- فيهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن:١٤]، وهذه عداوة مآل وليست عداوة حال؛ لأنها ستكون سببًا لدخوله النار، والعياذ بالله.

وسيأتينا من مواقف خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- العظيمة، ما هو أعظم من ذلك، ولذا كانت العلاقة بينهما وثيقة جدًّا، وقد افتقدها ﷺ لما ماتت، وحزن عليها، واستمر في ذكرها والثناء عليها وصلة أقاربها وصديقاتها وهو في المدينة.

ثانيًا: تسليم الحجر عليه ﷺ:

عن جابر بن سمرة -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن»(١).

قال بعض العلماء: إن الحجر كان يقول: السلام عليك(٢)، وقال آخرون: إن

(١) صحيح مسلم (٢٢٧٧).

(٢) انظر: الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (٤/ ٢٢٣).

التسليم هنا التسليم بالنبوة والرسالة، قبل أن يشافهه الملك بالرسالة[١]، وهذا أخص من الأول ولم يذكر قائِلُه عليه دليلًا.

أما الحجر فقد قال بعض العلماء: إنه الحجر الأسود، ولم يذكروا دليلًا علىٰ هذا التحديد، مع وجود خلاف في كونه غيره[٢].

وفي تسليم الحجر علىٰ الرسول ﷺ مقدمة لما سيحصل له مستقبلًا، يقول أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالىٰ- في المفهم: (ذكر العلماء بسيرة النبي ﷺ وأحواله: أنه كان من لطف الله بنبيه ﷺ أن قدَّم له مقدِّمات، وخصَّه ببشائر وكرامات، درَّجَهُ بذلك إلىٰ أطوارٍ، لينقطع بذلك عن مألوفات الأغمار[٣]، ويتأهل علىٰ تدريج لقبول ما يُلقَىٰ إليه، ولتسهيل مشافهة الملك عليه)[٤].

وفي كل من تسليم الحجر عليه، وغيره مما ورد من رؤية الضوء وسماع الصوت[٥]. وأيضًا تسليم بعض الأشجار[٦] -إن صحت- كلها تمهيد وتهيئة لمجيء الملك إليه؛ إذ إن مجيء الملك إليه بالوحي لم يكن بالأمر الميسور، وهذه مقدمات تُهيِّئ وتُرقِّي في شخصيته لتحَمُّل ما سيأتيه. والله أعلم.

ثالثًا: الرؤيا الصادقة:

عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: القرطبي، المفهم، (٦/ ٥٢). الهرري، الكوكب الوهاج (٢٣/ ١٢)، العزيزي، السراج المنير (٢/ ١٧٤).

(٢) انظر: القرطبي، المفهم، (٦/ ٥٢). الهرري، الكوكب الوهاج (٢٣/ ١٢)، الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (٤/ ٢٢٣)، العزيزي، السراج المنير (٢/ ١٧٤).

(٣) الأغمار: جمع غمر، وهو مَن لم يُجرِّب الأمور.

(٤) القرطبي، المفهم، (٦/ ٥٢).

(٥) صحيح مسلم (٢٣٥٣) من قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

(٦) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢١٧).

من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[1].

قال ابن بطال -رحمه الله تعالىٰ-: (قال المهلب -رحمه الله تعالىٰ-: الرؤيا الصالحة الصادقة قد يراها الرجل المسلم والكافر والناس كلهم، إلا أن ذلك يقع لهم في النادر، والوقت دون الأوقات، وخص النبي -عليه السلام- بعموم صدق رؤياه كلها)[2].

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: («فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»؛ قال أهل اللغة فلق الصبح وفرق الصبح بفتح الفاء واللام والراء هو ضياؤه، وإنما يقال هذا في الشيء الواضح البين، قال القاضي -رحمه الله- وغيره من العلماء: إنما ابتدئ ﷺ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا يحتملها قوىٰ البشرية، فبُدئ بأول خصال النبوة وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا، وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضوء وسماع الصوت، وسلام الحجر، والشجر عليه بالنبوة)[3].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، والله أعلم)[4].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٦٩٨٢)، وصحيح مسلم (١٦٠).

(٢) ابن بطال، شرح صحيح البخاري (٩/ ٥١١).

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم(٢/ ١٩٧). وانظر: القرطبي، المفهم (١/ ٣٧٤).

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٤)، وانظر ابن عثيمين، القول المفيد (٢/ ٢٣٧)، شرح باب قول ما شاء الله وشئت من كتاب التوحيد.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (إن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذا قضي بإيصاله إلىٰ الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد من ذلك)(١).

وقال -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن أبي جمرة -رحمه الله تعالىٰ- إنما شبّهها بفلق الصبح دون غيره؛ لأن شمس النبوة كانت الرؤيا مبادي أنوارها، فما زال ذلك النور يتسع حتىٰ أشرقت الشمس)(٢).

والرؤيا الحسنة وردت في حديث أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ، قال: «الرؤيا الحسنة، من الرجل الصالح، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»(٣).

وفي كون كل ما يراه الرسول ﷺ في المنام، يشاهده مثل فلق الصبح واضحًا بينًا، هو تهيئة وتثبيت له، لما سيأتيه بعدُ، مما هو أوضح وأشد، من نور النبوة، فهذه الرؤىٰ بالنسبة له ﷺ جزء من النبوة وتمهيد لها وللرسالة التي تنتظره.

■ المسألة الثانية: المقدمات العامة للبعثة النبوية

المراد بالمقدمات العامة: الأخبار التي تحدثت عن قرب مبعث نبي، سواء كانت روايات عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، أو منقولة من التوراة أو الإنجيل، أو ذكرها بعض أحبارهم، ثم جاءت آيات من القرآن الكريم تُثْبِتُها، أو أخبار نقلها بعض الجن بسبب استراق السمع السابق إلىٰ الكهان، أو حدوث حجب الشياطين عن استراق السمع بإرسال الشهب عليهم، ونحو ذلك.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٦٠).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٥٥).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (٦٩٨٣). وصحيح مسلم (١٧٧٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

يأتي في مقدمة ذلك ما أخبرنا بها القرآن عن دعاء أبينا إبراهيم -عليه السلام-: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشرىٰ عيسىٰ -عليه السلام- بأخيه النبي ﷺ. قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ عيسىٰ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرىٰ من أرض الشام»[(١)].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد بشّرت به ﷺ جميع الأنبياء، ومنهم موسىٰ -عليه السلام-، ومما يشير إلىٰ أن موسىٰ بشر به قول عيسىٰ -عليه السلام- في هذه الآية: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [الصف:٦]، والذي بين يديه هي التوراة أنزلت علىٰ موسىٰ. وقد جاء صريحًا التعريف به ﷺ وبالذين معه في التوراة في قوله -تعالىٰ-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، إلىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [الفتح:٢٩]. كما جاء وصفهم في الإنجيل في نفس السياق، في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٣٢٢)، قال: «إسناد جيد»، ورواه الإمام أحمد في المسند ٢٨/ ٣٧٩) رقم (١٧١٥٠)، وقال محققه: حديث صحيح لغيره، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٥٣) رقم (٦٣١). والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٠٧)، والهيثمي في موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان (٦/ ٤٣٤) رقم (٢٠٩٣)، وقال محققه (إسناده جيد). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٣) رقم (٣٥٦٦) وصححه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

وجاء النص في حق جميع الأنبياء في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه العهد لئن بُعث وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ علىٰ أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه)(١).

وقال الله -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشّروا أممهم ببَعْثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم)(٢).

عن عطاء بن يسار -رحمه الله تعالىٰ- قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥)، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)(٣).

---

(١) الشنقيطي، أضواء البيان (٨/ ١١١).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٣).

(٣) صحيح البخاري رقم (٢١٢٥). (حرزًا للأميين): حصنًا للعرب. (فظ): سيئ الخُلق. (غليظ) شديد في القول. (سخاب) يرفع صوته على الناس. (يقيم الملة العوجاء) ينفي الشرك ويثبت التوحيد. (عُميًا) لا تبصر الحق. (صمًّا) لا تسمع دعوة الخير. (غلفًا) غطتها ظلمة الشرك.

فهذه الآيات والأخبار تؤكد لنا أن البشارة بمحمد ﷺ موجودة باسمه في التوراة والإنجيل، وأن الأنبياء السابقين -عليهم السلام- أَخْبَروا، بل بشّروا أممهم به، وبالتالي فالعلم ببعثته ﷺ من العلم الموروث فيهم.

ولذلك لم يكن غريبًا أن نجد من الأحبار مَن يتكلم عن قرب بعثة النبي ﷺ، ويصف الرسول ﷺ، ويصف مكان بعثته وزمانها.

ونتيجة لذلك فإنه لما دنت بعثة الرسول ﷺ انتشر في الأمم أن الله -سبحانه وتعالىٰ- سيبعث نبيًّا في هذا الزمان، وأن ظهوره قد قرب.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارىٰ، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارىٰ فمما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، لا تلقي العرب لذلك فيه بالًا، حتىٰ بعثه الله -تعالىٰ-، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرونها فعرفوها)[1].

وعن حسان بن ثابت -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: (إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كلما رأيت وسمعت، إذا يهودي بيثرب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود! فاجتمعوا إليه، وأنا أسمع. قالوا: ويلك! ما لك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي وُلِدَ به في هذه الليلة)[2].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٢١).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٤٧)، والبيهقي، دلائل النبوة (١/ ١١٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٥٤). وقال عنه عبد الله الجبرين في صحيح السيرة النبوية: (وبالجملة فحديث حسان يتقوى بشواهده المذكورة، فهو صحيح بشواهده والله أعلم). هامش (ص٨٦). وهذا يستفاد منه أن حسان -رضي الله عنه- أسنّ من الرسول ﷺ بسبع أو ثمان سنين فقط.

ومن الأمور التي تحدَّث بها اليهود والنصارىٰ إخبارًا عن الرسول ﷺ أن يهوديًّا من جيران بني عبد الأشهل في المدينة حدَّثهم عن البعث والحساب والميزان والجنة والنار؛ فاستنكروا ذلك، وطالبوه بآية ذلك، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلىٰ مكة واليمن[1]. وهذا فيه تحديد لمكان البعثة، وإشارة لقرب زمانها.

وقصة ابن الهيبان الذي قدم من الشام إلىٰ المدينة قبيل البعثة بسنين، وقال لليهود في المدينة: إن سبب قدومه توقُّع خروج نبي فيتبعه ودعا اليهود إلىٰ اتباعه[2].

وقصة سلمان الفارسي -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي جاء من بلاد فارس يبحث عن الدين حتىٰ دلَّه الأحبار علىٰ مكان بعثة محمد ﷺ وقرب زمانها[3].

بل تذكر بعض كتب التاريخ أن أصل مجيء اليهود واستقرارهم بالمدينة هو ترقُّب بعثة النبي ﷺ، ورجاء أن يكون منهم. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾؛ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم علىٰ حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديمًا؛ طمعًا في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٨٩]، فعليهم لعنة الله)[4].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٢)، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وانظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٤١٧-٤١٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

(٢) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية (١/ ٢٣٢ - ٢٣٣)، وابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٣١٠).

(٣) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية (١/ ٢٣٤).

(٤) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٨).

ومن المقدمات العامة أيضًا: حجب السماء عن مسترقي السمع، قال -تعالىٰ- مخبرًا عن قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠]؛ قال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾؛ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: مرصدًا له، مُعدًّا لإتلافه وإحراقه، أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله -تعالىٰ- أراد أن يحدث في الأرض حادثًا كبيرًا، من خير أو شر)[1].

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر مبعثه، حُجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها فرُموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد)[2].

وأقف هنا مع مقدمات البعثة النبوية وفيها:

١. إن هذه المقدمات العامة، تخص المجتمع، وتهيؤه لاستقبال الرسالة، وتصديق الرسول ﷺ. فالمقدمات الخاصة تعود فائدتها علىٰ شخص الرسول ﷺ وتهيؤه شخصيًّا لذلك، بخلاف العامة فتعود فائدتها علىٰ المجتمع في ذلك الوقت. وهذه لمن كان باحثًا عن الحق سالمًا من الحسد.

٢. إن حديث أولئك الأقوام عن بعثة النبي ﷺ، ليس أمرًا عجيبًا، ولا خبرًا مفاجئًا، ولا رجمًا بالغيب؛ بل إن بعثة النبي ﷺ كان هناك من يتوقعها ويتحدث عنها، وذلك من خلال:

(١) السعدي، تفسير السعدي ٨٩٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٨٩).

أ. الكتب المنزلة؛ أي التوراة التي كانت أنزلت علىٰ موسىٰ -عليه السلام-، والإنجيل الذي أنزل علىٰ عيسىٰ -عليه السلام-، فكان يُذكر فيهما أوصاف النبي الذي سيُبْعَث، وأوصاف زمانه ومكانه، وحديث الأنبياء أنفسهم لأممهم عن ذلك حتىٰ توارثوه فيهم.

ب. الكهان الذين كانوا يتحدثون عن ذلك، بما يصل إليهم من معلومات من خلال استراق السمع من الجن ونقله إليهم. ومن خلال متابعة الأحداث التي تجري، ومقارنتها بما تحدثت عنه النصوص أو بما يسترق من السمع، ومن الجمع بين هذا النص أو بما جاء من استراق السمع مع شواهد الواقع تظهر العلامة التي تدل علىٰ قرب بعثة النبي ﷺ، وأن ما ورد أو استرق من سمع ظهرت دلائله في أرض الواقع.

٣. إن سماع الأوس والخزرج لكلام اليهود نفعهم، فكان هذا العلم مما دعاهم إلىٰ سرعة الاستجابة للرسول ﷺ لمَّا قابلوه في العقبة -كما سيأتي-. قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلىٰ الإسلام، -مع رحمة الله تعالىٰ وهداه-، لمَا كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم عِلْم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلما بُعِثَ الله رسوله ﷺ أجبناه، حين دعانا إلىٰ الله -تعالىٰ-، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به)(١). قال الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت يهود يستفتحون علىٰ كفار العرب، يقولون: أما والله لو قد جاء النبي الذي بشّر به موسىٰ وعيسىٰ-عليهما السلام-، أحمد ﷺ، لكان لنا عليكم!

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ١٩٥).

وكانوا يظنون أنه منهم، والعرب حولهم، وكانوا يستفتحون عليهم به، ويستنصرون به. فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وحسدوه، وقرأ قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٩]؛ قال: قد تبين لهم أنه رسول، فمن هنالك نفع الله الأوس والخزرج بما كانوا يسمعون منهم أن نبيا خارج)[١].

٤. بل إن هذا العلم ومتابعة الأحداث نفعت بعض اليهود والنصارىٰ أنفسهم، فأسلموا وبادروا بالاستجابة[٢]. وفي مقدمتهم: ورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنه-، الذي بادر بالتصديق والتأييد فور لقائه بالرسول ﷺ كما سيأتي.

٥. وربما ساغ أن يقال: إن قريشا ومن شابههم في أميتهم، كان لأميتهم ومفاجأتهم بأمر هم في غفلة عنه، أثر في إنكار البعثة، وعدم تصديق الرسول ﷺ. قال -تعالىٰ- مخبرًا عما قاله الجن: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ [الجن:٧]؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولًا. قاله الكلبي، وابن جرير -رحمهما الله تعالىٰ-)[٣]. وقال -تعالىٰ-: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس:٦]؛ قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلىٰ سفههم عقول العالمين)[٤]. ولذلك استبعدوا أن يُوحَىٰ إلىٰ بشر، وأن يكون النبي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وقالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾.. إلىٰ آخر ما ذكروه مما يدل علىٰ جهلهم بحال النبوات، وشتان بين

(١) الطبري، تفسير الطبري، تحقيق أحمد شاكر (٢/ ٣٣٦).

(٢) ابن هشام، السيرة المطبوعة مع الروض الأنف (١/ ٥٠٠).

(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٨/ ٢٤٠).

(٤) السعدي، تفسير السعدي (ص ٦٩٢).

هؤلاء في العلم وبين من وصفهم الله -جل شأنه- بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦]، [الأنعام: ٢٠]، وهذه من عواقب الأمية والجهل، والإعراض عن العلم.

٦. إن بعثة النبي ﷺ كان عليها دلالات فلكية محسوسة، وهو ظهور النجم الذي أشار إليه حسان -رضي الله تعالىٰ عنه- فيما ذكره من الرواية عن اليهودي. وهو من مقدمات البعثة النبوية العامة، التي استشهد بها هذا اليهودي المتعلم علىٰ قرب بعثة النبي ﷺ.

٧. أهمية متابعة الأحداث التي تجري وربطها بالنصوص، والاستفادة من ذلك في توقُّع بعض أمور المستقبل، فالذين كان لديهم عِلم ومتابعة للأحداث كانوا يدركون قرب البعثة النبوية، والذين لم يهتموا بالأحداث ولم يتابعوها كانت البعثة النبوية لهم حدثًا مفاجئًا غريبًا[1].

٨. وليس هذا خاصًّا ببعثة النبي ﷺ، بل إن متابعة الأحداث وربطها بالنصوص وقراءة التاريخ، تعطي عِلْمًا لما يتوقع حدوثه مستقبلًا. ودراسة المستقبل علم معروف، له مكانته، وهو جهد علمي منظّم يدرس الماضي والحاضر ليتوقع المستقبل من خلال سنن الله في خلقه، وغاية الدراسات المستقبلية هو توفير إطار زمني بعيد المدىٰ لما قد نتَّخذه من قرارات اليوم؛ ومن أهم عناصر دراسة المستقبل، الاطلاع علىٰ التاريخ، ففيه معرفة العدو من الصديق، ومعرفة تجارب الأمم، وأخطائها، وصوابها. وسنن الله في الكون لا تتبدل ولا تجامل، فمن درسها،

(١) ولعل مما يشبه هذا أيضًا قصة كعب الأحبار عندما جاء إلى عمر بن الخطاب ﷺ وأخبره بقرب وفاته شهيدًا مما يجده في كتاب الله أي التوراة انظر: ابن سعد، الطبقات (٣ / ٣٣٢)، وابن حجر ، فتح الباري (٧/ ٦٥)، والمبرد، التعازي والمراثي (ص٢٢١)، فكيف كان كعب يتوقع الوفاة إلا من خلال معرفته للأمرين اللذين ذكرتهما؛ إن صح ما ذكر عنه.

وأحسن الاستفادة، وإلا كرر أخطاءه أو أخطاء غيره، أو فاته خير كثير، وهذا العلم تعطيه الدول المتقدمة أهميةً خاصةً تبني عليها خططها ومشاريعها. ويستفيد منه حتىٰ الأفراد في مشاريعهم؛ كل في مجاله، والله أعلم.

المبحث الثاني

بدء الوحي

عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها قالت: (أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع علىٰ أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فيتزود لمثلها، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني[1]، حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:١-٣]؛ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل علىٰ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتىٰ ذهب عنه الروع، فقال ﷺ لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت علىٰ نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ[2]، وتُكسب المعدوم[3]، وتَقْري الضيف، وتعين علىٰ نوائب

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٤٢): «الغت والغط سواء، كأنه أراد عصرني عصرًا شديدًا حتى وجدت منه المشقة، كما يجد من يغمس في الماء، قهرا».

(٢) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠١): «الكَلّ فهو بفتح الكاف وأصله الثقل، ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال، وغير ذلك».

(٣) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠١): «من رواه بالضم فمعناه تكسب غيرك المال المعدوم أي تعطيه إياه تبرعًا فحذف أحد المفعولين وقيل معناه تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق».

الحق[1]. فانطلقت به خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- حتىٰ أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ (ابن عم خديجة)، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، قالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي)[2].

وعن علقمة بن قيس[3] -رحمه الله تعالىٰ- قال: (إن أول ما يُؤْتَىٰ الأنبياءُ في المنام، حتىٰ تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي)[4]. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا من قِبل علقمة -رحمه الله تعالىٰ- نفسه، وهو كلام حسن يؤيده ما قبله وما بعده)[5].

تاريخ البعثة النبوية:

قبل الحديث عن فوائد الحديث نشير إلىٰ تحديد وقت البعثة النبوية، وأول ما نزل:

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠٢): «النوائب جمع نائبة، وهي الحادثة، وإنما قالت: نوائب الحق؛ لأن النائبة قد تكون في الخير، وقد تكون في الشر».

(٢) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ١/ ٢٣.

(٣) قال الذهبي: فقيه الكوفة، وعالمها، ومقرئها، الإمام، الحافظ، المجود، المجتهد الكبير، أبو شبل علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، ولد في أيام الرسالة المحمدية، وعداده في المخضرمين، من أبرز تلاميذ ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- مات عام ٦٢. سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣).

(٤) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٩)، وقال: «رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن عن علقمة»، والشامي، سبل الهدي والرشاد ٢/ ٣٠٦.

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣/ ٤.

أ. عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَىٰ إليه، ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين)[١].

ب. عن أبي قتادة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم الاثنين فقال: «ذلك يومٌ وُلِدْت فيه، ويومٌ أنزل عليَّ فيه»[٢]، وحينئذ فبدء الوحي كان يوم الاثنين.

ج. أما تحديد الشهر فقد اختُلِفَ فيه، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: واختلف في شهر المبعث فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول، سنة إحدىٰ وأربعين من عام الفيل، هذا قول الأكثرين، وقيل: بل كان ذلك في رمضان[٣]، واحتج هؤلاء بقوله -تعالىٰ-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]. قالوا: أول ما أكرمه الله -تعالىٰ- بنبوته، أنزل عليه القرآن[٤]، وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (بُعث علىٰ رأس أربعين سنة، هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء)[٥]، وحكىٰ البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلىٰ هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده، وهو شهر ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، ووحي اليقظة في رمضان والله أعلم)[٦].

د. إن أول ما نزل علىٰ الرسول ﷺ من الوحي هو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله: «ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾»

(١) صحيح البخاري ٣٩٠٢.
(٢) صحيح مسلم ١/ ٨١٩.
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢١٧.
(٤) انظر: ابن القيم، زاد المعاد ١/ ٧٨.
(٥) النووي، شرح صحيح مسلم ١٥/ ٩٩.
(٦) انظر: ابن حجر، فتح الباري ١/ ٢٧، والشامي، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٤٠.

هذا دليل صريح في أن أول ما نزل من القرآن (اقرأ)، وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف، وقيل أوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وليس بشيء)[1].

فوائد حديث بدء الوحي:

وبعد أن تحدثنا عن تاريخ البعثة النبوية نعود إلىٰ فوائد حديث بدء الوحي؛ لنلحظ فيه ما يلي:

١. بنزول جبريل -عليه السلام- بهذه الآيات الكريمات من كلام الله -سبحانه وتعالىٰ-، وإلقائها علىٰ قلب الرسول الكريم ﷺ، ومجيء الرسول ﷺ يتلوها، اتصل الوحي بأهل الأرض، وفُتح لهم أعظم نعمة عرفتها البشرية، يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم)[2]. لقد كان الوحي الذي نزل علىٰ محمد ﷺ النعمة الكبرىٰ من الله -جل شأنه- علىٰ هذه الأمة، به عرفوا التوحيد وبه عرفوا حق الله -جل شأنه- وبه عرفوا حق نبيه ﷺ، وبه عرفوا طريق الجنة، وبه عرفوا طريق النار، وبه خرجوا من الظلمات إلىٰ النور!! كان هذا الوحي رحمة من الله للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. إن الذي عرفوا قيمة الوحي بكوا أشد البكاء لما انقطع، عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: (انطلق بنا إلىٰ أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها- نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيّجتهما علىٰ البكاء.

(١) النووي، شرح صحيح مسلم ٢/ ١٩٩.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

فجعلا يبكيان معها)[1]. ما أعظم فقه أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي تُذَكِّر الصِّدِّيق والفاروق -رضي الله تعالىٰ عنهما- بهذه النعمة الكبرىٰ التي عاشوها.

منذ نزلت ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ والمؤمنون يُسَدَّدُون بتوجيهات ربانية مباشرة من الله -جل شأنه-، ينزل بها جبريل -عليه السلام-، يا أيها المؤمنون افعلوا كذا، ويا أيها المؤمنون اجتنبوا كذا، يا أيها المؤمنون لقد أخطأتم في كذا والصواب كذا، ويأتي الوحي إلىٰ النبي ﷺ فلان، وفلان، وفلان، في الجنة، ولقد رأيت فلانًا في الجنة.. فأيّ نعمة فتحت علىٰ أولئك، بنزول جبريل -عليه السلام- علىٰ محمد ﷺ.

بنزول جبريل -عليه السلام- بالوحي القرآني اتصل أهل الأرض بخبر السماء، بعد انقطاع قارب ستة قرون. وسيأتي مزيد حديث عن هذه النعمة في مبحث فاجعة وفاة النبي ﷺ -إن شاء الله -تعالىٰ-.

٢. لقد كانت عظمة هذا التشريع وهيمنته وقوته وتفرده وعلو منزلته واهتمام المؤمنين به، وتسليمهم له وانقيادهم لما فيه؛ لكونه مُنزلًا من عند الله -جل شأنه-، ومنه جاءت كل الخصائص الأخرىٰ، وذلك كله يعتمد علىٰ ثبوت كونه وحيًا من الله -جل شأنه-، وأن ما جاء به الرسول ﷺ هو هذا الوحي، وأنه لا أثر لهذا الإنسان فيه إلا التبليغ عن الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولأجل هذا حاول المشركون وأهل الكتاب والمنافقون والمرتابون في القديم والحديث التشكيك، والتكذيب وإثارة ما استطاعوا من الشبهات، حول كون هذا التشريع وحيًا من الله[2]، وزعموا أن هذا التشريع من صنع محمد ﷺ، وأن بإمكانهم المجيء بمثله، وذلك لإسقاط هذه الخصيصة لهذا القرآن العظيم، ولكي يصبح

(١) صحيح مسلم ٢٤٥٤.

(٢) انظر: ناصر العقل، الاتجاهات العقلانية الحديثة، الطبعة الأولى (الرياض: دار الفضيلة، ١٤٢٢) (ص ١٥٧).

عملًا بشريًّا كسائر الأعمال الأخرىٰ القابلة للاعتراض والتعديل والتبديل وفق الآراء، بل وفق الأهواء والرغبات، وعلىٰ المسلم أن يعي هذه المحاولات المضللة من الأعداء.

٣. مع الحديث عن عظمة هذا الوحي وأهميته، نستحضر أن الله -جل شأنه- اصطفىٰ قلب محمد ﷺ لهذا الوحي ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ (١٩٥)﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وهذا ينبهنا إلىٰ عظمة منزلة الموحَىٰ إليه ﷺ، فعندما اختار الله -جل شأنه- محمدًا ﷺ ليكون نبيًّا رسولًا خاتمًا لهذه الأمة، فيجب علىٰ الأمة أن تعرف منزلة نبيها وعِظم حقه عليها، فهو المختار المصطفىٰ من الله -سبحانه وتعالىٰ- ليكون مُبلّغًا لها لشرعه، وعظمة الرسول من عظمة المرسِل والرسالة، فاعرف منزلته تعرف حقه!!

٤. إن أول كلمة وردت في هذا الوحي، وهي فاتحته وهي عنوانه قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ فالعلم هو عنوان هذا الدين، فقد استفتح الوحي بكلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ فالمسلم إذًا مُطالَب بأن يتعلم، وأبرز وسائله القراءة، إن الله -جل شأنه- اختار لنبيه ﷺ القرآن الكريم ليكون هو الآية العظمىٰ الخالدة علىٰ صحة بعثة محمد ﷺ، فافتتح هذا الوحي بهذه الكلمة العظيمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثم تتابع نزول القرآن الكريم متحديًا الجن والإنس -ولو اجتمعوا- أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بسورة من مثله قال -تعالىٰ-: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء:٨٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة٢٣-٢٤].

وهو بهذا يتحدىٰ أُمة أُوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال في اللغة، ما لم تؤته أمة من الأمم، وبلغت في العصر النبوي أوُجّها.

وهذا من إرادة إقامة الدليل علىٰ نبوة محمد ﷺ بهذا الكتاب العظيم، فجعله عَلَمًا كما جعل عَلَم كل نبي من الأنبياء أشبه الأمور بما في زمان مبعثه، فكان لموسىٰ -عليه السلام- فلق البحر واليد والعصا وتفجر الحجر في التيه بالماء الرواء إلىٰ سائر أعلامه زمن السحر. وكان لعيسىٰ -عليه السلام- إحياء الموتىٰ، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص وإلىٰ سائر أعلامه زمن الطب. وكان لمحمد ﷺ هذا القرآن الذي هو شرف هذه الأمة الذي لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله فلن يأتوا به؛ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا[1].

٥. تأمل قوله -تعالىٰ- ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (الباء زائدة لتأكيد النفي أي ما أُحْسِن القراءة. فلما قال ذلك ثلاثًا. قيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك؛ لكن بحَوْل ربك وإعانته فهو يُعلّمك كما خلقك، وكما نزع عنك علق الدم، وغمز الشيطان في الصغر)[2].

واسم الله -سبحانه وتعالىٰ- ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية نزلت في أول كل سورة عدا سورة التوبة، بـ(بسم الله) رقىٰ جبريل -عليه السلام- بها سيد ولد آدم عندما اشتكىٰ من مرض، عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه- أن جبريل -عليه السلام- أتىٰ النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، قال بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[3].

(١) انظر: ابن قتيبة، مشكل القرآن (ص ١٠).
(٢) فتح الباري ١/ ٢٤.
(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٧١٨رقم٢١٨٦).

ب- (اسم الله) يُذل الشيطان ويصغر، حتىٰ يكون أصغر وأهون من ذباب، عن أبي تميمة الهجيمي -رحمه الله تعالىٰ-، عمن كان رديف النبي ﷺ، قال: كنت رديفه علىٰ حمار، فعثر الحمار، فقلت: تعس الشيطان، فقال لي النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم الشيطان في نفسه، وقال: صرعته بقوتي، فإذا قلت: بسم الله، تصاغرت إليه نفسه حتىٰ يكون أصغر من ذباب»(١).

وذكر اسم الله -جل شأنه- معنا في كثير من أمور حياتنا، في دخول المنزل، وفي الخروج منه، في دخول المسجد وفي الخروج منه.. والمطلوب أن نستحضر أهمية هذا المعنىٰ الذي نقوله، ونتعبد الله -جل شأنه- بهذا المعنىٰ ونرجو أثره.

٦. تأمل قوله -تعالىٰ- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]؛ هذه الآيات -كما هو معلوم-، هي أول ما نزل وهي تشير إلىٰ حاجة الإنسان إلىٰ أمرين:

الأول: التعرف علىٰ (ربه) ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

الثاني: التعرف علىٰ (نفسه)، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

ويكاد الشخص يجزم بأن كل ما نعانيه اليوم إنما هو من جَرَّاء التقصير في القراءة في هذين الميدانين، والتفريط في العمل بما ينتج عنها.

إن القراءة المتأملة في هذين الميدانين هي أهم قراءة علىٰ الإطلاق، وهي النقطة الأهم في الانطلاق.

فاقرأ القرآن الكريم وأنت تستحضر التعرف علىٰ هذين الأمرين؛ الأول: أن تتعرف علىٰ ربك بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٤/ ١٩٨) رقم (٢٠٥٩١) وقال محققوه: (حديث صحيح). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢١١) رقم (٣١٢٩).

الثانية: أن تتعرف علىٰ نفسك وضعفك وعجزك وبدايتك ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ ونهايتك.

هنا يظهر أثر عظيم للقرآن الكريم علىٰ النفس فترجع إلىٰ فطرتها ذليلة مستكينة خاضعة بين يدي الله الأكرم.

٧. من منا إذا أراد أن يقرأ القرآن الكريم استحضر عظمته، وأنه كلام الله -عز وجل-، نزل به جبريل -عليه السلام- علىٰ محمد ﷺ، فيعطي القرآن حقّه من التعظيم، ويتلوه بخشوع وخضوع مستحضرًا قصة بدء الوحي وتنزل القرآن؛ ذلك الكتاب الذي به عرفنا ربنا -سبحانه وتعالىٰ- بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعلمنا ما يقربنا إليه، وما يباعدنا عنه؛ فحق علينا أن نتعاهده، ونُديم تلاوته، ونستكثر من حفظه وتدبُّره والعمل به، وإن لم نفعل فقد فرطنا في أعظم شيء هدانا الله -جل شأنه- إليه، وضَل عنه غيرنا ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

٨. قول ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا) فيه فائدة مهمة جدًّا، وهي منزلة النية، واستحضار عمل الخير، فالموفّق مَن يستحضر دائمًا نية عمل الخير، فإن استطاع، فَعَلَ ما نوىٰ، وإن لم يستطع فله أجر نيته، وورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- تمنّىٰ أن يدرك يوم بعثة الرسول ﷺ لينصره علىٰ أعدائه، فهو قد استفاد بعلمه أن هذا هو الرسول ﷺ فصدّقه، وقد أشرنا من قبل في مقدمات الوحي أن بعض اليهود والنصارىٰ أسلموا بسبب علمهم، واستفاد ورقة أيضًا -رضي الله -تعالىٰ- بسبب نيته الصالحة، فيُرْجَىٰ له أجر نية نَصْر الرسول ﷺ بهذه النية الصالحة، وهذا فضل الله -جل شأنه- لمن يوفّقه -سبحانه- للخير، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن من تمنىٰ الخير ونواه، ثم لم يتمكن منه لعذر خارج عن قدرته؛ فله أجره، فعن عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ رجع من

غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: «إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1]. وعن جابر -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: «إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»[2]. وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر»[3]. وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا؛ فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا فهو يخبط في ماله بغير علم؛ لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا؛ فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان؛ فهو بنيته فوزرهما سواء»[4]. وقد قيل النية تجارة العلماء، فهم يتاجرون بنيّاتهم لتحصيل أعظم الأجور، وينوون عمل الخير، فإن تحقق وإلا فلهم أجر النية.

٩. ويتبع هذه الفائدة فائدة أخرىٰ وهي كما يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه دليل علىٰ جواز تمنّي المستحيل إذا كان في فعل خير؛ لأن ورقة تمنىٰ أن يعود شابًّا وهو مستحيل عادة)[5]. وهذا يفتح للمسلم بابًا من الخير بتمنيه لعمل صالح، ولو كان مستحيلًا بالنسبة له، ويؤجر علىٰ نيته، وفضل الله واسع، ومرة أخرىٰ أقول: النية تجارة العلماء.

---

(١) صحيح البخاري(٤٤٢٣.

(٢) صحيح مسلم ١٩١١.

(٣) صحيح مسلم ١٩١١.

(٤) رواه الترمذي في سننه، وقال هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣٢٥).

(٥) فتح الباري ١/٢٦.

هذه فوائد رئيسة ومهمة في هذا المبحث، ويُضاف عليها أيضًا الفوائد التالية:

أولًا: عندما بدأ الوحي بالحث علىٰ القراءة وإبراز مكانة القلم، ولم يكن الرسول ﷺ قارئًا ولا كاتبًا بالقلم، دلَّ ذلك علىٰ أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، وما كان محمد ﷺ ليبرز هذه الحقيقة وهذه الأهمية للقراءة والقلم منذ اللحظة الأولىٰ، لو كان هو الذي يتقول هذا القرآن ويختلقه.

ثانيًا: ربط بعض طلبة العلم، ما حصل للرسول ﷺ من غطّ جبريل -عليه السلام- ثلاث مرات بشدة، وأن في ذلك تهيئة لسماع ابن آدم لكلام الملك، بما يحصل من ضغطة القبر التي فيها تهيئة للإنسان لسماع كلام الملكين، وأن في كلا الحالين تهيئة للإنسان لمقابلة الملك والسماع منه؛ إذ الإنسان العادي لا يتحمل سماع الملك، والله أعلم بالصواب.

ثالثًا: لقد غطّ جبريل -عليه السلام- الرسول ﷺ ثلاث مرات، وانتزع شريح القاضي -رحمه الله تعالىٰ- من هذا أن لا يُضرب الصبي إلا ثلاثًا علىٰ القرآن الكريم كما غط جبريل الرسول ﷺ ثلاثًا[1].

رابعًا: قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (وجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يدارس ولا لُقِّن، مقتضىٰ العجب ومنتهىٰ العبر ومعجزة البشر، وليس في ذلك نقيصة؛ إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها، غير مرادة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استُغْنِي عن الواسطة والسبب، والأمية في غيره نقيصة؛ لأنها سبب الجهالة وعنوان الغباوة، فسبحان مَن باين أمره مِن أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه)[2].

---

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٥٣٨)، والعيني ، عمدة القارئ ١/ ٦٢.

(٢) الشفا مع حاشية الشمني ٢/ ٢٥٠.

وقد جاء وصف الرسول ﷺ بقوله -تعالىٰ-: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٨]، قال الراغب الأصفهاني: (قيل: سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه، واعتماده علىٰ ضمان الله منه بقوله -تعالىٰ-: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ:٦])(١).

وقال ابن خلدون -رحمه الله تعالىٰ-: (الخطّ من جملة الصّنائع المدنيّة المعاشيّة. والكمال في الصّنائع إضافيّ وليس بكمال مطلق؛ إذ لا يعود نقصه علىٰ الذّات في الدّين ولا في الخلال، وإنّما يعود علىٰ أسباب المعاش، وبحسب العمران والتّعاون عليه لأجل دلالته علىٰ ما في النّفوس. وقد كان ﷺ أمّيًّا وكان ذلك كمالًا في حقّه وبالنّسبة إلىٰ مقامه لشرفه وتنزّهه عن الصّنائع العمليّة الّتي هي أسباب المعاش والعمران كلّها. وليست الأمّيّة كمالًا في حقّنا نحن؛ إذ هو منقطع إلىٰ ربّه ونحن متعاونون علىٰ الحياة الدّنيا شأن الصّنائع كلّها حتّىٰ العلوم الاصطلاحيّة فإنّ الكمال في حقّه هو تنزّهه عنها جملة بخلافنا)(٢).

وقد نقلت هذه النقول لعلمائنا لبيان أن الأمية صفة كمال في المصطفىٰ ﷺ، من عدة وجوه، وإن كانت القراءة والكتابة صفة كمال في غيره من البشر.

خامسًا: والعجيب أن هذه السورة التي افتتح بها الوحي وكانت بدايتها الأمر بالقراءة تختم بالأمر بالسجود؛ وذلك لأهمية القراءة وأهمية السجود، وجاءت علىٰ منوال هذه السورة الصلاة، فكل ركعة يركعها المسلم إنما تبدأ بالقراءة، وتنتهي بالسجود، مثل سورة اقرأ، بدأت بالقراءة، وانتهت بالسجود، وذلك لعظم مكانة هذين الأمرين في الإسلام.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأشرف أفعالها (أي الصلاة) السجود، وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة أنزلت علىٰ النبي ﷺ افتُتحت بالقراءة،

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٨٧).
(٢) مقدمة ابن خلدون (٥٢٧).

وختمت بالسجود، ووضعت الركعة علىٰ ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود)[١].

سادسًا: في هذا الحديث قوة تصديق ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- بما أخبره به الرسول ﷺ[٢].

سابعًا: الرسول ﷺ وهو أشجع الناس، وأعظمهم، وأقواهم قلبًا، ينزل من غار حراء، فيتجه نحو زوجته، ويقول لها دثريني، دثريني، كانت معاملته أو تعامله مع زوجته، بصدق المشاعر، وتشارك الهموم وتبادل العواطف، عظيمٌ ﷺ في تعامله مع زوجاته، ومن ذلك نومه علىٰ فخذ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-[٣]، وقراءته القرآن ورأسه علىٰ فخذها[٤]، إنه الحب والحنو من هذا الزوج العظيم.

ثامنًا: في هذا بيان لصورة من صور عظمة هذه المرأة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فهي:

١. لم تتأثر بالموقف ولم تستسلم ولم ترتبك؛ بل ثبتت، فموقفها في أول وهلة يدل علىٰ عظمتها؛ رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها.

٢. إن تصرفها دل علىٰ كمال عقلها، وسداد رأيها، وحسن ظنها بالله -جل شأنه-، وأن الله لن يخزي محمدًا ﷺ، وهو صاحب الأخلاق العالية؛ يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (استدلت -يعني خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بما فيه من الصفات الفاضلة والأخلاق والشِّيَم علىٰ أن من كان كذلك لا يُخزىٰ أبدًا،

---

(١) ابن القيم، الكلام على مسألة السماع ص(٢٠٤)، ونقل أيضًا كلامًا لشيخ الإسلام ابن تيمية حول المعنى ذاته في ص ٢١٩ من المرجع نفسه.

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري ١/ ٢٦.

(٣) صحيح البخاري (٦/ ١٠) رقم (٤٤٣٧) من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- في فاجعة وفاته ﷺ.

(٤) صحيح البخاري (١/ ٦٧) رقم (٢٩٧) من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشِّيَم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركَّبه الله علىٰ أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركَّبه علىٰ أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يناسبها، وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربها بالسلام منه مع رسوليه؛ جبريل ومحمد ﷺ)[1]، كما سيأتي عند الحديث عن فضائلها.

٣. موقف خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما جاءها الرسول ﷺ فزعًا، فلم تُبادره بالسؤال، وتُلِحّ عليه بالحديث والتفصيل؛ بل أول ما بدأت هو طمأنته، و»الفازع لا ينبغي أن يُسأل عن شيء حتىٰ يزول عنه فزعه، حتىٰ قال الإمام مالك -رحمه الله تعالىٰ-: (إن المذعور لا يلزمه بيع ولا إقرار ولا غيره)[2].

٤. إنها بعد أن طمأنته وبشّرته وهدّأت من روعه، أخذته إلىٰ ابن عمها الحبر النصراني ورقه ليسمع منه ما يزيده طمأنينة.

تاسعًا: في هذا الموقف بيان لمكانة المرأة في الإسلام، فنبي الأمة محمد ﷺ لمَّا واجه هذا الأمر الذي شق عليه، استشار المرأة وأخذ برأيها، ولم يكن يَعوزه صديق أو قريب من أفاضل الرجال يستشيره، لكنه اختار المرأة، واستشارها وأخذ برأيها، علىٰ خلاف ما كان الجاهلية يفعلون من احتقار للمرأة، وانتقاص مكانتها.

عاشرًا: إن الشخص إذا واجه مشكلة أو أمرًا أهمّه، ينبغي عليه ألَّا يكتمه، بل يُستحب أن يُطْلِع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه[3]؛ وذلك لأجل غرضين:

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٧.

(٢) العيني، عمدة القاري ١/ ٦٣.

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري ١/ ٢٥، والعيني، عمدة القارئ ١/ ٦٣.

١ . التنفيس عن النفس، فالمشكلة المكتومة تكبر في النفس وتنمو، وتأخذ أكبر من مكانها، وتشغل صاحبها أكثر مما تستحقّ، فإذا نفَّس عن نفسه بالحديث خفّف الضغوط التي عليها؛ لأنه جعل معه مَن يشاركه حمل هذا الهم، وهذا أمر مُشاهَد مُدرَك لمن جرّبه، ومن الخطأ أن يكتم الشخص المشكلة التي تواجهه ويتيح لها النماء في ذاكرته حتىٰ تؤدي إلىٰ عواقب ومواقف ضارة، فالرسول ﷺ هنا بادر في هذا الأمر الذي أهمّه، وأفضىٰ به إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ لتشاركه هذا الهم، وتسعىٰ معه في البحث عن حل مناسب[1]، وهذا كما أنه مدرك في الواقع فالأطباء المختصون يشهدون بذلك؛ ينقل الدكتور محمود مهدي الاستامبولي -رحمه الله تعالىٰ- رأي الطب فيقول: (تقول الدكتورة «روز هلفردنج» المستشارة الطبية لمستشفىٰ بوسطن: إن من الأدوية الشافية للقلق إفضاء الشاكي بمتاعبه إلىٰ شخص يثق به، وحين يتحدث المرضىٰ عن متاعبهم بإسهاب وتفصيل ينتفي القلق من أذهانهم؛ فإن مجرد الشكوىٰ فيه شفاء، أما اختزانها في الذهن واستئثار المرء بها، فإنه كفيل بخلق التوتر العصبي. وقد أنشئت أغرب مؤسسة في العالم تحت اسم: (رابطة إنقاذ الحياة)؛ تهدف إلىٰ إنقاذ حياة الذين أزمعوا التخلص من حياتهم بالانتحار، وقد أصبحت ملجأ لكل من يشعر بالتعاسة والفشل، وتعتمد هذه المؤسسة في علاجها علىٰ إفضاء المريض بما يعانيه، ثم لا تملك المؤسسة إلا النصح والإرشاد بعد ذلك، وعلىٰ ذلك اعتبر الإفضاء من الوسائل العلاجية المعمول بها الآن في كل المستشفيات النفسية والعصبية بل العضوية والجراحية، ومن وسائل الوقاية)[2].

---

(١) ولعل من هذا أيضًا الإذن للمظلوم أن يدعو على ظالمه ويذكره بما فيه؛ لأنه لا بد للمصدور أن ينفِّس قال تعالى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨].

(٢) محمود مهدي الاستانبولي ، دلائل النبوة المحمدية ص ٢٧٢ .

٢. الاستفادة من النصيحة التي سيقدمها له من استشاره، ولذلك لا يسوغ أن يتحدث إلا لمن يثق به وبنصحه، حتىٰ لا يؤدي ذلك إلىٰ نتائج عكسية من إشاعة هذا الأمر وهو يرغب في حصره في دائرة محدودة، يقول الدكتور محمود مهدي الاستانبولي -رحمه الله تعالىٰ- ما يلي: (وينصح أطباء النفس باختيار الشخص الذي تُفضي إليه، فليس كل شخص يمكن الإفضاء إليه، ولا يشترط أن يكون الشخص المُفضَىٰ إليه طبيبًا أو من رجال القانون أو الدين، وإنما المهم الإحساس بأن هذا الشخص يسمع ويحسن ويعين، فكيف إذا لجأ الإنسان إلىٰ الله الذي يسمع ويرىٰ ويملك الأمر، بيده الخير كل الخير، أفليس الإنسان إذا ما أقام الصلاة يكون بمنجاة من كل هذه الأمراض؟!)[1].

حادي عشر: استحباب تأنيس من نزل به أمر أهمّه وأشغله بذكر تيسيره عليه وتهوينه له[2]، وذكر أسباب السلامة له، وقد يخطئ البعض عندما يأتي إليه زميل يخبره عن أمر أهمَّه، فإذا به بدلًا من التخفيف عنه يزيد من همّه وغمّه، إما بلومه والعتب عليه، أو بتكبير الأمر عليه، وغفل هذا الذي عُرض عليه الأمر أن صاحبه جاء يعرض عليه مشكلته بحثًا عن علاج لا بحثًا عن لوم أو عتب، أو استبعاد العلاج وتطوير المشكلة وتكبيرها، وهذه الفائدة نأخذها من قول خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم..)، بعد أن جاءها وأخبرها بما حصل له، ومثل هذا قصة موسىٰ -عليه السلام- مع صاحب مدين حينما جاءه موسىٰ -عليه السلام- خائفًا وقص عليه القصص: (قال له مُسَكِّنًا روعه جابرًا قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٥]؛ أي ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلىٰ هذا المحل)[3].

---

(١) دلائل النبوة المحمدية (ص ٢٧٢).
(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٥)، والعيني، عمدة القاري (١/ ٦٣).
(٣) السعدي، تفسير السعدي (٤/ ١٥).

ثاني عشر: إن مكارم الأخلاق، وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع الشر والمكاره، فمن كثر خيره حسنت عاقبته، ورُجي له سلامة الدنيا والدين[1]، وهذا أمر مطّرد، لكل فاعل خير، وصاحب خلق جميل، ولذلك تقول خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا) وتقسم علىٰ هذا، وتبين السبب بأنه ﷺ كان يصل الرحم، ويحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، فهي -رضي الله تعالىٰ عنها- تبين قاعدة عامة في حياة الناس.

ثالث عشر: قول خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- عن الرسول ﷺ: (كلا، والله إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين علىٰ نوائب الحق)؛ تكشف ما كان عليه النبي ﷺ من أخلاق سامقة، ونشاطات وإسهامات في مجتمعه فذة، غير معهودة في تلك البيئة.

رابع عشر: جواز مدح الإنسان في وجهه لمصلحة، ولا يعارضه قوله ﷺ: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»[2]؛ لأن هذا فيما يمدح بباطل أو يؤدي إلىٰ باطل[3]. قال الإمام النووي -رحمه الله تعالىٰ- : (ذكر مُسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه، قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمول علىٰ المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو علىٰ من يخاف عليه من إعجاب ونحوه، إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة؛ كنَشْطه علىٰ الخير والازدياد منه أو الدوام عليه، أو الاقتداء به كان مستحبًّا)[4]. وهذا

---

(١) العيني، عمدة القاري (١/ ٦٣).

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب: النهي عن الإفراط في المدح (٤/ ٢٢٩٧).

(٣) العيني، عمدة القاري (١/ ٦٣).

(٤) الإمام النووي، شرح صحيح مسلم (١٨ / ٤١٧)، طبعة دار الخير، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٦٩) حيث قال: النهي عن المدح في الوجه مخصوص بما إذا كان غلوًّا مفرطًا أو كذبًا ظاهرًا.

أسلوب تربوي، يحسن من الآباء والمربين، والمعلمين والدعاة الاستفادة منه في تنشيط الهمم، تحقيقًا لمزيد من الخير، وحثًّا للاقتداء.

خامس عشر: من قول ورقة ﷺ: (لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)، وفي الرواية الأخرىٰ قال ورقة: (لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي)[1]؛ يتبين لنا أمر مهم جدًّا، وهو أن الداعية إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- لا بد أن يواجه أعداء، عندما يدعو إلىٰ الله -جل شأنه-، لاحظ قوله: (لم يأت رجل قط)؛ فلا بد من أن يواجه الداعية أعداء في طريقه، والعداوة والإيذاء للداعية مَعْلم من معالم طريق الدعوة، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٣١]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولا بد أيضًا أن يكون حليمًا صبورًا علىٰ الأذىٰ، فإنه لا بد أن يحصل له أذىٰ)[2]. ويقول إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ-: (الطريق إلىٰ الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلم وحجج، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك -عز وجل-: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧])[3]، ويقول الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]: (وكان التعليق

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير ٦٥، باب تفسير سورة اقرأ ٩٦ (٦/ ٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨ / ١٣٦).

(٣) كشف الشبهات (ص ١٣).

بإذا؛ لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقّق، ومتىٰ سلم أهل العلم والدين من الجاهلين؟!)[1].

والمقصود من تأييد كلمة ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- بهذه النصوص والنقول أمران:

الأول: أن يتزود المسلم بعامة، والداعية إلىٰ الله بخاصة، بالعلم الشرعي؛ ليكون معه سلاح يرد به علىٰ هؤلاء، كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- أعلاه: (فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين). فهؤلاء الأعداء أول سلاح لمواجهتهم هو سلاح العلم الشرعي.

الثاني: أن يصبر إذا أُوذي، ويعلم أن طريق الدعوة إلىٰ الله هذه صفته، والشخص إذا علم بمخاطر الطريق من أوله، استعدَّ له وهان عليه ما يواجهه، والله أعلم.

سادس عشر: ليوم الاثنين ميزة، أن نبينا محمد ﷺ وُلِدَ فيه، وبُعِث فيه، ولهذا ورد في السنة أنه يُستحب صيامه في كل أسبوع، ولا يسوغ أن يخص هذا اليوم بعبادة أخرىٰ غير الصيام؛ لعدم ورود الزيادة علىٰ الصيام في الشرع، وقد ورد النهي المغلّظ في النصوص الشرعية علىٰ ابتداع عبادات لم ترد في الشرع[2].

وهنا أشير إلىٰ أمر مهم، وهو أن الأوقات الفاضلة، يرد معها تبيين نوع العبادة، فمثلًا يوم عاشوراء أفضل العبادات هي الصيام، فهو مع فضله فلا يشرع فيه عبادة أخرىٰ زائدة غير الصيام، ورمضان نهاره أفضل عبادة هي الصيام، وليله أفضل عبادة هي القيام؛ لقوله ﷺ «من صام رمضان»[3]، وقوله: «من قام رمضان»[4]، وست شوال

---

(١) تفسير ابن باديس ص ١٩٤.

(٢) انظر: عبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية (ص ٨٨).

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٠١٤) ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

(٤) متفق عليه: البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

أفضل عبادة فيها الصيام لحديث: «من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال»[1]، ولما أراد الرسول ﷺ إطلاق العبادة بأنواعها وجدناه ﷺ يقول: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلىٰ الله من هذه الأيام. يعني العشر»[2]، أي عشر ذي الحجة، فهنا لم يحدد الرسول ﷺ العمل الفاضل بعبادة معينة؛ وعليه فيُشرَع صيامها وقيامها وقراءة القرآن وبر الوالدين وكل عمل صالح فهو فاضل.

وتأسيسًا علىٰ هذا يقال: إن الرسول ﷺ لما أخبرنا عن فضل يوم الاثنين بيَّن لنا معه العبادة الفاضلة فيه، وهي الصوم؛ فلا يصح أن نُضيف عبادة أخرىٰ لم يفعلها الرسول ﷺ، ولم يرغبنا فيها، ومن أراد سنة المصطفىٰ ﷺ فليصم يوم الاثنين، ويكتفي بما اكتفىٰ به الرسول ﷺ.

(١) صحيح مسلم (١١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) رواه أبو داود في سننه، وصححه الألباني (٢٤٣٨. من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

المبحث الثالث

الرسالة

عن جابر بن عبد الله، -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: حُبس الوحي عن رسول الله ﷺ في أول أمره، وحُبِّب إليه الخلاء، فجعل يخلو في حراء[1].

ثم بعد ذلك نزل جبريل -عليه السلام- علىٰ رسول الله ﷺ، قال ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن -رحمه الله تعالىٰ- أن جابر بن عبد الله الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال وهو يُحدِّث عن فترة الوحي[2]، فقال في حديثه عن الرسول ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس علىٰ كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني»، فأنزل الله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلىٰ قوله -تعالىٰ- : ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[3]، فحمي الوحي وتتابع[4].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٣/ ٢٨٠) رقم (١٥٠٣٣)، وقال المحقق: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن أبي حفصة، وهو متابع. روح: هو ابن عبادة القيسي. وأخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٢٩٤) عن محمد بن أبي حفصة، بهذا الإسناد».

(٢) قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ٢٠٦): «يعني احتباسه وعدم تتابعه وتواليه في النزول».

(٣) قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠٨): (أما تفسير قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾؛ فقال العلماء المدثر والمزمل والمتلفف والمشتمل بمعنى واحد، ثم الجمهور على أن معناه المدثر بثيابه... وقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ معناه حذّر العذاب مَن لم يؤمن. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظّمه ونزّهه عما لا يليق به، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قيل معناه طهرها من النجاسة.. وقيل المراد بالثياب النفس أي طهرها من الذنب وسائر النقائص. ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ بكسر الراء في قراءة الأكثرين وقرأ حفص بضمها وفسره في الكتاب بالأوثان، وكذا قاله جماعات من المفسرين، والرجز في اللغة: العذاب، وسمي الشرك وعبادة الأوثان رجزًا؛ لأنه سبب العذاب، وقيل المراد بالرجز في الآية الشرك، وقيل الذنب وقيل الظلم، والله أعلم).

(٤) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري (١/ ٢٧) كتاب بدء الوحي. واللفظ له، وصحيح مسلم (١٦١).

هنا نزل أمر عظيم علىٰ الرسول ﷺ، نقف معه الوقفات التالية:

١) المقصود من فتور الوحي عن الرسول ﷺ إنما هو ليذهب عنه الروع، وليحصل له التشوق إلىٰ العود، فلما ذهب عنه الروع والخوف واطمأن الرسول ﷺ وظهرت الحقيقة له، وبدأ رسول الله ﷺ في الترقب لمجيء الوحي والاستعداد له، جاء جبريل بالوحي(١).

٢) وثمة أمر آخر من حكمة فترة الوحي، وهو التأكيد علىٰ اختصاص الله وحده بالوحي متىٰ شاء أنزله، وأن محمدًا ﷺ لا يملك تقديمه ولا تأخيره.

٣) في الحديث الأول الذي جاء فيه: أن جبريل -عليه السلام- نزل إلىٰ الرسول ﷺ بـ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ أصبح محمد بن عبد الله ﷺ نبيًّا، وفي هذا الحديث أصبح ﷺ رسولًا، وحينئذ يكون ﷺ نبئ بـ ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وأرسل بـ(المدثر)(٢). ويستفاد من هذا: التدرج في تحقيق المراد، فالرسول ﷺ بدئ بالخلوة، ثم الرؤيا الصادقة، ثم النبوة، ثم الرسالة، وهكذا الفرد وهو يتعلم أو يُعَلِّم أو يدعو إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- يتدرج، في مراده ليصل إلىٰ مقصوده علمًا وعملًا.

٤) يقول -سبحانه وتعالىٰ- لنبيه ﷺ: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، ولقد قام ﷺ وظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين سنة في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، وهذا الأمر لم يكن خاصًّا بمحمد ﷺ، فكما أن ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ لمحمد ولأمة محمد ﷺ، وكما أن ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ ليست خاصة بمحمد ﷺ؛ فكذلك ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ليست له ﷺ خاصة، بل له ولأمته، فكما يحرص الشخص علىٰ طهارة ثيابه انطلاقًا من قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾؛ فلا بد أن يحرص علىٰ الدعوة انطلاقًا من قوله -تعالىٰ- قبل ذلك: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، ولا بد أن ننتبه إلىٰ أن قوله -تعالىٰ-: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري ١/ ٢٧.

(٢) انظر: الرفاعي، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٧.

جاء متقدمًا في بداية الأوامر كلها، فلماذا يغفل المسلم عنه، ويتجاوزه إلىٰ الأوامر الأخرىٰ؟ فلا بد من القيام بهذه الأعمال جميعها، وتصور شخصًا يقال له: قم فأنذر، والآمر هو الله -جل شأنه-!، ألا يقفز؟ ألا يثب ويهب واقفًا فزعًا كأن هناك خطر قادم؟ وهل هناك أخطر من أن يموت الفرد علىٰ الكفر؟ فهلا استشعرنا هذا المعنىٰ، وهذا الأمر في القرآن؟ اللهم اهدنا وأعنا.

٥) يقف الشخص عند قول الله -تعالىٰ-: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾؛ لماذا اقتصر علىٰ النذارة، وأين البشارة؟ يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الجواب عن ذلك: (وأما الإنذار فالحكمة في الاقتصار عليه هنا فإنه أيضًا بُعث مبشرًا؛ لأن ذلك كان أول الإسلام فمتعلق الإنذار محقق فلما أطاع من أطاع نزلت ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥])[(١)].

٦) نخلص من هذا الموقف إلىٰ أن البعثة النبوية قد بلغت أوجها ومرت خلال ذلك بالمراحل التالية:

١- لما دنت بعثة الرسول ﷺ، ظهرت المقدمات الخاصة والمقدمات العامة:

أما المقدمات الخاصة، فكان منها الخلوة والرؤيا الصادقة، وتسليم الحجر، ونحو ذلك.

أما المقدمات العامة فكثيرة منها ما ورد في التوراة والإنجيل، ونقله علماء اليهود والنصارىٰ وتحدثوا عنه، ومنها ما يتعلق باستراق السمع من السماء ونقله الجن إلىٰ الكهان الذين تحدثوا به. ومنها ما تبع ذلك من حجب السماء عن استراق السمع.

٢- نزول الوحي بـ(اقرأ) علىٰ الرسول ﷺ وهي مرتبة النبوة، وهي الإخبار فقط دون الأمر بالإنذار.

---

(١) فتح الباري ٨/ ٧٢٢.

٣- نزول الوحي علىٰ رسول الله ﷺ بالأمر بالإنذار وهي مرتبة الرسالة، فأصبح بذلك مبعوثًا من الله -سبحانه وتعالىٰ- بشيرًا ونذيرًا للعالمين أجمعين[١].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نزلت بعد فترة الوحي الأول، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فكان الوحي الأول للنبوة والثاني للرسالة)[٢]، ووافقه علىٰ هذا شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ-[٣].

(١) انظر: محمد جاد المولى بك، محمد المثل الكامل ص ٨٤.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية ج١) (ص ١٠١).

(٣) انظر: محمد بن عبد الوهاب، الأصول الثلاثة (ص ١٧).

المبحث الرابع

الاستعداد للقيام بالرسالة

كان أول ما نزل على الرسول ﷺ قول الله -تعالىٰ-: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥) ثم نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١-٧]، ثم كان مما نزل قول الله -تعالىٰ- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل ١-٥].

وقد ذكرتُ في المبحث السابق قول العلماء: إن محمدًا ﷺ نُبِّئ باقرأ، وأرسل بالمدثر، فهو بقول الله -جل شأنه- له ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أصبح رسولًا إلىٰ هذه الأمة.

ثم جاء الوحي بعد ذلك بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾. وظاهر الأحاديث الصحيحة تأخر المزمل؛ لأن فيها ذكر قيام الليل وغير ذلك مما تراخىٰ عن ابتداء نزول الوحي بخلاف المدثر فإن فيها ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[1].

عن سعد بن هشام بن عامر -رحمه الله تعالىٰ، ورضي عن أبيه-، قال: قلت لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: (ألست تقرأ يا أيها المزمل؟» قلت: بلىٰ، قالت: (فإن الله -عز وجل- افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولًا، وأمسك

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٦٧٨).

الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، حتىٰ أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة)[1].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: ثم تتام الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، وتحمّل منه ما حمله علىٰ رضا العباد وسخطهم، والنبوة أثقال ومؤنة، لا يحملها، ولا يستطيع بها، إلا أهل القوة والعزم من الرسل، بعون الله -تعالىٰ- وتوفيقه، لما يلقون من الناس، وما يُرَدّ عليهم مما جاءوا به عن الله -سبحانه وتعالىٰ-)[2].

لقد تتام الوحي علىٰ الرسول ﷺ وتمت التوجيهات الرئيسة الأولىٰ، وعزم وشمر للقيام بالأمانة الكبرىٰ التي تحملها ﷺ، وهنا أقف هذه الوقفات:

الأولىٰ: ما المراد بالمزمل؟ قال الإمام الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (أولىٰ القولين بتأويل ذلك ما قاله قتاده -رحمه الله تعالىٰ- لأنه قد عقبه بقوله ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾؛ فكان ذلك بيانًا عن أنه وصفه بالتزمل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معانيه)[3].

ووافقه علىٰ ذلك ابن عطية -رحمه الله تعالىٰ- فقال: (وقال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: كان تزمل في ثيابه للصلاة، واستعد فنودي علىٰ معنىٰ يا أيها المستعد للعبادة المتزمل لها، وهذا القول مدح له ﷺ)[4].

وقد بيّن الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ- أنه ﷺ خُوطب بهذا في أول ما نزل في الوحي، ثم بعد ذلك خُوطب بالنبوة والرسالة[5].

---

(١) صحيح مسلم ٧٤٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٢٤).

(٣) الطبري، تفسير الطبري (٢٣/ ٣٥٨). وانظر ابن جزي في التسهيل (٢/ ٤٢٢) فقد أورد عدة أقوال أخرى.

(٤) ابن عطية، المحرر (٥/ ٣٨٦).

(٥) انظر: الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٣٧٨).

الثانية: لماذا قال﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ ولم يقل (يا محمد)؟ لم تأتِ الآية بلفظ (يا محمد)؛ بل جاءت باسم مشتق من فعل، لكي لا تكون خاصة بالنبي ﷺ[1]؛ فيا أيها المؤمن قم، قم فصَلِّ، ولا تغفل عن ذِكْر الله، واستعدّ وتزوّد من الصلاة لعملك الدعوي، ولذلك قام الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- مع الرسول ﷺ؛ استجابةً لما ورد في هذه الآيات.

الثالثة: قوله -تعالىٰ- ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: (هذا أمر من الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ بأن يقوم الليل مصليًا كله إلا قليلًا منه ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾: يقول قم نصف الليل، أو انقص من نصفه قليلًا. ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ خَيرَّه الله -تعالىٰ ذِكْرُه-، حين فرض عليه قيام الليل بين هذه المنازل، أي ذلك شاء فعل)[2].

فأول عمل أمره الله به في خاصة نفسه، ومن آمن معه من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وشهدوا شهادة التوحيد؛ أن يتزودوا بالصلاة، وصلاة طويلة.

وأمره بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها وهو قيام الليل[3].

وهذا يدل علىٰ فضل صلاة الليل وعبادة الخلوات، فهي من أعظم المثبّتات للعبد، وما مِنْ نبي من الأنبياء إلا أمره الله بالعبادة قبل الرسالة.

الرابعة: أنّ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولًا»؛ هذا يعني أن عددًا من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذي كان قد دخلوا في الإسلام في ذلك الوقت قد قاموا مع الرسول ﷺ هذا القيام الطويل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل:٢-٤]، واستمروا علىٰ ذلك

(١) انظر: النابلسي، تفسير النابلسي (١٠/ ١٣٣).
(٢) انظر: الطبري، تفسير الطبري (٢٣/ ٣٥٨).
(٣) انظر: السعدي، تفسير السعدي (١٠٥٣).

حولًا، وهذا لبناء القاعدة الصلبة التي ستتحمل المشاق والمتاعب في سبيل هذه الدعوة، ولا شك أن السابقين إلىٰ الإسلام أصابهم من الإيذاء والتعذيب ما لم يُصِب من جاء بعدهم، ولا قريبًا من ذلك، بعد أن كثر الداخلون فيه، هؤلاء الذين يمثلون القاعدة الأساسية، يحتاجون إلىٰ بناء قويّ راسخ كي يثبتوا، ويتحملوا الأذىٰ الشديد، ويؤثِّروا في الآخرين، فقد كان لهؤلاء السابقين إلىٰ الإسلام إسهام كبير جلي في الدعوة إلىٰ الله، ودخول عدد من الصحابة في الدين، والذي نخلص منه أن الصلاة لها أثر كبير في التثبيت علىٰ دين الله مهما كانت المشاقّ، أليس الله -جل شأنه- يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وفي سيرة الرسول ﷺ نراه إذا حزبه أمرٌ صلىٰ)[1]؛ فالصلاة الصلاة هي خير زاد في هذا الطريق إلىٰ الله -جل شأنه-.

الخامسة: أن الرسول ﷺ ومعه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كانوا يقومون ليلًا طويلًا، ويتلون القرآن كما ورد في الآيات ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وهذا يدل علىٰ أن سورة المزمل نزلت بعد المدثر، وأنه نزل بينهما قرآن كثير يتلونه في صلاتهم؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- إن (نزولها تأخر عن نزول يا أيها المدثر بالاتفاق؛ لأن أول يا أيها المدثر الأمر بالإنذار، وذلك أول ما بُعِث، وأول المزمل الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن؛ فيقتضي تقدم نزول كثير من القرآن قبل ذلك)[2]. ومع التلاوة الأذكار في الركوع والسجود، وهذا يدلنا علىٰ أهمية الأذكار سواء في الصلاة أو خارجها في تثبيت المسلم وتقويته علىٰ المضي في الطاعة.

السادسة: الظاهر أن هذه الصلاة بهذه الكيفية -ركوع وسجود- غير معروفة عند قريش، وإن كانوا يعرفون الصلاة عمومًا، ويدل لهذا قول الله -تعالىٰ-: ﴿أَرَءَيْتَ

(١) رواه أبو داود في سننه، وحسنه الألباني، صحيح سنن أبي داود للألباني (١٣١٩).
(٢) فتح الباري (٨/ ٧٢٢).

﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩]؛ فالآيات تدل علىٰ صلاة فيها سجود، وصلاة يستنكرها أبو جهل وأضرابه، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: (قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن علىٰ رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة)[1]. فكأن الأمر المستغرب عند أبي جهل هذه الكيفية «يعفر محمد وجهه».

وعلىٰ هذا كما يقول ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (الصلاة التي كان يصليها النبي ﷺ صلاة غير الصلوات الخمس، وفيها سجود لقول الله -تعالىٰ-: واسجد واقترب)[2].

السابعة: هذه الآيات تدل علىٰ أن العبادة والعلم متلازمان، لا ينفك واحد عن الآخر، وأن من اجتمع علمه بالقرآن بعبادته، اكتملت فيه أركان الثبات علىٰ الحق؛ وذلك لأن العلم والعبادة كالقدمين، لا يقام إلا عليهما، فالعلم يزيل الشبهات، والعبادة تزيل الشهوات قال -تعالىٰ-: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت:٤٥][3].

الثامنة: إن الله -جل شأنه- أمر بالصلاة في الليل، ثم بيَّن له سبب ذلك بأن سيلقي عليه قولًا ثقيلًا. ولا شك أن إبلاغ الناس هذا القرآن الكريم بأوامره ونواهيه ودعوتهم إليه ليس بالأمر الميسور، كما أن القيام بالإصلاح شاقّ، والإصلاح يتبعه

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤) رقم (٢٧٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٣).

(٣) الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن الكريم (٤/ ١٩٣١).

شدة، والشدة تحتاج إلىٰ ثبات، ولا يُثَبِّتُ المصلح شيء كتقوية صلته بالله بالعبادة، ولهذا قال الله -جل شأنه- لنبيه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، ثم بيَّن سبب ذلك ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[1].

وهذا معنىٰ قول ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في رواية عطاء -رحمه الله تعالىٰ-: قولًا ثقيلًا يعني كلامًا عظيمًا، ووجه النظم أنه -تعالىٰ- لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولًا عظيمًا، فلا بد أن تسعىٰ في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله -تعالىٰ- وأقبل علىٰ ذِكْره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس لما هُيئت له، فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنىٰ لا جرم قال: إني إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنُلقي عليك قولًا ثقيلًا، فصيِّر نفسك مستعدّة لقبول ذلك المعنىٰ[2].

وهذا يدل علىٰ أن هناك أمرًا عظيمًا ينتظر الرسول ﷺ ليقوم به، وأن عليه الاستعداد لهذه المهمة العظمىٰ بالوقوف طويلًا في الليل مصليًا؛ لكي يستطيع أن يؤدي المهمة المكلَّف بها.

ولا بد لأي نفس تريد أن تصلح وتؤثر في غيرها وفي واقع المجتمع، لا بد لها من الخلوة بالله -جل شأنه- وإدامة الوقوف بين يديه في الليل، ففي الليل مجاهدة النفس بالتزود بالصلاة، وفي النهار مجاهدة الناس بالدعوة والصبر علىٰ عَنَتهم، والأولىٰ أساس للثانية.

---

(١) انظر: الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن (٤/ ٢١٨٥).

(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٣٠/ ٦٨٣).

ولا تصدق أن شخصًا يمكن أن يتحمل هذه المصاعب؛ دون أن يكون له خلوة مع الله -جل شأنه- ووقوف بين يديه، فالعطاء يحتاج إلىٰ كسب، وفاقد الشيء لا يعطيه.

الذي أخلُص إليه من خلال الآيات التي كانت هي بداية الوحي:

- ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أمر بالعلم.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ الأمر بالدعوة إلىٰ الله.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الأمر بالصلاة في الليل من أجل القيام بالدعوة.

فهذه ثلاثة أمور لا بد منها للمسلم: العلم، والدعوة، والعبادة.

فلا بد أولًا من العلم، ولا تصلح دعوة بلا علم، ولا قيمة لعلم بلا دعوة، ودعوة بلا زاد ليلي من الصلاة، يتزود بها في مكابدة الناس، ينقطع صاحبها سريعًا، وينفذ صبره وتنهار قواه ضحىً[1].

بقي الأمر المهم، بل الأهم، وهو ما هي هذه الرسالة التي حُمِّلها الرسول ﷺ، وبدأ بالاستعداد لها بقيام الليل، ومن هم الأشخاص الذي سيتوجه إليهم بهذه الرسالة أوَّل الأمر؟

هذا هو موضوع المبحث التالي:

(١) انظر: كتابي الداعي إلى الله: (تكوينه ومسؤوليته) تحدثت فيه عن نزول هذه السور الثلاث ودلالتها في العلم والدعوة والعبادة. نشرته دار العاصمة بالرياض عام ١٤١٥هـ.

المبحث الخامس

حال الأميين المخاطبين بالدعوة وجوهر الرسالة

قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥]؛ ما هذا القول الثقيل؟ والقائل هو الله -جل شأنه-، والمقول له محمد المصطفىٰ ﷺ.

تعال وانظر، لنتعرف علىٰ القول الثقيل الذي حمله الرسول ﷺ بناء علىٰ هذا الوحي الرباني. لنعرف مدىٰ ثقله، ويتضح لنا عظم العمل الذي قام به الرسول ﷺ، ولندرك حقيقة هذه الرسالة وجوهرها.

ما هو القول الثقيل؟ قال ابن عطية -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (وقال حُذاق العلماء: معناه ثقيل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ومزاولة الأعمال الصالحة دائمة، قال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: إن الهَذَّ خفيفٌ، ولكن العملَ ثقيلٌ)[(١)].

وقال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي: سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل. قال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: ثقيل والله فرائضه وحدوده. قال مجاهد -رحمه الله تعالىٰ-: حلاله وحرامه. قال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: العمل به. قال أبو العالية -رحمه الله تعالىٰ-: ثقيلا بالوعد والوعيد، والحلال والحرام)[(٢)].

---

(١) ابن عطية، المحرر (٥/ ٣٨٧).

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٣٧٩).

هذا بعض معاني القول الثقيل، لكن ما أحوال الذين سيخاطبون أول مرة بهذا القول؟ **سأتحدث في هذا المبحث عن مسألتين:**

المسألة الأولىٰ: الحالة الدينية للأميين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ.

المسألة الثانية: الحالة الاجتماعية للأميين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ. ومن خلال هاتين المسألتين يتبين جوهر الرسالة التي بعث بها محمد ﷺ إلىٰ هذه الأمة.

■ المسألة الأولى: الحالة الدينية للأميين الذين بعث فيهم الرسول ﷺ

قال -تعالىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

ما هذا الضلال المبين؟ يقول الدهلوي -رحمه الله تعالىٰ- في حجة الله البالغة: (إن كنت تريد النظر في معاني شريعة رسول الله ﷺ، فتَحَقق أولًا حال الأميين الذين بُعث فيهم، التي هي مادة تشريعه)[1]. لقد صدق في هذه الإشارة، ولذلك أبدأ بالحديث عن حال الأميين الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ.

كان العرب في أبواب العبادات والطهارة يرون الغسل من الجنابة سُنَّة ماضية فيهم، وإذا أجنب المرء منهم بمعنىٰ أنزل الماء، أبعد عن مواقع العبادة، ولهذا سموه جنبًا، أي بعيدًا، مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، يعني البعيد؛ لأنهم كانوا يأمرونه بالابتعاد عن الكعبة، وبالابتعاد عن مواطن العبادة حتىٰ يتطهر، وكان تطهرهم من الجنابة شائع معروف، وأبو سفيان بعد هزيمة قريش في بدر أقسم أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتىٰ ينال من محمد، كما أن النساء كن يغتسلن من الحيض، ومعروف ذلك حتىٰ في أشعارهم.

(١) انظر: الدهلوي، حجة الله البالغة (١/ ٢١٧).

أما التطهر من الحدث الأصغر فكان معروفًا عند طائفة قليلة منهم، وإن كان بغير الصفة الشرعية، وكذلك الختان وسائر خصال الفطرة.

وكانت فيهم صلاة، وكان أبو ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- يصلي قبل أن يقدم علىٰ النبي ﷺ بثلاث سنين[1]. وذُكر أن قس بن ساعدة الأيادي كان يصلي، والمحفوظ من الصلاة في بقية العرب أفعال تعظيمية وأقوال من الدعاء والذكر، ويسمونها صلاة، لكن هل هذه الصلاة فيها سجود؟

ورد في فتح الباري قوله عن زيد بن عمرو بن نفيل -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وكان يقول اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد علىٰ الأرض براحته)[2]. ولكن الذي ورد في سيرة ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم يسجد علىٰ راحته)[3]. وابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عزا العبارة لابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-؛ فلعله نقلها بالمعنىٰ، وورد في بعض كتب السير أنها صلاتهم كانت بدون سجود[4].

وذكر القرآن الكريم بعض صلواتهم الجاهلية فقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال:٣٥]. قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: كانت قريش تطوف بالبيت عراة، يصفّقون ويصفّرون، فكان ذلك عبادة في ظنهم والمكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق، قاله مجاهد والسدي وابن عمر

(١) ولفظه كما في صحيح مسلم (٤/ ١٩١٩) رقم (٢٤٧٣)، قال: «وقد صليت، يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين، قلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأني خفاء، حتى تعلوني الشمس».

(٢) ابن حجر، الفتح (٧/ ١٤٥).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٠٨).

(٤) انظر: الصالحي، سبل الهدى (٢/ ٣٠٢).

-رضي الله تعالىٰ عنهم-»[1]. فتأمل هذه الآية كأنها تشير إلىٰ أن هذه صفة صلاتهم.

وكانوا يتوجهون إلىٰ الله أحيانًا ببعض الأدعية عند الشدائد، ومعلوم قصة لجوء عبد المطلب بالدعاء عند الكعبة، لما حاصرهم أبرهة الحبشي لهدمها، وقوله: (أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه)[2]، وكانوا يجتمعون للاستسقاء إذا تأخر نزول المطر[3].

ومما كان فيهم: تغسيل الموتىٰ، وقصة أبي لهب لما مات واستنكاف أبنائه عن تغسيله ودفنه؛ بسبب خوفهم من المرض المعدي الذي أصابه، مما يعني أن المعروف عندهم تغسيل الميت[4].

وكان فيهم الصوم لكنه صيام مختلف، فمنهم من يصوم من الفجر إلىٰ غروب الشمس، أو من طلوع الشمس إلىٰ غروبها، وكانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية[5]، وكان الجوار في المسجد، وكان عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- نذر اعتكاف ليلة في الجاهلية، فاستفتىٰ في ذلك رسول -ﷺ-، فأفتاه بأن يعتكف وفاءً بنذره في الجاهلية[6].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤٠٠).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٥).

(٣) انظر، محمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية (٧٥).

(٤) قال ابن كثير في السيرة (٢/ ٤٧٩) في شأن تغسيل أبناء أبي لهب لأبيهم ودفنه، بعد موته بالمرض المعدي (العدسة): «فو الله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة».

(٥) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: (كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه) متفق عليه: صحيح البخاري (٢٠٠٢) وصحيح مسلم (١١٢٥).

(٦) عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه سأل النبي ﷺ، قال: كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال: «أوف بنذرك» متفق عليه: صحيح البخاري (٢٠٣٢)، وصحيح مسلم (١٦٥٦).

وكانت فيهم الزكاة، وكان المعمول عندهم منها قرىٰ الضيف وابن السبيل وحمل الكَلّ، والصدقة علىٰ المساكين وصلة الأرحام، والإعانة في نوائب الحق، وكانوا يُمدَحون بها، ويعرفون أنها كمال الإنسان وسعادته، قالت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- للرسول ﷺ عندما جاء إليها من غار حراء خائفًا: (فو الله: لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين علىٰ نوائب الحق)[1]. وقال ابن الدغنة لأبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- مثل ذلك، وكان العاص بن وائل من زعماء الجاهلية -والد عمرو بن العاص الصحابي الجليل رضي الله تعالىٰ عنه- أوصىٰ أن يعتق عنه كذا وكذا من العبيد.

وأما حج بيت الله وتعظيم الشعائر والأشهر الحرم، فأمره أظهر من أن يُذكَر، ولم تزل سُنتهم الذبح في الحلق، والنحر في اللُّبة. وكانوا لا يُنَفِّرون صيد الحرم، بل كان الشخص يجد قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه ولا يتعرّض له[2]. وفي غزوة الحديبية لما بعثت قريش بالحليس بن علقمة وافدًا منهم لمقابلة الرسول ﷺ، ولما رآه الرسول ﷺ مقبلًا، قال: هذا من قوم يتألهون فابعثوا في وجهه الهدي، فلما رأىٰ الهدي رجع إلىٰ قريش، ولم يصل إلىٰ الرسول ﷺ؛ إعظامًا لما رأىٰ[3].

وكان طائفة منهم يتحنثون ويتخلون في غار حراء وفي غيره من الخلاء؛ للتفكر والذكر، يتأملون ويذكرون الله -جل وعلا-، وكانت قريش تفعله وهو من بقايا سنن الاعتكاف عندهم، وعبد المطلب يقال: إنه أول من كان يتحنث في غار حراء[4]، والنبي ﷺ كان يتحنث الليالي ذوات العدد في ذات المكان الذي كان يتحنث فيه جَدُّه. والتحنث يعني العزلة عن الناس والتعبد بذلك، والخلوة للتفكر والعبادة،

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: الدهلوي، حجة الله البالغة (١/ ٢٢٢).

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٣١٦).

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٣/ ٣٥٥). والقسطلاني، إرشاد الساري (١٠/ ١١٩).

كانت معروفة عندهم.

(ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وينتظر النبوة. وكانت لهم سنن وشرائع)[١]. بل منهم فئة رفضت بعض عقائد المجتمع، وحاولوا وسعوا للتوحيد بشكل من أشكال العبادة، ولكن دون أن يتعدّىٰ ذلك نفوسهم وحياتهم الخاصة؛ كأمثال زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنهما-.

سمع زيدٌ بن عمرو بن نفيل، أميةَ بن أبي الصلت يومًا ينشد:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا ديـــن الحنيفـــة زور

فقال له: صدقت.

وقال زيد أيضًا:

فلن تكون لنفس منك واقية يوم الحساب إذا ما يجمع البشر[٢].

(وزهير بن أبي سلمىٰ المزني، كان يمر بالعضاه[٣]، وقد أورقت بعد يبس فيقول: لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيي العظام وهي رميم)[٤].

نعم كان أهل الجاهلية يتعبدون، كان فيهم من يعتني بالطهارة من الأحداث بنوع من الاعتناء، وكان منهم أهل الصلاة، ومنهم أهل الصيام، ومنهم أهل الدعاء، ومنهم أهل الحج، ومنهم أهل الزكاة، ومنهم أهل الصدقة، ومنهم أهل الصلة، ومنهم أهل الذبح، ومنهم أهل التقرب إلىٰ الله بالطواف والتحنث والاعتكاف، لكنها عبادات محرفة، وفيها كيفيات نالها الكثير من الانحرافات حسب أهوائهم، وآراء شيوخ القبائل المطاعين فيهم.

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل (٣/ ٨٦).
(٢) الشهرستاني، الملل والنحل (٣/ ٨٦).
(٣) العضاه: بكسر العين وفتح الضاد، نوع من الشجر له شوك. مختار الصحاح.
(٤) الشهرستاني، الملل والنحل (٣/ ٨٨).

وكانت عندهم أخلاق سيئة، وأخرىٰ حسنة، فقد كان منهم من يأكل الميتة، ومنهم من يقطع الرحم، ومنهم من يسيء الجوار، وفيهم تسلط من القوي علىٰ الضعيف.

وعندهم أخلاق حسنة وقد جاء الرسول ﷺ ليتممها قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(١).

كانوا يُجلِّون ويُعظِّمون الحرم، ويمنعون الظلم فيه، ويخشون العقوبة، وقد مرّ علينا حلف الفضول، ومسارعة عدد من زعمائهم إلىٰ مساندة المظلوم في الحرم، وأخذ حقه من الظالم.

ولما أرادوا بناء الكعبة قالوا: لا يدخل فيها مال من ربًا ولا مظلمة ولا مَهر بغي، وهذا دليل علىٰ معرفتهم بحرمته، وكانوا يعرفون حرمة الزنا، وقصة عبد الله بن عبد المطلب (والد الرسول الكريم ﷺ) لما دعته امرأة للزنا؛ رفض لما يعتقده من حرمة الزنا مع أنه كان شابًّا عزبًا. وقال:

أما الحرام فالممات دونه والحــل لا حــل فأســتبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

وكانوا يرجمون في الزنا، وذكر القلقشندي أن أول من رجم في الزنا في الجاهلية ربيع بن حدان، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن(٢).

وحرّموا الخمر، وعدد كبير من سادات قريش لم يشربوا الخمر، وقطعوا يد

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١١٨) رقم (٢٧٣)، وصححه الألباني من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) انظر: محمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية (ص ١١٧).

السارق[1].

وكان النساء يتحجبن، وكانوا يغارون على أعراض نسائهم أشد الغيرة، يقول الأزرقي -رحمه الله تعالىٰ- عن تحجب نسائهم: (وكانت الجارية إذا حاضت أُدْخلت دار الندوة، ثم شَقَّ عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها، ثم درَّعها إياه، وانقلب بها أهلها فحجبوها)[2].

ومن أشعارهم قول عنترة بن شداد:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي ... حتىٰ يواري جارتي مأواها[3].

وقول حاتِم الطائي:

أعشـــو إِذا مَا جـــارتي بـرزت ... حَتَّىٰ يواري جارتي الخدر[4].

والمقصود من هذا أن العرب الذي بُعث فيهم محمد -ﷺ- لم يكونوا بعيدين عن العبادة- كما يتصور البعض-؛ بل كانوا يتعبدون بأمور ورثوها من دين إبراهيم -عليه السلام-، مع تحريفات وزيادات وتعديلات يُدخلها عليها زعماؤهم.

وهم مقرون بالربوبية لله -عز وجل-، وأن الله -جل شأنه- هو الخالق الرازق وحده، وهو الذي يحي ويميت وحده، ويقولون ما شاء الله، ويؤمنون بالله. وإذا

(١) انظر: الأصنام للكلبي، والسيرة النبوية لابن هشام، والروض الأنف للسهيلي، وأخبار مكة للأزرقي، والملل والنحل للشهرستاني (٣/ ٩٤)، وحجة الله البالغة للدهلوي، وأديان العرب في الجاهلية لمحمد الجارم (ص ١١٧). وتاريخ الفكر الديني الجاهلي لمحمد الفيومي، ورفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، لعبد الرحمن المعلمي (١/ ١٠٨)، وشرح كشف الشبهات للشيخ صالح آل الشيخ (مقدمة الشرح)، لمزيد من التفاصيل.

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق عبد الملك بن دهيش (ص ١٧٨).

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٤) (٦/ ٣).

(٤) عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة (القاهرة: مكتبة الخانجي (١٤١٨)، (٣/ ٧٤).

تحدثوا مع شخص، وشكروه علىٰ فعله، قالوا له (جزاك الله خيرًا)، قال -تعالىٰ- عن إقرارهم بالربوبية ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقال -تعالىٰ- : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧].

لكنهم كانوا في جهالة جهلاء في مسألة التوحيد؛ عن عياض بن حمار المجاشعي -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ، قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلىٰ أهل الأرض، فمَقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[1].

قال النووي في شرح صحيح مسلم: (قوله ﷺ: «وإن الله -تعالىٰ- نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»؛ المقت أشد البغض، والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ، والمراد ببقايا أهل الكتاب الباقون علىٰ التمسك بدينهم الحق من غير تبديل)[2].

وأخرج الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره بسنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، قال: جلسنا إلىٰ المقداد بن الأسود -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال:

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧) رقم (٢٨٦٥).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٩٨). وقال الشيخ صالح الفوزان في إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (ص ٤٧٧): (فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب انقرضوا قبل البعثة)، ويقول الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: (المراد بالجاهلية هنا ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم، حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يسمون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن).

(لقد بُعث رسول الله ﷺ علىٰ أشد حالة بُعِثَ عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية، ما يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرَّق به بين الحق والباطل)[1].

ويؤيد هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما-، قالت: (رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلىٰ الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم علىٰ دين إبراهيم غيري)[2]؛ فهو يقسم أمام الملأ، ولا يرد عليه أحد، لقد أصبح دين إبراهيم -عليه السلام- في مكة غريبًا.

ويقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: واجتمعت قريش يومًا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيدًا لهم في كل سنة يومًا، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم علىٰ بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم علىٰ شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم (دينًا)، فإنكم والله ما أنتم علىٰ شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم)[3].

هكذا عامة قريش يطوفون بالأصنام، وينحرون لها ويعكفون عندها ويعظمونها، والاستثناء هو انتقاد ذلك، والبحث عن دين إبراهيم -عليه السلام- من هؤلاء الأربعة الذين يتحدثون علىٰ استخفاء بينهم.

وأبو سفيان زعيم قريش وقائدهم يوم أُحُد يقول بعد انتهاء الغزوة (اعلُ هبل)، وهو صنم عظيم من أصنامهم، كما سيأتي الحديث عن ذلك في غزوة أُحد.

---

(١) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن تحقيق عبد الله التركي (طبعة دار هجر)، (١٧/ ٥٣١).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٤١)، (الطبعة السلطانية).
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢) تحقيق السقا، باختصار.

في هؤلاء القوم بُعث محمد ﷺ، فعاداه غالب زعمائهم، وكذّبوه وآذوه واتّهموه بكل ما استطاعوا من التُّهَم، وحاربوه حتىٰ نصَره الله عليهم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

وهنا يأتي السؤال: أين المشكلة؟! ما الذي جعل كفار قريش ينفرون من هذه الدعوة النفرة الشديدة، ويعادون الرسول ﷺ، ويكذّبونه ويتّهمونه بكل ما استطاعوا، ويؤذونه ويحاربونه مستميتين في ذلك؟

قال الله -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس:١٩]، كان الناس كلهم علىٰ التوحيد، قال -تعالىٰ-: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام. لكن لما تركوا اتباع شريعة الأنبياء وقعوا في الشرك، فإن آدم أمرهم بما أمره الله به؛ حيث قال له: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨])[١].

ومنذ أن بعث الله -جل شأنه- نبيه إبراهيم -عليه السلام-، وأمره ببناء البيت علىٰ التوحيد، واستوطنت ذريته مكة، ومعظم العرب يدينون بدينه، ويتبعون ملته، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه، ويلتزمون شعائر دينه الحنيف، حتىٰ بدأ الانحراف يدبّ إليهم مع طول العهد وتقادم الزمن وانتشار الجهل.

وكانت خزاعة تلي البيت، يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر. واستمرت علىٰ ذلك نحوًا من ثلاثمائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة. والله أعلم. وفي زمانهم كان رئيس لهم

(١) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٦).

يدعىٰ عمرو بن لحي الخزاعي، بلغ مكانة عظيمة في نفوسهم، بسبب أنه كان ذا مال جزيل جدًّا، وربما نحر أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة في كل سنة، وكان يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويلت لهم السويق.

وكان -لعظم مكانته عندهم- يرون قوله وفعله فيهم كالشرع المتّبع؛ لشرفه فيهم ومنزلته عندهم، وكرمه عليهم، وكونه زعيمًا في هذا البلد الحرام.

قال ابن هشام: (حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلىٰ الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وجدهم يعبدون الأصنام؛ فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنمًا فأسير به إلىٰ أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنمًا يقال له: هُبَل. فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. فاستجابوا له.

وكان مما صنع عمرو بن لحي هذا أن له رئيًّا من الجن -أي صاحب من شياطين الجن-، وكان عمرو يكنىٰ أبا ثمامة، فأتاه رئيّه فقال: أجب أبا ثمامة، فقال: لبيك من تهامة، فقال له: ارحل بلا ملالة، قال له، جير ولا إقامة، قال: ائت صف جُدة، فيها أصنامًا مُعدَّة، فأورد بها تهامة، ولا تهب، ثم ادع العرب إلىٰ عبادتها تُجَب.

فأتىٰ عمرو ساحل جدة فوجد بها ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وهي الأصنام التي عُبِدَت علىٰ عهد نوح -عليه السلام-، ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفىٰ عليها الرمل فواراها، واستثارها عمرو، وحملها إلىٰ تهامة وحضر الموسم، فدعا العرب إلىٰ عبادتها، ولمكانته وزعامته في العرب وكونه زعيم مكة زعيمًا دينيًّا، ويعتبرون كلامه تشريعًا فيهم، فقد أجابوه، فأخذ عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن كلب، (ودًّا) فنصبه بدومة الجندل، وكان لقضاعة، وأخذ الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة (سواعًا)، فكان برهاط تعبده مضر،

وأخذ أنعم بن عمرو المرادي (يغوث) فكان بأكمة من اليمن يقال لها مذحج، تعبده مذحج ومن والاها، وأخذ مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيران بن نوف بن همدان (يعوق) فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاها، وأخذ معد يكرب أحد حمير وأحد ذي رعين (نسرًا) فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها)[1].

وكان العرب يقبلون كل ما يقوله لهم عمرو بن لحي، ويتدينون به، يذكر السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- أن عمرو بن لحي قد أخبر أهل مكة أن الرب يُشَتِّي بالطائف عند اللات، ويُصَيِّف بالعزىٰ، فعظّموها وبنوا لها بيتًا، وكانوا يهدون إليها كما يهدون إلىٰ الكعبة[2]. وهو الذي أمر بعبادة إساف ونائلة والتمسح بهما، ونصبهما علىٰ الصفا والمروة.

وكانت خزاعة تلي البيت، وقريش متفرقون في قومهم من بني كنانة، حتىٰ كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي.

وقد تزوج قصي بن كلاب[3] -الجد الرابع للرسول ﷺ- حبي ابنة حليل

---

(١) انظر: محمد بن حبيب البغدادي (ت: ٢٤٥)، المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، الطبعة الأولى (بيروت: عالم الكتب ١٤٠٥)، (٣٢٧-٣٢٨). وانظر: صحيح البخاري رقم (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعْدُ....».

(٢) انظر: الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس (بيروت: دار الأندلس للنشر)، (١/ ١٢٦)، والسهيلي، الروض الأنف (٢/ ٢٣٥).

(٣) قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ: سيد قريش في عصره، ورئيسهم. قيل: هو أول من كان له ملك من بني كنانة. وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي. مات أبوه وهو طفل فتزوجت أمه برجل من بني عذرة فانتقل بها إلى أطراف الشام، فشبَّ في حجره، وسمي «قصيًّا» لبعده عن دار قومه. وأكثر المؤرخين على أن اسمه «زيد» أو «يزيد»، ولما كبر عاد إلى الحجاز. وكان موصوفًا بالدهاء. وولي البيت الحرام. فهدم الكعبة وجدّد بنيانها (كما في تاريخ الكعبة) وحاربته القبائل فجمع قومه من الشعاب والأودية وأسكنهم مكة، لتقوى بهم عصبته، فلقبوه «مجمّعا»، وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء.=

الخزاعي هذا رئيس خزاعة في زمانه، فولدت له بنيه الأربعة؛ عبد الدار وعبد مناف وعبد العزىٰ وعبدًا، ثم صار أمر البيت إلىٰ قصي إما بوصية من حليل بن حبشية الخزاعي، أو أنه انتزعها من خزاعة بالقوة، وأجلاهم عن البيت، واستقل هو بولاية البيت[1].

وقد سار قصي علىٰ نهج من سبقه، فقد نقل صنمي إساف ونائلة من الصفا إلىٰ جوار الكعبة[2]، وكثرت الأصنام في بيوت مكة وما من رجل -بعد ذلك- من قريش إلا وفي بيته صنم، إذا دخل يمسحه، وإذا خرج يمسحه؛ تبركًا به[3]. وُلِد علىٰ ذلك الصغير، وشاب عليه الكبير، وأصبح أمرًا مألوفًا عند الجميع.

عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «عُرضت عليَّ النار فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصبه في النار، وكان أول من غيّر عهد إبراهيم وسيّب السوائب، وكان أشبه شيء بأكثم بن أبي الجون الخزاعي»، فقال الأكثم: يا رسول الله! هل يضرني شبهه؟ فقال: «إنك مسلم وهو كافر»[4].

=وكانت قريش تتيمن برأيه، فلا تُبرم أمرًا إلا في داره. وهو الّذي أحدث وقود النار في «المزدلفة» ليراها من دفع من «عرفة»، قال ابن هشام: غلب على مكة وجميع أمر قريش، وساعدته قضاعة. وقال ابن حبيب: كان الشرف والرياسة من قريش في الجاهلية في بني «قصيّ» لا ينازعونه ولا يفخر عليهم فاخر إلى أن تفرقت الرياسة في بني عبد مناف. وفي درر الفوائد: اتخذ لنفسه «دار الندوة»، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، وفيها كانت تقضي قريش أمورها، وكان أمره في قومه كالدين المتبوع «لا يعمل بغيره، في حياته ومن بعده، مات بمكة ودفن بالحجون» الأعلام للزركلي (٥/ ١٩٩).

(١) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٠).

(٢) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٠).

(٣) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٢).

(٤) صحيح ابن حبان، لابن حبان، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٨)، (١٦/ ٥٣٥)، وقال محققه ومخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. وقال الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٠/ ٤٥٥): (حسن صحيح، الصحيحة ١٦٧٧).

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال رسول الله ﷺ : «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصبه في النار، كان أول من سيّب السوائب»[١].

وكان أول مبدأ الانحراف الوثني وتسهيل قبول فكرة عبادة الأصنام والأحجار في العرب كما يقول الكلبي[٢] -رحمه الله تعالىٰ-: (كان الذي سلخ بهم إلىٰ عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم؛ تعظيمًا للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنًا منهم بها، وصبابة بالحرم وحبًّا بها، وهم بعدُ يعظّمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون علىٰ إرث إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-، ثم سلخ ذلك بهم إلىٰ أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلىٰ ما كانت عليه الأمم من قبلهم)[٣]. ففكرة وجود الأحجار المقدسة نشأت من حبهم لمكة، وعاطفتهم الدينية مع الجهل بحقيقة الدين.

وعن أبي رجاء العطاردي[٤] -رحمه الله تعالىٰ-، يقول: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخْير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به)[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٢٣)، وصحيح مسلم (٢٨٥٦).

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، (٦/ ٨٢-٨٤).

(٣) الكلبي، الأصنام ن تحقيق أحمد زكي باشا، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار الكتب المصرية ١٤٢٠)، (١/ ٦).

(٤) قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣): (الإمام الكبير، شيخ الإسلام، عمران بن ملحان التميمي، البصري. من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد فتح مكة، ولم ير النبي ﷺ. أورده: أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب، وقيل: إنه رأى أبا بكر الصديق. قال ابن عبد البر، وغيره: مات أبو رجاء سنة خمس ومائة، وله أزيد من مائة وعشرين سنة).

(٥) صحيح البخاري (٤٣٧٦).

وروىٰ الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي رجاء العطاردي -رحمه الله تعالىٰ- أيضًا قوله: (أدركت النبي ﷺ وأنا شابّ أمرد، ولم أرَ ناسًا كانوا أضلّ من العرب، كانوا يجيئون بالشاة البيضاء، فيعبدونها، فيختلسها الذئب، فيأخذون أخرىٰ مكانها يعبدونها، وإذا رأوا صخرة حسنة، جاؤوا بها، وصَلَّوا إليها، فإذا رأوا أحسن منها رموها)[1].

وذكر القرطبي -رحمه الله تعالىٰ- (أن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شيء حتىٰ إن بعضهم عمل صنمه من عجوة ثم جاع فأكله)[2].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (واستبدلوا بدين ابراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- غيره؛ فعبدوا الأوثان، وصاروا إلىٰ ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات)[3].

ومع هذه المعتقدات، إلا أنهم لم يكونوا علىٰ رأي واحد في البعث والنشور، فمنهم منكرو البعث والنشور قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ومنهم من ينكر البعث ويقرّ بالخلق؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس٧٨-٧٩]، ولو أنه غير مقرّ بالخلق الأول لما احتُجّ عليه به، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧]، ومنهم من هو مقر بالخلق والبعث منكر لأن يكون الرسول بشرًا قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وهؤلاء هم غالب مَن يعبد الأصنام، ويزعمون أنها تشفع لهم عند

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ٣٨٤).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١-٨٦-١٨٨).

الله -تعالىٰ- في الدار الآخرة، وقرّبوا لهم القرابين وطافوا بهم ونذروا لها وعبدوها من دون الله[١]، وكان هؤلاء يستدلون بامتناع الحشر والنشر علىٰ الطعن في رسالته. وقد ذكر الله -تعالىٰ- ذلك، وأجاب عنه بالوجوه الكثيرة في القرآن[٢].

ولم يكن هذا خاصًا بأهل مكة؛ بل كان في أهل المدينة كذلك من لا يرىٰ بعثًا ولا نشورًا، عن سلمة بن سلامة بن وقش -رضي الله تعالىٰ عنه- وكان من أصحاب بدر- قال: (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف علىٰ مجلس بني عبد الأشهل، فذكر البعث والقيامة والحساب، والميزان، والجنة، والنار؛ فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائنٌ بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان ترىٰ هذا كائنًا؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلىٰ دار فيها جنة، ونار يجزون فيها بأعمالهم، قال: نعم، والذي يحلف به لَوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غدًا)[٣].

ومع ذلك ففيهم من يؤمن باليوم الآخر والحساب، والبعث والنشور، ومما يروىٰ أن عبد المطلب جدّ النبي ﷺ كان يقول: لن يخرج من هذا الدنيا ظالم حتىٰ ينتقم الله منه، وهذا يدل علىٰ إنكاره للبعث والحساب، إلىٰ أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه، لم تُصِبه عقوبة؛ فقيل له في ذلك، ففكر، ثم قال: والله إن وراء هذه الدار دار يُجزىٰ فيها المحسن بإحسانه، والمسيء يعاقب بإساءته[٤].

---

(١) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير (١٢/ ٥١٧).

(٣) مسند الإمام أحمد (٢٥/ ١٦٤) رقم (١٥٨٤١)، (طبعة الرسالة) وقال المحقق: «إسناده حسن، من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين».

(٤) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة) (٣/ ٨٤)، ومحمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية (ص ١١٣).

وقال لبيد في الجاهلية[1]:

وكل امرئ يومًا سيعلم سعيه   إذا كُشفت عند الإله المحَاصلُ

وقال زهير بن أبي سلمىٰ في معلقته[2]:

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم   ليخفىٰ، ومهما يُكتَم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتابٍ فيُدَّخر   ليوم الحساب أو يُعَجَّل فيُنْقَم

والخلاصة من ذلك أن قريشًا والعرب الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بالربوبية، وفيهم جمع كبير ممن ينكر البعث والحساب، وفيهم من يقر به، ولهم عبادات في طهارتهم وصلاتهم ودعائهم، واستسقائهم، وصيامهم، وصدقاتهم، وحجّهم، ونذورهم، واعتكافهم، وسائر تعبداتهم، وإن كانت قد اختلطت بغيرها كثيرًا.

ومع هذه العبادات فقد كان لهم معبودات يتقربون إليها:

١. منهم من يعبد الأنبياء قال -تعالىٰ-: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٦].

---

(١) شرح ديوان لبيد (ص ٢٥٧).

(٢) شرح شعر زهير بن أبي سُلمى (ص ٢٦).

٢. ومنهم من يعبد الملائكة، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:١٩-٢٠].

ما نوع عبادة الملائكة؟ كان العرب يزعمون أن لله -تعالىٰ الله عن قولهم- بنات، وأنهن الملائكة، ويجعلون لها تماثيل تذكرهم بهن من الجمادات، ويعبدونها ويتمسحون ويتبركون بها، ويعتقدون فيها، ولم يكونوا يسجدوا لها؛ كما سيأتي.

٣. ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين قال -تعالىٰ-: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ﴾ [الشورى:٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال العوفي، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيرًا. وقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾. روىٰ البخاري، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله في قوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يُعْبَدون، فأسلموا. وفي رواية قال: كان ناس من الإنس، يَعْبُدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم)[(١)]. وقال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠١].

(١) تفسير ابن كثير تحقيق سامي السلامة (٥/ ٨٨). والحديث في صحيح البخاري رقم (٤٧١٤ و٤٧١٥).

وقد ورد أن سبب نزولها احتجاج كفار قريش علىٰ الرسول ﷺ؛ فبيّن لهم -جل شأنه- أن الذي سبقت لهم من الله الحسنىٰ، من الذين كان يعبدهم الكفارُ واليهودُ والنصارىٰ، كالمسيح وعزير والملائكة، مبعدون عن النار ولا يسمعون حسيسها، وهذا يدل علىٰ أن الشرك لم يكن مقصورًا علىٰ الأصنام والحجارة، بل كان من ضمن معبوداتهم الأولياء والصالحين[1].

٤. ومنهم من كان يعبد الجن؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وعبادة العرب للجن هو الاستعاذة بهم، والنذر لهم، والذبح لهم وصناعة الأطعمة وتركها في البراري، ويزعمون أن الجن يأكلونها وينفعون مُقرِّبها لهم، أو يكُفُّون عن الإضرار به، أو يدفعون عنه ضرر بعضهم، أو يبينون لهم بواسطة الكاهن شيئًا مغيبًا، كسرقة مال، أو حال رجل غائب، أو حقيقة مرض وعلاجه، ونحو ذلك[2].

٥. ومنهم من كان يعبد الأصنام قال الله -تعالىٰ- ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠]، وفي الخطبة التي ألقاها جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- أمام النجاشي تبيين لواقعهم قبل دعوة الرسول ﷺ قال: (أيها الملك! كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٨٠)، والطحاوي، شرح مشكل الآثار (٣/ ١٥) رقم (٩٨٦). وسليم الهلالي ومحمد آل نصر، الاستيعاب في بيان أسباب النزول (٢/ ٤٩٣-٤٩٤)، وقالا في الهامش: «فالحديث بمجموعه صحيح لا ريب».

(٢) انظر: عبد الرحمن المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله (مطبوع ضمن آثار عبد الرحمن المعلمي المجلد الثالث) (٢/ ٦٦٢).

الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف)[1]. فهذا وصف للحالة السائدة في قريش التي بُعِثَ فيها محمد ﷺ.

لكن ما كيفية عبادة الأصنام؟ يقول الشيخ عبد الرحمن المعلمي -رحمه الله تعالىٰ-: (كانوا يتمسحون بها، ويعكفون عليها، ويضمخونها بالطيب، ويتقاسمون بالأزلام عندها، ولم أر نقلًا صريحًا في أن المشركين كانوا يسجدون للأصنام؛ بل جاء ما ينفي ذلك)[2]. ويدل لهذا عدة أمور:

أولًا: عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: (قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن علىٰ رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة)[3]. فكأن الأمر المستغرب عند أبي جهل هذه الكيفية (يعفر محمد وجهه)، ولو كان أبو جهل يفعل ذلك ما استنكره علىٰ الرسول ﷺ؛ لأنه سيقال له أنت تفعل ذلك.

ثانيًا: ورد في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن علي ابن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أن أبا طالب لما رأىٰ الرسول ﷺ يصلي ويسجد، سأله عن ذلك، ثم إن الرسول ﷺ دعاه إلىٰ الإسلام فقال: (ولكن والله لا تعلوني استي أبدًا)[4].

---

(١) سيأتي تمام الحديث، وتخريجه في مبحث الهجرة إلى الحبشة.

(٢) عبد الرحمن المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله (ج١ ص٥١١-٥١٢) المطبوع ضمن آثار الشيخ عبد الرحمن المعلمي المجلد الثاني.

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤) رقم (٢٧٩٧).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٦٦) رقم (٧٧٥)، وقال المحقق شعيب الأرناؤوط وزملاؤه: «إسناده ضعيف جدًّا»، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٩/ ١٤٧) رقم (٤١٣٩): «ضعيف جدًّا».

ثالثًا: عن زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: (.. وكان هناك صنم من نحاس يُقال له: إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه»، قال زيد: فطفنا، فقلت في نفسي: لأمسنه حتىٰ أنظر ما يقول، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ؟»؛ قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتىٰ أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب)[1].

رابعًا: عن أبي رجاء العطاردي -رحمه الله تعالىٰ-، يقول: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخْير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به)[2]. فلاحظ: أنهم يتمسحون ويطوفون بها، ولم يقل إنهم يسجدون لها.

خامسًا: مر معنا قول الأزرقي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكثرت الأصنام في بيوت مكة، وما من رجل -بعد ذلك- من قريش إلا وفي بيته صنم، إذا دخل يمسحه، وإذا خرج يمسحه؛ تبركًا به)[3].

وورد في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: «أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[4]؛ أي: عندما تلا الرسول ﷺ سورة النجم حتىٰ وصل إلىٰ قول الله -جل شأنه-: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٦٢]؛ فسجد، وسجد معه مَن ذكرهم ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-. ولكن هذا في السجود لله، والحديث في سجود المشركين لأصنامهم.

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢٨) رقم (٤٩٥٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يتعقبه الذهبي.
(٢) صحيح البخاري (٤٣٧٦).
(٣) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٢).
(٤) صحيح البخاري (٢/ ٤١) رقم (١٠٧١).

وقد دلت النصوص علىٰ أن شرك العرب الذين بُعِثَ فيهم رسول الله ﷺ إنما ينحصر في جملته في قول الله -تعالىٰ- عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقول الله -تعالىٰ- عنهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨][(١)].

فهم لا يعتقدون أنهم أرباب من دون الله يملكون الضر والنفع؛ وإنما جعلوهم شفعاء ووسطاء لهم عند الله -جل شأنه-.

وإنما فصلت هنا في معبودات مشركي العرب من قريش وغيرهم الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ؛ لأن هناك من يقول: إن الآيات التي نزلت تحذّر من الشرك، كانت فيمن يعبد الأصنام، وليست فيمن يتوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين، ويقولون فيمن يدعوهم إلىٰ التوحيد، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصنامًا؟، وما بيّنته بعاليه جواب جلي علىٰ ذلك، وأن مشركي قريش ونحوهم لم يكونوا يعبدون الأصنام فقط، بل عبدوا الملائكة والأولياء والصالحين والجن، وكانت عبادتهم هي طلب الشفاعة من هذه المعبودات، والقربىٰ من الله، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨][(٢)].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنه يركّز علىٰ ثلاث قضايا رئيسة:

الأولىٰ: قضية التوحيد، وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة.

---

(١) عبد الرحمن المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله (ج٢ ص٧٢٤) المطبوع ضمن آثار الشيخ عبد الرحمن المعلمي المجلد الثالث.

(٢) ومن أراد التفصيل وتوضيح هذا المسألة فعليه بكتاب كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-، وشروحاته، خاصةً شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ؛ فقد بيَّن بيانًا شافيًا لكل من يطلب الحق.

الثانية: قضية إثبات أن محمدًا ﷺ رسول من رب العالمين.

الثالثة: قضية البعث والنشور والحساب.

وكان العرب يستبعدون أن يبعث الله بشرًا رسولًا، ويقولون: لماذا لم يبعث الله ملكًا رسولًا؟

قال -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٦].

أما البعث والنشور فهي قضية غالبة فيهم، ووردت آيات كثيرة ترد علىٰ حجج المشركين في إنكارهم للبعث، وهذا ظاهر بين في نصوص القرآن الكريم، فلا تكاد تخلو سورة من الحديث عن البعث والنشور عدا قصار السور، ومع ذلك فيهم -كما سبق أن ذكرت- من يؤمن بالبعث والنشور.

وتبقىٰ قضية التوحيد وإفراد الله -جل شأنه- بالعبادة محور كل القضايا، وحق الله الأعظم.

وهذا يعطي صورة عن واقع العرب الشركي؛ فهؤلاء العرب الذين بُعث فيهم محمد ﷺ يقرّون بالربوبية وانفراد الله بالتدبير، ولم يكونوا يسجدون للأصنام، وإنما يصرفون لأصنامهم ومعبوداتهم من الجن والملائكة والأولياء، أنواعًا من العبادات التي لا تُصرَف إلا لله -سبحانه-، ولا تُطلَب إلا منه -سبحانه-، كالتعظيم والتبرك والعكوف عندها والطواف حولها، وكذلك طلب الشفاعة منها، والتمسح بها، والاستقسام بها.

وعندما بدأ الرسول ﷺ دعوته لم ينكروه، وظنوا أنه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وأمثاله الحنفاء من العرب، ولو أنه اقتصر على تقرير البعث والحساب لما قامت قائمتهم، لوجود كثير من أسياد العرب ممن يؤمن بذلك، فلما أعلن **الكلمة العظمىٰ (لا إله إلا الله)**، التي هي توحيد العبودية لله -سبحانه وتعالىٰ-، وأن لا يُصرَف شيء من أنواع العبادة مهما كانت لغير الله، فهموها، وعلموا أن هذا عيب وانتقاص لما هم عليه من الشركيات، والاعتقادات في آلهتهم، وطعن في أصنامهم التي يتمسحون بها ويتبركون بها ويعبدونها من دون الله، وينسبون لها أشياء من النفع والضر، فأنكروه أشد الإنكار، وعادوه أشد المعاداة، وتألبوا عليه، وثارت ثائرتهم، وبارزوه بكلّ ما يستطيعون من الخصومة والعداوة والمحاربة.

عندما قام محمد ﷺ وقال لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة٢٢]، ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل ٣٦]، ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، ﴿ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٩]، ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ [النساء:٣٦]، ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ [الأنعام:١٥١]. ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]. ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]، ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٩]، ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [فصلت:٦]، ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٦]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

أدركوا أنهم أمام دعوة جديدة تؤسس مبادئها علىٰ هدم معتقداتهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم، دعوة جديدة غير معهودة تقوم علىٰ نسف تعظيم الأصنام، والتبرك والتمسح بها، واعتقاد أن لها صلة بروحانيات الملائكة التي تمثلها هذه الصور.

تلك الأصنام التي ملأت أرجاء الحرم، وبلغ منها ما حول الكعبة فقط ثلاثمائة وستون صنمًا[1]. مع ما امتلأت به بيوت مكة من الأصنام الخاصة التي يلجأ إليه رب المنزل ويتمسح بها ويطلب منها البركة، كلما دخل أو خرج -كما سبق- ويستقسم بها في تصرفاته. عقيدة راسخة في قلوبهم ورثوها أبًا عن جد.

وقد وصف القرآن الكريم موقفهم من هذه الدعوة الجديدة: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٤-٨].

ودافعوا عن آلهتهم فقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ

(١) انظر: الأزرقي، أخبار مكة (١/ ١٢٠)، والأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق محمد رواس قلعه جي، وزميله، الطبعة الثانية (بيروت: دار النفائس ١٤٠٦)، (١/ ٥٨٨).

مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:٣-٤].

لم يتصوروا أن أفعالهم تلك التي منها اتخاذ الشفعاء عند الله، والوسائط، والتبرك بالصور التي يصورونها، والطواف حولها والتمسح بها، واعتقاد أن عبادتها تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ، هي عين الشرك بالله، ولم تقبل عقولهم مسألة التوحيد؛ لعظم ما تراكم في الأذهان عن الآباء والأجداد من ذلك الموروث الشركي.

كانوا في شك من صحة هذه الرسالة التي صادمت موروثاتهم قال -تعالىٰ-: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (هذا ردّ عليهم، والمعنىٰ أنهم ليست لهم حجة ولا برهان، بل هم في شك من معرفة الله وتوحيده، فلذلك كفروا)[١].

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (ليس عندهم علم ولا بينة. فلما وقعوا في الشك وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم علىٰ شكهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الائتفاك منهم)[٢].

كانوا يرون أن اتخاذ الشفعاء عند الله والوسائط، أمر سائغ مشروع، كانوا يعتقدون أن الملائكة كالأعوان بالنسبة للملوك، يقيسون الخالق علىٰ المخلوق، ويرون أن هؤلاء الصالحين الذي ماتوا أرواحهم باقية، تشفع عند الله لمن طلب منها الشفاعة، وأنها تحل فيما يصورونه من صور، يجعلونها أصنامًا يعبدونها؛ لأنها حلت فيها أرواح تلك الرجال الصالحين الذي يطلبون الشفاعة منهم.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٠٢).
(٢) تفسير السعدي (٧٠٩).

ولما بارزهم محمد ﷺ بتسفيه ذلك كله، وسبّ آلهتهم، وسفّه أحلامهم، وأحلام آبائهم الذين كانوا يعبدون الأصنام، ويتخذونها شفعاء لهم عند الله، هنا قالوا ساحر وكاهن وكذاب ومفترٍ، وقالوا عن القرآن الكريم، سحر مفترىً، وأساطير الأولين اكتتبها.

قال المراغي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ﴾ [الشورىٰ:١٣]؛ أي شق علىٰ المشركين دعوتهم إلىٰ التوحيد، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وتقريعهم علىٰ ذلك؛ لأنّهم توارثوا ذلك كابرًا عن كابر ونقلوه عن الآباء والأجداد)(١).

هذا هو ميدان الصراع، هذا هو جوهر الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ، وواجه بها -أول ما واجه- أهل مكة، فتصدوا لهم في جملتهم، وبخاصة الزعماء، إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بالهداية من السابقين الأولين من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-.

هذا الذي قضىٰ الرسول ﷺ عمره بعد البعثة مجاهدًا فيه، يدعوهم إلىٰ (لا إله إلا الله)، ولم ينفعهم عنده صلاتهم ولا صيامهم ولا صدقاتهم ولا حجّهم ولا سائر عباداتهم التي كانوا يتقربون بها، مادام أنهم يجعلون مع الله شريكًا يستحق شيئًا من العبادة، مادام أنهم يُؤلّهون غير الله، ويعبدون غير الله، ويُعظّمون غير الله -سبحانه وتعالىٰ-، ويطلبون البركة من غير الله -سبحانه-، ويتخذون عنده شفعاء ووسطاء، ويتقربون بعبادتهم إلىٰ غير الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية وحده؛ إذ الإنسان مفطور عليه بخِلْقته وجِبلّته، قال -تعالىٰ-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، ولم يرسل الله -جل شأنه- الرسل ليثبتوا للناس وجود الله أو توحيد الربوبية فقط، وإنما أرسلهم ليثبتوا لهم مع توحيد الربوبية استحقاقه -سبحانه وتعالىٰ- وحده

(١) المراغي، تفسير المراغي (٢٥/ ٢٥).

للعبادة بجميع أشكالها ومعانيها. قال -تعالىٰ-: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [ابراهيم:١٠]، وقال -تعالىٰ- مبينًا لما أرسل به جميع رسله -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولقد أدركت قريش مضمون هذه الدعوة، وفهموا المراد من (لا إله إلا الله)، التي حرص أبو جهل ألَّا ينطق بها أبو طالب في آخر لحظات حياته، ومات وهو لم يقلها فكان من أهل النار.

تذكر بعض كتب السيرة والتفاسير أن الرسول ﷺ قال لهم: أتُعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، فقالوا: نعطيك عشر كلمات، فلما قال لهم قولوا: (لا إله إلا الله). ولَّوا مدبرين، وهم يقولون: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! قال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: (عجب المشركون أن دُعي اللهُ وَحْدَه، وقالوا: أَيَسْمَعُ لِحاجاتنا جميعًا إلهٌ واحد!)[١].

لقد صاحوا علىٰ محمد ﷺ صيحة واحدة تَزَعَّمَها كبراؤهم، مستنكرين دعوة التوحيد هذه، مدركين لمعناها ومقتضاها.

ولو أن الرسول ﷺ اكتفىٰ بتقويم صلاتهم وصيامهم، وزكاتهم، وحجّهم، وترَكَهم علىٰ تبرُّكهم وطوافهم وتمسُّحهم بالأصنام، ولم يتعرَّض لآلهتم ومعبوداتهم من دون الله لما بارزوه بالعداوة[٢].

(١) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٢٢)، (٣/ ٥٦٠).

(٢) يقول ابن كثير -رحمه الله تعالى- في السيرة النبوية (١/ ٤٧٤): (ثم إنهم مشوا -أي زعماء قريش - إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه=

ولو نظرنا إلىٰ العهد المكي من السيرة لوجدنا أن الشرع بعد التوحيد يشتمل علىٰ قسمين: عبادات وأحكام، فأما العبادات فلم يُشرع منها مدة مقامه ﷺ بمكة إلّا الطهارة والصلاة حين علَّمه جبريل -عليه السلام- الوضوء والصلاة؛ قال الله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل:١-٤]، ولم تفرض الصلاة الخمس إلا عند الإسراء في السنة التاسعة من البعثة، ولم يُفرَض ما سواها من العبادات، حتىٰ هاجر إلىٰ المدينة؛ حيث فُرض الصيام والزكاة، ثم الحج والعمرة، وأما الأحكام فما أوجبته قضايا العقول من تحريم القتل والزنا فكان محرمًا، وما كان مترددًا في قضايا العقول بين الفعل والترك، فكان مسكوتًا عنه[1].

فإلىٰ أيّ شيء كان الرسول ﷺ يدعو طيلة العهد المكي؟ وهي التي تعتبر أشق مراحل البعثة، واجه فيها الرسول ﷺ صنوف العداء والإيذاء، مما يعني أن القضية ليس الصلاة والصيام والزكاة!! فالقضية كانت قضية التوحيد؛ قضية هذه القلوب

=أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين). فالمشكلة حينئذ هي في عيب آلهتهم وتسفيه مَن يعبدها سواء منهم أو من آبائهم. وفي مسند أحمد (٢٥/ ٤٠٣ ط الرسالة برقم ١٦٠٢١): عن ربيعة بن عباد الديلي، قال: (رأيت النبي ﷺ بذي المجاز يدعو الناس، وخلفه رجل أحول، يقول: لا يصدنكم هذا عن دين آلهتكم. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا عمه أبو لهب). وحسّن المحقق إسناده. وفي المسند أيضًا (٢٥/ ٤٠٧ ط الرسالة، برقم ١٦٠٢٥): مزيد توضيح، يقول: (يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تصدقوني وتمنعوني، حتى أنفذ عن الله ما بعثني به» فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال الآخر: من خلفه يا بني فلان، إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى... فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب). فالرسول ﷺ يدعو إلى التوحيد، وأبو لهب يدعو إلى التمسك بعبادة الأصنام من اللات والعزى ونحوها من كل ما يُعبَد من دون الله -سبحانه وتعالى-، هذه هي المشكلة الكبرى في دعوة المصطفى ﷺ.

(١) انظر: الماوردي، أعلام النبوة، الطبعة الأولى (بيروت: دار ومكتبة الهلال ١٤٠٩) (ص ٢٤٢).

لا تتجه ولا تتعلق إلا بالله وحده، هذه القلوب لله؛ يجب ألَّا تخضع ولا تحب ولا تخشىٰ ولا ترجو إلا الله، لا تتعلق بأحد من الخلق كائنًا من كان، لا تفزع في حاجاتها وملمّاتها إلا إلىٰ الله، لا تدعو غير الله، لا يملك النفع والضر إلا الله، هذا هو معنىٰ (لا إله إلا الله).

ولم تكن قضية التوحيد هي قضية محمد ﷺ بمفرده؛ بل من درس منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله الذين ذكرهم الله -جل شأنه- في القرآن الكريم يجد أنهم يتفقون جميعًا علىٰ أن القضية الأولىٰ التي يتحدثون فيها مع مجتمعاتهم هي قضية التوحيد، تأمل هذه الآيات: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، ومحمد ﷺ قال لقومه بأمر الله -جل شأنه- له: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١].

والآيات الجامعة في ذلك كله التي تبين أن هذا هو منهج جميع الأنبياء -عليهم السلام-، مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]. يقول الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (يقول -تعالىٰ ذِكْره-: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلىٰ أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض تصلح العبادة له سواي ﴿ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ يقول: فأخلصوا لي العبادة، وأفردوا لي الألوهة)(١).

وقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦]؛ يقول الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (يقول -تعالىٰ ذِكْره-: ولقد بعثنا أيها الناس في كل أمة سلفت قبلكم رسولًا، كما بعثنا فيكم؛ بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة)(٢).

فجميع الأنبياء بدأوا بالدعوة إلىٰ التوحيد وتحقيق معنىٰ لا إله إلا الله، والتحذير من الشرك أيًّا كانت صوره، ثم كلّ نبي بعد قضية التوحيد انشغل في دعوة قومه بالمشكلة الكبرىٰ في مجتمعه الخاص، فاختلفت القضية الثانية لدىٰ الأنبياء، أما القضية الأولىٰ فقد كانت محل إجماع منهم.

فشعيب -عليه السلام- كثر التطفيف في مجتمعه؛ فكانت قضيته الثانية ﴿ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾، وتكرر هذا المعنىٰ في دعوة شعيب -عليه السلام- لقومه.

وموسىٰ -عليه السلام- عاش في زمن تسلُّط فرعون علىٰ بني إسرائيل وإذلالهم فكانت قضيته الثانية رفع الذل عنهم وتوجيههم للعزة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ

(١) الطبري، تفسير الطبري تحقيق التركي (١٦/ ٢٤٩).
(٢) الطبري، تفسير الطبري (١٤/ ٢١٦).

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه:٤٧].

ولوط -عليه السلام- لما كثرت الفاحشة في مجتمعه، وبخاصة إتيان الرجال؛ قال لقومه كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٠]، وتكرر هذا المعنىٰ في عدة آيات في دعوة لوط -عليه السلام-.

أما إبراهيم -عليه السلام- فقد كانت قضيته الأولىٰ والثانية هي التوحيد؛ لكثرة الشركيات وانتشار الأصنام في مجتمعه، ومن يقرأ الآيات التي تتحدث عن دعوة إبراهيم -عليه السلام- يجد ذلك واضحًا في دعوته -عليه السلام-.

وهذا يبين لنا أن التوحيد كان قضية كل الأنبياء الأولىٰ، وقضية كل المجتمعات، وهو القضية الأولىٰ التي يجب علىٰ الدعاة إلىٰ الله السعي لإصلاحها قبل كل قضية، ثم يلتفت الداعية بعد ذلك إلىٰ قضية مجتمعه.

وعلىٰ هذا المنهج سار الرسول ﷺ، وكان صريحًا واضحًا في دعوته: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، وقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، فالمشرك لن يغفر له ذنبه، ولن يقبل منه أي عمل آخر مهما كان، مادام يصرف شيئًا من العبادة لغير الله -سبحانه وتعالىٰ-.

وتأمل هذا السياق القرآني لتعرف أهمية التوحيد وخطورة الشرك بالله ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ

دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٨]؛ فبعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًّا، وآباءهم وذرياتهم وإخوانهم قال -جل شأنه-: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. فلا مجاملة مع المشرك كائنًا من كان، ولا عمل صالح مقبول مع الشرك، فتأمل هذا النص ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾ يعود إلىٰ جميع الرسل الذي سبق ذكرهم كيف أوضح بجلاء أن هذا الشرك لو وقع منهم -وحاشاهم من ذلك وهم دعاة التوحيد-، لحبط عملهم، فاحذر من الشرك فلا أقذر منه، ولا أشد ضررًا منه علىٰ سائر الأعمال الأخرىٰ.

هذه هي قضية محمد ﷺ وقضية الأنبياء -عليهم السلام- من قبله مع أقوامهم[1].

وأختم بهذا الحوار القرآني: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٩٢].

(١) لمزيد تفصيل في هذه المسألة يمكن الرجوع إلى كتابي أولويات الدعوة في منهج الأنبياء عليهم السلام، طبعته دار العاصمة بالرياض ومتاح منه نسخة إلكترونية..

هذه مقدمة ضرورية، قصدت منها توضيح أمرين:

الأول: طبيعة الرسالة التي تحمَّلها المصطفىٰ ﷺ في جانبها الديني العقدي.

الثاني: قسوة المواجهة التي واجهها الرسول ﷺ بمفرده -في البداية- في ذلك المجتمع الجاهلي الوثني.

ويضاف إلىٰ هذه المواجهة الدينية العقدية، مواجهة أخرىٰ في الجانب الاجتماعي، وهي التي سأتحدث عنه في المسألة التالية.

■ المسألة الثانية: الحالة الاجتماعية للأميين الذي بُعث فيهم رسول الله ﷺ

قبل أن أتحدث عن الحالة الاجتماعية أود أن أقدم بمقدمة موجزة بين يدي هذه المسألة:

الإنسان فيه شهوات، يسعىٰ لتحقيقها، فهناك شهوة الجاه وشهوة المال، وشهوة الرجل للمرأة، وشهوة المرأة للرجل، وشهوة الطعام والشراب.. إلخ، وكل هذه الشهوات تؤثر في سلوك الشخص، لكن بدرجات متفاوتة، وبقدر سلطة العقل علىٰ النفس تنضبط شهواته، فإن كانت سلطة العقل أقوىٰ، حقّق شهواته باتزان، وإن كانت سطوة النفس علىٰ العقل قوية، فإن العقل يَغيب وتستبد النفس في تحقيق شهواتها بغير عدل ولا رَوِيَّة.

وأُمُّ الشهوات كلها شهوة الجاه؛ لأن مقتضياته التفرُّد، ولأن الجاه إذا تحقق، حقق بقية الشهوات الأخرىٰ، ولا يلزم من تحقق الشهوات الأخرىٰ تحقق شهوة الجاه.

وكما أنها أمّ الشهوات، فهي أقواها سطوة وسيطرة علىٰ العقل، ولشهوة الجاه فروع كثيرة، وقد تتحمل النفس ما تكره، لكي يمدحها الناس ويصبح لها جاه

عندهم، حتىٰ ربما تقتحم ما يؤدي إلىٰ الموت لتُمدَح بالشجاعة، فتُحب أن تُمدح ولو ذهبت النفس وهي لم تسمع أصوات المادحين من تقدير وتعظيم وإجلال.

وما أفسد كثير من الناس؛ بل من أتقيائهم، مثل حبّ الجاه؛ فعن كعب بن مالك الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال، والشرف لدينه»(١).

وجاء في الحديث أن أول من تسعر بهم النار ثلاثة، وهم كلهم طلاب جاه؛ فعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضَىٰ يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأُتي به فعرّفه نِعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استشهدتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم، وعلمتُه وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلم ليقال: عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليُقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٥/ ٨٥) رقم (١٥٤٩٧) وقال محققه: (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير علي بن إسحاق: وهو السلمي المروزي، فمن رجال الترمذي، وهو ثقة. عبد الله: هو ابن المبارك. وابن كعب بن مالك لم يُسم، فيحتمل أن يكون عبد الله أو عبد الرحمن، وكلاهما ثقة من رجال الشيخين)، وأخرجه الترمذي في سننه (٢٣٧٦) وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥).

تأمل أن الأول بذل حياته، والثاني بذل وقته فتعلّم وعلّم، والثالث بذل ماله، وكلهم طلاب جاه. وأنهم اتفقوا -وإن تعددت الطرق- علىٰ غاية واحدة هي الجاه.

وليس المراد هنا بيان الحكم الشرعي، وإنما تبيين عظم شهوة الجاه في النفوس، إلىٰ درجة أنه يُقَدِّم حياته ليقال شجاع، ومن يقدم حياته لأجل أن يقال شجاع، فهو سيضحي بكل ما يملك للمحافظة علىٰ هذا الجاه، ويبذل وقته ليقال عالم، أو ماله ليقال كريم.

إنها استماتة الناس في سبيل تحصيل الشرف، والحرص عليه والاستعداد للتضحيات الكبيرة في سبيله

وفي هذا المسار نجد أنه من المتعارف المشتهر أن (كلام الأقران يُطوَىٰ ولا يُرْوَىٰ)[1]، ولو كانوا من الاتقياء!! والسبب!! طغيان شهوة الجاه علىٰ النفوس، كلٌّ يريد لنفسه الصدارة، وهي -في نظره- لا تتحقق له إلا بالحطّ من قرينه المنافِس له.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (استمعوا علم العلماء، ولا تُصدِّقوا بعضهم علىٰ بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايُرًا من التيوس في زربها)[2].

وتكلَّم الإمام الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن أسباب رفض الجرح وعدم الاعتداد به؛ فقال: (ويلتحق بذلك ما يكون سببه المنافسة في المراتب، فكثيرًا ما يقع بين العصريين: الاختلاف والتباين)[3].

والتنافس في الجاه أدىٰ إلىٰ الاقتتال بين الإخوة؛ بل بين الأب وابنه.. والتاريخ شاهد علىٰ صُورٍ من ذلك.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ص ٤٣٥ رقم ١١٨٣).

(٣) لسان الميزان (١/ ١٠٩).

فسطوة الجاه والحرص عليه متأصّلة في النفس، ولكنها في العرب أشد، فهم يتنافسون في الكرم، والشجاعة حتىٰ إن الشخص ليستدين وهو معدم لا يجد قوت يومه، ليكرم ضيفه، ليقال عنه أنه كريم، ويُقدِم في أمور يعلم أن فيها نهايته، كل ذلك حرصًا منه علىٰ السمعة والجاه والصيت، ويتفاخرون في ذلك.

وكانوا في المقابل يحتقرون ويزدرون من ليس له شرف في قبيلته، وأدىٰ بهم ذلك إلىٰ احتقار الموالي والفقراء والنساء.

وكانت قريش قبيلة تتزعم القبائل العربية، وفيها عدد كبير من أصحاب الشرف والجاه، ولهم منزلتهم في قريش وفي العرب، من هؤلاء الوليد بن المغيرة (عم أبي جهل)، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كلدة، أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل السهمي، وكان من حكام قريش، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، وأبو لهب وأبو طالب، وأبي بن خلف، والمطعم بن عدي، وعقبة بن أبي معيط وزمعة بن الأسود، ونوفل بن خويلد بن أسد، والعاص بن هشام بن المغيرة المخزومي (أخو أبو جهل). وغيرهم من أشراف قريش.

وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، والرابط بينهم وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأت قوانين عُرفية تُنظم العلاقات بينهم علىٰ أساس من التضامن، وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها. ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية؛ فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، مهما كان، والنزول علىٰ حكمه وقضائه، بلا منازعة. وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، (والصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، (والنشيطة)

وهي ما أُصيب من مال العدو قبل اللقاء، (والفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسؤوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

وذكر ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- أن عثمان بن الحويرث وفد علىٰ قيصر، فأراد قيصر أن يُتَوِّجَه ملكًا علىٰ قريش (وولاه أمر مكة، فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يدينوا لملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزىٰ: ألا إن مكة حي لقاح لا تدين[١] لملك، فلم يتم له مراده)[٢].

في هؤلاء وفي هذه البيئة الاجتماعية، بُعث الرسول ﷺ.

في قوم جمعوا الشرك بالله، وعبادة الأصنام الموروث عن آبائهم وأجدادهم، جمعوا مع ذلك، أنهم قوم أشراف وسادة، لهم مكانتهم في العرب، ولكل منهم مكانته في قبيلته وعشيرته، سيد مطاع، يأمر فيجب علىٰ الجميع أن يطيع، بأعراف جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان، وشيخ القبيلة أمره تشريع، لا يجوز مخالفته مهما كان، ويجب علىٰ كل فرد في القبيلة أن تذوب شخصيته في شخصية القبيلة.

يقول دريد بن الصمة مصورًا هذا المعنىٰ:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقد لخص جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- في خطبته أمام النجاشي وصف حال الجاهلية التي بُعث فيها الرسول ﷺ فقال: (أيها الملك كنا قومًا أهل

---

(١) أي لا تخضع للملوك.

(٢) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٢/ ٢٣١).

جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف)[1]. والشاهد قوله: (ويأكل القوي منا الضعيف).

في هؤلاء القوم بأعرافهم وتقاليدهم وقوانينهم الاجتماعية الفاسدة، بُعِثَ الرسول ﷺ بتوحيد الألوهية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومن أبرز المعاني الاجتماعية التي تقتضيها دعوة التوحيد: المساواة التامة بين الناس من حيث كونهم من أصل إنساني واحد «الناس بنو آدم، وخَلَقَ الله آدم من تراب»[2]. ومن ناحية المنزلة الاجتماعية فإن التفاضل بين الناس بالتقوىٰ، قال الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله ﷺ: «لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا أحمر علىٰ أسود، ولا أسود علىٰ أحمر، إلا بالتقوىٰ»[3].

---

(١) حديث أم سلمة -رضي الله عنها- أخرجه بطوله الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٠٢)، و ٥/ ٢٩٠-٢٩٢، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع ٦/ ٢٤-٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وقال عنه أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح انظر: مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر (٣/ ١٨٠)، رقم (١٧٤٠). وأخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٣٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥)، وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (ص ١٠٦)، وقال: «وسنده صحيح». وهناك رواية أخرى من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- رواها أبو داود في سننه رقم (٣٢٠٥)، وضعفها الألباني، وأخرجها الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٨) رقم (٣٢٠٨)، وصحح سند هذه الرواية عبد الله الجبرين في كتابه صحيح السيرة النبوية (ص ٣٦٠)، وضعف رواية أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) رواه الإمام الترمذي في سننه (٣٢٧٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما-.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٧٤) رقم (٢٣٤٨٩)، (تحقيق التركي وزملائه) من حديث أبي نضرة قال: «حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق..». وقال المحقق: «إسناده صحيح».

هل من السهل مواجهة هؤلاء الأقوام الذين نشأوا تلك النشأة، بمثل هذا المعاني التي تلغي الفوارق كلها، إلا التقوىٰ؟! هل يقبل مثل أمية بن خلف أن يقال له: لا فرق بينك وبين بلال إلا بالتقوىٰ؟!

ليس الأمر بالسهل، لقد كان استنكاف زعماء قريش عن الدخول في الطاعة لمحمد ﷺ من أعظم أسباب امتناعهم عن قبول الإسلام، واسمع قول الله -تعالىٰ-: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص:١-٨]. قال الرازي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره الكبير: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، ومعناه أن محمدًا ﷺ كان من رهطهم وعشيرتهم، وكان مساويًا لهم في الأسباب الدنيوية، فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه)[1]. لقد كان أصعب الأمور وأشقها عند العربي الطاعة وقبول التبعية لغير شيخ القبيلة التي دان لها أفرادها.

ثم لاحظ أن الذي انطلق هم الملأ؛ أي كبار القوم الذين يخشون علىٰ مناصبهم وجاههم وشرفهم. ويخشون علىٰ أصنامهم، ويحتجون بأن هذا أمر مستحدَث لم يسمعوا به في آبائهم وأجدادهم.

قال ابن إسحاق: (وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، خرجوا يستمعون القرآن دون أن يعلم كُلٌّ منهم بالآخر ثلاث مرات، ثم جاء الأخنس بعد الثلاث إلىٰ أبي جهل؛ فسأله عما سمعه من القرآن فقال: «تنازعنا نحن

(١) الرازي، التفسير الكبير (٢٦/ ٣٦٧).

وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تحاذينا علىٰ الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحىٰ من السماء؛ فمتىٰ ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه)[1].

كيف يقبل أبو جهل أن يكون تابعًا بعد أن كان زعيمًا متبوعًا؟

ومثله سائر زعماء قريش كيف لهم أن يتخلوا عن زعاماتهم ويصبحوا تبعًا لمحمد ﷺ.

يؤيد ما ذكرت ما رواه الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره قال: (حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قول الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]؛ قال: (التب: الخسران، قال: قال أبو لهب للنبي ﷺ: ماذا أُعْطىٰ يا محمد إن آمنت بك؟ قال: «كما يعطىٰ المسلمون»؛ فقال: ما لي عليهم فضل؟ قال: «وأي شيء تبتغي؟». قال: تبًّا لهذا من دين تبًّا، أن أكون أنا وهؤلاء سواء)[2].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (روىٰ الطبراني من حديث معاوية بن أبي سفيان عن أبيه أن أمية بن أبي الصلت قال له: إني أجد في الكتب صفة نبي يُبعَث من بلادنا، وكنت أظن أني هو، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف. قال: فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة؛ إلا أنه جاوز الأربعين ولم يُوحَ إليه؛ فعرفت أنه غيره. قال أبو سفيان: فلما بُعث محمد قلت لأمية عنه، فقال: أما إنه حقّ فاتبعه. فقلت له: فأنت ما يمنعك؟ قال: الحياء من نساء ثقيف!، أنّي كنت أخبرهن

---

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٧٦). وانظر: الصوياني، الصَّحيح من أحاديث السّيرة النبوية، الطبعة الأولى: (الرياض: مدار الوطن ١٤٣٢) (ص ٥٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٧١٤). والماوردي، النكت والعيون (تفسير الماوردي) تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية) (٦/ ٣٦٣)، والقرطبي، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٣).

أنّي هو، ثم أصير تبعًا لفتىً من بني عبد مناف)[1].

ومثل هؤلاء أيضًا عبد الله بن أُبي ابن سلول زعيم المنافقين في المدينة، وأبو عامر الفاسق في المدينة أيضًا، قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وقدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر عبد عمرو وهو والد حنظلة، الغسيل يوم أُحد، وكان يقال له الراهب. فشقيا بشرفهما وضرهما)[2].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (السبب الرابع: مانع الرياسة والملك وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبّر عن الانقياد للحق، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته، فيضن بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوّته وصدقه، وأقروا بها باطنًا وأحبّوا الدخول في دينه، لكن خافوا علىٰ مُلكهم، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة، وقلّ من نجا منه إلا مَن عصم الله، وهو داء فرعون وقومه، ولهذا قالوا ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون:٤٧]؛ أنفوا أن يؤمنوا ويَتّبعوا موسىٰ وهارون -عليهما السلام- وينقادوا لهما، وبنو إسرائيل عبيد لهم)[3].

وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ- عن هرقل الذي دعاه الرسول ﷺ ليسلم فلم يستجب: (لا عذر له في هذا؛ لأنه قد عرف صدق النبي ﷺ، وإنما شحّ في الملك ورغب في الرياسة فآثرها علىٰ الإسلام، وقد جاء ذلك مصرحًا به في صحيح البخاري)[4].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٨٣).
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف تحقيق السلامي (٥/ ٢٣). باختصار.
(٣) ابن القيم، مفتاح دار السعادة (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ٩٧).
(٤) النووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٠٧).

إن هذا الأمر ليس بالهين علىٰ النفوس، وخاصة تلك القبائل العربية التي نشأت علىٰ الزعامة، وتبجيل شيخ القبيلة، وتعظيمه، وما يجده هذا الكبير من التوقير، وأي فتنة أعظم من هذه الفتنة؟!

وقد كان الرسول ﷺ يدرك هذا المانع النفسي العظيم، الكامن في النفوس، فكان إذا كاتب الملوك وهو في المدينة يدعوهم للإسلام، يعدهم أنهم إذا قبلوا الإسلام بأن يبقوا في ملكهم(١). وبعض الزعماء الذين كاتبهم الرسول ﷺ كان يرد ردًّا دون رد، ويشترط أن يكون له نصيب من الوجاهة إذا أسلم(٢).

إن الغرض من عرض هذا هو تبيين عِظَم المهمة التي تحملها الرسول ﷺ في مواجهة هؤلاء القوم في مكة في جانبها الاجتماعي، وأن نستوعب معنىٰ قول الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]؛ وأنه سيدعو هؤلاء القوم في مكة إلىٰ توحيد الألوهية، وهم يغرقون في الوثنية.

وسيدعو تلك الزعامات القرشية إلىٰ أن تتخلىٰ عن زعاماتهم وتشريعاتهم الجاهلية، فلا أمر لهم، ولا تشريع، ولا مرباع ولا صفي، كلهم تحت شرع الله سواء،

---

(١) انظر: قصة إرساله عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين، ملكي عمان، فقد ورد في كتابه لهما: «وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما..» إلخ. سليمان الكلاعي الحميري، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، الطبعة الأولى (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٢٠)، (٢/ ١٧).

(٢) انظر: بعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري. وهو أحد الستة. إلى هوذة بن علي الحنفي يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا. فقدم عليه وأنزله وحباه. وقرأ كتاب النبي ﷺ ورد ردًّا دون رد. وكتب إلى النبي ﷺ: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله. وأنا شاعر قومي وخطيبهم. والعرب تهاب مكاني. فاجعل لي بعض الأمر أتبعك». انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/ ٢٥٨).

ولا سلطان لهم بعد اليوم، وإنما السلطان هو للوحي المنزَّل من السماء، فيا تُرىٰ، هل سيقبلون؟

هل سيقبلون أن يتركوا أصنامهم؟

هل سيتخلون عن زعاماتهم؟

هل تعتقد أن المهمة سهلة؟

وهل من المتوقع أن يرحبوا بدعوة الرسول ﷺ ويتسابقوا إلىٰ بيعته وهم يعلمون ماذا عليهم أن يفعلوا؟

المبحث السادس

الاستخفاء

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ، -كما أُمِرَ - بالدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولما لم تنزل بعدُ نصوص تأمر بالجهر بالدعوة، ولما كان قومه ذا عقيدة أساسها عبادة الأصنام والأوثان، وحجتهم إنا وجدنا آباءنا، وأخلاقهم يغلب عليها التسلط، وطباعهم العزة والأنفة، وتشريعاتهم ما أملاه عليهم شيخ القبيلة، ولا سبيل لهم في حل المشكلات بينهم -في الجملة- إذا استعصت إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب.

وكانت مكة مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة، والقُوَّام علىٰ الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، والوصول إلىٰ المقصود من الإصلاح يحتاج إلىٰ حكمة بالغة في العمل، وعزيمة لا تزلزلها الصعاب والشدائد.

كل ذلك جعل الرسول ﷺ يبدأ دعوته بالاصطفاء، فلا يتحدث إلا إلىٰ من يثق به، لئلا يُفاجأ أهل مكة بما يضر بالدعوة، ويهيجهم عليه.

وكان من الطبيعي أيضًا أن يبدأ الرسول ﷺ بالحديث مع أقرب الناس إليه من أهله وأصدقائه، ومن يتوسم فيه الخير، فأجاب الرسولَ ﷺ أفرادٌ يأتي في مقدمتهم:

١ . خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- أم المؤمنين زوج الرسول ﷺ. وقد صدَّقت الرسول ﷺ وآمنت به بعد نزول ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وقبل نزول ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

٢. ورقة بن نوفل الذي يقول عنه رسول الله ﷺ: «لا تسبوا ورقة بن نوفل؛ فإني قد رأيت له جنة أو جنتين»[١]. وقد كانت استجابة ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- وتصديقه للرسول ﷺ بعد نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وقبل نزول ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وهذا سبقٌ من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومن ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-، لم أجد أحدًا من أهل السِّير ذكر بهذا السبق سواهما، وهو يدل علىٰ أن عامة السابقين للإسلام كانوا بعد المدثر. والله أعلم.

يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ- بعد أن ذكر حديث خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (وقول ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-: «ليتني أكون حيًّا..»، وهذا الحديث الذي ذكرته ظاهر في إسلامه واتباعه وتصديقه)[٢].

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في شأن ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وتوفي بعد هذه القصة بقليل ورقة بن نوفل -رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه-؛ فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديقٌ بما وجد، وإيمان بما حصل من الوحي، ونية صالحة للمستقبل، وقد قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ-: حدثنا حسن، عن ابن لهيعة، حدثني أبو الأسود، عن عروة، -رحمهم الله تعالىٰ-، عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- سألت رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٩)، وصححه، ولم يتعقبه الذهبي، وابن حجر في الفتح (٨/ ٧٢٠) وانظر: الألباني، صحيح الجامع، رقم (٧١٩٧)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٤٠٥، وقال: حديث صحيح. وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٧١). وقد سئل الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى-: هل يدعى لورقة بن نوفل ويترحم عليه؟ قال: نعم رضي الله عنه ورحمه»، عبد الله الروقي، الحلل الإبريزية من التعليقات البازية على صحيح البخاري (١/ ١١) الهامش.

(٢) النووي، تهذيب الأسماء واللغات (بيروت: دار الكتب العلمية) (٢/ ١٤٣).

ثياب بياض»، وهذا إسناد حسن، لكن رواه الزهري وهشام عن عروة مرسلًا. فالله أعلم)[١].

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأسلم القس ورقة بن نوفل، وتمنىٰ أن يكون جذعًا إذ يُخرج رسولَ الله ﷺ قومُه)[٢]. وقال الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا نقول: أول من آمن به من النساء: خديجة، ومن الرجال: ورقة بن نوفل)[٣]، ولكنه مات مبكرًا جدًّا، مما أوجد خلافًا حول إسلامه، والله أعلم)[٤].

٣. أبو بكر الصديق ﷺ. عن أبي الدرداء رضي الله عنه، في قصة ما حصل بين أبي بكر وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- من الخلاف، فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي» مرتين[٥]. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا كالنص علىٰ أنه أول من أسلم رضي الله عنه)[٦].

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٩)، ومسند الإمام أحمد (٤٠/ ٤٣٠) رقم (٢٤٣٦٧)، وقال محقق المسند: «إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة، وهو عبد الله، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. وقد روي من بلاغات الزهري، وهو الصواب» وانظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢١٧)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٧١)، والصوياني، السيرة النبوية الصحيحة (ص ٥٦).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢١)، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٧/ ٢٦)، و (٨/ ٣٨٩)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٣٧).

(٣) الشيخ محمد بن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٢٨٠).

(٤) ممن أطال في نقل الخلاف وذكر الأقوال ودراستها بشأن إسلام ورقة بن نوفل، سليمان العودة في كتابه (السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي) (ص ٢٦٩- ٢٧٢).

(٥) صحيح البخاري (٥/ ٥) رقم (٣٦٦١).

(٦) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٣٤).

وعن عمار بن ياسر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان، وأبو بكر»[١]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذا الحديث أن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أول من أسلم من الأحرار مطلقًا، ولكن مراد عمار بذلك ممن أظهر إسلامه، وإلا فقد كان حينئذ جماعة ممن أسلم، لكنهم كانوا يخفونه من أقاربهم)[٢]. وقال: (وقد اتفق الجمهور علىٰ أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال)[٣].

٤. علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أول من أسلم من الصبيان. عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: (كان علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أول من آمن من الناس بعد خديجة رضىٰ الله -تعالىٰ- عنها)[٤].

وعن عفيف الكندي -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كنت امرأً تاجرًا، فقدمت الحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب -رضي الله تعالىٰ عنه- لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرأً تاجرًا، فوالله إني لعنده بمِنىٰ، إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلىٰ الشمس، فلما رآها مالت -يعني قام يصلي- قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء، فقام معه يصلي. قال: فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، قال: فقلت: من هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة ابنة خويلد. قال: قلت: من هذا الفتىٰ؟ قال: هذا

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٤٦) رقم (٣٨٥٧). قال ابن حجر في الفتح (١/ ٣٠٠) «الأعبد المذكورون هم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة وياسر والد عمار والمرأتان خديجة وسمية والدة عمار أو أم أيمن».

(٢) ابن حجر، الفتح (٧/ ٢٤).

(٣) ابن حجر، الفتح (٧/ ١٧٠).

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب (٣/ ١٠٩١)، وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (٢/ ٣٥٠): «وثبت عن ابن عَبَّاس، قَالَ: أول من أسلم عليّ»، وابن سيد الناس، عيون الأثر (١/ ١٧٩).

علي بن أبي طالب ابن عمه. قال: فقلت: فما هذا الذي يصنع؟ قال: «يصلي، وهو يزعم أنه نبي»، ولم يتبعه علىٰ أمره إلا امرأته، وابن عمه هذا الفتىٰ، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرىٰ، وقيصر». قال: فكان عفيف وهو ابن عم الأشعث بن قيس يقول -وأسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه-: (لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ، فأكون ثالثًا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه)[(١)].

٥. زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ.

٦. قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكانت ثاني امرأة أسلمت، أسلمت بعد خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قاله: الكلبي)[(٢)]. وهي زوجة العباس وأم قثم بن العباس -رضي الله تعالىٰ عنهم-.

أما أول من آمن به ﷺ مطلقًا فأكثر الأقوال بل يكاد يكون إجماعًا علىٰ أنه خديجة -رضي الله عنها- وأرضاها-[(٣)].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣/ ٣٠٦) رقم (١٧٨٧) وقال محقق المسند «إسناده ضعيف جدًّا، يحيى بن الأشعث ويقال: ابن أبي الأشعث لم يرو عنه غير محمد بن إسحاق ولم يوثقه غير ابن حبان (٩/ ٢٥١)، فهو في عداد المجهولين، وإسماعيل بن إياس، قال البخاري (١/ ٣٤٥): في حديثه نظر، وأبوه إياس بن عفيف ما روى عنه غير ابنه إسماعيل، وقال البخاري (١/ ٤٤١): «فيه نظر». وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٠١) رقم (٤٨٤٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وله شاهد معتبر من أولاد عفيف بن عمرو»، وقال الذهبي في التلخيص: «صحيح»، ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٢٤١) وقال: «حديث حسن جدًّا»، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٧٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٠).

(٣) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ١٢٣، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٠٢)، وقال: (قال أبو عمر: اتفقوا على أن خديجة أول من آمن، وقال أبو الحسن بن الأثير: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين... وأقره الذهبي، وقال محمد بن كعب القرظي: أول من أسلم من هذه الأمة برسول الله ﷺ خديجة -رضي الله عنها- ... وقال النووي: إنه الصواب عند جماعة من المحققين).

وأحسن ما يقال في ترتيب أوائل من أسلم ما نقله ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: (وقد أجاب أبو حنيفة -رضي الله عنه- بالجمع بين هذه الأقوال بأن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم أجمعين-)[1]. أما سابقهم جميعًا فعلمه عند الله -جل شأنه-؛ لأن من كان يُسلم في ذلك الوقت كان يُخفي إسلامه، فقد يعتقد الشخص أنه هو أول من أسلم، وقد سبقه غيره، وهو لا يعلم، ولم أجد نصًّا صحيحًا صريحًا في ذلك فيما تيسر لي الاطلاع عليه، والله أعلم.

وقد يُسلم الشخص، ويسلم آخر بعده، ويكون الثاني أفضل من الأول يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فقد يتأخر إسلام الرجل ويكون أفضل من بعض من تقدمه بالإسلام كما تأخر إسلام عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- فإنه يقال: إنه أسلم تمام الأربعين، وكان ممن فضله الله علىٰ كثير ممن أسلم قبله)[2].

وقد نشط هؤلاء السابقون في الدعوة إلىٰ الله في حدود توجيه الرسول ﷺ، فقد أسلم علىٰ يد أبي بكر الصديق ﷺ جمع من الصحابة منهم: عثمان بن عفان ﷺ، والزبير بن العوام ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، وسعد بن أبي وقاص ﷺ، وطلحة بن عبيد الله ﷺ، وهؤلاء الخمسة الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر الصديق ﷺ هم من العشرة المبشرين بالجنة.

وفي قصة إسلام طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- يذكر ابن أبي حاتم -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (عن محمد بن عثمان المخرمي أن قريشا قالت: قيضوا لكل رجل رجلًا من أصحاب محمد يأخذه، فقيّضوا لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، إلام تدعوني؟

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٣٧).
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٢).

قال: أدعوك إلىٰ عبادة اللات والعزىٰ! قال أبو بكر رضي الله عنه: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزىٰ؟ قال: بنات الله. قال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهم؟ فسكت طلحة، فلم يجبه. فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)(١).

وكان من أوائل المسلمين: أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ، وأبو سلمة ﷺ، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبد الله، وسعيد بن زيد وغيرهم -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-(٢).

وجميع هؤلاء أسلموا استخفاء عن أهلهم ومجتمعهم، وكان يجتمع بهم الرسول ﷺ متخفيًا يتلو عليهم ما ينزل عليه من الوحي، ويرشدهم إلىٰ الدين.

أما بيت النبي الكريم ﷺ فقد كان فيه بناته الأربع ونشأن نشأة إسلامية؛ فإن بناته -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن- أسلمن مع أمهن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها وعنهن جميعًا-(٣)، وكُنَّ صغيرات السن عند البعثة النبوية، فكانت زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- كبرىٰ بناته ﷺ في العاشرة من عمرها تقريبًا، وكانت رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- في السابعة، أما أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها- فكانت في الخامسة،

---

(١) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٨٣).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٥/ ١٢٧- ١٢٨). وقال الزرقاني -رحمه الله تعالى- في شرحه للمواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١/ ٤٦٠): «ولم يذكر بناته ﷺ؛ لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بهديه وسيرته، وقد روى ابن إسحاق عن عائشة: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته، وكان أبو العاص زوج زينب عظيمًا في قريش فكلمته قريش في فراقها على أن يتزوج مَن أحب مِن نسائهم، فأبى. وفي الشامية أسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت حين بايع النساء، وأم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن ا.هـ. وفاطمة لا يُسأل عنها لولادتها بعد النبوة أو قبلها بخمس سنين. والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهن للإسلام؛ لأنه معلوم هذا».

وأصغرهن كانت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وتبلغ من العمر عامًا واحدًا تقريبًا.

وأما الأبناء فقد مات القاسم صغيرًا قبل البعثة، وعبد الله الطيب وُلِد بعد البعثة ومات كذلك صغيرًا، كما سبق تفصيل ذلك.

وهكذا كان بيته ﷺ بيتًا مؤمنًا خالصًا، ولا شكَّ أن هذا أسهم في تسكين نفسه ﷺ، وأعانه علىٰ طريق الدعوة الشاق.

وقد استمر الرسول ﷺ علىٰ ذلك ما بين ثلاث إلىٰ أربع سنوات، روىٰ ابن سعد عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه قال: (أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاء به من عند الله وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إلىٰ الله -تعالىٰ-، فدعا في أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيًا إلىٰ أن أمر بظهور الدعاء. وروىٰ البلاذري عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: دعا رسول الله ﷺ سرًّا أربع سنين)[1].

وفي دلائل النبوة عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا سِنِينَ لَا يُظْهِرُ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ -عز وجل- حَتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿ **فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾ [الحجر:٩٤]؛ يَعْنِي أَظْهِرْ أَمْرَكَ بِمَكَّةَ)[2].

ولي هنا الوقفات التالية:

أولًا: الاستخفاء يقصد بها معنيان: الأول الاستخفاء بالمبادئ، والثاني الاستخفاء بالأتباع. أما الاستخفاء بالمبادئ، فما كان الرسول ﷺ يستخفي بمبادئه، فقد كان من أول يوم بعثته، يعرض دعوة التوحيد القائمة علىٰ إفراد الله -جل شأنه- بالعبادة ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، ولا يُخفي منها شيئًا حتىٰ عن أعدائه، فمن جاءه وسأله عن هذه الدعوة أخبره بكل وضوح، فدعوته

(١) الصالحي، سبل الهدى (٢/ ٣٢٢).
(٢) الأصبهاني دلائل النبوة (١/ ٢٧٠ رقم٢٠٣).

واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن لم يكن يتحدث في البداية عن هذه المبادئ علانيةً أمام الجمهور؛ لأنه لم يُؤمَر بذلك في السنوات الأولىٰ.

أما الاستخفاء بالأتباع، فقد كان الرسول ﷺ لا يُعلن عن مَن تبعه وآمن به، بل قد يأمره بأن لا يُظهر ذلك، خوفًا عليه من الفتنة أو الأذىٰ الذي لا يستطيعه، ولا مصلحة في إعلان الأسماء.

والعديد من الدعوات قامت علىٰ الاستخفاء بالمبادئ فلا يعلنون عن حقيقة مبادئهم وغاية مقاصدهم إلا لخاصة أتباعهم فقط، والظاهر غير الباطن. ولذلك لا يصلح أن يُقاس هذا علىٰ هذا وشتان بينهما.

ثانيًا: كان الاصطفاء فيمن يتحدث إليهم، وتأجيل الخطاب العام أمرًا جوهريًّا مقصودًا في هذه المرحلة، فقد كان الرسول ﷺ لا يتحدث ابتداءً إلا مع مَن يثق به ويوصي بذلك أصحابه، يدل علىٰ ذلك:

١. قصة إسلام أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ، قال لأخيه: اركب إلىٰ هذا الوادي فاعلم لي عِلْم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتىٰ قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلىٰ أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل شنَّةً -أي قربة ماء- له فيها ماء، حتىٰ قدم مكة، فأتىٰ المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتىٰ أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه علي -رضي الله تعالىٰ عنه- فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتىٰ أصبح، ثم احتمل قِربته وزاده إلىٰ المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتىٰ أمسىٰ، فعاد إلىٰ مضجعه، فمر به علي -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه،

لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتىٰ إذا كان اليوم الثالث، فعاد علي -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ مثل ذلك، فأقام معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدني فعلتُ، ففعل فأخبره، قال: فإنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتىٰ تدخل مدخلي ففعل، فانطلق يقفوه حتىٰ دخل علىٰ النبي ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلىٰ قومك فأخبرهم حتىٰ يأتيك أمري». قال: والذي نفسي بيده، لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتىٰ أتىٰ المسجد، فنادىٰ بأعلىٰ صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتىٰ أضجعوه، وأتىٰ العباس-رضي الله تعالىٰ عنه- فأكبَّ عليه، قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلىٰ الشأم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباس-رضي الله تعالىٰ عنه- عليه)[1]. فَفِعْلُ علي -رضي الله تعالىٰ عنه- مع أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- يدل علىٰ الاستخفاء بهذا الأمر. ولما دخل أبو ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ رسول الله ﷺ أخبره الرسول ﷺ بمبادئ دعوته بوضوح.

٢. وقصة إسلام عمرو بن عبسة -رضي الله تعالىٰ عنه-: عن أبي أمامة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس علىٰ ضلالة، وأنهم ليسوا علىٰ شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت علىٰ راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جُرَءاءُ عليه قومه، فتلطفت حتىٰ دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي»، فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيء أرسلك، قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يُشرك به شيء»، قلت له:

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٤٧) رقم (٣٨٦١) واللفظ له. وصحيح مسلم (٤/ ١٩٢٣) رقم (٢٤٧٤).

فمن معك علىٰ هذا؟ قال: «حر، وعبد»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر، وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترىٰ حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلىٰ أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»(١).

فقد كان الرسول ﷺ يعبد الله ويدعو إليه مستخفيًا، وإذا سُئل عن مضمون الدعوة أوضحها، وإذا سُئل عن الأتباع لم يخبر.

ثالثًا: إن اختيار الرسول ﷺ الاستخفاء بالدعوة في البداية، لا شك أنه بوحي إلهي، فهو ﷺ يسير في دعوته مضمونًا ومنهجًا وفق ما يُوحَىٰ إليه، والدليل علىٰ ذلك نزول قول الله -تعالىٰ- ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]؛ فالذي أمره بالصدع في وقته هو الذي أمره بالاستخفاء في وقته.

رابعًا: مع استحضار أن هذا الاستخفاء كان بتوجيه رباني، فلا يمنع من محاولة معرفة الحكمة في ذلك؛ وقد قال بعض العلماء: إن بدء الرسول ﷺ بالاستخفاء والاصطفاء من أجل:

١. ألَّا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم، ويثيرهم عليه، فيئدوا الدعوة في مهدها.

٢. أن يتكون للدعوة أنصار وأعـوان يقفون معها ويحمونها إذا جهر بها الرسول ﷺ وظهر لها أعداء يحاولون القضاء عليها(٢).

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٥٦٩).

(٢) يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- في فتاوى نور على الدرب: (لا ريب أن من الحكمة أن تكون دعوة الرسول -عليه الصلاة والسلام- في ذلك الوقت سرًّا؛ يأتي إلى الرجل يتوسم فيه الخير ويدعوه إلى الله -سبحانه وتعالى-، وتقع هذه الدعوة من قلبه كل موقع، فيدخل في الإسلام، ويأتي إلى الثاني، وإلى الثالث. والذين دعوا إلى الإسلام وأسلموا كذلك يتصلون بما يتوسمون فيهم الخير والقبول، ويدعونهم إلى الله -سبحانه وتعالى-، وهكذا حتى يكون حوله المجتمع حينئذ يكون من المناسب أن يجهر بالدعوة ويعلنها؛ بأن لديه أعوانًا، فهذا هو السر في أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يؤمر بإعلان الدعوة من أول وهلة، وإنما يرجئ الأمر حتى يكون حوله أناس، فهذه هي الحكمة في=

خامسًا: إن هذا الاستخفاء كان استخفاء فرديًّا، في شخص الرسول ﷺ؛ فالرسول ﷺ يرىٰ الواقع، ويأتيه الأمر بالدعوة، وأن يبدأ بالحديث مع أفراد معينين يثق بهم، يتولىٰ هو انتقاءهم ومخاطبتهم، فيما أوحي إليه من أمر التوحيد، وتطبيقًا لذلك تحدث مع خديجة وأبي بكر وعلي وأبي عبيدة وجملة من السابقين الأولين -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

وهنا نلاحظ أنها دعوة فردية انطلقت من الرسول ﷺ، وكان عندما يدعو بهذه الطريقة يوصي أصحابه الذين استجابوا ألَّا يجهروا بشيء؛ لأن الجهر لم يؤمر به حتىٰ الآن.

ولكن هل نقيس علىٰ هذه الحالة ونستشهد بفعل الرسول ﷺ في تطبيق ذلك في عمل الدعاة الآن؟

هذا الكلام في غاية الأهمية فلا يستشهد بفعل من أفعال الرسول ﷺ والظروف مختلفة، وما أكثر ما يقع الشخص في الخطأ نتيجة سوء التطبيق واستخدام الدليل في غير محله.

إن الحكمة في الدعوة إلىٰ الله هي القدرة علىٰ التأسي بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله عند تشابه الظروف. أما إذا اختلفت الظروف فلا يجوز أن نستدل بفعل الرسول ﷺ علىٰ حالة معاصرة تختلف الظروف فيها عن تلك الظروف. فنقع في خطأ منهجي ونحن نحسب أننا علىٰ صواب.

=أن أول الدعوة كان سرًّا، وهكذا ينبغي للداعية إلى الله -سبحانه وتعالى- أن تكون دعوته في مجتمع عامر بالجهل والضلال على هذا النحو، يدعو فلانًا وفلانًا وفلانًا حتى يتكون حوله أناس وتقوى جبهته، وحينئذٍ يعلن ما دعا إليه؛ لأنه لو أعلن ما دعا إليه أول الأمر لحصلت فتنة ومشادات ومنازعات، ولم يتمكن من الوصول إلى مقصوده). موقع الشيخ محمد العثيمين على الشبكة.

والرسول ﷺ كان يعمل بوحي من الله -جل شأنه-، فهو استخفىٰ ثلاث سنوات، ثم نزل عليه الوحي بأن يصدع بالدعوة، ثم خرج للقبائل، ثم خرج للطائف، ثم هاجر للمدينة لما نزل الإذن له بالهجرة، ثم بدأ بالجهاد وفق خطوات يتنزل عليه الوحي بشأنها خطوة، خطوة، وما كان هذا شأنه فلا يصلح أن يسلك الداعية إلىٰ الله هذه الخطوات ذاتها دون فقه، ويطبقها علىٰ مجتمعه الذي يعيش فيه، وما أكثر ما يقع الخطأ بسبب سوء الفهم للسيرة، أو للدليل عمومًا.

سادسًا: يقول -تعالىٰ- عن نوح -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:٥-١٠].

فأنت ترىٰ وصف نوح -عليه السلام- لدعوته بأنه دعاهم ليلًا ونهارًا، لبيان استغلاله لكل الأوقات الممكنة في الدعوة، ثم بيّن طريقته بأنه دعا قومه جهارًا، وأكدها بقوله -عليه السلام-: ثم إني أعلنت لهم، ثم يأتي موضع الشاهد وهو قوله ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، فالإسرار هنا الذي جاء بعد الإعلان لا يمكن أن يكون إسرار مبادئ؛ لأنها سبق أن أُعلنت وجُهر بها، كما هو نص الآية، وإنما المراد إسراره -عليه الصلاة والسلام- لبعض الأشخاص بمزيد تكرار النصح والدعوة سرًّا، كما ينصح العالم أحد الكبراء سرًّا توقيرًا له، فبعض الأشخاص لمنزلته تكون دعوته ونصحه سرًّا أولىٰ من كونها جهرًا، وبالتالي يتضح المراد من قول نوح -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

سابعًا: يقول الشيخ أبو بكر الجزائري: (لا دليل لمن يرىٰ سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم من سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا أن يؤذنوا أو

يصلوا، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة، فجهروا ولاقوا من الأذىٰ ما هو معروف بين المسلمين)[1].

ثامنًا: عدم تعجل النتائج؛ فالرسول ﷺ وهو المكلف بهذه الدعوة كان المقتضي لحب للدعوة، والحماس لها، والرغبة في استجابة الناس والخوف عليهم أن يجهر بالدعوة من أول يوم، ويدعو كل من يلاقيه في الطريق أو عند الكعبة أو في الاجتماعات. ولكنه كان لا يتحدث إلا لأفراد معدودين مصبِّرًا نفسه، مؤجلًا الحديث العلني الجماعي الذي يحقق نتائج أكثر وأسرع إلىٰ وقت آخر يكون أكثر ملاءمة.

ولا بد أن يدرك الداعية أن الخير والفطرة السليمة موجودة في جميع الناس استنادًا لحديث الرسول ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة»[2]، ولكن هذه الفطرة تُحجب بالذنوب والمعاصي، وللوصول إلىٰ هذه الفطرة لا بد من الانتظار والصبر[3].

وقصة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- في عدم تعجُّله حينما كان يرىٰ الناس يطوفون علىٰ قبر زيد بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-

---

(١) أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب يا محب ص ٩٩.

(٢) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (٣/ ٢٤٥)، حديث رقم ١٣٨٥.

(٣) وقد ضرب لذلك بعض المشايخ مثالًا لهؤلاء فقال: إن من أوقد نارًا ثم تركها حتى خمدت وتجمع أكوام الرماد على أثرها، فإن هناك من يستطيع أن يستخرج من داخل هذا الرماد البارد جمرة صغيرة يستوقدها مرة ثانية؛ لتصبح نارًا، وذلك بأن ينفخ في هذا الرماد قليلاً؛ ليزيل شيئًا من الركام ثم ينتظر، ثم يواصل النفخ مرة أخرى وهكذا حتى تظهر له شرارة صغيرة أسفل الرماد، يضع عليها ورقة صغيرة تشتعل ثم تتحول إلى نار. ولكن من الناس من يتعجل استخراج هذه الجمرة، فينفخ بسرعة وبقوة في الرماد، فيتطاير على وجهه بقايا الرماد، ويتناثر الجمر الذي يمكن الاستفادة منه، وهكذا شأن الدعوة إلى الله، من يتعجل يضر أكثر مما ينفع، ومن يتأنى ويصبر ويعمل على إزالة الرين عن القلوب الذي هو كالرماد حتى يصل إلى جذوة القلب الذي فيه الفطرة السليمة؛ ليحركه نحو هذا النور ويستضيء به، ويقبل عليه فيتحقق للداعي مراده بسبب أنه لم يتعجل النتائج. هذا المثال سمعته من فضيلة الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى-.

قُرب مدينة الرياض يكتفي بالقول: (الله خير من زيد)، وذلك في بداية دعوته -رحمه الله تعالىٰ-، وهذا من فقهه في الدعوة -رحمه الله رحمةً واسعة-[1].

تاسعًا: فيه هشاشة دين القوم، فما أن قال أبو بكر لطلحة -رضي الله تعالىٰ عنهما-: إلام تدعوني؟ قال طلحة: أدعوك لعبادة اللات والعزىٰ، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا. قال وما العزىٰ؟ قال: بنات الله.

قال: أبو بكر: فمن أمهم؟ هنا أُسقط في يد طلحة! ولم يجد هو ولا من منعه من قومه جوابًا علىٰ هذا السؤال!! وسبق أن بينت أن العرب يعتقدون في أرواح الملائكة، ويرونهم بنات الله، ويصورون الأصنام علىٰ صورهم ويسمونهم بأسمائهم.

وكان طرح سؤال واحد كافيًا في هدم معتقدهم وبيان فساده، فما كان من طلحة إلا وعرف الحق وبادر بإسلامه، وشهد شهادة التوحيد.

عاشرًا: سبق أن أشرت إلىٰ حال قريش دينيًّا واجتماعيًّا، وما في ذلك من صعوبات بالغة واجهها الرسول ﷺ في دعوة هؤلاء إلىٰ التوحيد، وإصلاح أوضاعهم، وما قابله به زعماء قريش من تكذيب ومعاداة وإيذاء، ولا شك أن هؤلاء السابقين الأولين إلىٰ الإسلام، لم تكن استجابتهم بالأمر الميسور، والمقبول في ذاك المجتمع، ولا المسكوت عنه، ولذلك نالهم نصيب وافر من العداوة والإيذاء، وتحملوا في سبيل ذلك مشقة عظيمة، مما لم يُبتلَىٰ به، ولا قريبًا منه، من أسلم بعد ذلك. وهذا تذكير بفضيلة أولئك السابقين الأولين في الإسلام.

---

(١) انظر: الشيخ عبدالرحمن بن حسن، خمس رسائل في التوحيد والإيمان الرسالة الأولى أصل دين الإسلام وقاعدته، (ص٣٣٩)، مطبوعة ضمن مجموعة التوحيد وقال: (كما جرى لشيخنا محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله تعالى- في ابتداء دعوته، فإنه إذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب ﷺ قال: الله خير من زيد تمرينًا لهم على نفي الشرك بلين الكلام؛ نظرًا للمصلحة وعدم المضرة، والله -سبحانه وتعالى- أعلم).

حادي عشر: إن استجابة الشباب للإسلام أكثر من استجابة الشيوخ. فإذا تجاوزنا ورقة بن نوفل[1] -رضي الله تعالىٰ عنه- نجد أن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٠) سنوات تقريبًا، وأن أبا بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (٣٨ سنة)، وقد أسلم علىٰ يديه خمسة من المبشرين بالجنة، وهم: عثمان بن عفان -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (٣٤) سنة. وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (٣٠ سنة). وسعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٧) سنة. والزبير بن العوام -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٦) سنة[2]، وطلحة بن عبيد الله -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٨) سنة.

وأسلم الأرقم بن أبي الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو دون العشرين سنة. وأبو عبيدة عامر بن الجراح -رضي الله تعالىٰ عنه- (٣٠) سنة، وعبد الله بن مظعون -رضي الله تعالىٰ عنه- (٢٠) سنة. وسعيد بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنه-، أسلم وعمره تقريبًا (١٠و١١) سنة.

واستجابة الفتيان أسرع من استجابة كبار السن للحق، مع أنهم أكمل عقولًا، ولكنهم أكثر عنادًا، وأشد أنفة. وهذا واقع مع عدد من الأنبياء -عليهم السلام-، قال -تعالىٰ-: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ [يونس:٨٣] قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (من الذرية وهم الشباب)[3]، وقال

---

(١) ورقة بن نوفل رجل نصراني قرأ الكتب النصرانية في وقته، فكانت من أسباب هدايته، ولم يكن من أمثال أشياخ قريش الذين أهلكهم قولهم: إنا وجدنا آباءنا، فهو من الأساس رافض لهذا المبدأ الفاسد.

(٢) أخرج إسلام الزبير -رضي الله تعالى عنه- وعمره ١٦ سنة، الهيثمي، مجمع الزوائد (٩/ ١٥١) رقم (١٤٨٣٤)، وقال: رواه الطبراني وهو مرسل صحيح.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٧)، وانظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣٦١)، والتفسير والبيان لأحكام القرآن للطريفي (٤/ ١٧٠٢).

-تعالىٰ-: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]؛ والسبب في ذلك أن الشباب لم يَطُل عليهم الأمد في تقاليد معينة، لم يتشربوا بَعدُ عبادة الأصنام، ولم ينشأوا سنوات عديدة وهم يترددون عليها في صغائر أمورهم وكبائرها، تخيل نفسك تدعو إنسانًا ظل أربعين أو خمسين سنة يدافع عن قضية باطلة ويجاهد من أجلها، ثم تأتي وتقول: إن دفاعك وجهادك السنوات الطوال التي مضت كان كله في باطل، هذا ولا شك صعب، بينما دعوة الشباب أيسر بكثير، فهم لم تتلوث عقولهم بأفكار خاطئة، ومن ثَمَّ كان قبولهم للإسلام أيسر من غيرهم ممن عششت وفرخت في أذهانهم عقيدة الوثنية. يُضاف إلىٰ ذلك، أن الشباب عمومًا مُحبُّون للجديد والتفكير فيه، وقبول الحوار، والاستدلال، والتغيير، فإذا وَجد الشَّباب شيئًا صالحًا جديدًا، فهم -غالبًا- يكونون أقرب إليه من الشيوخ.

وهذا يؤيد ما سبق أن أشرت إليه من توقُّع المشاق العظيمة والمواجهة الشرسة من هؤلاء الأشياخ لهذه الدعوة الجديدة عليهم، التي تنسف أُسُس ما ورثوه من وثنية أبًا عن جد.

وهذا مفيد جدًّا في عصرنا الحاضر، من أن الإصلاح بين الشباب أيسر من الإصلاح بين كبار السن، فكبار السن -غالبًا- استقرت عقولهم علىٰ مُسلَّمات لا يتزحزحون عنها، ولو كانت أعرافًا باطلة أو عادات سيئة، ما داموا نشأوا عليها في مجتمعاتهم سنين طويلة، ولا يحبُّون التغيير، ولا التفكير فيه.

ثاني عشر: كان السبب وراء إسلام هذا العدد علىٰ يد أبي بكر الصديق -بعد توفيق الله-تعالىٰ- هو منزلة أبي بكر في قريش، فهو رجل محبَّب لأهلها، حلو العشرة، كان كريمًا جوادًا تاجرًا موسرًا له علاقاته الواسعة والكثيرة، ذا أخلاق عالية، وأيضًا كان أنسب أهل قريش وأكثرهم علمًا بالوقائع والأيام. وعلم الأنساب من العلوم الرائجة عند العرب قديمًا؛ لشدة حرصهم عليها، وهذه الخصال والمعارف

ساعدت أبا بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في دعوته، ومثلها كثير مما يستطيع المسلم الاستفادة منه في دعوته إلىٰ الله -تعالىٰ-.

ثالث عشر: ماذا نستفيد من سبق خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بالإسلام؟ نلحظ أن أول من وُجِّهت له الدعوة الإسلامية هو امرأة، وهي خديجة -رضي الله عنها-، ثم كانت خديجة -رضي الله عنها- أول من استجاب لهذا الدين ودخل في الإسلام، وهذا يعني أن أول من دخل في الإسلام امرأة.

هذا الشرف العظيم شرف البدء بتوجيه الدعوة، وشرف السبق في الاستجابة أراد الله -سبحانه وتعالىٰ- أن يكون من نصيب المرأة، ثم يتبع هذا الشرفَ العظيم، شرفَ السبق، شرفٌ آخرٌ، وهو شرف نُصرة رسول الله ﷺ، فأول من نصر الرسول ﷺ، هو خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما بشّرته وطمأنته وهوّنت عليه ما جرىٰ له في الغار، وأخذته إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنه-، هذه النصرة كانت في أول أيام البعثة النبوية، واستمرت إلىٰ أن توفيت أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد كان الرسول ﷺ -في تلك المدة- وحيدًا في مواجهة مجتمع جاهلي، أطبقوا علىٰ التصدي له وإيذائه، ولم يستجبْ له ويدخل معه ﷺ إلا أفرادٌ حاول العديد منهم الاستخفاء من ملئهم، وكانت -رضي الله تعالىٰ عنها- صامدة تُثبّته وتُسخِّر نفسها ومالها لنصرته ﷺ.

وبالإضافة إلىٰ هذا الشرف أيضًا شرف رابع، لا يقل عنه أهمية، وهو شرف الموت في سبيل الله، فأول من مات في سبيل هذا الدين هي سُمية بنت خياط أم عمار -رضي الله تعالىٰ عنها وعن عمار - التي آمنت فعُذِّبت؛ لأجل إيمانها، حتىٰ قتلها عدو الله أبو جهل، فكانت أول شهيدة في الإسلام(١).

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ١١٤).

ماذا بقي للرجال بعد ذلك؟ أيقال: إن هذا الدين لا يقيم للمرأة اعتبارًا، وهي أول من دعيت إليه؟ أليس البدء بالمرأة تشريفًا لها؟ أليس سبقها في الاستجابة أيضًا تأكيدًا لهذا التشريف، وإثباتًا أنها جديرة به، وأن المرأة كما أنها كانت مستحقة للسبق في الخطاب، فهي أيضًا تُثبت جدارتها بكونها أول مستجيب، ثم كونها أول نصير للرسول ﷺ، ثم بعد ذلك شرفت بكونها أول من يلقىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- لأجل هذا الدين، يكفي هذا البرهان برهانًا قاطعًا علىٰ أن للمرأة المكان الرفيع الكريم في هذا الدين الإسلامي، ويكفي ردًّا علىٰ قال خلاف ذلك[1].

فالنساء شقائق الرجال، والميدان في الإسلام متاح لهن للمنافسة والمسابقة والمسارعة للخيرات، وفي النساء من وصلت درجة عالية سامقة في خدمة هذا الدين العظيم.

رابع عشر: جهود أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الدعوة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي أسلم علىٰ يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة -كما سبق- وهو فرد واحد، لكنَّه كان نشيطًا في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

فقد كان أول من دعا إلىٰ الله من أمة محمد ﷺ[2]؛ مما يدل علىٰ أن الفرد الواحد يمكن أن يعمل ويدعو ويحقق الكثير من النفع، وهذه هي الدعوة الفردية التي يغفل عنها كثير من الناس.

فأساس الدعوة وبدايتها هو الدعوة الفردية التي لا تكلف شيئًا، وإنما تقوم علىٰ الاستفادة من اللقاءات والزيارات والمقابلات، يتحدث فيها فرد مع فرد، ويعرض عليه الدِّين بهدوء وانفراد يتيح مجالًا للحوار، والأخذ والعطاء بعيدًا عن المؤثرات أو العوائق الأخرىٰ.

---

(١) انظر: مزيد تفصيل: زيد بن عبدالكريم الزيد، كيف أنصف الإسلام المرأة ص ١٤ وما بعدها.

(٢) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٥/ ٢١).

هذه الدعوة الفردية التي يمكن أن يقوم بها الكبير والصغير، الرجل والمرأة، ويمكن أن تتم في المنزل، وفي الطريق وأمام صاحب المحل التجاري، أو المخبز، أو في وسائل المواصلات أو في المطار أو من خلال الهاتف أو الرسائل، قليلة الجهد عظيمة النفع[1].

(١) استدعى المندوب السامي الفرنسي في الجزائر وقت الاستعمار الشيخ عبد الحميد الجزائري -رحمه الله تعالى-، وقال له: «إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار، وإلا أرسلت جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفث فيه هذه السموم ضدنا. فأجاب الشيخ عبد الحميد -رحمه الله تعالى-: «أيها المسيو الحاكم إنك لا تستطيع ذلك..»، فاستشاط غضبًا، وقال: كيف لا أستطيع؟ فقال له: «إذا كنتُ في عرس علّمت المحتفلين، وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين، وإذا جلست في قطار علّمت المسافرين، وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين، وإن قتلتموني التهبت مشاعر المواطنين، وخير لكم أيها المسيو أن لا تتعرضوا للأمة في دينها ولغتها» انظر: محمود محمد عمارة، نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية ص ٩٢.

المبحث السابع

دار الأرقم[1]

كانت ظروف الدعوة -كما سبق أن أشرت- في بدايتها تقتضي عدم إعلان الدعوة أمام الملأ؛ خوفًا من مشركي قريش أن يسعوا لوأد الدعوة، وهي لا تزال في مهدها، ولذلك كان الرسول ﷺ يوصي أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- بعدم المجاهرة أو مواجهة الكفار، فكانوا -رضي الله تعالىٰ عنهم- يُخفون إيمانهم، ولا يجاهرون بشعائرهم، ومن أراد منهم الصلاة ذهب إلىٰ شعاب مكة بعيدًا عن أنظار قريش، إلا أن هذا لم يدم طويلًا، فبينما سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- في نفر من أصحاب رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهم- في شِعْب من شعاب مكة؛ إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يُصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون

(١) الأرقم بن أبي الأرقم، واسم والد الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم، يكنى أبا عبد اللَّه. كان من السابقين الأولين، أسلم وهو دون العشرين من عمره، وقيل: أسلم بعد عشرة. وروى الحاكم في ترجمته في المستدرك (٣/ ٥٧٤) رقم (٦١٢٩) أنه أسلم سابع سبعة، وكانت داره على الصّفا، وهي الدار التي كان النبي ﷺ يجلس فيها في الإسلام، وذكر قصة طويلة لهذه الدار، وأن الأرقم حبَّسها، وأن أحفاده بعد ذلك باعوها لأبي جعفر المنصور. وكان رسول اللَّه ﷺ في داره حتى تكاملوا أربعين رجلًا مسلمين، وكان آخرهم إسلامًا عمر -رضي الله تعالى عنه-، فلما تكاملوا أربعين رجلًا خرجوا. ومات الأرقم بالمدينة وهو ابن بضع وثمانين سنة، وذلك عام خمس وخمسين، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- بوصية منه. انظر: ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة (١/ ١٩٦-١٩٧). والحاكم، المستدرك (٣/ ٥٧٤) رقم (٦١٢٩)، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ١٣١): «مخزومي مشهور كبير أسلم في داره كبار الصحابة في ابتداء الإسلام».

حتىٰ قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- يومئذ رجلًا من المشركين بلحي بعير فشجه، فكان أول دم هريق في الإسلام[١].

وكان الرسول ﷺ حريصًا علىٰ إيجاد مكان آمن يُعلِّم فيه أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-، فاختار الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي -رضي الله تعالىٰ عنه- للاجتماع فيها، وكانت علىٰ جبل الصفا، وبابها خلفي يدخله الداخل فلا يُرَىٰ، وقد اتخذها الرسول ﷺ مقرًّا للدعوة في وقت مبكر[٢] يجتمع فيها الصحابة إلىٰ الرسول ﷺ؛ فيتعلمون منه القرآن الكريم والسنة ويقتدون به.

نقف هنا؛ لنلحظ مدىٰ اهتمام الرسول ﷺ بجمع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في مكان واحد؛ لنستفيد ما يلي:

أولًا: يعتبر دخول الرسول ﷺ دار الأرقم حدثًا مهمًّا فاصلًا في السيرة، يقول المقريزي -رحمه الله تعالىٰ-: (المهاجرون أقسام: الذين أسلموا قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وفي دار الأرقم، والذين أسلموا بعد ذلك..)[٣]. فأصبح هذا الحدث أمرًا يؤرَّخ به لأهميته، وهناك فارق بين من أسلم قبل دخول دار الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه-، وبين من أسلم بعد ذلك، فالمُبادِر للإسلام يختلف عمن تأخر، وهذا ظاهر في كتب السيرة، فتجدهم يقولون: فلان أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم، أو يقولون أسلم في دار الأرقم، أو يقولون أسلم بعد دار الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه-.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٨).

(٢) هناك خلاف في السنة التي دخل فيها الرسول ﷺ دار الأرقم فبعض كتب السير تذكر أنه في السنة الخامسة للبعثة، وبعضها تذكر أنه أثناء استخفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة أي قبل السنة الثالثة للبعثة. والظاهر أن هذا أقوى والله أعلم. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥). والحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٤٠٣).

(٣) انظر: إمتاع الأسماع (٩/ ٨٢).

ثانيًا: قال محمد أبو شبهة -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- من السابقين الأولين، وكانت داره منتدًىٰ يجتمع فيه المسلمون، ويعبدون الله سرًّا، ويلقّنهم النبي ﷺ الإسلام وأصوله، ويتعهّدهم بالتربية؛ حتىٰ كوّن منهم رجالًا استطاعوا -بفضل الله تعالىٰ- الصبر علىٰ البلاء العظيم في سبيل دينهم وعقيدتهم، وكان من يريد الإسلام يأتي إليها مستخفيًا خشية أن يناله أذىٰ قريش، وكانت هذه الدار عند الصفا. ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه في هذه الدار حتىٰ أسلم الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ فاستعلنوا بعبادتهم، وراغموا أهل مكة، وأذلوهم.

وقد أعطىٰ رسول الله ﷺ الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- دارًا بالمدينة(1)؛ ولعل هذا مكافأة له علىٰ ما أدّته داره بمكة من خدمة جليلة للإسلام في أول عهده؛ فلله هذه الدار التي فاقت أعظم مدارس العالم وجامعات الدنيا، وخرّجت أعظم رجال عرفهم التاريخ! ولا تزال هذه الدار مفخرة خالدة للأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه-، وشذًىٰ يتضوّع إلىٰ يوم القيامة(2).

ثالثًا: مِن جَمْع الرسول ﷺ الصحابة في دار الأرقم، نأخذ أهمية التربية، فلا يكفي في التعليم الاعتماد علىٰ قراءة النصوص، بل لا بد من أن يصاحبها تربية بالعمل والقدوة الحسنة، وهذا مهم في تربية الأولاد، والطلاب في المدارس، وحِلق العلم، لا بد أن يكون الأب قدوة حسنة لأولاده، والداعية قدوة حسنة للمدعوين، والمعلم قدوة حسنة لطلابه ومعلمًا بالأعمال، لا بالأقوال فقط.

رابعًا: الاجتماع علىٰ الخير اجتماع مبارك، فيه التعاضد والتعاون لتحقيق مصالح عامة وخاصة، ولا بد للمسلم من مجالس خير يزكّي نفسه، ويقوّي إيمانه،

---

(1) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٥٧٤) رقم (٦١٢٩).

(2) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٢٨٩) بتصرف يسير.

وتأثير هذه المجالس الخيِّرة علىٰ القلوب صلاحًا أقوىٰ من تأثير النصوص المجردة بكثير، ولذلك ينبغي للمسلم أن يحرص علىٰ حضورها لينال منها السلوك والعلم والبركة.

خامسًا: أهمية صلاة الجماعة في المسجد، فشتان بين صلاة الفرد في منزله وحيدًا وصلاته مع إخوانه المسلمين، يتعلم منهم الكيفية العملية للصلاة، وينمو بينهم السلوك الحسن والخُلق الجميل، فبالإمكان أن يدع الرسول ﷺ أصحابه كلًّا منهم يؤدي عباداته بمفرده، ولكن هذا لا يحقّق قيام المجتمع المسلم المترابط، ومبادرة الرسول ﷺ إلىٰ هذا الأمر تدل علىٰ وجوب صلاة الجماعة في المسجد مع المسلمين[(١)]. ولستُ هنا في مجال تقرير الحكم الشرعي، فمكان هذا كُتُب الفقه، ولكنَّ الهدف تبيين مغزىٰ عظيم وفائدة لا تتحقق إلا من خلال الصلاة جماعة في المسجد، ولا يشعر بذلك إلا من حافظ علىٰ الصلاة جماعة في المسجد، ثم طرأ عليه عذر عاقه عن جماعة المسجد لمدة محددة، أو سافر سفرًا قصيرًا إلىٰ بلد لم يتمكن فيه من صلاة الجماعة، فسيجد الفارق واضحًا بين صلاته في المنزل وصلاته جماعة في المسجد، والله هو الهادي إلىٰ سواء السبيل.

سادسًا: أهمية الصحبة الصالحة في حياة المسلم؛ إذ هو بحاجة إلىٰ صحبة صالحة تُذكّره إذا نسي، وتُعلّمه إذا جهل، وتنبّهه إذا غفل، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[(٢)]، ولذلك حَرِيٌّ بالآباء والمربين أن

---

(١) انظر كتابًا مهمًّا قيّمًا للأستاذ الدكتور/ فضل إلهي، أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص وسير الصالحين، أوضح فيه أن إقامة الصلوات الخمس مع الجماعات في المساجد من أوكد العبادات.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٦)، رقم (٢٦٢٨).

ينتبهوا جدًّا لجلساء أبنائهم وتلاميذهم.

سابعًا: أهمية الترابط والتواصل بين المسلمين، ويتأكد هذا بخاصة إذا كانوا في بلاد الغربة بين مجتمع لا يدين بالإسلام، فعلىٰ هؤلاء مسؤولية الاهتمام بالاجتماع فيما بينهم تعاونًا علىٰ الخير، وتثبيتًا علىٰ طريق الهدىٰ، وتقوية لأواصر الأخوة، ومحافظة علىٰ الإيمان في القلوب من أن يخبو أو يضعف، عندما تكون الغالبية المحيطة بالمسلم فئة كافرة، والخبث إذا كثر له تأثيره البالغ.

ثامنًا: أهمية الشورىٰ في الإسلام؛ فقد كانت دار الأرقم بالإضافة إلىٰ كونها مكان تعليم وعبادة، فهي أيضًا دار شورىٰ، يستشير فيها الرسول ﷺ أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- فيما يستجدّ من أحداث تتصل بالدعوة، ويرغب الرسول ﷺ في معرفة آرائهم في ذلك.

تاسعًا: تبرع الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- بداره يُذكّرنا بأهمية الأوقاف والتبرعات الخيرية سواء ما كان فيها لنصرة الدعوة الإسلامية، ونشر الدين الإسلامي، أو تبرعات لفقراء المسلمين من مدارس ودور أيتام ومستشفيات ونحوها، وكلها أعمال خيرية تبقىٰ لصاحبها، ويكفي أن دار الأرقم لا تزال تحمل ذِكْرًا حسنًا له رغم مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة علىٰ هذا العمل المبارك، ولا تزال الألسن تَشكره وتُثني عليه به.

الفصل الثالث

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾

المبحث الأول

الصدع بالدعوة

مرت ثلاث سنوات علىٰ الدعوة، وهي لا تزال فردية لا يعلنها الرسول ﷺ علىٰ الملأ، ثم نزل علىٰ الرسول ﷺ الأمر بالصدع بالدعوة، أُمِر أن يُعلن دعوته، وأنه نبيّ مرسل، ولم يجهر بأسماء الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولا بمن اتبعه واستجاب له، ولا كيف اتبعوه، بل بقي هذا سرًّا لا يُعلَن؛ خوفًا علىٰ مَن استجاب مِن إيذاء الكفار واعتداءاتهم.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم دخل الناس في الإسلام أرسالًا من الرجال والنساء، حتىٰ فشا ذِكْر الإسلام بمكة، وتُحُدِّث به. ثم إن الله -عز وجل- أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفىٰ رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلىٰ أن أمره الله -تعالىٰ- بإظهار دينه ثلاث سنين -فيما بلغني- من مبعثه؛ ثم قال الله -تعالىٰ- له: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤])[١].

وكان أول ما نزل بشأن إعلان الدعوة هو قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]؛ عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم»[٢].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ١٩٢)، رقم (٣٥٠).

وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: لما نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وضع رسول الله ﷺ أصبعيه في أذنيه فرفع من صوته فقال: «يا بني عبد مناف! يا صباحاه!»[1].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ علىٰ الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» -لبطون قريش- حتىٰ اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»؛ فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١-٢][2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعَمَّ وخَصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلّها

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٧/ ١٨٦) رقم (٣١٨٦). وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه من حديث أبي موسى، وقد رواه بعضهم عن عوف عن قسامة بن زهير عن النبي ﷺ مرسلًا، ولم يذكر فيه عن أبي موسى، وهو أصح؛ ذاكرتُ به محمد بن إسماعيل، فلم يعرفه من حديث أبي موسى -رضي الله تعالى عنه-». وقال عنه الألباني: حسن صحيح.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٦/ ١١١) رقم (٤٧٧٠)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٣) رقم (٢٠٨).

ببلالها[1]»[2].

وعن علي بن أبي طالب ﵁ قال: (جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة[3] ويشرب الفرق[4]؛ قال: فصنع لهم مُدًّا من طعام فأكلوا حتىٰ شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو لم يُمَسّ، ثم دعا بغمر[5] فشربوا حتىٰ رووا، وبقي الشراب كأنه لم يُمَسّ، أو لم يُشْرَب، فقال: «يا بني عبد المطلب إني بُعِثْتُ لكم خاصة وإلىٰ الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني علىٰ أن يكون أخي وصاحبي؟». قال: فلم يقم إليه أحد! قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، قال: فقال: اجلس، ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس، حتىٰ كان الثالثة ضرب بيده علىٰ يدي)[6].

(١) قال ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤٢٢): «قال النووي ضبطنا قوله ببلالها بفتح الموحدة وبكسرها وهما وجهان مشهوران... قلت بالكسر أوجه فإنه من البلال جمع بلل.. والبلال بمعنى البلل وهو النداوة، وأطلق ذلك على الصلة كما أطلق اليبس على القطيعة؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه بخلاف اليبس فمن شأنه التفريق».

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٥٥١)، رقم (٤٧٧١)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٢)، رقم (٣٤٨) واللفظ له.

(٣) الجذعة لغة: من الضأن أو الماعز ما تم له سنة أو أكثر السنة، أما في الاصطلاح الشرعي ففيه تفصيل، انظر: سعدي أبو جيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا (ص ٥٩).

(٤) الفرق بفتح الفاء والراء: مكيال يسع ستة عشر رطلًا وهو اثنا عشر مُدًّا، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز، انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٣٧)، وهذا يعني أنه إناء كبير يكفي لإرواء الجمع من الناس.

(٥) الغمر بضم الغين المعجمة، وفتح الميم: القدح الصغير، انظر: البناء، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٤).

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند، انظر: البناء، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (٢٠ / ٢٢٣)، وقال البناء: (أورده الهيثمي مطولًا، وقال رواه البزار واللفظ له، وأحمد باختصار، والطبراني في الأوسط باختصار أيضًا، ورجال أحمد وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير شريك وهو ثقة) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٤)، وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للصوياني ص ٧٢، وقال فيها: إسناده قوي.

وتذكر كتب السير (أن الرسول ﷺ دعا عشيرته من بني هاشم وبني عبد المطلب لوليمة، حضرها أبو لهب، وتكلم قبل أن يتكلم الرسول ﷺ قائلًا: هؤلاء عمومتك، بنو عمك، فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحقّ من أخذك فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت علىٰ ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء علىٰ بني أبيه بِشَرّ مما جئتَ به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانية، وقال: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله ﷺ إليكم خاصة وإلىٰ الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا، أو النار أبدًا»، فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلىٰ ما تحب، فامضِ لما أُمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني علىٰ فراق دين عبد المطلب، فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا علىٰ يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا)(١).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلىٰ الله -تعالىٰ- مستخفيًا، ثم نزل عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤]، فأعلن ﷺ بالدعوة وجاهَر قومه بالعداوة، واشتد الأذىٰ عليه وعلىٰ المسلمين)(٢). وما زال الرسول ﷺ مستخفيًا حتىٰ نزلت عليه هذه الآية(٣).

---

(١) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٣١ - ٤٣٣) باختصار وتصرف.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٦).

(٣) انظر: الرازي، التفسير الكبير (١٠/ ٢١٥).

نقف مع هذا الدرس من السيرة؛ لنأخذ منه ما يلي:

أولًا: الرسول ﷺ أمضىٰ ثلاث سنوات مستخفيًا يدعو إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، ثم بعد ذلك أعلن دعوته، وجهر بها لعشيرته أولًا، ثم لأهل مكة من قريش الذين دعاهم وهو علىٰ جبل الصفا، فهو قد انتقل من مرحلة الاستخفاء بالدعوة أو الاصطفاء والاختصاص بالدعوة، إلىٰ خطوة أخرىٰ، وهي الإعلان للأقارب، ثم الإعلان لقبائل قريش، وستأتي خطوات نشير إليها في محلها.

ثانيًا: بقاء الرسول ﷺ يدعو إلىٰ الله مستخفيًا ثلاث سنوات، ثم جهر بالدعوة، هذه المدة وقع تحديدها بأمر من الله -جل شأنه- وفقًا لتلك الحال المعينة، وليست تشريعًا، وبالتالي فهي ليست شرطًا، ولا مقصودة، ولا يصح التعبُّد بقصد تلك المدة، ومثلها مثل الكثير من المدد التي وقعت في السيرة كخروجه إلىٰ الطائف، أو كهجرته ﷺ إلىٰ المدينة.

ثالثًا: نلاحظ أن الرسول ﷺ يُقرّر أمرًا مهمًّا، وهو أن العشيرة والقرابة لا تنفع في الآخرة، وهذا علىٰ خلاف ما تعوّده العرب من الاعتزاز والانتصار بالعشيرة علىٰ الحق والباطل، فهو من الآن يبدأ بهدم أحد المعتقدات الجاهلية الراسخة لديهم.

رابعًا: أنه بدأ بنفسه فأخبرهم علنًا أن لا عمّه ولا عمّته ولا بنته ستستفيد منه شيئًا يوم القيامة؛ بسبب القرابة، رغم محبته لهم، وحرصهم عليهم، ثم أرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، وهو الاستجابة لله -سبحانه وتعالىٰ-.

خامسًا: إن الآية تقول ﴿وَأَنذِرْ﴾ ولم تقل (وبَشِّر)، فالشخص مُتَّهم بتبشير أقاربه، وعندما يقول: ﴿وَأَنذِرْ﴾ فهو يُعْلِمُهم من الآن، ويُخوّفهم بأن لا يتكلوا علىٰ قرابة ولا علىٰ غيرها، وأن من اتكل علىٰ القرابة فسيهلك فلا بد من العمل حتىٰ ينجو الشخص من النار. ونجد أن الرسول ﷺ يكرر «أنقذوا أنفسكم من النار»، وهو ينادي أقاربه، تأكيدًا للترهيب والتخويف.

سادسًا: إن لكل مقام مقالًا، فهنا نجد أن الرسول ﷺ سلك أسلوب التخويف والترهيب، ذاكرًا العذاب الشديد، وإنقاذ الشخص نفسه من النار. وهذا الأسلوب ورد في قوله ﷺ لعشيرته وأهل مكة عندما اجتمعوا حيث قال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد».

فلا بد أن يُذَكَّر الناس بهذه الحقيقة، وهي الإنذار بالعذاب والإنذار بشدة الحساب، في مقامه المناسب، فمن استجاب يُبَشَّر بموعود الله -سبحانه وتعالىٰ- للمستجيبين.

سابعًا: إن (السر في الأمر بإنذار الأقربين أولًا، أنَّ الحُجّة إذا قامت عليهم تعدَّت إلىٰ غيرهم وإلا فكانوا عِلَّة للأبعدين في الامتناع، وألَّا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف؛ فلذلك نص له علىٰ إنذارهم)[1].

ثامنًا: في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ تنبيه لحقوق الأقارب، وقد جاءت نصوص قرآنية كثيرة تؤكد علىٰ أولوية حقوق الأقارب؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [البقرة:٨٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء:٢٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم:٣٨]، فنلاحظ أن هذه النصوص تؤكد علىٰ حقوق الأقارب المالية؛ بل

(١) ابن حجر، الفتح (٨/ ٥٠٣). وقال ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- في الإفصاح (٦/ ١٢٥): «وفيه من الفقه أن النذارة قائمة في طرف التخويف؛ إزاء البشارة في طرف الإيمان بقوله سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، يعني جل جلاله أن أنذر عشيرتك الأقربين أن تكونوا أول جاحد بحقك. قال: وأول كافر بما أنزل عليك؛ فإنه لا عذر لمن كفر بما جئت من أباعد الناس عنك، فكيف بأقربهم إليك».

وتقدمها علىٰ اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل، فمجرد القرابة يوجد هذا الحق المالي، وبه يتقدم علىٰ حق المسكين واليتيم، وهذا يغفل عنه كثير من الناس. فيُقَدِّمون المسكين أو اليتيم وينسون القريب ويظنون أن القريب ليس له حق إلا إذا كان فقيرًا، والقريب إذا كان فقيرًا فقد اجتمع فيه حقان؛ حق القرابة، وحق الفقر. وإذا لم يكن فقيرًا، ففيه حق القرابة، وحق القرابة أولىٰ من حق الفقير البعيد.

وكذلك لا نغفل عن حق القريب في تذكيره ودعوته، فليس الحق فقط حقًّا ماليًّا؛ فقد بدأ الرسول ﷺ مع أقاربه في الدعوة، وفي ذلك توضيح لدرجات مسؤوليات الشخص التي تبدأ من الأهل والأقارب، فالشخص مسؤول عن أهله؛ زوجته، وأولاده، ووالديه، وأقاربه، أخذًا من قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ومع ذلك تجد بعض الأفراد يُقَصِّر في حق أهله وينشط مع غيرهم، وهذا قَفْزٌ وتجاوزٌ لدرجات المسؤولية.

ثم خُتمت آيات إنذار الأقارب بقول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧]؛ لا يهمك عداوة أقاربك لك بسبب دعوتك، بل توكل علىٰ الله، واعتمد عليه، ولا تجامل أقاربك رجاء نصرة أو عون.

تاسعًا: في نداء الرسول ﷺ لعدد من القبائل في قريش تفسير لمعنىٰ القرابة الواردة في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ فقد قال الرسول ﷺ: «يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني كعب بن لؤي». يقول العيني -رحمه الله تعالىٰ-: (ففي هذا الحديث أنه دعا معهم بني أبيه السابع لأب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي) [1]. والنداء لبني كعب ورد في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، لكن

(١) العيني، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، تحقيق ياسر بن إبراهيم، الطبعة الأولى (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٤٢٩)، (١٦/ ٢٠٨).

ورد في حديث ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه نادىٰ «يا بني فهر»، وفهر جدٌّ لـ(لؤي)، فيكون وصل إلىٰ الجد العاشر[1].

عاشرًا: وقفت عند مسألة مناداة الرسول ﷺ لابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، الثابت في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولما كان هذا النداء -كما يظهر- في نهاية السنة الثالثة من البعثة، وهذا يعني أن فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- كان عمرها قرابة خمس سنوات، فكيف ناداها الرسول ﷺ؟

يقول الدكتور موسىٰ شاهين لاشين -رحمه الله تعالىٰ-: (ويشكل علىٰ الحديث نداء فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهي لم تكن بالغة بحيث تُخاطَب بالأحكام؟ ويمكن أن يُجَاب علىٰ هذا الإشكال بأن نداءها لم يكن لتكليفها بالأحكام، وإنما ليُعْلِن لقريش أنه لا يملك لها شيئًا عند الله إن لم تعمل لنفسها بعد بلوغها، وإن كان يملك أن يعطيها من ماله ما تسأل)[2].

أما المباركفوري -رحمه الله تعالىٰ- فيرىٰ تأخر القصة ويقول: (وفي نداء فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- يومئذ أيضًا ما يقتضي تأخر القصة؛ لأنها كانت حينئذ صغيرة أو مراهقة)[3].

ولكن حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- الثابت في الصحيحين جاء فيه لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾؛ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعَمَّ وخصَّ، وفيه قال «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار»؛ وهذا يُشْعِر بأن

---

(١) لمزيد من التفصيل عن معنى الأقارب والمراد بهم وحقوقهم يمكن الرجوع إلى كتابي (الأقارب: من هم، منزلتهم، حقوقهم)، وهو من منشورات دار التدمرية بالرياض، وموجود نسخة إلكترونية له.

(٢) موسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الشروق ١٤٢٣)، (٢ / ٤٥).

(٣) المباركفوري، تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٣).

القصة كانت مُقارِنةً لنزول الآية، مما يُرجّح قول الأستاذ موسىٰ لاشين -رحمه الله تعالىٰ-، والله أعلم).

حادي عشر: مما يلفت النظر أن الرسول ﷺ نادىٰ فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ولم يرد فيما اطلعت عليه، أنها نادىٰ بقية بناته الأخريات؛ وهن زينب ورقية وأم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنهن- مع أن من المعلوم أن فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- أصغرهن!

وفيها هذا يقول الدكتور موسىٰ لاشين -رحمه الله تعالىٰ-: (وفاطمة-رضي الله تعالىٰ عنها- كانت أصغر أولاده، وللصغير زيادة محبَّة، فإذا انتفىٰ نفعه لمن يُحب من أقاربه، ومن يحرص علىٰ نفعه، انتفىٰ عن غيره من باب أولىٰ)[1]. ويقول رشيد الكنكوهي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله «يا فاطمة بنت محمد إلخ» لعله ﷺ ذكر بناته الأُخَر، لكن الراوي لم يَذكر، ويمكن أن يكون تركها في أصل نداء النبي ﷺ؛ لأنه لما أنذر ابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وكانت صغرىٰ بناته -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن-، وكانت لم تبلغ بعد؛ عُلِم حالهن وأنهن مُنْذَرات أيضًا، وإن لم يصرح بهن في النداء). ورجح الجواب الثاني محقّق الكتاب محمد زكريا الكاندهلوي - كما يظهر- في الهامش[2].

ثاني عشر: يقول -تعالىٰ-: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، ما هو الصدع؟ تقول: انصدع الجبل، أو الجدار: إذا انشق، فالصدع فيه معنىٰ القوة والصلابة والوضوح، وهكذا يكون المسلم حينما يدعو إلىٰ ربه دعوة الواثق من قوله

---

(١) موسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الشروق ١٤٢٣)، (٢ / ٤٥).

(٢) رشيد أحمد الكنكوهي، الكوكب الدري على جامع الترمذي. جمعها ورتبها: محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (المتوفى: ١٣٣٤ هـ). تحقيق محمد زكريا بن محمد يحيى الكاندهلوي (الهند: مطبعة ندوة العلماء ١٣٩٥)، (٣/ ٢٣٣-٢٣٤).

الذي يعلو بها ويرفع بها صوته، لا يخجل ولا يستحيي من عرض دينه أو الحديث عنه.

إن بعض الشباب المسلم تجده ضعيف الثقة بدينه، يستحيي من الدعوة إلىٰ الله، يخشىٰ مخالفة الناس فيما هم عليه. يشعر بالخطأ والتقصير، لكنه لا يستطيع المواجهة.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- بعد أن صنَّف الناس إلىٰ أربعة أصناف: (من وجد أُنْسه بالله في الخلوة وفي الناس فهو المُحِبّ الصادق، ومن وجد أُنسه بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومَن فقده في الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن فقد أُنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف)[1].

إن الحديث هنا عن هذا الصادق الضعيف الذي نريد أن نذكره بقوله -تعالىٰ-: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]؛ هل معنىٰ الصدع أن يستحيي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يستحيي من الدعوة إلىٰ الله؟

وإني لأعجب من تلك العزة الإيمانية التي بدت جلية لسحرة فرعون، جاؤوا في البداية يُناصِرون فرعون ويعادون موسىٰ -عليه السلام-، لكن لما ألقوا حبالهم وعِصيهم، وتبين لهم الحق، ماذا جرىٰ بعد ذلك؟ آمنوا به!! لكن ليس إيمان الضعفاء؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ

(١) ابن القيم، الفوائد (ص ٤٣).

﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٤١-٥١]. هكذا آمنوا إيمان القوي الواثق من دينه، فما كانوا مؤمنين ضعفاء يستحيون من دينهم، وكأنهم علىٰ باطل وغيرهم علىٰ الحق.

ثالث عشر: في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤]؛ توجيه للمسلم وهو يدعو إلىٰ الله -جل شأنه- ألَّا يهتم ولا يلقي بالًا، بما يقوله الخصوم والأعداء؛ اعتراضًا علىٰ دعوته إلىٰ الله؛ لأن الالتفات إلىٰ هؤلاء تضييع لوقت ثمين، وانشغال بما لا يفيد، وفي مضمون ذلك، التوجيه بالاستمرار في العمل لهذا الدين دون توقُّف أو التفات لتلك العقبات التي يصنعها خصم أو عدو.

يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ-: (لا تُبَالِ بهم، ولا تلتفت إلىٰ لومهم إيّاك، علىٰ إظهار الدعوة، قال بعضهم: هذا منسوخ بآية القتال، وهو ضعيف؛ لأن معنىٰ هذا الإعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخًا)(١).

رابع عشر: عندما صعد الرسول ﷺ علىٰ جبل الصفا؛ ليجمع عشيرته حوله؛ كي يسمعوا كلامه قال: «وا صباحاه»؛ وهذه كلمة اعتاد عليها العرب في الجاهلية، ولكنهم كانوا أيضًا مع قول هذه العبارة يخلع الرجل منهم ثيابه، ويحثو التراب علىٰ نفسه، فإذا اجتمع الناس أخبرهم بالخطر الداهم الذي ينتظرهم.

وهنا نلحظ أن الرسول ﷺ لم يتخلَّ عن هذه الطريقة بكاملها؛ فلم يصعد علىٰ الصفا وينادِ بطريقة جديدة، ويترك طريقتهم، ثم لما أراد الاستفادة لم يكن تقليدًا كاملًا، فلم يتعرَّ ولم يَحْثُ علىٰ نفسه التراب، وبالتالي فقد استفاد مما لدىٰ الغير استفادة منضبطة بما لا يتعارض مع دينه، فكلمة (واصباحاه) ليست ممنوعة، وإنما الممنوع أن يتعرَّىٰ الإنسان في مثل هذا الموقف أو أن يحثو علىٰ نفسه التراب؛ فأخذ

(١) الرازي، التفسير الكبير (١٠/ ٢١٥).

الذي لا يعارض الدين واستفاد منه وترك ما يعارضه، وهكذا أيضًا المسلم يأخذ مما لدىٰ الغير ما يكون حسنًا لا يخالف الدين ويترك ما يخالف الدين، فالاستفادة من الغير تكون وفق هذا المعيار، فلا يكون الشخص منغلقًا رافضًا لكل ما لدىٰ غيره، أو منفتحًا مقلدًا لكل ما يجري لدىٰ الآخرين، وإنما الاعتدال بأخذ الحسن وترك السيئ.

خامس عشر: لماذا هذه المواجهة القوية من أبي لهب وهذا العداء المُعلَن في أول لحظة؟

هنا أجد عدة أسباب تجمعت جعلت أبا لهب يُشمّر عن ساعد العداوة ويقف في صف المحاربة لابن أخيه؛ لعل منها:

أ. ما نشأ عليه أهل الجاهلية من التمسك بما عليه الآباء والأجداد، فقد كَبُر عليه مخالفة أبيه عبد المطلب وتضليل معتقده، وما كان عليه من عبادة للأصنام.

ب. استنكف أن يكون تابعًا لابن أخيه.

ج. ويضاف إلىٰ ذلك: لعل الله –جل شأنه– أراد أن يبين للناس أن هذه الدعوة، ليست دعوة عشائرية أو عصبية قبلية، بل هو دين ورسالة من الله –تعالىٰ– إلىٰ خَلْقه من الإنس والجن؛ الأولىٰ بها من سبق عليها عربيًّا كان أو أعجميًّا، مولًىٰ كان أو سيدًا من السادات[1].

سادس عشر: في قول أبي لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فائدة كبيرة لكل مَن يدعو إلىٰ الله، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر؛ ذلك أنه سيجد من يقول له مثل هذا الكلام، فيتذكر قول أبي لهب لرسول الله ﷺ أمام الناس، ومع ذلك لم يؤثر ذلك علىٰ الرسول ﷺ؛ فقد مضىٰ في دعوته، غير مُبالٍ بأبي لهب وأمثاله، وهم كثيرون،

(١) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (١/ ٤٠٦).

فإذا أمرت بمعروف، أو نهيت عن منكر، أو نصحت، أو تكلمت عن الدين فوجدت من يعارضك فلا تتضايق، بل تذكَّر أن مثل هذا القول؛ بل أشد منه، قيل لرسول الله ﷺ، فالعيب والنقص ليس فيك أيها الداعية، وإنما الخطأ من القائل الذي قال ذلك.

سابع عشر: الجزاء من جنس العمل، قال أبو لهب للرسول ﷺ: «تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟»؛ فحكم الله عليه بحكمه القدري الذي لا يستطيع أن ينفك منه، بمثل عبارته: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، وهذه قاعدة في الخير والشر أن الجزاء من جنس العمل، قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وقال -تعالىٰ- ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

ثامن عشر: الإعجاز العظيم في هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١-٣]؛ إن أبا لهب لا يزال حيًّا وقت نزول هذه الآيات، ومع ذلك حكم عليه القرآن الكريم بأنه لن يأتي إلىٰ محمد ﷺ، ويقول له: إني آمنت، إن مثل هذا الحكم علىٰ رجل لا يزال حيًّا لا يمكن أن يصدر من بشر؛ لأن بإمكان أبي لهب أن يأتي ويقول: إن محمدًا حكم عليَّ أني لن أؤمن، وها أنذا أؤمن.

فهذا خبرٌ لا يصدر إلا ممن يعلم الغيب -سبحانه-، ويعلم ما تؤول إليه الأمور ويعلم أن أبا لهب سيموت علىٰ الكفر!! إن بعض أهل مكة كانوا يؤذون الرسول ﷺ، ومع ذلك لم يحكم عليهم الرسول ﷺ بالنار، ومنهم من جاء إلىٰ الرسول ﷺ وأسلم.

من أخبر الرسول ﷺ أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء؟ إن هذا الحكم: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] لا يمكن أن يصدر من محمد ﷺ إلا بخبرٍ ممن يعلم الغيب -سبحانه وتعالىٰ-، فكان في هذه الآية إعجاز عظيم في أمر مستقبلي لا يعلمه إلا الله -جل شأنه-.

تاسع عشر: إن ما حكاه الله -جل شأنه- لنا من مآل ونهاية أبي لهب، هو درس لكل من يعادي هذا الدين، فإن له نصيبًا من الوعيد علىٰ قدر معاداته، وإنه في النهاية لن يضر إلا نفسه، وقد كانت نهاية أبي لهب أن مات حزينًا ذليلًا بعد علمه بخبر انتصار الرسول ﷺ في بدر ومقتل عامة زعماء كفار قريش.

العشرون: في قوله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر:٩٥]؛ أمر عجيب، ذلك أن من لديه سلطان قد يقول لك: أنا أحميك، لا يستطيع أحد أن يمدّ يده إليك، أحميك من اعتداء الناس عليك، لكنه مهما كانت قوته لا يستطيع أن يقول: أنا أكفيك المستهزئين؛ لأن الاستهزاء يأتي بإشارة بالعين أو بحركة باليد، أو بكلمة أو بغمز أو لمز، أو بضحكة أو بتعليق يفهمه البعض ولا يفهمه البعض الآخر، ومن يستطيع أن يحصي هذا؟!

لكن الله -سبحانه وتعالىٰ- يقول بصيغة الفعل الماضي الذي وقع وتحقق، والآية تقول: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ﴾، ولم تقل: إنا نمنع؛ لأن الاستهزاء وقع، لكن الله -سبحانه وتعالىٰ- كافٍ رسوله ﷺ، ثم في هذه الآية إشارة لطيفة؛ وهي: أن الذي كفاك المستهزئين أقدر من باب أولىٰ(١) علىٰ كفايتك من أولئك الذين يؤذونك أذًىٰ حسيًّا مشهودًا.

الواحدة والعشرون: في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر ٩٧-٩٩]؛ تشير إلىٰ أن الرسول ﷺ يضيق صدره بسبب أقوالهم المعاندة للدين، وقد بيَّن الله -سبحانه وتعالىٰ- له الحل في ذلك؛ وأنه إذا ضاق صدرك فسَبِّح، وهذا هو أيضًا الحل لكل مَن يضيق صدره في كلّ أمور حياته، وكثيرًا ما نجد الشخص يشتكي ضيقة الصدر من قولٍ قيل له، أو من قول قاله، أو عمل عمله، أو من خطأ

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٤ / ٨٩).

ارتكبه، فما الحل لضيق الصدر هذا؟ الحل هو في قوله -تعالىٰ-: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٨-٩٩]؛ العلاج الذي نزل به الوحي لإزالة ضيق صدر الرسول ﷺ، وهو أيضًا العلاج لكل من يواجه ضيقًا في صدره في وقتنا الحالي.

الثانية والعشرون: في هذه الآيات ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٨]؛ دليل علىٰ مشروعية الصلاة عند الشدة، وحَزْبِ الأمر، والهمِّ، وأن من وجد شيئًا من ذلك؛ شُرعت له الصلاة، لوجود سببها، فتُصَلَّىٰ ركعتين ومضاعفاتها، حتىٰ يزول ذلك السبب. وقد كان النبي ﷺ يفزع إلىٰ الصلاة إذا حزبه أمر، فكان ﷺ يُصلّي قُبَيْل لقاء العدو، وعند اجتماع الأحزاب -كما سيأتي-، قال حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه-: «رجعت إلىٰ النبي ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلىٰ»[1]. وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-: «لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم، غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو إلىٰ الصباح»[2]. وقد قال -تعالىٰ-: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:٤٥][3].

---

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة، تحقيق عبد الرحمن الفريوائي، الطبعة الأولى (المدينة: مكتبة الدار ١٤٠٦)، (١/ ٢٣١) رقم ٢١٢. وروى أبو داود اللفظة الأخيرة في سننه وحسنه الألباني (٢/ ٣٢) رقم (١٣١٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٦٣) رقم (١١٦٢)، وقال محققه الأرناؤوط وزملاؤه): «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة»، وأخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣١) رقم (٢١٣). والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٤٠٦) رقم (٨٢٥).

(٣) انظر: الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن، (٤/ ١٦٥٩-١٦٦٠).

المبحث الثاني

موقف قريش من الدعوة بعد الصدع بها

كانت قريش تظن في البداية أن دعوة محمد ﷺ كسائر الدعوات التي ظهرت في مكة، ثم لم تلبث أن انتهت وخبت، مثل كلام زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وغيرهم، ولكن لما جهر رسول الله ﷺ بدعوته، وصارحهم بمضمونها، وأعلن الدعوة إلىٰ التوحيد، ومنابذة الشرك وأهله، وبيَّن حقيقة آلهتهم، ومعتقدات آبائهم الوثنية، وتعلقهم بالأصنام، وأنها لا تتجاوز أن تكون حجارة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا؛ فضلًا عن أن تنفع أو تضر غيرها، وأن التوجه إليها هو أعظم الظلم، وأشد المحرمات... لما وقف ﷺ هذا الموقف أدركتْ قريش أن هذه الدعوة ليست كسابقاتها من تلك الدعوات، وأنهم أمام دعوة تختلف كليا عن أقوال أولئك، دعوة تأتي علىٰ الكثير من معتقداتهم الموروثة فتنسفها من القواعد، وأنها -مع ذلك- دعوة بدأت تدخل كل منزل، يسري أثرها كما يسري الماء في أغصان الشجر.

وأصبحت قريش مع كل يوم جديد يتناهىٰ إلىٰ أسماعها انضمام ضيف إلىٰ ركاب هذه الدعوة، يُضاف إلىٰ ذلك شدة وصلابة مَن أسلم، فلا ينفع معه تعذيب أو تنكيل ليرجع عن هذا الدين.

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فلما بادئ رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه -فيما بلغني- حتىٰ ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه،

وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله -تعالىٰ- منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون)(١).

وقال -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن إسحاق: فحدثني يحيىٰ بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير -رحمه الله تعالىٰ-، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه علىٰ أمر عظيم، أو كما قالوا. فبينا هم في ذلك؛ إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتىٰ استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ قال: ثم مضىٰ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح، قال: فأخذت القومَ كلمتُه حتىٰ ما منهم رجل إلا كأنما علىٰ رأسه طائر واقع، حتىٰ إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتىٰ إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولًا. قال: فانصرف رسول الله ﷺ.

حتىٰ إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتىٰ إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؛ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ:

(١) ابن هشام السيرة النبوية (١/ ٢٣٨).

«نعم، أنا الذي أقول ذلك». قال: فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه. قال: فقام أبو بكر -رضي الله عنه- دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط)[1].

نلاحظ من هذا أن قريش أصابها الهيجان، ووقف جلّة أشياخها وزعمائها وقفة واحدة صلبة تجاه هذه الدعوة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ:١٣]؛ لقد صعب علىٰ قريش هذه الدعوة -كما يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ- من ثلاث جهات:

الجهة الأولىٰ: جهة الداعي، وهو محمد ﷺ؛ لأنه بشر مثلهم؛ ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤]، وأنه لم يكن قَبْل الدعوة من عظماء القريتين؛ قال -تعالىٰ-: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

الجهة الثانية: ما به الدعوة؛ فإنهم حسبوا أن الله لا يخاطب الرسل إلا بكتاب يُنزِّله إليه دفعة من السماء؛ فقد قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١١٨]؛ والقائلون هم المشركون.

والجهة الثالثة: من جهة ما تضمنته الدعوة مما لم تساعد أهواءهم علىٰ قبوله والتسليم به قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وقال

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١١/ ٦٠٩) رقم (٧٠٣٦)، وقال محققه الأرناؤوط وزملاؤه: إسناده حسن. ابن إسحاق -وهو محمد- صرح بالتحديث، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين»، ابن هشام السيرة النبوية (١/ ٢٥٩). والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٧٥). والصوياني، الصَّحيحُ من أحاديث السّيرة النبوية (ص ٦٢). والعلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٥٩)، وقال: «وأخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب لو (كنت متخذًا خليلاً) رقم: (٣٦٧٨) فتح الباري: (٧/ ٢٢) مختصرًا».

-تعالىٰ-: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧])[1].

فهم استكثروا علىٰ محمد ﷺ أن يُرْسَل، واستغربوا أن يُنزَّل عليه كتاب، ولم يُنزَّل مَلَك معه، واستنكروا دعوة التوحيد، وتقرير البعث بعد الموت.

وكانت أول خطوة هي المواجهة الجماعية منهم لشخص محمد ﷺ، وعيدًا وتهديدًا، واستهزاءً، وإيذاءً بدنيًّا ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلًا. وكان يتزعم هذا الموقف الملأ من القوم، يوضح ذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:١-٨]، فهذه الآيات تُصوِّر جملة الموقف، وقادته ودعواهم وحجتهم تصويرًا دقيقًا.

ولما لم يؤثر ذلك علىٰ الرسول ﷺ ولم يثنه عن شيء من عزيمته؛ إذ قد مضىٰ في أداء رسالته، غير ملتفت إليهم، ورأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يستجيب لهم في شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه، مشىٰ رجال من أشراف قريش إلىٰ أبي طالب، فقالوا: (يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تُخلّي بيننا وبينه، فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه). فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا، وردهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه[2].

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٢٥/ ٥٤-٥٥).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦٥)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٣٦).

ومضىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتىٰ تباعد الرجال وأعلنوا العداوة وأكثرت قريش ذِكْر رسول الله ﷺ بينها، وحضّ بعضهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشوا إلىٰ أبي طالب مرة أخرىٰ، وكرروا طلبهم أن يَكُفَّ محمد ﷺ عنهم، أو ننازله وإياك في ذلك، حتىٰ يهلك أحد الفريقين. فعظم ذلك علىٰ أبي طالب لكنه، مع ذلك، وعد الرسول ﷺ بالنصرة، فزاد الأمر شدة و(حميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادىٰ بعضهم بعضا)؛ كما يقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-[1].

هذا موقفهم إجمالًا، وإن كانوا يتفاوتون في ذلك حسب ما تُمليه بعض المصالح الشخصية لكل منهم، ولنوع القرابة مع بني هاشم؛ كما سيأتي مزيد توضيح له -إن شاء الله تعالىٰ- في الفقرة التي تلي فقرة أساليب قريش في المواجهة.

أقف عند هذا الجزء من السيرة النبوية الذي يُمثل بداية المواجهة بين الرسول ﷺ وكفار قريش، ونلحظ ما يلي:

أولًا: إن قريشًا في البداية سالمت الرسول ﷺ ولم تتعرَّض له؛ ظنًّا منها أنها واعظ كسائر الوعاظ، الذين يهتمون بتزكية النفس، والزهد في الدنيا، والإيمان بما ما هو متاح من الكتب السماوية السابقة، مع أداء بعض الشعائر الدينية، وانتقاد بعض الأوضاع الاجتماعية، ثم لا يجد قبولًا، وتنتهي دعوته بوفاته. وهذا بالنسبة لقريش لا مشكلة لهم معه، ولو كانوا بعدد الحصىٰ، إذا كانت عبادتهم لأصنامهم قائمة، والشرك الأكبر علىٰ أشده، ومعتقدات الآباء الشركية علىٰ قداستها، لم تُمَسّ.

ثانيًا: موقف قريش من الرسول ﷺ بعد إعلان دعوته، يدل علىٰ أن الناس يحبُّون الرجل الصالح، لكنهم لا يحبون الرجل المُصلِح، بل يعادون الرجل المُصلِح؛ فقريش أحبَّت الرسول ﷺ قبل البعثة، وكانت تُسمِّيه الأمين الصادق،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦٧).

وترضىٰ بحُكْمه في تحكيم وضع الحجر الأسود، وتضع عنده ودائعها، كل ذلك لما رأته فيه من صلاح. لكن بعد البعثة أصبح مُصلِحًا، وعندها عادوه وأصبح في نظرهم ساحرًا كاهنًا كذابًا مفتريًا.

والسبب أن المصلح يصطدم بشهوات الناس وأهوائهم، وهم لا يريدون مَن يتعرض لهم في شهواتهم وأهوائهم ورغباتهم. والمصلح أنفع للأمة من الصالح، علىٰ معنىٰ كونه مقتصرًا علىٰ إصلاح نفسه، وترك الناس. وإلا فإن من الصلاح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا واقع بين الناس اليوم، فإنهم لا إشكال عندهم في الرجل الذي يصلح في نفسه ويتركهم لا يأمرهم ولا ينهاهم، أما إذا أمر ونهىٰ وذكر ووعظ، فسيتغير الرأي فيه ويظهر له معارضون وخصوم وأعداء.

ثالثًا: إن نهوض قريش بهذا الهيجان الفردي، ثم الجماعي؛ يدل علىٰ أنهم فهموا المراد واستوعبوه، وأنه هذا الهيجان لم يكن ضد محمد ﷺ بشخصه، وإنما كان للقضية التي دعاهم إليها، فمحمد ﷺ محل تقديرهم واعتزازهم، لكنَّ الخلاف كان حول هذا المضمون الذي جاءهم به، والذي صرحوا به، قائلين في شكواهم لأبي طالب: إن ابن أخيك (سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا)، وعند تأملها، تجد أن أساسها الأول: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥][1]. ثم من القائل لذلك منهم؟ إنه الملأ منهم، أي كبارهم وعقلاؤهم، وأصحاب الرأي والتأثير فيهم، فهم عرفوا أن هذه الدعوة تعني التوحيد، وإنهاء الأصنام الموجودة حول الكعبة وفي كل بيت، والتوجه بكل صور العبودية لله -تعالىٰ- وحده لا شريك له، وهذا أمر غريب جدًّا عليهم مما تلقوه من آبائهم وأجدادهم.

رابعًا: إنهم فهموا دعوة محمد ﷺ، وعرفوا أنها تقوم في جوهرها وأساسها علىٰ التوحيد، توحيد الله -جل شأنه- في العبادة، فلا يتوجه القلب إلا إلىٰ الله، وأن التوجه

---

(١) عجاب: «أي: بليغ في التعجب» التفسير الكبير للرازي (٢٦/ ٣٨٦).

إلىٰ أيّ معبود غير الله هو شرك بالله -سبحانه-، سواء أكان هذا المعبود الذي تتجه إليه القلوب، وليًّا أو حجرًا أو قبرًا أو شجرة أو غارًا أو صنمًا، أو غير ذلك.

خامسًا: قارئ السيرة وبخاصة في مرحلة الصراع مع كفار قريش في السنوات الأولىٰ من البعثة، يتضح له جدًّا منزلة التوحيد في دعوة الرسول ﷺ قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فهؤلاء الرسل -عليهم السلام- كلهم كانت دعوتهم جوهرها وأساسها التوحيد، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكلما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتمّ، فمن لقيه لا يشرك به شيئًا ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت، ولم يُعذّب بها)(١). ويقول أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثًا كما كان، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم الله علىٰ المشرك الجنة)(٢).

فلذلك نقول لكل داعية إلىٰ الله -تعالىٰ-: عليك بالتوحيد، ابدأ به وأصلح عقائد الناس، فهي القضية الأساسية لكل مهتدٍ بهدي الرسول ﷺ. رُدَّ قلوب الناس إلىٰ ربهم، اجعلهم لا يخافون إلا من ربهم، لا يرجون إلا الله، لا يدعون إلا الله، لا يفزعون في شدائدهم إلا إلىٰ الله، بَيِّنْ لهم أن ما يفزعون إليه ويرجونه ويخافونه -سوىٰ الله- ليس إلا مخلوقًا مثلهم؛ لا يملك لنفسه شيئًا فضلًا أن يملك خيرًا أو شرًّا لغيره.

سادسًا: إن كفار أدركوا أن هذه الدعوة الجديدة ستقوّض جاههم الجاهلي وتكبّرهم وتعاليهم علىٰ الناس فقابلوها بالاستعلاء، قال -تعالىٰ-: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ قال ابن جُزي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني قريشًا،

(١) ابن ا لقيم، مدارج السالكين (١/ ٣٣٨).
(٢) ابن القيم ، زاد المعاد (١/ ٦٨).

و﴿ بَلِ ﴾ للإضراب عن كلام محذوف، وهو جواب القسم أي: إن كفرهم ليس ببرهان، بل هو بسبب العزة والشقاق، والعزة التكبر. والشقاق: العداوة وقصد المخالفة، وتنكيرهما للدلالة علىٰ شدتهما، وتفاخم الكفار فيهما)[1].

سابعًا: إن هذا كله يُحدّد لنا بدقة موقف كفار قريش، علىٰ نحو ما وصفهم القرآن الكريم: (﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ المقبول قولهم، مُحرّضين قومهم علىٰ التمسّك بما هم عليه من الشرك. ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾؛ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلىٰ عبادتها، ولا يردّكم عنها رادّ، ولا يصدنّكم عن عبادتها صادّ)[2].

إذن: هناك أمران مهمّان خشي عليهما كفار قريش، فاتحدوا ضد محمد ﷺ؛ هذان الأمران هما:

الأول: وضعهم الديني.

والثاني: وضعهم الاجتماعيّ.

أما الديني فهم يعلنون أنهم متمسكون بشركهم رافضون تمامًا لقضية توحيد الألوهية.

وأما الاجتماعي فهم علىٰ التمسك بشهوة الجاه التي نشأوا عليها، وخافوا من زوالها بتبعيتهم لمحمد ﷺ.

ثامنًا: من أسباب ضلال قريش ومعاداتهم للرسول ﷺ ووقوفهم هذا الموقف: ما صرح به القرآن الكريم ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٠١).
(٢) السعدي، تفسير السعدي (ص ٧٠٩).

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢-٢٣]، وقالوا: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ [ص: ٧]؛ إنه تقليد الآباء، وهذه بلاء لا يزال قائمًا يحول بين بعض الناس وقبول الحق. والعاقل يعلم أنه لا يلزم من كون الآباء يفعلون شيئًا أن يكون حقًّا، فالدين شرع الله، لا ما ورثه الشخص عن آبائه.

والعاقل -أيضًا- مَن يستفيد من هذا الدرس، ويبحث عن الحق، الذي يسانده الدليل، ويترك ما عدا ذلك من عادات وأعراف وتقاليد، سواء أكانت في العقيدة أو العبادة أو في السلوك، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وما علىٰ العبد أضرّ من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضية، فمن لم يُوطّن نفسه علىٰ مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع، وعن فوزه وفلاحه ممنوع)[1]. يقول الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود -رحمهم الله تعالىٰ- في رسالة له: (العادة ملّاكة، تقلب الشَّين زينًا، ولم تُعَادَىٰ الرُّسل بشيء أعظم من العادة)[2].

تاسعًا: إن من أسباب الضلال الحرص علىٰ الجاه والمنزلة الاجتماعية، فهؤلاء رفضوا الحق الذي جاء بهم محمد ﷺ، لما أدركوا أنه يقوّض سلطتهم وجاههم، ولذلك نجد أن الذي تصدّوا للدعوة هم الكبراء من القوم الذي ستذهب سلطتهم وسطوتهم، ونجدهم اتفقوا علىٰ المواجهة ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ ﴾..

ومن عرف السبب المانع من قبول الحق، استفاد من ذلك، فلا يقع هو أيضًا في ردّ حقّ خوفًا علىٰ جاهه، حتىٰ لا يكون مصيره مصير أولئك الأقوام الذي هلكوا علىٰ شركهم. ولعل ذلك يُسَوِّغُ لي أن أكرر مرة أخرىٰ أن أخطر داء قلبي علىٰ الإنسان هو (التمسك بما عليه الآباء + الحرص علىٰ الزعامة)؛ فهذا أسوأ بلاء يحول دون قبول الحق.

(١) ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ١٦٥).

(٢) عبدالرحمن بن قاسم ، الدرر السنية (١/ ٢٧٨).

عاشرًا: ينبغي ألَّا نخلط بين الأعراف والتقاليد، وبين الشريعة الإسلامية؛ لأننا كما نخشىٰ من تأثير الأعراف والتقاليد في رد الحق، كذلك نخشىٰ من تبديل الحق إلىٰ باطل باسم أن هذا الأمر الشرعي من الأعراف والتقاليد، فيجوز تبديله.

فإذا قبلنا تسمية شيء من الدين، (تقاليد) اختلط علىٰ الناس الدين بالتقاليد، وإذا غُيرت عليهم لم يتنبهوا، ولهذا ينبغي الحذر من إطلاق كلمة «تقاليدنا الإسلامية» علىٰ شيء من الشرع الإسلامي، وإنما يُقال: شريعتنا الإسلامية، وديننا الإسلامي.

حادي عشر: مع هذا الوضوح من كفار قريش في فَهْم الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ، وصراحة المعاداة له؛ إلا أننا نجد في الأمة الإسلامية مَن لم يفهم بعدُ معنىٰ هذا الدين؛ فهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صباحًا ومساءً، ومع ذلك يُشرك بالله في توحيد الألوهية، يرجو غير الله، يخاف غير الله، يدعو غير الله، يطوف علىٰ القبر، وينادي باسم الولي وهو ميت، ولا يرفع يديه يدعو الله -سبحانه-، يُصدّق المشعوذين، ويتردّد عليهم، يتعلق قلبه بغير الله -جل شأنه- محبةً ورجاءً وخوفًا. إذا مسَّه الضرّ تذكّر قبر الولي، وإذا نزل به داء، سارع للمنجمين والسحرة والخرافيين كأنهم يعلمون الغيب أو يملكون شيئًا.. ألَا يعلم أن هؤلاء لا يملكون لأنفسهم مثقال حبة من خردل، فضلًا عن أن يملكوها لغيرهم.

المشركون من كفار قريش لم يكن لديهم أي مشكلة في توحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، ويقرّون بذلك، ولكنهم في دعائهم، وفي رجائهم وفي خوفهم وفي محبتهم، لا يتجهون إلىٰ الله، وإنما يتجهون إلىٰ مخلوقات قدَّسوها ورجوها وخافوها وأحبّوها. واستماتوا في الدفاع عن هذا المعتقد!!

وفي العالم الإسلامي اليوم مَن لا يبعد عن هؤلاء، يؤمن بالله ربًّا خالقًا رازقًا محييًا مميتًا، لكنَّ خوفه ورجاءه ومحبته ودعاءه لمخلوق مقدَّس في نظره، أيًّا كان

هذا المخلوق، والفارق بين الفريقين أن أولئك رفضوا أن يقولوا (لا إله إلا الله)، وهؤلاء قالوها وهم لم يفهموا معناها أو فهموه فهمًا محرَّفًا لم يفرق بين الربوبية والألوهية، لم يفرقوا بين لا رب إلا الله، ولا إله إلا الله، مع أنهم يقرأون يوميًّا سورة الفاتحة سبع عشرة مرة على الأقل، وأولها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي فيه التفريق بين ﴿لِلَّهِ﴾ و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فالألوهية غير الربوبية، وإلا كان تكرارًا.

ثاني عشر: قال إمام المفسرين الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره، عند قوله -تعالىٰ- ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ قال أبو جعفر: (يقول -تعالىٰ ذِكْره- لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به: ولا تسبُّوا الذين يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد، فيسبَّ المشركون اللهَ جهلًا منهم بربهم، واعتداءً بغير علم)[١]. وهذا من سد الذرائع، ودَفْع المفسدة الكبرىٰ في مقابل تحمُّل مفسدة أقل منها. وهي قاعدة عظيمة المعنىٰ يحتاجها المسلم في حياته الخاصة والعامة.

وهذه القاعدة يؤكدها ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره فيقول: (يقول -تعالىٰ- ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سبّ آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبّ إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو)[٢].

وقال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فذُكِرَ لي أن رسول الله ﷺ كفَّ عن سبّ آلهتهم، وجعل يدعوهم إلىٰ الله)[٣].

(١) الطبري، تفسير الطبري، (٩/ ٤٧٩).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤).
(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٥٧).

المبحث الثالث

أساليب المشركين في مواجهة الرسول ﷺ

لما أدركت قريش حقيقة ما يدعو إليه الرسول ﷺ، واتخذت قرار المواجهة الفردية والجماعية لهذه الدعوة؛ سلكت عدة أساليب يمكن استنباطها من واقع ما جرىٰ منهم من تصرفات في المواجهة بعد إدراكهم لحقيقة الدعوة، ولعل أبرز هذه الأساليب ما يلي:

■ الأسلوب الأول: الحوار

وقد سارت قريش في هذا وفق مسلكين، أولهما الحوار المباشر مع الرسول ﷺ، ثم الحوار مع عمه ومناصره أبي طالب:

أ- الحوار المباشر مع الرسول ﷺ: وقد كان هذا الحوار المباشر إما فرديًّا أو جماعيًّا:

الأول: الحوار الفردي: «قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلىٰ محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة-رضي الله تعالىٰ عنه-، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلىٰ يا أبا الوليد، قم إليه فكَلِّمْه. فقام إليه عتبة حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد

علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم؛ فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضىٰ من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع»، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا، حتىٰ لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكّناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع علىٰ الرجل حتىٰ يُداوَىٰ منه، أو كما قال له، حتىٰ إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني»؛ قال: أفعل. فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ١-٣]، ثم مضىٰ رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصتَ لها، وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه؛ ثم انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلىٰ أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فمُلْكه مُلككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي

فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)[1].

الثاني: الحوار الجماعي: قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة، كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ-، وعن عكرمة -رحمه الله تعالىٰ- مولىٰ ابن عباس، عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم. قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلىٰ محمد فكلِّموه وخاصموه حتىٰ تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فَأْتِهِمْ. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصًا يحبّ رشدهم، ويعز عليه عَنَتهم، حتىٰ جلس إليهم؛ فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل علىٰ قومه مثل ما أدخلتَ علىٰ قومك، لقد شتمت الآباء، وعبتَ الدين، وشتمت الآلهة، وسفهّت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك -أو كما قالوا له- فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالًا، وإن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦١-٢٦٢)، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٠٤-٢٠٥). وابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٥٠٤-٥٠٥). وابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ١٦٢-١٦٣)، الذهبي سير أعلام النبلاء، السيرة النبوية، (١/ ١٢٨)، وقال الألباني في تخريجه لفقه السيرة للغزالي (ص١١٦): «هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي: (١/ ١٨٥)، من سيرة ابن هشام، بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ووصله عبد بن حميد، وأبو يعلي، والبغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضي الله عنه، كما في تفسير ابن كثير: (٤/ ٩٠- ٩١)، وسنده حسن إن شاء الله».

كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًّا- فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتىٰ نبرئك منه، أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم»، أو كما قال ﷺ.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسَيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضىٰ من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم: قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك، صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول.

فقال لهم -صلوات الله وسلامه عليه-: «ما بهذا بُعِثْتُ إليكم من الله، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله -تعالىٰ-، حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك بأن يبعث معك ملكًا يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس

المعاش كما نلتمسه، حتىٰ نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعِثْت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا -أو كما قال-؛ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أنَّ ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. قال: فقال رسول الله ﷺ : «ذلك إلىٰ الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل».

قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا؛ إذ لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتىٰ نهلكك، أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتىٰ تأتينا بالله والملائكة قبيلًا. فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم -وهو ابن عمته، فهو ابن لعاتكة بنت عبد المطلب- فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تُعجّل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب، فلم تفعل -أو كما قال له-؛ فوالله لا أومن بك أبدًا حتىٰ تتخذ إلىٰ السماء

سُلّمًا، ثم ترقىٰ فيه، وأنا أنظر إليك حتىٰ تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلىٰ أهله حزينًا آسفًا؛ لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأىٰ من مباعدتهم إياه)[1].

وقال الإمام أبو جعفر الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره (حدثني يعقوب، قال: ثنا ابن علية، عن محمد بن إسحاق، قال: ثني سعيد بن مينا مولىٰ البختري، قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، رسول الله، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه؛ وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك فأنزل الله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ حتىٰ انقضت السورة)[2]. والذي يهمنا هنا هو الحوار الذي جرىٰ بين كفار قريش والرسول ﷺ، وسعيهم لما يمكن أن يسمىٰ في لغة عصرنا التقارب بين الأديان، أما كونه سببًا لنزول السورة، فلم أجد من صحَّح سبب النزول، كما هو مبين في الهامش، والله أعلم.

ب- **الحوار غير المباشر مع الرسول ﷺ**: لما رأت قريش مُضِيّ الرسول ﷺ في دعوته غير مُبَالٍ بموقفهم، وأن الإسلام لاقَىٰ قبولًا عند أشخاص لهم مكانتهم

---

(١) ابن هشام، السيرة ١/ ٢٦٢- ٢٦٤. وابن كثير، السيرة (١/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) الطبري، تفسير الطبري تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى: (القاهرة: دار هجر ١٤٢٢)، (٢٤/ ٧٠٣). وسليم الهلالي ومحمد آل نصر، الاستيعاب في بيان أسباب نزول آي القرآن الكريم (٣/ ٥٧٢)، وبعد أن ضعّفا هذا الحديث قالا في الهامش: «وهذا مرسل حسن الإسناد»، وقال ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٣٣): (وقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قالت قريش للنبي ﷺ: كفَّ عن آلهتنا فلا تذكرها بسوء؛ فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة؛ فنزلت. وفي إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى، وهو ضعيف. تنبيه: لم يُورَد في هذه السورة حديثًا مرفوعًا)ا.هـ.

في قريش كحمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، ورأوا أنَّ عمه أبا طالب قد ناصره وآزره ووقف معه، مشىٰ رجال من أشراف قريش إلىٰ أبي طالب، منهم؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب وأبو البختري، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي، وأبو جهل -واسمه عمرو، وكان يكنىٰ أبا الحكم- بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدد من كبراء قريش؛ فقالوا: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا؛ فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا وردّهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه[1].

ولما لم يؤثر هذا اللقاء علىٰ رسول الله ﷺ، ومضىٰ علىٰ ما هو عليه، يُظهر دين الله، ويدعو إليه؛ فقد اشتد الأمر بينه وبينهم حتىٰ تباعد الرجال وأكثرت قريش ذِكْر رسول الله ﷺ بينها، وحض بعضهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشوا إلىٰ أبي طالب مرة أخرىٰ، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر علىٰ هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتىٰ تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتىٰ يهلك أحد الفريقين -أو كما قالوا له-، ثم انصرفوا عنه، فعظم علىٰ أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

فبعث أبو طالب إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له: (يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، الذي كانوا قالوا له، فأَبْقِ عليَّ وعلىٰ نفسك، ولا تُحمّلني من الأمر ما لا أُطيق؛ فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه رأيًا، فبيَّن لعمه إصراره علىٰ المضي في هذه الدعوة حتىٰ يُظهر الله هذا الأمر أو يهلك فيه. فقال أبو طالب: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدًا)[2].

---

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٣٨- ٢٣٩).

(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

نقف مع هذا الأسلوب لنجد فيه ما يلي:

١. إن قريشًا أدركت مضمون الدعوة، وتَبِعَتها علىٰ معتقداتهم، وأعرافهم وتقاليدهم الباطلة، وأن هذه الدعوة ليست مماثلة لما سبق من دعوات من مثل زيد بن عمرو بن نفيل، أو ورقة بن نوفل، أو قس بن ساعدة، ونحوهم، الذين صرحوا بانتقاد المجتمع دينيًّا، ثم لم يلبثوا أن انتهوا دون تأثير.

٢. إن قريشًا -في مجملها وعلىٰ لسان كبرائها- بناء علىٰ ذلك، اتخذت قرار المواجهة، شأنها شأن الأمم السابقة مع أنبيائها؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

٣. إنها تدرجت في المواجهة، فبدأت بالحوار ومحاولة الإقناع.

٤. يبدو من مجمل ما جرىٰ هنا، إصرار قريش علىٰ موقفهم.

٥. ظنّهم أن المسألة، قد تكون مسألة دنيوية يمكن أن تُحَلّ بمال يُجمَع، أو منصب يُعطَىٰ، أو زوجات تُهدَىٰ لمحمد؛ أو تقارب في منتصف الطريق؛ لكي يرجع محمد عن قضيته.

٦. إن قريشًا لم يكن لديهم حجة ولا برهان في موقفهم سوىٰ الخوف علىٰ التراث الديني والاجتماعي، الذي لو تأملوا فيه، وأعملوا عقولهم لوجدوا أن هذه الدعوة هي مصلحتهم الكبرىٰ.

٧. ويدل لذلك سعيهم للتقارب مع الرسول ﷺ بدعوته إلىٰ أن يعبد الأوثان سنة، ويعبدون الله -جل شأنه- سنة.

يقابل ذلك:

٨. إصرار واضح من النبي محمد ﷺ علىٰ موقفه، وتوكل علىٰ الله وحده، وعزيمة لا يمكن الرجوع عنها.

٩. صعوبة الموقف فهو ﷺ فرد، ومعه قلة من المؤمنين أغلبهم من المستضعفين، في مقابل أشياخ قريش وأسيادها، مع اتفاق رأيهم علىٰ المواجهة مهما كلفهم ذلك.

١٠. موقف أبي طالب في نصرة الرسول ﷺ، الذي سخَّره الله لنصرة هذا الدين، وإن كان بقي محرومًا منه؛ لحكمة يعلمها الله -جل شأنه-. وسأتحدث عن ذلك في مبحث وفاة أبي طالب.

■ الأسلوب الثاني: أسلوب السخرية والاستهزاء ووصف الرسول ﷺ بالسحر والجنون

أولًا: أسلوب السخرية والاستهزاء: لما رأت قريش أن الرسول ﷺ ماضٍ في دعوته مستمرّ عليها لم يُثنه عنها حوارهم معه ولا سعيهم للتقارب، ولا حديثهم مع عمه أبي طالب؛ لجأوا إلىٰ أسلوب السخرية والاستهزاء لمواجهة الدعوة والداخلين فيها.

والمقصود من السخرية والاستهزاء هو تخذيل المسلمين وتحقيرهم ومواجهتهم بحرب نفسية تُوهِن قواهم، وتَحُول دخول آخرين في الإسلام، عن ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-، قال: (حدثني يحيىٰ بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة، -رحمهم الله تعالىٰ- عن عبد الله بن عمرو بن العاص، -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله، فيما كانت تُظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا،

وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه علىٰ أمر عظيم، أو كما قالوا: قال: فبينما هم كذلك؛ إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي، حتىٰ استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، فلما مر بهم الثانية، غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: «تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح»(١)؛ فأخذت القوم كلمته، حتىٰ ما منهم رجل إلا كأنما علىٰ رأسه طائر واقع، حتىٰ إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه(٢) بأحسن ما يجد من القول، حتىٰ إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا، فوالله ما كنتَ جهولًا، قال: فانصرف رسول الله ﷺ.

حتىٰ إذا كان الغد، اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتىٰ إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه؛ فبينما هم في ذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، قال: فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، دونه، يقول وهو يبكي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨]؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط)(٣). وقوله: (فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت

---

(١) الذبح هنا مجاز من الهلاك ، فإنه من أسرع أسبابه، البناء، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠ / ٢١٩).

(٢) أي يرفق به ويسكنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (١١/ ٦٠٩-٦١١) رقم (٧٠٣٦). وقال محققوه: «إسناده حسن. ابن إسحاق -وهو محمد- صرح بالتحديث، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. يعقوب: هو ابن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف. وأخرجه البزار -فيما ذكره الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٦٨) من طريق بكر بن سليمان، والبيهقي=

منه)؛ لا يعني أن النبي ﷺ لم يُؤذَ أشد من ذلك، ولكن ابن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- أخبر بما رأىٰ هو شخصيًّا. ولم يخبر بكل ما وقع من الإيذاء للرسول ﷺ.

وكان أبو جهل فرعون هذه الأمة[1] شديدًا علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ أصحابه، ينال من رسول الله ﷺ ويستهزئ به، ويسخر منه ومن القرآن الكريم، ومن ذلك ما روىٰ الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في مسنده والنسائي -رحمه الله تعالىٰ- في سننه الكبرىٰ بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (قَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا)[2].

وقال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (لما ذكر الله -عز وجل- شجرة الزقوم تخويفًا بها لهم، قال أبو جهل متهكمًا ساخرًا: يا معشر قريش تدرون ما شجر الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقمًا، فأنزل الله -تعالىٰ- فيه ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦]؛ أي: ليس كما

=في «الدلائل» (٢/ ٢٧٥) من طريق يونس بن بكير، كلاهما عن ابن إسحاق، بهذا الإسناد. وأشار البخاري في «صحيحه» إلى رواية ابن إسحاق هذه عقب الحديث (٣٨٥٦). وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٥، ١٦)، وقال: في الصحيح طرف منه، أحمد، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وبقية رجاله رجال الصحيح» وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (٨٠-٨١).

(١) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٨)، وقد وردت أحاديث في مسند الإمام أحمد وصفت أبا جهل بأنه فرعون هذه الأمة، انظر: مسند الإمام أحمد، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط وزملائه (٧/ ٢٧٨ - ٢٨٠)، رقم (٤٢٤٦ و٤٢٤٧)، وقال المحقق عن كل من الحديثين: (إسناده ضعيف لانقطاعه).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤٧٧) رقم (الحديث ٣٥٤٦)، وقال المحقق: إسناده صحيح، والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٥٤) رقم الحديث (١١٤٢٠)، وابن كثير، تفسير ابن كثير (٥/ ٢٨)، وقال: إسناده صحيح.

يقول[1]. وقد ضعَّف العلماء سبب النزول، أما استهزاء أبي جهل فثابت كما مر.

وجاءت أم جميل زوجة أبي لهب فقالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين، أو ثلاثًا، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٣][2].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم؛ فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [الأنفال: ٣٣- ٣٤][3].

وقصة الأراشي الذي اشترىٰ منه أبو جهل الإبل ومطله ثمنها، فجاء الأراشي إلىٰ قريش في أنديتها، فقال: مَن ينصرني علىٰ أبي جهل؛ فقد مطلني مالي؟، فأشار بعض كفار قريش إلىٰ الرسول ﷺ استهزاءً به، فجاء الأراشي إلىٰ الرسول ﷺ فقام معه الرسول ﷺ إلىٰ أبي جهل وطرق عليه الباب، وأمره أن يعطي الأراشي حقه، فدفعه إليه وهو يرتعد من الخوف، وعندما سألت قريش أبا جهل عن سبب ذلك؟ قال: ويحكم ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته مُلِئْتُ رعبًا، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلًا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني[4].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٨٦ - ٣٨٧). وابن كثير السيرة النبوية (٢/ ٥٥)، وانظر: الواحدي، أسباب النزول تحقيق عصام الحميدان، وقال المحقق: «إسناده ضعيف» (ص ٢٨٩). وانظر: سليم الهلالي ومحمد آل نصر، الاستيعاب في أسباب النزول (٣/ ٢٠٢)، وقد ضعّفا سند هذا الحديث لإرساله.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨/ ٧١١)، حديث رقم ٤٩٥٠(، وتسمية المرأة في الحديث من فتح الباري في شرحه للحديث.

(٣) صحيح البخاري (٦/ ٦٢) رقم (٤٦٤٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢٤٥١) رقم (٢٧٩٦).

(٤) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٤١٦-٤١٧، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ١٩٣- ١٩٤)، وابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٧٠) والبلاذري ، أنساب الأشراف (١/ ١٢٨ - ١٢٩).=

ونقل الحلبي عن ابن عبد البر -رحمهم الله تعالىٰ- قوله: (وكان من المستهزئين الذين قال الله -تعالىٰ- فيهم: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: الآية ٩٥]: أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاص بن أمية، والعاص بن وائل[١].

ومن المستهزئين: الحارث بن عيطلة، ويقال ابن عيطل ينسب إلىٰ أمه، وكان من استهزائه هو والعاص بن وائل وأبو جهل أنهم كانوا يمشون خلف النبي ﷺ ويستهزؤون به.

و منهم الأسود بن يغوث، وهو ابن خال النبي ﷺ، كان إذا رأىٰ المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرىٰ وقيصر؛ أي لأن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كانوا متقشفين، ثيابهم رثة، وعيشهم خَشِن، ويقول للنبي ﷺ : أما كُلِّمت اليوم من السماء يا محمد، وما أشبه هذا القول.

ومنهم الأسود بن عبد المطلب. ومن استهزائه أنه كان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه ويصفرون إذا رأوهم)[٢].

وقفة مع الاستهزاء: للاستهزاء أثر أشد وقعًا من غيره من أنواع الإيذاء، يدل لذلك ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- حدّثت أنها قالت للنبي ﷺ: (هل أتىٰ عليك يوم كان أشد عليك من

=ومحمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة، وقال (ص ٤٧): «وعبد الملك شيخ ابن إسحاق ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وسكت عنه. ثم إن الخبر مرسل. وذكرها ابن كثير عن ابن إسحاق، وسكت عنها».

(١) انظر: الحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٤٤٨).

(٢) انظر: الحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٤٥٠).

يوم أُحُد؟ قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[١]؛ إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال[٢]، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[٣]؛ فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أُطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من

(١) قال أبو العباس القرطبيّ -رحمه الله تعالى- في المفهم (٣/ ٤٥٦): (ويوم العقبة: هو اليوم الذي لقي فيه ابن عبد ياليل بن عبد كلال في آخرين فكذبوه، وسبُّوه، واستهزؤوا به، فرجع عنهم، فلقيه سفهاء قريش، فرموه بالحجارة حتى أدموا رجليه، وآذوه أذًى كثيرًا).

(٢) قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: (وَهُوَ عَظِيم الطَّائِف. روى ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. قَالَ: عَظِيم الطَّائِف ابْن عبد ياليل. وَكَانَ رَسُول الله ﷺ لما يئس من أهل مَكَّة أَن يُجِيبُوهُ خرج إِلَى الطَّائِف لِيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَام، وَذَلِكَ بعد موت أبي طَالب). كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق علي حسين البواب (الرياض: دار الوطن) (٤/ ٢٨٣).

(٣) قال ابن حجر: قرن الثعالب هو ميقات أهل نجد قرب الطائف، وأصل القرن كل جبل ينقطع من جبل كبير، فتح الباري (٦/ ٣١٥)، ومثله النووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ١٥٥)، وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: (إن قرن الثعالب جبل مشرف على أسفل منى)، وقال: (إن من قال: إنه جبل قرب المغاسل التي يحرم منها جماهير أهل نجد والطائف فقد وهم؛ إذ لا جبل هناك بهذا الاسم أصلاً). محمد بن قاسم، فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم (٥/ ٢١٠)، وقال سعد بن جنيدل: (وقد اختُلف في المراد بقرن الثعالب، فقال قوم: هو قرن المنازل المعروف حاليًا، وهو ميقات أهل نجد، يبعد عن مكة ثمانين كيلو، وعن الطائف ثلاثة وخمسين كيلو، وقال آخرون: هو جبل مشرف على أسفل منى داخل حدود منى، بينه وبين مسجد الخيف بمنى ألف وخمسمائة ذراع، وقيل له: قرن الثعالب؛ لكثرة ما كان يأوي إليه من الثعالب، وقد أزيل هذا الجبل منذ عدة سنوات توسعة للحجاج أثناء إقامتهم في منى، ثم جزم سعد بن جنيدل بالقول الثاني، وأن قرن المنازل غير قرن الثعالب)، انظر ملخصًا من: سعد بن جنيدل، معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري (ص ٣٦١ - ٣٦٤)، ومحمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٢٦).

أصلابهم مَن يعبد الله وحده، لا يُشرك به شيئًا»[١].

قال العلماء: (جعل ﷺ ما ناله من الاستهزاء أو شماتة الأعداء أشد مما لاقاه يوم أُحد من قتل حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- في سبعين من أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- مع ما ناله في نفسه من الجراحة، وما ذاك إلا لأن نفس الكريم تتأذىٰ بالأذىٰ بالقول والسب أشد مما تتأذىٰ به من الطعن والضرب، ولهذا عفا ﷺ عن كل من تعرّض لقتله، وأهدر دم كلّ مَن تعرض لشتمه)[٢].

قال الدكتور موسىٰ شاهين لاشين -رحمه الله تعالىٰ- شرحًا لكلام المصطفىٰ ﷺ في هذا الحديث: (قال لها -أي قال الرسول ﷺ لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها-: إن الآلام الجسدية قد تهون، ولكن الصعب الآلام النفسية، ولقد رأيت من قريش من الآلام النفسية الشيء الكثير، وأصعب ما رأيت منها يوم ذهبت إلىٰ الطائف)[٣].

نقل الدكتور أحمد نوفل في كتابه (الحرب النفسية من منظور إسلامي) أن واشنجتون ارفنع قال: (كانت أعظم صعوبة واجهها محمد ﷺ هي استهزاء معارضيه... إلىٰ أن قال: ولم يكن يهتم بمعرفة من هم مصدر هذا الإيذاء، بل اهتم بأمر الذين يأمل في اعتناقهم للإسلام)[٤].

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٣١٢) رقم ٣٢٣١. وصحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠) رقم (١٧٩٥).

(٢) قيل: إنه مؤلفه ابن الديبع الشيباني (ت: ٩٤٤)، حدائق الأنوار القسم الأول ص ٣٤٥-٣٤٦. بتحقيق عبد الله الأنصاري (قطر: دار إحياء التراث الإسلامي ١٤٠٣)، وطبع الكتاب منسوبًا إلى محمد بن عمر بحرق الحضرمي (ت: ٩٣٠) بتحقيق محمد غسان نصوح عزقول، عن دار المنهاج للنشر بجدة عام ١٤١٩، وهذا أقرب، والكتاب فيه شطح وغلو لا يخفى على طالب العلم.

(٣) فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٧/ ٣١٠).

(٤) أحمد نوفل ، الحرب النفسية من منظور إسلامي ص ٢٢.

وإن كان الاستهزاء شديدًا علىٰ النفس، فإنه لا شك أشد وقعًا وأعظم تأثيرًا علىٰ الرجل الشريف الذي له المكانة الرفيعة في الخُلُق والعقل والأمانة والصدق، ليس من السهل عليه أن يجد نفسه في موقف يُسْخَر منه، ويُستهزأ به، ويُوصف بالسحر والجنون والكذب، ولكن رسول الله ﷺ هان عليه ذلك في سبيل الله؛ رغم ما فيه من بالغ القسوة والشدة عليه[1].

وإذا عرفنا ألم الاستهزاء، وتضاعف هذا الألم عندما يكون موجهًا إلىٰ شخص ذي مكانة؛ عرفنا مدىٰ ما عانَاه الرسول ﷺ من قومه وهم يستهزئون ويسخرون، بخلاف الشخص الوضيع، فإنه قد لا يعاني من الاستهزاء، بل قد يُفضله علىٰ الإيذاء البدني، ولا يجد غضاضة أن تقال له كلمة لمز أو غمز، أو سخرية؛ لأن قائلها لم يبعد من الحقيقة، أو علىٰ الأقل فإن المستهزَأ به لم يُجهد نفسه في البعد عن مواطن الضعف والنقص.

وقفة مع المستهزئين: المعروف في قضايا الاختلاف في الرأي هو أن كل فرد يعرض أدلته التي تؤيد وجهة نظره، ولكن عندما يضعف أحد الطرفين ويعوزه الدليل ويشعر برجحان جانب خصمه عليه؛ إما أن يقبل الحق ويرجع إليه إن كان مُنصِفًا، أو يتمادىٰ في النقاش إن كان مكابرًا، وإذا اختار الطريق الثاني فهو: إما أن يَستخدم القوة؛ لفرض رأيه إن كان صاحب قوة، وإن لم يكن صاحب قوة، وقد أعوزه الدليل فليس أمامه إلا الاستهزاء والسخرية من خَصْمه، ليشغل الناس بالضحك عن التفكير في رأي وأقوال خصمه.

وهذا ما نراه حصل من كفّار قريش لما عجزوا أن يجدوا حجة أو برهانًا ينفع في الحوار، لجأوا إلىٰ الاستهزاء والسخرية تارةً، وإلىٰ الوعيد والسيف والقوة تارة أخرىٰ، فكان عدولهم إلىٰ السيف وإراقة الدماء والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين

(١) انظر: الشامي، من معين السيرة ص ٤٧.

من أكبر الأدلة على صدق رسول الله ﷺ[1]. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: (وهذا شأن المبطلين إذا غُلِبُوا وقامت عليهم الحجة همّوا بالعقوبة كما قال فرعون لموسى وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾)[2].

ولقد كان توجيه القرآن الكريم للنبي ﷺ هو المضي مع الحجة؛ يقول -تعالى-: ﴿بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال -تعالى-: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤]، وإذا كان هذا موقف الأنبياء مع قومهم المعتمد على الدعوة بالحجة والبرهان، فلننظر ماذا يفعل هؤلاء الأقوام المنكرون لدعوات الأنبياء، وماذا يقولون إذا غلبتهم الحجة؟

فهاهم أُولاء قوم نوح قالوا لنوح -عليه السلام-: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، وعيد بالرجم بالحجارة أو بالشتم[3]، وليس عندهم حجة ولا برهان.

ويقول والد إبراهيم لإبراهيم -عليه السلام-: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]. آزر يتوعد إبراهيم -عليه السلام- بالرجم بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالْكَلَامِ الْقَبِيحِ[4].

وفرعون يقول لموسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقوم شعيب -عليه السلام- قالوا لنبيهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

---

(١) انظر: الشيخ عبدالرحمن السعدي، القواعد الحسان في تفسير القرآن ص ٢٢.

(٢) ابن القيم، جلاء الأفهام ص ١٤٨.

(٣) تفسير الجلالين (٤٨٧).

(٤) تفسير الجلالين (٤٠٠).

وعلىٰ الجانب الآخر نجد أقوال أولئك الأقوام المُكذّبة للرسل كما ذكره الله -جل شأنه- في كتابه: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزخرف:٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠]، فأعداء الرسل دائمًا يراوحون بين استخدام القوة واللجوء إلىٰ الاستهزاء والسخرية، في حين أن مسلك الأنبياء هو الحجة والبرهان كما مر.

والشخص عندما يلجأ إلىٰ الاستهزاء يقصد أمرين:

الأول تحطيم معنوية الشخص المستهزَأ به؛ إذ لمَّا عجز عن مَنْعه بالقوة، سلك سبيل المنع المعنوي.

الثاني: إشغال السامعين أو الحاضرين بما يُضْحِكهم ويفرحهم، حتىٰ لا تفكّر عقولهم وتستوعب حجج الخصم، فتأخذ بها. قال -تعالىٰ-: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٠][1].

الموقف من المستهزئين: نلاحظ أن من منهج القرآن الكريم -حسب ما يظهر لي، والله أعلم- في مواجهة المستهزئين التأكيد علىٰ الأمور التالية:

أولًا: إن السخرية والاستهزاء واجهها كل الأنبياء والدعاة فيما مضىٰ، وكفىٰ بهم أسوة ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزخرف: ٦- ٧].

ثانيًا: الإكثار من الحث علىٰ الصبر؛ ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٧]؛ فهذه الآية جمعت الأمر بالصبر والتذكير بما واجهه داود -عليه السلام-. وقال -تعالىٰ-: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩].

---

(١) انظر: الطريفي، الفصل بين النفس والعقل ص ١٤٠.

ثالثًا: الاستعانة على الدعوة والمضي فيها، بالعبادة، قال -تعالى-: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه:١٣٠]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

رابعًا: بيان أن المستهزئ أدرك أنه مُفْلِس، وأنه أقلّ درجة منك، فاحذر النزول إلى مستواه، يقول -تعالى-: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر:٩٤- ٩٥]، ويقول -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٥٩-٦٠].

خامسًا: إشعار الداعية الذي تلقى الاستهزاء، بأنه ليس وحده في الميدان، وأن الاستهزاء لا يتجه إليه وحده، يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]؛ لاحظ قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾، مع أن الذي ورد في كتب التفاسير[1] أن سبب نزول الآية هو قول بعض المنافقين: «ما رأينا أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء»، ومع ذلك يجعل القرآن الكريم هذا القولَ، استهزاءً بالله وآياته

(١) انظر: الطبري، تفسير الطبري (١١/ ٥٤٣ -٥٤٤) عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، ومحمد نسيب الرفاعي، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥١، وسليم الهلالي ومحمد آل نصر، والاستيعاب في أسباب النزول (٢/ ٢٨٧)، وحسَّنا الأثر عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-. وقالا في الهامش: (وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩-١٨٣٠) من طريق الليث بن سعد وابن وهب كلاهما عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، قلنا: وسنده صحيح، وهشام بن سعيد أثبت الناس في زيد بن أسلم)ا.هـ.

ورسوله؛ وذلك لأن الاستهزاء بالأمر استهزاء بالآمر، والاستهزاء بالمؤمن بسبب إيمانه استهزاء بمن أمره بالإيمان.

ولذلك فالمستهزَأ به ليس وحيدًا، بل معه ربه -سبحانه وتعالىٰ-؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٧٩].

ولاحظ كيف أن الاستهزاء كان سببًا في مزيد ربط المستهزَأ به بربّه -سبحانه وتعالىٰ-، وأعْظِمْ به من نفع وخير، يعود علىٰ المسلم يوم يُستهزَأ به، فيتذكر مثل هذه الأمور، والله أعلم بالصواب.

ثانيًا: وصف الرسول ﷺ بالسحر والجنون: من أعظم الأوصاف المُنفّرة من الشخص: أن يُوصَف بأنه مجنون، وكم صرفت هذه التهمة من أشخاص عن الاستماع للرسول ﷺ! ومثلها وصفه بأنه ساحر. وقد ذكر القرآن الكريم مقالة كفار قريش هذه؛ فقال -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ [الصافات:٣٥-٣٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان:١٣-١٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم:١٥].

وفي اتهامه ﷺ بالسحر يقول الله -تعالىٰ- عن مقالتهم هذه: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص:٤]؛ ثم بيّن الله -جل شأنه- أن

هذه سُنّة المُكذّبين للرسل في كل زمان قال -تعالىٰ-: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

والكفار هم أول من يعلم أن هذه الوصف غير صحيح، فهم يعرفون محمد ﷺ نشأةً وخُلُقًا منذ صغره، وأنه ابن عبد المطلب سيد قريش، وأنه الأمين الذي رضوه لودائعهم، ورضوه في التحكيم في وضع الحجر الأسود مكانه لما اختصموا في ذلك، وعرفوا صِدْقه وأمانته في تجارته، واشتهر ذلك عنه، ولكنهم كانوا في موقف وجدوا أنفسهم لا بد من شيء يقولونه عن محمد ﷺ؛ لكي ينفّروا العرب منه في مواسم الحج والعمرة والتجارة.

ولا شك أن الرسول ﷺ لما اتهمه المشركون بهذه التُّهم وما شابهها مثل قولهم: إنه كذاب، كان وقعها عليه، من أصعب وأقسىٰ ما يكون علىٰ النفس، وبخاصة إذا كان هذا الوصف السيئ هي أبعد ما تكون منه، فكيف لعاقل أن يصف الرسول ﷺ بأنه مجنون وبأنه ساحر؟! ولذلك كان هذا الوصف مؤلمًا له ﷺ، ويدل علىٰ ذلك التأكيدات الواردة في أول سورة القلم؛ قال -تعالىٰ- ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[القلم:١-٧]؛ كم من تأكيد في هذه الآيات التي تولّىٰ الله -جل شأنه- فيها الدفاع عن رسوله ﷺ عندما ذكر اتهامهم له بالجنون. وقد وعده ربه -جل شأنه- بالأجر العظيم علىٰ صَبْره علىٰ هذا الأذىٰ المؤلم القاسي.

ولما جاءه مَلَك الجبال يستأذنه في أن يُطبق الأخشبين عليهم؛ قال: «بل لعل أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبد الله»، ولما تمكن منهم في فتح مكة قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فمن هو الذي يصبر علىٰ مثل هذا الأذىٰ؟، ومَن الذي إذا قدر لم ينتقم منهم؟، ولذلك فإن من دلائل نبوته ﷺ هذا الخُلق العظيم الذي وصفه الله به الذي لا يَقدر عليه أحد في مثل هذه المواقف شديدة الإيلام.

■ الأسلوب الثالث: أسلوب مواجهة الدعوة بالقوة:

تحدثنا في الأسلوب الثاني عن أسلوب السخرية والاستهزاء، وهو أسلوب معنوي، وهنا نتحدث عن الأسلوب المادي المتضمن لإيذاء الرسول ﷺ وإيذاء أصحابه واضطهادهم، وقد سلك المشركون هذا المسلك لإعاقة الدعوة، ولمحاولة إعادة الداخلين فيها إلىٰ حظيرة الكفر.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعَدِيّ بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي -وكانوا جيرانه-، وكان أحدهم يطرح علىٰ الرسول ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وبعضهم يطرحها في بُرمته إذا نُصِبت له)(١).

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجَمْع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلىٰ هذا المرائي! أيكم يقوم إلىٰ جزور آل فلان، فيعمد إلىٰ فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتىٰ إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، -وهو عقبة بن أبي معيط-(٢)؛ فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه؟ وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتىٰ مال بعضهم إلىٰ بعض من الضحك، فانطلق مُنطلِق إلىٰ فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها، وهي جويرية-، فأقبلت تسعىٰ وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتىٰ ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبّهم، فلما قضىٰ رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش»، ثم سمىٰ: «اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد». قال عبد الله: فوالله لقد

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥)، والمراد بالبرمة: القدر الذي يُطبَخ فيه الطعام.
(٢) ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري (١/ ٢٦١) و(١/ ٥٩٤).

رأيتهم صرعىٰ يوم بدر، ثم سُحِبوا إلىٰ القليب؛ قليب بدر)[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو جهل: هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات العزىٰ لئن رأيته يفعل لأطأن علىٰ رقبته أو لأعفرن وجهه، فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»[2].

وأخرج البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- قال: (سألت عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلىٰ النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- حتىٰ دفَعه عنه، فقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[3].

وأم جميل امرأة أبي لهب حمالة الحطب، كما وصفها القرآن الكريم؛ كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ، ليدخل في قدمه إذا خرج إلىٰ الصلاة، ونقل الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد:٤]، قال: كانت تحمل الشوك،

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١١٠) رقم (٥٢٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٤١٨) رقم (١٧٩٤)، واللفظ للبخاري، وقال الإمام مسلم: «قال أبو إسحاق: «الوليد بن عقبة غلط في هذا الحديث».

(٢) صحيح الإمام مسلم (٤/ ٢١٥٤)، حديث رقم ٢٧٩٧. ورواه البخاري مختصرًا (٦/ ١٧٤) عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٢٢)، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٣٦٧٨).

فتطرحه علىٰ طريق النبي ﷺ، ليعقره وأصحابه)[١]. ثم بعد أن ذكر الخلاف في معنىٰ الحطب قال -رحمه الله تعالىٰ-: (وأولىٰ القولين في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ؛ لأن ذلك هو أَظْهَرُ معنىٰ ذلك)[٢].

وتطاول عتيبة بن أبي لهب علىٰ رسول الله ﷺ، وشق قميص الرسول ﷺ؛ فدعا عليه الرسول ﷺ أن يُسلِّط عليه كلبًا، فخرج عتيبة في نفر من قريش، فنزلوا في مكان يقال له الزرقاء، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي هو والله آكلي كما دعا محمدٌ عليَّ، قتلني ابن أبي كبشة وهو بمكة، وأنا بالشام، فأخذ الأسد برأسه فذبحه[٣].

وكما أوذي الرسول ﷺ فقد أوذي أصحابه -رضوان الله تعالىٰ عنهم أجمعين-؛ فقد قام أبو بكر الصديق ﷺ يخطب في المسجد الحرام، فضربه المشركون، وكان ممن ضربه عتبة بن ربيعة؛ حيث جعل يضربه علىٰ وجهه بنعلين حتىٰ ما يُعرَف وجهه من أنفه[٤]، وجهر عبد الله بن مسعود ﷺ بالقرآن بمكة فضربوه ضربًا أثر في وجهه[٥].

أما مصعب بن عمير ﷺ فإن أمه لما علمت بإسلامه أخرجته من منزله، وكان فتًىٰ منعمًا في بيت ثراء، فأصبح لا يجد ما يسدّ جوعه حتىٰ كان جلده يتخشف

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٧١٩).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٢١).
(٣) انظر: البيهقي، دلائل النبوة ٤/ ٣٣٩، والحاكم، المستدرك ٢/ ٥٣٩، وصححه ولم يتعقبه الذهبي، وسمي ابن أبي لهب هنا بأنه (لهب، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ٧/ ٣٠٥، وتعليق المحقق في الهامش.
(٤) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٣٠).
(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٣٧).

ويتطاير كما يتطاير جلد الحية من الجوع، وكان يحمله الصحابة علىٰ أعواد القوس من شدة الجوع[1].

أما بلال ﷺ فقد ناله من العذاب صنوف شديدة؛ لأنه عندما أسلم كان عبدًا مملوكًا لبعض المشركين، وكان أُمية بن خلف يضع في عنقه حبلًا، ثم يُسلّمه إلىٰ الصبيان يطوفون به طرقات مكة، وكان يُخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع علىٰ صدره، ويقول له: لا تزال كذلك حتىٰ تموت أو تكفر بمحمد، فلا يزيد علىٰ قوله: أَحَد، أَحَد. حتىٰ مر به أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فاشتراه وأعتقه[2].

وكان عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- مولىٰ لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه -رضي الله تعالىٰ عنهم-. فكان المشركون يُخرجونهم إلىٰ الأبطح إذا حميت الرمضاء فيُعذّبونهم بحَرّها، ومرّ النبي ﷺ وهم يُعذَّبُون فقال: «أبشروا آل عمار وآل ياسر! فإن موعدكم الجنة»[3]. فمات ياسر -رضي الله تعالىٰ عنه- في العذاب، وطعن أبو جهل سمية -رضي الله تعالىٰ عنها- في قُبُلها بحَرْبة فقتلها، فكانت أول شهيدة في الإسلام[4].

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ١٤٨). وقد كتبت كتيبًا عن سيرة مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه- بعنوان (مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه- سفير الدعوة الأول)، وطبعته دار العاصمة بالرياض عام ١٤١٢هـ، ومتاح منه نسخة إلكترونية. بينت فيه صورًا من المعاناة التي تحمَّلها هذا الصحابي الجليل من أجل الثبات على الدين، بعد أن كان أنعم فتًى في مكة، استشهد -رضي الله تعالى عنه- في أُحد وهو يحمل اللواء، فلم يجدوا له كفنًا، فغُطِّي بقية جسده -رضي الله تعالى عنه- بأوراق الشجر.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٤٠)، والحاكم، المستدرك (٣/ ٢٨٤)، وصححه ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص، وأخرجه ابن ماجه في سننه بلفظ آخر، الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣٠)، رقم (١٢٢) وصححه الألباني.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٨٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٩٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٦/ ٣٣٣)، و (٨/ ١١٤).

وكان خباب بن الأرت -رضي الله تعالىٰ عنه- يذيقه المشركون أنواعًا من العذاب، وكانوا يضعونه علىٰ الجمر، ويضعون عليه الحجارة، فلا يُطفئ الجمرَ إلا وَدَك ظهره يذوب عليها(١).

وجاء خباب ﷺ يومًا إلىٰ مجلس عمر ﷺ، فقال: (ادْنُ، فما أحد أحقّ بهذا المجلس منك إلا عمارًا -رضي الله تعالىٰ عنه-، فجعل خباب -رضي الله تعالىٰ عنه- يُريه آثارًا بظهره مما عذَّبه المشركون)(٢).

وكان من المستضعفين الذين أصابهم العذاب الجسدي: حمامة والدة بلال -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وعامر بن فهيرة، وغيرهم -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وكان أبو بكر ﷺ يشتري هؤلاء العبيد المستضعَفين الذين يُعذَّبون ويعتقهم لوجه الله -سبحانه وتعالىٰ-(٣).

عن سعيد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ- قال: (قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله من العذاب ما يُعْذَرُون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجوّعونه ويعطشونه حتىٰ ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي به، حتىٰ يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتىٰ يقولوا له: اللات والعزىٰ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتىٰ إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداءً منهم مما يبلغون من جهد)(٤).

---

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (٣/ ١٦٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣١)، رقم (١٢٤).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٤٠-٣٤١)، ومهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية ص ١٩٠.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٤٢).

هذا بعض ما روته كُتُب السِّيَر عن الإيذاء البدني الذي أصاب الرسول ﷺ وأصحابه الأوائل -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولا شك أن غيره كثير مما لم تُدوّنه كُتُب السِّيَر، كما أن الوصف لا يبلغ شيئًا مهما كان لبيان الواقع.

وليس القصد هنا هو الاستقصاء، أو نقل كلّ ما فعلته قريش لمواجهة الدعوة، وإنما الهدف تبيين موقف قريش الذي بلغ الغاية في القسوة لمواجهة الدعوة، بدءًا بالرسول ﷺ ومن يتبعه.

ومع هذا الإيذاء البدني فقد كان الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- ممنوعين من الرد علىٰ من اعتدىٰ عليهم، ومطلوب منهم الصبر والتحمل إلىٰ أن يأتي الله بالفرج، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له -رضي الله تعالىٰ عنهم-، أتوا النبي ﷺ بمكة؛ فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، قال: «إني أُمِرْتُ بالعفو، فلا تقاتلوا القومَ»[1].

نقف مع هذا الإيذاء العظيم الذي أصاب محمدًا ﷺ وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- بسبب إسلامهم؛ لنستفيد ما يلي:

أولًا: أن نعلم جميعًا ما واجهه الرسول ﷺ وصحبه الأوائل الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم- في سبيل وصول هذا الدين إلينا، وندرك كم تحمَّل الرسول ﷺ ومعه الصحب الأوائل الكرام من الإيذاء النفسي والبدني من أجل أن تبلغنا هذه الرسالة ويصل إلينا هذا الدين، وهذا -بلا شك- يُوجب علينا حقوقًا عظيمة للرسول ﷺ وللصحب الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم-، أولها محبتهم وتعظيمهم، ومعرفتهم عظيم فضلهم علينا.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٦/ ٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٧)، وقال: على شرط البخاري ولم يخرجاه ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الرفاعي في تحقيق مختصر ابن كثير (١/ ٤١٢).

ثانيًا: هذا يُحمّلنا مسؤولية هذا الدين؛ فقد وصلنا تامًّا كاملًا، فيجب علينا أن نحافظ عليه وندعو إليه، ونُعَلِّمه الناس، ونوصِّله إلىٰ مَن بعدنا كما سلَّمه مَن قبلنا إلينا، وهذا من الأمانة التي تحملناها، واستلمناها ممن قبلنا، ووجب علينا تسليمها لمن بعدنا كما استلمناها. إن هذا الدين أمانة في أعناقنا أن نقوم به، ونُسلّمه لمن بعدنا، وإن لم نفعل فقد قصّرنا في أداء الأمانة التي تحمّلناها، قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وتأمل قول الله -تعالىٰ- في سياق قصة إبراهيم -عليه السلام- مع بنيه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣١-١٣٣].

إبراهيم -عليه السلام- يتلقىٰ الأمر من ربه بالإسلام فيعلن إسلامه، ثم يوصي بها بنيه -عليهما السلام-، ثم يعقوب -عليه السلام- يُوصي بها مرة أخرىٰ بَنِيه عند موته، ويؤكد عليهم، ويسألهم ليتأكد منهم صحة الجواب، والله -جل شأنه- يخبرنا بذلك لنفعل كما فعلوا.

وهو واجبك اليوم ومسؤوليتك أن تحافظ علىٰ نقل هذه الأمانة إلىٰ من بعدك ليبقىٰ الإسلام حيًّا في الأمة تتوارثه جيلًا بعد جيل.

ثالثًا: أن نعلم مقدار العداوة لهذا الدِّين، والكيد له، وأنها عداوة شرسة لا تُبقِي ولا تذر ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠]؛ فكل مَن يعادي هذا الدين هم أحفاد لأولئك الذي حاربوا الرسول ﷺ وصحبه الكرام.

رابعًا: إن هذه العداوات بعضها صادر عن خوف على مصالح دنيوية، خافوا على تجارتهم، أو خاف أفراد على زعامتهم ومكانتهم الاجتماعية؛ قال -تعالى-: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:٥٧]. وأبو لهب يسأل الرسول ﷺ هل سيكون له ميزات على غيره إذا أسلم أو سيكون مثله مثل غيره ممن أسلم، ولما أخبره الرسول ﷺ بأنه كما يُعطى المسلمون، قال: «تبًّا لهذا من دين تبًّا، أن أكون أنا وهؤلاء سواء»(١). وبعضها صادر من حسد وتنافس. وسيأتي مزيد تفصيل في المبحث التالي -إن شاء الله تعالى-.

والهدف من عرض هذا، أن نأخذ العبرة والدرس، فلا نردّ الحق لهوًى أو مصلحة أو حسد، أو تنافس على الدنيا، أو لأيّ سبب، فالعاقبة التي جرت على كفار قريش تجري على مَن سار على دربهم، وسُنَّة الله لا تتبدل في الظالمين ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح:٢٣].

خامسًا: إن هذه العداوة منها ما هو ناتج عن الطغيان؛ قال -تعالى-: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الطور:٣٢]؛ قال السعدي: (أم الذي حملهم على ذلك ظلمُهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه)(٢). نعوذ بالله من الطغيان.

سادسًا: وإن من هذه العداوة ما هو ناتج عن عدم يقين لدى هؤلاء؛ قال -تعالى-: ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٦]؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح: (ثم قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾؛ فذكر العلة التي عاقتهم عن

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٧١٤). والماوردي، النكت والعيون (تفسير الماوردي) تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية)، (٦/ ٣٦٣)، والقرطبي، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٣).
(٢) السعدي، تفسير السعدي (٨١٦).

الإيمان، وهو عدم اليقين الذي هو موهبة من الله ولا يحصل إلا بتوفيقه)[1]. فاسأل ربك أن يرزقك اليقين.

وقال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية)[2]. وهذا يدعونا إلىٰ أن ندرك أن الإيمان هبة من الله -جل شأنه- قبل كل شيء؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]؛ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدىٰ، لولا أنه -تعالىٰ- منَّ بهدايته واتباع رسله[3]. وهذا يستوجب أن يدعو المسلم ربه الهداية والثبات، ولذلك جاءت آية الهداية في سورة الفاتحة التي يقرأها المسلم في كل ركعة في كل صلاة، فريضةً كانت أو نافلةً ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧]؛ اللهم ارزقنا اليقين، واهدنا صراطك المستقيم، وثبّتنا عليه يا رب العالمين.

سابعًا: وقفت متسائلًا لمرات عديدة وفي أوقات مختلفة: ما الذي دفع هؤلاء إلىٰ هذا العداء الشرس؟ لماذا هذه السخرية والاستهزاء من ابن العم؟ لماذا هذا الإيذاء البدني القذر؟ لماذا سلا الجزور يُلقىٰ علىٰ ظهره الشريف وهو الهاشمي سليل قصي وعبد المطلب، علانيةً بجوار الكعبة التي هي آمن مكان، وقد نشأ العرب أن لا يُهاج من دخل الحرم فكيف من جوار الكعبة وفي شأن ابن سيدهم أجمعين؟ ما شأن هذه المرأة؟ لماذا أم جميل العوراء تحمل الشوك بصفة مستمرة وتضعه في طريق الرسول ﷺ، مع أن العرب عُرِفَ عنهم إكرام الجار ومعرفة حقه؟

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).
(٢) السعدي، تفسير السعدي (٨١٦).
(٣) السعدي، تفسير السعدي (٢٨٩).

العرب أشد الشعوب تمسكًا بالقيم والأخلاق، وفيهم من الصفات الحسنة في هذا الشأن التي لا توجد عند غيرهم. أَمَا وسع هؤلاء القوم أن يأخذوا بنصيحة سيد من ساداتهم، بل هو سيد وقائد قريش في وقته: عتبة بن ربيعة الذي نصحهم بعد سماعه لآيات من القرآن (سورة فصلت) بقوله: «يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فمُلكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به»، وكان جوابهم له أن «قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم».

إنهم عرفوا -كما قلت سابقًا- مضمون هذه الرسالة التي تضرب في أعماق معتقداتهم الدينية، فتجتثّ الشرك من أصله، لا تُبقي علىٰ شيء منه، وهم قوم ألفوا هذه الأصنام من آبائهم وأجدادهم.

وعرفوا أنها دعوة تُلغي أصولًا مهمة في تقاليدهم الاجتماعية، التي قامت علىٰ المفاخرة بالأنساب والأحساب، واحتقار الموالي والعبيد، والإسلام يقول: لا فضل لعربي علىٰ عجمي، وإن أكرم الناس في هذا الدين وأعلاهم منزلةً أكثرهم تقوىٰ، وأنَّىٰ للأشياخ أن يتنازلوا عن تلك المكانة، ويقبلوا بهذا المعيار الجديد للتفاضل؟!

ثامنًا: إن كثيرًا ممن آذوا الرسول ﷺ كانوا من أقاربه؛ كعمه أبي لهب، والأسود بن يغوث، وهو ابن خال النبي ﷺ، وعتيبة أبن أبي لهب، وعبد الله بن أبي أمية، وغيرهم كثير، وهذا أشد أذىً وإيلامًا، قال الشاعر طرفة بن العبد:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَىٰ أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَىٰ المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ[1]

(١) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٣)، (ص ٢٧). ذوي القربى: الأهل. المضاضة: الحرقة والحزن. الوقع: الضرب. الحسام المهند: السيف المصنوع في الهند.

تاسعًا: نعمة الله العظيمة عليك أيها المسلم عندما يُتاح لك أداء العبادة بأمن واطمئنان، فأداء شعائر الله بأمن، أمنية عظيمة تمناها الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم-، وفرحوا بها لما هاجروا إلىٰ الحبشة، وتمكنوا هناك من عبادة الله، لا يَعترض طريقهم أحد.

ومعرفة النعمة تتجلىٰ بأمرين: الأول: معرفة التاريخ؛ لتعرف ما الذي واجهه المسلمون من قبل في سبيل المحافظة علىٰ دينهم. الثاني: معرفة الواقع؛ لتدرك أنك فريد ومتميز، لم يُضيَّق عليك وتسمع حولك الأخبار التي تنقل عما يواجهه المسلمون في العديد من البلاد من تضييق وتهجير وإيذاء يصل حتىٰ التدخل في الاسم، فلا يُسمح للمسلم أن يسمّي ولده أو بنته باسم إسلامي.

عاشرًا: أن نفهم معنىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] جميع النعم[1]. وأولها نعمة الأمن والإيمان وتيسير العبادة والطاعة، وليس المراد بالنعيم نعيم الأكل والشرب فقط، كما يتصور البعض، وإنما نعيم افتقده الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنه- حتىٰ اضطروا إلىٰ الخروج إلىٰ الحبشة مشيًا علىٰ الأقدام بحثًا عنه، تقول أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وقد كانت إحدىٰ المهاجرات إلىٰ الحبشة: «فعبدنا الله هناك آمنين»، بل ما هاجر مهاجر منهم إلىٰ الحبشة أو إلىٰ المدينة إلا بحثًا عن هذه النعمة، وهي التمكن من عبادة الله -سبحانه وتعالىٰ-.

هذه النعمة سنُسأل عنها؟ ما هو عذرنا في التقصير في طاعة الله؟ هل أوذينا؟ هل حال أحدٌ بيننا وبين الطاعة؟ هل كُلِّفنا بأمر شاقّ علينا، لقد كُلِّف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بأمر عظيم، أُمِرُوا بالهجرة، ثم أُمِرُوا بالجهاد بالنفس والمال، قيل لهم:

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٣٢/ ٢٧٥)، وقال عند تفسير الآية: «الأولى أنه يجب حمله على جميع النعم».

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾؛ ونحن المطلوب منا عبادات ميسورة؛ صلاة الجماعة في مسجد مجاور في مكان نظيف مهيَّأ، ومع ذلك نتثاقل ونستصعب الالتزام بذلك! ثم لتسألن يومئذ عن النعيم!! نعيم التمكن من العبادة والطاعة، ثم لم تفعلوا!!

حادي عشر: إن الحياة الدنيا ليست معيارًا لمكانة الشخص عند الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ فقد يُؤذَىٰ الشخص ويُهان ويُضرَب وهو من أصلح الناس وأتقاهم، وقد يُكرَم وتُرفع درجته وهو شقيّ ضالّ هالك.

ثاني عشر: إن هؤلاء الصحب الكرام كانوا ممنوعين من الرد، مأمورين بالصبر، وهذا لا شك يزيد العناء عناء آخر، لكن كان هذا لحِكَم عظيمة، منها أنهم لو ردّوا علىٰ الكفار باليد لقضىٰ عليهم الكفار؛ لأن الغلبة لهم، ولا يزال المؤمنون قلَّة قليلة بالنسبة للكفار، فكان الصبر هو السبيل الأمثل حتىٰ يتكون لهم قوة قادرة علىٰ الانتصار[1].

ثالث عشر: إن الله -سبحانه وتعالىٰ- قادر علىٰ حماية رسوله ﷺ، ومنع المشركين من إصابته بأدنىٰ أذىٰ، وحماية صحابة رسول الله ﷺ، ولكن في إصابتهم بالإيذاء يتحقق عدة أمور؛ منها:

أ. رفعة درجاتهم، وزيادة حسناتهم وحط السيئات.

ب. أن هذا يَسن لمن بعدهم الصبر علىٰ الأذىٰ، وكيفية مواجهة الإيذاء البدني والنفسي، وأن المؤمن يُصَاب ويُؤذَىٰ ويُضرَب، ويُستهزَأ به، ومتىٰ أصابه ذلك وتذكر أن الرسول ﷺ قد أُوذِي وأوذي خيار الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-؛

(١) تجد تفصيلاً لهذه الحكمة في الفصل الخامس في مسألة تشريع الجهاد، والحكمة من تأخير تشريعه إلى بعد الهجرة، وأمر الصحابة بكفّ الأيدي في البداية.

هان عليه تحمُّل مشاقّ الأذىٰ الذي يصيبه، فكما نتأسىٰ بالرسول ﷺ في الرخاء؛ فكذلك نتأسىٰ به في الشدة.

رابع عشر: قد يلتبس لدىٰ البعض، فيقول: أليس الله قد حفظ نبيه؟ ووردت نصوص تدل علىٰ ذلك؛ مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٧-١٩]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧]، وقول الله -جل شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج:٣٨]، وغيرها من النصوص؟ فنقول: إن العلماء اختلفوا في هذه المسألة، وأرجحها أن المراد بعصمته ﷺ من القتل والهلاك[١]. أما ما عدا ذلك فيصيبه ﷺ أذىً كما قال -تعالىٰ-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١]، والأذية لا يلزم منها الضرر[٢]. والأذية كما سبق ترفع الدرجات، وأشد الناس بلاء الأنبياء، وهم يسنون لمن بعدهم في مثل هذه المواقف. والله أعلم.

خامس عشر: إن الابتلاء بهذه الشدائد أنتج عدة أمور:

أ. يتميز الخبيث من الطيب، فضعيف الإيمان لا يتحمَّل فلا يؤمن ابتداءً، أو إذا آمن لم يتحمل الاستمرار، وعندها يتميز المؤمن الصادق في إيمانه، ولذلك لم يظهر

---

(١) انظر: أحمد القصير، الأحاديث التي يوهم ظاهرها التعارض مع القرآن الكريم (ص١٣٧) وما بعدها.

(٢) يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١]: (المعنى لن يضروكم، ولكن يؤذونكم، والأذية لا يلزم منها الضرر، ولهذا قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [الأحزاب:٥٧]؛ فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله، وقال -تعالى-: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران:١٧٦]؛ فالضرر مُنْتَفٍ عن الله -جل شأنه-، والأذية حاصلة.. ويوضح هذا أنه لو صلى إلى جانبك رجل قد أكل بصلًا أو ثومًا فإنك تتأذى برائحته، ولكن هل يضرك؟ لا يضرك. وهذا القول أصح). انظر تفسير القرآن الكريم (تفسير سورة آل عمران ٢/ ٥٦).

في مكة منافقون أبدًا[1]. أما في المدينة لما ذهب الإيذاء البدني كثر النفاق، وصار يدخل في هذا الدين ظاهرًا من يبحث عن مصلحة دنيوية.

ب. إن إيذاء الكفار للمؤمنين يُحقّق عكس مرادهم؛ فهو يجعل الإيمان ينتشر، ومن أمثلة ذلك:

١) إيذاء الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- جعلهم يهاجرون إلىٰ الحبشة، فوصل الدين إلىٰ تلك البقاع.

٢) كان الطفيل بن عمرو الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه- رجلًا شاعرًا شريفًا، فقدم مكة ورسول الله ﷺ بها، وكان كفار قريش يُحَذِّرون كل قادم من الاستماع إلىٰ الرسول ﷺ، ويقولون: إنه ساحر فرَّق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، فحذّروا الطفيل من الاستماع إلىٰ الرسول ﷺ، قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتىٰ أجمعت علىٰ ألَّا أسمع منه شيئًا ولا أكلّمه، فغدوت إلىٰ المسجد وقد حشوت أذني قطنًا، فغدوت يومًا إلىٰ المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي إلىٰ الكعبة، فقمت قريبًا منه فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: إني لرجل لبيب شاعر، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فمكثت حتىٰ انصرف إلىٰ بيته، حتىٰ إذا دخل دخلت معه، فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا، فاعرض عليَّ أمرك، فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام، وتلا عليه القرآن، فأسلمت وشهدت شهادة الحق[2].

(١) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٨/ ٤٧٦)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٧)، قال: (لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستترًا وهو في الباطن مؤمن، وانظر وجهة نظر أخرى للدكتور/ عبدالعزيز الحميدي في كتابه (المنافقون في القرآن (ص ١٠٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٠٧-٤٠٨)، وابن حجر، الإصابة (٣/ ٢٨٧).

فكثرة إلحاح قريش في تشويه هذا الدين كانت سببًا في حرص الطفيل -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ السماع ثم الإيمان.

ت. إن إيذاء هؤلاء الكفار للمؤمنين ولَّد تعاطفًا مع المؤذَىٰ أدَّىٰ إلىٰ الوقوف معه ومناصرته ومن أمثال ذلك:

١) كان حمزة ﷺ يخرج من الحرم فيصطاد، فأقبل من رَمْيه ذات يوم، فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمارة! ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل، شتمه وفعل، وفعل. فأقبل حتىٰ انتهىٰ إلىٰ أبي جهل وهو في مجلس في الحرم فضربه بالقوس علىٰ رأسه، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا علىٰ دينه، أقول ما يقول. فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعتَ! فثار قوم أبي جهل، فقال أبو جهل: دعوه، فقد سببت ابن أخيه، وتم حمزة ﷺ علىٰ إسلامه وعلىٰ ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله[١].

٢) وعمر بن الخطاب ﷺ خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء علىٰ النبي ﷺ، فعلم أن أخته قد آمنت، فمشىٰ عمر إليها، فلما أقبل علىٰ الدار سمع قراءتها مع زوجها وخباب بن الأرت -رضي الله تعالىٰ عنهم- للقرآن، ولما سمعوا صوت عمر تواریٰ خباب، وأخفوا الصحيفة، فلما دخل عليهم، قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: لعلكما صبوتما، فقال له ختنه: يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر علىٰ ختنه، فوطأه وطأ شديدًا، فجاءت أخته؛ لتمنعه فضربها بيده ضربة أدمت وجهها، فلما رأىٰ الدم علىٰ وجه أخته ندم واستحيا، وقال: أعطوني الصحيفة التي كنتم تقرأونها، فقالوا له: إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام واغتسل وقرأ الصحيفة فآمن[٢].

سادس عشر: إن هؤلاء الذين آذوا رسول الله ﷺ أشد الأذىٰ، أسلم عدد منهم،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥- ٣٦٧).

فعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة الذي كان يؤذي رسول الله ﷺ وكان يقسم علىٰ نفسه أنه لن يصدق محمدًا، وهو الذي كان يجادل مع أبي جهل من أجل منع أبي طالب من قول (لا إله إلا الله) عندما كان علىٰ فراش الموت[1]، ومع ذلك لم تمضِ سنوات إلا ويسلم بتوفيق الله -عز وجل-، وهذا يعلمنا ألا نيأس من أيّ شخص مهما كان مستوىٰ كفره أو فسقه أو عداوته للدين، وليست أيضًا بعيدة عنا قصة عمر بن الخطاب ﷺ الذي قال عنه أحد المسلمين: «والله لا يسلم عمر بن الخطاب حتىٰ يسلم حمار الخطاب»[2]، وإذا بعمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- يسلم ويصبح من خيار ومقدّمي صحابة رسول الله ﷺ، ويكون ثاني الخلفاء الراشدين.

(١) صحيح البخاري (١٣٦٠، وصحيح مسلم ٢٤).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥).

المبحث الرابع

أبو جهل والدعوة

لا يمكن لمن يقرأ موقف قريش من الرسول ﷺ، وما جاء به من هذا الدين؛ إلا أن يقف مشدودًا لموقف شخص من قريش تميَّز من بينهم جميعًا بأنه رائد الشر، وموقده، ومتسيّد الموقف، وقائد العداوة للرسول ﷺ، فلا توجد مؤامرة إلا وقد نسج هو خيوطها، وقام خلفها حتىٰ فرضها علىٰ القوم، ولا توجد صور تعذيب للمؤمنين إلا وله منها أسوأ الصور وأشدها تنكيلًا وأرذلها خُلُقًا، كأنما يشعر أن هذا الدين جاء للقضاء عليه بمفرده، متقصدًا إلحاق الضرر به، ساعيًا في إنهاء شخصه وشخصيته.

هذا الشخص هو أبو جهل؛ عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، والذي كان يُلقَّب في الجاهلية بأبي الحكم، وسماه الإسلام أبو جهل؛ فغلب عليه هذا الاسم، وعُرف في السيرة والتاريخ به.

هذا الشخص -مع صِغَر سنّه بالنسبة لأشياخ قريش- هو الذي قاد موقف المشركين في مكة، وجيَّشهم ضد الرسول ﷺ يوم بدر، ورفض كل محاولات الرجوع عن المصادمة المسلحة بعد نجاة العير، فكان أول من احترق في سعيرها، وصار جثة متعفنة في قليبها.

وهنا عرض لتاريخه ومواقفه، ثم بعد ذلك شيء من التأمل في هذه الشخصية:

أبو جهل وُلِدَ قريبًا من عام الفيل ذكر ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- أن الرسول ﷺ قال بعد انتهاء غزوة بدر، وهم يبحثون عن أبي جهل في القتلىٰ: «انظروا

-إن خفي عليكم في القتلىٰ- إلىٰ أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يومًا أنا وهو علىٰ مأدبة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنت أشف[1] منه بيسير، فدفعته فوقع علىٰ ركبتيه، فجُحِش[2] في إحداهما جحشًا لم يزل أثره به»[3].

وهذا يعني أنه عند البعثة لما يتجاوز الأربعين عامًا. فهو لم يكن أسنّ القوم، من أمثال أعمامه الوليد بن المغيرة، وأبي أمية بن المغيرة (الملقب بزاد الراكب)، وكذلك المطعم بن عدي، والعاص بن وائل السهمي، وغيرهم من الأشياخ في قريش، ولكنه مع ذلك كان مقدمًا فيهم، يدخل دار الندوة، ويشارك الكبار الرأي، يدلّ لهذا أنه قال للرسول ﷺ في بداية الدعوة: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا! فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق:١٧- ١٨][4].

ولما بُعث الرسول ﷺ حمل هذا الرجل لواء العداوة والحرب له، فمع بروز عداوات كثير من أشياخ قريش إلا أن أبا جهل احتلَّ مكان الصدارة في ذلك، فلا يوجد موقف عام ضد الرسول ﷺ إلا كان خلفه أبو جهل، وأفنىٰ بقية عمره في مُناصَبَة الرسول ﷺ العداء، سواء أكان إيذاء للرسول ﷺ أو إيذاء لمن أسلم، سالكًا في ذلك كلّ السبل منتهكًا كل ما يقف في طريقه من القِيَم العربية، ويكفي أنه باء بجريمة قتل أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد قتلها وهي عجوز ضعيفة، وطعنها في موضع العفة منها حتىٰ ماتت، والعرب تستنكف وتعيب الاعتداء علىٰ النساء، فضلًا أن يكون اعتداء بغير حق علىٰ امرأة عجوز في موضع غير لائق.

---

(١) سنن الترمذي، (٧/ ٣٤٩) رقم (٣٣٤٩) بنحوه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقال عنه الألباني: صحيح الإسناد، وانظر: ابن كثير تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٩).

(٢) جحش: أي انخدش جلده. لسان العرب (٦/ ٢٧٠) مادة جحش.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة (١/ ٢٩٩).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة (١/ ٢٩٩).

ومما يدل علىٰ ما ذكرته:

أولًا: أنه هو الذي تصدىٰ للرسول ﷺ ليمنعه من الصلاة في المسجد الحرام، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:٩-١٩]. قال ابن كثير -رحمه الله-: (نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعد النبي ﷺ علىٰ الصلاة عند البيت)[(١)].

ثانيًا: أنه هو الذي حاول قتل النبي ﷺ وحمل عليه الحجر ليقتله وهو ساجد، وحماه الله -جل شأنه- بالفحل الذي أرعب أبا جهل، وجعله يعود أدراجه، ويلقي الصخرة فزعًا مرعوبًا[(٢)]. ولا يعرف في السيرة أن أحدًا حاول هذه المحاولة العلنية الآثمة، إلَّا ما يُروىٰ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل السيف -عندما كان كافرًا-، واتجه إلىٰ دار الأرقم مدعيًا أنه سيقتل محمدًا ﷺ، وكان نتيجتها إسلامه.

وفي صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن علىٰ رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا». قال: فأنزل الله -عز وجل، لا ندري في حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ١٣]؛ -يعني أبا جهل- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٨).

(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٧٥).

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٤- ١٩][(١)].

ثالثًا: أنه هو الذي حاك مؤامرة المقاطعة العامة لبني هاشم وبني عبد المطلب، وألجأهم إلىٰ الشِّعب ثلاث سنين، يدل علىٰ هذا، أن هشام بن عمرو بن ربيعة لما أراد السعي في نقض الصحيفة مشىٰ إلىٰ زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: «يا زهير، أقد رضيتَ أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمتَ، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دَعَوْتَه إلىٰ مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدا»[(٢)]؛ فهذا القول يكشف أن الذي كان خلف المقاطعة وألزم القوم بها هو أبو جهل.

ويؤكد هذا أن الخمسة لما اتفقوا علىٰ الاعتراض علىٰ الصحيفة والمطالبة بتمزيقها، وتحدثوا في نادي قريش في المسجد أمام الكعبة، واحدًا تلو الآخر، لم يعترض أحد من القوم سوىٰ أبي جهل؛ فإنه لما سمع أحد المتفقين علىٰ تمزيقها يقول: «والله لا أقعد حتىٰ تُشَق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة». قام أبو جهل فقال -وكان في ناحية المسجد-: «كذبت والله، لا تُشَق»، قال زمعة بن الأسود: «أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كُتبت»، قال أبو البختري: «صدق زمعة، لا نرضىٰ ما كُتِب فيها، ولا نُقِر به»، قال المطعم بن عدي: «صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلىٰ الله منها، ومما كُتِب فيها»، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك. فقال أبو جهل: «هذا أمر قُضِيَ بليل، تُشُوور فيه بغير هذا المكان»[(٣)]. فقد أسكت القوم ولم يعترض أحد، وكأنهم يرون ذلك، ولم يعترض إلا أبو جهل صاحب المؤامرة والمُخطِّط لها والمنفِّذ لها والقائم عليها

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤) رقم (٢٧٩٧).
(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٧٥).
(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٧٦).

رابعًا: كان يتناوب مع أبي لهب في متابعة الرسول ﷺ في أسواق العرب في عكاظ ومجنة، ويسفي على الرسول ﷺ التراب، وهو يقول -كما أورد ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء-: (وقال شعبة، عن الأشعث بن سليم، عن رجل من كنانة، قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز، وهو يقول: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا». وإذا خلفه رجل يَسفي عليه التراب، فإذا هو أبو جهل ويقول: «لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزىٰ» وإسناده قوي)[١]. فهو لم يكتفِ بإرسال شخص ينوب عنه في المتابعة والتحذير من الرسول ﷺ؛ بل كان يباشر ذلك بنفسه، معبرًا بذلك عن شدة العداوة والحقد التي في نفسه تجاه الرسول ﷺ.

خامسًا: قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: وحدثني عبد الرحمن بن الحرث، عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال: قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: «لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله ﷺ حتىٰ آتيه، فأخبره أني أسلمت؟ قال: فقلت: أبو جهل، فأقبلت حين أصبحت حتىٰ ضربت عليه بابه، فخرج أبو جهل، فقال: مرحبًا وأهلًا يا ابن أختي[٢] ما جاء بك؟ قلت: جئت

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٢٢)، وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٥٧). وقال: «كذا قال في هذا السياق: أبو جهل، وقد يكون وهمًا، ويحتمل أن يكون تارة يكون ذا وتارة يكون ذا، وأنهما كانا يتناوبان على إيذائه ﷺ» يقصد أبا لهب، مع أبي جهل.

(٢) قال ابن حجر في الإصابة (٤/ ٤٨٤): في ترجمة عمر -رضي الله تعالى عنه-: «وأمّه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية، كذا قال ابن الزبير. وروى أبو نعيم، من طريق ابن إسحاق أنها بنت هشام أخت أبي جهل». وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١١٤٤) في ترجمة عمر -رضي الله تعالى عنه-: «أمه حنتمة بِنْت هاشم بْن الْمُغِيرَة بْن عَبْد الله بن عمر بن مخزوم. وقالت طائفة فِي أم عُمَر: حنتمة بِنْت هِشَام بْن الْمُغِيرَة. ومن قَالَ ذَلِكَ فقد أخطأ، ولو كانت كذلك لكانت أخت أَبِي جهل بْن هِشَام، والحارث بْن هِشَام بْن الْمُغِيرَة، وليس كذلك، وإنما هي ابنة عمهما، فإن هاشم بْن الْمُغِيرَة وهشام بْن الْمُغِيرَة أخوان، فهاشم والد حنتمة أم عُمَر، وهشام والد الْحَارِث وَأَبِي جهل، وهاشم بْن الْمُغِيرَة هَذَا جد عُمَر لأمه، كَانَ يقال له ذو الرّمحين».

لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله، وصدقت بما جاء به، فضرب الباب في وجهي، وقال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئت به[1]؛ فعُمر -رضي الله تعالىٰ عنه- لم يذهب للوليد بن المغيرة رغم أنه عمّ أبي جهل، ليخبره، ولا لغيره من كبراء قريش، وإنما اختار الذهاب إلىٰ أشدهم عداوةً للرسول ﷺ.

سادسًا: إننا نجد بعض المواقف التي فيها مرونة ورغبة في المصالحة، وترك محمد ﷺ وشأنه وعدم مواجهته، من بعض كفار قريش وهم علىٰ عداوتهم للرسول ﷺ، فهذا عتبة في مكة وهو سيدها في وقته، يدعو قريشًا إلىٰ ترك محمد ﷺ وشأنه، وها هو ذا أيضًا عتبة -مرة أخرىٰ- نرىٰ له موقفًا حسنًا في محاولة السلام والرجوع بالناس يوم بدر، وكذلك أبو سفيان لما نجت العير بعث إلىٰ النفير يطلب منهم العودة وعدم القتال؛ إلا أن أبا جهل كان علىٰ العكس من ذلك، في كل هذا المواقف، كان أبو جهل شخصية أخرىٰ، فقد كان مشمِّرًا عن ساعد الحرب والمعاداة للرسول ﷺ وصحبه -رضي الله تعالىٰ عنهم-، فهو يرفع لواء المحاربة لهذا الدين بكل ما أوتي من جاه أو مال أو جهد بدني. ويرفض دعوة السلام في بدر، ويقول لعتبة: «انتفخ والله سحرك»، أي أصابك الجبن والخوف، ويفسد علىٰ الناس مشروع السلام، فكان هو من أول وقود هذا الحرب، واستفتح المسلمون بقتله فيها.

سابعًا: وما أن يسمع أبو جهل بشخص رقَّ لمحمد ﷺ إلا ويبادر في التَّصدّي له، والسخرية منه، والتشديد عليه، حتىٰ يقول قولًا سيئًا في الرسول ﷺ، روىٰ ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن الوليد بن المغيرة جاء إلىٰ رسول الله ﷺ؛ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: «يا عم[2]! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧١). وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٨٤) رقم (٣٧٥).

(٢) وهو فعلاً عمه، فهو أخو والده، فوالد أبي جهل (هشام بن المغيرة) أخو الوليد بن المغيرة، وهنا تعجب كيف يتجرأ يقول لعمه هذا الكلام مع أن الوليد من سادة قريش وكبرائها.

فإنك أتيت محمدًا لتعرض ما قبله! قال: قد علمت قريش أنىٰ من أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك مُنكِر له. قال: وماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلىٰ، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه. قال: قف عني حتىٰ أفكر فيه. فلما فكر قال: إنْ هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره. فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ الآيات.. [المدثر: ١١-١٣]»(١). فهذه جرّأته وقوّته علىٰ عمه الذي هو أكبر منه سنًّا، وأعظم قدرًا في قريش؛ إذ هو زعيم من زعمائهم الكبار.

ومثل ذلك موقفه مع أبي لهب بعد وفاة أبي طالب، الذي حرص في بداية الأمر أن يحل محل أخيه، وينصر محمدًا ﷺ دون أن يدخل في دينه، لكن هل سيتركه أبو جهل؛ فقد جاءه وقال له: هل سألت ابن أخيك أين مدخل أبيك عبد المطلب؟ وقصده في ذلك الإفساد. فسأل أبو لهب الرسول ﷺ، فقال ﷺ: «مع قومه». فقال أبو لهب: أيدخل عبد المطلب النار؟ والله لا برحتُ عدوًّا لك أبدًا(٢).

ثامنًا: وكان أبو جهل كثيرًا ما يتصدر الموقف المعادي، فعندما علمت قريش بقرب وفاة أبي طالب، وبينما كان الرسول ﷺ يسعىٰ جاهدًا لإنقاذ عمه من النار بأن يقول لا إله إلا الله، كان أبو جهل مستميتًا في بقاء أبي طلب علىٰ ملة الشرك، وموته عليه، ومازال يُذَكِّر أبا طالب بملة أبيه عبد المطلب، حتىٰ مات عليها، ولم يقل لا إله إلا الله، وكان يشاركه في هذا الموقف عبد الله بن أمية بن المغيرة(٣). ويضيف البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في دلائل النبوة معلومة جديدة، وهي ما رواه عن ابن

(١) ابن كثير، السيرة النبوية١/ ٤٩٩).
(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢١١). وابن كثير، السيرة (٣/ ١٤٨).
(٣) صحيح البخاري (٢/ ٩٥) رقم (١٣٦٠)، وصحيح مسلم (١/ ٥٤) رقم (٢٤).

عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: مرض أبو طالب، فجاءت قريش، وجاء النبي ﷺ وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل وجلس فيه كي يمنعه من ذلك....»[1]؛ أي ليحول بين الرسول ﷺ والجلوس عند رأس عمه، فيكون قريبًا منه، وتكون استجابته أقرب.

تاسعًا: وفي موقف الهجرة اجتمعت قريش في دار الندوة للتشاور فيما يفعلون بشأن الرسول ﷺ؛ خوفًا من أن يهاجر إلىٰ المدينة. وكان سيد الموقف هو أبو جهل رغم أنه لم يكن أكبرهم سنًّا، لكن كان مقدَّمًا فيهم يهابونه ويوقّرونه.

وكان هو صاحب رأي أن يُؤخَذ من كل قبيلة فتًىٰ، ويشتركون في قتله فيتفرّق دمه في القبائل، ولم يكتفِ بالرأي بل كان حاضرًا بنفسه عند باب بيت النبي ﷺ مع الشباب المطلوب منه تنفيذ الجريمة الكبرىٰ المقترحة منه بقتل النبي ﷺ، يتابع تنفيذ المؤامرة الآثمة، فأخزاه الله وأبطل كيده وحمىٰ نبيه ﷺ.

ولما علم بخروج الرسول ﷺ طار عقله، وذهب إلىٰ بيت أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- يبحث عنه، قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فحُدثت عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا علىٰ باب أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشًا خبيثًا، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي. ثم انصرفوا»[2]، فهو هنا يتصدّر الموقف، ويعتدي علىٰ فتاة صغيرة ويضربها ضربة تنمُّ عمَّا في نفسه من حقد وعداوة، وعما في خُلُقه من نذالة وخسة؛ تجعله لا يترفع عن الاعتداء البدني علىٰ امرأة لا شأن لها في الأمر.

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٣٤٥)، وابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٢٥).
(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٤٨٧)، وابن كثير، (٢/ ٢٣٦).

بعد هذا العرض لمواقف هذا الطاغوت يأتي هنا سؤال: هل هذا الموقف ناتج عن جهل منه بصدق محمد ﷺ واعتقاده ببطلان هذه الرسالة؟ أم أن الرجل يعلم بالحق ويسعىٰ لإطفاء نور الله، ويخشىٰ أمرًا يراه بالغ الخطورة عليه جعله ينافح ويكافح في كل اتجاه؟

في الجواب عن هذا أقول: روىٰ البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في دلائل النبوة: عن المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة؛ إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم! هلم إلىٰ الله -عز وجل-، وإلىٰ رسوله أدعوك إلىٰ الله»؛ فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنتهٍ عن سبّ آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلَّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغتَ، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقًّا ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليَّ أبو جهل، فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا نعم، فقالوا فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتىٰ إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي، والله لا أفعل[1].

وروي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا. فقال له: والله إن محمدًا لصادق، وما كذب قط. ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش[2]. أعماه الحسد عن قبول الحق.

هذا بشأن أبي جهل بخاصة. أما عامة كفار قريش -وأبو جهل منهم- فهم يعلمون صدق الرسول ﷺ بقلوبهم، ويُكذّبونه بألسنتهم، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٠٧)، وانظر رواية أخرى لموقف مشابه من أبي جهل نفسه في سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٦).
(٢) الرازي، التفسير الكبير (١٢/ ٥١٨).

﴿ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣]؛ يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ-: (معنىٰ الآية علىٰ هذا التقدير أن القوم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون نبوتك بألسنتهم وظاهر قولهم)[١].

وبعد هذا العرض لواقع هذا الطاغوت نستنتج ما يلي:

أولًا: إن من يدرس شخصية أبي جهل يدرك أنه رجل أعطاه الله إمكانات الزعامة، وتوافرت فيه صفات سوّدته علىٰ قومه، رغم حداثة سِنِّه، في وقت توافر في قريش سادات وأشياخ، كانوا من أفذاذ الرجال، ومع ذلك ساواهم، أو تقدم علىٰ بعض منهم، ويكفي أن نشير إلىٰ أنه أدرك عمه الوليد بن المغيرة الذي كان يَرىٰ أنه أولىٰ من محمد ﷺ بالرسالة، وكان كفار قريش يوافقونه علىٰ ذلك؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]، كما أدرك عمه أبا أمية بن المغيرة الملقب (بزاد الراكب)؛ لجوده وكرمه مع المسافرين، وكان هو صاحب اقتراح تحكيم أول داخل للمسجد الحرام في وضع الحجر الأسود عندما تنازعت قريش هذا الأمر، وكادت تقوم بينهم حرب لأجل ذلك. وعمه أبو حذيفة وعمه الفاكه بن المغيرة، ومع ذلك كان مقدمًا في قريش.

وهذه الإمكانات الدنيوية مما يعطيها الله للمؤمن والكافر، قال -تعالىٰ-: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠]، وقد أعطىٰ الله فرعون السلطة، وأعطىٰ قارون المال، ونرىٰ الآن في عصرنا من الذكاء والدهاء في أقوام كفار، ووثنيين يعبدون الأحجار، وملحدين لا يؤمنون بالله -تعالىٰ-. وهذا لا يعني مدحًا لهم ولا ثناء؛ بل إن مَن أُعطي شيئًا من ذلك؛ فهي نعمةٌ إنْ سخَّرها في طاعة الله -تعالىٰ-، ونقمة وبلاء وحساب إن سخرها في غير ذلك؛ علىٰ حسب ما وقع منه.

(١) الرازي، التفسير الكبير (١٢/ ٥١٨).

يدل علىٰ توافر هذه المواصفات في أبي جهل، وأنه أُوتي من قوة الشخصية ما مكَّنه من مشاركة قريش في كثير من قراراتها رغم صِغر سنّه، حديث ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك؛ بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب». قال: وكان أحبهما إليه عمر(١). وهذا الحديث يدل علىٰ أمرين:

الأول: أن الرسول ﷺ تفرَّس في هذا الرجل الذكاء وقوة الشخصية، ورأىٰ أن في إسلامه نصرًا كبيرًا للمسلمين في مكة لا يعادل إسلام غيره.

الثاني: الدعاء بأن يُعِزّ هذا الدين بإسلام أبي جهل أو عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، يدل علىٰ وجود تشابه في شخصيتهما الفطرية في الجاهلية قبل إسلام عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- من قوة الشخصية والزعامة، ومعلوم ما كان عليه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- من القوة والصرامة، سواء قبل إسلامه أو بعده.

ثانيًا: كان أبو جهل ممتلئًا بمشاعر الزعامة، مستوطنًا هذا الأمرُ قلبَه، فصار يسعىٰ لتقوية سلطته، وترسيخ قيادته بكل السبل، لا يبالي في سبيل الوصول إلىٰ تحقيق هذه الزعامة أن يدوس علىٰ القيم والأخلاق -كما مر-، وأن يستميت في محاربة من يتخوف منه الوقوف في طريقه، حربًا لا هوادة فيها ولا سِلْم، ولذلك وقد أدرك مضمون هذه الدعوة، وعرف أنها العائق الأكبر لمشروعه، وأنها ستجعله تابعًا، وليس زعيمًا ينفرد بالأمر بلا قيود؛ جاهَر بالعداوة وتصدَّر كل مواقفها، وقضىٰ أربعة عشر عامًا من عمره بعد البعثة إلىٰ أن قتله الله في بدر ناصبًا جهده، باذلًا كل وقته، وفكره، وماله، في حرب الدعوة بكل السبل التي تمكن منها، وهذا لم يصدر مثله من أحد من كفار قريش؛ فقد وقعت مناصبة كفار قريش العداوة لهذا الدين، ولكنهم كانوا يتفاوتون:

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٨/ ١٨١) رقم (٣٦٨١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر»، وصححه الألباني.

- فمنهم من ناصب الرسول ﷺ العداء وآذوه، لكنهم كان عنده بقية من خلق العرب، وشيء من القِيَم، ورِقَّة تبدو في بعض الأحيان من أمثال المطعم بن عدي الذي أجار الرسول ﷺ عندما عاد من الطائف ليدخل مكة، وحفظ له الرسول ﷺ هذا الجميل، عن محمد بن جبير، عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنه-: أن النبي ﷺ قال في أسارىٰ بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»[1]. ومنهم عتبة بن ربيعة الذي حاور الرسول ﷺ مرة ونصح قريش بأن يتركوا الرسول ﷺ، وأخبرهم بأنه سيكون له شأن؛ فلم يقبلوا نُصحه، وقال عنه الرسول ﷺ يوم بدر لما رأىٰ جيش الكفار ينزل من الوادي، كما يقول ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (قال رسول الله ﷺ وقد رأىٰ عتبة بن ربيعة في القوم علىٰ جمل له أحمر، «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا»[2].

وكان عتبة هو قائد جيش بدر، لكن كان أبو جهل أقوىٰ شخصية منه؛ فسيطر علىٰ الرأي، وعمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، كانت له رقة أحيانًا مع المسلمين أيام شركه، فقد قال قبل إسلامه للمرأة المسلمة التي كانت ستهاجر إلىٰ للحبشة: «صحبكم الله»؛ فأخبرت زوجها، وطمعت في إسلامه، فقال لها: هل تطمعين في إسلام ابن الخطاب؟! والله لا يسلم حتىٰ يسلم حمار الخطاب[3].

- والفئة الأخرىٰ عادَوا الرسول ﷺ وآذوه، ولكن كان مقامهم أقل من أن يكون لهم شأن مؤثر، وهؤلاء هم الأتباع، ومن سار مسارهم في قريش.

- والفئة الثالثة عادَوا الرسول ﷺ وآذوه لكن كانت عداوتهم ضمن عداوات قومهم، يحضرون أحيانًا، ويغيبون أخرىٰ، ولم يتصدروا في كل موقف، وإن كان لهم تصدر أحيانًا، ومن أمثال هؤلاء: الوليد بن المغيرة وأبو لهب، والعاص بن وائل، والنضر

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٩١) رقم (٣١٣٩).
(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٦٢١).
(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٤٣).

بن الحارث، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأضرابهم.

وانفرد هذا الطاغوت بكونه حاضرًا في كل تآمُر، بل متسيدًا في كل موقف سوء، لخَّص أبو طالب موقف أبي جهل بقوله: (ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ -يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ- إِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ شَرٍّ)[(١)]. تجده في كل مؤامرة تُحَاك ضد الرسول ﷺ، إما أن يكون مقترحًا، أو مشجِّعًا أو منفِّذًا، ولذلك استحق أن يُطلَق عليه فرعون هذا الأمة، فقد رُوي أن الرسول ﷺ قام مع ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- لمشاهدة أبي جهل بعد مقتله في بدر فقال: «الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة»[(٢)]، وهذا -إن صح- فإن من دلالاته أن أبا جهل ناصَب محمد ﷺ العداوة مناصبةً منفردةً، بمثل انفراد فرعون بمناصبة موسىٰ -عليه السلام-، وأنهما اشتركا في السبب وهو خوف كلّ منهما ذهاب زعامته، فكان ذهابه بها.

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات ١/ ٢٠٣)، وانظر: محمد إلياس الفالوذة، الموسوعة في صحيح السيرة النبوية الطبعة الأولى: (مطابع الصفا – مكة ١٤٢٣)، (ص ٣٠٢).

(٢) رواه الإمام أحمد، المسند، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط وزملائه (٧/ ٢٧٨- ٢٨٠)، رقم (٤٢٤٦ و٤٢٤٧)، وقال المحقق عن كل من الحديثين: (إسناده ضعيف لانقطاعه). ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٩) رقم (٩٩٦٥)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة وهو ثقة»، وقال محقق تفسير البغوي، عبد الرزاق المهدي في هامش التفسير (٥/ ١٨٧) الأثر رقم (٢٣٠١): «الخلاصة: هو حديث حسن باللفظ الذي أوردته بمجموع طرقه، والله أعلم». وانظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ٧٥)؛ فقد قال: «وَلِهَذَا كَانَ أَبُو جَهْلٍ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ». وقال أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي في الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره تحقيق مجموعة من طلاب جامعة الشارقة بإشراف الشاهد البوشيخي، الطبعة الأولى (الشارقة، جامعة الشارقة ١٤٢٩)، (٤/ ٢٧٧٢): «وقال ابن مسعود: فجئت أبا جهل، وهو فرعون هذه الأمة فوجدته مقطوع اليد والرجل، فقلت: أخزاك الله، فقال: رُوَيْع غنم ادْنُهْ فإن الفحل يحمي إبله وهو معقول. قال ابن مسعود: وكان معه سيف جيّد، ومعي سيف ردي، فأدرت به حتى أخذت سيفه، ثم ضربته به حتى مات»، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٦) فقد قال: وقعت النقمة على يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو أبو جهل بن هشام ومن معه ببدر» وعمومًا هذا الوصف منتشر مشتهر في كتب السيرة.

ثالثًا: إن مَن يقرأ سيرة هذا الطاغوت وشخصيته، ويرىٰ استمراره في معاندة الرسول ﷺ وإيذاءه له، واستمراره علىٰ الكفر والطغيان، مع أنه رأىٰ أكثر من غيره من الآيات التي تدل علىٰ نصر الله -جل شأنه- لنبيه، عندما حاول الاعتداء علىٰ الرسول ﷺ لقتله وهو ساجد[1]، أو امتناعه من دفع حق الأراشي، ثم مجيء الرسول ﷺ مع الأراشي، فأصاب أبا جهل الذعر ودفع للأراشي حقه كما مر[2]. فرغم هذه المواقف ورؤيته من الآيات المؤيدة للرسول ﷺ عيانًا، فقد مضىٰ في هذا الطغيان، وهذا -والعياذ الله- أشد الخذلان.

رابعًا: إن شخصية أبي جهل هي شخصية تكرر في مختلف الأزمنة والأمكنة -كشخصية فرعون وشخصية قارون-، لكن منها مَن تمكَّن فدمَّر العالم، ومنهم من لم يتمكّن فاقتصر تدميره علىٰ نفسه. وهذه الشخصية هي التي تأبىٰ إلا أن تكون كل شيء ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، فالأمر أمره والرأي رأيه، وعلىٰ الجميع أن يكون آلة تنفيذ عنده. فإن لم يستطع إخضاع غيره، أهلك نفسه بسوء تصرفاته وتهوره.

بل لا أبالغ إذا قلت: إن شخصية أبي جهل تتكرر في بعض الأسر والعائلات، وفي بعض البيوت تجد من يتسلط ويواجه كل خير، وكل من يأمر بمعروف أو ينهىٰ

---

(١) صحيح الإمام مسلم (٤/ ٢١٥٤ حديث رقم ٢٧٩٧، ورواه البخاري مختصرًا (٦/ ١٧٤)، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-. وسبق إيراد القصة كاملة في فقرة أساليب مواجهة الكفار للرسول ﷺ.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٤١٦- ٤١٧، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ١٩٣- ١٩٤)، وابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٧٠)، والبلاذري، أنساب الأشراف ١/ ١٢٨ - ١٢٩. ومحمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة، وقال (ص ٤٧): «وعبد الملك شيخ ابن إسحاق ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وسكت عنه. ثم إن الخبر مرسل. وذكرها ابن كثير عن ابن إسحاق، وسكت عنها»، وسبق إيراد القصة كاملة في فقرة أساليب كفار قريش في مواجهة الرسول ﷺ.

عن منكر، لا يريد فضيلة إلا عن طريقة، ولا يريد لأحد مكانة إلا بإذنه، ويا ويل من يفكر بالخروج عن طاعته، وعباءته وهيمنته!!

خامسًا: لقد تكررت شخصية أبي جهل في المدينة، ولكن بصورة أقل، وهلك في المدينة رجلان من كبار أهل المدينة نتيجة شرفهما الذي خافا عليه بمقدم الرسول ﷺ، وناصَبا الرسول ﷺ العداوة جهارًا، ونفاقًا أحيانًا أخرىٰ، يقول السمهودي -رحمه الله تعالىٰ-: (قدم رسول الله ﷺ المدينة وسيِّد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول، كان من الخزرج.. لا يَخْتِلف في شرفه في قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده علىٰ رجل من أحد الفريقين -حتىٰ جاء الإسلام- غيره، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفي (المنافق)، وهو والد حنظلة الغسيل، وكان قد ترهَّب ولبس المسوح، فشقيا بشرفهما؛ أما عبد الله بن أبي فلما انصرف عنه قومه إلىٰ الإسلام ضغن، ورأىٰ أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكًا، فلما رأىٰ قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مُصِرًّا علىٰ نفاق وضغن، فكان رأس المنافقين، وإليه يجتمعون)[1].

سادسًا: لله حكمة في وجود هؤلاء الطغاة في طرق الأنبياء والدعاة، وفي تسليطهم ثم قصمهم، فهم عقبات لا بد منها ليعظم أجر الأنبياء والدعاة، وليميز الله الخبيث من الطيب، والباطل من الحق، أليس الله -جل شأنه- هو الذي سلَّط أبا جهل ليتشبث بإشعال الحرب في بدر، بعد أن كاد الفريقان يعودان، وتبقىٰ قريش علىٰ قوتها، وفريق المؤمنين يعود بلا نصر ولا غنيمة، ويكون خروجه من المدينة بدون أي نتيجة، لكنَّ الله -جل شأنه- سلَّط هذا الرجل فأوقد النار علىٰ نفسه، وعلىٰ قومه، وكُسرت قوة قريش الكافرة، وأعز الله -جل شأنه- المؤمنين، وعادوا إلىٰ المدينة معهم الأسرىٰ والغنائم والعز والتمكين، وجثث كبراء قريش في قليب

---

(١) السمهودي، وفاء الوفاء (١/ ١٧٢-١٧٣).

بدر. فلا يغرنك وجود طاغوت في عصر من العصور، فلن يعدو أن يكون ظاهر الأمر عَقَبَةً، وباطن الأمر تدبير إلهي يُعِزّ الله به المؤمنين الصادقين، ويقصم به ظهور الكافرين والمنافقين.

سابعًا: حينما يتبين لنا سبب العداوة، وأنها كانت تدور علىٰ الخوف من ذهاب الزعامة؛ ندرك خطورة هذه الشهوة علىٰ صاحبها، عن كعب بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»(١)، وقال شداد بن أوس -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، قيل لأبي داود السجستاني -رحمه الله تعالىٰ-: وما الشهوة الخفية؟ قال: حبّ الرئاسة(٢).

أما وإنها لَأُمّ الشهوات كلها، فهي تُحقّق كلّ الشهوات الأخرىٰ، ولا تستطيع الشهوات الأخرىٰ أن تُحقّق شهوة الزعامة، فالزعامة تجلب لصاحبها المال، بالرضا أو بالعصا، وتتحقّق له شهوات الفرج والبدن، وغيرها.

وحينما ننظر للتاريخ العام نجد أن شهوة الزعامة هذه أدَّت إلىٰ حرب بين الأخ وأخيه، بل قد يقتل الابن أباه من أجل الاستيلاء علىٰ السلطة.

لكن ما الدرس الذي نستفيده من هذا، مع وعينا بأن هذه الشهوة موجودة في كل إنسان حتىٰ بين الأطفال، لكنها بدرجة متفاوتة؟

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٣٧٦)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) ابن تيمية، قاعدة في المحبة تحقيق مشاري الحرفة، الطبعة الأولى (الرياض الناشر المتميز ١٤٤٢)، (ص ١٩٠)، ومعنى «يا نعايا العرب»: من النعي وإعلان خبر الموت، كأنه يقول: قد ذهبت العرب، أي يا هذا انع العرب، ويا أيها الرجل انعهم. انظر: الأزهري، تهذيب اللغة (٣/ ١٣٨).

إن علينا إذا عرفنا هذا، أن نراقب هذه الشهوة الكامنة في نفوسنا، الخطرة علىٰ سلوكنا وديننا وقيمنا، فلا تخرج عن إطارها الشرعي بالظلم والبغي والعدوان، وأن نعيد النفس ونعودها علىٰ التواضع والطاعة لمن أمرنا الله بطاعته من أمير أو عالم أو والد أو غيره ونضع النفس في موضعها الملائم لها حقيقة، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان:١٨]، وأن ندرك تَبِعات الانقياد وراء شهوة السلطة من خسارة للآخرة والدنيا.

ثامنًا: عندما يعي العاقل وجود هذه الشهوة في نفوس الناس وحبّهم لها؛ يُحسن التعامل معهم، ويرعىٰ هذا الأمر، ولا يقع منه تصرّف يمسّ هذا الجانب لأهميته لديهم وحساسيته عندهم، فالنفوس مفطورة علىٰ محبَّة مَن يُوقِّرها، شَغُوفة بسماع الثناء عليها، فإعطاء إخوانك شيئًا من هذا الحق التي تحبه تلك النفوس، بصدق وأمانة دون كذب وتزوير، مطلب شرعي، فتوقير الكبير، وإفساح المجلس له عندما يدخل، والترحيب به وإشعاره بقيمته، كلها تلامس شيئًا محبوبًا فُطِرَت النفوس عليه، تبعث علىٰ السرور، وتُولّد المحبة، وتنشر الألفة، وهو فِقْه تربويّ مهم ينبغي ألَّا يغيب عن المسلم في خُلقه وتعامله مع إخوانه، وكلها تدور حول أن الشخص يُحب أن يَرىٰ أن له مكانةً وجاهًا ومنزلة عند الآخرين.

والرسول ﷺ يوم فتح مكة قال له العباس -رضي الله تعالىٰ عنه-: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: «نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»(١).

وكعب بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- لما نزلت توبته بعد قصة تخلُّفه في غزوة تبوك، وجاء فرحًا بتوبة الله عليه، يقول: «حتىٰ دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتىٰ صافحني وهنّاني، والله

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق السقا (٢/ ٤٠٣)، وابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٥٤٩ و٥٥٤)، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن الرسول ﷺ قال يوم فتح مكة «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥) رقم (١٧٨).

ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة»[1]. فانظر إلىٰ قَسَمِه أنه لن ينساها لعظمه تأثير هذا القيام والتوقير في نفسه.

تاسعًا: يا ويح أبي جهل! ما ضر إلا نفسه. يقول القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (واعجبًا لأبي جهل مسكين! أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه وأسلم أخوه[2]، وكفر هو، قال الشاعر:

ونورًا أضاء الأرض شرقًا ومغربًا   وموضع رجلي منه أسود مظلم)[3].

الله أكبر، اللهم يا مُقلّب القلوب ثبّت قلوبنا علىٰ دينك، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

عاشرًا: تأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

(١) صحيح البخاري (٦/ ٣) رقم (٤٤١٨).

(٢) أسلم أخواه: سلمة بن هشام -رضي الله تعالى عنه-، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «كان من السابقين ودعا له الرسول ﷺ» انظر: (الإصابة ٣/ ١٣٠). والحارث بن هشام -رضي الله تعالى عنه-، أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه. انظر: (الإصابة ١/ ٦٩٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٤).

المبحث الخامس

أبو بكر ﷺ والدعوة

في المبحث السابق تحدثت عن أبي جهل والدعوة، ورأيت أن من فقه السيرة أن أكتب لمحة أيضًا، نعم لمحة سريعة، عن الشخصية المتفردة المقابلة لأبي جهل، فكما تسنم أبو جهل العداوة فقد ظهر لي من خلال السيرة، أن شخصية أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- تصلح أن تكون هي الشخصية الفذَّة المقابلة لسيرة أبي جهل.

وليس المقصود هنا هو الحديث عن سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وإنما بيان؛ بل ربما إشارة إلىٰ هذا التميز الفريد له -رضي الله تعالىٰ عنه- في متابعته للرسول ﷺ من أول يوم.

فكما كان أبو جهل طاغوتًا وفرعونًا، فقد كان هذا صدِّيقًا وصاحبًا وخليفة.

وليست المسألة مقارنة، ولكنها تذكيرٌ بشيء من الحكمة في وجود هاتين الشخصيتين، وأنَّىٰ لشخص أن يُقارن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بأبي جهل، إلا مقارنة تشبه قول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٢-١٦]، ولا يُفهم من المقارنة أدنىٰ مشابهة قال -تعالىٰ-: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

أبو بكر الصديق ﷺ:

اسمه: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب؛ فهو قرشي تيمي يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في الجد السادس (مرة بن كعب بن لؤي) فتيم، وكلاب أخوان، وكلاهما ابن لـ(مرة بن كعب)، وكلاب هو جد للرسول ﷺ، وتيم جد لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-.

وكنيته: أبو بكر، والبَكْر هو الفتي من الإبل، وكانت العرب تسمي بهذا الاسم، وتكني به، ولا زالت، تفاؤلًا بالقوة والحيوية والنشاط والنباهة... إلخ عدد من الصفات الكريمة.

وُلِدَ -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد عام الفيل بسنتين وأشهر، فهو أصغر من رسول الله ﷺ، في المدة التي بعد عام الفيل. وكان تاجرًا ونسّابًا مشهورًا في العرب بذلك، لم يشرب الخمر، ولم يسجد لصنم قط، وكان صديقًا للرسول ﷺ قبل البعثة.

عن أبي العالية -رحمه الله تعالىٰ-، قال: «سئل أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: هل شربت خمرًا في الجاهلية؟ قال: أعوذ بالله، قالوا: ولِمَ ذاك؟ فقال: كنت أصون عِرْضي وأحفظ مروءتي؛ لأنه مَن شرب الخمر كان لعِرْضه ومروءته مُضيِّعًا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدَق أبو بكر، صدق أبو بكر»[(١)].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم أسلم أبو بكر، فلما أسلم رضي الله عنه أظهر إسلامه، ودعا إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، وكان رجلًا مألفًا لقومه، محبَّبًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان

(١) أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، تحقيق عادل العزازي، الطبعة الأولى (الرياض: دار الوطن ١٤١٩)، (١/ ٣٣) رقم (١١١).

رجلًا تاجرًا، ذا خُلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحُسْن مجالسته)[١].

وكان -رضي الله تعالىٰ عنه- مِن أوائل مَن أسلم، بل هو أول مَن أسلم مِن الرجال -رضي الله تعالىٰ عنه-، والذي لا شك فيه أنه أول رجل أسلم وأظهر إسلامه منذ الساعة التي أعلن فيها إسلامه، وعاش معلنًا إسلامه مجاهرًا بالحق، زمن الشدة كلها مع الرسول ﷺ، وصَحِبَه في كلّ المواقف، وكان هو ثاني اثنين يوم الهجرة.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي» مرتين[٢]. وهذا كالنص الصريح علىٰ أنه أول مَن أسلم، وعلىٰ مبادرته إلىٰ الإسلام دون تردُّد.

وفي السيرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوتُ أحدًا إلىٰ الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر وتردُّد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه»[٣].

ولما أسلم كان إسلامه إسلامًا راسخًا؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧- ٢١]؛ فقد نقل عدد من المفسرين الإجماع علىٰ أنها نزلت في أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال البغوي -رحمه الله تعالىٰ-: (يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ)[٤]. وقال ابن عطية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يختلف

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢٥١-٢٥١) ملخصًا.
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٥) ط السلطانية.
(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٣٢).
(٤) البغوي، تفسير البغوي (٥/ ٢٣٤). طبعة التراث.

أهل التأويل أن المراد بـ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ إلىٰ آخر السورة أبو بكر الصديق)[1]. وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (الْأَتْقَىٰ يعني: أبا بكر الصديق في قول جميع المفسرين)[2]. وقال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: (الْأَتْقَىٰ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي قَوْلِ جَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ)[3].

ومعلوم أن المراد بالأتقىٰ الذي بلغ الغاية في التقىٰ فهناك تقيّ، وهناك أتقىٰ، والغاية هي الأتقىٰ! هذا في نفسه، وفي إسلامه! فهل اكتفىٰ بذلك؟

كان -رضي الله تعالىٰ عنه- نشيطًا جادًّا في الدعوة إلىٰ الله، وأسلم علىٰ يديه ﷺ جمع من كبار الصحابة؛ منهم: عثمان بن عفان ﷺ، والزبير بن العوام ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، وسعد بن أبي وقاص ﷺ، وطلحة بن عبيد الله ﷺ، وهؤلاء الخمسة الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر الصديق ﷺ هم من العشرة المبشرين بالجنة[4].

ثم جاء بعثمان بن مظعون، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم فأسلموا كذلك[5]. وقد كان هؤلاء هم السادة وأكبر القادة، ومقدميهم في سيرة المصطفىٰ ﷺ.

هذا ما اشتهر أنهم أسلموا علىٰ يديه، ولم يشغله ذلك عن العناية بالمستضعفين الأرقاء، الذين أسلموا ونالهم من أسيادهم من كفار قريش العذاب، فكان يسعىٰ في شرائهم وإعتاقهم، فقد أعتق سبعة ممن يعذبون في الله -سبحانه وتعالىٰ-.

---

(١) ابن عطية، تفسير ابن عطية (٥/ ٤٩٢).
(٢) ابن الجوزي تفسير ابن الجوزي (٤/ ٤٥٥).
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٥٥٢١). نقلاً عن الواحدي -رحمه الله تعالى-.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١٥٢-٢٥١).
(٥) انظر: ابن كثير البداية والنهاية (٤/ ٧٥ -٧٦).

عن هشام عن أبيه عروة -رحمهما الله تعالىٰ- قال: (أعتق أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- سبعة، كلهم يُعذّب في الله؛ أعتق بلالًا وعامر بن فهيرة، وزنيرة والنهدية وابنتها، وجارية بني مؤمل، وأم عبيس -رضي الله تعالىٰ عنهم-)[1].

وعن الأصمعي -رحمه الله تعالىٰ- أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يُعذَّب في الله؛ بلال وعامر بن فهيرة، وزنيرة، وأم عبيس، وجارية بن عمرو بن المؤمل، والنهدية وبنتها[2].

عن عامر بن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهم-، عن بعض أهله قال: قال أبو قحافة -رضي الله تعالىٰ عنه- لابنه أبي بكر: يا بني، إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالًا جُلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: يا أبتِ، إني أريد ما أريد. ويُذكر أنه نزلت فيه هذه الآيات ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٥-٢١][3].

ومنذ أن دخل في الإسلام وماله كله مُسخّر في الدعوة إلىٰ الله، ويكفيه فخرًا قول الرسول ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»، فبكىٰ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقلت في نفسي ما يُبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيَّر

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، (طبعة التركي)، (١/ ٢٥٣).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، (طبعة التركي)، (١/ ٢٥٣).

(٣) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (١/ ٩٥) رقم (٦٦)، وابن عساكر، تاريخ دمشق (٣٠/ ٦٧).

عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «يا أبا بكر لا تَبْكِ، إنَّ أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أُخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر»[1].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر؛ فإن له عندنا يدًا يكافئه الله به يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله»[2].

وعن هشام عن أبيه عروة -رحمهما الله تعالىٰ- قال: أسلم أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وله أربعون ألفًا فأنفقها في سبيل الله[3]. وكان الرسول ﷺ يقضي في مال أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كما يقضي الرجل في مال نفسه[4].

أخرج الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في المسند «عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قالت: «لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، احتمل أبو بكر ماله كله معه؛ خمسة آلاف درهم، أو ستة آلاف درهم». قالت: «وانطلق بها معه». قالت: «فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا». قالت: «فأخذت أحجارًا، فوضعتها في كوة البيت،

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١٠٠) ط السلطانية، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٥٤) رقم (٢٣٨٢).

(٢) الترمذي، سنن الترمذي تحقيق أحمد شاكر (٥/ ٦٠٩) رقم (٣٦٦١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه» وصححه الألباني.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق (٣٠/ ٦٧).

(٤) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر -رضي الله تعالى-، تحقيق وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (١/ ٧٢) رقم (٣٦).

كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضع يدك علىٰ هذا المال». قالت: «فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا، فقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ». قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني قد أردت أن أُسكّن الشيخ بذلك»[1].

وأما دفاعه عن النبي ﷺ بنفسه، فعن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: «بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة؛ إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا»؛ فأقبل أبو بكر حتىٰ أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨]؛ الآية[2].

وفي الفتح لابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: «أخرج أبو يعلىٰ والبزار بإسناد صحيح عن أنس قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتىٰ غُشِيَ عليه؛ فقام أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فجعل ينادي: ويلكم! أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟! فتركوه، وأقبلوا علىٰ أبي بكر»، وهذا من مراسيل الصحابة. وقد أخرجه أبو يعلىٰ بإسناد حسن مطولًا من حديث أسماء بنت أبي بكر-رضي الله تعالىٰ عنهما-... وفيه: «فأتىٰ الصريخ إلىٰ أبي بكر؛ فقال: أدْرِك صاحبك. قالت: فخرج من عندنا وله غدائر أربع، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟! فلهوا عنه وأقبلوا إلىٰ أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئًا من غدائره إلا رجع معه».

---

(١) المسند (٤٤/ ٥٢٠) رقم (٢٦٩٥٧). وقال محققو المسند: «إسناده حسن»، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦ رقم: ٤٢٦٧) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) «صحيح البخاري (٥/ ٤٦) ط السلطانية.

ولقصة أبي بكر هذه شاهد من حديث عليّ أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه خطب؛ فقال: «مَن أشجع الناس؟ فقالوا: أنت. قال: أما إني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه، ولكنه أبو بكر. لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجؤه، وهذا يتلقاه، ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا، ويدفع هذا، ويقول: ويلكم! أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟! ثم بكىٰ عليّ ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر؟ فسكت القوم. فقال عليّ: والله لساعة من أبي بكر خير منه؛ ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا يعلن بإيمانه»[1].

وعن القاسم بن محمد -رحمه الله تعالىٰ- عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا، ألح أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحّ حتىٰ ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كلّ رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ، وثار المشركون علىٰ أبي بكر وعلىٰ المسلمين، فضُربوا في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووُطِئَ أبو بكر وضُرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه، ونزا علىٰ بطن أبي بكر حتىٰ ما يُعْرَف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتىٰ أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة. فرجعوا إلىٰ أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتىٰ أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٦٩).

بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأُمّه أُمّ الخير: انظري أن تُطعميه شيئًا، أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ. فقالت: والله ما لي عِلْم بصاحبك. فقال: اذهبي إلىٰ أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتىٰ جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلىٰ ابنك؟ قالت: نعم، فمضت معها حتىٰ وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أُمّك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالِم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم. قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ. فأمهلتا حتىٰ إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتىٰ أدخلتاه علىٰ رسول الله ﷺ قال: فأكبّ عليه رسول الله ﷺ فقبّله، وأكب عليه المسلمون، ورقّ له رسول الله ﷺ رقّة شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برّة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلىٰ الله، وادع الله لها عسىٰ الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلىٰ الله، فأسلمت»[1].

قال ابن إسحاق: وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنهما، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذىٰ، ورأىٰ من تظاهر قريش علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأىٰ، استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرًا، حتىٰ إذا سار من مكة يومًا أو يومين، لقيه ابن الدغنة، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش؛ فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي (٤/ ٧٦).

وآذوني، وضيّقوا عليَّ، قال: ولِمَ؟ فو الله إنك لتزين العشيرة، وتُعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري. فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضن له أحد إلا بخير. قالت: فكفُّوا عنه.

قالت: وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلًا رقيقًا، إذا قرأ القرآن استبكى. قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته. قالت: فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تُجْر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرقّ ويبكي، وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأْتِهِ فمُرْه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء. قالت: فمشى ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا بكر إني لم أُجِرك لتؤذي قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببتَ. قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال: فاردد عليَّ جواري، قال: قد رددته عليك. قالت: فقام ابن الدغنة، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردَّ عليَّ جواري فشأنكم بصاحبكم[1].

أما العلاقة الشخصية بين الرسول ﷺ وأبي بكر -رضي الله تعالى عنه- فتكشف صورة منها قول عائشة -رضي الله تعالى عنها- كما في صحيح البخاري: «ولم يمر عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية؛ فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- في نَحْر الظهيرة. قال قائل: هذا رسول الله ﷺ في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر: ما جاء به في هذه

(١) انظر: ابن هشام، سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٢).

الساعة إلا أمر»[1].

وفي حادثة الإسراء كان لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- الموقف الفذّ؛ فعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «لما أُسري بالنبي ﷺ إلىٰ المسجد الأقصىٰ أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلىٰ أبي بكر الصديق ﷺ، فقالوا: هل لك إلىٰ صاحبك! يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلىٰ البيت المقدس؟ قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تُصدّقه أنه ذهب الليلة إلىٰ بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق»[2].

وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «كان لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- غلام يخرج له الخراج، فكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوما بشيء فأكل منه؛ فقال الغلام: تدرون ما هذا؟ فقال أبو بكر: لا. وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة؛ إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه، فأدخل يده فقاء كل شيء في بطنه»[3].

عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم؛ فقال: «رأيت آنفًا، كأني أُعطيت المقاليد والموازين. فأما المقاليد فهي المفاتيح، فوضعت في كفة، ووضعت أمتي في كفة، فرجحت بهم، ثم جيء بأبي بكر فرجح بهم، ثم جيء بعمر فرجح بهم، ثم جيء بعثمان فرجح، ثم رفعت». فقال له رجل:

(١) البخاري، صحيح البخاري (٨/ ٢٦) رقم (٦٠٧٩).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. وانظر: ابن حجر فتح الباري (٧/ ١٩٩).
(٣) معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٣٣) رقم (١١٢).

فأين نحن؟ قال: «أنتم حيث جعلتم أنفسكم»(١).

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن -رحمه الله تعالىٰ-، عن أبي أروىٰ الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كنت مع النبي ﷺ جالسًا، فطلع أبو بكر وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي أيَّدني بكما»(٢).

كانت منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- معروفة مشتهرة عند الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-؛ ذكر ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات عن الزهري -رحمه الله تعالىٰ- قال: قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت -رضي الله تعالىٰ عنه-: «هل قلت في أبي بكر شيئًا؟»، فقال: نعم، فقال: «قل وأنا أسمع»، فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا ... من البرية لم يعدل به رجلا

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، ثم قال: «صدقت يا حسان، هو كما قلت»(٣).

---

(١) «السنة لابن أبي عاصم» (٢/ ٥٣٩)، وصححه الألباني -رحمه الله تعالى-، وضعفه آخرون. وفي شعب الإيمان للبيهقي -رحمه الله تعالى- (الرياض: مكتبة الرشد)، (١/ ١٤٣): «عن هزيل بن شرحبيل قال: قال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: «لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم». قال الألباني -رحمه الله تعالى- عن هذا الأثر: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال البخاري غير ابن شوذب»، «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة» (١٣/ ٧٧٠).

(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، تحقيق وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (١/ ٧٣) رقم (٣٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٧) رقم (٤٤٤٧)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: عاصم بن عمر واهٍ».

(٣) ابن سعد، الطبقات، (بيروت: دار صادر)، (٣/ ١٧٤).

أقف مع الفوائد التالية:

الأولىٰ: أقف أولًا عند أخلاقه -رضي الله تعالىٰ عنه- قبل البعثة، فلم يسجد لصنم، ولم يشرب الخمر، كان مثالًا في التواضع، تامّ المروءة بعيدًا عن الشبهات منذ نشأته.

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»(١).

وقارن هذا بأبي جهل الذي يقول يوم بدر: «لن نرجع حتىٰ نشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بجمعنا العرب»، أي فسوق وغلظة وغرور وفجور عند هذا الرجل؟!

الثانية: أخرج البغويّ بسند جيّد عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، قال: ولينا أبو بكر فخير خليفة أرحم بنا وأحناه علينا. وقال إبراهيم النخعي: كان يسمىٰ الأوّاه لرأفته»(٢). هذا الرجل الرحيم الأوَّاه الرؤوف بالمسلمين، تأمل في المقابل صنيع ذلك الطاغية أبي جهل لما علم بالهجرة، ذهب إلىٰ بيت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- متجاوزًا كل أخلاق وقِيَم العرب معتديًا علىٰ فتاة صغيرة لا تملك من أمرها شيئًا، هي أسماء بنت الصديق -رضي الله تعالىٰ عنهما- فسألها عن أبيها، ثم لطمها علىٰ وجهها الشريف لطمة طار قُرطها من أذنها، وأدمىٰ وجهها حقدًا وبغضًا وعداوة من الرسول ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه-.

هذا الطاغوت لا يعرف خُلقًا ولا قِيَمًا ولا رحمة في عدوانه وعداوته.

الثالثة: إننا نجد أن السابقين الأوائل في الإسلام هم خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكان تميزها في نصرة الرسول ﷺ في بيته؛ فهي -رضي الله تعالىٰ عنها

(١) سنن الترمذي (٥/ ٦٦٤ رقم ٣٧٩٠)، (طبعة البابي الحلبي بمصر)، وصححه الألباني.
(٢) ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة (٤/ ١٤٩).

وأرضاها- امرأة لا تملك من أمر مواجهة الرجال شيئًا؛ فكان نفعها -رضي الله تعالىٰ عنها- في غالبه في بيت الرسول ﷺ؛ تثبيتًا وطمأنةً.

وأما عليّ -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-؛ فكان صغير السن، عمره حوالي عشر سنوات عند إسلامه، ومثله لا يُتوقَّع منه نَصْرٌ في هذا العمر، وأما بلال -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد كان مولًىٰ يُؤذَىٰ ويُعذَّب، وأما ورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد مات مبكرًا، قبل المواجهة مع كفار قريش. ومع عِظَم مقام هؤلاء جميعًا وفضلهم وسابقتهم؛ إلا أن الملاحَظ أنَّ إسلامهم لم يكن يُمثِّل خطرًا علىٰ قريش، ولم يظهر أنها خشيت من إسلامهم، علىٰ زعامتها.

أما أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فكان له شأن آخر، فقد كان قامةً وحيدةً في صفّ الرسول ﷺ، فله مكانته الشخصية ومكانه في قبيلته، ومكانة ماله، وعمره القريب من سنّ الأشد وهو ثمان وثلاثون سنة عند البعثة، فكان يصول ويجول بكلّ قواه في مواقف الإيمان ونصرة الرسول ﷺ ونصرة الدين ومن دخل فيه من المستضعفين.

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (والجمع بين الأقوال كلها أن خديجة أول من أسلم من النساء، وظاهر السياقات، وقبل الرجال أيضًا. وأول مَن أسلم مِن الموالي زيد بن حارثة، وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب؛ فإنه كان صغيرًا دون البلوغ علىٰ المشهور، وهؤلاء كانوا إذ ذاك أهل البيت، وأول مَن أسلم مِن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذِكْرهم; إذ كان صدرًا مُعظَّمًا، ورئيسًا في قريش مكرَّمًا، وصاحب مال، وداعية إلىٰ الإسلام، وكان محببًا متألفًا يبذل المال في طاعة الله ورسوله)[1].

(١) ابن كثير، البداية والنهاية تحقيق التركي، طبعة دار هجر (٤/ ٦٧).

الرابعة: جاء في تفسير الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في قول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر:٣٣]: (... وقال آخرون: الذي جاء بالصدق: رسول الله ﷺ، والذي صدق به: أبو بكر رضي الله عنه.. عن عليّ رضي الله عنه، في قوله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾ [الزمر:٣٣]؛ قال: «محمد ﷺ، وصدَّق به، قال: أبو بكر رضي الله عنه)[١]؛ فقد سبق في الإيمان، وكان أصدقهم في ذلك، مع صدقهم وفضلهم -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

الخامسة: إن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كان مِن أوّل وأبرّ مَن ناصَر الرسول ﷺ ببدنه، فقد كان يدافع عن الرسول ﷺ، ويقيه ببدنه عندما يُعتدَىٰ عليه. وكم من مرة سالت دماء أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في نصرة الرسول ﷺ يوم لم يكن معه إلا قلة غالبهم من المستضعفين.

وكما كان مدافعًا عن الرسول ﷺ في مكة، فلنستذكر -استطرادًا- موقفه أيضًا في الدفاع عن قرار الرسول ﷺ في الحديبية، تأمل موقفه وهو يدافع عن الرسول ﷺ أمام آراء جمع من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وهو يتمنون غير ما صالَح عليه الرسول ﷺ قريشًا، ويرون في هذا الصلح شيئًا من الضَّيْم عليهم، وأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- هو الجبل الأشم يدافع عن هذا الصلح، وينبّه الجميع إلىٰ أن الذي أجرىٰ الصلح هو رسول الله ﷺ.

السادسة: أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كما كان قريبًا حاضرًا عند الرسول ﷺ؛ فقد كان قريبًا من الرسول ﷺ من حيث السن، وبالتالي كان محلّ ثقته ومشورته، فكان -رضي الله تعالىٰ عنه- يتقلب في توجيه الرسول ﷺ وتعليمه، وقضىٰ عمره وهو أقرب صديق محبَّب للرسول ﷺ في حين قضىٰ أبو جهل حياته جاهدًا في عداوة

(١) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق عبد الله التركي (القاهرة: دار هجر)، (٢٠/ ٢٠٤).

الرسول ﷺ بالغًا في ذلك مبلغًا لم يبلغه أحد قبله، وربما ولا بعده. فتأمل تباعُد الرجلين! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السابعة: ما كان الله -جل شأنه- ليرضي لصاحب نبيه ﷺ، إلا أن يكون في المقام الأعلىٰ من الخُلق الفاضل والدين القويم، خاصةً إذا استحضرنا تلك التزكيات القرآنية الربانية لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وللصُّحبة أثرها، فعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن الرسول ﷺ قال: «الرجل علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[1]. قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-: «اعتبروا الناس بأخدانهم»، وقالوا:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي[2]

فما ظنّك بمن كان ملازمًا للرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها، وقبل الهجرة وبعدها، إلىٰ أن ودَّع رسول الله ﷺ الدنيا، ويكفي أن نتذكر حديث ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- الذي فيه قوله: كنت أكثر أسمع رسول الله ﷺ يقول: «جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»[3].

الثامنة: كان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أنفع الناس للرسول ﷺ في صحبته مطلقًا، (ولا نزاع بين أهل العلم بحال النبي ﷺ وأصحابه أن مصاحبة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- له كانت أكمل من مصاحبة سائر الصحابة)[4].

الرسول ﷺ كان يزور أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كل يوم إما صباحًا أو مساءً؛ وفقًا لقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهي تصف حدث الهجرة، وهذا

(١) أخرجه أبو داود في سننه، (٧/ ٢٠٤) رقم (٤٨٣٣ وقال محققه الأرناروط: «إسناده حسن».
(٢) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٥٨٠.
(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٨٥٨) رقم (٢٣٨٩).
(٤) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (٨/ ٣٩٠).

يكشف عن صورة الود والمحبة والإجلال بين الرسول الكريم ﷺ وصديقه أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-، لا يمر يوم إلا ويأتي الرسول ﷺ يزور أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وإذا كان هذا حال الرسول ﷺ مع أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فكيف بحال أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- مع الرسول ﷺ؟

التاسعة: وَصْف ابن الدغنة لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بذات الصفات التي وَصَفت بها أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- الرسول ﷺ يوم مجيئه من غار حار بعد نزول أول سورة اقرأ عليه ﷺ. وفي هذا يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن أعظم مناقب أبي بكر أن ابن الدّغنّة سيد القارة لما ردّ إليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبيّ ﷺ لما بعث، فتواردا فيهما علىٰ نَعْت واحد من غير أن يتواطئا علىٰ ذلك، وهذا غاية في مدحه؛ لأن صفات النبيّ ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات)[1].

وهو برهان جليّ علىٰ معرفة الناس بأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بما يعرفونه عن الرسول ﷺ، وأن صفاتهم ورغباتهم وآمالهم وآلامهم واحدة، وأن العرب تنظر إليهم نظرة قريبة من بعض، يؤكد هذا، الفائدة التالية.

العاشرة: إن كفار قريش لما علموا بالهجرة النبوية، أعلنوا عن جائزتهم الكبرىٰ مئة ناقة لمن يأتي بمحمد ﷺ، ومئة أخرىٰ لمن يأتي بأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ لأنها تعلم مكانة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في الأمة، وما قام به وما يقوم به من الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه-، فالشخص الأول المطلوب لكفار قريش هو الرسول ﷺ، وبعده يأتي أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولم نجد في السيرة أن كفار قريش جعلوا جائزة لمن يأتي بغير أبي بكر من الصحابة المهاجرين -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

(١) ابن حجر، الإصابة (٤/ ١٤٩).

وسيأتينا في غزوة أُحُد أن أبا سفيان قائد جيش الكفار، لما انتهت الغزوة صعد علىٰ الجبل ونادىٰ علىٰ الرسول ﷺ، ثم نادىٰ علىٰ أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، ثم نادىٰ علىٰ عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ وهذا تأكيد لما هو معروف شائع لدىٰ العرب في منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد الرسول ﷺ مباشرة.

الحادية عشرة: وهناك حالة مماثلة لمحاصرة ومطاردة كفار قريش للرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في بعض الجوانب في الأمم السابقة، تكشف عن جانب متميز لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-.

فقد طارد فرعون وجنوده، موسىٰ -عليه السلام- ومن آمن معه قال -تعالىٰ-:
﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ
﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ
﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٥٢-٦٨].

أقف هنا مقارنًا بين ما جرىٰ لموسىٰ -عليه السلام- وقومه ومحمد ﷺ وصاحبه:

١- أصحاب موسىٰ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وصاحب محمد ﷺ مطمئن، لكنه حزين خوفًا علىٰ صاحبه. ولذلك كان جواب موسىٰ لقومه: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، وجواب محمد ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

٢- موسىٰ -عليه السلام- يقول: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾، ومحمد ﷺ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فالمعية الأولىٰ خاصة بموسىٰ -عليه السلام- دون قومه، والمعية الثانية لمحمد ﷺ وأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وبالتالي فنجاة قوم موسىٰ -عليه

السلام- لم تكن لمعية الله -جل شأنه- الخاصة، وإنما إكرامًا لموسىٰ -عليه السلام- وتبعًا له. بينما كانت نجاة الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- صاحب محمد ﷺ بالمعية الإلهية لا بالتبع لمعية الرسول ﷺ فقط، فالله -جل شأنه- مع النبي ﷺ ومع أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، بينما ذلك حاصل لموسىٰ -عليه السلام- بمفرده دون أصحابه، وهذا فَرْق شاسع، يكشف المكانة العليا لصاحب رسول الله ﷺ.

٣- تتجلىٰ تلك المكانة أكثر بتأمل الفارق بين ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فمعية موسىٰ -عليه السلام- معية ربانية، ومعية محمد ﷺ معية إلهية. ومعية الربوبية فيها تعلُّق والتجاء، مع خوف وقلق، في حين أن المعية الإلهية أكمل؛ لأن فيها تفويض العبد أمره إلىٰ الله -جل شأنه- مع طمأنينة وثقة ويقين بتأييد الله -سبحانه وتعالىٰ-.

٤- إن معية موسىٰ -عليه السلام- تقدم فيها ذِكْر النفس علىٰ ذِكْر الرب -جل شأنه- ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ومعية محمد ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه- تقدّم فيها ذِكْر الله -جل شأنه- علىٰ النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وهذا أقرب للطمأنينة واليقين والثقة به -سبحانه-، والنبي ﷺ وأبو بكر يشتركان في هذا الأمر

فانظر كم لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- من فضيلة! بل خصيصة في قوله -تعالىٰ-: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

الثانية عشرة: وفي الهجرة ينزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وهذا نص قرآني صريح علىٰ منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فهو الثاني -رضي الله تعالىٰ عنه- في كل موطن من مواطن العزة، فهو الثاني في الإسلام وفي الدعوة، وفي مواجهة المشركين، وفي الهجرة، وفي قيادة الأمة وفي اقتفاء أثر الرسول ﷺ، وفي كل مكرمة، وما حاول أحد مسابقته إلا رجع بالإقرار لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بالفضل والسابقة.

الثالثة عشرة: إذا كان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ثاني اثنين، فهو الثاني بعد الرسول ﷺ، وهو الأول تلقائيًّا في غيابه ﷺ، دون النظر إلىٰ الغير كائنًا من كان.

وفي سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- نجد صورة من صور التوافق الروحي والقولي والعملي في الرأي والفهم منه -رضي الله تعالىٰ عنه- مع الرسول ﷺ، يظهر هذا من موقفه -رضي الله تعالىٰ عنه- يوم الحديبية بعد أن التأم الأمر ولم يبقَ إلا الكتاب وثَب عمر رضي الله عنه فأتىٰ أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر: أليس برسول الله؟ قال بلىٰ! قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ! قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ! قال: فعلام نُعطي الدّنية في ديننا؟ فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتىٰ عمر رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألستَ برسول الله؟ قال: بلىٰ، أَوَ لسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ، قال أَوَ ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله لا أخالف أمره ولن يضيعني»، فانظر إلىٰ تمام التسليم من أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي وافق فيه الرسول ﷺ في تمام تسليمه لربه(١).

فلأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- القدم المعلا في المتابعة.

الرابعة عشرة: من يطالع سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في جملتها يكتشف أنه -رضي الله تعالىٰ عنه- لم يُعَظِّم أحدٌ محمدًا ﷺ كتعظيم أبي بكر له. كان إيمانه يوم دُعي إلىٰ الإيمان إيمانًا بلا تردُّد ولا سؤال ولا مناقشة، وكان موقفه يوم الإسراء فريدًا: «إن كان قاله فقد صدق»؛ وفي المدينة سار علىٰ ذلك؛ ففي بعث أسامة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «لو جرت الكلاب بأمهات المؤمنين ما حللت لواء عقده رسول الله ﷺ»؛ تعظيمًا لأمر الرسول ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٧).

فلأبي بكر -رضي الله عنه- القدم المعلا في التعظيم الشرعي لرسول الله ﷺ.

الخامسة عشرة: كان من نتيجة هذا التعظيم للرسول ﷺ، أن انفرد بأمر مهم، كان -رضي الله تعالىٰ عنه- مؤمنًا مُحبًّا كلّ الحب لمحمد ﷺ، فهو آمن بمحمد النبي ﷺ، فكان يصدقه بكل ما يقول، ولا يفحص ما يقول فينظر فيه؛ بل يكفي عنده أن القائل هو محمد النبي ﷺ؛ في حين كان إيمان غيره بالنبي محمد ﷺ، فهم سمعوا القرآن، وفهموا ما يدعوا إليه محمد ﷺ؛ فآمنوا به وأحبّوه، وفرقٌ بين الأمرين؛ بل فرق بين الإيمانين.

ولا ننس أن نشير إلىٰ الدركة التي ارتكس فيها كفار قريش الذين كانوا يعرفون محمدًا الصادق الأمين، ويعرفون صدق رسالته؛ ومع ذلك كفروا، وكان أشدهم في ذلك طاغوتهم أبا جهل الذي تزعَّم قيادة الكفر والمحاربة لمحمد وللرسول ﷺ. فما قَبِل أن يكون محمد الهاشمي رسولًا من الله يوحي إليه، ولا قبل برسالة التوحيد والدعوة بعد أن عرفها وتحقق من صدقها.

السادسة عشرة: عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ، إلا دخل الجنة»[1].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن رسول الله ﷺ، قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله، نُودِي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٧١٣) رقم (١٠٢٨)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة»، فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما علىٰ من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[1].

تأمل هذين الحديثين اللذين يدلان بوضوح علىٰ شخصية أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في العبادة والحرص علىٰ الخير، فما عرف باب خير إلا كان سبَّاقًا إليه مبرّزًا فيه، وهو بهذا يقدم غاية الامتثال.

فلأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- القدم المعلا في المسابقة في الطاعات.

يقابل هذا أبو جهل الذي كان يمثل غاية العداوة للدين، فما كان باب شر إلا كان أبو جهل سباقًا إليه، حاضرًا مُؤثّرًا فيه، كما قال ذلك أبو طالب.

فهنا أعلىٰ درجات الخير والطاعة والامتثال. وهناك مع أبي جهل أسوأ دركات الشر والمعاداة.

ولا تظنن أن ذلك يخلو من الحكمة؛ فقد استمر هذا العداء للرسول ﷺ رغم موت أبي جهل، فقد ظهر في المدينة زعيم مماثل لأبي جهل في مكة وهو عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي ما كان من باب شر وعداوة للإسلام إلا كان له يد بارزة فيها، واستمر يحمل لواء الطغيان في العداوة إلىٰ أن مات بعد غزوة تبوك.

السابعة عشرة: ذكرت عند الحديث عن أبي جهل أنه رُوي وصف الرسول ﷺ له بفرعون هذه الأمة، وفي مقابل ذلك تأمل حديث جندب -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون

(١) صحيح البخاري (٣/ ٢٥) ط السلطانية. وصحيح مسلم (٢/ ٧١١) رقم (١٠٢٧).

لي منكم خليل؛ فإن الله -تعالىٰ- قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»(١).

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (مرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا(٢) وفي سورة النساء(٣)، وهكذا جاءَ ذِكْرهم مقدمًا علىٰ الشهداءِ في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أُحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيد»، ولهذا كان نعت الصديقية وصفًا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتًا له رضي الله عنه)(٤).

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالىٰ-: (الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- هو أكمل الأمة وأفضلها، وهو أفضل الناس بعد الأنبياء، وقد دلت الأحاديث الكثيرة علىٰ أنه أفضل الخلق بعد الأنبياء -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-)(٥).

الثامنة عشرة: تأمل قول الله -تعالىٰ- لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ:٥]، وقال -جل شأنه- عن أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:٢١]، ولم يَعِد الله أحدًا من عباده في القرآن الكريم بعينه بذلك سوىٰ نبيه ﷺ وصاحب نبيه أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وماذا بعد هذا الفضل من فضل؟!

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٧٧) رقم (٥٣٢).

(٢) يقصد قول الله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الحديد:١٩].

(٣) يقصد قول الله -تعالى-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

(٤) ابن القيم، طريق الهجرتين، (القاهرة: الدار السلفية ١٣٩٤)، (ص ٣٥١).

(٥) موقع الشيخ ابن باز، في جواب سؤال عن فضل أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- عرض عليه في برنامج نور على الدرب في إذاعة القرآن الكريم بالرياض، ونشر نص السؤال والجواب في الموقع الإلكتروني.

وتأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦]، فعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلىٰ الدنيا لأفسدت علىٰ الناس معايشهم»، وعن ابن وهب -رحمه الله تعالىٰ- قال: قال ابن زيد -رحمه الله تعالىٰ- في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤]، قال: (أبو جهل)[1].

التاسعة عشرة: قد يقول قائل: هذا الدين لا يمكن أن يطبقه التطبيق الأمثل إلا الأنبياء والرسل الذين هم معصومون من الله ومؤيدون من الله -جل شأنه-، ولكن عندما نقرأ سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، نجد فيها الرد علىٰ مثل هذه الشبهة، فأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- لم يكن نبيًّا ولم يكن يوحي إليه، ولم يكن معصومًا، ومع ذلك طبّق هذا الدين علىٰ حقيقته؛ فَعَلت منزلته وارتفعت درجته وسَمَت مكانته، وقدم نموذجًا لما ينبغي أن يكون أسوة من غير الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

العشرون: لعلك بعد هذا عرفت منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أو لعلك بهذا اكتشفت مزيدًا من مقام أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في هذا الدين، لكن المهم هو النتيجة بعد ذلك.

المهم أن نعرف حق أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- علينا، وماذا قدم لهذا الدين، ولهذا الرسول ﷺ من النصرة في يومٍ لم يكن مع الرسول ﷺ نصير من البشر غيره، وقد تكالبت قوىٰ الكفر والشرك لمحاربة هذا الدين، فكان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- طودًا شامخًا يدافع عن الرسول ﷺ، وينصر المستضعفين، ويدعو إلىٰ الله ويتحرك في كل الجهات وفي كل الجبهات؛ فحقه علينا حينئذ عظيم، وواجب

(١) الطبري، تفسير الطبري (٢١/ ٥٤).

مودته وموالاته كبير، وهنيئًا لمن وفَّقه ربه لذلك؛ فكان لأبي بكر مُحبًّا ومعظِّمًا ومُوقِّرًا ومواليًا ومُوادًّا.

وكما نستذكر عداوة أبي جهل فنبغضه أشد البغض تقربًا إلىٰ الله -جل شأنه-، نتذكر فضل أبي بكر فنحبّه أشد الحب تقربًا إلىٰ الله -جل شأنه-.

الواحدة والعشرون: الإيمان بكمال قدرة الله -جل شأنه- وحكمته، فهو القدير وهو الحكيم، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمنًا، والكافر كافرًا، والبَرّ برًّا والفاجر فاجرًا، وهو الذي جعل إبراهيم -عليه السلام وآله- أئمة يدعون إليه، ويهدون بأمره، وجعل فرعون وقومه ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١]؛ بعلمه وحكمته، وهو الذي هدىٰ أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وأعلىٰ منزلته ورفع له الدرجات، وهو الذي أضل أبا جهل وأنزله أسفل الدركات. فله الحمد علىٰ علمه وقدرته وحكمته -سبحانه وتعالىٰ-.

الثانية والعشرون: كما أن في أبي جهل درسًا لكل طاغية من الطغاة الذين جعلوا همّهم محاربة الإسلام، ثم ما انتهىٰ إليه مصير أبي جهل، وسيكون مصير من سار علىٰ دربه مثله، فإن في سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- درسًا لكل عبد صالح يرجو الله ويخافه، وجعل همّه الترقي في الطاعات وتحرّىٰ ما استطاع التمسك بسنة النبي ﷺ، وسيكون له نصيب من موعودات الله -جل شأنه- لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، علىٰ قَدْر ما فيه من الخير والتأسي، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

الثالثة والعشرون: تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٨]؛ وما فيها من المقارنة بين مآل كل من الأشقىٰ والأتقىٰ.

الرابعة والعشرون: وبها أختم هذه الفوائد: ورد عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي

تدخل منه أُمّتي»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، وددت أني كنت معك حتىٰ أنظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنك يا أبا بكر أول مَن يدخل الجنة مِن أُمّتي»[1].

فهو أول مَن نصر الرسول ﷺ، وهو أفضل هذه الأمة بعد نبيها، ولذلك فليس بغريب أن يكون أول داخل للجنة من الأمة، والله أعلم.

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢١٣) رقم (٤٦٥٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٧) رقم (٤٤٤٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط البخاري ومسلم»، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

المبحث السادس

الهجرة إلى الحبشة

عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- أم المؤمنين زوج النبي ﷺ أنها قالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأُوذي أصحاب رسول الله ﷺ، وفُتِنُوا، ورَأَوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دَفْع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في مَنَعة من قومه ومن عمّه، لا يصل إليه شيء مما يكره[1] مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة مَلكًا[2] لا يُظلَم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتىٰ

(١) مقارنة بما أصاب أصحابه، وإلا فهو قد ناله الكثير من الأذى المعنوي والبدني، كما سبق ذِكْر نماذج منه، ولكن كان أقواهم وأصبرهم على تحمل الأذى، والأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل. بوب البخاري -رحمه الله تعالى- به. وانظر: سنن الترمذي (٥/ ٣٩٨) رقم (٢٣٩٨)، وقال الألباني -رحمه الله تعالى-: حسن صحيح.

(٢) النجاشي: قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة (١/ ٣٤٧): (أصحمة بن أبحر النجاشيّ ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطيّة. والنجاشيّ لقب له، أسلم على عهد النبي ﷺ، ولم يهاجر إليه، وكان رِدْءًا للمسلمين نافعًا، وقصته مشهورة في المغازي في إحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام. وأخرج أصحاب الصّحيح قصة صلاته ﷺ صلاة الغائب من طرق: منها رواية سعيد بن مينا، عن جابر... وفي رواية ابن عيينة، عن ابن جريج: «قد مات اليوم عبد صالح، فقوموا فصلّوا على أصحمة» قال الطّبريّ وجماعة: كان ذلك في رجب سنة تسع، وقال غيره: كان قبل الفتح). وفي صحيح البخاري (٥/ ٥١) رقم (٣٨٧٨) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: أن نبي الله ﷺ «صلى على أصحمة النجاشي فصفنا وراءه فكنت في الصف الثاني أو الثالث». وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧) رقم (١٧٧٤) عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله -تعالى- ، وليس النجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ. وقال القرطبي في المفهم (٣/ ٦١٣): (إنما النجاشيُّ الذي كاتبه رسول الله ﷺ آخر غير هذا من ملوك الحبشة، إما في جهة أخرى، أو بعد موت أصحمة، والله -تعالى- أعلم). وقال العيني في عمدة القاري (٨/ ١٩): (وقوله في صحيح مسلم:=

يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»؛ فخرجنا إليها أرسالًا حتىٰ اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار وإلىٰ خير جار، أمِنًا علىٰ ديننا، ولم نخش منه ظلما"[١].

فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان فيمن هاجر عثمان بن عفان ﷺ، وامرأته رقية[٢] بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها-، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وامرأته ليلىٰ بنت أبي حثمة -رضي الله تعالىٰ عنهم-؛ فخرجوا حتىٰ أتوا الشعيبة[٣]؛ منهم الراكب، ومنهم الماشي، ووفَّق الله للمسلمين -ساعة جاءوا- سفينتين للتجارة حملوهم فيها قالوا: «وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار، أمنًا علىٰ ديننا، وعبدنا الله -تعالىٰ-، لا نُؤذَىٰ ولا نسمع شيئًا نكرهه»[٤]. وكانت الهجرة إلىٰ الحبشة في السنة الخامسة من البعثة، ولم يطل بهم المقام في الحبشة؛ فقد عادوا بعد أشهر قليلة إلىٰ مكة بعد أن وصلهم

=هو غير النجاشي الذي صلى عليه. قلت: قيل: كأنه وَهْم من بعض الرواة، أو أنه عبّر ببعض ملوك الحبشة عن الملك الكبير، أو يحمل على أنه لما توفي قام مقامه آخر فكتب إليه).
وقال الشيخ علي ملا القاري في المرقاة (٦/ ٢٥٢٧): «(وليس) أي النجاشي الذي كتب إليه (بالنجاشي الذي...) يعني وقد وهم من قال: إنه النجاشي الذي صلى عليه، وقد خلط راويه، فإنهما اثنان، وكلاهما مسلمان. " وانظر علي ملا القاري، جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/ ٥٣١). والله أعلم.

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠١)، وابن هشام، السيرة النبوية ، تحقيق عادل عبد الموجود وزملاؤه (١/ ٣٤٥). وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧/ ٥٧٧) رقم (٣١٩٠)، وسيأتي مزيد نقل من هذا الحديث من مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-.
(٢) وكان عمرها وقت هذه الهجرة إلى الحبشة ١٢ سنة تقريبًا؛ فقد وُلِدَتْ قبل البعثة بسبع سنوات -رضي الله تعالى عنها وأرضاها-.. وهي هنا متزوجة ومهاجرة مع زوجها.
(٣) الشعيبة: تصغير شعبة، مرفأ للسفن على البحر، وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، ومكان الشعيبة اليوم معروف، وهو جنوب جدة على مسافة ٦٨ كيلو، محمد شراب، المعالم الأثيرة (ص ١٥١).
(٤) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٨٥-٤٨٦).

خبر سجود المشركين مع الرسول ﷺ حين قرأ سورة النجم فسجد في آخرها[1]. ولما أقبلوا على مكة تبيَّن لهم أن الخبر الذي وصلهم ليس صحيحًا، فدخل بعضهم بجوار، ودخل بعضهم مستخفيًا.

---

(١) تذكر بعض كتب السيرة هنا قصة الغرانيق، وهي قصة باطلة سندًا ومتنًا، لا تليق أن تُنْسَب وتُرْوَى مع العصمة النبوية المجمع عليها. قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى- في الشفا (٢/ ١٢٣): (أجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا). وقال (٢/ ١٢٥) عن هذه القصة: (فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم). وقد ذهب جمع من العلماء إلى القول بأن قصة الغرانيق قصة مفتراة دخيلة على السيرة النبوية الشريفة أبطلها العلماء انظر القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٢٥)، والنووي في شرح صحيح مسلم، وقال (٥/ ٧٥): (وأما ما يرويه الإخباريون والمفسرون أن سبب ذلك ما جرى على لسان رسول الله ﷺ من الثناء على آلهة المشركين في سورة النجم فباطل، لا يصح فيه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل؛ لأن مدح إله غير الله -تعالى- كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى لسان رسول الله ﷺ، ولا أن يقوله الشيطان على لسانه، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك. والله أعلم). وكتب بعض العلماء فيها رسائل مستقلة تبين بطلانها سندًا ومتنًا ومن هؤلاء: الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- في رسالته نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق، وهي رسالة تُقْرَأ من عنوانها، وقد خرَّج فيها أحاديث القصة، وحكم عليها بالضعف والبطلان، وأجاب عن أدلة من جعل للقصة أصلًا، من مثل ابن حجر -رحمه الله تعالى- فتح الباري (٨/ ٤٣٩)؛ فقد قال: (لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلًا)؛ ثم قال: (وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يُستنكر)، وللأستاذ صالح بن أحمد الشامي بحث بعنوان الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية بيَّن فيها بطلان هذه القصة من حيث السند والمتن، ومن وجهة النظر التاريخية؛ حيث ذكر أن سورة النجم تتحدث عن المعراج، وقد نزلت بعده أي بعد العام العاشر من البعثة وهجرة الحبشة الأولى في السنة الخامسة، وذكرها وبين الخلاف. وناقش الأدلة أحمد القصير في كتابه الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم (ص ٦٦٦) وما بعدها، وانتهى إلى قوله: (والحق أن هذه القصة ضعيفة بل باطلة؛ لأن كل الروايات الواردة فيها مُعلَّة إما بالإرسال أو الضعف أو الجهالة، وليس فيها ما يصلح للاحتجاج به، لا سيما في هذا الأمر الخطير الذي يمسّ مقام نبينا الكريم ﷺ). وانظر: سليمان العودة، السيرة النبوية في الصحيحين (ص ٢٨٥- ٢٩٥).

واشتد الأذىٰ علىٰ المسلمين؛ فأشار الرسول ﷺ علىٰ أصحابه بالهجرة إلىٰ الحبشة مرة ثانية، فهاجر قرابة ثلاثة وثمانين رجلًا، وثماني عشرة امرأة، قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت هجرتهم الآخرة أعظمها مشقة)[1].

ولما علمت قريش بهذه الهجرة بعثت رجلين من أصلب رجالها وأذكاهم، وهما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة[2]، وأرسلوا معهما الهدايا المستطرَفة إلىٰ النجاشي وبطارقته، وجاء الرجلان إلىٰ الحبشة، وقدما رشوتهما إلىٰ البطارقة، طلبًا للمساندة في الرأي عندما يُعرَض الأمر علىٰ النجاشيّ، ولكي يُحَسِّنا طرد هؤلاء المسلمين الذين يقيمون عنده.

ولكن النجاشي لم يتعجَّل في إعطاء الرأي؛ بل طلب السماع من جميع أطراف القضية واستدعىٰ لأجل ذلك المسلمين، ولما حضروا وكانوا قد اتفقوا أن يكون المتحدّث عنهم هو جعفر بن أبي طالب ﷺ، فقال لهم النجاشي: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل»؟ فقال جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه-: «أيها الملك! كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله؛ لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام». قال: فعدَّد عليه أمور الإسلام.. فصدَّقناه وآمنَّا به واتبعناه علىٰ ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢٠٧).
(٢) وكل منهما أسلم فيما بعد، وحسن إسلامه، والحمد لله رب العالمين، ورضي الله عنهما.

أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلىٰ بلدك، واخترناك علىٰ مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لَا نُظلَم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص)، قالت: فبكىٰ والله النجاشي حتىٰ أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتىٰ أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا، ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: واللهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ غدًا عَيْبَهم عِندَهم، ثمَّ أَسْتَأْصِلُ به خَضراءَهم، قالت: فقال له عبد الله ابن أبي ربيعة -وكان أتقىٰ الرجلين فينا-: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسىٰ ابن مريم عبدٌ، قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولًا عظيمًا، فأَرْسِل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسىٰ إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسىٰ ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي يده إلىٰ الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسىٰ ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا، فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون - مَن سبّكم غُرِّم، ثم مَن سبّكم غُرِّم، فما أحب أن لي دبرًا ذهبًا، وأني آذيت رجلًا منكم -والدبر بلسان الحبشة: الجبل- ردوا عليهما

هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في، فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار»[1].

(١) حديث أم سلمة رضي الله عنها أخرجه بطوله الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٠٢، و٥/ ٢٩٠-٢٩٢)، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤-٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وقال عنه أحمد محمد شاكر: (إسناده صحيح انظر: مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر ٣/ ١٨٠ رقم ١٧٤٠)، وأخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٣٤٥)، وأبونعيم في الحلية (١/ ١١٥)، وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (ص ١٠٦)، وقال: «وسنده صحيح». وهناك رواية أخرى من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- رواها أبو داود في سننه رقم (٣٢٠٥)، وضعفها الألباني، وأخرجها الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٨) رقم (٣٢٠٨)، وصحح سند هذه الرواية عبد الله الجبرين في كتابه صحيح السيرة النبوية (ص ٣٦٠)، وضعَّف رواية أم سلمه -رضي الله تعالى عنها-.

تنبيه: بمناسبة الحديث عن الهجرة إلى الحبشة يحسن التنبيه إلى ما ذكره ابن إسحاق -رحمه الله تعالى- وغيره حول ما روي عن ردة عبيد الله بن جحش ،وكان أحد المهاجرين إلى الحبشة وموته في الحبشة على النصرانية، وقد أنكر العلماء هذه الرواية قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالى- في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢١): (وذكرتْ القصة بطولها وهي منكرة)، ومما يدل على بطلانها ما أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه، ترتيب ابن بلبان، وتحقيق شعيب الأرناؤوط (١٣/ ٣٨٥-٣٨٦) رقم (٦٠٢٧)، الطبعة الأولى: بيروت: مؤسسة الرسالة، (١٤٠٨) عَنْ عَائِشَةَ، -رضي الله تعالى عنه-ا قَالَتْ: هَاجَرَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ بِأُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ وَهِيَ امْرَأَتُهُ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ أَرْضَ الْحَبَشَةِ، مَرِضَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، أَوْصَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّ حَبِيبَةَ، وَبَعَثَ مَعَهَا النَّجَاشِيُّ شرحبيل بن حسنة»، وقال الأرناؤوط -رحمه الله تعالى-: «إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله رجال الشيخين غير محمد بن يحيى الذهلي، فمن رجال البخاري». وهذا كافٍ في رد هذه الفرية عن هذا الصحابي. وللشيخ محمد بن عبد الله العوشن -جزاه الله خيرًا- بحثًا بعنوان (تحقيق دعوى ردة عبيد الله بن جحش) منشور في مجلة البيان الصادرة عن المنتدى الإسلامي بلندن عدد (١٨٢) شوال ١٤٢٣هـ، ص٢٢- ٢٤، وطبع ضمن كتاب للمؤلف بعنوان «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» (ص ٣٧) وما بعدها: قال في نهاية البحث: (مما سبق يتبين -والله أعلم- أن قصة ردة عبيد الله بن جحش لم تثبت لعدة أدلة منها...) وذكر أربعة أدلة، والحكم بالردة على شخص ليس بالأمر السهل=

وهكذا بقي المهاجرون من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- آمنين، وانتهت مكيدة قريش بالفشل، ورجع وفدهم خاسرين، وقد رجع المهاجرون فيما بعد إلىٰ المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ، وكان آخرهم رجوعًا الذين رجعوا بعد فتح خيبر، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

نقف مع هذه الهجرة؛ لنستفيد منها ما يأتي:

أولًا: كفىٰ للنجاشي ثناءً هذه التزكية الفريدة من الرسول ﷺ حينما قال عنه: «فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد»، وقد كان له مواقف مشكورة في نصرة صحابة رسول الله ﷺ.

ثانيًا: قيمة العدل، وأن هذا هو مطلب الناس، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُرْوَىٰ: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)(١).

وعندما يأتي الحديث عن العدل فليس القصد منه عدل الحاكم فقط، بل العدل من الأفراد في بيوتهم بين أولادهم، وبين زوجاتهم، وبين إخوانهم وأخواتهم، وعدل المعلم مع طلابه، وعدل القاضي بين الخصوم عنده. فلا خير في أرض سوق الظلم فيها رائج. فالدنيا تصلح بالعدل، وطمأنينة معيشة الناس تأتي بالعدل، لكن طمأنينة قلوبهم لا تأتي إلا بذكر الله -جل شأنه- والإيمان به.

ثالثًا: لم يتمكّن صحابة رسول الله ﷺ من عبادة ربهم بأمن وطمأنينة في مكة؛

=فضلًا عن أن يكون المقصود صحابيًّا ومن المهاجرين الأوائل، والأصل السلامة، وأنه صحابي جليل هاجر إلى الحبشة فرارًا بدينه. ونسأل الله السلامة. وقد سبق أن ذكرت ذلك في مبحث أمهات المؤمنين عند الحديث عن أم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله تعالى عنها- التي كانت عند عبيد الله بن جحش قبل أن يتزوجها الرسول ﷺ وكررته لأهميته.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٢-٦٣).

بسبب إيذاء قريش لهم، ولما لم يبقَ أمام هؤلاء الصحابة إلا ترك الوطن والأهل والمال، من أجل العقيدة، أو ترك العقيدة من أجل الوطن والأهل والمال؛ اختاروا العقيدة، وفارقوا أوطانهم وأهليهم من أجل المحافظة علىٰ دينهم، وهكذا العقيدة فوق الأهل والمال والوطن.

رابعًا: يقول الألباني -رحمه الله تعالىٰ- في «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها»: (وفي الحديث دلالة ظاهرة علىٰ جواز هجرة المسلم من بلد الكفر إذا اشتد الضغط عليه من أهله إلىٰ بلد آخر يجد فيه الحرية الدينية، وليس كذلك ما يفعله بعض الشباب المسلم من السفر من بلده المسلم إلىٰ بعض البلاد الكافرة، لمجرد أنه يجد فيه شيئًا من التضييق أو التعذيب من بعض الحكّام الظالمين، فهذا لا يجوز للأحاديث الكثيرة في النهي عن ذلك، كقوله ﷺ: «المسلم والمشرك لا تتراءىٰ نارهما»، ونحوه، ولكثرة الفسق والخلاعة المنتشرة في كل مكان من تلك البلاد؛ بحيث يندر ألَّا يتأثر المسلم بذلك، فكيف بأولاده الذين يُرَبّون فيها، ويرضعون لبانتها كما هو مشاهد؟! ولذلك فنحن ننصحهم -ومن أسلم من أهلها- أن يهاجروا إلىٰ بلد من البلاد الإسلامية، يتمكنون فيه من القيام بشعائر دينهم، ويُكثِّرون سواد إخوانهم المؤمنين، والله -عز وجل- يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ الآية [النساء:٩٧])[١].

خامسًا: تبعًا لذلك، ماذا نقول لأولئك الذين تركوا أوطانهم الإسلامية وهجروها إلىٰ بلاد الكفر إعجابًا بالكفار، وتركوا بلادهم المسلمة؟ دون إيذاء أو سبب يتعلق بدينهم؟ ماذا يقال لهؤلاء، ونحن نتذكر هجرة هؤلاء الصحابة-رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ بلاد الحبشة بحثًا عن مكان آمن يعبدون الله فيه، وصحبة

(١) الألباني، سلسلسة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها (٧/ ٥٧٨-٥٧٩).

صالحة ولتكوين مجتمع مسلم يكون فيه الجار مسلمًا والحي بأكمله مسلمًا، ويسمع فيه النداء للصلاة خمس مرات باليوم؟

سادسًا: إن هؤلاء الصحابة الذين خرجوا من مكة إلىٰ الحبشة بينوا لنا عمليًّا كيف أن المسلم لا يتكيّف مع المجتمعات غير المسلمة فيما يخالف دينه، بل هو الذي يسعىٰ إلىٰ تكييف تلك المجتمعات؛ لتصبح إسلامية.

ومثل هذا ينطبق حتىٰ علىٰ المجالس التي يجلس فيها المسلم، ويرىٰ فيها بعض المنكرات، فهو إما أن يجاري ويسكت ويصبح بالتالي كيَّف نفسه فيها بما يخالف أمر الله -سبحانه وتعالىٰ-، أو ينكر وإذا لم يستطع الإنكار يخرج عنها ويتركها، فهجرة الصحابة إلىٰ الحبشة درس لنا في التعامل مع المجتمعات غير الإسلامية؛ بل وحتىٰ مع المجالس التي تقوم علىٰ المعاصي والمنكرات.

سابعًا: في هجرة هؤلاء الصحب الكرام، ومع بعضهم زوجاتهم، من مكة إلىٰ الحبشة، بعضهم كان راكبًا، وبعضهم كان ماشيًا، إلىٰ أن وصلوا البحر، ثم ركبوا في السفينة، ثم بعد ذلك اجتازوا تلك الصحاري في إفريقيا للوصول إلىٰ المكان الآمن، يرشدنا إلىٰ مدىٰ المعاناة والمشقة التي تحمَّلها هؤلاء في سبيل الله، ومحافظة علىٰ عقيدتهم ودينهم، فلا تستكثر ما قدمت لدينك، فقد سبق هؤلاء سبقًا عظيمًا، وأعطونا درسًا لا يُنْسَىٰ في قيمة المحافظة علىٰ دين الله مهما كلّف من مشاق.

قارن تكاليف محافظتهم علىٰ الدين، بتكاليف محافظتنا علىٰ ديننا، تركوا الأهل والوطن والمال، لأجل الدين، ونحن نتكاسل عن صلاة الجماعة في المسجد، ونرىٰ ذلك شاقًّا، ونبخل بمال قليل نتصدق به لحاجة مسكين.

ثامنًا: أود أن تستحضر مشهد رقية بنت المصطفىٰ ﷺ زوجة عثمان -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وهي تسير علىٰ قدميها هجرة في سبيل الله إلىٰ الحبشة، وعمرها لم يتجاوز اثني عشر عامًا، قطعت هذه المسافة مرتين؛ في هجرة الحبشة الأولىٰ،

وفي هجرة الحبشة الثانية، ثم هاجرت من مكة إلىٰ المدينة، كل ذلك في سبيل الله، وبحثًا عن مكان آمن تعبد الله فيه.. يكفي أن تستحضر هذه الصورة كنموذج لمعاناة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في سبيل هذا الدين.

تاسعًا: في ملاحقة كفار قريش للصحابة في الحبشة، ومحاولة ردهم إلىٰ مكة، دلالة واضحة علىٰ أن العداوة بين الكفار والمسلمين ليست عداوة شخصية، بل عداوة دينية، ولو كانت عداوة شخصية لفرح الكفار بخروج المسلمين وابتعادهم عنهم، ولكن العداوة هنا عداوة دين، والذي يخالفك في الدين لا يريد منك أن تبقىٰ آمنًا مطمئنًا أبدًا أينما كنت، أما الذي يعاديك شخصيًّا، فهو يريد أن تبتعد عن وجهه ثم ينساك.

عاشرًا: تأمل قول جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- لما تكلم أمام الملك النجاشي قال -رضي الله تعالىٰ عنه-: «فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله؛ لنوحّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان»؛ فبَنَىٰ -رضي الله تعالىٰ عنه- سرعة استجابتهم لرسول الله ﷺ علىٰ معرفتهم به نسبًا وصدقًا وأمانةً وعفافًا. وهذا مهمّ للدعاة إلىٰ الله -تعالىٰ- أن يُعرَف عنهم الصدق والأمانة والعفاف ليسارع الناس إلىٰ قبول ما يقولون.

حادي عشر: قال عثمان بن حسن: (وكان السلف إذا سُئل أحدهم عن مسألة من مسائل الاعتقاد أجاب بنصوص الكتاب والسنة، كما فعل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي -ملك الحبشة-، وقد سأله النجاشي عن حقيقة عيسىٰ -عليه السلام-، فأجاب جعفر بما في سورة مريم؛ فعقل النجاشي ذلك عنه، وكان سببًا في إسلامه)[1].

(١) عثمان بن علي حسن، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (١/ ١٨٢).

ثاني عشر: لما أراد النجاشي أن يسأل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- عن قولهم في عيسىٰ -عليه السلام-، اتفقوا علىٰ أن يقولوا الصدق، فكان منجاة لهم. مهما كلفك الصدق، فاعلم أن ما حصَّلته به فهو أثمن، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لأن يضعني الصدق -وقلَّما يضع- أحبُّ إليَّ من أن يرفعني الكذب، وقلّما يفعل»[1]. يقول أحد العلماء: (يومًا ما -في أوائل أيام عمري- علّمني جدي -عليه رحمة الله- علمني الصدق بكلمة، قال: يا بني: مَن في هذه الدنيا، يستحق أن تُغضِب الله لأجل أن تُرضيه؟ ووقعت من نفسي هذه الكلمة موقعها إلىٰ اليوم»، ولعل في هذا درسًا لنا جميعًا في التزام الصدق في سلوكنا قولًا وفعلًا.

ثالث عشر: في الهجرة إلىٰ الحبشة، وما جرىٰ فيها نأخذ جواز الاستعانة بغير المسلم المأمون عند الحاجة، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-[2]. وهذا نأخذه هنا من الاستعانة بالنجاشي قبل أن يُسْلم، فقد لجأ إليه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بأمر من الرسول ﷺ وكان ملكًا عادلًا، لكنه لم يكن مسلمًا، وإنما أسلم فيما بعد.

رابع عشر: إن اختيار الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- لكي يتحدَّث نيابةً عنهم، اختيار موفَّق كان له أبلغ الأثر، فهو ابن عم الرسول ﷺ وأقربهم إليه، وهو البليغ الفصيح الهاشمي، وقد اختار أسلوبًا للحديث يقوم علىٰ المقارنة بين حالين؛ حالهم قبل مجيء الرسول ﷺ، وحالهم بعد ذلك، ويترك المستمع يحكم بنفسه، يقول أبو الحسن الندوي -رحمه الله تعالىٰ-: (إنّ كلام جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أمام ملك الحبشة، وتصويره للإسلام، كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه، وقد دلّ علىٰ بلاغة صاحبه العقلية، قبل أن يدلّ

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين (دار مكتبة الحياة ١٩٨٦م)، (ص ٢٦٣).

(٢) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد (٣/ ٣٠١)، وانظر: ما يأتي في قصة الهجرة وقصة غزوة حنين ففيهما مزيد توضيح.

علىٰ بلاغته العربيّة البيانيّة، ولا يعلّل ذلك إلّا بإلهام من الله وتأييد هذا الدين الذي أراد الله أن يتمّ نوره، وأن يُظْهِره علىٰ كلّ دين، ويدلّ كذلك علىٰ سلامة الفطرة، ورجاحة العقل، اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشًا، وفاقت فيهما قريش العرب كلّهم، فقد فضَّل جعفر أن يكون جوابه حكاية حال لما كان عليه أهل الجاهلية في الجزيرة العربية، ولما آل إليه أمرهم بعد ما أرسل الله رسوله فيهم، ودعا إلىٰ الله وإلىٰ الدين الحنيف السمح، ومكارم الأخلاق، وآمنوا به واتّبعوه، وحكاية الحال -خصوصًا إذا لم يجانب فيه صاحبها الصواب- أبعد شيء عن المناقشة والمناظرة، وأقدر شيء علىٰ غرس المعاني المقصودة، وتحقيق الأهداف المنشودة، والتهيّؤ للتأمّل والإنصاف وحسن الاستماع)[1]، وهو درس مهم في بيان أثر الأسلوب الدعوي في الإقناع، وكم من فكرة لاقت الإشادة والقبول لحسن عرضها! وأخرىٰ مثلها شوّهها عارضها!

خامس عشر: لقد كان في كلمات جعفر الطيار -رضي الله تعالىٰ عنه- بيان صريح واضح لصفة المجتمع الذي بُعِث فيه الرسول ﷺ، وهذا يكشف لك مستوىٰ المشقة والمعاناة التي واجهها الرسول ﷺ في إصلاح هذا المجتمع، حتىٰ أصبح مجتمعًا أساسه وجوهره التوحيد وأن لا يُعْبَد إلا الله -جل شأنه-، نقيًّا من كلّ صُور الوثنية وسيئ الأخلاق والظلم.

سادس عشر: أيضًا في كلمات جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- عبرة، حينما بدأ يصف المجتمع الجاهلي بقوله: «كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف»؛ هل جعفر رضي الله عنه يصف المجتمع الجاهلي في عصره، أم يصف بعض المجتمعات الكافرة

(١) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، الطبعة الثانية عشرة (دار ابن كثير، دمشق ١٤٢٥)، (ص ٢٠٠).

في عصرنا؟! أَعِد النظر في قول جعفر ﷺ تجد غالب تلك العبارات -إن لم يكن كلها- تنطبق علىٰ بعض المجتمعات الكافرة المعاصرة في شرق الأرض ومغاربها، إنه في الواقع يصف كل مجتمع يبتعد عن دين الله، ذلك أن كل مجتمع يتخلَّىٰ عن دين الله يصبح بهذه الصفة.

سابع عشر: في كلمة جعفر ﷺ عندما سأله النجاشي عن هذا الدين بدأ بعرض المنهيات وأعظمها الشرك بالله، ثم المأمورات وأولها التوحيد، فالتخلية مقدَّمة التحلية، فأولًا وقبل كل شيء نَبْذ الشرك والتخلي عنه، ثم توحيد الله -سبحانه- وإفراده بالعبادة، كما قال -تعالىٰ-: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فأولًا الكفر بالطاغوت، فالذين يشهدون أن لا إله إلا الله، ولا يزالون علىٰ شركياتهم ووثنياتهم، هم -في الحقيقة- غافلون عن هذا المعنىٰ العظيم الذي أشار إليه جعفر ﷺ، إن دعوة محمد ﷺ قائمة علىٰ التوحيد الذي أساسه الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وتوحيده، فلا قيمة لمجتمع ولا لفرد لم يتشبع قلبه بتوحيد الله -سبحانه وتعالىٰ-، ويتخلَّىٰ عن كلّ صُوَر عبادة الأشخاص والقبور والمزارات.

ثامن عشر: إن جعفر ﷺ لما بدأ يُعدّد ما دعاهم إليه الرسول ﷺ بدأ بالتوحيد، وهذا الذي يجب أن يبدأ به الدعاة إلىٰ الله في دعوتهم، ويمضوا معه، ويركزوا عليه، ويكثروا من تجليته وتوضيحه للناس.

تاسع عشر: في غزوة خيبر كما سيأتي عاد آخر المهاجرين إلىٰ الحبشة فكان بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يفخر علىٰ مهاجري الحبشة بأنهم سبقوهم بالهجرة إلىٰ المدينة، فأخبروا الرسول ﷺ بذلك، فقال الرسول ﷺ حينئذ: «ليس بأحق بي منكم، وله -أي: القائل- ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل

السفينة[1] هجرتان»[2]. وقد فرحوا بهذا الحديث أيّ فرح. تقول أسماء بنت عميس -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي التي سألت الرسول ﷺ: «فلقد رأيت أبا موسىٰ وأصحاب السفينة يأتونني أرسالًا يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ»[3]. وهذا فيه فضيلة ظاهرة لمهاجري الحبشة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وظاهره[4] تفضيلهم علىٰ غيرهم من المهاجرين، ولكن لا يلزم منه تفضيلهم علىٰ الإطلاق)[5].

العشرون: ما أعظم هذا الخُلُق العظيم من الرسول ﷺ عندما جاءه بعض مهاجري الحبشة مكسوري الخاطر بسبب قول البعض لهم: إنهم سبقوهم بالهجرة إلىٰ المدينة فأحزنهم ذلك، ولكنَّ الرسول ﷺ جبرهم بكلماته اللطيفة التي عادت لهم بالفرح والسرور والغبطة بما وفَّقهم إليه من الهجرة إلىٰ الحبشة، وهم جديرون بذلك بهجرتهم أيام الشدة إلىٰ الحبشة -وهي مكان ناءٍ جدًّا وراء البحار-؛ من أجل المحافظة علىٰ دين الله -جل شأنه-.

---

(١) أهل السفينة: هم مهاجرو الحبشة الذين قدموا بالسفينة.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٤٨٥) رقم ٤٢٣١.

(٣) صحيح البخاري ، المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) أي ظاهر الحديث الذي أشرت إليه.

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٨٦).

المبحث السابع

فقه السيرة في قصة إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما-

في هذا الجزء المهم من السيرة النبوية المباركة لا يمكننا أن نتجاوز حدثًا شخصيًّا في صورته، عظيم الأهمية في أثره، تقوَّىٰ به المسلمون واستبشروا، وكسَر الله به المشركين فتقهقروا.

هذا الحدث يتمثَّل في إسلام رجلين من خيرة قريش وأعظمها بأسًا، كان لهما المكانة فيها في الجاهلية، وكان لهما الأثر البيِّن علىٰ المسلمين بإسلامهما؛ أولهما سيد الشهداء عم الرسول ﷺ حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وثانيهما الفاروق أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ.

إسلام أسد الله؛ حمزة بن عبد المطلب ﷺ:

حمزة هو عم رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة، قال عنه الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (الإمام، البطل، الضرغام، أسد الله[1] أبو عمارة، وأبو يعلىٰ القرشي،

---

(١) قال في المستدرك للحاكم (٣/ ٢١٩) رقم (٤٩٠٠): «قال جابر -رضي الله تعالى عنه-: فقال رسول الله ﷺ: «سيد الشهداء عند الله -تعالى- يوم القيامة حمزة»، «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي، وعن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- قال: «كان حمزة يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله». أخرجه الذهبي في المستدرك (٣/ ٢١٤) رقم (٤٨٨٠)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي. وأخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ١٧٢).

الهاشمي، المكي، ثم المدني، البدري، الشهيد. عم رسول الله ﷺ)[1]. وكان إسلامه في البداية حميةً للرسول ﷺ، فقد ورد أن أَمَةً لعبد الله بن جدعان كانت في مسكن لها حينما مر أبو جهل بالرسول ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه، فلم يكلمه الرسول ﷺ، فلم يلبث أن أقبل حمزة بن عبد المطلب ﷺ من صيدٍ له متوشحًا قوسه، فأخبرته أَمَةُ ابن جدعان بما سمعت، وكان أعزّ فتىً في قريش وأشد شكيمة، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعىٰ ولم يقف علىٰ أحد مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يُوقِع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه حتىٰ إذا قام علىٰ رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجةً منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا علىٰ دينه أقول ما يقول، فرُدَّ عليَّ ذلك إن استطعتَ. فقامت رجال من بني مخزوم؛ لنصرة أبي جهل، فمنعهم أبو جهل. وتمَّ حمزة ﷺ علىٰ إسلامه وعلىٰ ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة رضي الله عنه سيمنعه، فكَفُّوا بعض الشيء[2].

وحمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- وُلِدَ قبل النبي ﷺ بسنتين. وقيل: بأربع. وأسلم مبكرًا، ولازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه[3].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ١٧٢).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣١٢)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٣٧)، وأورده الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٢-١٩٣)، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٦٧) رقم (١٥٤٦١)، وقال: «رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله ثقات». وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٤٣-٤٤٤)، وانظر رواية أخرى تتفق في المعنى عن محمد بن كعب القرظي رواها الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٦٧) رقم (١٥٤٦٠)، وقال: «رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله ثقات»، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٨٢).

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة (٢/ ١٠٦).

إسلام الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ:

كان عمر بن الخطاب ﷺ شديد العداوة علىٰ المسلمين، مؤذيًا لهم، تقول ليلىٰ بنت حثمة بن عبد الله زوجة عامر بن ربيعة ﷺ: والله إنا لنرتحل إلىٰ أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجته؛ إذ أقبل عمر وهو علىٰ شركه، حتىٰ وقف عليَّ، وكنا نلقىٰ منه البلاء، أذًىٰ لنا وشدةً علينا، فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله، قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله؛ آذيتمونا وقهرتمونا، حتىٰ يجعل الله لنا مخرجًا. قلت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رِقَّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه -فيما أرىٰ- خروجنا. قالت: فجاء عامر -رضي الله تعالىٰ عنه- بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورِقَّته وحزنه علينا، قال: أطمعتِ في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيتِ حتىٰ يُسلم حمار الخطاب؛ قالت: يأسًا منه لما كان يرىٰ من غلظته وقسوته علىٰ الإسلام[1].

لقد ظهر من عمر بن الخطاب ﷺ في هذا الموقف رقة غير معهودة منه، وخاصةً مع المسلمين، ولذلك استنكر عامر هذا القول، وقد عهد من عمر ﷺ في ذلك الوقت الغلظة والشدة علىٰ المسلمين، واستبعد بناء علىٰ ذلك أن يُسلم عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-.

ولمكانة عمر ﷺ؛ فقد كان الرسول ﷺ يدعو الله -سبحانه وتعالىٰ- دعوة خاصة لعمر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وأبي جهل أن يهدي الله أحبهما إليه للإسلام، فعن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أعِزَّ الإسلامِ بأحبِّ هذين الرجلين إليك؛ بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب»، قال: وكان أحبهما

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٨٠-١٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤): (رواه الطبراني وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح)، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة (ص ١٠١).

إليه عمر[1]. وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «اللهم أَعِزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة»[2].

وقد استجاب الله -سبحانه وتعالىٰ- دعاء نبيه ﷺ، فآمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عقب الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة[3]، ويُروىٰ أن ذلك كان بعد إسلام حمزة رضي الله عنه بثلاثة أيام[4]، وقيل بتأخر إسلامه -رضي الله تعالىٰ عنه-، قاله ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- استنباطًا من الحديث الذي رواه ابن حبان -رحمه الله تعالىٰ- الآتي بعد عدة أسطر.

وقد ذكرت كتب السيرة أكثر من قصة في سبب إسلامه رضي الله عنه لا يصح شيء من أسانيدها -مع وضوح التعارض بينها-، ومن أحسنها ما جاء من طريق شريح بن عبيد -رحمه الله تعالىٰ- قال: قال عمر رضي الله عنه: خَرَجْتُ أَتَعَرَّضُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَقُمْتُ خَلْفَهُ فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْحَاقَّةِ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ. قَالَ: فَقُلْتُ هَذَا وَاللهِ شَاعِرٌ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَقَرَأَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤١]، قَالَ:

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي، الألباني (٣/ ٢٠٤) رقم (الحديث ٢٩٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني دون كلمة (خاصة): صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، المقدمة (١/ ٢٤)، حديث رقم (٨٥).

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (٣/ ٢٦٩)، وقال: «وأسلم في ذي الحجة السنة في السادسة من النبوة، وهو ابن ست وعشرين سنة. قال: وكان عبد الله بن عمر يقول: أسلم عمر وأنا ابن ست سنين»، وعندي أن هذا هو أقرب الأقوال، يؤيد هذا ما ورد في فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٧٨) رقم (٣٧٠): «كان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب النبي ﷺ إلى أرض الحبشة»، وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٣/ ٤٩٣)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٧٨ و١٨٢).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٩٣)، والذهبي، السيرة النبوية (ص ١٠٧)، وابن سعد، الطبقات (٣/ ٩)، وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٢١٢).

قُلْتُ كَاهِنٌ، قَالَ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٢-٤٧] إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ. قَالَ: فَوَقَعَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِي كُلَّ مَوْقِعٍ»[(١)]. ورُوِيَتْ روايات أخرىٰ سبق أن أشرت إلىٰ بعضها.

والذي يهمنا هنا هو أن هذا الصحابي الجليل قد تحوَّلت شدته منذ اللحظات الأولىٰ من إسلامه إلىٰ قوة في نصرة الحق ومعاداة الباطل يتمثل ذلك في عدة مواقف لعمر رضي الله عنه؛ منها:

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: وحدثني عبد الرحمن بن الحرث، عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال: قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيّ أهل مكة أشد عداوة لرسول الله ﷺ حتىٰ آتيه، فأُخبره أني أسلمت؟ قال: فقلت: أبو جهل، فأقبلت حين أصبحت حتىٰ ضربت عليه بابه، فخرج أبو جهل، فقال: مرحبًا وأهلًا يا ابن أختي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله، وصدقت بما جاء به، فضرب الباب في وجهي، وقال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئتَ به[(٢)].

وروىٰ ابن حبان -رحمه الله تعالىٰ- في صحيحه قال: سمعت محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- يقول: حدثنا نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أيّ أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي، فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره،

(١) قال الألباني -رحمه الله تعالى-: «وذُكِرَ في إسلام عمر رضي الله عنه عدة روايات لا يصح شيء من أسانيدها -مع وضوح التعارض بينها-، ومن أحسنها إسنادًا مع الاختصار ما أخرجه أحمد (١/ ١٧)، ومن طريقه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٦٤٤)، من طريق شريح بن عبيد قال: قال عمر رضي الله عنه...»، وذكر النص أعلاه، ثم قال: «ورجال إسناده ثقات، فالإسناد صحيح، لولا أن شريح بن عبيد لم يُدرك عمر بن الخطاب».

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧١). وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٨٤) رقم (٣٧٥).

أعقل ما أرىٰ وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت، قال: فو الله ما ردَّ عليه كلمة حتىٰ قام عامدًا إلىٰ المسجد، فنادىٰ أندية قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر: كذب ولكني أسلمت وآمنت بالله، وصدقت رسوله، فثاوروه، فقاتلهم حتىٰ ركدت الشمس علىٰ رؤوسهم، حتىٰ فتر عمر وجلس، فقاموا علىٰ رأسه، فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم، فو الله لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم»[1].

هذا موقفه مع كفار قريش منذ بداية إسلامه، وفي فضائل الصحابة للإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «لما أسلم عمر- رضي الله تعالىٰ عنه- قال المشركون: قد انتصف القوم منا»[2].

أما فرح المسلمين بإسلامه ﷺ وكون إسلامه نصرًا للمسلمين وذلًا وخزيًا علىٰ أعدائهم فيدل عليه ما يلي:

١) روىٰ البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر».[3]

(١) الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان (١٥/ ٣٠٢) رقم (٦٨٧٩)، وقال الألباني في تعليقه على الحديث: «حسن. «مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ» قال الشيخ: هو صاحبُ «السيرة»، التي اختصرها ابن هشام، وقد ذكره فيه (١/ ٣٧٠)، وفيه التصريح بالتحديث -أيضًا-؛ فالإسنادُ حسنٌ. وصحَّحه الحاكم (٣/ ٨٥) على شرطِ مُسلمٍ! ولم يتعقبه الذهبي. وقد طُبِعَ قِسمٌ مِنْ سيرة ابن إِسحاقَ، والحديث فيه (١٦٤/ ٢٢٦)، وفيه التصريح -أيضًا- «وقال الأرناؤوط محقق الكتاب: «إسناده قويّ»)، وانظر: «ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٠)، وأورده ابن كثير في السيرة النبوية، وقال: «وهذا إسناد جيّد قويّ، وهو يدلّ على تأخر إسلام عمر؛ لأن ابن عمر عرض يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة، وكانت أُحُد في سنة ثلاث من الهجرة، وقد كان مُميِّزًا يوم أسلم أبوه، فيكون إسلامه قبل الهجرة بنحو من أربع سنين. وذلك بعد البعثة بنحو تسع سنين. والله أعلم».

(٢) فضائل الصحابة (١/ ٢٤٨) رقم (٣٠٨).

(٣) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٤١)، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر، حديث رقم (٣٦٨٤).

٢) وفي الطبقات عند ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-: كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكان إمارته رحمة. لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلّي بالبيت حتىٰ أسلم عمر. فلما أسلم عمر قاتلهم حتىٰ تركونا، فَصَلَّينا)(١).

٣) وفي مصنف ابن أبي شيبة -رحمه الله تعالىٰ-: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-: (إذا ذُكر الصالحون فحيهلا بعمر، إن إسلامه كان نصرًا، وإن إمارته كانت فتحًا، وايم الله، ما أعلم علىٰ الأرض شيئًا إلا وقد وجد فَقْد عمر حتىٰ العضاة، وايم الله إني لأحسب بين عينيه مَلَكًا يُسدّده ويرشده، وايم الله لو أعلم أن كلبًا يحب عمر لأحببته)(٢).

٤) وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعمر ﷺ: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجك»(٣).

٥) رُوي أنه لما أسلم خرج رسول الله ﷺ ومعه حمزة وعمر وأصحابه الذين كانوا اختفوا في دار الأرقم، فعلمت قريش أنه امتنع، فلم تُصبهم كآبة مثلها، قال عمر: فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق.(٤)

---

(١) الطبقات (٣/ ٢٠٤).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٣) رقم (٣١٩٨٩) ورواه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٨٠) رقم (٤٦). وانظر عبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية (ص ٣٩٠-٣٩١)، وقد أورد هذا الأثر، وقال: «وسنده حسن، رجاله كوفيون ثقات، عدا عاصم فهو حسن الحديث، وروى ابن أبي شيبة (٣١٩٨٣) حدثنا وكيع عن سفيان عن واصل عن أبي وائل قال قال عبد الله: «ما رأيت عمر إلا وكأن بين عينيه مَلَكًا يُسدّده»، وسنده صحيح، ورجاله كوفيون ثقات».

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٣٦٨٣)، وصحيح مسلم رقم (٢٣٩٦).

(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٤/ ٢٨٠)، والذهبي، السيرة النبوية (١٠٧/ ١٠٨)، وقال في بدايتها: (وروي عن ابن عباس بسند ضعيف). وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٧/ ٦٤) رقم (٣٠٦٢) و(١٤/ ٧٣) رقم (٦٥٣١): ولا يثبت عن الرسول ﷺ هذا اللقب لعمر -رضي الله تعالى عنه-، وقال ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٤):=

=(وأما لقبه فهو الفاروق باتفاق فقيل أول مَن لقَّبه به النبي ﷺ رواه أبو جعفر بن أبي شيبة في تاريخه عن طريق بن عباس عن عمر، ورواه ابن سعد من حديث عائشة، وقيل أهل الكتاب. أخرجه ابن سعد من الزهري، وقيل جبريل رواه البغوي). وفي تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٦٦٢)، والطبقات لابن سعد (٣/ ٢٧٠) وتاريخ الطبري (٤/ ١٩٥) و(١١/ ٥٠٤): (أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن صالح بن كيسان قال: قال ابن شهاب: «بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر: الفاروق، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم، ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر من ذلك شيئًا). ويعني ابن شهاب بالمسلمين أي الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وكبار التابعين فهم الذين أدركهم ابن شهاب -رحمه الله تعالى-. وأما ما نسبه ابن شهاب -رحمه الله تعالى- لأهل الكتاب فيؤيده ما رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١/ ١٠٣) رقم (٧٤) بسنده (عن ابن سيرين، عن عقبة بن أوس، عن عبد الله بن عمرو قال: وجدت في بعض الكتب يوم غزونا اليرموك أبو بكر الصديق أصبتم اسمه، عمر الفاروق قرن من حديد أصبتم اسمه، عثمان ذو النورين أوتي كفلين من الرحمة لأنه يقتل، أصبتم اسمه، قال: ثم يكون والي الأرض المقدسة وابنه، قال عقبة: قلت لابن العاص: سمّهما كما سميت هؤلاء، قال: معاوية وابنه). والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى (بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٠)، (٢/ ٥٤٨) رقم (١١٥٣)، وقال الألباني -رحمه الله تعالى-: «إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات غير عقبة بن أوس وهو السدوسي كما في الرواية الآتية، والحديث أخرجه ابن سعد (٣/ ١٧٠) من طريق أخرى عن ابن سيرين به مختصرًا بلفظ «أبو بكر سميتموه الصديق وأصبتم اسمه» وسنده صحيح أيضًا. ا.ه. وانظر كتاب الفتن لأبي نعيم، تحقيق سمير الزهيري، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة التوحيد ١٤١٢)، (١/ ١١٥) رقم (٢٦٤)، والذهبي، تاريخ الإسلام تحقيق بشار عواد (٢/ ٧٣١)، والأزهري، تهذيب اللغة (٢/ ٢٩)، وقال بعد أن أورد الأثر بسنده «قلت: وَهَذَا حَدِيث عَجِيب، وَإِسْنَاده صَحِيح، وَالله أعلم بالغيوب». قال الذهبي عن الأزهري: (وكان رأسًا في اللغة والفقه، ثقة، ثبتًا، دَيِّنًا) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣١٦). وقال عبد السلام آل عيسى في بحث له بعنوان (دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية رضي الله عنه)، نشرته عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة عام ١٤٢٣، الطبعة الأولى (ج١ ص٨٠): (وقد اختلف فيمن لقّبه بهذا اللقب؛ فقيل: إن الذي لقّبه بذلك هم أهل الكتاب. قال الزهري -رحمه الله-: وكان المسلمون يؤثرون ذلك من قولهم، ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر من ذلك شيئًا. وقيل: إن الذي لقّبه بذلك النبي ﷺ وأنه قال: «إن الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلبه، وهو الفاروق فرّق الله به بين الحقّ والباطل». وكلتا الروايتين لم تثبتا،=

وقفات مع هذا المقطع من السيرة

أولًا: الإيمان نعمة؛ بل أعظم نعمة يهبها الله -جل شأنه- لمن يشاء من عباده، فلا يملك أحد الهداية لنفسه ولا لغيره ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وإذا أراد الله -جل شأنه- الهداية لعبدٍ قيَّض له أسبابها، وهو اللطيف الخبير الذي يلطف بعباده ويلطف لعباده -سبحانه-. فيا أخي اعلم يقينًا أن ما بك من نعمة فمن الله -جل شأنه-: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، وأعظم نعمة أسبغها عليك هي نعمة الإيمان، وقل كما قال -تعالىٰ- في كتابه الكريم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]. ولما أراد الله -جل شأنه- لحمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- الهداية قيَّض له سببها ولطف له، ولطف به حتىٰ أصبح من خيار صحابة رسول الله ﷺ.

ثانيًا: سبق أن ذكرتُ أن إسلام حمزة ﵁ كان سببه إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ، وهكذا كان ذلك الشر سببًا لخير عظيم لحمزة ﵁ وللمسلمين، وقد يجعل الله -سبحانه وتعالىٰ- فيما في ظاهره الشر، خيرًا كبيرًا، فسبحان من يعلم عواقب الأمور ونتائجها، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول في كتابه الكريم: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:١٩]، ويقول -تعالىٰ-: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٢١٦]. وهذا مما يُولِّد الطمأنينة والرضا في نفس المؤمن، ويُعيده إلىٰ ربه، ويجعله يرضىٰ بما اختاره الله له، فقد يتضايق من أمر،

=ولعل الصواب أن الذين لقّبه بذلك هم المسلمون؛ لأن الإسلام عزّ وظهر بإسلامه كما ثبت ذلك في الصحيح، ولا مانع أن يكون أهل الكتاب لقَّبوه بذلك لما رأوا من عدالته وظهور الحقّ على يديه). وهذا عندي أقرب. وأن اللقب جاء استفاضة بين الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وتوافقًا، وكفى بهم تزكية.

والله يدبّر له فيه خيرًا كثيرًا، والأصل أن العبد يرضىٰ بما كتب الله له، وهذا الرضا هو الذي يُكسب الشخص طعم الإيمان وحلاوته ولذته، وفي الحديث عن العباس بن عبد المطلب -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»[1].

ثالثًا: كان لإسلام كل من حمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أثر واضح علىٰ المسلمين فرحًا بهم، وعلىٰ الكفار انكسارًا وانحسارًا، وكلّ من حمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أفراد، وأنت أخي القارئ فرد؛ فلماذا لا يكون لك بهم أُسوة حسنة، ويكون لك الأثر في هذا الدين، فبإمكانك أن تصنع لدينك، وتخدم أُمتك، ويكون لك التأثير النافع العظيم، وكم من رجل طرح الله فيه البركة فنفع الله بجهوده الفردية أُمّته نفعًا عامًّا.

رابعًا: كان إسلام حمزة ﷺ في أول الأمر أنفة رجلٍ أبىٰ أن يُؤذَىٰ قريبه، ثم شرح الله صدره، فقد يكون الإسلام في ابتدائه لغير الله، أو تشوبه شائبة، لكن هذا لا يمنع من صلاح النية فيما بعد؛ قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: (إن كان الرجل ليُسْلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتىٰ يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)[2].

وهكذا (قد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فَهْم العلم حتىٰ يتبين أنه علىٰ خطأ في اعتقاده، فيتوب من ذلك، ويخلص النية لله -تعالىٰ-، فينتفع بذلك ويحسن حاله، قال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: كنا نطلب العلم للدنيا فجرَّنا إلىٰ الآخرة، وقال سفيان الثوري -رحمه الله تعالىٰ-: وقال حبيب بن أبي كاتب -رحمه الله تعالىٰ-: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيَّة، ثم جاءت النية بعدُ)[3].

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٦٢) رقم (٣٤).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٢)، وانظر: ابن تيمية، السياسة الشرعية (ص١٤٠).
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٢).

وهناك من يترك الدراسة الشرعية أو يترك إمامة المسجد أو وظيفة المؤذن يقول: ما استطعت أن أُصلح نيتي لله، فخاف علىٰ نفسه، وترك هذه الدراسة أو هذا العمل، وهذا خطأ، فالنية الصالحة تأتي بالمجاهدة، وقد تكون في البداية لغير الله أو مشوبة، لكنّها ستصلح مع الاستعانة بالله -جل شأنه-.

وأظن أن هذا قد يكون مدخلًا للشيطان ليحول بين الشباب والدراسة الشرعية أو العمل الديني، ونحو ذلك.

خامسًا: إن العصبية القبلية ليست ممقوتة دائمًا، فإذا سُخِّرت لخدمة الدين وإعلاء كلمة الله، والتعاون علىٰ الخير، ورَدْع الشر وأهله؛ فهذا أمر حَسَن، وقد قلتُ من قبل: إن من أسباب اختيار الجزيرة العربية لتكون منطلقًا للرسالة الخاتمة وجود العصبية القبليَّة فيها، وإذا ضعفت العصبية تطاول السفهاء علىٰ الأنبياء، وعلىٰ الدعاة من باب أولىٰ، يقول -تعالىٰ- حكاية عن هؤلاء ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود:٩١]؛ أي: قومك وعشيرتك(١).

سادسًا: فضيلة نصرة الرسول ﷺ، فببركة هذا العمل العظيم، فتح الله علىٰ قلب حمزة ﷺ وهداه للإسلام. فالعمل الصالح ولو من غير المسلم قد يكون سببًا لخير عظيم لصاحبه، والله لا يضيع عنده شيء من الخير، وبخاصة إذا كان هذا من الأعمال الفاضلة، كنصرة الرسول ﷺ، ويزيد هذا العمل فضلًا أنه كان في وقت قلة ناصر للرسول ﷺ، وتطاول وطغيان من المشركين.

ونصرة الرسول ﷺ تكون بنصرة دينه، وبالذَّبّ عن عِرْضه الشريف والدفاع عن سُنته، وما أكثر ما يتطاول سفهاء الكفار في عصرنا علىٰ مقام الرسول ﷺ مما تتناقله وسائل الإعلام، من استهزاء بسيرته، وسخرية ببعض أقواله أو أفعاله، وواجب علىٰ

(١) ابن كثير تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٧).

المسلم أن يستحضر مقام الدفاع عن الرسول ﷺ، وعِظَم أجر من يسهم في ذلك بما يستطيع من علم أو عمل سائغ شرعًا.

سابعًا: في قصة ليلىٰ بنت أبي حثمة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة عامر بن ربيعة -رضي الله تعالىٰ عنه- نستفيد عدم اليأس من إيمان شخص من الناس؛ لشدة عداوته أو لكثرة وقوعه في المعاصي، فإن عمر بن الخطاب ﷺ كان شديد الإيذاء للمسلمين حتىٰ جزم عامر ﷺ أنه لن يسلم حتىٰ يسلم حمار الخطاب، ومع ذلك كتب الله -سبحانه وتعالىٰ- لعمر ﷺ الهداية، بل أصبح من أقوىٰ الناس أثرًا في الإسلام.

ثامنًا: مشروعية الدعاء بالهداية لغير المسلمين، وخاصة من كان ذا تأثير وفائدة للمسلمين، فالرسول ﷺ مع فعله الأسباب، ودأبه في الدعوة إلىٰ الله، وحرصه فهو أيضًا يدعو الله -سبحانه- أن يستجيب قومه بصفة عامة، ويدعو لبعضهم بصفة خاصة بالهداية[1]، حتىٰ ولو كان هذا الشخص من أشد أعداء المسلمين وأعظمهم إيذاء.

وحينئذ فمطلوب من المسلم -من باب أولىٰ- أن يدعو بالهداية وبمزيد التوفيق لمن له حق خاص كالوالدين والأقارب، أو لمن له نفع عام بهدايته أو مزيد توفيقه كولاة الأمر، وكرجل معروف بالمكانة في المجتمع، وله تأثيره علىٰ غيره؛ فهذا يُدْعَىٰ له رجاءَ إسلام وصلاح مَن وراءَه.

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن دوسًا عصت وأبت، فادع الله عليهم، فقيل: هلكت دوس، قال: اللهم اهدِ دوسًا وائت بهم، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ١٠٧)، حديث رقم (٢٩٣٧)، وكذلك دعاء الرسول ﷺ لأم أبي هريرة -رضي الله تعالى عنهما- بالإسلام، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة»، فأسلمت كما في صحيح مسلم (٤/ ١٩٣٨) رقم (٢٤٩١).

تاسعًا: إن عداوة الكافر ليست لشخصه، وإنما لما يحمله من معتقد باطل، يدل لهذا: الدعاء له بالهداية، فإن من تبغضه لشخصه لا تحب له الخير، ومن تبغضه لأمر معين اقترن به، تبغضه لهذا الأمر، ومتىٰ تجرد من هذا الأمر عادت الولاية والمحبة.

عاشرًا: مشروعية إغاظة الكافر، وإدخال الكآبة والحزن عليه، ولكن بدون اعتداء عليه فإن عمر ﷺ بادر إلىٰ الإعلان بإسلامه، وإغاظة الكفار، والصلاة بجوار الكعبة، فأصاب قريشًا من ذلك كآبة وحزن وأسىٰ لا يُوصَف، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ويقول الله -تعالىٰ-: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

حادي عشر: معرفة الفضل لأصحابه والاعتراف لهم بذلك، فإن ابن مسعود ﷺ يذكر لعمر ﷺ فضله علىٰ المسلمين، ويذكر ذلك ويُحدّث: (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر).

ثاني عشر: إن بداية إسلام عمر ﷺ كان سببها سماعه لبعض آيات القرآن الكريم[1]؛ قال -تعالىٰ-: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]؛ أي عِظْ مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا بالقرآن[2]. وعن جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ

---

(١) انظر: تفاصيل الروايات التي وردت في قصة إسلام عمر ﷺ: في إتحاف الورى بأخبار أم القرى، للنجم عمر بن فهد (١/ ٢٧١-٢٨١)، بالإضافة إلى ما سبق أو أوردته في بداية هذا المبحث.

(٢) الجزائري، أيسر التفاسير (٥/ ١٥١).

أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]؛ قال: كاد قلبي أن يطير[١]. نقل ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن الخطابي -رحمه الله تعالىٰ- قوله: (انزعج جبير حتىٰ كاد قلبه يطير ومال إلىٰ الإسلام)[٢]. فكان سماعه للقرآن الكريم من أسباب إسلامه وهدايته. وهذا يدلّنا علىٰ عِظَم تأثير القرآن الكريم علىٰ القلوب، قال الحافظ أبو نعيم عن قصة إسلام عمر ﷺ: (وهذه القصة وإن اختلف فيها بعض الألفاظ، فقد اتفقت أن الذي أمال عمر إلىٰ الإسلام ما قرع سمعه من القرآن وأخذ بقلبه)[٣].

ولذلك علىٰ الدعاة إلىٰ الله والخطباء أن يوُلُوا هذا الجانب أهميته، فلا يسوغ خلو كلمة أو موعظة من آيات من كتاب الله الكريم، بل لا يسوغ أن تطغىٰ عبارات الواعظ علىٰ آيات القرآن الكريم لمكانته، ولعظم تأثيره في السامعين، وما أكثر ما سمعنا من تأثير الآيات الكريمة في استجابة الشخص للأوامر أو تركه للنواهي.

ثالث عشر: لما أسلم عمر ﷺ وذهب إلىٰ الرسول ﷺ في دار الأرقم وطرق عليهم الباب خاف الصحابة؛ لرؤية عمر يطرق عليهم الباب، ولم يعلموا بعدُ بإسلامه، فذهب الرسول ﷺ وفتح له الباب وجذبه من ثوبه، فأعلن عمر ﷺ شهادة أن لا له إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فلما سمع الصحابة -رضي الله عنهم- ذلك بادروا بالتكبير، وهكذا يكون المشروع عند رؤية أو سماع ما يَسرّ أن نُكبّر[٤].

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٤٠) رقم (٤٨٥٤).
(٢) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).
(٣) المرجع السابق (ص٢٨٢).
(٤) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع ابن قاسم (٨/ ١٠٩)، وعبد العزيز الحميدي، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (٢/ ١٦١).

وقد ثبت أن الرسول ﷺ لما أخبر الكفار بقصة الإسراء والمعراج كانوا «بين مُصفّق، وبين واضع يده على رأسه متعجبًا للكذب زعم!»[1]؛ فالتصفيق عند التعجب كما في هذا الموقف من فعل المشركين، وسيأتي لهذا الموضوع مزيد إيضاح وتفريق بين التصفيق في العبادات والعادات في قصة الإسراء والمعراج؛ -إن شاء الله تعالى-.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، تحقيق أحمد شاكر (٤/ ٢٩٣) رقم (٢٨٢٠)، وقال محققه: إسناده صحيح، وهو عند الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٤- ٦٥)، وقال: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح).

المبحث الثامن

فقه السيرة في المقاطعة العامة ودخول الرسول ﷺ شعب أبي طالب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر -وهو بمنىٰ-: «نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة؛ حيث تقاسموا علىٰ الكفر»، يعني بذلك المحصب[1]؛ وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت علىٰ بني هاشم وبني عبد المطلب -أو بني المطلب- ألَّا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتىٰ يُسلّموا إليهم النبي ﷺ)[2].

في هذا الحديث دلالة علىٰ أصل القصة، ويكون ما أورده أهل المغازي كالشرح لقول الرسول ﷺ السابق: «تقاسموا علىٰ الكفر»[3]، وبيان ذلك أن قريشًا لما رأت إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما وفُشُو الإسلام في القبائل، ثم تواثُق بني المطلب وبني هاشم علىٰ حياطة الرسول ﷺ، ومنعه؛ مسلمهم وكافرهم، مسلمهم إيمانًا، وكافرهم حميةً؛ لما رأت قريش ذلك اجتمعوا وتحالفوا علىٰ أن لا يُناكِحُوا بني هاشم وبني المطلب ولا يُبايعوهم ولا يكلموهم حتىٰ يسلموا إليهم رسول الله ﷺ،

---

(١) المحصب: بضم الميم وفتح الحاء المهملة وتشديد الصاد المهملة أيضًا، وآخره موحدة، ما بين منى إلى المنحنى، والمنحنى: «حد المحصب من الأبطح، فمنذ أن تخرج من منى فأنت في المحصب حتى يضيق الوادي بين العيرتين فذاك المنحنى» عاتق بن غيث البلادي، معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، الطبعة الأولى (مكة: دار مكة للنشر ١٤٠٢)، (ص٢٨٣).

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٣/ ٤٥٣) رقم (١٥٩)، واللفظ له، والإمام مسلم، صحيح مسلم (٢/ ٩٥٢) رقم (١٣١٤).

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٣).

وكتبوا بذلك صحيفة علّقوها في الكعبة[١]؛ قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلىٰ أبي طالب، وكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش[٢]، وكان ابتداء حصرهم في أول يوم من المحرم سنة سبع من البعثة[٣].

واشتد الحصار وقطع عنهم المشركون الطعام، فلم يكونوا يتركون شيئًا يصل إليهم في الشِّعب[٤]. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وبقوا محبوسين ومحصورين مُضيَّقًا عليهم جدًّا مقطوعًا عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين حتىٰ بلغهم الجهد وسُمِعَ أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشِّعب)[٥].

ويكفي أن أذكر صورة واحدة من معاناتهم في الشِّعْب، يقول السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (إنهم جهدوا حتىٰ كانوا يأكلون الخبط وورق السمر حتىٰ إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه-.. في رواية عنه أنه قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضضتها، وسففتها بالماء؛ فقويت بها ثلاثًا)[٦].

واستمر الحال علىٰ ذلك حتىٰ سعىٰ في نقض الصحيفة ورفع هذا الظلم بعض أقارب من كان في الشِّعب.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٢)، والنجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٢٨٢).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٢)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٢).

(٣) انظر: ابن حجر ، فتح الباري (٧/ ١٩٢).

(٤) هذا الشعب يسمى شعب بني هاشم، وشعب علي، وبه وُلِدَ الرسول ﷺ، وكذلك وُلِدَ علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-، ويسمى شعب أبي يوسف، واسمه الآن شعب علي. محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٥٠).

(٥) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠).

(٦) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٣/ ٢١٧).

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش علىٰ بني هاشم وبني المطلب نفرٌ من قريش، ولم يُبْلِ فيها أحدٌ أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة، وكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه، فكان -فيما بلغني- يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشِّعب ليلًا، قد أوقره طعامًا حتىٰ إذا أقبل به فم الشعب خَلَع خطامه من رأسه، ثم ضرب علىٰ جنبه، فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بَزًّا أو بُرًّا، فيفعل به مثل ذلك. ثم إنه مشىٰ إلىٰ زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام[1]، ثم دعوته إلىٰ مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا. قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتىٰ أنقضها، قال: قد وجدت رجلًا. قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا. فذهب إلىٰ المطعم بن عدي، فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد علىٰ ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا، قال ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال ابغنا رابعًا. فذهب إلىٰ البختري بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يُعين علىٰ

(١) المقصود بأبي الحكم بن هشام هو أبو جهل، وهذا يكشف أن الذي أنشأ هذه المقاطعة وجمع قريش عليها، وألَّبهم على بني هاشم هو أبو جهل، فهو لقوة شخصيته وسطوته، ومكانته في قريش، وشدة عداوته لمحمد ﷺ جعله يسعى جاهدًا للمقاطعة ويقف خلفها، ويتابع الالتزام بها ويقاتل كل من رآه يزود الذين في الشعب بالمؤونة، ويتصدى لمعارضة من سعى لنقض الصحيفة، يوم سعى بعض الأفراد لنقضها.. وقد أشرت إلى هذا فيما سبق.

هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامسًا. فذهب إلىٰ زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل علىٰ هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمَّىٰ له القوم. فاتعدوا خطم الحجون ليلًا بأعلىٰ مكة، فاجتمعوا هنالك. فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا علىٰ القيام في الصحيفة حتىٰ ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلىٰ أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل علىٰ الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكىٰ لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتىٰ تُشَق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: كذبتَ والله لا تُشَق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كُتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضىٰ ما كُتب فيها، ولا نقرّ به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلىٰ الله منها، ومما كُتِبَ فيها، قال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قُضِي بليلٍ، تُشُوِّر فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلىٰ الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم»[1].

وروي أن الله -سبحانه وتعالىٰ- أطلع رسوله ﷺ علىٰ أمر صحيفتهم، وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جَوْر وظلم وقطيعة، فأخبر بذلك عمه فأخبر كفار قريش، فلما رأوا الأمر كما أخبرهم أبو طالب زادوا كفرًا علىٰ كفرهم، وخرج الرسول ﷺ ومن معه من الشِّعب في العام العاشر من المبعث، بعد أن مكثوا في الشعب ثلاث سنوات[2].

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ١٨).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ٣٠- ٣١)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٢)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٠٢- ٥٠٦)، وقال الدكتور مهدي زرق الله أحمد في السيرة النبوية (ص ٢١٩): (ولم يرد خبر أكل الأرضة للصحيفة بسند يُحتج به).

نقف مع هذا المقطع من السيرة؛ لنستفيد منه ما يلي:

أولًا: هذا أسلوب من أساليب مواجهة كفار قريش للرسول ﷺ، وكان بالإمكان إدراجه ضمن أساليب مواجهة كفار قريش للرسول ﷺ، لكن آثرتُ إفراده، لعِظَمه، وللمشقة الكبرىٰ العامة التي حصلت به، ثم فشله، والحمد لله، فهو مواجهة أو مؤامرة جماعية من كفار قريش، ليس في مقابل الرسول ﷺ ومن آمن معه فقط، بل مع كل مَن ناصره ولو كان علىٰ دينهم، وهذا يكشف مدىٰ العداء لهذه العقيدة والخوف منها، فقد اعتبروا كل مَن يقف معها ولو كان غير موافق لها، فهو عدو لهم يستحق المقاطعة. فنتج عن ذلك الإيذاء البالغ للرسول ﷺ وللصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولنسائهم وأطفالهم وشيوخهم، وكل من ناصرهم، وحاول منع الظلم الواقع عليهم، ولو كان مشركًا. فانظر إلىٰ مدىٰ طغيان كفار قريش وعداوتهم قال تعالىٰ: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة:١٠]، وهذا يجعلنا نفهم عداوة بعض الكفار لهذا الدين وأهله في كل العصور، فليس هذا التفكير والتوجه قاصرًا علىٰ كفار قريش؛ بل شامل لكل عدو للإسلام في كل زمان ومكان.

ثانيًا: يكشف لنا هذا الحدث مدىٰ ما وصلت إليه قريش في عداوتها للرسول ﷺوأصحابه، ومدىٰ ظلمها وجورها، فلم يقتصر أذاها علىٰ أمور معدودة، بل أذىٰ شديد متواصل يمتد ثلاث سنين في شعب من الشِّعاب، في المأكل والمشرب، يشمل الصغير والكبير، والمرأة والرجل، والرضيع والشيخ الفاني، كلهم دخلوا الشِّعب وحُصروا، ومُنِعَ عنهم الطعام والشراب، فأيّ قسوة، وأيّ جور أعظم من هذا الجور والظلم؟!

الإسلام هذا الذي واجهوه بهذا العنف الشديد دين الشفقة والرحمة حتىٰ مع المخالفين، بل حتىٰ مع بعض فئات المحاربين، فعن نافع عن ابن عمر -رضي الله

تعالىٰ عنهما- أخبر أن امرأة وُجِدَتْ في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك، ونهىٰ عن قتل النساء والصبيان[1]، ونهىٰ الإسلام عن قتل الشيخ الكبير والراهب في صومعته، بل شمل الجميع بالرحمة، عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال: رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2]؛ هكذا «ارحموا من في الأرض»؛ فلم يفرّق بين مسلم وكافر.

ثالثًا: من مواقف المقاطعة هذه تتبين صورة جلية لما لاقاه الرسول ﷺ وأصحابه -رضوان الله تعالىٰ عليهم- من أذىٰ واضطهاد في دين الله.

والرسول ﷺ لا يُقدّم لأُمته الأسوة في السراء فقط، بل يقدّمها لهم في السراءِ وفي الضراء، فكما يُقْتَدَىٰ به ﷺ في السراء يُقْتَدَىٰ به في الضراء وفي مواجهة الشدائد.

رابعًا: نأخذ من هذا الموقف أن التعاون قوة، فقد كان لموقف بني هاشم وبني المطلب ودخولهم مع الرسول ﷺ في الشِّعب ومناصرتهم للرسول ﷺ، ومنهم من هو علىٰ شركه، ولكنه حمية قبلية، هذا التعاون كان له أثره في إفشال نتائج المقاطعة؛ فقد خرج المسلمون منه أقوىٰ من وقت دخولهم.

خامسًا: إن الرسول ﷺ حفظ هذا الجميل من بني المطلب، عن سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ-، أن جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه-، أخبره قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان -رضي الله تعالىٰ عنه-، إلىٰ النبي ﷺ فقلنا: أعطيت بني المطلب من خمس خيبر، وتركتنا، ونحن بمنزلة واحدة منك، فقال: «إنما بنو

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني، الألباني، صحيح سنن الترمذي (٢/ ١١٠)، حديث رقم (١٢٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني، الألباني، صحيح سنن الترمذي (٤/ ٤٢٤)، حديث رقم (١٩٢٤).

هاشم، وبنو المطلب شيء واحد»؛ قال جبير: (ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس، وبني نوفل شيئًا)(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إنّا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام، وإنما نحن وهم شيء واحد»، وشبّك بين أصابعه ﷺ(٢). قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (والحديث ظاهر في أنه أعطاهم بسبب النصرة)(٣).

سادسًا: نأخذ من ظهور أفراد من كفار قريش يستنكرون أمر المقاطعة، ويطالبون بنقض الصحيفة، ويحتجون، ويعترضون علىٰ استمرارها، أن الباطل مهما طال الزمان فسينكشف، فالأيام تزيد الحق وضوحًا، وتزيد الباطل زيفًا؛ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، ولقد انتهت المقاطعة علىٰ نحوٍ فرَّق كلمة قريش، وأوقع الخلاف والنزاع بينهم، وأظهر صبر الرسول ﷺ وأصحابه وقوتهم وثباتهم علىٰ نحو أقوىٰ مما كانوا عليه من قبل.

سابعًا: إن أهل المروءة والكرم لا يخلو منهم زمان من الأزمنة، وهؤلاء يمكن الاستفادة منهم في نصرة هذا الدين، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، فعن أبي هريرة ﷺأن الرسول ﷺ قال: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(٤). والمسلم بحاجة إلىٰ من يناصره في بعض المواقف ولو من غير المسلمين لتحقيق مطالبه، وهذا يستفيد منه الجاليات المسلمة في بلاد غير المسلمين.

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٣٧) رقم (٤٢٢٩).

(٢) أخرجه أبوداود في سننه رقم (٢٩٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٤٦).

(٤) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ١٨٩)، كتاب الجهاد، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر) رقم (٣٠٦٢)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٠٥)، حديث رقم (١٧٨).

ثامنًا: هذا الترتيب الذي قام به هشام بن عمرو بن ربيعة، وأعد له إعدادًا جيدًا في إنكار هذا المنكر العظيم، جعل أبا جهل يُسقط بيده ولا يملك شيئًا غير الاستسلام، أمام هذه الأصوات التي تتابعت مُنْكِرةً، وهو زعيم قريش وكبيرها المقدَّم، وهو حائك خيوط هذه المؤامرة، ومتولّي كِبرها، وانتهىٰ الأمر بنقض الصحيفة وتمزيق ما فيها من باطل. فيه درس مهم، وهو أنك إذا أردت عملًا فأَعِدَّ له إعدادًا جيدًا؛ فالإعداد الجيد سبيل النجاح في المشاريع، سواء أكان مشروعًا دينيًّا، تعليمًا أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو معالجة مسألة أسرية، أو خلافًا بين أقارب، فيحسن أن تهيئ لذلك بالترتيب المتقن لكي تنجح. أو مشروعًا دنيويًّا في عمل علميّ أو تجاريّ، أو نحو ذلك، عليك دائمًا بالإعداد المسبق الجيد، وكثير من ا لمشاريع تفشل بسبب الارتجال.

تاسعًا: من مقاطعة الكفار للمسلمين نرىٰ صورة من صور الحرب التي كانت تكيدها قريش للرسول ﷺ، وهي الحرب الاقتصادية، فكفار مكة حينما أرادوا أن يحاربوا النبي ﷺ لم يحاربوه بالسلاح فقط، وإنما كانت حربهم له حربًا اقتصاديَّة بالمقاطعة، قاطعوه وقاطعوا أهله وقبيلته ومن تابعه، بيعًا وشراءً وتزويجًا، بل وتجاوزوا ذلك، ومنعوا من يريد أن يوصلهم طعامًا بيعًا أو بلا ثمن، والمسلمون أولىٰ أن يعرفوا قيمة هذه الحرب، وأن يقاطعوا كلّ أعداء الله المحاربين للمسلمين، وليس بالضرورة أن يكون جهاد الأعداء المحاربين للمسلمين بالسلاح، فعلىٰ الأقل بالمقاطعة الاقتصادية في كل ما ينفعهم اقتصاديًّا أو ماديًّا أو تجاريًّا؛ لأن عدم المقاطعة مع العدو المحارب للمسلمين مؤدّاه التأييد المادي لحربه للمسلمين، ولا يكون المسلم عونًا لكافر في حرب علىٰ المسلمين.

وهذا يختلف عن منع الطعام والشراب عن الأطفال والنساء، الذي فعلته قريش؛ إذ الذي فعلته قريش أن حالت بين كل مَن يريد مدّ الطعام والشراب للرسول ﷺ

ومن معه، من التجار وغيرهم حتىٰ ولو من خارج مكة، أما المقاطعة الاقتصادية أن لا نبيع عليهم، أو لا نشتري منهم؛ لأن أموالنا لا يصلح أن نسلمها للعدو ليستخدمها ضدنا، ولا شأن لنا بغيرنا إذا باع معهم أو اشترىٰ.

وهذا ثمامة بن أثال -رضي الله تعالىٰ عنه- كان من زعماء نجد؛ لما أسلم استخدم الحرب الاقتصادية ضد قريش، وقدم إلىٰ مكة معتمرًا؛ فقال له قائل: صبوتَ، قال: (لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتىٰ يأذن فيها النبي ﷺ)[1].

عاشرًا: مكث الرسول ﷺ في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات هو ومن أسلم معه، ومن معهم من بني هاشم وبني المطلب، ولا شك أنه كان في هذه المدة يدعو الله -سبحانه وتعالىٰ- بالفرج من هذه الضائقة الشديدة عليه وعلىٰ من معه من مسلم وكافر، ولم يتحقق الفرج إلا بعد ثلاث سنوات، فلا تستبطئ الإجابة عندما تدعو، وثِقْ بالله -سبحانه وتعالىٰ-، وأَحْسِن الظن به، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يُستجَب لي»[2]. فلا تستعجل وأَبْشِر بالاستجابة لك.

---

(١) متفق عليه: الإمام البخاري (٥/ ١٧٠) رقم (٤٣٧٢). ومسلم (٣/ ١٣٨٦) رقم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري «صحيح البخاري» (٨/ ٧٤ ط السلطانية)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٥) رقم (٢٧٣٥).

المبحث التاسع

وفاة أم المؤمنين سيدة نساء العالمين خديجة -رضي الله عنها- ووفاة أبي طالب في هذا الوقت من الدعوة

بعد خروج الرسول ﷺ ومن معه من الشِّعب استمر في دعوته، لا يعوقه عنها عائق من عوائق الشرك التي يكيده بها كفار قريش، وكان أبو طالب ماضيًا في مناصرته، وفي مقابل ذلك كان الرسول ﷺ إذا عاد إلىٰ بيته من بعد العناء والتعب يجد مَن يُثبّته، ويُعينه علىٰ نشاط مُتجدّد في يومه الجديد.

فكان وجود هذين الشخصين؛ -زوجته خديجة رضي الله تعالىٰ عنها، وعمه أبو طالب- نافعًا أيما نفع للرسول ﷺ، ولأجل ذلك جمعت بينهما في الحديث في هذا المبحث؛ باعتبار أن نفعهما للرسول ﷺ كان يتكامل، فخديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، كانت وظيفتها المساندة الداخلية، ووظيفة أبي طالب المساندة الخارجية، وقد قدَّر الله -جلّ شأنه- أن يكون زمان رحيلهما متقاربًا، فتتابعت علىٰ رسول الله ﷺ المصائب بوفاتهما[1].

■ أولًا: أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالى عنها-:

سبق أن تحدثت عن شيء من فضائلها عند الحديث عن زواج الرسول ﷺ بها، وأُضيف الآن أنها كانت من نِعَم الله الجليلة علىٰ الرسول ﷺ بمواقفها العظيمة طيلة

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٩٤).

حياة الرسول معها التي امتدت لخمس وعشرين سنة ابتدأت بزواجهما قبل البعثة بخمسة عشر عامًا إلىٰ السنة العاشرة بعدها.

فقد وقفتْ معه بنفسها، وواسته بمالها، وكانت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- تُدعىٰ في الجاهلية «الطاهرة»، وكانت وزيرة صدق علىٰ الإسلام، وكان ﷺ يسكن إليها. ورُزِقَ منها الأولاد، كانت امرأة جليلة سديدة الرأي مُوفَّقة مباركة.

قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (سيدة نساء العالمين في زمانها؛ أم القاسم، ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلاب القرشية، الأسدية. أم أولاد رسول الله ﷺ، وأول من آمن به، وصدَّقه قبل كل أحد، وثبَّتت جأشه، ومضت به إلىٰ ابن عمها ورقة، ومناقبها جمة. وهي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة، جليلة، ديِّنة، مصونة، كريمة، من أهل الجنة، وكان النبي ﷺ يُثني عليها، ويُفضّلها علىٰ سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها، بحيث إنَّ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- كانت تقول: (ما غرتُ من امرأة ما غرت من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، من كثرة ذِكْر النبي ﷺ لها)، ومن كرامتها عليه ﷺ أنها لم يتزوج امرأة قبلها، وجاءه منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرَّىٰ إلىٰ أن قضت نحبها، فوجد لفقدها؛ فإنها كانت نِعْم القرين. وكانت تنفق عليه من مالها، ويتَّجر هو ﷺ لها. وقد أمره الله أن يبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صَخَب فيه ولا نصب)[1].

عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلىٰ المدينة بثلاث سنين)[2]. ودُفِنَتْ -رضي الله تعالىٰ عنها- بمقبرة الحجون بمكة. وقد حزن الرسول ﷺ لوفاتها ولزم بيته وقلل من الخروج[3].

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩-١١٠).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٥٦) رقم (٣٨٩٦).
(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢١١).

قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال حكيم بن حزام: توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتىٰ دفناها بالحجون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذ سنة الجنازة الصلاة عليها)(١).

فضل خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-:

أولًا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»(٢).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وبادَر إلىٰ الاستجابة له ﷺ صِدِّيقة النساء: خديجة بنت خويلد، وقامت بأعباء الصّدّيقية، وقال لها: «لقد خشيت علىٰ نفسي، فقالت له: أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا»، ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة والأخلاق والشِّيَم علىٰ أن من كان كذلك لا يُخزَىٰ أبدًا، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشِّيَم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركَّبه الله علىٰ أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق والأعمال، إنما يَليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركَّبه علىٰ أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يَليق به ما يناسبها، وبهذا العقل والصِّدِّيقية استحقت أن يرسل إليها ربها بالسلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد ﷺ)(٣).

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٥).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٣٩) رقم (٣٨٢٠)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٧) رقم (٢٤٣٢).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٧).

ثانيًا: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما غرتُ علىٰ أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت علىٰ خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد»)(١).

يكفي من شرفها أنها لما جاءها الرسول ﷺ بعد نزول الوحي وخاف علىٰ نفسه: أنها قالت له: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتَصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين علىٰ نوائب الحق). فقد استدلت بعقلها علىٰ أن من جعل الله فيه هذه المحاسن والمكارم التي جعلها من أعظم أسباب السعادة لم تكن من سُنة الله وحكمته وعدله أن يُخزيه بل يكرمه ويعظّمه، فإنه قد عرف من سنة الله في عباده وإكرامه لأهل الخير وإهانته لأهل الشر(٢).

وقال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (خديجة نفعته في أول الإسلام نفعًا لم يقم غيرها فيه مقامها، فكانت خيرًا له من هذا الوجه؛ لكونها نفعته وقت الحاجة)(٣).

ثالثًا: عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة»(٤).

قال الإمام النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها)(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٣٨) رقم (٣٨١٨).

(٢) ابن تيمية، الصفدية (١/ ٢٢٥).

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة (٤/ ٣٠٣).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٦٤) رقم (٣٤٣٢)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦) رقم (٢٤٣٠).

(٥) النووي، شرح صحيح مسلم.

رابعًا: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (لم يتزوج النبي ﷺ علىٰ خديجة حتىٰ ماتت)(١).

خامسًا: عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة علىٰ رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: «اللهم هالة بنت خويلد»؛ فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها)(٢).

سادسًا: قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ولها خصائص -رضي الله تعالىٰ عنها-:

- منها أنه ﷺ لم يتزوج عليها غيرها.
- ومنها أن أولاده ﷺ كلهم منها؛ إلا إبراهيم -عليه السلام- فإنه من سُرّيته مارية -رضي الله تعالىٰ عنها-.
- ومنها أنها خير نساء الأمة.
- ومن خصائصها أن الله -سبحانه- بعث إليها السلام مع جبريل -عليه السلام-؛ فبلَّغها رسول الله ﷺ ذلك.
- ومن خصائصها رضي الله عنها أنها لم تسؤه قط، ولم تُغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء ولا عتب قط ولا هَجْر، وكفىٰ به مَنْقَبة وفضيلة.
- ومن خواصها أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٩) رقم (٢٤٣٦).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٣٩) رقم (٣٨٢١)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٩) رقم (٢٤٣٧).

(٣) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام (٢٣٦-٢٣٧) باختصار.

■ ثانيًا: وفاة أبي طالب:

مما زاد في ألم المصاب بخديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها توفيت هي وأبو طالب في زمن متقارب، ذكر الواقدي -رحمه الله تعالىٰ- أنهم خرجوا من الشِّعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وأن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- وأبو طالب توفيا في ذلك العام، وتوفيت خديجة قبل أبي طالب بخمسة وثلاثين يومًا. وذكر أبو عبد الله الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- أن موتها كان بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام، وكذا قال غيره[(١)].

لما اشتكىٰ أبو طالب وبلغ قريشًا خبرُ مرضه، وقد أسلم حمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وفشا أمر الرسول ﷺ في قبائل قريش، مشىٰ وفد من قريش إلىٰ أبي طالب، وقالوا له: يا أبا طالب! إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترىٰ وتخوّفنا عليك، وطلبوا من أبي طالب أن يَكُفّ محمد ﷺ عن دعوتهم، فلما حضر الرسول ﷺ قال: أدعوهم إلىٰ أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم، فقال أبو جهل ما هي؟ وأبيك نعطيك عشر كلمات قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دون الله، فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا، فنزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:١-٧][(٢)].

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٩٤).

(٢) انظر: سنن الترمذي (٥/ ٤٤)، حديث (٣٢٨٥)، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح. وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، وقال: (ضعيف الإسناد)، (ص ٤٠٩) رقم (٦٣٦)، والآيات من أول سورة ص.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة». قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله علىٰ ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦][1].

وعن ابن المسيب عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنه-: (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة[2]؛ فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: لا إله إلا الله؛ كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويُعيد له تلك المقالة حتىٰ قال آخر ما كلمهم: هو علىٰ ملة عبد المطلب، وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك، ما لم أُنْهَ عنك»؛ فأنزل الله -تعالىٰ-: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾، وأنزل الله -تعالىٰ- في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[3].

وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يَحوطك ويغضب لك؟، قال: «هو في ضحضاح[4] من النار، ولولا أنا لكان في

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٥) رقم (الحديث (٢٥).

(٢) هو: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهو أخو أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- التي تزوجها النبي ﷺ بعد ذلك، وقد أسلم عبد الله هذا يوم الفتح، واستشهد في تلك السنة في غزاة حنين. انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٥).

(٣) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، حديث رقم (٣٨٨٤)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٤) رقم (٣٩) واللفظ له.

(٤) الضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب، وهو هنا استعارة والمعنى أنه خفّف عنه العذاب. انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٤).

الدرك الأسفل من النار»[١].

وعن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»[٢].

وكان موت أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة[٣]، وعمره حينئذ بضع وثمانون سنة[٤] وكان يذبُّ عن النبي ﷺ، ويرد عنه كلّ مَن يؤذيه، وهو مقيم مع ذلك علىٰ دين قومه ومات علىٰ ذلك[٥].

لما توفيت أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وتوفي أبو طالب، اجتمع علىٰ رسول الله ﷺ مصيبتان، افتقد الأنيس والمعين والمُواسِي في بيته. ونالت منه قريش ما لم تكن تنال، ولا تطمع به في حياة أبي طالب[٦].

نقف مع هذا الجزء من السيرة؛ لنأخذ منه الفوائد التالية:

أولًا: إن من أعظم النِّعم التوفيق للزوجة الصالحة، فهي العون بعد الله -جل شأنه- علىٰ مواجهة أعباء الحياة، وعلىٰ تربية الأولاد، وعلىٰ إصلاح البيت، وفي مواقف خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- درس للشباب في حسن اختيار الزوجة، وأثر ذلك علىٰ مستقبل حياة الزوج.

(١) أخرجه البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، حديث رقم (٣٨٨٣).
(٢) أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٩٦)، حديث رقم (٣٦٢).
(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٤)، وابن حجر، الإصابة (٧/ ١١٥ – ١١٦)، وقال في الفتح: (في آخر السنة العاشرة).
(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٧/ ١١٦).
(٥) يدل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي مرت والتي ذكرت أنه في النار وأنه لولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله.
(٦) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢١١).

ثانيًا: إن في أمّ المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أسوة حسنة لنسائنا، في التعامل مع الزوج، وكم أتمنىٰ لو أن سيرتها تقرّر في مدارس البنات، وأن الآباء والأمهات يُعلّمون بناتهم قبل الزواج هذه السيرة العطرة، فإنَّ قصص السيرة الواقعية تزرع في النفوس أخلاقًا وآدابًا عظيمة، لا تصل إليه النصوص المجردة.

ثالثًا: هذه الفضائل العظيمة الباهرة التي تجمعت في أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، هي من فضل الله وتوفيقه، وهي بعد توفيق الله تعالىٰ نتاج عمل وإخلاص، ولا يمنع أن يتوافر شيء منها في غيرها، وفضل الله واسع، وعطاؤه عميم عظيم، فلماذا لا يسعىٰ الإنسان لكسب شيء من هذه الفضائل بالعمل الصالح، ولن يضيع عند الله شيء؛ بل قد قال -جل شأنه- كما في الحديث القدسي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ يرويه عن ربه، قال: «إذا تقرب العبد إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني مشيًا أتيته هرولة»[1].

رابعًا: وفاء الرسول ﷺ لزوجته خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- في حياتها وبعد موتها، أما في حياتها، فلم يتزوج عليها أخرىٰ ولم يَتَسَرَّ؛ اكتفاءً بها -رضي الله تعالىٰ عنها-، وأما بعد موتها -رضي الله تعالىٰ عنها- فكثرة ذِكْرها والثناء عليها وإعلانه محبّته لها ورعايته لأقاربها وصاحباتها، وفي هذا درس لكل مسلم في الوفاء؛ فالشخص إذا رزقه الله زوجة صالحة تقيةً قامت به، ونصحت له وأدت حقوقه، فإن من الوفاء أن لا يدخل عليها ضرة تؤذيها، قال الإمام الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها، وجاءه منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرَّىٰ إلىٰ أن قضت نحبها)[2]. وقال محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت إقامتها معه خمسًا وعشرين سنة علىٰ الصحيح، وقد أفنىٰ زهرة

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٥٧) رقم (٧٥٣٦)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٧) رقم (٢٦٧٥).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩-١١٠).

الشباب، وميعة الكهولة، ولم يشأ أن يتزوج عليها؛ وفاءً لها وتقديرًا لخدماتها، وحرصًا علىٰ عدم تكدير خاطرها، وإيلام نفسها بإدخال ضرّة عليها مهما كانت، فقد هيَّأت له ﷺ كل أسباب الراحة النفسية، والبدنية، والمالية، والمعيشية، فكان صُنْع رسول الله معها ردًّا للجميل بمثله أو بأكثر منه)[١].

وإن من أشد ما يُؤلم المرأة وينغّص عليها سعادتها؛ بل حياتها، أن تكون لها ضرة، خاصةً إذا كانت ناصحة صالحة قائمة بحقوق زوجها، ثم تُفاجَأ به لوفرة مالٍ يُدْخِل عليها ضرة تُنكّد عليها حياتها، ومن حقها علىٰ زوجها ألَّا يتسبَّب في إيذائها، ولو كان ما يفعله حقًّا من حقوقه، فليس من الوفاء أن يمارس حقوقه بما يؤذي إيذاءً بالغًا مَن أحسن إليه سنوات عمر مديد، ولو احتسب الأجر، واعتبر ذلك إكرامًا لزوجته فيُرْجَىٰ أن يكون مأجورًا مثابًا.

وكذلك الوفاء بعد الممات هو من حُسْن العهد، و«حسن العهد من الإيمان»[٢]. قال النووي -رحمه الله تعالىٰ- تعليقًا علىٰ عناية الرسول ﷺ بأقارب خديجة -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد وفاتها: (وفي هذا كله دليل لحُسْن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب)[٣]. خاصةً أننا إذا استحضرنا أن هذا الوفاء من الرسول ﷺ لخديجة كان في المدينة، أي بعد عدة سنوات من وفاتها -رضي الله تعالىٰ عنها-. وغالبًا -عند كثير من الناس- ما يخبو ويفتر هذا الاهتمام بمُضِي السنوات.

---

(١) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) رقم (٤٠) من حديث عاشة -رضي الله تعالى عنها-، وقال الذهبي: «على شرطهما وليست له علة»، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٥٦)، وبوَّب به البخاري في صحيحه (٨/ ٨): (باب حسن العهد من الإيمان)، وذكر فيه حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «ما غرت على أحد ما غرت على خديجة.. الحديث..».

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٠٢).

خامسًا: عِظَم مُصاب الرسول ﷺ بوفاة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها-، فعلىٰ قدر مكانتها في حياته كانت مصيبته بها في وفاتها، فقد كان يجد المعين المواسي له إذا عاد إلىٰ بيته، وتزداد المصيبة بها، إذا استحضرنا أن في بيته ﷺ بنتين لم يتزوجا بحاجة إلىٰ رعاية، وهما أم كلثوم وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وأن أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها- عمرها ثلاثة عشر عامًا، وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- عمرها عند وفاة أمها قرابة أحد عشر عامًا فقط. وتزامن -أيضًا- وفاتها مع وفاة عمه أبي طالب، فتجمعت المصائب علىٰ رسول الله ﷺ، ولا شك أن لله في ذلك حكمة، لرفعة نبيه ﷺ ولتتأسىٰ به الأُمَّة، وتعلم أن الدنيا دار ممر، وأنها زاد للآخرة، فيها الصبر والاحتساب في المصائب، كما فيها الصبر علىٰ الطاعات، وقد قال -تعالىٰ-: ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ:١٧].

سادسًا: عِظَم هذه الكلمة (لا إله إلا الله) التي تدين بها العرب والعجم، ويحاجّ بها الرسول ﷺ لعمه لو قالها، هذه الكلمة هي شهادة التوحيد التي هي إفراد الله بالعبادة، فمن أفرد الله -سبحانه وتعالىٰ- بالعبادة؛ فقد استراح من عبودية الخلق والنظر إلىٰ ما في أيديهم؛ (وتحقيق التوحيد هو معرفته، والاطلاع علىٰ حقيقته والقيام بها علمًا وعملًا، وحقيقة ذلك انجذاب الروح إلىٰ الله محبةً وخوفًا وإنابةً وتوكلًا ودعاءً وإخلاصًا وإجلالًا وهيبةً، وتعظيمًا وعبادةً، وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله، ولا إرادة لما حرّم الله، ولا كراهة لما أمر الله؛ وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله)[(١)].

سابعًا: إن هذه الكلمة (لا إله إلا الله) هي الفيصل؛ فمن جاء بها يوم القيامة سلم له بقية أعماله، وهو من أهل الجنة علىٰ قَدْر عمله الصالح، ومن جاء يوم القيامة وقد

---

(١) الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص ٩٩).

أبَىٰ أن يلتزم بها، وكان في قلبه تأليهًا لغير الله كائنًا من كان، فلا قيمة لعمله، ولو جاء بمثل الجبال حسنات، انظر لحال أبي طالب لما أبَىٰ أن يقولها ويلتزم بها، لم ينفعه عمله، مع أن له أعمالًا عظيمةً في نصرة الرسول ﷺ والذَّبّ عنه علىٰ مدىٰ عشر سنوات شداد، تحمَّل فيها الشيء الكثير من أجل مَنْع قريش من إيذاء الرسول ﷺ، ودخل معه الشِّعب ثلاث سنوات عجاف، كل ذلك لم ينفعه لأنه لم يكن موحدًا، وهذا درسٌ عظيمٌ لنا جميعًا، فلا يغرّك عملك مهما كان، إذا لم تكن موحدًا، مفردًا له بالعبادة، سليمًا من أن يكون في قلبك تأليه لغير الله -سبحانه وتعالىٰ-، ناجٍ من أن يتعلق قلبك بوليّ، أو شخص مسؤول تظن أنه سينفعك، فأساس العبادة التوحيد، فلو كان الشخص حافظًا للقرآن، ويقول ليله ويصوم نهاره، وهو غير مُوحّد، قلبه مُعلّق بغير الله، يُؤلّه غير الله -سبحانه وتعالىٰ-، يرجو ويخاف ويحب ويتذلل لغير الله فلا قيمة لذاك العمل ولو كثر. ودرس أبي طالب درس عظيم لنا في فقه أهمية التوحيد ومنزلته في قبول العمل وردِّه.

ثامنًا: من موقف الكفار حينما قبلوا إعطاء الكلمة التي طلبها الرسول ﷺ، فلما أدركوا أن المطلوب هو قول: (لا إله إلا الله) نكلوا وتراجعوا، وقالوا: أتريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ فهم يدركون معناها، ويعلمون ما يترتب علىٰ القول بذلك من ترك الأوثان التي يطوفون حولها ويدعونها من دون الله.

فهؤلاء المشركون أعرف بهذه الكلمة من كثير من الناس الذين يقولون: «لا إله إلا الله»، ثم ينقضونها بعملهم، حينما يطوفون حول القبور أو يدعونها أو يقدمون لها القرابين أو يرجون نَفْعها أو يخافون ضرّها، بل مِن هؤلاء مَن يطوف حول القبر، وهو يقول: «لا إله إلا الله»، ولا يدري مدىٰ التناقض بين القول والعمل. التوحيد هو خلاصته دعوة الأنبياء كافة، من جاء به نجا، ومن أشرك بالله فإن الله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

تاسعًا: إن القارئ للسيرة ليعجب من موقف أبي طالب هذا، كيف كان يعرف صدق محمد ويدافع عنه ويُعرّض نفسه للمتاعب، ويستمر مع ذلك علىٰ شركه؟! يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وخالفه في ذلك عمّه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول الله ﷺ أحب خلق الله إليه طبعًا، وكان يحنو عليه، ويُحسن إليه ويُدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك مع أنه علىٰ دينهم وعلىٰ خلتهم؛ إلا أن الله -تعالىٰ- قد امتحن قلبه بحبّه حبًّا طبعيًّا لا شرعيًّا، وكان استمراره علىٰ دين قومه من حكمة الله -تعالىٰ- ومما صنَعه لرسول الله ﷺ من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولاجترؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨])[1].

يؤيد هذا قول كفار قريش السابق لأبي طالب: «فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه»، ولعل بذلك يتضح شيء من الحكمة في بقائه علىٰ دين آبائه، وموته علىٰ ذلك، رغم ما قام به من نصرة ودفاع عن الرسول ﷺ.

وتأمل قول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في موضع آخر في شأن أبي طالب: (كان يصد الناس عن أذية رسول الله ﷺ وأصحابه، بكل ما يقدر عليه من فِعَال ومقال، ونفس ومال، ولكن مع هذا لم يُقدّر الله له الإيمان; لما له -تعالىٰ- في ذلك من الحكمة العظيمة، والحجة القاطعة البالغة الدامغة، التي يجب الإيمان بها والتسليم لها، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طالب وترحمنا عليه)[2].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٠٤)، و(٣/ ٤١)، وانظر: الشيخ محمد بن عثيمين ، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٧٦).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٣١٥).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه علىٰ دين قومه؛ لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها)[1]؛ يعني بذلك أبا طالب.

عاشرًا: في حرص الرسول ﷺ علىٰ هداية عمه، وموت أبي طالب علىٰ الشرك دليل علىٰ أن الرسول ﷺ لا يملك لأحد شيئًا، ومن باب أولىٰ: الأولياء والصالحون، هذا وَهُم أحياء، فكيف إذا ماتوا. قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن حكمة الرب -تعالىٰ- في عدم هداية أبي طالب إلىٰ الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ -الذي هو أفضل خلقه- من هداية القلوب وتفريج الكروب; ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء; لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول! وأرشد العباد إلىٰ ما يدلهم علىٰ معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده)[2]. فلا يتعلق قلبك بغير الله -جل شأنه-، لا تلجأ لغيره في تفريج كرب، أو تنفيس همّ أو كشف غمّ، أو مغفرة ذنب أو نجاة من عذاب. وهذا هو الذي فيه عزّك وشرفك ورفعتك في الدنيا والآخرة.

حادي عشر: لقد حرص الرسول ﷺ علىٰ عمّه، وبذل ما استطاع من جهد لهدايته، ولكن في اللحظات الأخيرة حضر جليس السوء، فكان كلما دعا الرسول ﷺ عمه لقول: لا إله إلا الله، ذكَّره جلساء السوء ملة عبد المطلب، فأصرَّ عليها، وتمسَّك بها، ومات عليها، ولم يقل: لا إله إلا الله، وأي حرمان أشد من هذا الحرمان!! بسبب جلساء السوء الذين كثيرًا ما أضلوا وأفسدوا دون أن يشعر المجتمع بأثرهم إلا

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٢).

(٢) عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (بيروت: دار ابن حزم ١٤٣٣)، (١٩١-١٩٢).

بعد فوات الأوان؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

ثاني عشر: قاتل الله أصحاب السوء، فهم يُجرِمُون في حقّ مَن يصاحبون، وبقدر ما كان لأهل السوء من أثر في الختام السيئ لأبي طالب فقد كان للعادات والتقاليد أثرها في ميتته علىٰ الشرك[1]، وقد صرَّح بهذا الأثر عندما قال للنبي ﷺ: (لولا أن تُعيّرني قريش لأقررت بها عينك)؛ كما مر قبل قليل.

ثالث عشر: إن العبرة بالخواتيم، فأبو طالب مع كفره طول عمره الذي تجاوز الثمانين عامًا، لو ختم له بالتوحيد لكان الحكم له، وهذا يذكّرنا بأهمية الخاتمة فإن العِبْرة بها، ومن أدرك قيمة الخاتمة في حياته لم يَقترف معصيةً؛ خشيةَ أن يُختَم عمره بها؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]. ولأكثَرَ مِن سؤال الله -جل شأنه- الخاتمة الحسنىٰ في دعائه دائمًا.

رابع عشر: مضرة تقليد الآباء والأجداد والتأسي بما كانوا عليه من عادات وتقاليد دون ضابط من الشرع، وأبو طالب كلما دعاه الرسول ﷺ إلىٰ الإسلام أجاب بالتمسك بما عليه الآباء والأجداد؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢]. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وما علىٰ العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يُوطّن نفسه علىٰ مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع وعن فلاحه وفوزه ممنوع)[2].

(١) انظر: سليمان العودة، السيرة النبوية في الصحيحين عند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي (ص ١٩٩).
(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٦)، (١/ ١٦٥).

خامس عشر: إن الهداية بيد الله -سبحانه وتعالىٰ-، وليست بيد أحد من البشر، وليس علىٰ الشخص إلا أن يبذل جهده، أما التوفيق للخير فهذا بيد الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ فمسؤولية المسلم هي هداية الدلالة والإرشاد كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، وليس عليه هداية التوفيق كما قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]. وفي هذا عزاء للمسلم حينما يرىٰ أحيانًا جهوده تذهب سدًىٰ، فيُذَكَّر بموقف الرسول ﷺ مع أبي طالب الذي دعاه وكرر الدعوة، ولكن لم يستجب ولم يكتب له الفلاح.

سادس عشر: شدة عذاب النار فأبو طالب في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه يغلي من حرّها دماغه، ومع ذلك فهو أهون أهل النار عذابًا، فكيف بما فوق ذلك؟! ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات ٥٠-٥١]

سابع عشر: إن أبا طالب مات علىٰ الكفر، يدل لذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، قال النووي: (أجمع المفسرون علىٰ أنها نزلت في أبىٰ طالب)(١)، ولقوله -تعالىٰ-: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]؛ فقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت لما قال الرسول ﷺ عن أبي طالب: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»(٢).

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٥).

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣) رقم (٣٨٨٤)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٤) رقم (٣٩)، وسبق إيراده كاملًا قبل عدة صفحات.

ثامن عشر: في هذه القصة دلالة علىٰ صحة إسلام أو توبة من حضرته الوفاة، فلولا أن الإسلام يصح منه ما طلبه منه الرسول ﷺ، وذلك قبل المعاينة والنزاع، ولو كان في حال المعاينة والنزاع لما نفعه الإيمان؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٨].

تاسع عشر: جاء في الحديث الذي سبق الإشارة إليه: (قال أبو طالب آخر ما كلمهم به هو علىٰ ملة عبد المطلب)؛ قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (فهذا من أحسن الآداب والتصرفات، وهو أن من حكىٰ قول غيره القبيح أتىٰ به بضمير الغيبة؛ لقبح صورة لفظه الواقع)[1].

العشرون: حقوق الأقارب ظاهرة في هذه القصة، فقد بذل الرسول ﷺ مزيد اعتناء وحرص علىٰ إسلام أبي طالب؛ وذلك لقرابته منه ﷺ، وحق القريب أكثر من حق غيره، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٦]، وقال -تعالىٰ- للرسول ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]؛ فعلىٰ المسلم أن يُعطي أقاربه مزيد عناية واهتمام بالدعوة والتوجيه والنصح، ونحن نرىٰ بعض الناس لهم جهود في الدعوة إلىٰ الله، لكنهم مع أقاربهم في غفلة كبيرة، ومثله بعض الأغنياء تجده جوادًا مع الفقراء والمساكين، غافلًا عن حقوق أقاربه المالية، ولو لم يكونوا فقراء، كما هو واضح من نص الآية السابقة، وهذا من التقصير الذي ينبغي أن ينتبه إليه؛ ليتم تلافيه.

الواحدة والعشرون: الوفاء من الرسول ﷺ لأبي طالب الذي ساند الرسول ﷺ، وكانت له المواقف الكثيرة التي يُحْمَد عليها، ولما سأل العباس ﷺ رسول الله ﷺ عن نفع الرسول ﷺ لأبي طالب مقابل ذلك، بيَّن الرسول ﷺ لعمه أنه لم يَنْس هذا

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٤).

الصنيع، وأنه قد شفع له شفاعة خاصة[1] جعلته في ضحضاح من النار، وهو أهون أهل النار عذابًا، ولولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار[2].

وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم من الوفاء لأصحاب الفضل والاعتراف لهم بالجميل والسعي في مكافأتهم بما يسوغ شرعًا كالدعاء، وفق استطاعته.

الثانية والعشرون: إن سبب التخفيف عن أبي طالب مع أنه مات مشركًا إنما هو النبي ﷺ (أي شفاعته)، وليس عمل أبي طالب، فلا تعارض حينئذ بين حديث شفاعته ﷺ لعمه وبين بطلان عمل المشركين.

فالتخفيف هنا خصوصية للرسول ﷺ وكرامة أكرمه الله بها -جل شأنه-؛ حيث قبل شفاعته في عمه أبي طالب، وقد مات على الشرك، والله يختص بفضله من يشاء، ومن أحق بذلك من رسول الله ﷺ سيد الأنبياء -عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم-؟[3].

الثالثة والعشرون: نعمة الإيمان هبة من الله -سبحانه وتعالىٰ- يهبها لمن يشاء فضلًا منه -جل شأنه- وإحسانًا، ويُحرَم منها مَن لم تُكتب له الهداية؛ يقول السيوطي -رحمه الله تعالىٰ-: (زيد بن حارثة، كان فتىً من كلب[4]؛ فسبَاه بعض العرب، وباعه من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ فوهبته للنبي ﷺ فتبنَّاه، فكان يقال له: زيد بن محمد، حتىٰ نزلت هذه الآية[5]. فسبحان من قاده بسلاسل العناية؛ واحد من كلب، وآخر من الحبشة، -يقصد بلالاً رضي الله تعالىٰ عنه- وآخر من

(١) انظر: ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٧٥).
(٢) سبق تخريج هذه الأحاديث في بداية هذا المبحث.
(٣) انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المجلد الأول، حديث رقم (٥٥).
(٤) كلب: قبيلة مشهورة من قبائل العرب.
(٥) يقصد قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥].

الروم، -يقصد صهيبًا[1] رضي الله تعالىٰ عنه-، وآخر من فارس -يقصد سلمان رضي الله تعالىٰ عنه-، وأبو طالب واقف علىٰ الباب ينصره ويذبّ عنه، وحُرم من الدخول، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، لا إله إلا أنت)[2].

وهذا درس عظيم يُوقظ قلوبنا لعظيم نعمة الله علينا بهدايتنا للإيمان، ونحن نرىٰ كثرة الأمم حولنا في ضلال مبين، محرومون من نور الهداية لربهم. فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]، ومعرفة قيمة النعمة يدعو إلىٰ التمسك بها والحرص عليها والدعاء ببقائها ونمائها. فاللهم أحيينا مؤمنين، وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، واختم لنا بالرضوان يا رب العالمين، ورحم الله عبدًا قال آمين.

الرابعة والعشرون: ولعل من حكمة وفاة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- في هذا الوقت من الدعوة، بعد الخروج مباشرة من الشعب واشتداد أمر العداء من قريش، ومصاحبة ذلك وفاة أبي طالب في ذات الزمن، أن يعلم المسلم أن الناصر هو الله، والحافظ هو الله -جل شأنه- فلا يتعلق قلب أحد بغير الله -سبحانه وتعالىٰ-، ولا يَقُلْ داعية في يوم من الأيام: أنا ليس عندي زوجة تواسيني، ولا عمّ يقف معي وينصرني، فقد ذهب هؤلاء وتركوا الرسول ﷺ، ومع ذلك مضىٰ ﷺ في دعوته يَعْرضها علىٰ أهل مكة وعلىٰ القبائل الوافدة إليها، ويخرج إلىٰ الطائف، رغم وفاتهما وخروجهما من حياته اليومية.

---

(١) صهيب بن سنان من بني زيد مناة بن النمر بن قاسط النمريّ، أبو يحيى. قيل له الرّوميّ؛ لأن الرّوم سبوه صغيرًا، ثم باعوه حتى وصل إلى مكة رقيقًا. ابن حجر، الإصابة (٣/ ٣٦٤).

(٢) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية: بيروت ١٤٠٨)، (٢/ ١٨).

الخامسة والعشرون: لعل -أيضًا- من حكمة تزامُن وفاة خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- مع وفاة أبي طالب تبيين أن هذه دعوة ربانية، لا تتأثر بالبشر، فيموت الداعية، أو يموت من ينصر الدعاة، وتمضي الدعوة كما هي، الله يحفظها ويحفظ أهلها وينصرهم. فلا تتعود القلوب أن تتعلق بشخصٍ ما، أو تظن أن الدعوة ماضية ببقائه، وتهتز أو تتعثر بذهابه، فالتعلق بالله في كل الأحوال، وخلوص القلوب من الالتفات والركون إلىٰ الناس مطلب عقدي مهمّ، ثم إن هذه ميزة الدعوة الربانية عن سائر الدعوات البشرية التي تنتهي بنهاية أصحابها.

السادسة والعشرون: تزامن وفاة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- ، مع وفاة أبي طالب، وشتان بين مآل كلّ منهما، خديجة -رضي الله تعالىٰ عنه- ينتظرها بيت من قصب، أي من لؤلؤ مجوف[(١)]، لا صَخب فيه ولا نصب -كما سبق في الحديث-، وأبو طالب أخبرنا الرسول ﷺ أنه «في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه»[(٢)]، وهم عاشوا في بيئة وإمكانات واحدة، والأمر كله بيد الله، والسعيد من جد وعمل، ودعا الله أن يُحسن مآله ويجعله من عباده الصالحين، فاللهم اجعلنا من أهل السعادة، يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، ووالدينا وذرياتنا.

السابعة والعشرون: عُرف هذا العام عند بعض المتأخرين بـ«عام الحزن»؛ بسبب أنه شهد وفاة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة رسول الله ﷺ، وعمه أبي طالب، ولا شك أن المصيبة بهما كبيرة، وأن من أطلقها قصد الإشارة إلىٰ شدة حزنه ﷺ، ولكن لم أجد هذه التسمية في شيء من الأحاديث الصحيحة؛ بل ولا الضعيفة مما اطلعت عليه، ولا في شيء من كتب السيرة وشروحها؛ كسيرة ابن إسحاق وشرحها للسهيلي، ونحوها، ومع البحث في الحواسب، وجدت أن أول

(١) ابن حجر، فتح الباري (١/ ١٧٣).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٥)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٥) رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري.

مَن ذكر هذه العبارة هو ابن الملقن في كتابه التوضيح لشرح الجامع الصحيح وهو متوفىٰ عام (٨٠٤هـ) دون أن يذكر مستنده، ثم المقريزي -رحمه الله تعالىٰ- في إمتاع الأسماع وهو متوفىٰ عام (٨٤٥هـ)، وبدر الدين العيني في عمدة القاري وهو متوفىٰ عام (٨٥٥هـ)، والقسطلاني في المواهب وهو متوفىٰ عام (٩٢٣هـ)، ثم تتابع بعد ذلك كُتّاب السِّيَر من بعده في نقله دون مصدر يعتمد عليه. وممن أنكر ثبوت هذه العبارة الألباني -رحمه الله تعالىٰ-[١]، والشيخ محمد العوشن[٢].

وقد مر علىٰ النبي ﷺ من المِحَن والشدائد العظيمة، كمقتل سبعين من أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- في قصة بعث بئر معونة، ومقتل عشرة من أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- في ماء الرجيع، واستشهاد سبعين من أصحاب الرسول ﷺ في غزوة أُحُد، ومنهم عم الرسول ﷺ حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-، كل ذلك خلال أقل من ستة أشهر، ولم يُنْقَل عنه مع شدة حزنه علىٰ هؤلاء أنه سمَّاه بأيّ اسم يدل علىٰ الحزن ونحوه[٣].

الثامنة والعشرون: لعله يُستفاد من نصرة أبي طالب وهو علىٰ شركه للرسول ﷺ وقبول الرسول ﷺ لهذه النصرة دلالة علىٰ جواز الاستعانة بالمشرك بضوابطها، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة)[٤]. وسيأتي مزيد تفصيل لهذه الفائدة -إن شاء الله تعالىٰ-.

---

(١) دفاع عن الحديث والسيرة (ص ١٨).

(٢) ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (٦٧- ٦٩).

(٣) ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (٦٧- ٦٩).

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠١)، وانظر: النووي شرح صحيح الإمام مسلم «وقال الشافعي وآخرون: إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين، ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استُعين به، وإلا فيُكره» (١٢/ ١٩٩)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٩٩-١٠٠)، وابن حجر، تلخيص الحبير (٤/ ١٠١).

التاسعة والعشرون: في موقف أبي طالب يجب أن يُفرّق في الكفار بين مُعرض ومُعارض، فالمعرض وإن كان كافرًا لإعراضه، لكنه ليس مثل هذا المُعارِض الذي دأبه الاستهزاء بالمسلمين، وإيذاؤهم، والسعي لحرب الإسلام، وتسخير جهوده في كتم الحق وإظهار الباطل.

فالمعرض من أمثال أبي طالب وغالب بني هاشم والمطلب الذين لم يؤمنوا، ومع ذلك دخلوا مع الرسول ﷺ في الشِّعب.

والمعارض من أمثال أبي جهل والوليد وأبي لهب وغيرهم كثير، فهؤلاء جمعوا بين الكفر بالله والصَّدّ عن دينه، والعدوان علىٰ المسلمين. ولذلك نجد النصوص شديدة علىٰ المستهزئين، لأنهم لم يكتفوا بالكفر فقط، بل جمعوا معه الاعتراض، فهم كفار وزيادة. قال -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]؛ وهذا كما يوضّح لنا درجات معاملة الكفار، فهو في جانب منه يبين خطورة الاستهزاء، وإلىٰ أي درجة ينزل بصاحبه، وينقله من دركة المعرض إلىٰ دركة المعارض.

المبحث العاشر

فقه السيرة في خروجه ﷺ إلى الطائف للدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-

بعد موت أبى طالب وخديجة -رضي الله تعالى عنها- اشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، وكاشفوه بالأذى الذي لم يكونوا يجرؤون عليه في حياة أبي طالب؛ فناله منهم الكثير من الأذى البدني.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالى-: فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب[١]. وروى البيهقي -رحمه الله تعالى- عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما-، عن عبد الله بن جعفر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه ترابًا، فرجع إلى بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، قال: فجعل يقول: «أيْ بُنيّة، لا تبكين، فإن الله -عز وجل- مانع أباك»، ويقول ما بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»[٢].

وروى الحاكم -رحمه الله تعالى- في المستدرك عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعَّة حتى تُوفِّي أبو طالب»[٣]؛ يقول ابن كثير -رحمه

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٤٦).

(٢) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٣٥٠). وابن هشام، السيرة (٢/ ٤٦).

(٣) الحاكم، المستدرك (٢/ ٦٧٩) رقم (٤٢٤٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ومعنى كاعَّة أي: تجبن عن أذية الرسول ﷺ في حياة أبي طالب.

الله تعالىٰ-: (وعندي أن غالب ما روي من طرحهم سلا الجزور بين كتفيه وهو يصلي، وكذلك ما أخبر به عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- مِن خنقهم له ﷺ، حتىٰ حال دونه أبو بكر الصّديق قائلًا: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله! وكذلك عزم أبي جهل -لعنه الله- علىٰ أن يطأ علىٰ عنقه وهو يصلي، فحيل بينه وبين ذلك، وما أشبه ذلك، كان بعد وفاة أبىٰ طالب -والله أعلم-)[١].

فلما اشتد هذا الأمر علىٰ رسول الله ﷺ، ورأىٰ تطاول سفهاء قريش بمختلف صور الأذية، وبخاصة تلك الأذية البدنية، الجارحة معنويًّا، التي أشار إليها ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-، خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الطائف[٢].

وقد أشار ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ سبب خروج الرسول ﷺ إلىٰ الطائف بقوله: (وَكَانَ رَسُول الله ﷺ لما يئس من أهل مَكَّة أَن يُجِيبُوهُ خرج إِلَىٰ الطَّائِف لِيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَام، وَذَلِكَ بعد موت أبي طَالب)[٣]. وهذا يُشعر بأن خروجه ﷺ للطائف، كان بسبب إدراكه ﷺ أن الدعوة في مكة قد ضاقت سُبُلها، والقوم قد بلغتهم الرسالة، وموقف عامتهم عداء مستحكم، وإيذاء مستمر، ولعل الأفضل البحث عن من يقبل هذه الدعوة أو ينصرها أو يحميها من خارج مكة.

والطائف تبعد نحو ثمانين كيلو من مكة، خرج ﷺ سيرًا علىٰ الأقدام ذهابًا وعودةً، ومعه مولاه زيد بن حارثة ﷺ، يبتغي الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، والإيواء والنصرة لتبليغ دين الله -جل شأنه-.

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٤٨).

(٢) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى (١/ ٣٠٩)، وفيه أن خروجه ﷺ إلى الطائف كان في شوال السنة العاشرة من البعثة، والعلم عند الله -جل شأنه-.

(٣) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق عليّ حسين البواب (الرياض: دار الوطن)، (٤/ ٢٨٣).

وكان كلما مر علىٰ قبيلة في الطريق دعاهم إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فلم تجب إليه واحدة منها.

ولما انتهىٰ إلىٰ الطائف عمد إلىٰ ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف وهم: عبد ياليل[1] ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فقال أحدهم: هو يمرط[2] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني.

وأقام الرسول ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا دعاه إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سماطين[3]، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتىٰ دميت قدماه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه حتىٰ أصابه شجاج في رأسه، فانصرف راجعًا من الطائف إلىٰ مكة محزونًا، والتجأ إلىٰ حائط لعتبة وشيبة ابْنَيْ ربيعة، وهناك جلس تحت ظل شجرة ودعا بالدعاء المشهور: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلىٰ من تكلني، إلىٰ

(١) هكذا ورد في السيرة لابن هشام، والذي في صحيح البخاري -كما سيأتي- ابن عبد يالبل، وما في الصحيح هو الصحيح. وقد قال ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٢٠): «وذكر ابن إسحاق أن عبد ياليل بن عمرو بن عمير كان ممن وفد على رسول اللّه ﷺ في وفد ثقيف. والّذي قال غيره: إن الوافد فيهم مسعود بن عبد يا ليل». وذكر في (٦/ ٨١) و(٦/ ٤٣١-٤٣٢) إسلام مسعود وإخوته.

(٢) يمرط: المرط: نتف الشعر والريش والصوف عن الجسد، والمراد هنا أي: يمزق، ابن منظور، لسان العرب (٧/ ٣٩٩)، مادة (مرط).

(٣) سماطين: سماط القوم أي صفهم، يقال: قام القوم حوله سماطين؛ أي صفين، وكل صف من الرجال سماط، ابن منظور، لسان العرب (٣/ ٣٢٥)، مـادة (سمط).

بعيد يتجهمني؟ أو إلىٰ عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة علىٰ هذه الحال بعثا إليه غلامًا لهما اسمه عداس بقطف عنب[2] فلما مد يده ﷺ؛ ليأكل قال: «بسم الله»، ثم أكل، فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له الرسول ﷺ: «من أيّ البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: نصراني من أهل نينوىٰ، فقال الرسول ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متىٰ»، فقال له: وما يدريك ما يونس بن متىٰ؟ قال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي كان نبيًّا وأنا نبيّ»، فأكبَّ عداس علىٰ رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبّلهما[3]،

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥): «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق مدلس وبقية رجاله ثقات». وأخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٧٥) رقم (١٨٣٩)، وأخرجه الطبراني في الدعاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٣)، (ص ٣١٥) رقم (١٠٣٦)، وعنه الضياء المختارة للمقدسي (٩/ ١٧٩) رقم (١٦٢)، من حديث عبد الله بن جعفر -رضي الله تعالى عنهما-، وضعَّف الألباني هذا الحديث في تعليقه على فقه السيرة للغزالي (ص ١٢٦). وقال خالد العمرو مخرج أحاديث شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الله بن حميد (ص ٣٥٠ الهامش) رقم (١): «رواه الطبراني من حديث عبد الله بن جعفر -رضي الله تعالى عنهما-، رجاله ثقات، وظاهر إسناده الاتصال، وليس فيه تقرير أصل جديد، فهو حديث حسن -إن شاء الله- لحال محمد بن إسحاق».

(٢) قال سالم بن علي الثقفي -رحمه الله تعالى، وهو من أهل الطائف- في كتابه مفاتيح الفقه الحنبلي (١/ ٣٥٨) في الهامش رقم (٥): وج: واد يخترق مدينة الطائف مقبل من المثناة إحدى ضواحي الطائف من الجهة الغربية الجنوبية، وفيها يوجد المكان الذي تناول فيه الرسول ﷺ عنقود العنب من الفتى النصراني».

(٣) ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالى- عداس هذا في القسم الأول من الإصابة، انظر: (٤/ ٢٢٧)، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٣٦)، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٤١٦)، وأكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٥ - ١٨٦).

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده الرجل، فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير لك[١].

ورجع رسول الله ﷺ في طريقه إلىٰ مكة، فلما بلغ قرن الثعالب بعث الله -جل شأنه- إليه جبريل -عليه السلام- ومعه ملك الجبل يستأمره بأن يطبق الأخشبين[٢] علىٰ أهل مكة. ففي الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يُجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبل؛ لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبل فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[٣].

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٢/ ١٧٢)، وابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣١)، والشامي، سبل الهدى (٢/ ٥٧٦)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٦٧). وانظر: محمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة، (ص٦٥).

(٢) الأخشبان: الأخشب هو الجبل الخشن الغليظ، والأخشبان: هما الجبلان اللذان عن يمين المسجد الحرام ويساره، والمراد بهما، قعيقعان وأبو قبيس، انظر: محمد شراب، المعالم الأثيرة (ص ٢٣).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٣١٢)، حديث رقم (٣٢٣١)، وصحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠)، حديث رقم (١٧٩٥).

وذكر ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- أنه قام في تلك الليلة يصلي[1]، ثم أقام بنخلة[2] أيامًا، وأراد الرجوع إلىٰ مكة؛ فقال له زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه-: كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك؟ فقال: «يا زيد! إن الله جاعل لما ترىٰ فرجًا ومخرجًا، وإن الله مُظْهِر دينه وناصر نبيه».

ثم انتهىٰ إلىٰ حراء وبعث إلىٰ الأخنس بن شريق ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير علىٰ الصّريح. فبعث إلىٰ سهيل بن عمرو فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير علىٰ بني كعب. فبعث إلىٰ المطعم بن عدي فأجابه إلىٰ ذلك، وقال: نعم. قل له فليأتِ. فرجع إليه فأخبره فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج المطعم بن عدي وقد لبس سلاحه هو وبنوه ستة أو سبعة. فقال لرسول الله ﷺ: طف. واحتبوا بحمائل سيوفهم بالمطاف، فأقبل أبو سفيان إلىٰ المطعم بن عدي فقال: أمجير أم تابع؟، قال: بل مجير. قال: إذن لا تُخْفَر؛ قد أجرنا من أجرتَ. فجلس معه حتىٰ قضىٰ رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف إلىٰ بيته وانصرفوا معه، فذهب أبو سفيان إلىٰ مجلسه[3]، وقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارىٰ بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»[4].

أقف مع هذا الجزء من السيرة النبوية؛ لأدوّن الفوائد التالية:

الأولىٰ: هذا الجزء من السيرة من المواقف المؤلمة؛ إذ كيف يستطيع المسلم أن يتحمّل قراءة أخبار هذا الإيذاء الجارح في مكة، ثم الاستهزاء والإيذاء للمصطفىٰ ﷺ

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٢).
(٢) نخلة: اسم قرية في الطريق بين مكة والطائف وتعرف بنخلة اليمانية.
(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى (٢/ ٤٤٠- ٤٤١).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٢٤٣) رقم (الحديث ٣١٣٩).

حتىٰ سالت دماء قدميه الشريفين من الحجارة التي كان يرميه به الأطفال والعبيد عائدًا من الطائف، وعدم تمكّنه من دخول بلده إلا بجوار من مشرك!!

الثانية: هذا الموقف يُعيد إلىٰ ذاكرتنا مرة أخرىٰ مدىٰ العناء والمشقة التي واجهها الرسول ﷺ في سبيل هذه الدعوة، حتىٰ وصلت إلينا، فما أعظم حقه ﷺ علىٰ كل مسلم منذ بعثته إلىٰ أن تنتهي هذه الدنيا بالنفخ في الصور.

الثالثة: خروج الرسول ﷺ إلىٰ الطائف إعلان عملي لعالمية الدعوة، وأن الأولىٰ بها من ينصرها، فالرسول ﷺ وإن بُعث في مكة ومن قريش، فإن أولىٰ الناس به المؤمنون به أينما كانوا، عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارًا غير سرّ، يقول: «ألا إن آل أبي، يعني فلانًا، ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين»[1]. وهذا لا يختص بزمانه، بل الأولىٰ به ﷺ الأكثر اتّباعًا له ﷺ حيثما كانوا.

الرابعة: لما وصل الرسول ﷺ الطائف، كان همّه نجاح الدعوة، وقد بدأ ﷺ بأكابرها، وهو قدوة الدعاة إلىٰ الله -جل شأنه-، وإمامهم.

وتبعًا لذلك فالشخص يبدأ في دعوته إلىٰ الله مع أب الأسرة التي سيتحدث إليها؛ لأن له تأثيرًا علىٰ من في منزله، وفي القرية أو البلدة ينبغي علىٰ الداعية إلىٰ الله أن يقدّر أميرها ويبدأ بالذهاب إليه، وزيارته، بل ويُستحسن الاستئذان منه، والذي لا يفرّق في الدعوة بين كبير وصغير، وأمير ووضيع، يقع في أخطاء كثيرة، ويخالف سُنة الرسول ﷺ العملية، في البدء بكبار الطائف ووجهائها، ولما لم يستجيبوا له رجع وتركهم.

---

(١) متفق عليه: واللفظ لمسلم: صحيح البخاري (٨/ ٦) رقم (٥٩٩٠)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٧) رقم (٢١٥). قال ابن حجر في الفتح (١/ ٣٣١): «قال أبو بكر بن العربي المراد آل أبي طالب».

الخامسة: ثم نلحظ أن الرسول ﷺ لما رأىٰ إعراض القوم عن الاستجابة، قال: «اكتموا عني»، وهذا يدلنا علىٰ أن الحكمة تقتضي ألَّا يتحدث الشخص عن كل شيء، بل إن بعض الأمور يكتمها الشخص ويسعىٰ إلىٰ كتمها، وعدم نشرها؛ لما في ذلك من الضرر، وقد روي في ذلك حديث ضعيف، لكن معناه صحيح: «استعينوا علىٰ إنجاح الحوائج بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود»[1]، وإنما طلب كتم إساءتهم له؛ لأن هذا مما يُسَرّ به الأعداء في مكة.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ [الكهف:١٩]، ومن الفوائد الحثّ علىٰ التحرُّز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك علىٰ الإنسان وعلىٰ إخوانه في الدين[2].

السادسة: أي كرامة حلّت بدار هؤلاء الأكابر من أهل الطائف، جاءتهم في دارهم، ودخلت بيوتهم، ومع ذلك حُرموا منها، أي حسرة وندامة أصابت هؤلاء لاحقًا عندما أدركوا عمق الخطأ الذي وقعوا فيه، وعظمة الخير الذي فاتهم، عندما جاءهم سيد ولد آدم يحمل أعظم وأبرك وأفضل وأسمىٰ رسالة ليكونوا قادة وسادة فيها.

---

(١) أخرجه الطبراني: الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية (الموصل: مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤هـ)، (٢٠ / ٩٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢١٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٥): (رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار، قال العجلي: لا بأس به، كذّبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات؛ إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ)، وقال ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٦٦): «قَالَ مهنا: سَأَلت أَحْمَد بْن حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْن مَعِينٍ عَنْ قَوْلهم «اسْتَعِينُوا على طلب الْحَوَائِج بِالْكِتْمَانِ»؛ فَقَالَا: هُوَ مَوْضُوع، وَلَيْسَ لَهُ أصل»، وصححه الألباني في صحيح الجامع وزياداته (١/ ٣٢٠) رقم (٩٥٦). ولما سئل ابن باز عن صحة هذا الحديث قال: «لا، ما هو بحديثٍ، يُروى عن عمر».

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص ٤٧٢).

تذكر كتب السير أن هؤلاء القوم الذي رفضوا هذه الدعوة، وأبوا أن يكون قادة فيها، جاءوا بعد الهجرة بسنوات ضمن وفد الطائف مسلمين مبايعين للرسول ﷺ في المدينة. فاسأل الله دائمًا أن يدبّر لك الخير وييسّره لك، ويلطف بك ويلطف لك -سبحانه وتعالىٰ-.

السابعة: لما خرج الرسول ﷺ من الطائف واصطف له سفهاء الطائف يرمونه بالحجارة، كان زيد بن حارثة ؓ يقي الرسول ﷺ بنفسه، فكانت الحجارة تُصيب زيدًا ؓ حتىٰ شُجَّ عدة شجاج.

لقد كان زيد ؓ يقي الرسول ﷺ بنفسه، وأنت وأنا، وإن لم ندرك الرسول ﷺ ونشرف بصحبته والذَّبّ عنه، فإن بإمكاننا أن نسعىٰ إلىٰ أن نَقِي سُنّة رسول الله ﷺ، كان زيد ؓ يدافع عن الرسول ﷺ، وعلينا اليوم أن ندافع عن سُنة الرسول ﷺ، والدفاع عنها يكون بالمحافظة عليها، والعمل بها، والحرص كل الحرص علىٰ التأسّي به ﷺ، وإحياء سُنته في أمور حياتنا، وتعليمها، والرد علىٰ كل زائغ عنها، أو مبتدع ما ليس منها، أو مثير شبهة بشأنها، ونعلم أن السعادة كل السعادة والفوز كل الفوز في التمسك بهذه السُّنة والعضّ عليها بالنواجذ.

الثامنة: أمَا كان يسع كفار الطائف وكبراؤها، إذا لم يقبلوا هذه الدعوة المباركة، وهذا الخير الذي وصلهم إلىٰ مكانهم أن يردوا ردًّا حسنًا، أو علىٰ الأقل أن يستجيبوا لطلب الكتمان، أو في أدنىٰ الأحوال وآخرها أن يكفُّوا عن الإيذاء المعنوي فلا يستهزؤوا، ولا يأمروا عبيدهم وأطفالهم أن يرموه بالحجارة؟! هل هناك سوء أشد من سوء هذه المعاملة؟ أين أخلاق العرب في شأن الوافد إليهم؟

كنت أفكر كثيرًا في أسباب هذه الصدود من كبار أهل الطائف، عن هذه الخير العظيم الذي نزل بهم، ثم حُرموا منه وواجهوه بهذا الصدود البالغ السوء. فلم أجد جوابًا لذلك؛ سوىٰ أن هذا الدّين فضل الله يختصّ بها من يشاء، قال -تعالىٰ-:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران:٧٣- ٧٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة. والغرض من إيراد بعض منها هنا أن نستحضر نعمة الله -جل شأنه- بالهداية للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله -عز وجل-، فاستحضِرْ قول الله -تعالىٰ-: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [ال عمران:٧٤]، وتذكَّر أنك ممن اختص الله برحمته، لمَّا هداك للإيمان فاشكر المنعم وتمسك بالنعمة.

التاسعة: ثم إني وأنا أستحضر خروج الرسول ﷺ من الطائف حزينًا، لا أشك أن حزنه ﷺ الحقيقي في هذا الموقف كان علىٰ أهل الطائف وليس منهم، وكأن لسان حاله يقول: يا ليت قومي يعلمون، فالرسول ﷺ كان خائفًا عليهم كما أنه خائف علينا، أكثر شيء يحزنه أن يأتي من يرفض الإيمان وليس أن يؤذيه أو يضربه، فقد قال الله -سبحانه وتعالىٰ- له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل:١٢٧]، وليس ولا تحزن منهم، فإنه كان خائفًا عليهم ﷺ، فقد كان ﷺ رحمة حقيقية للناس، بل للخلق جميعًا.

العاشرة: عندما خرج الرسول ﷺ من الطائف بعدما واجه الأذىٰ منهم، وقد أجهد أيما إجهاد، ونال منه التعب كلّ منال، لجأ إلىٰ ربه، ورفع يديه يدعو كما ورد في كتب السير، وعلينا أن يكون اللجوء إلىٰ الله في الشدائد هو أول أمر نستحضره، والدعاء هو العبادة، وأعظم وأنفع الأسباب المنجية. والدعاء لا ينافي الصبر؛ بل يصبر المسلم علىٰ ما يلاقي ويرفع يديه يرجو الفرج من الله -تعالىٰ-.

الحادية عشرة: الرسول ﷺ لا يتصرف في أمور الدعوة إلا بتوجيه من ربه -سبحانه وتعالىٰ-، والذي يغلب علىٰ الظن أنه ﷺ لم يخرج إلىٰ الطائف إلا بتوجيه من الله -سبحانه وتعالىٰ-، وهو -سبحانه وتعالىٰ- العليم بنتائجها، فلذلك لا يصح مطلقًا أن تحتسب نتائج الدعوة بالموازين البشرية، أو بمقدار عدد من استجاب فيها للرسول ﷺ. ولقد كانت شروط صلح الحديبية في المقاييس البشرية محزنة في أول البديهة لكثير ممن حضرها من المسلمين، ولكن الله -جل شأنه- العليم الخبير سماه فتحًا مبينًا، كما سيأتي. وهكذا الخروج إلىٰ الطائف، فليس المقياس كم عدد من استجاب للرسول ﷺ.

ومن المعلوم أن وظيفة الرسل البلاغ، وأما الهداية فهي بيد الله -سبحانه-؛ قال -تعالىٰ-: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، والبلاغ هنا تحقّق لأهل الطائف، وسمع الكثير منهم -خلال عشرة أيام قضاها في الطائف- الدعوة إلىٰ الله، ولا شك أن لذلك أثره علىٰ نفوسهم، وإن لم يظهر فورًا. وكم من شخص آمن بالله بتأثير كلمات سمعها منذ سنوات بقيت تعمل عملها في تفكيره حتىٰ ردته عن ضلالته.

الثانية عشرة: في قبول الرسول ﷺ هدية ابني ربيعة شيبة وعتبة لما بعثا إليه بعنقود العنب نأخذ منه جواز قبول هدية الكافر واستعمالها؛ حيث أكل الرسول ﷺ قطف العنب الذي بعثوا به إليه[(١)].

وعموما فالأصل هو قبول الهدية، وعن هشام بن عروة عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنهم- عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (كان رسول الله ﷺ يقبل

(١) انظر: عبد الرحمن بن قاسم ، الدرر السنية (٧/ ٨٣)، (الرياض: د. ن ١٤١٤هـ)، الطبعة الخامسة.

الهدية ويثيب عليها)[1]. وهذا إذا لم يترتب علىٰ الهدية شر علىٰ المسلم؛ بأن يترتب عليها محبة للكافر، أو استمالته إلىٰ باطله[2]، أو علوّه علىٰ المسلم، أو يؤذيه الكافر بها لاحقًا، ونحو ذلك، وقد ورد أن النبي ﷺ رد هدية المشرك[3].

وقد يكون للشخص جيران ونحوهم من غير المسلمين فيجوز أكل هديتهم بشرط أن لا تكون مما ذُبِحَ لعيدهم، قال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما قبول الهدية منهم يوم عيدهم، فعن علي رضي الله عنه أنه أتي بهدية النيروز فقبلها)[4]. وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (أما ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا، ولكن كلوا من أشجارهم)[5]. وعن أبي برزة -رضي الله تعالىٰ عنه-: كان مجوس يهدون له في النيروز والمهرجان، فيقول لأهله[6]: (ما كان من فاكهة فكلوه وما كان من غير ذلك فردوه)[7].

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٥٧) رقم (٢٥٨٥).

(٢) قال بعض العلماء: إنما رد سليمان -عليه السلام- هدية ملكة اليمن؛ لأن فيها سعيًا لاستمالته لكي يسكت عنها ويتركها. قال -تعالى-: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:٣٥]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: (﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟!) تفسير ابن كثير (٦/ ١٩١).

(٣) أخرج الترمذي في سننه عن عياض بن حمار أنه أهدى للنبي ﷺ هدية له أو ناقة فقال النبي ﷺ: «أسلمت؟» قال: لا. قال. «فإني نهيت عن زبد المشركين» قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن صحيح، ومعنى قوله: «إني نهيت عن زبد المشركين»؛ يعني هداياهم. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يقبل من المشركين هداياهم، وذكر في هذا الحديث الكراهية، واحتمل أن يكون هذا بعد ما كان يقبل منهم، ثم نهى عن هداياهم). ا.هـ. قال الألباني: حسن صحيح. وقال ابن حجر في الجمع بين قبول هدية المشرك وردها بعد أن ذكر أقوالًا في المسألة: (الامتناع في حق من يريد بهديته التودد والموالاة، والقبول في حق مَن يُرجى بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام وهذا أقوى).

(٤) البيهقي، السنن الكبرى (٩/ ٣٩٢) رقم (١٨٨٦٥).

(٥) ابن أبي شيبة، المصنف (٥/ ١٢٦) رقم (٢٤٣٧١).

(٦) ابن أبي شيبة، المصنف (٥/ ١٢٦) رقم (٢٤٣٧٢).

(٧) انظر: ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٥١-٥٢) مختصرًا.

ويفرق بعض العلماء بين الأعياد الدينية، فينهىٰ عن هداياهم فيها، أما أعيادهم الدنيوية كالزواج وأفراحهم التي لا ترتبط بمناسبة دينيهم فيُجيزها. وهذا أقرب للسلامة وصلاح القلب، والله أعلم.

الثالثة عشرة: في قصة الرسول ﷺ مع عداس عدة فوائد؛ منها:

أ. إن الرسول ﷺ لا يحقر أحدًا في تبليغه رسالة ربه(١)، فقد دعا الغلام النصراني «عداس» إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، وحاوره حتىٰ أسلم كما يظهر من الحوار الذي أوردته كتب السير(٢).

ب. إن سبب إسلام عداس، بل بداية الحوار كان بسبب قول الرسول ﷺ: «بسم الله» عندما أراد الأكل، وهكذا المسلم يدعو إلىٰ الله -سبحانه- بعمله كما يدعو بقوله، ويحرص علىٰ الالتزام بالآداب الإسلامية، لنفسه وتعليمًا ودعوة لغيره، وليعلم أن سلوكه مُؤثِّر خيرًا أو شرًّا.

ت. إن عداس لما عرف الرسول ﷺ أكبَّ عليه يُقبّل رأسه ويديه ورِجْليه، فهو غلام نصراني مُطّلع علىٰ الكتب(٣) يعرف الرسول ومنزلته، وهو درسٌ لنا في توقير الرسول ﷺ. وتوقيره ﷺ اليوم يكون باتباع سنته والعمل بها، والدعوة إليها، وعدم معارضتها بالآراء والعقول.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (رأس الأدب مع الرسول ﷺ كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقّي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال

---

(١) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى (١/ ٣١٢)، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٤١٦).

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة (٤/ ٢٢٧)، فقد نقل عن التيمي في السيرة أنه قال للنبي ﷺ: (أشهد أنك عبد الله ورسوله)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٦٩)، وقال: (فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلها وأسلم)، ومهدي رزق الله، السيرة النبوية (ص ٢٣٢، هامش) رقم (٢).

(٣) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/ ١٥)، وابن حجر، الإصابة (٤/ ٢٢٧).

باطل، يسميه معقولًا، أو يحمله شبهة أو شكًا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل -سبحانه وتعالىٰ- بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل)[١].

الرابعة عشرة: في موقف الرسول ﷺ بعد خروجه من الطائف ومجيء جبريل -عليه السلام- ومعه ملك الجبل نستفيد ما يلي:

١) إكرام الله -سبحانه وتعالىٰ- لنبيه ﷺ، فقد أذن الله -تعالىٰ- لملك الجبال أن لو شاء النبي ﷺ أن يُطبق علىٰ أهل مكة جبليها لفعل، فأعظم بها من منزلة رفيعة للنبي ﷺ[٢].

٢) من قول الرسول ﷺ لملك الجبال، يتَّضح لنا الهدف الذي يسعىٰ إليه الرسول ﷺ، وهو هداية الناس وإخراجهم من ظلمات الشرك إلىٰ نور التوحيد، أما الانتقام ممن اعتدىٰ عليه وآذاه فلم يكن يلتفت إلىٰ ذلك، إذ لو كان هذا غاية عند الرسول ﷺ لبادر إلىٰ طلب هلاكهم عندما عرض عليه ملك الجبال ذلك بأمر الله -سبحانه وتعالىٰ-. والرسول ﷺ قدوتنا في الرحمة بالناس والتحمل منهم والسعي إلىٰ هدايتهم، ولو آذونا أشد الأذىٰ.

الخامسة عشرة: في طريق عودة الرسول ﷺ مهمومًا نجده ﷺ يلتجئ إلىٰ ربه ويقوم الليل يصلي ويتلو كتاب الله -سبحانه وتعالىٰ-، لقد قام ﷺ يصلي وهو في سفر وعناء ومشقة وإيذاء، وهذا يدعونا إلىٰ أن نتذكر قيام الليل، فلا نغفل عنه، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقيام الليل شرف المؤمن، يقول

(١) ابن القيم، مدارج السالكين ، تحقيق محمد البغدادي، الطبعة الثالثة (بيروت، دار الكتاب العربي ١٤١٦)، (٢/ ٣٦٥).

(٢) انظر: الأصبهاني، دلائل النبوة (٣/ ٨٩٧)، الهامش تعليق المحقق الحميد.

الرسول ﷺ في الحديث الحسن الذي يرويه أبو هريرة ﷺ أن جبريل -عليه السلام- قال للرسول ﷺ: «يا محمد شرف المؤمن قيام الليل»[1].

السادسة عشرة: إن الرسول ﷺ رغم ما واجهه من أذىٰ في مكة والطائف وما لاقاه من عنت، ومع ذلك يقول لزيد -رضي الله تعالىٰ عنه- كما روت ذلك كتب السير: «إن الله جاعل لما ترىٰ فرجًا ومخرجًا، وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه»، فالمؤمن لا يعرف اليأس، ولا يصيبه الإحباط، يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا المذهب المهين وهو التشاؤم والكسل لا يعرفه الإسلام ولا يرتضيه، بل يحذر منه أشد تحذير ويبين للناس أن النجاح مأمول، وأن مع العسر يسرًا، وأنه سيجعل الله بعد عسر يسرًا، ويبين أنه لا أضر عليهم من اليأس والقنوط)[2].

السابعة عشرة: عاد الرسول ﷺ من الطائف وأمامه ثلاثة خيارات:

الخيار الأول هو استئصال المشركين في مكة، وهذا الخيار عرَضه عليه مَلك الجبال.

والخيار الثاني: عدم دخول مكة والبحث عن مكان آخر غير مكة، وهذا الخيار عرضه عليه رفيق رحلته زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه-.

والخيار الثالث: العودة ودخول مكة والإصرار علىٰ المضي في هذا الطريق، فإن لم يهتدِ هؤلاء، فسيأتي الله بالفرَج، ولينصرن الله دينه، وإن لم يدخل فيه هؤلاء فالمرجو أن يدخله جيل قادم يخرجه الله من أصلابهم.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٥)، وصححه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (٣/ ٢٢٩) رقم (٣٦٠٤).

(٢) الشيخ السعدي، الجهاد في سبيل الله (ص ١٧٣)، مطبوع ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي، القسم الخامس، الجزء الأول.

وقد اختار الرسول ﷺ هذا الخيار الثالث، وبحث عن طريقة للدخول آمنة، فلجأ إلىٰ الاستفادة من الدخول بالجوار والتي تُهّيئ له الدخول الآمن، وتجعل موقف قريش منقسمًا إلىٰ قسمين؛ مجير، وصامت.

الثامنة عشرة: حِفْظ الرسول ﷺ للجميل، وحرصه علىٰ الوفاء؛ فقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم موقفه وعونه للرسول ﷺ في دخول مكة، وذكر له هذا الموقف يوم انتصر علىٰ الكفار في بدر، وأخذ الأسرىٰ معه، وأخبر أن المطعم -وهو مشرك- لو كان حيًّا، وطلب منه ترك هؤلاء الأسرىٰ لأطلقهم لأجله، والوفاء وحفظ الجميل من شِيَم الرجال الكرام، والرسول ﷺ يقول: «مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله»[1].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٨٥)، حديث رقم (١٥٩٢) عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

الفصل الرابع

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾

إلىٰ قوله -تعالىٰ-:

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

مقدمة

يبدأ هذا الفصل الرابع من الكتاب من حادثة الإسراء والمعراج، والتي نزل بشأنها القرآن الكريم -كما سيأتي-، وكانت في السنة العاشرة من البعثة النبوية الشريفة.

ثم تحدث الفصل عن توسيع دائرة الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه-؛ حيث نشط الرسول ﷺ أكثر في دعوة الأفراد من خارج مكة، وعرض نفسه علىٰ القبائل العربية التي تَفِد إلىٰ مكة في المواسم.

وقد أثمر هذا العرض قبول بعض قبائل الأوس والخزرج؛ فكانت بيعة العقبة الأولىٰ ثم الثانية، وبعدها يسَّر الله -سبحانه وتعالىٰ- فَرَجًا وبلدًا للمؤمنين يأمنون فيه علىٰ أنفسهم، هذا البلد قريب من مكة، وهو المدينة؛ فبدأ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم؛ بتوجيه من الرسول ﷺ- الهجرة إلىٰ المدينة، فكان أول مهاجر إليها أبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ثم توالىٰ هجرة الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عنهم-. وكان هذا تمهيدًا للهجرة الكبرىٰ هجرة الرسول ﷺ، كما سيأتي في الفصل الخامس -إن شاء الله تعالىٰ-.

المبحث الأول

فقه السيرة في الإسراء والمعراج

قال -تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]؛ كانت الآيات الأولىٰ تتحدث عن الإسراء، فيما كانت الآيات الثانية تشير إلىٰ المعراج. أما تفاصيل الحديث عنهما فقد بيّنته السنة.

والإسراء: أصله مأخوذ من سرىٰ: أي سار في الليل، والمقصود تلك الرحلة العظيمة المباركة التي سرىٰ فيها الرسول ﷺ بصحبة جبريل -عليه السلام- بلطف من الله وتكريم، من مكة إلىٰ المسجد الأقصىٰ.

والمعراج: والعروج: الصعود، عرج يعرج عروجًا، ومنه المعراج. وهو بالكسر شبه السلم، مفعال، من العروج: الصعود، كأنه آلة له[1].

والمراد هنا: العروج بالرسول ﷺ من المسجد الأقصىٰ إلىٰ السموات السبع إلىٰ ما شاء الله -جل شأنه- فوق ذلك.

عن أنس بن مالك، -رضي الله تعالىٰ عنه- عن مالك بن صعصعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم، -وربما قال: في الحِجْر- مضطجعًا إذ أتاني آتٍ، فَقَدَّ، قال: وسمعته يقول: فَشَقَّ ما

(١) انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٠٣).

بين هذه إلىٰ هذه -فقلت للجارود وهو إلىٰ جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلىٰ شعرته، وسمعته يقول: من قصه إلىٰ شعرته- فاستخرج قلبي، ثم أُتِيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حُشي ثم أُعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل، وفوق الحمار أبيض، -فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- يضع خطوه عند أقصىٰ طرفه، فحُملت عليه...)[1].

وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهىٰ طرفه»، قال: «فركبته حتىٰ أتيت بيت المقدس»، قال: «فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء»، قال: «ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل -عليه السلام- بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة، ثم عُرج بنا إلىٰ السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحَّب بي، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء الثانية، فاستفتح جبريل -عليه السلام-، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسىٰ ابن مريم، ويحيىٰ بن زكريا -صلوات الله عليهما-، فرحَّبا ودعوا لي بخير، ثم عُرج بي إلىٰ السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أُعطي شطر الحسن، فرحَّب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء الرابعة، فاستفتح جبريل -عليه السلام-، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحب

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٧). واللفظ له، ومسلم (١/ ١٤٩) رقم (١٦٤).

ودعا لي بخير، قال الله -عز وجل-: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثم عرج بنا إلىٰ السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحَّب، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء السادسة، فاستفتح جبريل -عليه السلام-، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسىٰ ﷺ، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلىٰ السدرة المنتهىٰ، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال»، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيَّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحىٰ، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلىٰ موسىٰ ﷺ، فقال: ما فرض ربك علىٰ أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم». قال: «فرجعت إلىٰ ربي، فقل: يا رب، خفِّف علىٰ أمتي، فحطَّ عني خمسًا، فرجعت إلىٰ موسىٰ، فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف»، قال: «فلم أزل أرجع بين ربي -تبارك وتعالىٰ-، وبين موسىٰ -عليه السلام- حتىٰ قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب شيئًا، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة»، قال: «فنزلت حتىٰ انتهيت إلىٰ موسىٰ ﷺ، فأخبرته، فقال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف»، فقال رسول الله ﷺ:

«فقلت: قد رجعت إلىٰ ربي حتىٰ استحييت منه»[1].

وقد صلىٰ النبي ﷺ بالأنبياء في المسجد الأقصىٰ إمامًا لهم؛ عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «فحانت الصلاة فأممتهم»[2].

وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- عن مالك بن صعصعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وفيه «فانطلق بي جبريل حتىٰ أتىٰ السماء الدنيا فاستفتح، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتىٰ أتىٰ السماء الثانية...»[3]. وكلهم -كما في بقية الحديث- يبدأ بالسلام ثم التحية.

وعن ابن شهاب الزهري -رحمه الله تعالىٰ-، قال: وأخبرني ابن حزم، أن ابن عباس، وأبا حية الأنصاري -رضي الله عنهم- كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي، حتىٰ ظهرت لمستوىٰ أسمع صريف الأقلام»[4]. قال ابن حزم، وأنس بن مالك رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: «... ثم انطلق حتىٰ أتىٰ بي سدرة المنتهىٰ، فغشيها ألوان لا أدري ما هي. ثم أُدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[5].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٤٥) رقم (١٦٢). وأخرجه البخاري (٤/ ١٠٩) رقم (٣٢٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٩) رقم (١٦٤) باختلاف يسير عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

(٢) صحيح مسلم (١/ ١٥٦) رقم (١٧٢).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٧).

(٤) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٢١): (وصريف الأقلام بالصاد المهملة تصويتها حال الكتابة، قال الخطابي هو صوت ما تكتبه الملائكة من أقضية الله -تعالى- ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله -تعالى- من ذلك أن يُكتب ويُرفع لما أراده من أمره وتدبيره).

(٥) صحيح البخاري (٤/ ١٣٥) رقم (٣٣٤٢)، وصحيح مسلم (١/ ١٤٨) رقم (١٦٣).

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه-، عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر، حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر، الذي أعطاك ربك»[١]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله «بينا أنا أسير في الجنة»، تقدم في تفسير سورة الكوثر أن ذلك كان ليلة أسري به)[٢].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي علىٰ موسىٰ بن عمران -عليه السلام-، رجل آدم طوال جعد كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسىٰ ابن مريم مربوع الخلق إلىٰ الحمرة والبياض، سبط الرأس»، وأري مالكًا خازن النار، والدجال.... في آيات أراهن الله إياه)[٣].

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت -وفي رواية هداب: مررت- علىٰ موسىٰ ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره»[٤].

وعن ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد! أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[٥].

وكان الإسراء ببدنه وروحه يقظةً لا منامًا، والدليل علىٰ هذا قوله -تعالىٰ-: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٢٠) رقم (٦٥٨١).
(٢) فتح الباري (١١/ ٤٧٣).
(٣) صحيح مسلم (١/ ١٥١) رقم (١٦٥).
(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٨٤٥) رقم (٢٣٧٥).
(٥) سنن الترمذي (٧/ ٤٦٢) رقم (٣٤٦٢)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود»، وحسنه الألباني.

العظام، ولو كان منامًا، لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظمًا، ولم ينكره كفار قريش[1].

وفي تلك الليلة رأىٰ بعض الآيات؛ منها ما رواه البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في الدلائل، وفيها (فسار وسار معه جبريل -عليه السلام-، فأتىٰ قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المهاجرون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾. ثم أتىٰ علىٰ قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيئا، فقال: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة، قال: ثم أتىٰ علىٰ قوم علىٰ أقبالهم رقاع وعلىٰ أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام، عن الضريع والزقوم، ورضف جهنم وحجارتها، قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم. وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد، ثم أتىٰ علىٰ قوم بين أيديهم لحم في قدر نضج طيب ولحم آخر خبيث، فجعلوا يأكلون من الخبيث، ويدعون النضج الطيب. فقال: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هذا الذي يقوم وعنده امرأة حلالًا طيبًا فيأتي المرأة الخبيثة فتبيت معه حتىٰ يصبح... ثم مر علىٰ رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها، قال: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها وهو يزيد عليها. ثم أتىٰ علىٰ قوم تُقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة»[2].

---

(١) انظر: الطبري، تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٦)، وابن كثير، تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣).
(٢) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٣٩٨). وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٠).

ومنها ما رواه الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في مسنده عن سمرة بن جندب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال نبي الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجلًا يسبح في نهر ويُلقَم الحجارة، فسألت ما هذا، فقيل لي: آكل الربا»[1].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أُسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمري[2]، وعرفت أن الناس مكذبي»؛ فقعد معتزلًا حزينًا، قال: فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتىٰ جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: ما هو؟ قال: «إنه أُسري بي الليلة»، قال: إلىٰ أين؟ قال: «إلىٰ بيت المقدس؟» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» قال: فلم يُره أنه يكذبه، مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي. حتىٰ قال: فانتفضت إليه المجالس،

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٣/ ٢٩٣ -٢٩٤) رقم (٢٠١٠١)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملاؤه: وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الوهاب -وهو ابن عطاء الخفاف- فمن رجال مسلم، وهو صدوق لا بأس به. عوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي، وأبو رجاء: هو عمران بن ملحان العطاردي. وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥٠٩) من طريق عبد الوهاب بن عطاء، بهذا الإسناد. قلنا: كذا قال عبد الوهاب بن عطاء عن عوف بن أبي جميلة: «رأيت ليلة أسري بي»، وهو مما تفرد به عبد الوهاب، فقد رواه أصحاب عوف عنه، فلم يذكروا أن ذلك كان في ليلة الإسراء، بل هي رؤيا رآها النبي ﷺ في منامه. والحديث قطعة من حديث طويل برقم (٢٠٠٩٤). وهو في شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق وتخريج الأحاديث عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة الرشد ١٤٢٣)، (٧/ ٣٥٨) رقم (٥١٢١)، وقال المحقق: «إسناده: رجاله ثقات. عوف: هو الأعرابي. أبو رجاء العطاردي هو: عمران بن ملحان. والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٠) بنفس الإسناد».

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٥٩): «فظعت بأمري: أي اشتد عليَّ وَهِبْته».

وجاءوا حتىٰ جلسوا إليهما، قال: حَدِّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أُسري بي الليلة»، قالوا: إلىٰ أين؟ قال: «إلىٰ بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» قال: فمن بين مصفّق، ومن بين واضع يده علىٰ رأسه، متعجبًا للكذب. زعم! قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلىٰ ذلك البلد، ورأىٰ المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتىٰ التبس عليَّ بعض النعت»، قال: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتىٰ وُضِعَ دون دار عقال أو عقيل فنعته، وأنا أنظر إليه»، قال: «وكان مع هذا نعت لم أحفظه»، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش، قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[2].

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله -عز وجل- من آياته الكبرىٰ؛ فاشتد تكذيبهم له، وأذاهم، وضراوتهم عليه،.... وأخبرهم عن عِيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها،

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٨-٢٩) رقم (٢٨١٩). وقال محققوه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين. روح: هو ابن عبادة، وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي العبدي البصري. وأخرجه البزار (٥٦- كشف الأستار) من طريق محمد بن جعفر وحده، بهذا الإسناد». وقال محقق المسند أحمد شاكر (٤/ ٢٩٣) رقم (٢٨٢٠): «إسناده صحيح وهو عند الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٤- ٦٥) وقال: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح). وأخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٤٦١-٤٦٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٨٥)، والطبراني (١٢٧٨٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٣-٣٦٤ و٣٦٤) من طرق عن عوف ابن أبي جميلة، به «وقال ابن حجر في الفتح (٧/ ١٩٩): «وفي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار بإسناد حسن قال...» وذكر الحديث.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٩)، وصحيح مسلم (١/ ١٥٦) رقم (١٧٠).

وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال؛ فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبىٰ الظالمون إلا كفورًا)[١].

وإن كان هذا موقف الكفار من حادث الإسراء والمعراج، فقد ذُكر أن أناسًا ارتدوا، ممن كانوا ضعفاء الإيمان[٢].

وثبَّت الله -جل شأنه- علىٰ الإيمان الفئة الراسخة في إيمانها يتقدّمهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه لما بلغه الخبر صدَّق دون تردد، فعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (لما أسري بالنبي ﷺ إلىٰ المسجد الأقصىٰ أصبح يتحدّث الناس بذلك، فارتدَّ ناس ممن كان آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلىٰ صاحبك يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلىٰ البيت المقدس؟ قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلىٰ بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمي أبو بكر الصديق)[٣].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- ـ: (وقد اختلف السلف بحسب اختلاف الأخبار الواردة (في الإسراء والمعراج؛ فمنهم من ذهب إلىٰ أن الإسراء والمعراج

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٩).

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣)، والقاضي عياض، الشفا (٢/ ١٢٧)، وأكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٢)، وقال: (وقد صح أن بعض المسلمين ارتدوا). ولولا هذه الرواية لأمكن القول باستبعاد ارتداد أحد ممن أسلم؛ لأن الإسلام في ذلك الوقت كان محاربًا غاية المحاربة فلم يدخل في الإيمان إلا من كان قويّ الإيمان صادقًا فيه، وقد لقي الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- صنوفًا من العذاب والإيذاء، ولم يُذكر أن أحدًا منهم ارتد، فكيف يرتد لمجرد خبر قاله لهم الرسول ﷺ. ولم تذكر كتب السيرة تسمية ولو شخص واحد ارتد بسبب حادثة الإسراء، ولو وُجد لذُكِرَ. والله أعلم.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

وقعًا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث، وإلىٰ هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك)(١).

أما رؤية النبي ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما رؤيته أي موسىٰ -عليه السلام- ورؤية غيره من الأنبياء ليلة المعراج في السماء لما رأىٰ آدم في السماء الدنيا، ورأىٰ يحيىٰ وعيسىٰ في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسىٰ في السادسة، وإبراهيم في السابعة أو بالعكس، فهذا رأىٰ أرواحهم مصورة في صور أبدانهم)(٢).

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فصعد من سماء إلىٰ سماء في المعراج، حتىٰ جاوز السابعة، وكلما جاء سماء تلقته منها مقرّبوها ومن فيها من أكابر الملائكة والأنبياء. وذكر أعيان من رآه من المرسلين، كآدم في سماء الدنيا، ويحيىٰ وعيسىٰ في الثانية، وإدريس في الرابعة، وموسىٰ في السادسة علىٰ الصحيح، وإبراهيم في السابعة مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور)(٣).

وخبر الإسراء والمعراج مما تعددت فيه الروايات، مع اشتمال كل رواية علىٰ زيادة أو نقص عن الأخرىٰ، واكتفيت منها بما بدا لي أنه الأهم في الموضوع مما غالبه من الحديث الصحيح، وفيه مما اشتهر في كتب السير والدلائل.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٧).

(٢) ابن تيمية، الفتاوى (٤/ ٣٢٨)، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤١٤).

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ٩٩)، وهذا أحسن توجيه لذكر هؤلاء الأنبياء فقط دون غيرهم. مع أنه لم يذكر السماء الثالثة والخامسة.

نقف مع خبر الإسراء والمعراج؛ لنستفيد منه الفوائد التالية:

الأولىٰ: كانت حادثة الإسراء والمعراج معجزة باهرة، ومعلمة للنبوة جلية ظاهرة، وهي من خصوصيات نبينا محمد ﷺ، فلم يقع لغيره من الأنبياء والرسل مثلها أو شبيه بها حسب قول علمائنا[١]، وهي من الآيات المكية التي وقعت للنبي ﷺ قبل الهجرة، والمتتبع لسيرة النبي ﷺ يرىٰ أن ثمة أحوالًا أليمة وحوادث قد سبقت الإسراء والمعراج، فموت عمه أبي طالب الذي كان حصنًا له أمام الكفار وناصرًا، وموت زوجته خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أم المؤمنين، التي كانت الزوجة الوفية، سكن النبي ﷺ، وأيضًا هجرة من هاجر من أصحابه إلىٰ الحبشة فرارًا بدينهم، وخروجه ﷺ إلىٰ الطائف[٢]؛ داعيًا أهلها للإيمان والإسلام ونصرة الدين، فما كان منهم إلا أن رفضوه وما جاء به، فلما اجتمعت هذه الصعاب أكرمه الله -تبارك وتعالىٰ- بالمعجزة الساطعة والمكرمة الناصعة: الإسراء والمعراج[٣].

الثانية: كان زمن الإسراء والمعراج في وقت عصيب جدًّا من زمن الدعوة، فجاء الاحتفاء الرباني، بالنبي الكريم بأجلىٰ وأعظم صوره، وفي أحوج ما يكون إليه الرسول ﷺ كمثل الماء البارد السلسبيل، علىٰ الظمأ.

الثالثة: عندما نرىٰ مرور النبي ﷺ بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وتجاوزه لمنازلهم؛ ندرك شيئًا من منزلة نبينا محمد ﷺ ورفعة درجته وبيان فضله، قال النووي

---

(١) انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح (٤/ ١٦٥)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (٣/ ١٥)، والنووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٢١).

(٢) هذا الذي جرى عليه ابن القيم (٣/ ٣١ و٣٤) وغيره، وهو الذي مال إليه المباركفوري في الرحيق المختوم بعد عرضه للخلاف (ص ١٥٥) أن الخروج إلى الطائف سابق للإسراء، وفي المسألة خلاف أشار إليه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٠٨) وغيره.

(٣) انظر: مساعد الحميد، دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٥٨ - ٢٥٩)، (تعليق المحقق).

-رحمه الله تعالىٰ-: (قال القاضي -رحمه الله تعالىٰ-[1]: وفي علو منزلة نبينا ﷺ وارتفاعه فوق منازل سائر الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وبلوغه حيث بلغ من ملكوت السماوات دليل علىٰ علو درجته وإبانة فضله)[2].

الرابعة: عندما نقرأ ما جرىٰ في الإسراء والمعراج، ونرىٰ هذه المنزلة العظيمة للرسول ﷺ في الملأ الأعلىٰ، نسأل أنفسنا. ماذا قدمنا للرسول ﷺ، وهل عظّمناه، وهل وقَّرناه، كأنني عندما أستحضر صورة هذا السرور والتكريم والاحتفاء في الملأ الأعلىٰ من الرسل والملائكة، أقول في نفسي: هذا تعليم عملي لنا بمكانة الرسول ﷺ عند ربه، وفي الملأ، وفي الأرض.

فيا أهل الأرض من المؤمنين! ماذا فعلتم مع الرسول ﷺ، وأنتم ترون كيف الاحتفاء به في السماء؟ إن لم نتأسَّ بأولئك فقد قصرنا تقصيرًا بيِّنًا، وكما نُقل لنا صورة هذا التكريم، فقد جاءت آية كريمة تُصوِّر جانبًا من جوانب هذا التوقير العظيم للرسول ﷺ من ربه -جل شأنه- والملائكة الكرام، ثم تبعها أمر للأمة بأن تفعل ذات الفعل مع الرسول ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]؛ فعلىٰ قدر فهمي المتواضع، فإني أفهم من حادثة الإسراء والمعراج مثل ما أفهمه من هذه الآية الكريمة، لا فارق بينهما سوىٰ أن الإسراء والمعراج أمر لنا بصورة عملية، والآية أمر لنا بنص قرآني مباشر، وكلاهما تصبّ في معنًىٰ واحد، يا أيها الأمة المباركة، إن الله ورسله وملائكته يوقرون هذا النبي العظيم، فوَقِّروه، وعظِّموه واعرفوا حقه ﷺ.

الخامسة: إن حادثة الإسراء والمعراج تُذكّر بما طلبه خليل الرحمن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- عندما قال كما أخبرنا ربنا -سبحانه وتعالىٰ- في كتابه

(١) الظاهر أنه هو القاضي أبو محمد (وأبو علي) الحسين بن محمد بن أحمد المَرْوَرُّوْذِيّ (ت ٤٦٢) الفقيه الشافعي المعروف بالقاضي، صاحب التعليقة في الفقه.

(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٢١).

الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فإبراهيم -عليه السلام- (أحب أن يترقىٰ من علم اليقين في ذلك إلىٰ عين اليقين، وأن يرىٰ ذلك مشاهدة؛ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾)[1].

وقال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (أخبر تعالىٰ عن خليله إبراهيم -عليه السلام- أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتىٰ؛ لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله -تعالىٰ-، ولكنَّه أحب أن يشاهده عيانًا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعىٰ في نيله أولو العرفان)[2].

فاستجاب الله له، وحقَّق له مراده، وفي حادثة الإسراء والمعراج حقَّق الله لمحمد ﷺ إيمان عين اليقين بدون سؤال. تثبيتًا له وتكريمًا، وتواردت عليه من الأدلة اليقينية ما يزداد به إيمانه، ويكمل به إيقانه، لقد رأىٰ الملأ الأعلىٰ، ودخل الجنة، ورأىٰ الكوثر، ورأىٰ بعض من يُنعَّمون، ثم رأىٰ أناسا يُعذَّبون، ثم عُرج به إلىٰ مقام عَلِيٍّ عظيم، اصطفاه الله له -جل شأنه- سمع فيه صريف الأقلام، ورأىٰ من آيات الله الكبرىٰ؛ فأي منزلة نالها مخلوق غير محمد ﷺ؟!

السادسة: لا شك أنه ﷺ عاد بعد أن شاهد تلك الآيات الكبرىٰ أقوىٰ إيمانًا وأكمل إيقانًا وأمضىٰ ثباتًا في طريق الدعوة والصبر علىٰ أذىٰ المدعوين، وأكثر تحملًا لِعَنتهم وعداوتهم.

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٩).

(٢) تفسير السعدي (ص ١١٢).

فالإسراء والمعراج زادٌ زوَّده الله به، ليمضي في طريق الدعوة، ولو أراد الله -جل شأنه- ليَسَّر للرسول ﷺ طريق الدعوة، وألان له قلوب قريش والطائف، وجعلهم إما أن يستجيبوا، أو يكفوا أذاهم، ولكن الله -جل شأنه-، وهو الحكيم الخبير شاء المسلك الآخر، وهو أن يدع هؤلاء علىٰ فجورهم، ويقوي قلب الداعية لله -جل شأنه- محمد ﷺ، ويثبته، ويريه من آياته الكبرىٰ، ما يجعله لا يبالي بعنت هؤلاء وأذاهم، وما يُمكّنه من الاستمرار في الدعوة إلىٰ الله بثبات.

وهذا فيه المزيد من الرفعة للرسول ﷺ، والتشريع لمن بعده من الدعاة إلىٰ الله -جل شأنه-.

وحينئذ علىٰ الداعية إلىٰ الله أن يكثر من الدعاء بالتثبيت، وطلب العون من الله -جل شأنه-، وأن يهبه من الإيمان واليقين ما يطمئن قلبه، وما يجعله يمضي في طريقه لا يعوقه فجور فاجر. وهذا هو طريق الأنبياء والمرسلين.

السابعة: إن لجوء الداعية إلىٰ ربه وسؤاله أن يَرزقه ما يحصل به تثبيته وطمأنة قلبه ليترقىٰ إيمانه ويقوىٰ يقينه، ويمضي ثابتًا في طريق دعوته، ولو كانت أمورًا محسوسة، أمر مشروع؛ فقد أكرم الله نبيه محمدًا ﷺ بذلك في حادثة الإسراء والمعراج، وكان ذلك من غايتها، واستجاب دعاء إبراهيم الخليل -عليه السلام- لما دعا بذلك.

الثامنة: لقد جرىٰ شق صدر الرسول ﷺ مرتين؛ الأولىٰ في ديار بني سعد عندما كان عند مرضعته حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-. والثانية هنا، وفيها قال الرسول ﷺ: «فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد». ويلاحظ أن الفارق بين الشق الأولىٰ والثاني أنه قال في الأولىٰ فاستخرج حظّ الشيطان، أما هنا فجاءت الرواية أنه أحضر طستًا مملوءًا إيمانًا وغسل القلب ثم حشي. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقة

التي قيل له عندها هذا حظ الشيطان منك، والشق الثاني كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة)[1].

ألا نأخذ من هذا أهمية تطهير القلب وتنقيته من الشرك والمعاصي وسيئ الأخلاق، في كل أحوالنا بعامة!، وعند الوقوف بين يدي الله -سبحانه وتعالىٰ- بخاصة!!، فهو سبحانه الذي يعلم السر وأخفىٰ.

التاسعة: لقد فعلت قريش الأفاعيل من كل صور الإيذاء النفسي والبدني للرسول ﷺ رموا في طريقه الشوك، وألقوا علىٰ ظهره سلا الجزور، وحاولوا قتله، واستهزأوا به مرارًا، كل ذلك لإطفاء نور الله -جل شأنه-، ومَنْع الرسول ﷺ من إبلاغ رسالة ربّه، فهل يستطيعون أن يقفوا بينه وبين أن يُسرَىٰ به إلىٰ بيت المقدس ثم يُعرَج به إلىٰ ما فوق السابعة؟

إن الذي أسرىٰ به وعرج به إلىٰ مقام لم يصل إليه رسول قبله، قادر علىٰ أن ينصره ويُمكّنه من أن يبلّغ دينه ولو كره الكافرون، فهو درس في نظري من جانبين:

أ- لأعداء الدين، افعلوا ما شئتم فلن تستطيعوا أن تطفئوا نور الله، فالله متم نوره وناصر رسله.

ب- للدعاة إلىٰ الله، إن الذي أسرىٰ وعرج بمحمد ﷺ تأييدًا له ونصرًا قادر -جل شأنه- أن يثبّتكم علىٰ الطريق وينصركم، فلا تتعلقوا بأحد، ولا تنقطعوا، بل ارفعوا أكف الضراعة إلىٰ الله يرفع دعواتكم وينزل عليكم النصر، فهو القوي الناصر -سبحانه وتعالىٰ- الذي يعرج بدعواتكم إليه -سبحانه-.

العاشرة: كان مجمل الإسراء والمعراج تثبيت وتشريع: أما التثبيت فنفهمه من قول الله -تعالىٰ-: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، وقد أراه الله -جل شأنه- في الإسراء

(١) فتح الباري (١/ ٤٦٠).

والمعراج من الآيات الكبرىٰ التي تُثَبِّته، وتقوّي إيمانه، وتكمل إيقانه كما سبق أن ذكرت، وهذه غاية مهمة في هذه المرحلة العصيبة من الدعوة.

وأما التشريع، فهو تشريع الصلاة، فقد رأينا أن الرسول ﷺ فرض الله عليه خمسين صلاة في اليوم والليلة، وهذا هو التشريع الوحيد الذي أوردته السنة في الإسراء والمعراج، وهو دليل علىٰ أهمية هذه العبادة وخصوصيتها وتعظيم الله -جل شأنه- لها.

الحادية عشرة: حمل الرسول ﷺ رسالة من أبيه خليل الرحمن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- إلينا؛ أمة محمد ﷺ، تتضمّن السلام والنصيحة: «أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»؛ فنقول له: وعليك السلام والرحمة، وجزاك الله عنا خير ناصح لنا. ونسعىٰ إلىٰ العمل بهذه النصيحة العظيمة، التي لم يقلها من تلقاء نفسه -عليه السلام-، وإنما لخبر يقين عنده، فلنبادر ولنغرس لأنفسنا في الجنة بملازمة هذا الذكر العظيم «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»؛ أربع كلمات يسيرة في اللسان رفيعة عند الرحمن، عظيمة الأثر في الجنان.

الثانية عشرة: إن الرسول ﷺ بعد عودته أخبر قومه بالإسراء فقط، ثم بعد ذلك انتقل إلىٰ إخبارهم بالمعراج، وفي هذا تدرُّج في قبول المستمعين للخبر؛ إذا كان مما يصعب الاقتناع به، أو كان شاقًّا. يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وعاد علىٰ مكة، فأصبح بها وهو في غاية الثبات والسكينة والوقار، وقد عاين في تلك الليلة من الآيات والأمور التي لو رآها أو بعضها غيره لأصبح مندهشًا أو طائش العقل. ولكنه ﷺ أصبح واجمًا، أي ساكنًا، يخشىٰ إن بدأ فأخبر قومه بما رأىٰ أن يبادروا إلىٰ تكذيبه؛ فتلطف بإخبارهم أولًا بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة)(1).

(1) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٠٢). والبداية والنهاية (٤/ ٢٨٠).

الثالثة عشرة: إن هذه الحادثة، مع ما فيها من مزيد تسلط الكفار، وسخريتهم، إلا أنها محَّصت وميَّزت الفئة المؤمنة مع الرسول ﷺ:

١- فقد رفعت درجة أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولُقِّب بعدها بالصِّدِّيق. وكذلك سائر الصحب الأخيار الذين صدَّقوا وآمنوا ما أخبر به الرسول ﷺ.

٢- وكشفت عن ضَعْف في إيمان بعض الأشخاص، الذين ما لبثوا أن ارتدوا عن الإسلام بعد هذه الحادثة، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، ولعل من الخير للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- والمصلحة العامة للمؤمنين أن يخرج هؤلاء الضعفاء ويتميزوا وينكشفوا بدلًا من بقائهم داخل المجتمع المسلمين غير معروفين.

الرابعة عشرة: الذين كذّبوا الرسول ﷺ في قصته الإسراء واستبعدوا وقوعه، والذين لا يزالون ينكرون الإسراء والمعراج استبعادًا لإمكانه، غفلوا عن شيء مهم في الآية، فالله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾؛ فالله -جل شأنه- هو الذي أَسْرَىٰ بعبده، ولم ينسب الرسول ﷺ الإسراء إلىٰ نفسه[1]؛ فالذي يكذب بالإسراء ويستبعده، إنما يطعن في قدرة الله -سبحانه وتعالىٰ-، وليس في قدرة الرسول ﷺ.

بالإضافة إلىٰ أنَّ ما كان مستحيلًا علىٰ البشر في عصر قريش، أصبح الآن أمرًا عاديًا، فالذهاب إلىٰ بيت المقدس والعودة منه في ليلة واحدة، كان مستحيلًا في القدرة البشرية، في ذلك الوقت، والآن أصبح من السهل أن يسافر الشخص بالطائرة ويعود خلال ساعات معدودة لما هو أبعد من بيت المقدس.

ولذلك فليس العقل المجرد معيارًا لتصديق الخبر أو تكذيبه، فما يجعله العقل مستحيلًا، في زمن من الأزمنة، كثيرًا ما نراه أصبح أمرًا مألوفًا معتادًا في زماننا، وقد يأتي يوم يجعل ما كنا نراه الآن مستحيلًا، يصبح أمرًا عاديًا مألوفًا،

(١) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (٣/ ١٥).

فلا تتعجل بتكذيب أو استبعاد ما ثبت شرعًا؛ لمخالفته عقلك، فالشرع لا يتغير، والعقل يتطور ويتغير.

الخامسة عشرة: وقع في الإسراء والمعراج العديد من الآيات الخارقة للعادة، وفي ذلك يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرُّض لصرفه عن حقيقته؛ لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك)[1].

السادسة عشرة: كان من حكمة الإسراء قبل المعراج (إرادة إظهار الحق لمعاندة من يريد إخماده؛ لأنه لو عرج به من مكة إلىٰ السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلًا إلىٰ البيان والإيضاح، فلما ذكر أنه أسري به إلىٰ بيت المقدس سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك؛ فلما أخبرهم بها، حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلىٰ بيت المقدس في ليلة، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره)[2].

السابعة عشرة: في الإسراء إلىٰ بيت المقدس ثم العروج منه إلىٰ السماء دلالة علىٰ ما لهذا المسجد من مكانة وأهمية خاصةً ينبغي أن يدركها المسلمون في كل مكان، فلا يتهاونوا بالمسجد الأقصىٰ أولىٰ القبلتين ومسرىٰ رسول الله ﷺ.

الثامنة عشرة: «تضمنت قصة المعراج العديد من الخوارق، وقد سلك البعض في محاولة الرد علىٰ منكريها إقامة الدليل علىٰ أن ذلك الأمر جارٍ علىٰ ناموس الطبيعة المطردة، وأنه مألوف في الخلق معروف، وفي الواقع حينما نسلك هذا المسلك نكون قد أخرجنا هذا الأمر عن أن يكون معجزًا، وأن يكون من خصائص النبوة.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٠ - ٢٠١)، ونسبه إلى ابن أبي جمرة. وانظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح (٤/ ١٦٤ - ١٦٥).

والطريقة الصحيحة أن يكون المعترض إما مؤمنًا بالله وبالرسالة وبالرسول ﷺ، أو يكون منكرًا ذلك.

فإن كان الأول لم يكن علينا أكثر من أن نبيّن له أن هذا الأمر قد جاء بسند صحيح عن صاحب الرسالة.

وإن كان الآخر، فهو إلىٰ إقامة الدليل علىٰ الله وعلىٰ رسوله أحوج منه إلىٰ إقامة الدليل علىٰ المعراج وما فيه.

وليس من الأسلوب الصحيح أن نأتي علىٰ من ينكر وجود الله -جل شأنه، وتعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-، وينكر أنبياءه وكتبه، ونتعب أنفسنا في سبيل إقناعه بالمعراج، فإن هذا لا يحقّق النتيجة التي نحاول الوصول إليها، وهي أن نثبت أن محمدًا رسول الله ﷺ، بل نحن نسعىٰ إلىٰ صد الناس عن الإيمان بذلك؛ لأننا إذا أقنعنا المخالف بأن المعراج ليس مما يخص رسول الله ﷺ، بل يكون ذلك له ولغيره حسب نواميس الطبيعة نزعنا الإعجاز عنه، وهل يكون الرسول رسولًا إلا بالآيات؟ وهذا الرأي الذي يسلكه البعض عقيم الإنتاج، لا ينصر إيمانًا ولا يكسر كفرانًا.

والطريقة الصحيحة أن نقيم الدليل قبل كل شيء علىٰ الإله، الذي يقول لشيء كن فيكون، فإذا ما اعترفوا به، لم يجدوا مانعًا من أن يؤمنوا بالدين، وما جاء به الدين من أمور تَحار فيها العقول الجبارة، ومن ضمنها ما علمناه من تفاصيل أخبار الإسراء والمعراج وغيرها من المعجزات)[1].

التاسعة عشرة: يقول الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يأتنا نصّ جليّ بأن النبي ﷺ رأىٰ الله -تعالىٰ- بعينيه، وهذه المسألة مما يسع المرء المسلم في دينه

---

(١) عبد الله القصيمي، مشكلات الحديث النبوية وبيانها (ص ١٨٦ – ١٩٥)، (باكستان، دار الدعوة السلفية، ١٤٠٦هـ).

السكوت عنها. فأما رؤية المنام: فجاءت من وجوه متعددة مستفيضة. وأما رؤية الله عيانًا في الآخرة؛ فأمر مُتيقَّن، تواترت به النصوص)[1].

العشرون: لم يرد في تحديد تاريخ الإسراء والمعراج مستند يُعوَّل عليه، ولذلك كثر الخلاف في هذه المسألة، وتعددت الأقوال فيها. وهذا يدلنا -كما قلنا في تاريخ مولده ﷺ- أن ليلة الإسراء والمعراج ليست لها أفضلية على سائر الليالي في العمل والعبادة، فلا يُشرع في تلك الليلة مزيد عبادة سواء أكانت تلك العبادة صلاة أم عمرة أم صدقة، ولو كان لتلك الليلة أفضلية خاصة في العبادة لبُيِّنت لنا بيانًا يقطع الشك ويزيل الخلاف.

قال القسطلاني -رحمه الله تعالىٰ- نقلًا عن الشيخ أبي أمامة بن النقاش -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما ليلة الإسراء فلم يأتِ في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يعيّنها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلىٰ الآن ولا إلىٰ أن تقوم الساعة فيها شيء، ومن قال فيها شيئًا فإنما قاله من كِيسه؛ لمُرجِّح ظهر له استأنس به، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها علىٰ شيء ولو تعلق بها نفع للأمة ولو بِذَرَّةٍ لبيَّنه لهم نبيهم ﷺ)[2].

ونقل ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- قوله: (لم يقم دليل معلوم علىٰ ليلة الإسراء ولا علىٰ شهرها ولا علىٰ عشرها ولا علىٰ عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ليس فيها ما يُقطَع به، ولا شُرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره)[3].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦٧).
(٢) القسطلاني، المواهب اللدنية (٣/ ١٤).
(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٥٧).

أما ما يعتقده بعض العامة من أن الإسراء كان في رجب؛ فقد قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ-: (لم يثبت من طريق صحيح ولا حسن، أن الإسراء كان في رجب، والوارد في ذلك لا أصل له)[1]. ويقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما الإسراء والمعراج الذي اشتهر عند كثير من الناس أو أكثرهم أنه في رجب وفي ليلة السابع والعشرين منه، فهذا لا صحة له إطلاقًا، وأحسن وأظهر الأقوال أن الإسراء والمعراج كان في ربيع الأول)[2]. فهذه أقوال جملة من العلماء في القديم والحديث أن الإسراء والمعراج لم يثبت زمنه بدليل صحيح.

الحادية والعشرون: لما علم كفار قريش بخبر الإسراء، كانوا بين مُصفّق، وبين واضع يده علىٰ رأسه مستعجبًا للكذب زعم! والتصفيق عند التعجب في الاحتفالات والاجتماعات هو مما دخل علىٰ المسلمين في الأزمان المتأخرة (تشبهًا بما لدىٰ المشركين من التصفيق للتشجيع والتعجب)[3]. والتصفيق إما أن يكون علىٰ وجه العبادة كما يفعله الصوفية ونحوهم أو أن يكون علىٰ وجه العادة كالتصفيق في الاحتفالات للتعجب والتشجيع ونحوه، فـ(إن وقع علىٰ وجه التعبد فهو بدعة محرمة شرعًا؛ لأن التصفيق لم يتعبَّدنا الله به، وهو نظير ما ابتدعه المتصوفة من التصفيق حال الذكر والدعاء، وإن وقع التصفيق المذكور علىٰ وجه العادة، فهو مُنكَر مُحرَّم؛ لأنه تشبُّه)[4]، وسبق أن أشرنا إلىٰ التصفيق وحكمه في قصة إسلام عمر ﷺ.

الثانية والعشرون: في ترحيب أهل السماوات بالرسول ﷺ دليل علىٰ استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء[5]، وأهل الفضل ممن لهم فضل

(١) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، منهج التشريع الإسلامي وحكمته (المدينة، المكتبة العلمية د. ت)، (ص ٣١).

(٢) محمد العثيمين، مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٤).

(٣) بكر أبو زيد، تصحيح الدعاء (ص ٨٧).

(٤) بكر أبو زيد، تصحيح الدعاء (ص ٨٨).

(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢١٧).

خاص كالوالدين ونحوهم أو فضل عام كالعلماء ونحوهم، فهؤلاء يُستقبلون ويُتلقون بالبِشْر والترحيب والثناء والدعاء بما يدل علىٰ توقيرهم وتقديرهم واحترامهم.

الثالثة والعشرون: لقد كان موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- ناصحًا للرسول ﷺ وأُمّته حينما عرض عليه أن يعود؛ ليطلب التخفيف، ويؤخذ من هذا (بذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك)[1].

الرابعة والعشرون: هناك مَن يحتج بما جرىٰ بين الرسول ﷺ وموسىٰ -عليه الصلاة والسلام- علىٰ انتفاع الحي بالميت، والجواب علىٰ هذا ما يلي:

١) إن معراج الرسول ﷺ ومشاهدته ما شاهده في هذا المعراج كله معجزة أو آية للرسول ﷺ لا يصح أن يُقاس عليه أحوال الناس، فهل يسوغ لشخص الآن أن يستدل بإمكان وصول البشر إلىٰ السماء السابعة؛ لأن الرسول ﷺ عُرج به إلىٰ هناك؟

٢) إن ما جرىٰ في المعراج حوار ومراجعات ومشاورات بناء علىٰ رؤية محسوسة متبادلة بين الطرفين، شاهَد وكلَّم كلّ واحد منهما الآخر كما لو كانا يتكلمان في الدنيا، وليست دعاء حي لميت يرجو نفعه، بل كانوا جميعًا أحياء بقدرة الله -جل شأنه-، والرسول ﷺ لم يذهب إلىٰ قبر موسىٰ -عليه السلام-؛ ليطلب نفعه، وإنما أحيا الله -جل شأنه- الأنبياء الذين قابلهم الرسول ﷺ، ومنهم موسىٰ -عليه السلام-، فكلا الطرفين أحياء، ولو كان ما جرىٰ مثل ما يفعله بعض الناس عند القبور لم يكن في الأمر معجزة[2].

الخامسة والعشرون: في اختصاص الصلاة بتشريعها في المعراج بهذه الصورة، بيان لمكانة هذه الصلاة في الإسلام[3]، فهي عمود الإسلام، وركن مهم فيه، ومن

(١) المرجع السابق (ص ٢١٨).

(٢) انظر: عبد الله بن منيع، مجموع فتاوى وبحوث (١/ ١٩٥) بتصرف.

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢١٦). ومن المعلوم أن الصلاة كانت مشروعة منذ بداية البعثة كما مر، لكن تشريعها بهذه الصفة كان في المعراج.

ضيَّعها فهو لما عداها أكثر تضييعًا، ومن حافظ علىٰ هذه الخمس صلوات في اليوم والليلة، فكأنما حافظ علىٰ خمسين صلاة، وذلك من فضل الله -سبحانه وتعالىٰ-.

يقول فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأمل كيف أخَّر فرضيتها إلىٰ تلك الليلة إشادةً بها وبيانًا لأهميتها؛ لأنها:

أولًا: فُرضت من الله -عز وجل- إلىٰ رسوله ﷺ بدون واسطة.

ثانيًا: فُرضت في ليلة هي أفضل الليالي لرسول الله ﷺ.

ثالثًا: فُرضت في أعلىٰ مكان يصل إليه البشر.

رابعًا: فُرضت خمسين صلاة، وهذا يدل علىٰ محبة الله لها وعنايته بها -سبحانه وتعالىٰ-، لكنْ خُفِّفت فجعلت خمسًا بالفعل وخمسين بالميزان، غير الخمسين التي الحسنة بعشر أمثالها؛ لأنه لو كان المراد الحسنة بعشر أمثالها، لم يكن لها مزية علىٰ غيرها من العبادات، إذ كل عبادة الحسنة بعشر أمثالها، لكن الظاهر أنه يُكتب للإنسان أجر خمسين صلاة وهذا فضل عظيم من الله -عز وجل- بالنسبة لهذه الأمة)[1].

السادسة والعشرون: في قول موسىٰ -عليه السلام-: «وإني والله قد جرّبت الناس قبلك» دليل علىٰ أن التجربة -كما يقول ابن حجر رحمه الله تعالىٰ- أقوىٰ في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة[2].

السابعة والعشرون: كانت حادثة الإسراء والمعراج من فتنة الشبهات[3] التي يبتلىٰ بها المسلم والتي كثيرًا ما يثيرها الأعداء، ولما أثار الأعداء هذه الشبهة سقط

(١) محمد بن صالح العثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع (٢/ ٦)، وشرح رياض الصالحين (٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢١٨).

(٣) انظر: عبد العزيز الحميدي، المنافقون في القرآن الكريم (ص ١٠٦).

فيها من سقط، ولا يزال الأعداء يثيرون الشبهات علىٰ المسلمين في كل وقت، تلبيسًا علىٰ المسلمين، وصدًّا لغيرهم عن الإسلام، ورد الشبهات يكون بالعلم الشرعي الذي يبطل كيد الأعداء ويرده في نحورهم.

الثامنة والعشرون: التعامل مع خبر الإسراء والمعراج يدلنا علىٰ أمر مهم؛ هو أن الدين ليس بالعقل، وإنما بالوحي والنص (وأصل الشر من تقديم الرأي علىٰ النص، والهوىٰ علىٰ الشرع، فمن نوَّر الله قلبه، فرأىٰ ما في النص والشرع من الصلاح والخير، وإلا فعليه الانقياد لنص رسول الله ﷺ وشرعه، وليس له معارضته برأيه وهواه)[1]، فـ(العقول لا تستقلّ بإدراك مصالحها دون الوحي)[2]، فمن استعمل عقله في خبر الإسراء والمعراج وتجاهل النص أضله عقله، ومن سلّم للنص واستسلم له، فقد وفَّقه الله وهداه، وقدوة الفريق الثاني الصِّدِّيق رضي الله عنه الذي بادر إلىٰ تصديق الرسول ﷺ دون تردد، مؤكدًا أن أهم أمر هو صحة نسبة الخبر إلىٰ الرسول ﷺ، فإذا ثبتت هذه النسبة وتحقَّق من قول الرسول ﷺ فليس بعد ذلك إلا التصديق والامتثال وعندها كان جديرًا بهذا الوصف العظيم (الصِّدِّيق) وحريًا بالاقتداء به رضي الله عنه في كلّ موقف مشابه.

التاسعة والعشرون: إن العقل لا يستقلّ بمعرفة الحقائق الواقعية، سواء كانت حقائق كونية طبيعية، أو حقائق وأحكامًا دينية، وإنما يستمد العقل مادته العلمية مما يأتيه عن طريق الحواس، ولا سيما السمع والبصر، لكن ما تأتي به الحواس إنما هو بمثابة المادة الخام، فالعقل هو الذي حوَّلها إلىٰ معانٍ[3].

هذا التمهيد قصدت به بيان خطأ الذين أنكروا الإسراء إلىٰ بيت المقدس في ليلة واحدة؛ لأن السمع والبصر في وقتهم أعطاهم معلومات ناقصة، فبنوا عليها

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة (٨/ ٤١١).

(٢) الشاطبي، الاعتصام (١/ ٤٧).

(٣) انظر: جعفر شيخ إدريس، مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، (الرياض: مركز البيان للبحوث والدراسات ١٤٣٧)، (ص ٦٣).

حكمهم، أعطاهم معلومات أنَّ الذهاب إلىٰ بيت المقدس والعودة منه، يحتاج إلىٰ شهر، فكيف يدَّعي محمد ﷺ أنه ذهب وعاد في ليلة؟! لكنَّ المعلومة التي لديهم، كانت معلومة ناقصة، بدليل أن أيًّا منهم لو عاش في زماننا، لرأىٰ أن هذا الأمر أقل من الأمر المعتاد؛ إذ أصبح بإمكان الشخص أن يذهب إلىٰ بيت المقدس ويعود في غضون ساعات وليس ليلة كاملة.

ولذلك فالعقل ليس مصدرًا للمعرفة، وإنما وسيلة للمعرفة، ومصادر المعرفة هي الوحي والكون فقط، أما العقل فهو وسيلة يتلقىٰ المعلومات التي تصله من الحواس (السمع والبصر واللمس والشم والذوق)، ثم يُميِّز بين صحيح هذه المعلومات وباطلها بناء علىٰ ما لديه من خلفية فكرية سابقة، فالبدوي الذي عاش في البادية يعطي أحكامًا علىٰ ما يراه بناء ما تكوَّن لديه من معلومات في البدو، والقروي الذي عاش في القرية، كذلك يعطي أحكامًا علىٰ ما يراه بناء علىٰ ما تكوَّن لديه من معلومات في القرية، وكذلك المثقف ابن المدينة المطّلع علىٰ صور من الحضارة والمدنية، يعطي أحكامًا علىٰ ما يراه بناء علىٰ ما تكوَّن لديه من معلومات، ولو كان المرئي واحدًا، عند البدوي والقروي والمدني.

فمثلًا الراديو أول ما وصل للناس، أنكره البدوي، وظن أنه شيء من الجن، وهرب منه، والقروي ظن أنه شيطان، وصار يقرأ عليه القرآن ليخرج الشيطان الذي فيه، والمدني جلس يستمع إلىٰ ما فيه من أخبار ويراه أمرًا عاديًّا.

وليس المؤثر هنا هو العقل، فقد يكون هذا البدوي أذكىٰ بكثير من المدني، ولكن المؤثر هنا هو المعلومات السابقة المتوافرة لدىٰ عقله التي سبق أن وصلته عن طريق السمع والبصر، وجعلها حكمًا علىٰ المعلومة الجديدة.

وهذا يشبه حادثة الإسراء فالذين أنكروها، إنما كان إنكارهم مستندًا إلىٰ المعلومات السابقة المخزَّنة في ذاكراتهم التي وصلتهم عن طريق سمعهم وأبصارهم،

فجعلوا العقل مصدرًا، وهو ليس كذلك بل وسيلة، والمصدر هنا في هذه المعلومة في وقتهم هو الوحي، ولذلك سلم وصدق أبو بكر ﷺ للوحي، وفي وقتنا هذه المعلومة تُدْرَك إما بالوحي، وتُدرك بمشاهدة الكون؛ لأنها أصبحت أمرًا مشاهدًا في الناس.

الثلاثون: يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (قول الملائكة للنبي ﷺ: «مرحبًا به» أصل في استعمال هذه الألفاظ، وما ناسبها عند اللقاء نحو أهلًا وسهلًا ومرحبًا وكرامةً وخير مَقْدم وأَيْمن مورد، ونحوها، ووقع الاقتصار منها علىٰ لفظ «مرحبًا» وحدها لاقتضاء الحال لها، فإن الترحيب هو السعة، وكان قد أفضىٰ إلىٰ واسع الأماكن ولم يطلق فيها سهلًا؛ لأن معناه وطئت مكانًا سهلًا، والنبي ﷺ كان محمولًا إلىٰ السماء)[1].

الحادية والثلاثون: قال ابن بطال -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه: دليل أن أوامر الله -تعالىٰ-، تُكتب بأقلام شتَّىٰ؛ لقوله: (أسمع صريف الأقلام)، ففي هذا أن العلم ينبغي أن يُكتب بأقلام كثيرة، تلك سنة في سماواته، فكيف في أرضه)[2]؛ فالعلم حفظه بتدوينه بالقلم، عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «قيِّدوا العلم بالكتاب»[3].

وقال الشاعر:

العلـم صيد والكـتابة قيـده قيِّد صيودك بالحبال الـواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة وتتركها بين الخـلائق طالقة

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٥).
(٢) ابن بطال، شرح صحيح البخاري (٢/ ١٣).
(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٠٦) رقم (٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨١٦) رقم (٤٤٣٤)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥/ ٤٠) رقم (٢٠٢٦)، وقال: «وهذا إسناد حسن، ورجاله كلهم على شرط البخاري ولولا أن في ابن أبي أويس كلامًا في حفظه لصححته».

الثانية والثلاثون: تحية المسلمين هي البدء بالسلام: أي السلام عليكم وإن أكملها بقوله ورحمة الله وبركاته فزيادة خير. ثم بعد ذلك الترحيب، إن أراد الزيادة علىٰ ذلك.

وهذا ما ورد في المعراج، ففي صحيح البخاري -في الحديث أعلاه- أن الرسول ﷺ كلما قابل نبيًّا في السماء بدأ النبي بالسلام، ثم يرد -عليه السلام- ويقول بعد ذلك مرحبًا.

فابدأ بالسلام تحية الإسلام والمسلمين، ثم رحِّب بما تشاء من عبارات الترحيب.

المبحث الثاني

فقه السيرة في العرض على الأفراد والقبائل

كان الرسول ﷺ لا يدع وافدًا من العرب له اسم وشرف إلا دعاه وعرض عليه ما عنده[1]، وقد حصل من بعضهم علىٰ ردود طيبة، ومن هؤلاء:

١) سويد بن صامت: كان شاعرًا لبيبًا من سكان المدينة، يُسَمِّيه قومُه الكاملَ؛ لجَلَدِه وشِعْره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمرًا، فدعاه الرسول ﷺ إلىٰ الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال الرسول ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: حكمة لقمان، قال: «اعرضها عليَّ» فعرضها، فقال الرسول ﷺ: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله -تعالىٰ- عليَّ هو هدىً ونور»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلىٰ الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه إلىٰ المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج، فكان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قُتِلَ وهو مسلم[2].

٢) الطفيل بن عمرو الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه-: كان سيدًا مطاعًا في دوس، فلما قدم مكة اجتمع به أشراف قريش وحذّروه من رسول الله ﷺ، قال: فو الله ما زالوا بي حتىٰ أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا، حتىٰ حشوتُ أذني قطنًا، قال:

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٦)، وابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى (١/ ٣٤٤)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٤٧).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٤٧)، والمباركفوري، الرحيق المختوم (ص ١٤٨-١٤٩)، وجزم بإسلامه، ولكن ابن حجر-رحمه الله تعالى- قال في الإصابة (٣/ ١٨٩): (ذكره ابن شاهين -أي سويد بن الصامت- وقال شُكّ في إسلامه، وقال أبو عمر: أنا أشك فيه كما شك غيري) والله أعلم.

فغدوتُ إلىٰ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، قال: فقمتُ قريبًا منه، فأبىٰ الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله، فسمعتُ كلامًا حسنًا، قال: فقلتُ في نفسي: إني لَرَجُلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يخفىٰ عليَّ الْحَسَنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقوله... فلما انصرف محمد ﷺ تبعته وأخبرته ما قالت قريش، فأبىٰ الله إلا أن يسمعني قولَك، فسمعت قولًا حسنًا، فاعرض عليَّ أمرَك، فعرض عليه الرسولُ ﷺ الإسلامَ وتلا عليه القرآنَ، قال: فأسلمتُ وقلتُ: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم وداعيهم إلىٰ الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه... إلخ القصة[1].

وكما كان النبي ﷺ يعرض نفسه علىٰ الأفراد، فقد كان يعرضها علىٰ القبائل الوافدة إلىٰ مكة للحج أو العمرة أو المواسم، وذلك ليؤووه وينصروه ويدعوهم إلىٰ التوحيد[2].

عن موسىٰ بن عقبة -رحمه الله تعالىٰ-، عن ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-، قال: (كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول: «لا أُكره أحدًا منكم علىٰ شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، وإنما أريد أن تحرزوني[3] مما يراد بي من القتل حتىٰ أبلغ رسالات ربي وحتىٰ يقضي الله -عز وجل- لي ولمن صحبني بما شاء الله»، فلم يقبله أحد منهم، ولم يأتِ أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به. أترون أن رجلًا يُصلحنا،

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٩٩)، وابن حجر، الإصابة (٣/ ٢٨٧)، ونقل عن الأصبهاني أن النبي ﷺ تلا عليه الإخلاص والمعوذتين، فأسلم في الحال. لكن هل نزلت الإخلاص والمعوذتان في ذلك الوقت؟

(٢) انظر: الشامي، سبل الهدى (٢/ ٥٩٣).

(٣) تحرزوني أي: تحفظوني وتحرسوني، ففي القاموس: وحرزه: حفظه، أو هو إبدال، والأصل حرسه.

وقد أفسد قومه ولفظوه، فكان ذلك مما ذخر الله -عز وجل- للأنصار وأكرمهم به)[1].

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه علىٰ الناس بالموقف فقال: «ألا رجل يحملني إلىٰ قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلّغ كلام ربي)[2].

وكان يسأل عن القبائل قبيلة، قبيلة ويقول: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، وكان لا يفتر عن قول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، وكان وراءه أبو لهب يسير خلفه ويقول: إنه صابئ كاذب[3]، ولم يكن أبو لهب يكتفي بالقول، بل كان يؤذي رسول الله ﷺ ويرميه بالحجارة حتىٰ أدمىٰ كعبيه الشريفتين[4]، وكان ﷺ يفر منه[5]، ويُعرض عنه ولا يلتفت إليه[6].

وفي رواية أخرىٰ في المسند (كان أبو جهل خلفه يحثي عليه التراب، ويقول: يا أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٤١٤) وأخرجه أبو نعيم (ت: ٤٣٠)، دلائل النبوة تحقيق محمد رواس قلعة جي وزميله، الطبعة الثانية (بيروت: دار النفائس ١٤٠٦)، (١/ ٢٩٥) رقم (٢٢١) عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٥٨) وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٢٠). وابن الجوزي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (١/ ١٧٤). كلهم (قال: موسى بن عقبة عن الزهري).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود للألباني (٣/ ٨٩٧) رقم (٣٩٦٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزملائه، إشراف عبد الله التركي (٢٥/ ٤٠٤) رقم (١٦٠٢٣)، وقال المحقق: (صحيح بغيره)، والبيهقي، السنن الكبرى (٦/ ٢١).

(٤) انظر: البيهقي، السنن الكبرى (٦/ ٢١).

(٥) انظر: الإمام أحمد، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء (٢٠ / ٢١٧).

(٦) انظر: الشامي، سبل الهدى (٢/ ٥٩٥).

والعزىٰ، قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ)[1].

ومن أبرز القبائل التي عرض الرسول ﷺ نفسه عليها: بنو عامر ابن صعصعة، ومحارب بن فزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وكندة من قبائل اليمن وكلب، والحارث ابن كعب، وعذرة، والحضارمة، وبكر بن وائل ممن سكن جوار فارس، وبني شيبان بن ثعلبة، وفيهم المثنىٰ بن حارثة الشيباني، وكان كبيرًا فيهم، ولكنهم لم يستجيبوا، وإن تفاوتت ردودهم بين رد قبيح كما فعل بنو حنيفة أو رد غير سيئ كما فعل بنو شيبان[2]، وكانت هذه المواسم فرصة للنبي ﷺ؛ ليلتقي بكثير من القبائل العربية من شمال البلاد العربية ومن جنوبها، وممن جاوروا الروم أو جاوروا الفرس[3].

نقف مع هذا الجزء المهم من السيرة النبوية؛ لنأخذ منه الفوائد التالية:

أولًا: إن قريشًا لم تكتفِ بالإعراض عن الدعوة ورفضها، بل كانت تريد من الآخرين أن يرفضوها. فكانت عداوتهم الشرسة موجهة نحو هذا التوحيد الذي يدعو إليه محمد ﷺ؛ كي لا يظهر، مهما كلفهم، يريدون الوثنية أن تعلو، اسمع إلىٰ قول أبي جهل (لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزىٰ)؛ فالعداوة لكلمة التوحيد خشية أن تعلو، لا لشخص محمد ﷺ، العداوة لهذا النور؛ نور التوحيد يريدون أن يطفئوه؛ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

---

(١) الإمام أحمد، المسند (٢٧/ ١٤٨) رقم (١٦٦٠٣)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢١-٢٢)، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح» ا.هـ.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٣٨- ١٤٤).

(٣) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (١/ ٥٨٨).

وللأسف أن العداوة للتوحيد، لا تزال قائمة، إما من شخص مشرك، عدو للدين أصلًا، أو من شخص مسلم التبس الأمر عليه، فعادىٰ دعوة التوحيد؛ لأنه لم يفهم دعوة الرسول ﷺ.

ثانيًا: إن قريشًا كانت تسعىٰ جاهدة لمنع الوافدين من قبول هذه الدعوة، ومنع الرسول ﷺ من إيجاد مخرج لها؛ فكانت تُحَذّر كلّ وافد إلىٰ مكة بطريقين:

الأول: إما أن تقابل كل وافد من أشراف العرب وذي المكانة فتحذّره من الاستماع لمحمد ﷺ، وتبالغ في ذلك أشد المبالغة حتىٰ إن الشخص يضع في أذنه قطنًا خشية السماع من محمد ﷺ من عظم التشويه الذي سمعه من قريش.

الثاني: أو تلاحق محمدًا ﷺ، بل لو قلت؛ تطارد محمدًا ﷺ مطاردة مستمرة عندما يعرض نفسه علىٰ القبائل، من أجل إيذائه، لعله يملّ، أو يتم تشويهه، لعله يُرفَض من القبائل العربية.

واللافت للنظر أن كفار قريش من شدة عداوتهم، لم يكونوا يرسلوا مندوبين منهم لمتابعة محمد ﷺ، بل كان الزعماء والكبراء منهم يباشرون ذلك بأنفسهم كأبي جهل وأبي لهب، كل منهم يدور بنفسه خلف الرسول ﷺ حيثما سار الرسول ﷺ بين القبائل الوافدة إلىٰ مكة، يرميه بالحجارة ويحذر منه العرب.

وهذا أمر يدعو إلىٰ العجب، كيف أن هؤلاء الكبراء من قريش تركوا أعمالهم وتفرغوا لملاحقة الرسول ﷺ حيثما ذهب، وتحذير القبائل منه، وهذا يدل علىٰ شدة خوف قريش من ظهور دعوة محمد ﷺ، وفي الوقت ذاته يكشف جَلَد الأعداء في محاربة دين الله، وأهل الحق هم الأَوْلَىٰ بالصبر والتَّحمُّل لنصرة دينهم.

ثالثًا: لماذا كان كفار قريش يخشون من سماع الناس لمحمد ﷺ؛ لأنهم يعلمون أنه يحمل الحق، وأن العقول إذا سمعته قبلته، وأن القلوب إذا أصغت إليه سكنت إليه

واطمأنت. فكان سبيلهم الوحيد هو الاجتهاد في صدّ الناس عن سماعه، وتشويهه حتىٰ ينفروا من الإصغاء إليه.

وهذا هو الواقع اليوم؛ فالأعداء يعرفون أن الإسلام هو الحق، ولكنهم يشوّهونه بكل السبل، ويمنعون الناس من السماع للدعاة، بتشويههم ووصفهم بالأوصاف المنفِّرة منهم.

وكان الرسول ﷺ يمضي في طريقه، لا يعبأ بهم، ولا يلتفت إليهم، واثقٌ من نصر الله له، وأن هذا الحق سيصل وسيلقىٰ القبول ولو كره الكافرون، ولو حاربه المشركون، ولكل داعية الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ.

رابعًا: لقد اشتد إيذاء قريش علىٰ الرسول ﷺ، مما ألجأه إلىٰ أن يعرض نفسه علىٰ القبائل الوافدة إلىٰ مكة إما للحج أو العمرة وللأسواق التجارية، وكان يؤمل منهم أحد أمرين:

الأول: أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا بالله ويقولوا كلمة التوحيد ففيها فلاحهم.

الثاني: إن لم يقبلوا بالأولىٰ، فيريد منهم أن يحموه فقط، ممن يريد منعه من إبلاغ رسالة ربه، ولهم أن يبقوا علىٰ دينهم، لا يكرههم علىٰ شيء من ذلك.

الرسول ﷺ يقول للناس، بكل وضوح، لا أجبر شخصًا علىٰ الإيمان لا أنتم ولا غيركم، لكن لديَّ رسالة من الله يجب عليَّ إبلاغها، وقريش فجرت في ظلمها وطغيانها، تريد أن تمنعني بالقوة والإيذاء أن أبلغها للناس، وأريد من يحميني لأبلغ الرسالة، وله أن يبقىٰ علىٰ دينه.

ومع ذلك، لم تتركه قريش، ولم تقبل القبائل العربية حمايته؛ لضراوة التشويه الذي بثَّته قريش في القبائل، خاصةً وأن قريشًا لها مكانتها بين القبائل العربية. فهل هناك ظلم وفجور أشد من هذا الظلم والفجور؟! والعياذ بالله.

خامسًا: إننا نجد أن الرسول ﷺ يقول للقبائل: «إنما أريد أن تحروزني -أي تحفظونني- مما يراد بي من القتل حتىٰ أبلغ رسالات ربي»؛ فالرسول ﷺ كان يدرك أنه مُهدّد بالقتل ومع ذلك كان ماضيًا في دعوته، يبحث لها عن مخرج.

سادسًا: جواز دخول المسلم في حماية الكافر، إذا لم يجد بديلًا، وكان في ذلك مصلحة شرعية غالبة. والرسول هنا التمس من القبائل العربية المشركة الحماية، لا لشخصه وإنما لدعوته إلىٰ الله؛ لأنه لو سكت عن هذه الدعوة، لم يُؤْذَ، ولم يحتج إلىٰ حماية؛ فهو في الحقيقة يريد حماية الدعوة وتمكينها من الانتشار، ولو عُرض عليه حمايته شخصيًّا، مع السكوت عن الدعوة لما قبل أصلًا، ولذلك فالحماية هنا حماية مبدأ، لا حماية شخص، لكن إذا اضطر الشخص إلىٰ حماية الكافر، لكي يدعو إلىٰ الله -جل شأنه-، فهذه مصلحة شرعية، علىٰ ألّا يترتب عليها مفسدة أشد، كموالاة، أو موادّة، أو تنازل عما لا يجوز التنازل عنه.

سابعًا: إن الحق عليه نور، مَن سمعه قبله، ولذلك نجد أن سويد بن الصامت بمجرد سماعه لكلام الرسول ﷺ قال: هذا القول حسن، والطفيل الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه-، رغم التحذير الشديد الذي جاءه من كفار قريش، أدرك خطأ قريش وتضليلهم بمجرد أن أوضح الرسول ﷺ له هذا الدين فأسلم، وعاد إلىٰ أهله داعية إلىٰ الإسلام.

ولذلك علىٰ الداعية إلىٰ الله أن يحرص علىٰ إسماع الناس هذا الدين، هذا القرآن، وهو بذاته له نور يدركه سامعه بمجرد سماعه أنه الحق. قال -تعالىٰ-: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

ثامنًا: إن الرسول ﷺ يكثر في دعوة الناس من تلاوة آيات قرآنية؛ فسويد بن الصامت تلا عليه الرسول ﷺ شيئًا من القرآن الكريم فتأثر، والطفيل بن عمر الدوسي رضي الله عنه أيضًا تلا عليه شيئًا من القرآن الكريم، فأسلم في الحال، وكان ﷺ يتلو

القرآنَ الكريمَ أثناء عرض دعوته على القبائل[1]، وكان مصعب ﷺ في المدينة -كما سيأتي- يُكثر من تلاوة القرآن الكريم أثناء دعوته قبل هجرة الرسول ﷺ.

إن للقرآن الكريم تأثيرًا عجيبًا على النفوس، روى البخاري -رحمه الله تعالى- عن جبير بن مطعم ﷺ يخبر عن مقدمه للمدينة كافرًا في شأن أسرى بدر، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]؛ كاد قلبي يطير[2]. وكان جبير وقتها على شِرْكه، وكان سماعه لهذه الآيات من أول ما حمله على الإسلام.

وروي أن عمر ﷺ لما سمع آيات من أول سورة (طه) أذعن وآمن بعد أن ضرب ختنَه ولطم أختَه. ولذلك نلحظ أن كفار قريش كانوا يخشون هذا القرآن، ويحذِّرون كل قادم إلى مكة من الاستماع إليه -كما مر معنا قبل قليل-؛ لأنهم يعلمون قوة تأثيره على النفوس.

لذلك فالمنهج الصحيح في الدعوة هو التركيز على تلاوة آيات الله والإكثار منها، والاعتماد عليها في الخطب والمحاضرات، والابتعاد عن الكلام المنمّق الخالي من كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ فهو وإن بدا جميلًا فخيره قليل وتأثيره أقل.

تاسعًا: نلحظ سهولة بعض الناس وقربهم للاستجابة، فما أن سمعوا آيات تُتْلَى من هذا الكتاب الكريم حتى نسوا كل عبارات التحذير التي أُلْقِيَتْ عليهم، وأدركوا بفطرتهم أنه الحق، وأن أقوال الناس تلك، وإن كانت تلبس لبوس الناصح المشفق،

(١) انظر مثالاً على ذلك: قصة وفد إياس بن معاذ مع قومه عندما قدموا من المدينة، وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام وتلا عليهم القرآن، أحمد البناء، الفتح الرباني (٢٠ / ٢٦٦-٢٦٧)، وقصة وفد الأوس والخزرج الذين قابلهم الرسول ﷺ لأول مرة في السنة الحادية عشرة من البعثة أيضًا وتلا عليهم القرآن الكريم، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٤٨).

(٢) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (٨ / ٦٠٣) رقم (٤٨٥٤).

فهي في الحقيقة زيف وباطل، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]؛ فمهما رأيت من الشخص من إعراض فلا تيأس منه؛ لأن هذه الدين ينفذ للقلوب ويجعلها قريبة.

عاشرًا: مر معنا أن الرسول ﷺ كان يقول للناس، وهو يتجول علىٰ القبائل العربية في المواسم: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، فأول كلمة يدعو إليها الرسول ﷺ هي كلمة التوحيد، وهي أعظم كلمة وأهم كلمة، وأبرك كلمة، وأولاها بالعناية والرعاية، من جاء بها يوم القيامة دخل الجنة، ومَن لم يؤمن بها، فهو من أهل النار مهما كان عمله؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

والمسلمون اليوم عليهم أن يَتَأَسَّوْا بالرسول ﷺ، فيتمسكوا بما بدأ به؛ في إخلاص توحيدهم لله، ولا يشركوا به شيئًا، في دعائهم وفي عباداتهم، وعليهم عند تربية أولادهم، وعند دعوتهم للناس، أن يعلموهم التوحيد وأهميته، وإخلاص العمل لله -سبحانه وتعالىٰ-.

حادي عاشر: كان الرسول ﷺ وهو يعرض نفسه علىٰ القبائل يدعوهم إلىٰ الله بالحكمة، ويتحدث معهم بالرفق؛ «ألا رجل يحملني إلىٰ قومه؛ فإن قريشًا منعوني أن أُبَلِّغَ رسالةَ ربي»؛ مثيرًا في نفوسهم النخوةَ التي عُرِفَ عن العرب الاهتمامُ بها والمبادرةُ إليها.

ثاني عشر: رغم الإعراض الذي كان واجهه الرسول ﷺ من القبائل العربية مع تعدد سنوات العرض، إلا أن الرسول ﷺ لم ييأس منهم، بل استمر ﷺ يَغْشىٰ القبائل في المواسم والمجامع والمنازل، كل عام يفدون فيه حتىٰ قيَّض الله له نصيرًا، ولذلك لا ينبغي أن يجد اليأسُ طريقَه إلىٰ المؤمن في نصحه لشخص معين أو في دعوته عمومًا، ولقد ورد التحذير من اليأس من روح الله؛ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. وقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ثالث عشر: من كلام الرسول ﷺ للقبائل العربية، وبحثه عن قبيلة تؤويه؛ ندرك أهمية الأمن في الدعوة إلىٰ الله، فمع الخوف لا يتمكَّن الشخص من عبادة الله، ولا الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه-، فمن تحقَّقت له هذه النعمة فليشكر الله وليحافظ عليها، وليُسخِّرها في خدمة دين الله -جل شأنه-.

رابع عشر: إن الاستجابة للداعي إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- قد لا تكون فوريةً، وكذلك عدمُ الاستجابة الفورية لا يعني عدمَ وجودِ التأثيرِ في المدعوّ، فمثلًا عندما عرض الرسولُ ﷺ دعوتَه علىٰ بني شيبان لم يجد منهم القبول، وكان فيهم المثنىٰ بن حارثة الشيباني -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولكن كان لهذا اللقاء أثره الذي ظهرت نتائجه فيما بعد؛ فإن المثنىٰ أسلم بعد حين، وأصبح قائدًا كبيرًا من قواد المسلمين، وبه ابتدأت فتوح العراق وفارس(١)؛ فلا تقلل من كلمة قلتها ولم تجد لها أثرًا فوريًّا؛ فالخير له أثره علىٰ النفوس ولو بعد حين.

خامس عشر: إن الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- لا بد أن يصاحبها أذىٰ(٢)، ولكن علىٰ الداعية إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- أن يصبر ويحتسب الأجر ولا يواجه ما يُقال له من كلمات سيئة واعتراضات نابئة من هذا أو ذاك بمثلها، بل يصبر ويتحمَّل الأذىٰ، ومن استجاب شرح له أكثر، ومن أعرض أو سَخِرَ أو استهزأ قابله بالسكوت والإعراض عنه؛ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

---

(١) انظر في ترجمة المثنى: ابن حجر، الإصابة (٦/ ٤١).

(٢) انظر: الفائدة العاشرة في قصة بدء الوحي في الفصل الثاني من هذا الكتاب، فقد ذكرت الأدلة على أن الداعية إلى الله لا بد أن يصيبه أذًى.

سادس عشر: هذا التكالب من قريش ومن العرب علىٰ معاداة الرسول ﷺ، وهو يدور وحيدًا علىٰ القبائل، يدعوهم إلىٰ الله، يجعلنا نستحضر أن هذا درب مسلوك؛ إذ كل الأنبياء والدعاة إلىٰ الله في كل العصور كان لهم أعداء، وأعداء مُتسلّطون؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، لاحظ أنهم شياطين من الإنس والجن، وليسوا أعداء عاديين.

ومعلوم أن الأنبياء -عليهم السلام- هم أزكىٰ الناس، وأحلم الناس، وأرحم الناس، وأحكم الناس، وأعدل الناس، وأطيب الناس خُلُقًا؛ فَهُم قمّة الكمال البشري من جميع الصفات، ومع ذلك لم يَسْلَمُوا من الأعداء، فهل يرجو الداعية اليوم أن يَسْلَم؟!

سابع عشر: في العرض علىٰ القبائل التي كانت تَفِد إلىٰ مكة من مختلف البِقَاع دليل علىٰ عالمية الدعوة، فقد كان الرسول ﷺ يتحدث أثناء العرض علىٰ قبائل وفدت من اليمن، وأخرىٰ وفدت من أعالي الجزيرة، ممن كان مجاورًا للفرس أو مجاورًا للروم، وكان يعرض عليهم دعوته في وقت مبكّر من تاريخ الدعوة، وهذا برهان جليّ علىٰ أن الرسول ﷺ كان مُرْسَلًا إلىٰ الناس جميعًا؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإن ادَّعىٰ مُدَّعٍ خصوص رسالته ﷺ إلىٰ العُرب فقط، فقد اعترف بنبوته، والكذب ممتنع علىٰ الأنبياء اتفاقًا(١).

(١) محمد بن عمر بحرق، حدائق الأنوار (ص ١٣٢).

المبحث الثالث

فقه السيرة في بيعة العقبة الأولى

تميّز القادمون من المدينة الذين عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام بحُسْن الرّدّ عليه غالبًا؛ فقد مر معنا قصة سويد بن الصامت، ومثله ما أشرت إليه من مجيء إياس بن معاذ الذي قدم ضمن وفد من بني عبد الأشهل يلتمسون الحلف من قريش علىٰ قومهم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم، فقال لهم: «هل لكم إلىٰ خير مما جئتم به؟» قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله، بعثني الله إلىٰ العباد»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس: يا قوم، هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر رئيس الوفد حفنة من الحصباء وضرب بها إياس، وقال: دعنا منك، فسكت، فلما عادوا إلىٰ المدينة لم يلبث إياس أن هلك، وقد ذكَر مَن حضره مِن قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يُهلِّل الله ويُكبِّره ويحمده ويُسبِّحه حتىٰ مات، وكانوا لا يشكّون أنه مات مسلمًا[1].

وقال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ في الموسم، وإنجاز موعده له؛ خرج رسول الله ﷺ في السنة الحادية عشرة من البعثة[2]، فعرض نفسه علىٰ قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: أحمد البناء، الفتح الرباني (٢٠ / ٢٦٦- ٢٦٧)، وقال عنه البناء في بلوغ الأماني: (رواه محمد بن إسحاق في المغازي، وأورده الحافظ في الإصابة وصححه)، المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٢) انظر: المباركفوري، الرحيق المختوم (ص ١٥٢).

عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي[1] يهود؟[2] قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلىٰ، فجلسوا معه فدعاهم إلىٰ الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهودًا كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم في بلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إنَّ نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلَّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلىٰ الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله إنه النبيّ الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسىٰ أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلىٰ أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا راجعين إلىٰ بلادهم قد آمنوا وصدقوا[3].

وكان عدد هؤلاء ستة نفر من الخزرج؛ وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب -رضي الله تعالىٰ عنهم- [4].

---

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٤/ ٤٤): «أي من حلفائهم، والمولى يجمع الحليف وابن العم والمعتق؛ لأنه مفعل من الولاية، وجاء على وزن مفعل لأنه مفزع وملجأ لوليه؛ فجاء على وزن ما هو في معناه».

(٢) أي حلفاؤهم، وهم سُمُّوا حلفاءَ ؛ لأنهم تحالفوا على التناصر والتعاضد، الشامي، سبل الهدى (٣/ ٢٦٩).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٧-٣٨).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٨-٣٩).

وكان الأوس والخزرج إخوانًا لأم وأب[١]؛ فوقعت بينهم العداوة بسبب قتيل، فلبثت الحروب بينهم مائة وعشرين سنة، ومن هذه الحروب حرب بعاث، إلىٰ أن أطفأها الله بالإسلام، وألَّفَ بينهم برسول الله ﷺ[٢].

ثم رجع هؤلاء إلىٰ المدينة دعاةً إلىٰ الإسلام، ففشا الإسلام فيها حتىٰ لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكْر رسول الله ﷺ[٣].

فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلًا، الستة الأول، خلا جابر بن عبد الله، ومعهم معاذ بن الحارث بن رفاعة، وذكوان بن عبد القيس[٤]، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة وأبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن مالك[٥].

فقابلهم رسول الله ﷺ وبايعهم، وهي التي تسمىٰ «بيعة العقبة الأولىٰ».

وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني[٦] علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّىٰ منكم، فأجره علىٰ الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعُوْقِبَ في الدنيا فهو كفارة له،

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٤/ ٤٣): (الأوس والخزرج. الخزرج: الريح الباردة، وقال بعضهم وهي الجنوب خاصة. الأوس هي العطية أو العوض. وأبوهم حارثة بن ثعلبة، وأمهم قيلة بنت كاهل بن عذرة قضاعية).. باختصار. وانظر: لمزيد أخبار الأوس والخزرج: السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (١/ ١٤٠-١٤١).

(٢) انظر: السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (١/ ١٧٠).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٩).

(٤) وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة؛ فيقال: إنه مهاجري أنصاري، زاد المعاد (٣/ ٤٥).

(٥) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٥).

(٦) المبايعة: المعاهدة، وسميت المعاهدة هنا مبايعة تشبيهًا بالمعاوضة المالية، الحلبي، إنسان العيون (٢/ ١٦١).

ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلىٰ الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه»؛ فبايعناه علىٰ ذلك[1].

ويرىٰ بعض أهل السير أن هذه هي بيعة العقبة الأولىٰ، وأن هؤلاء النفر أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ علىٰ بيعة النساء؛ أي علىٰ وفق بيعتهن التي نزلت بعد ذلك عند فتح مكة[2].

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان هذا مما نزل علىٰ وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة، وليس هذا بعجيب، فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب ﷺ في غير موطن، وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو فهو أظهر، والله أعلم)[3].

ولكن ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- رَجَّحَ أن المبايعة التي تمت ليلة العقبة إنما كانت علىٰ الإيواء والنصرة وليست علىٰ الصفة التي وردت في حديث عبادة ﷺ، وأن ما ذكره عبادة ﷺ يعني به بيعة أخرىٰ بعد فتح مكة؛ لأدلة ذكرها، والله أعلم[4].

وبعد أن تمت هذه البيعة، وانتهىٰ الموسم عاد أولئك النفر إلىٰ المدينة، وبعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير ﷺ؛ ليعلّمهم الإسلام، ويقرئهم القرآن، وليدعو من هنالك إلىٰ الإسلام، فأسلم علىٰ يد مصعب ﷺ خلقٌ كثير من الأنصار[5].

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (١/ ٦٤) رقم (٨)، كتاب الإيمان. وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٣)، حديث رقم (١٧٠٩).

(٢) انظر: أحمد البناء، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد (٢٠ / ٢٦٨)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٧٩)، وابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٢/ ١٨٥)، وابن سيد الناس، عيون الأثر (١/ ٥٧ – ١٥٨)، والشامي، سبل الهدى (٣/ ٢٧٠).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥١).

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٦٦)، والحلبي، إنسان العيون (٢/ ١٦٢).

(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٢٣).

إسلام سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير علىٰ يد مصعب بن عمير ﷺ:

كان مصعب -رضي الله تعالىٰ عنه- نازلًا علىٰ أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه- في المدينة، وفي يومٍ خرج أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه- بمصعب بن عمير -رضي الله تعالىٰ عنه- يريد به دار بني عبد الأشهل، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر. فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك. فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: انطلق إلىٰ هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا. قال: فأخذ أُسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما؛ فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله، ثم. قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من في قومه، وسأرسله إليكما الآن؛ سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم؛ فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلًا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من

عندكم. فلما وقف علىٰ النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك. قال: فقام سعد مغضبًا مبادرًا، تخوُّفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فوقف عليهما متشتمًا.

ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! أما والله، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين، قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدًا إلىٰ نادي قومه.

قال: فلما رآه قومه مقبلًا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبةً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتىٰ تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة. ولم يتبقَّ منهم أحد إلا الأصيرم، فإنه تأخر وأسلم يوم أُحُد وفيها قُتِلَ(١).

(١) انظر تفصيل قصة إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضيررضي الله عنهما في: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٥٨-٦٠) وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥٢- ١٥٣)، وقد كتبت في هذه القصة بمفردها دراسة دعوية مستقلة بعنوان (وقفات دعوية في رحلة سفير الدعوة الأول إلى المدينة مصعب بن عمير ﷺ). وهو من مطبوعات دار العاصمة بالرياض، وموجود منها نسخة إلكترونية في الإنترنت.

ويقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأسلم علىٰ يديه -أي مصعب بن عمير ﷺ- سعد بن معاذ وأسيد بن حضير -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وكفىٰ بذلك فضلًا وأثرًا في الإسلام)[1].

ومع حلول الموسم التالي عاد مصعب بن عمير ﷺ إلىٰ مكة، بخبر انتشار الإسلام في المدينة وكثرة الداخلين فيه منها[2].

الفوائد المستخلصة من هذا الجزء من السيرة النبوية المباركة

الأولىٰ: حُسن التعامل والرد من أهل المدينة؛ سواء أكانوا أفرادًا أو جماعات، عندما يقابلهم الرسول ﷺ ويدعوهم إلىٰ الإيمان. ولا شك أن التعامل الطيب مفتاح كل خير، فبحُسن قولهم، وطيب ردودهم كان التوفيق من نصيبهم، مع ما دبَّر الله لهم من الخير العظيم بإيواء الرسول ﷺ ونصرته.

الثانية: لقد تميَّز المجتمع المدني بميزات، جعلت منهم بيئة صالحة للبذرة الخيرة المباركة التي أراد الله أن تورق وتؤتي ثمارها عندهم. ومن هذه الميزات:

١- إن قبيلة الأوس والخزرج قبيلة يمنية، والأوس والخزرج أخوان شقيقان أمهما قيلة، أبوهم حارثة قدموا من اليمن واستوطنوا المدينة، وقد قال الرسول ﷺ في أهل اليمن: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدةً[3] وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»[4]. وأهل مكة والطائف أهل إبل فيهم الفخر والخيلاء، وهو مانع من موانع المتابعة للغير.

---

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٩٦).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٧).

(٣) أرق أفئدة: أي قلوبهم أكثر إشفاقًا وتأثرًا.

(٤) صحيح البخاري (٥/ ١٧٣) رقم (٤٣٨٨)، واللفظ له من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، وصحيح مسلم (١/ ٧٣) رقم (٥٢).

٢- مجاورة الأوس والخزرج لليهود وسماعهم المستمر من اليهود عن التوراة، ورجوع اليهود إلىٰ نصوصها الموجودة معهم، مما أوجد في أذهان الأوس والخزرج قبول نصوص الوحي، وتقبُّل فكرة وجود نبيّ يُوحَىٰ إليه، بخلاف قريش؛ فقد قال الله -تعالىٰ- عنهم: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس:٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة:٣].

٣- وجود حروب بينهم أنهكتهم وجعلتهم يتلمّسون كلّ سبب يمكن أن يصلح ما بينهم، وينزع فتيل الحرب ويعود الوئام والاستقرار في ديارهم. وقد صرَّحوا بذلك في أول لقاء لهم مع الرسول ﷺ.

وفوق كل ذلك وقبله تدبير الله -جل شأنه-، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وربك يخلق ما يشاء ويختار. ويكرم من يشاء إكرامه، ومن يهن الله فما له من مكرم.

الثالثة: إن الرسول ﷺ لما عرض الإسلام علىٰ أهل المدينة في العقبة قال بعضهم لبعض: (إنه النبي الذي توعدكم به يهود)، وكان هذا بداية الاستجابة للرسول ﷺ؛ فرغم كونهم مشركين إلا أن هذه المعرفة مع قلتها نفعتهم في الهداية والاستجابة، وهذا مؤشر إلىٰ أهمية العلم ومكانته وفائدته، وإن كان العلم لم ينفع اليهود في الاستجابة، لكنه نفع هنا، ونفع عند بعض اليهود في التصديق والإيمان بالرسول ﷺ في أول لقاء -كما سيأتي-.

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يكن حيّ من العرب أعلم بالرسول ﷺ حين ذكر، وقبل أن يذكر من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار يهود)[1]. فسِعة اطلاع المسلم وثقافته عون له في الاهتداء والوصول إلىٰ الحق.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥٣).

الرابعة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يوم بُعَاث[1] يومًا قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدِم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقُتِلَتْ سراتُهم، وجُرِحُوا، فقدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام)[2].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن يوم بُعَاث: (فقُتِلَ فيها من أكابرهم من كان لا يؤمن، أي يتكبر أن يدخل في الإسلام حتىٰ لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبي ابن سلول)[3]، وقد شاء الله -سبحانه وتعالىٰ- أن تكون هذه الواقعة العظيمة قُبَيْلَ مَقْدَمِ النبي ﷺ إلىٰ المدينة؛ ليتحقق أمران:

الأول: نعمة الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ رسوله ﷺ الذي أزال من طريقه أولئك الرؤساء الذين قد يكون في بقائهم معارضة كبيرة للدعوة، شبيهًا بما جرىٰ في مكة، حتىٰ أصبحوا عقبة عاتية دون دخول مَن يرغب في الإسلام، فأصبح طريق الدعوة في المدينة قد سلم من أولئك الأكابر الذين منهم مَن يتكبّر عن الدخول في الإسلام ويأنف من الانضواء تحت حكم غيره، ويمنع غيره من الدخول في الإسلام، وتلك تقدمة قدّمها الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ كما قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وأبقىٰ الله -جل شأنه- نموذجًا واحدًا من هؤلاء يُذَكِّرُ بهم، وبنعمة الله علىٰ نبيه في زوالهم قبل مجيئه، وهذا النموذج الذي بقي هو عبد الله بن أبي ابن سلول.

(١) بُعَاث: بضم الموحدة وتخفيف المهملة مكان، ويقال: حصن، وقيل: مزرعة عند بني قريظة كانت به وقعة بين الأوس والخزرج، فقُتل فيها كثير منهم، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين، ابن حجر، الفتح (٧/ ١١١)، وحددها كتاب معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية بأنها: (في الشمال الشرقي من المدينة في الطرف الغربي الشمالي من نخل العوالي اليوم)، عاتق البلادي (ص ٤٧).

(٢) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ١١٠)، حديث رقم (٣٧٧٧).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١١١)، وانظر: السمهودي، وفاء الوفاء (١/ ٢١٨)، والشامي، سبل الهدى (٣/ ٢٦٦)، وأحمد البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٦٧).

الثاني: لتتهيأ النفوس لقبول الإسلام وليظهر فضل الإسلام علىٰ الأنصار، فقد جمعهم بعد فُرْقَةٍ، وغرس في قلوبهم المحبةَ بعد العداوةِ، والوئامَ بعد الشقاقِ(١).

الخامسة: نعمة الله بهذا الدين الذي يجمع القلوب ويُوَحِّدُها ويوجد الألفة، فالأوس والخزرج كانوا أعداء، وهم في قتال دام سنين عديدة، ولم تتوقف الدماء وتتحد القلوب إلا بعد إسلامهم، واليوم ونحن نرىٰ الحروب والنزاعات والاقتتال فنقول: إن الإسلام كما جمع الأوس والخزرج وأَلَّفَ بين قلوبهم، فكذلك لن يؤلِّف بين قلوب الناس اليوم إلا التمسك بالإسلام والانضواء تحت لوائه؛ ليصبح الناس حينئذ إخوانًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

السادسة: إن الرسول ﷺ يُبْعَثُ في مكة بين قبيلته ويستمر يعرض عليهم ﷺ نفسَه أكثر من عشر سنوات، ولم يجد منهم إلا استجاباتٍ فرديةً، ويجد العداوة الجماعية من غالبيتهم، ولكنَّ النصرة تأتي من قبيلة أخرىٰ خارج مكة؛ ليدلنا هذا علىٰ أن دعوة محمد ﷺ ليست دعوة خاصة، بل هي دعوة عالمية للناس كافَّة، يعرضها الرسول ﷺ علىٰ ابن مكة كما يعرضها علىٰ سائر القبائل الوافدة إلىٰ مكة، ومن استجاب لها وناصرها فهو أولىٰ بها. قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، وهذا ليس خاصًّا بزمانه ﷺ، بل إن مَن استجاب له ولو كان في أقصىٰ الأرض هو أولىٰ به ممَّن في مكة أو المدينة متىٰ أعرض عن هذا الدين.

السابعة: من هذا الموقف ندرك الجهود الكبيرة التي كان يبذلها الرسول ﷺ في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فقد كان يتجول ليلًا ونهارًا، دون أن يؤثر فيه كثرة الإعراض، أو يتسرب إليه شيء من اليأس.

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة (١/ ٤٣٢- ٤٣٣).

الثامنة: إن الفرج يأتي بعد استواء الشدة، واستحكامها، فقد دعا الرسول ﷺ أهل مكة أكثر من عشر سنين، وخرج إلىٰ الطائف فلم يلقَ عندهم إلا شرًّا، وعرض نفسه علىٰ القبائل مدة تزيد عن خمس سنوات متتالية، ولم يجد ناصرًا، أو مُؤويًا، وبعد أن استحكمت واشتدت جاء الفرج من الله -سبحانه وتعالىٰ-. وهكذا لا يتسرَّب اليأس إلىٰ قلب المؤمن، وليعلم أنه كلما اشتدت عليه الأزمة فهو إيذان بقرب الفرج. فما بعد سواد الليل إلا نور الصبح.

التاسعة: إن الفرج يأتي في زمان أو مكان قد لا يتوقعه الشخص، فالرسول ﷺ خرج إلىٰ الطائف، وكان يعرض نفسه علىٰ القبائل، ثم مر علىٰ نفر من الخزرج، فعرض عليهم نفسه كما كان يعرض علىٰ سائر القبائل؛ فإذًا بهذه الفئة تكون بدايةَ الفرج ونواةَ الخير التي قبلت هذه الدعوة وناصَرتها، وكانت هي الفئة التي يبحث عنها الرسول ﷺ في سنوات عرض دعوته علىٰ القبائل كلها.

العاشرة: في بيعة العقبة الأولىٰ كانت البيعة علىٰ ترك الشرك بالله: «بايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا»، فهذا أول شرط، وهو ترك الشرك بالله -سبحانه وتعالىٰ-، وإفراد الله -سبحانه وتعالىٰ- بالعبادة وتوحيده، وهذه هي خلاصة دعوته ﷺ ودعوة الأنبياء كافة ودعوة الدعاة إلىٰ الله في كل مكان وزمان: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وهذا ما نُذَكِّر به كُلَّ مسلمٍ، فالتوحيد هو الأساس وإفراد الله بالعبادة هو أول مطلوب، ولا يصح من المسلم أن يتهاون في الشركيات أو البدعيات أو الخرافيات، أو أي عمل ينافي التوحيد أو ينافي كماله.

ومن جاء بالتوحيد رُجِيَ له المغفرة، ومن جاء بكل الأعمال بلا توحيد فلا قيمة لعمله، يقول -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. بل -كما ترىٰ- الشرك محبط للأعمال الصالحة الأخرىٰ، والعياذ بالله.

فيا أخي! التوحيد؛ إفراد الله بالعبادة، لا تقف بين يدي الله يوم القيامة، وقد كنت تذهب إلىٰ غيره ترجوه، أو تدعوه. أو في قلبك تعلق بغيره، تظن أنه يملك لك شيئًا، والله -جل شأنه- مُطّلع علىٰ ما في قلبك. ألا تعلم أن هذا التعلق هو صورة من صور العبادة التي لا تصلح إلا لله -سبحانه وتعالىٰ-.

ماذا سيكون موقفك، وقد كنت تصرف بعض العبادات التي لا تصلح إلا له -سبحانه-، وأنت كنت تصرفها لغيره من أموات لا يملكون لأنفسهم شيئًا فضلًا أن يملكوا لغيرهم ضرًّا أو نفعًا؟!

إذا أخلص العبد قلبه وعمله لله، وعرف أن النفع بيده -سبحانه-، وأن الضر لا يكون إلا إذا أذن به -سبحانه وتعالىٰ-، ووحَّد الله في توجُّهه واتبع الرسول ﷺ فيما جاء به فقد أحسن العمل وله البشرىٰ من الله -سبحانه وتعالىٰ-.

الحادية عشرة: إن النفر الستة الذين لقوا الرسول ﷺ في منىٰ، وتحدَّث معهم الرسول ﷺ، وآمنوا به وصدقوه لم يكتفوا بذلك، بل انقلبوا إلىٰ قومهم دعاةً إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، ولذلك فمسؤولية المسلم في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- مسؤولية عظيمة، عليه أن يدعو غيره إلىٰ هذا الدين، ويستشعر مسؤوليته، ويدرك واجبه كما أدركه أولئك النفر من الخزرج سواء في اللقاء الأول بالرسول ﷺ أو اللقاء الثاني الذي يُسَمَّىٰ «بيعة العقبة الأولىٰ».

وليس من شروط الداعية أن يعرف كل شيء، بل يُبلّغ ما تعلَّمه، ولو حديثًا واحدًا كما قال ﷺ: «بلّغوا عني ولو آية»[1].

الثانية عشرة: مشروعية بعث الدعاة إلىٰ الله، وإرسالهم إلىٰ المناطق؛ لتعليم الناس ودعوتهم إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ أُسوةً بفعل الرسول ﷺ حينما بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلىٰ المدينة؛ لدعوة الناس وتعليمهم.

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠) رقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

الثالثة عشرة: وقفت متأملًا مقارنًا بين قول زعماء الطائف للرسول ﷺ استهزاءً به: «أما وجد الله غيرك يرسله»، وقول أسيد بن حضير -رضي الله تعالىٰ عنه-: «أنصفت»؛ لما قال له مصعب -رضي الله تعالىٰ عنه-: «اجلس فاسمع فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن لم ترضه أزلنا عنك ما لم ترضه».

كفار الطائف جاءهم الرسول بنفسه، ومع ذلك عاملوه أسوأ معاملة. وفي المدينة لم يأتهم الرسول ﷺ، وإنما جاءهم رسولُ الرسولِ مصعبٌ -رضي الله تعالىٰ عنه-، ومع ذلك احترموا كلامه وسمعوا منه، وأصغوا إليه، ثم قبلوا ما قاله لما رأوه حقًّا. فهذه القلوب بيد الله -جل شأنه-؛ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]؛ ولذلك لا ينبغي للمسلم أن يغفل عن التضرع إلىٰ الله -جل شأنه- في طلب الهداية والعون علىٰ الطاعة والتوفيق لمرضاة الله -جل شأنه-.

المبحث الرابع

فقه السيرة في بيعة العقبة الثانية

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعُكَاظ ومجنة[1] وفي المواسم بمنىٰ؛ يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتىٰ أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟». حتىٰ إن الرجل لَيَخْرُجُ من اليمن أو من مُضَر فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش، لا يَفْتِنْكَ عن دينك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتىٰ بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدّقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلىٰ أهله، فيسلمون بإسلامه حتىٰ لم يبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعًا؛ فقلنا: حتىٰ متىٰ نترك رسول الله ﷺ يُطْرَدُ في جبال مكة ويُخَاف، فرحل إليه منا سبعون[2] رجلاً حتىٰ قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتىٰ توافينا، فقلنا: يا رسول الله نبايعك، قال: «تبايعونني علىٰ السمعِ والطاعةِ في النشاطِ والكسلِ -وقال أبو حاتم: في المنشط والمكره-[3] والنفقةِ في العُسْرِ واليُسْرِ، وعلىٰ الأمرِ

(١) عكاظ: اسم مكان بقرب مكة يقام به في الجاهلية سوق يقيمون فيه أيامًا، ومجنة: بفتح الميم وكسرها مع فتح الجيم: موضع بأسفل مكة على أميال، وكان يقام به للعرب سوق، انظر: البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٠).

(٢) عند ابن هشام: أنهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٨٨-١٨٩) و(ص ٢١٠)، المطبوعة مع الروض الأنف.

(٣) أي ما تنشط له النفوس مما يسرها، وما تكرهه النفوس مما يشق عليها، والمراد أنهم يطيعون الرسول ﷺ في كل أمره ونهيه، سهل أو شق. الزرقاني، شرح المواهب، تصحيح محمد الخالدي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧)، (٢/ ٨١-٨٢).

بالمعروفِ والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومةَ لائمٍ، وعلىٰ أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسَكم وأزواجَكم وأبناءَكم ولكم الجنة»[1].

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهو من أصغرهم؛ فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضّكم السيوف؛ فإما أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك، وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة[2]؛ فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أَمِط عنا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا[3]. قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط يعطينا علىٰ ذلك الجنة. -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-[4].

وبعد أن تمت بيعة العقبة علىٰ هذا النحو صرخ الشيطان علىٰ العقبة بأنفذ صوت

---

(١) أبو حاتم البستي، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه وعلق عليه السيد عزيز بك، الطبعة الثالثة (بيروت: دار الكتب الثقافية ١٤١٧)، (١/ ١٢١)، وانظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ١٦٥)، والحلبي، السيرة الحلبية (٢/ ١١).

(٢) جبنة: أي: جبنا، البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٠).

(٣) لا نسلبها: أي: لا نرفضها ولا نتركها، البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: أحمد البناء، الفتح الرباني (٢٠ / ٢٦٩- ٢٧٠)، وقال في تخريجه في بلوغ الأماني: (وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه). قلت: وأقره الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه: (هذا إسناد جيد على شرط مسلم) ا.هـ كلام البنا. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥٩- ١٦٠).

سُمِعَ قائلًا: يا أهل الجباجب[1] هل لكم في مذمم[2] والصباة[3] معه قد اجتمعوا علىٰ حربكم؟! فقال الرسول ﷺ: «هذا أزب العقبة[4]، هذا ابن أزيب، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك»[5].

ثم أذن الرسول ﷺ في الانصراف قائلًا: «ارفضوا [6] إلىٰ رحالكم»؛ فقال العباس بن عبادة بن نضلة -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن علىٰ أهل منىٰ غدًا بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤْمَرْ بهذا»[7].

---

(١) الجباجب: منازل منى: بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٤). وقال في لسان العرب (١/ ٢٥٢-٢٥٣): الجباجب: هي جمع جبجب بالضم وهو المستوي من الأرض ليس بحزن، وهي هنا أسماء منازل بمنى، سميت لأن كروش الأضاحي تُلقَى فيها أيام الحج. والجباجب الكرش، يجعل فيها اللحم يتزود به في الأسفار، أي تجعل الكرش وعاء للحم لنقله، فسميت بذلك تلك المنطقة التي تُلْقَى فيها الكروش، الجباجب، والله أعلم.

(٢) مذمم: هذه كلمة تطلقها قريش وتعني بها محمدًا ﷺ، وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٩٩)، (تحقيق مصطفى البغا)؛ قال رسول الله ﷺ: « ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟! يشتمون مذممًا ويلعنون مذممًا وأنا محمد».

(٣) الصباة: جمع صابئ، وكان الكفار يُطلقون هذه الكلمة على من دخل في الإسلام على عهد الرسول ﷺ في بداية الإسلام.

(٤) أزب العقبة: الأزب من أسماء الشياطين، وأزب العقبة شيطان هذا اسمه، بلوغ الأماني (٢٠/ ٢٧٤- ٢٧٥).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٩٢)، ومسند الإمام أحمد، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء (٢٠ / ٢٧٤)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٦٤). وقال السهيلي في الروض الأنف (٤/ ٧٩): «وأزب العقبة، وهو اسم شيطان».

(٦) أي: تفرقوا.

(٧) أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد (٣/ ٤٦٢)، انظر: سيرة ابن هشام المطبوعة مع الروض الأنف (٢/ ١٩٢)، وابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى (١/ ٣٦١)، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٢- ٤٥)، وقال (ص ٤٥): (رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع).

نقف مع أحداث بيعة العقبة الثانية؛ لنأخذ منها الفوائد التالية:

الأولىٰ: إن الرسول ﷺ تدرَّج مع الأوس والخزرج في مبايعتهم، فقد لقيهم أول مرة في العام الحادي عشر من البعثة، وكانوا ستة نفر فقط، وتلا عليهم القرآن وعلّمهم التوحيد، واطمأن علىٰ استجابتهم، وواعدهم العام الذي يليه، فحضر منهم اثنا عشر، وعلّمهم التوحيد وزاد أن بايعهم وبعث معهم مصعب بن عمير -رضي الله تعالىٰ عنهم- يُعلّمهم الإسلام، ثم في العام الثالث عشر من البعثة حضر سبعون منهم، فأخذ منهم النقباء علىٰ قومهم، وبايعهم بيعة الإيواء والنصرة، وأن يدافعوا عنه إذا قدم إليهم كما يدافعوا عن أنفسهم وأهليهم ونسائهم وأولادهم. وقال لهم: «الدم الدم، والهدم الهدم»[1].

وإن من أعظم أسباب نجاح الدعوة: التدرُّج، وترك العجلة، واتباع المنهج الصحيح، والتروي في الخطوات، والتوفيق بيد الله -سبحانه وتعالىٰ-.

الثانية: ما أعظم هؤلاء الرجال الذين كانوا يتنافسون في مبايعة الرسول ﷺ وهم يدركون تَبِعة ذلك، وهي حرب الأحمر والأسود، خاصةً لما قال لهم الرسول ﷺ عندما سألوه وقالوا ما لنا بهذه البيعة وتبعاتها؟ قال: «الجنة».

كيف اشتاقوا للجنة وضحّوا لأجلها هذه التضحيات، وهم لم يروا الرسول ﷺ إلا سويعات ولم يسمعوا من القرآن إلا القليل ولم تبلغهم السُّنة.

وقد كانوا يتنافسون فيما بينهم أيهم يبايع رسول الله ﷺ أولًا، حتىٰ لقد اختلفت الروايات في من ضرب بيده علىٰ يد رسول ﷺ أولًا. كل جماعة يرون أن أول من ضرب يده علىٰ يد رسول ﷺ مبايعًا منهم. فقيل: أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وقيل البراء بن المعرور -رضي الله تعالىٰ عنه- [2]، وقيل غير ذلك.

(١) ابن هشام السيرة (٢/ ٦٤) قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم: يعني الحرمة. أي ذمتي ذمتكم، وحُرمتي حرمتكم.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧).

الثالثة: إذا كانت طاعة الرسول ﷺ واجبة، فما الأمر الذي أُضيف في هذه البيعة؟ الجواب عن هذا أن يقال: (إن النبي ﷺ صار له بهذه البيعة أعوان، وأنصار يُنفّذون أمره، ويجاهدون مَن خالفه، فلم يستفد بالأعوان ما يحتاج أن يضمه إلىٰ الرسالة مثل كونه إمامًا، أو حاكمًا، أو ولي أمر؛ إذ كان هذا كله داخلًا في رسالته، ولكنَّ بالأعوان حصل له كمال قدرة أوجبت عليه من الأمر والجهاد ما لم يكن واجبًا بدون القدرة، والأحكام تختلف باختلاف حال القدرة والعجز، والعلم وعدمه، كما تختلف باختلاف الغنىٰ والفقر، والصحة والمرض)[1].

وهذا فيه ردّ علىٰ بعض الناس الذين قالوا: إن الرسول ﷺ استفاد من هذه البيعة مشروعيته السياسية، وهذا قصور في فهم هذه البيعة؛ إذ الرسول ﷺ طاعته واجبة بصفته «رسول» قبل البيعة وبعدها، وكان الرسول ﷺ يبايع أصحابه عند دخولهم الإسلام، ويبايعهم أحيانًا بعد إسلامهم تجديدًا للعهد وتذكيرًا بالمقام عليه[2].

وعلىٰ هذا يتضح أن هذه البيعة أضافت أمرين:

الأول: إن الرسول ﷺ حصل له كمال قدرة أوجبت عليه من الأمر والجهاد ما لم يكن واجبًا بدون القدرة.

الثانية: تجديد العهد وتذكير للصحابة بالمقام عليه.

الرابعة: بيعة العقبة الثانية من أهمّ الأحداث في الإسلام؛ فمنها فُتِحَ الطريقُ أمام الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عنهم- للهجرة إلىٰ المدينة، والنجاة بدينهم، ثم هجرة الرسول ﷺ، ومنها كانت غزوة بدر الكبرىٰ، والفتوحات الإسلامية.

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم (١/ ٨٦).

(٢) انظر: ابن رجب، فتح الباري، حققه محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وزملاؤه، الطبعة الأولى (المدينة: مكتبة الغرباء ١٤١٧)، (١/ ٨٥).

يقول كعب بن مالك ﷺ: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا علىٰ الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهدَ بدرٍ وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها)(١).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في شرحه لهذا الحديث: (لأن مَن شهد بدرًا، وإن كان فاضلًا بسبب أنها أول غزوة نصر فيها الإسلام، لكن بيعة العقبة كان سببًا في فُشوّ الإسلام، ومنها نشأ مشهد بدر)(٢).

الخامسة: يدل علىٰ عظمة هذه البيعة وخطورتها، وأثرها في تحوُّل مسار الدعوة الإسلامية أن الشيطان لم يصبر، لما رأىٰ اجتماع هؤلاء واتفاقهم مع الرسول ﷺ، وقد أدرك الخطر العظيم من هذا الاجتماع علىٰ إقامة التوحيد وكسر الوثنية، والنصر العظيم الذي تحقّق لمحمد ﷺ ولهذه الرسالة الخالدة؛ فصرخ بأعلىٰ صوته مناديًا أولياءه من المشركين مستنصرًا بهم، مستصرخًا لهم.

وكما أن الشيطان يوم عرفة لا يُرىٰ أصغر ولا أحقر منه لما يرىٰ من تنزُّل الرحمة(٣)، وهرب يوم بدر لما رأىٰ الملائكة. قال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٤٨]. وفي هذا اليوم أيضًا صرخ بأعلىٰ صوته: «يا أهل الجباجب! -منازل في منىٰ- هل لكم في مذمم والصباة قد اجتمعوا علىٰ حربكم؟».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٢١٩) رقم (١٨٨٩).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٢١).

(٣) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «ما رُئِيَ الشَّيطانُ يومًا هو فيه أصغَرُ، ولا أدحَرُ، ولا أحقَرُ، ولا أغيَظُ منه يومَ عَرَفةَ، وما ذاك إلّا لِما يَرى مِن تَنَزُّلِ الرَّحمةِ، وتَجاوُزِ اللهِ عنِ الذُّنوبِ العِظام، إلّا ما كان مِن يَومِ بَدرٍ. فقيلَ: وما رأى مِن يَومِ بَدرٍ؟ قال: أما إنَّه قد رأى جِبريلَ وهو يَزَعُ المَلائِكَةَ» أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٣/ ٦٢١) رقم (١٥٩٧) تحقيق محمد مصطفى الأعظمي (نشر مؤسسة زايد للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الأمارات)، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

السادسة: الشرط الأول من شروط بيعة العقبة الثانية: السمع والطاعة، وعدم منازعة ولي الأمر، والرسول ﷺ يتحدّث إلىٰ صحابته، ولذلك لم يبدأ بالتوحيد كالعادة؛ لأن هذه المسألة سبق أن تعلموها، في لقاء سابق، وهم اليوم في مرحلة جديدة، لبناء الدولة الإسلامية التي أساسها السمع والطاعة لولي الأمر، وما قيمة ولي الأمر إذا كان لن يُسمع أمره ويُطاع؟! وقد تتابعت توجيهات الرسول ﷺ للصحابة بالسمع والطاعة لولي الأمر؛ قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل حبشيّ كأن رأسه زبيبة»[1].

ومما ينبغي التأكيد عليه هنا، هو أن الرسول ﷺ قال: «ولا ننازع الأمر أهله»؛ وهذا تأكيد لحق وليّ الأمر بأن لا يُنازَع؛ لأنه متىٰ نُوزِعَ شُغِلَ عن العمل للمسلمين، وضاع وقت الأمة وجهدها في مشاحنات، والأصل أن ولي الأمر يُعَان ولا يُعَاق، وتُنفَّذ تعليماته؛ لما فيها من الاستقرار وصلاح الأمة ولو خالفت رأي البعض، ولا يُتعرض لاجتهاداته بالنقد والانتقاص. والأصل هو طاعة ولي الأمر؛ سواء أمر بما أمر الله به، أو بما سكت عنه الشارع، فالشرط هو ألَّا يأمر بمعصية لله، وما عدا ذلك فيُطَاع ولا تجوز مخالفته.

السابعة: قوله ﷺ في البيعة: في النشاط والكسل أو في المنشط والمكره، هذه قضية مهمة، فبعض الناس أصحاب مصالح، وولاؤه لمصلحته، ينقلب معها حيث كانت، لا عهد له، ولا يؤتمن علىٰ أمر، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨]، هؤلاء ليس لهم منشط ولا مكره، أما الصادق فهو مثل سعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه- عندما قام خطيبًا في غزوة بدر، عَنْ أَنَسٍ -رضي الله تعالىٰ عنه-، أَنَّ

(١) صحيح البخاري (١/ ١٤٠) رقم (٦٩٣).

رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ،... فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ فَقَالَ: (إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىٰ بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا)(١).

ثم لنعلم أنّ كلّ الناس في المنشط حاضرون، لكنَّ التَّميُّز هو الوفاء في المَكْرَه، والناس ليسوا بحاجة إلىٰ أصدقاء وإخوة لوقت السراء، ولكنهم بحاجة إليهم في وقت الضراء، فالمَكْرَه والضراء هما ميدان الاختبار الحقيقي للوفاء.

الثامنة: في اجتماع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ الرسول ﷺ ومناصرتهم له، يتبين لنا المصلحة العامة في التفاف الناس حول علمائهم؛ فالعالم بمفرده لا يستطيع أن يفعل شيئًا إذا لم يلتفّ الطلاب حوله، ويساندوه، ويؤازروه، لكي يُستفاد من عِلْمه، والناس عادةً هم الذين يصنعون للعالم المكانة بمؤازرته، وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَماءِ، حتّىٰ إذا لَمْ يُبْقِ عالِمًا اتَّخَذَ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»(٢)؛ فالناس هم الذي يُبرزون العالم بالرجوع إليه واستشارته وسؤاله حتىٰ تصبح له مكانة عند الناس.

التاسعة: الشرط الثاني من شروط بيعة العقبة الثانية هو النفقة في العسر واليسر، بذل المال في سبيل الله -سبحانه وتعالىٰ-. (ومن أعظم الجهاد: الجهاد المالي، والله -تعالىٰ- قَدَّمَ الجهادَ بالمال علىٰ الجهاد بالنفس؛ فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات علىٰ الإطلاق)(٣)، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٣) رقم (١٧٧٩).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٣١) رقم (١٠٠)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٨) رقم (٢٦٧٣).

(٣) السعدي، الجهاد في سبيل الله (ص ١٦٩)، المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي، القسم الخامس، المجلد الأول)، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٨/ ٢٣٠).

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥].

العاشرة: في عقد البيعة بيان لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين، يقول الله -سبحانه وتعالىٰ- في صفات المؤمنين: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة:٧١]؛ فلأهميته نجد الرسول ﷺ يذكره في شروط البيعة، والقرآن الكريم يقرّره في أول أوصاف المؤمنين، ويقرن الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله[1].

الحادية عشرة: وشرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درس في أهمية التعاون والتعاضد علىٰ الخير، فالمصطفىٰ ﷺ وهو المُؤيَّد من الله -جل شأنه-، ومع صبره وتحمُّله؛ كان يبحث عن تأييد بشريّ، فلما تهيَّأ له هؤلاء الذي نصروه، استطاع أن ينطلق في عمله؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٢]، ومن قبل محمد ﷺ قيل لشعيب -عليه السلام-: ﴿ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود:٩١].

الثانية عشرة: في عقد البيعة تجد الوضوح التام من الرسول ﷺ، فرغم أنه يبحث عن مستجيب أو علىٰ الأقل ناصر يؤويه، فهو واضح في شروطه لهؤلاء الذي لَقِيهم من أهل المدينة واستجابوا، فلم يُخادِع، ولم يُجامِل، ولم يُخْفِ شيئًا؛ فمنذ البداية الأمور واضحة لديه، ويوضحها لمن يريد أن يتعامل معه، ويدخل في هذا الدين، وقد بيَّنت هذا في مبحث الاستخفاء بالدعوة.

وهذا شأن المسلم، أن يكون واضحًا، أن يكون صادقًا؛ فالأمور المبنية علىٰ

(١) انظر: فضل إلهي، الحسبة (ص ٢٠)، وفيه تفصيل جيد يرجع إليه.

الخداع سرعان ما تنهار وتتحول العلاقات الطيبة إلىٰ عداوات.

الثالثة عشرة: في بيعة العقبة فضل عظيم للأنصار -رضوان الله تعالىٰ عنهم-، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلهم والثناء عليهم والتذكير بحقوقهم، فمن ذلك:

١) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أو قال أبو القاسم ﷺ: «لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شعبًا لسلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار»، فقال أبو هريرة ﷺ: (ما ظلَم بأبي وأمي؛ آووه ونصروه، أو كلمة أخرىٰ)[(١)].

٢) عن البراء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ أو قال: قال النبي ﷺ: «الأنصارُ لا يحبهم إلا مؤمنٌ ولا يبغضهم إلا منافقٌ، فمن أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، ومن أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ»[(٢)].

٣) وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حبّ الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار»[(٣)].

الرابعة عشرة: (في استجابةِ الأنصار واستعدادِهم لنصرة الرسول ﷺ وتَأَخُّرِ إسلامِ قومِهِ وبني عمه، وسبقِ الأباعدِ إلىٰ الإيمان به حكمةٌ عظيمةٌ؛ إذ لو بادر أهله وأقربوه إلىٰ الإيمان به لقيل: قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصَّبوا له، فلما بادَر إليه الأباعد، وقاتلوا علىٰ حبّه من كان منهم أو من غيرهم، عُلِمَ أن ذلك علىٰ بصيرة صادقة، ويقين قد تغلغل في قلوبهم ورهبة من الله -تعالىٰ- أزالت صفة قد كانت سَدِكَتْ[(٤)] في نفوسهم من أخلاق من الجاهلية لا يستطيع إزالتها إلا الذي فطر الفِطرةَ الأولىٰ، وهو القادر علىٰ ما يشاء)[(٥)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ١١٢) رقم (٣٧٧٩).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ١١٣) رقم (٣٧٨٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ١١٣) رقم (٣٧٨٤).
(٤) سدكت: بفتح أوله وكسر ثانيه أي: لزمت، انظر: ابن منظور، لسان العرب (١٠/ ٤٣٩).
(٥) السهيلي، الروض الأنف (٤/ ١٨)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٥٠٥).

الخامسة عشرة: عند المبايعة قام أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وأخذ بيده وقال: رويدًا يا أهل يثرب! فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقَتل خياركم وأن تَعضّكم السيوف؛ فإما أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك، وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة، فبيّنوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أَمِط عنا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا، فقاموا إليه وبايعوه، فأخذ عليهم وشرط يعطيهم علىٰ ذلك الجنة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

هذه حلاوة الإيمان إذا لامست القلب صنعت الأعاجيب وأنْسَت كل تعب أو مشقة، أو مفارقة، أو قتل الخيار. ولكن البلاء عندما يكون القلب قد اكتسىٰ بحجاب غليظ مما اكتسب من الذنوب؛ فاللهم اغفر ذنوبنا واشرح صدورنا للإيمان واملأ قلوبنا من حلاوته.

السادسة عشرة: قول الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- السابق لأسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، بعد أن ذكَّرهم بما في هذا الإيمان والبيعة من التبعة، ثم إقدامهم علىٰ ذلك؛ بل تسابقهم إليها، يذكّرني هذا الموقف بضده مما يُروىٰ أن الأعشىٰ -إن صح- قدم علىٰ الرسول ﷺ ليسلم، فاعترضه بعض كفار قريش، وقالوا له: يا أبا بصير إنه يُحرِّم الزنا. فقال: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرب. فقال: يا أبا بصير: إنه يُحرّم الخمر. فقال: أما هذه فو الله إنَّ في نفسي منها لعُلَالَاتٍ، ولكني منصرف فأتروىٰ منها عامي هذا، ثم آتيه فأسلم. فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يَعُد إلىٰ النبي ﷺ[1]؛ فرغبته في التروي من الخمر صدته عن الإسلام، أي إيمان هذا؟

حتىٰ لو لم تثبت القصة، فليس المقصود الشخص، وإنما المقصود هذه الفكرة التي لا تزال تسمعها من البعض، عندما يستصعب التكاليف، وتغلبه نفسه نحو

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ٨٠).

الشهوات، ويُمنّي نفسه بالطاعات، حتىٰ يدركه الممات. كثيرون هم الذين أَعْشَتهم الشهوات عن رؤية الحق، وأسكرتهم خمرة الهوىٰ عن تذوق طعم الإيمان، والله المستعان. وشتان بين أحوال الأنصار، وأوحال أعشىٰ كل زمان، والأريب من أخذ الدرس، وكان علىٰ حذر.

السابعة عشرة: في قول الرسول ﷺ: «لم نُؤْمَرْ بهذا»؛ لمَّا استأذن العباس بن عبادة بن نضلة -رضي الله تعالىٰ عنه- في أن يميلوا علىٰ الكفار بأسيافهم، في قوله ﷺ هذا؛ بيان أن هذا الدين وحي وليس رأيًا ولا عاطفةً، فلا بد من الانضباط بالأمر الشرعي والحذر من السير خلف العاطفة، وقبل كل شيء (هل أُمِرْنَا بهذا؟) إنها كلمة، بل قاعدة عظيمة في الدعوة إلىٰ الله بخاصة، وفي غيرها بعـامة، وبها ننجو من البدع والخطأ والخطل[1].

(١) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب، انظر: الرازي، مختار الصحاح (ص ١٨١).

المبحث الخامس

فقه السيرة في الإذن للصحابة بالهجرة إلى المدينة

لما تمت بيعة العقبة الثانية لرسول الله ﷺ، وعلم كفار قريش بذلك أيقنت بالخطر عليها، وأن وجود فئة ناصرة للرسول بالمدينة، مُؤذن بتكوين قوة له، فيها الخطر عليهم، ورأوا أنه قد صار للنبي ﷺ مَنَعة، ودار هجرة، فضيَّقوا علىٰ المسلمين وآذوهم، ونالوا منهم من الشتم والأذىٰ والتناول ما لم يكونوا ينالونه أبدًا، فشكا المسلمون ذلك إلىٰ النبي ﷺ، وسألوه الهجرة.

عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ «قد أُريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين»، وهما الحرّتان، فهاجر من هاجر قِبَل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلىٰ المدينة بعض مَن كان هاجر إلىٰ أرض الحبشة(١).

وأمر النبي ﷺ من معه من المسلمين بمكة بالخروج إلىٰ المدينة، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا، ودارًا تأمنون بها، فمن أراد الخروج فليخرج فإن البلاد قريبة، وأنتم عارفون بها، وهي طريق عيركم إلىٰ الشام»، فجعلوا يتجهزون، ويترافقون، ويتواسون بالمال والظهر، ويُخفون ذلك، وخرجوا أرسالًا، يتراسلون(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٥٨) رقم (٣٩٠٥).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٠)، والنجم عمر بن فهد، اتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٣٥٣).

فكان أول من هاجر إلىٰ المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش، من بني مخزوم: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه: عبد الله، -رضي الله تعالىٰ عنه- هاجر إلىٰ المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم مكة علىٰ رسول الله ﷺ من أرض الحبشة، فلما آذته قريش، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلىٰ المدينة مهاجرًا(١).

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة، حليف بني عدي بن كعب، ومعه امرأته ليلىٰ بنت أبي حثمة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عدي بن كعب. ثم عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد وكان أبو أحمد رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها، بغير قائد، وكان شاعرًا، وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم فغلقت دار بني جحش(٢)؛ وعدا أبو سفيان علىٰ دار بني جحش لما خلت فتملكها، إذا بقيت يبابًا لا أحد بها؛ لأنهم هاجروا بنسائهم(٣).

ثم قدم المهاجرون أرسالًا؛ عكاشة بن محصن، وشجاع وعقبة ابنا وهب، وأربد بن حميرة، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقف بن عمرو، وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيد، وتمام بن عبيدة، وسخبرة بن عبيدة، ومحمد بن عبد الله بن جحش -رضي الله تعالىٰ عنهم-(٤).

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٢٥٨).
(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٣٥٩-٢٦٠)، والنجم عمر بن فهد، إتحاف الورى (١/ ٣٥٤).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٢).
(٤) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٣).

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأم خبيب بنت جحش، وجذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم، وحمنة بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنهن-[1].

ولم تكن قريش لتأذن لهم بالهجرة، بل كانوا يمنعون من يريد الهجرة، ويسعون جاهدين إلىٰ منعه، وإذا هاجر لحقوه لردّه إلىٰ مكة، ولذلك كان هجرة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- تسللًا، وخُفية من كفار قريش.

وكان الأمر شديدًا علىٰ الرسول ﷺ وعلىٰ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، فالصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إن بقوا في مكة بقوا في أذًىٰ شديد، ومحنة بالغة وخطر الافتتان جراء شدة الإيذاء الذي يصيبهم، وإن خرجوا، خرجوا علىٰ خوف، تاركين الأهل والمال والوطن والديار، فكانت تضحياتهم كبيرة وعناؤهم شديدًا، يخرجون رجالًا ونساءً إلىٰ المدينة التي تبعد عن مكة قرابة ٤٠٠ كيلو، منهم من هو راكب ومنهم من يسير علىٰ قدميه كل هذه المسافة.

وسوف أذكر نموذجين لمعاناة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من كفار قريش عند إرادتهم الهجرة إلىٰ المدينة.

أولًا: قصة هجرة عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص السهمي رضي الله عنهم:

قال ابن إسحاق -رحمه الله-: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي -رضي الله تعالىٰ عنهما- حتىٰ قدما المدينة. فحدثني نافع -رحمه الله تعالىٰ- مولىٰ عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: اتعدت، لما أردنا الهجرة إلىٰ المدينة،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٣).

أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبِسَ فَلْيَمْضِ صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحُبِسَ عنا هشام، وفُتِنَ فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلىٰ عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتىٰ قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت ألَّا يمس رأسها مشط حتىٰ تراك، ولا تستظل من شمس حتىٰ تراك، فرقَّ لها، فقلت له: يا عياش! إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذىٰ أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال: فقال: أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبىٰ عليَّ إلا أن يخرج معهما؛ فلما أبىٰ إلا ذلك؛ قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني علىٰ ناقتك هذه؟ قال: بلىٰ. قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارًا موثقًا، ثم قالا: يا أهل مكة! هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا[١].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٥)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٢٦٠).

ثانيًا: قصة هجرة أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-:

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: حدثني أبي: إسحاق بن يسار -رحمه الله تعالىٰ-، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة عن جدته أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، زوج النبي ﷺ قالت: (لما أجمع أبو سلمة الخروج إلىٰ المدينة رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتىٰ خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلىٰ المدينة. قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فلا أزال، أبكي، حتىٰ أُمسي؛ سنة أو قريبًا منها حتىٰ مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأىٰ ما بي فرحمني؛ فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ. قالت: ورَدَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: أتبلغ بمن لقيت حتىٰ أقدم علي زوجي، حتىٰ إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلىٰ أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله، ثم بني هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلًا من

العرب قط، أرىٰ أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني؛ حتىٰ إذا نزلت استأخر ببعيري؟ فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحىٰ عني إلىٰ شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلىٰ بعيري فقدَّمه فرحَّله ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت علىٰ بعيري أتىٰ فأخذه بخطامه فقاده، حتىٰ ينزل بي حتىٰ أقدمني المدينة، فلما نظر إلىٰ قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية وكان أبو سلمة بها نازلًا فادخليها علىٰ بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلىٰ مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة)[1].

نقف مع هذا الجزء من السيرة لنأخذ الفوائد التالية:

أولًا: سبب اختيار المدينة لتكون دار الهجرة: بُعث الرسول ﷺ في مكة، فلم يجد فيها من ينصره، إلا أفرادًا ليس لهم القوة والمكانة الكافية في المجتمع، فخرج إلىٰ الطائف فكان ردهم أسوأ الرد وأقبحه، وعرض نفسه علىٰ القبائل، فلم يجد من القبائل ناصرًا. وقيَّض الله له أهل المدينة، ليفتحوا له ولصَحْبه قلوبهم، وأبواب مدينتهم، ولتكون هي دار الإيواء وهم أهل النصرة، ولا شك أن عين الله ترعاه أتم الرعاية، وأن كل ذلك يتم بالتدبير واللطف الإلهي، ومن ذلك ما هيَّأه الله -جل شأنه- في المدينة من أمور تجعلها هي دار الهجرة الملائمة ومن ذلك:

الأمر الأول: موقع المدينة المتميز: والذي نجد فيها ما يلي:

١- إنها ليست بعيدة جدًّا عن مكة؛ فلا يمكن الهجرة إليها إلا بمشقة بالغة قد لا يستطيعها الكثير. كالحبشة، وليست قريبة جدًّا من العدو يسهل علىٰ العدو مفاجأتها بغزو كالطائف مثلًا، فكانت بين هذا وذاك، ليست بعيدة جدًّا، ولا يصل إليها العدو إلا وقد سبقت الأخبار عنه إليها.

---

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

٢- إنها كانت في طريق تجارة مكة، وهذا مفيد في الضغط علىٰ أهل مكة وخنقهم اقتصاديًّا؛ باعتراض تجارتهم ذهابًا وعودًا، وهذا ما وقع فعلًا، وكانت غزوة بدر من نتائج ذلك. وفي صلح الحديبية استغل أبو بصير هذا الأمر هو ورفقته حتىٰ ألغت قريش شرط رَدّ مَن أسلم إلىٰ الكفار.

٣- إن المدينة يسهل حمايتها، فهي بين لابتين أي حَرّتين عليها حجارة سوداء لا تستطيع أن تخترقها الجيوش بإبلها وخيلها، من الجهة الغربية حرة الوبرة، ومن الجهة الشرقية حرة واقم الشرقية، ومن الجنوب جبل عير، وكانت هذه الجهة أيضًا محاطة بأشجار النخيل والزروع التي تعوق الجيش لو أراد المرور من خلالها إلا بتفرق أفراده. فلم يتبق إلا جهة واحدة، هي الجهة الشمالية الغربية، والتي يمكن بكتيبة من الرجال حماية المدينة، وهي الجهة التي حفر فيها الرسول ﷺ مع أصحابه الخندق، عندما أراد الأحزاب مهاجمة المدينة بجيش كبير بلغت عدته عشرة آلاف، ومع ذلك فشلوا وعادوا خاسرين خائبين.

ولعل هذا هو المعنىٰ الذي أشار إليه الرسول ﷺ في قوله في الحديث السابق أعلاه «قد أُريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين».

الأمر الثاني: وضع أهل المدينة الاجتماعي:

الأوس والخزرج قبيلة يمنية عربية أصيلة، فيهم أخلاق العرب؛ نخوة، وشيمة، وإباء وشكيمة، ووفاء، لا يقبلون الضيم، ولم يُعهد في تاريخهم أن كانوا تابعين لأحد، بل عاشوا أحرارًا، تشرَّبوا هذه الحرية، فلم يُعرف أنهم منذ نزولهم في المدينة أن دفعوا جباية لحاكم أو غازٍ، ولذلك في غزوة الأحزاب، لما رأىٰ الرسول ﷺ تكالب الأعداء علىٰ المدينة شاور السعدين؛ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنهما-، في دَفْع جزء من تمر المدينة لبعض القبائل العربية لكي ترجع عن المدينة فقالا قولة رجل واحد: (يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعةً،

وإن كان شيئًا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوَّب رأيهما)[1].

الأمر الثالث: التدبير الإلهي الخاص:

عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-، قالت: (كان يوم بعاث يومًا قدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقدِم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتلت سرواتهم وجُرحوا، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام)[2]؛ أي حتى يتهيأ هؤلاء لقبول الإسلام والإقبال عليه ويشعروا بمزيد الحاجة إليه.

وقد كان في قتل ساداتهم تمهيد للطريق وإزالة للعقبات في سبيل الدعوة؛ لأن هؤلاء الأكابر هم في الغالب مَن يقف في طريق الدعوة حسدًا وخوفًا من زوال جاههم ومكانتهم، كما حصل في مكة.

الأمر الرابع: وجود اليهود في المدينة وحديثهم عن قرب المبعث:

كان اليهود كثيرًا ما يتحدثون عن قرب مبعث النبي ﷺ، وكانوا يظنون أنه سيكون منهم، وكانوا يتوعدون الأوس والخزرج به[3]، وقد مر علينا أن الرجال الذين لقيهم

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٤٤)، وابن كثير، الفصول في السيرة تحقيق محمد العيد الخطراوي وزميله، الطبعة الثالثة (مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٣)، (١/ ١٦٨).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٣٠) رقم (٣٧٧٧).

(٣) قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (١/ ٢١٦): (وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمرو، عن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم، قال: فينا والله وفيهم، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة).

النبي ﷺ أول مرة عند العقبة في منىٰ، وتحدَّث إليهم قالوا لبعضهم: (لعل هذا هو النبي الذي تتوعدنا به اليهود فلا يسبقنكم إليه)، وكان هذا من أسباب استجابتهم، فقبيلتا الأوس والخزرج الذين يسكنون في المدينة سمعوا كثيرًا عن قرب مبعث نبي، فهم مُهَيَّؤون لخبر مبعثه، وبالتالي فهذا أدعىٰ لقبول خبر بعثته والاستجابة له.

وعلىٰ هذا فللموقع الجغرافي، وللبيئة الاجتماعية لقبيلتي الأوس والخزرج، ونشأتهم علىٰ الأخلاق العربية وكونهم أكثر تواضعًا وأرق قلوبًا من غيرهم، ثم لذهاب رؤسائهم الذي كانوا يُمكن أن يقودوا جبهة الاعتراض علىٰ الدعوة. وأصبح الأمر بعد ذلك بيد الشباب الذين هم أكثر قبولًا للجديد، ولِما يصح ويستقيم في أذهانهم، ولوجود اليهود الذي كانوا يتحدَّثون عن قرب مبعث نبي، وكل هذا مِن لطف الله وتدبيره -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨]؛ وقد كان من حكمته -جل شأنه- أن أبقىٰ عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي أوشك الأوس والخزرج علىٰ تتويجه، ليكون مُذَكِّرًا بنعمة الله -جل شأنه- في زوال أمثاله من طريق الدعوة، فقد شرق بهذه الدعوة، وحسد وحقد علىٰ الرسول ﷺ، وتآمر مع اليهود والمشركين، وتزعَّم فئة المنافقين في المدينة حتىٰ أهلكه الله -سبحانه وتعالىٰ-.

يقول السمهودي -رحمه الله تعالىٰ-: (قدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول، كان من الخزرج.. لا يختلف في شرفه في قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده علىٰ رجل من أحد الفريقين حتىٰ جاء الإسلام غيره، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفي، وهو والد حنظلة الغسيل، وكان قد ترهَّب ولبس المسوح، فشقيا بشرفهما؛ أما عبد الله بن أبي فلما انصرف عنه قومه إلىٰ الإسلام ضغن ورأىٰ أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلكًا، فلما رأىٰ قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مُصِرًّا علىٰ نفاق

وضغن، فكان رأس المنافقين، وإليه يجتمعون)[1].

ثانيًا: لم تكن الهجرة إلىٰ المدينة سياحة، ولم تكن المدينة بلدًا سياحيًّا يقصده المتنزهون، ولم تكن مكة أرض وباء؛ ليفرح المهاجرون بخبر الخروج منها، وإنما جاء أمر الهجرة تكليفًا من تكاليف العقيدة التي آمنوا بها، وضرورة استلزمتها طبيعة رسالة الإسلام ووجوب إبلاغها[2].

خرج الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وتركوا الأهل والولد والمال والوطن، لقد كان الأمر قاسيًا قسوة لا تُتصوّر، لكن الحفاظ علىٰ العقيدة لا يُقدَّر بثمن.

ليس من اليسير علىٰ الشخص أن يخرج من وطنه، والنفس فُطرت علىٰ التعلق بالوطن ومحبته، والحنين إليه، وقد جاء ذكر الوطن في القرآن الكريم في عدة مواضع؛ قال -تعالىٰ-: ﴿قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦]. فانظر كيف بدأوا بالدار قبل الأبناء، وفرعون لما أراد إثارة قومه ضد موسىٰ -عليه السلام- حرّك مشاعرهم تجاه أمر مهم عليهم وهو ديارهم؛ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥]؛ لأنه يعلم أن لن يحرّك قومه مثل تخويفهم بأن موسىٰ يتآمر عليهم لكي يستولي علىٰ ديارهم، ويخرجهم منها، وتكرر هذا المعنىٰ في قصة موسىٰ -عليه السلام- مع فرعون في عدد من آي القرآن الكريم، قال -تعالىٰ-: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه:٦٣].

(١) السمهودي، وفاء الوفاء (١/ ١٧٢-١٧٣).

(٢) انظر: سليمان العودة، السيرة النبوية في الصحيحين (ص ٣٥١).

ومع الوطن فقد ترك الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- أيضًا أهلهم وأولادهم إلا قلة منهم استطاعوا الخروج بزوجاتهم وأولادهم، وهم قليلون بالنسبة لمجموع المهاجرين -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، وتركوا أموالهم، وتسابق كفار قريش علىٰ الاستيلاء عليها فور علمهم بخروج الصحابي إلىٰ المدينة.

ولأجل هذه التضحيات كان شأن المهاجرين عظيمًا عند الله -جل شأنه-؛ نوَّه به القرآن الكريم مرارًا، قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة:٢١٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل:٤١]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠]، ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر:٨]، وغيرها من الآيات الدالة علىٰ فضلهم ومنزلتهم وعظيم تضحيتهم؛ فرضي الله عنهم وأرضاهم وحشرنا في زمرتهم.

ثالثًا: في الهجرة ومفارقة الأهل والوطن والمال، درس في المحبة، فالشخص يحب -بلا شك- أهله ووطنه وماله، وعندما ينازعه عن هذه المحبة محبة أخرىٰ، فأيّهما التي تغلب يكون لها الأثر في السلوك. فمن هاجر إلىٰ الله ورسوله ﷺ، فهذا يعني أنه قدَّم محبة الله -جل شأنه- ومحبة رسوله ﷺ، علىٰ محبة الأهل والوطن والمال. وهذا ليس خاصًّا بالهجرة، بل هو سلوك مستمر مع المؤمن في صغار أمور المؤمن وكبارها، فالصدقة بالمال -مثلًا- هي نزاع بين محبة المال ومحبة الله -سبحانه-، فإذا شحّ بماله، فقد غلبت محبة المال، وإذا انتصر وتصدق، فقد غلبت محبة الله علىٰ محبة المال.

وترك الانتصار للنفس والعفو عن مَن ظلمك هو تغليب لمحبة الله -جل شأنه- علىٰ محبة النفس؛ لأن النفس تحبّ الانتصار، والله -جل شأنه- يحب منك العفو.

وابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- يقول: (إن تقديم ما تحبه النفس علىٰ ما يحبه الله من علامات مرض القلب)، وهذا مؤشر ليس بالسهل، وعكس ذلك انتصار وقوة إيمان، فاستحضر دائما أن من أعظم العبادات تعظيم وتقديم محبة الله -جل شأنه-، علىٰ سائر المحابّ مهما كانت.

رابعًا: مبادرة الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين- إلىٰ امتثال أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلىٰ المدينة، ولم يتخلف إلا من رغب الرسول ﷺ في بقائه أو حُبس أو له عذر أو غير ذلك، وهم قلة. هذا يذكّرنا اليوم بوجوب المبادرة إلىٰ امتثال أمر الرسول ﷺ؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

خامسًا: قول الرسول ﷺ: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا، ودارًا تأمنون بها». هذا هو شأن المؤمنين في كل زمان ومكان، بعضهم أولياء بعض، فما أن يُؤذَىٰ مؤمن في أرض ويُضيَّق عليه، إلا وعلىٰ إخوانه في بلاد آمنة أن يؤوه، ويعلموا أنهم كالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له بقية الجسد بالحمىٰ والسهر.

سادسًا: الكفار غايتهم إطفاء نور الله، وهاهم هنا يؤذون المؤمنين، ولما أرادوا ترك الديار لهم والفرار بدينهم، منعوهم، وسعوا إلىٰ إعادة من خرج منهم، كما فعل أبو جهل وأخوه بأخيهم من أمهم عياش بن أبي ربيعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقد لاحقوه إلىٰ المدينة، وخدعوه وكذبوا عليه، ثم أوثقوه وأدخلوه إلىٰ مكة أمام الناس جهارًا بطريقة مهينة مُوثَّقًا بالحبال. والكفر ملة واحدة مهما اختلف الزمان أو تباعد المكان.

سابعًا: في قصة هجرة أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- مع زوجها أبي سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- دروس عديدة:

أولها: إن أبا سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- لما خرج مهاجرًا، اعترضه الكفار، وسلبوه زوجته وولده، ومع ذلك لم يتراجع ولم يُثنه ذلك عن عزيمته علىٰ الهجرة، ما أصعبه من موقف، وما أقساه!! لكنَّ للإيمان طعمًا يَنْسَىٰ صاحبُه من أجله كلَّ شيء.

ثانيها: البلاء العظيم الذي أصاب أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- في زوجها وفي ولدها، فزوجها هاجر وتركها، وولدها أخذه أعمامه، بعد أن خلعوا كتفه أمامها، ولا تدري عن حاله، وهي عادت كالأسيرة إلىٰ بيت بعض أقاربها. وتبقىٰ علىٰ هذه الحالة تبكي كل يوم قرابة العام، دون أن تجد رحمة من هؤلاء الفجار، إلىٰ أن بعث الله لها بعض بني المغيرة بعد مضي قرابة العام وهي علىٰ هذه الحالة، فلامهم علىٰ هذه الفجور والظلم بشأن امرأة ضعيفة مسكينة لا حول لها ولا طول.

ثالثها: كيف لشخص أن يتصور أن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- تهاجر وحيدة من مكة إلىٰ المدينة، وليس معها إلا طفل علىٰ بعير لمسافة تصل إلىٰ أربعمائة كيلو. ومع ذلك أقدمت علىٰ ذلك متوكلة علىٰ الله -جل شأنه-.

رابعها: موقف عثمان بن طلحة بن أبي طلحة -وهو لا يزال علىٰ شركه- عندما رآها ستهاجر بمفردها، لم يتركها، وهل الأمر سهل؟ لا والله. فقد أمسك بخطام ناقتها يقودها، هو يمشي وهي راكبة، لمسافة ٤٠٠ كيلو من مكة إلىٰ المدينة، إذا تعبوا أناخ لها بعيرها وربطه في شجرة وابتعد عنها، حتىٰ أوصلها ديار زوجها، ثم عاد أدراجه إلىٰ مكة، وهو لا يبتغي بذلك أجرًا عند الله؛ لأنه مشرك كافر، وإنما نخوة عربية، وخُلُق عظيم نشأ عليه العرب، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ كما في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(١).

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٤/ ٥١٣) رقم (٨٩٥٢). وقال محقق المسند: «صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث. وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، والبزار (٢٤٧٠- كشف الأستار)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٤٣٢)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»=

فالعرب كانت لديهم أخلاق عظيمة، ومنها ما رأيناه من عثمان هذا، وجاء الإسلام ليرسّخها ويثيب عليها، ويجعلها من أهم الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

وإذا استحضرنا مع هذه المعاناة والأذىٰ والفُرْقة التي أصابت أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وبُعدها عن ولدها وزوجها، ثم هجرتها إلىٰ المدينة، أنها سبق أيضًا أن هاجرت مع زوجها إلىٰ الحبشة فرارًا بدينهما، ورُزقت هناك بولدها سلمة الذي كان معها أثناء الهجرة إلىٰ المدينة، وأنها عادت مع زوجها من الحبشة بعد سماعهما خبر بيعة العقبة.

لقد كانت قصة هجرة أبي سلمة وأم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنهما- كما تقول عائشة بن عبد الرحمن (بنت الشاطئ): (كانت قصة خروجهما مأساة ما تزال، علىٰ بُعد العهد وتطاول الآماد، مثيرة أليمة الوقع)[1].

حقًّا!! إن في هجرة أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- مع زوجها -رضي الله تعالىٰ عنه-، دروسًا عظيمة لفتياتنا. فيا ليت سيرتها تُدرَّس لبناتنا في مدارس البنات لتكون قدوةً وأُسوة صالحة لهن.

=(ص ٢)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٩١-١٩٢)، وفي «الشعب» (٧٩٧٨) من طرق عن سعيد بن منصور، بهذا الإسناد. في رواية البزار «مكارم الأخلاق...».

(١) عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة -رضي الله تعالى عنهن- (القاهرة: دار الحديث)، (ص٢٤٨).

فهرس الموضوعات

۞ الفصل الأول ۞

۞ الفصل الثاني ۞

۞ الفصل الثالث ۞

الفصل الرابع